القارئ الهجين:
نحو نظرية للتلقي الخوارزمي
والقراءة ما بعد الخوارزمية :
دراسة نقدية نظرية

إنجاز الكاتب المغربي
عبده حقي

تقديم

من «الكاتب الهجين»

إلى «القارئ الهجين»:

نحو استكمال مشروع نقدي في الأدب والخوارزمية

أقدم هذا الكتاب، »**القارئ الهجين: نحو نظرية للتلقي الخوارزمي والقراءة ما بعد الخوارزمية**«، بوصفه امتدادًا فكريًا ونقديًا مباشرًا لكتابي السابق حول »**الكاتب الهجين**«، لا باعتباره مشروعًا منفصلًا عنه أو انتقالًا عابرًا من موضوع إلى آخر، لأن السؤال الذي انطلقت منه في الحالتين واحد في جوهره، وإن اختلف موقع النظر إليه: ماذا يحدث للأدب ولعمليتي الكتابة والقراءة عندما تدخل الخوارزميات وأنظمة الذكاء الاصطناعي إلى المجال الذي كان يُنظر إليه طويلًا باعتباره حقلًا بشريًا خالصًا للإبداع والتأويل؟ ففي كتابي السابق كنت أقترب من النص من جهة إنتاجه، وأسائل التحولات التي تصيب صورة الكاتب عندما يستعين بالآلة في البحث والتخطيط والصياغة والمراجعة والتوليد، أما في هذا الكتاب فإنني أنتقل إلى الجهة المقابلة من العملية الأدبية لكي أسأل عن القارئ الذي يستقبل نصًا داخل بيئة أصبحت الخوارزمية فيها حاضرة قبل القراءة وأثناءها وبعدها.

وقد أدركت، وأنا أشتغل على مفهوم »**الكاتب الهجين**«، أن المشروع سيظل ناقصًا إذا توقفت عند لحظة إنتاج النص، لأن الأدب لا يكتمل داخل الكتابة وحدها، والنص الذي تتغير شروط تأليفه لا يمكن أن يدخل إلى فضاء التلقي وكأن شيئًا لم يتغير. فإذا أصبح الكاتب قادرًا على توزيع بعض وظائف الكتابة بينه وبين أدوات رقمية وأنظمة ذكاء اصطناعي، فإن القارئ بدوره أصبح قادرًا على توزيع بعض وظائف القراءة بين ذاكرته ومعرفته وقدرته التأويلية وبين محركات البحث والترجمة الآلية والتلخيص وأنظمة التوصية والمساعدات التوليدية. ومن هنا بدا لي أن الانتقال من

الكاتب الهجين إلى القارئ الهجين ليس انتقالًا بين كتابين فحسب، بل انتقال من نصف الدورة الأدبية إلى نصفها الآخر، ومحاولة لبناء رؤية أكثر شمولًا لما يمكن أن أسميه الثقافة الأدبية الهجينة.

لقد كان السؤال في الكتاب الأول متعلقًا أساسًا بحدود التأليف: متى تظل الأداة مساعدة للكاتب، ومتى تبدأ في مزاحمته داخل الوظيفة التي تمنحه صفة المؤلف؟ وما الفرق بين كاتب يستخدم الذكاء الاصطناعي في البحث أو المراجعة، وكاتب يفوض إليه البناء والتوليد إلى درجة يصبح فيها دوره أقرب إلى الاختيار والتحرير؟ وقد قادني ذلك إلى التفكير في النقد الميتا خوارزمي والنقد ما بعد الخوارزمي بوصفهما أفقين نقديين ضروريين لتحليل النصوص التي تدخل الخوارزمية في شروط إنتاجها. غير أن هذا المسار كشف في الوقت نفسه عن سؤال آخر ظل يزداد إلحاحًا: ماذا عن الطرف الذي يستقبل هذه النصوص؟ ماذا يحدث للقارئ نفسه عندما تصبح الآلة قادرة على أن تشرح له العمل وتلخصه وتقارنه بغيره وتجيب عن أسئلته وتولد له تأويلات محتملة؟

ومن هنا جاء كتاب »القارئ الهجين« بوصفه استكمالًا طبيعيًا لذلك المشروع. فإذا كان الكتاب السابق ينطلق من صيغة يمكن تبسيطها في العلاقة:

الكاتب البشري + الأداة الخوارزمية → الكاتب الهجين

فإن الكتاب الحالي ينتقل إلى الصيغة المقابلة:

القارئ البشري + الأداة الخوارزمية → القارئ الهجين

غير أنني سرعان ما وجدت أن الصيغتين لا تعملان منفصلتين، لأن الكاتب الهجين ينتج نصًا يدخل إلى فضاء قد يكون هو الآخر خوارزميًا، ثم يستقبله قارئ هجين يستخدم التقنية لفهمه، ويعيد بعد القراءة إنتاج مراجعات وتعليقات وتأويلات يمكن أن تدخل مجددًا في الخوارزميات التي تنظم الرواج

والتوصية. وهكذا لم تعد المسألة متعلقة بعلاقتين منفصلتين، بل بدورة كاملة تتداخل فيها الكتابة والنص والقراءة والخوارزمية والنقد.

لهذا أصبحت العلاقة بين الكتابين، بالنسبة إلي، أكثر وضوحًا كلما تقدمت في البحث، إذ إن »الكاتب الهجين «يسأل عما يحدث قبل اكتمال النص، بينما يسأل »القارئ الهجين «عما يحدث بعد أن يدخل النص إلى التداول، وبينهما يقف مفهوم ثالث أصبح ضروريًا هو »النص الهجين«، أي النص الذي تحمل جينالوجيا إنتاجه أو بنيته أو طريقة تفاعله مع المتلقي آثارًا بشرية وتقنية متداخلة. ومن هنا يمكن التعبير عن المشروع الذي أعمل عليه في صورته الأوسع بالعلاقة التالية:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين

لكن هذه الصيغة نفسها لا تكتمل من دون العنصر الرابع، لأن العلاقات الجديدة تحتاج إلى نقد يستطيع أن يقرأها ويفككها، ولذلك أضيف إليها:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين ↔ النقد الهجين

وبهذا المعنى لا أرى كتاب »القارئ الهجين «عملًا ثانيًا يأتي بعد كتاب »الكاتب الهجين «في ترتيب زمني فقط، بل أراه الجزء المكمل لمشروع يحاول إعادة التفكير في السلسلة الأدبية كلها بعد دخول الذكاء الاصطناعي إليها. فقد اعتدنا أن ننظر إلى الأدب ضمن حركة تبدأ بالكاتب، وتمر بالنص، ثم تصل إلى القارئ والنقد، أما البيئة الخوارزمية فقد جعلت هذه الحركة أكثر دائرية وأقل استقرارًا، لأن القارئ قد يصبح منتجًا، والكاتب يصبح قارئًا لمقترحات الآلة أثناء الكتابة، والمنصة تتوسط بين النص والجمهور، والخوارزمية تتعلم من التلقي لكي تعيد تنظيم التوزيع، بينما يعود النقد ليستخدم الأدوات نفسها التي يحاول مساءلتها.

وإذا كان مشروع **الكاتب الهجين** قد جعلني أفكر في كيفية توزيع وظائف الكتابة، فإن مشروع **القارئ الهجين** جعلني أعود إلى السؤال نفسه من الجهة المقابلة: كيف تتوزع وظائف القراءة؟ وهل ما زلنا نستطيع تعريف القارئ بأنه ذلك الفرد الذي يفتح الكتاب ويستقبل العلامات ثم يبني معناها داخله، بينما يمكن لنظام خارجي اليوم أن يختار له ما سيقرأ، ويقدم له الخلفية، ويترجم ، ويلخص، ويشرح، ويولد مقارنات وتأويلات؟ لقد وجدت أن التمييز لم يعد قائمًا بين قارئ «تقليدي» وقارئ «رقمي» فقط، لأن استخدام الشاشة لا يغير بالضرورة بنية الفهم ، بينما تستطيع أدوات الذكاء الاصطناعي أن تدخل إلى صميم العملية المعرفية نفسها ، ولذلك كان لا بد من التمييز بين **رقمنة القراءة وتهجين القراءة.**

ومن هنا اقترحت أن يكون **القارئ الهجين** هو القارئ الذي تتوزع بعض وظائف قراءته، بدرجات متفاوتة، بين قدراته البشرية وبين وسائط رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي، مع احتفاظه بالمسؤولية عن الحكم النهائي. وهذا التحديد يتوازى بصورة مقصودة مع مفهوم الكاتب الهجين، لأنني لا أريد في المشروعين أن تتحول الهجنة إلى اسم لمحو الإنسان، بل إلى مفهوم يصف **توزيع الوظائف من دون توزيع المسؤولية بالدرجة نفسها** . فالكاتب يستطيع أن يستعين بالآلة في التوليد ، لكنه يظل مسؤولًا عن النص الذي يختار نشره، والقارئ يستطيع أن يستعين بها في التأويل، لكنه يظل مسؤولًا عن القراءة التي يتبناها ويدافع عنها.

ولهذا تقوم العلاقة بين الكتابين على مبدأ واحد أراه حاسمًا :**الهجنة ليست استبدالًا للإنسان، وإنما إعادة توزيع لبعض الوظائف داخل علاقة جديدة بين الإنسان والتقنية** .وإذا تجاوز التوزيع حدودًا تجعل الكاتب لا يعرف ما الذي كتبه ولماذا ، أو تجعل القارئ غير قادر على تفسير ما قبله من النظام ، فإننا لا نكون أمام هجنة نقدية ناضجة، بل أمام شكل من الاستبدال أو التبعية. ومن هنا كان مفهوم **السيادة التأويلية** في كتاب القارئ الهجين امتدادًا طبيعيًا لمفهوم المسؤولية التأليفية في مشروع الكاتب الهجين.

وقد قادني هذا الترابط إلى نتيجة أخرى أعتبرها من أهم ما يجمع المشروعين، وهي أن الذكاء الاصطناعي لا يدخل إلى الأدب من باب واحد. فهو لا يقف فقط بجوار الكاتب في لحظة الكتابة، ولا بجوار القارئ في لحظة التلقي، بل يمكن أن يحضر في كل مراحل الدورة الأدبية :قبل النص في البحث والتوليد، وفي النص من خلال بعض أشكال الهجنة الإنتاجية أو البنائية، وقبل القراءة من خلال أنظمة التوصية، وأثناء القراءة من خلال التلخيص والشرح والحوار التوليدي، وبعد القراءة من خلال التقييم والمراجعة وإعادة التوصية. ومن هنا لا تعود الخوارزمية أداة خارج العملية الأدبية، بل تصبح بنية يمكن أن تمتد عبر حلقاتها المختلفة.

وهذا هو السبب الذي دفعني في الكتاب الحالي إلى توسيع نظرية التلقي نفسها. ففي مشروع الكاتب الهجين كان السؤال: ما الذي يحدث للمؤلف عندما تدخل الآلة في الإنتاج؟ أما هنا فقد صار السؤال: ما الذي يحدث لأفق انتظار القارئ عندما تتدخل الخوارزمية في اختيار ما يصل إليه قبل أن يقرأه؟ ومن هنا اقترحت مفهوم »**التلقي الخوارزمي** «و**«أفق الانتظار الخوارزمي»**، لأنني وجدت أن التوصية لم تعد مجرد إعلان عن كتاب، بل قد تصبح جزءًا من التوقع السابق للقراءة، فإذا قيل للقارئ إن رواية ما «تشبه» رواية أحبها، فهو يدخل إليها من زاوية قد تكون صاغتها الخوارزمية قبل أن يفتح الصفحة الأولى.

ثم انتقلت من ذلك إلى »**القراءة الحوارية** «و**«التأويل التوليدي»**، لأن الذكاء الاصطناعي لم يعد يكتفي بوضع النص أمام القارئ، بل أصبح قادرًا على الدخول في محادثة حوله. وهنا ظهر أمامي الاختلاف الأهم بين مشروع الكاتب ومشروع القارئ: في الكتابة يشارك النظام في إنتاج الصياغة، بينما في القراءة يشارك في إنتاج الاحتمالات التأويلية .وفي الحالتين لا أتعامل معه بوصفه ذاتًا بشرية ثانية، بل بوصفه فاعلًا وسيطيًا وظيفيًا يستطيع أن يؤثر في النتيجة دون أن يمتلك تجربة الكاتب أو القارئ أو مسؤوليتهما.

وأعتقد أن هذه النقطة هي التي تمنح المشروعين تماسكهما النظري؛ فالآلة، بالنسبة إلي، لا تصبح كاتبًا بالمعنى الإنساني لمجرد قدرتها على توليد نص، كما لا تصبح قارئًا بالمعنى الإنساني لمجرد قدرتها على إنتاج تفسير. الإنسان يكتب من داخل تاريخ وذاكرة ومشروع وقصد ومسؤولية، ويقرأ من داخل تجربة ووعي وسيرة وموقع ثقافي، بينما تنتج الآلة مخرجات من داخل عمليات معالجة وتوليد. ومن هنا يمكن أن نتحدث عن وظيفة تأليفية اصطناعية أو وظيفة تأويلية اصطناعية، لكن ينبغي ألا نقفز من الوظيفة إلى المساواة الأنطولوجية بين الإنسان والنظام.

لهذا ظل مبدأ **التكامل المعرفي غير المتماثل** هو الخيط الذي يصل الكتابين؛ فالكاتب والآلة يمكن أن يتكاملا دون أن يصبحا الشيء نفسه، والقارئ والآلة يمكن أن يتعاونا دون أن يتقاسما المسؤولية بالطريقة نفسها. فالآلة تستطيع أن تقترح، والإنسان يستطيع أن يختار أو يرفض؛ تستطيع أن توسع المجال، لكنه هو الذي يمنح هذا التوسع غايته؛ تستطيع أن تعيد تركيب مواد ثقافية كثيرة، لكنه هو الذي يدخل إليها من موقع في العالم ويتحمل نتيجة تحويلها إلى كتابة أو قراءة.

وقد أدركت كذلك، خلال إنجاز هذا الكتاب، أن **القارئ الهجين** يعود بدوره ليغير **الكاتب الهجين**؛ فحين يصبح المؤلف واعيًا بأن القراء سيقرؤون عمله عبر أدوات تلخيص وترجمة وتأويل آلي، فإن تصوراته عن النص نفسه قد تتغير. قد يسأل عن مصير الغموض الأدبي في بيئة تميل إلى الشرح، وعن مصير الأسلوب في بيئة التلخيص، وعن كيفية استقبال النصوص التي تنتقل آليًا بين اللغات، وعن العلاقة بين ما يكتبه وبين التأويلات التي ستولدها الأنظمة حوله. ومن هنا لا تسير العلاقة من الكاتب إلى القارئ في اتجاه واحد، بل يبدأ كل طرف في إعادة تشكيل الآخر داخل البيئة الجديدة.

ويظهر هنا مفهوم »النص الهجين «بوصفه حلقة ضرورية بين المشروعين؛ فالنص لم يعد مجرد نتيجة صامتة لعملية كتابة ثم موضوعًا لعملية قراءة منفصلة، بل يمكن أن يحمل آثار أدوات الإنتاج ويُقدَّم عبر عتبات خوارزمية ويُقرأ عبر شروح توليدية، ولذلك تتضاعف حياته التقنية قبل القراءة وأثناءها وبعدها. ومن هنا يصبح السؤال النقدي ليس فقط «من كتب النص؟» أو «ماذا يعني؟»، بل كذلك «ما مسار الوساطة الذي مر به؟.«

وتقود هذه الأسئلة جميعًا إلى ضرورة النقد الهجين الذي أراه المآل الطبيعي للمشروع كله. فإذا كان لدي كاتب هجين ونص هجين وقارئ هجين، فلا يمكن للنقد أن يظل يتصرف كما لو أنه يواجه نصًا منعزلًا عن الخوارزميات التي شاركت في إنتاجه أو توزيعه أو تفسيره. ولهذا فإن النقد الميتا خوارزمي الذي بدأت التفكير فيه مع مشروع الكاتب الهجين يجد في كتاب القارئ الهجين مجالًا أوسع وأشد ضرورة، لأنه لا يكتفي بتحليل حضور الذكاء الاصطناعي في الكتابة، بل يتابع الخوارزمية من مرحلة الإنتاج إلى مرحلة التلقي، ويفحص أنظمة التوصية والمحفزات والمخرجات التوليدية ومصادر الأجوبة وتحيزاتها.

أما النقد ما بعد الخوارزمي فيمثل بالنسبة إلي الأفق الأكثر استشرافًا للمشروعين معًا، لأنه يطرح السؤال عما سيحدث عندما يصبح تدخل الخوارزمية في الكتابة والقراءة اعتياديًا إلى درجة يتراجع معها وعي الإنسان بأنه يستخدم أداة منفصلة. وعندها ستكون مهمة النقد أصعب؛ لن يكتفي بكشف الخوارزمية بوصفها جسمًا ظاهرًا، بل سيحتاج إلى دراسة الثقافة نفسها بعد أن تصبح الوساطة الخوارزمية جزءًا من بنيتها المحيطية.

ومن هنا أستطيع الآن أن أنظر إلى كتاب »الكاتب الهجين «وكتاب »القارئ الهجين «باعتبارهما حلقتين داخل مشروع واحد، يمكن تلخيصه في الانتقال من سؤال:

كيف يكتب الإنسان مع الآلة؟

إلى سؤال:

كيف يقرأ الإنسان مع الآلة؟

ثم إلى السؤال الأشمل:

ماذا يحدث للأدب عندما تدخل الآلة في إنتاج النص وتداوله وقراءته ونقده في آن واحد؟

وهذا السؤال الأخير هو الذي يجعل المشروع مفتوحًا أمام كتب ودراسات لاحقة، لأن الوصول إلى مفهوم القارئ الهجين لم يغلق الدائرة، بل كشف عن ضرورة إعادة التفكير في النص الهجين والنقد الهجين والثقافة الهجينة نفسها.

ولهذا لا أقدم كتاب »القارئ الهجين «بوصفه مجرد الجزء الثاني من كتاب سابق، بل باعتباره الوجه المقابل والضروري له. فإذا كان الكاتب الهجين يقف عند لحظة تكوين النص، فإن القارئ الهجين يقف عند لحظة إعادة تكوين المعنى، وبين اللحظتين تتحرك الخوارزمية من الإنتاج إلى التلقي، وتتحول من أداة كتابة إلى وسيط قراءة، ومن مولد للصياغة إلى مولد للاحتمالات التأويلية.

وأنا إذ أضع الكتابين داخل هذا المسار، لا أريد أن أصل إلى تصور تصبح فيه الثقافة بشرية ـ آلية بالمعنى الذي يلغي الحدود ، بل أريد أن أبني لغة نقدية تساعدنا على فهم هذه الحدود الجديدة؛ أين تنتهي المساعدة ويبدأ الاستبدال، وأين يتحول التوسع إلى اعتماد ، وأين يصبح التخصيص تضييقًا ، وأين تتحول السرعة من مكسب إلى اختزال. فالأسئلة التي واجهتني مع الكاتب الهجين تعود اليوم مع القارئ الهجين بصيغة مختلفة، لكن مبدأ الإجابة واحد :التكنولوجيا توسع الفاعلية البشرية حين يبقى الإنسان

قادرًا على معرفة ما فوضه إليها، ولماذا فوضه، وكيف يستعيد القرار عندما يحتاج إليه.

ويجتمع المشروعان، في نهاية المطاف، داخل منظومة أراها قابلة لأن تشكل أحد مداخل النقد الأدبي في المرحلة المقبلة:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين ↔ النقد الهجين

ولا تعمل هذه العناصر في الفراغ، بل داخل:

الخوارزميات ↔ المنصات ↔ البيانات ↔ السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية.

وبهذا المعنى فإن كتاب »القارئ الهجين: نحو نظرية للتلقي الخوارزمي والقراءة ما بعد الخوارزمية «لا يبدأ من الصفر، بل يحمل وراءه أسئلة الكاتب الهجين ويمدها إلى الطرف الآخر من العملية الأدبية، ثم يعيدها في نهاية المطاف إلى النقد نفسه. لقد بدأت بسؤال عن الكاتب الذي يكتب مع الآلة، ووصلت إلى قارئ يقرأ معها، ثم اكتشفت أن المعنى الحقيقي للمشروع لا يوجد عند أي واحد منهما منفردًا، بل في العلاقة الجديدة التي بدأت تتشكل بين الكاتب والنص والقارئ والخوارزمية والنقد.

وهذا هو الرهان الذي أضعه أمام القارئ منذ الصفحات الأولى لهذا الكتاب: أن ننظر إلى الذكاء الاصطناعي لا بوصفه حادثًا تقنيًا يمر بجوار الأدب، بل بوصفه تحولًا يعيد ترتيب بعض علاقات الأدب الداخلية، وأن نمتلك في الوقت نفسه ما يكفي من المسافة النقدية لكي لا نخلط بين التعاون والاستبدال، وبين التوليد والإبداع الإنساني، وبين الاقتراح والتأويل، وبين فاعلية النظام ومسؤولية الإنسان.

ففي كتاب »الكاتب الهجين «كنت أسأل :ما الذي يبقى من الكاتب عندما تشارك الآلة في الكتابة؟ أما في هذا الكتاب فإنني أسأل :ما الذي يبقى من القارئ عندما تشارك الآلة في القراءة؟ وبين السؤالين يتشكل، في تقديري،

أحد أهم أسئلة الأدب في عصر الذكاء الاصطناعي :كيف نحافظ على إنسانية الكتابة والقراءة لا بعزل الإنسان عن التقنية، بل بجعل علاقته بها أكثر وعيًا ونقدًا ومسؤولية؟

الكاتب المغربي : عبده حقي

المقدمة العامة

من تحولات الكتابة إلى تحولات القراءة

عرفت الثقافة المكتوبة خلال العقود الأخيرة تحولات متسارعة لم تعد تقتصر على انتقال النص من الورق إلى الشاشة، ولا على ظهور الكتاب الإلكتروني بوصفه نسخة رقمية من الكتاب المطبوع، وإنما امتدت إلى البنية العميقة التي تنتج فيها النصوص وتنتشر وتكتشف وتقرأ وتفهم وتفسر. فقد أصبحت الكتابة جزءاً من بيئة شبكية تتداخل فيها قواعد البيانات ومحركات البحث والمنصات الاجتماعية والخوارزميات وأنظمة التوصية، قبل أن يدخل الذكاء الاصطناعي التوليدي إلى هذه البيئة فيغير موقع التقنية من أداة خارجية تساعد على الوصول إلى النص إلى وسيط قادر على إنتاج خطاب حول النص نفسه، من خلال التلخيص والترجمة والشرح والمقارنة وإعادة الصياغة واقتراح احتمالات للمعنى. وإذا كانت الدراسات النقدية والثقافية قد اهتمت خلال المرحلة الأولى من التحول الرقمي بمصير الكتابة والنص والمؤلف، فإن التحول الذي نعيشه اليوم يفرض نقل السؤال إلى الطرف الآخر من العملية الأدبية والمعرفية، أي إلى القارئ، لأن ما يتغير في الكتابة لا يمكن أن يظل بلا أثر في فعل القراءة، وما يحدث للنص داخل البيئة الخوارزمية لا بد أن يعيد تشكيل العلاقة التي يقيمها المتلقي معه.

ينطلق هذا الكتاب من فرضية عامة مفادها أن القارئ المعاصر لم يعد، في عدد متزايد من ممارساته، يواجه النص منفرداً بالمعنى الذي افترضته كثير من نظريات القراءة والتلقي في القرن العشرين، وإنما أصبح يقرأ داخل منظومة تتدخل فيها الشاشة والواجهة ومحرك البحث والمنصة والتوصية والترجمة الآلية والذاكرة الرقمية والمساعد التوليدي. وهذه العناصر لا تعمل جميعها بالمستوى نفسه ولا تؤدي الوظيفة ذاتها، كما أن وجودها لا يجعل كل قراءة معاصرة قراءة هجينة بالضرورة، غير أنها تجعل إمكان الهجنة جزءاً من البيئة التي يتحرك داخلها القارئ. فهناك فرق بين قارئ يقرأ رواية

إلكترونية على شاشة من دون أن تتدخل التقنية في عملية فهمه، وقارئ يقرأ النص نفسه ثم يستخدم أدوات البحث لاستعادة سياقه، والترجمة لفهم بعض عباراته، ونظامًا توليديًا لمناقشة بنيته أو مقارنة تأويلاته، قبل أن يعود إلى الأصل ليختبر ما تلقاه من هذه الأدوات. في الحالة الأولى يكون التحول مرتبطًا أساسًا بحامل النص، أما في الثانية فإنه يصل إلى بعض الوظائف المعرفية التي تتكون منها القراءة.

ومن هنا يطرح الكتاب مفهوم »**القارئ الهجين** «بوصفه أداة نظرية لمحاولة فهم هذا الوضع الجديد، لا بوصفه تسمية احتفالية لكل من يستخدم التقنية، ولا باعتباره إعلانًا عن نهاية القارئ الإنساني أو حلول الآلة محله. فالهجنة التي يقصدها البحث لا تقوم على مزج الإنسان بالآلة في معنى وجودي، بل على توزيع بعض وظائف القراءة بين قدرات بشرية ووسائط تقنية، بحيث يظل الإنسان صاحب التجربة والمسؤولية والحكم، بينما تستطيع الأدوات أن تؤدي أدوارًا في البحث والاسترجاع والتنظيم والتلخيص والترجمة والمقارنة، وقد تصل في بعض الحالات إلى توليد فرضيات تأويلية تدخل في المسار الذي يبني القارئ من خلاله معنى النص. ويصبح السؤال الذي يقود هذا المشروع هو: ماذا يحدث للقراءة عندما لا تعود التقنية مجرد وسيط لعرض النص، بل تدخل بدرجات متفاوتة إلى البنية المعرفية التي يستعملها القارئ في اختياره وفهمه وتأويله؟

إن التفكير في هذا السؤال يقتضي العودة إلى تاريخ العلاقة بين النص والقارئ، لكنه يقتضي كذلك تجاوز الثنائية التي حكمت قسمًا كبيرًا من النقد الأدبي، لأن البيئة المعاصرة تكشف عن وجود أطراف وسيطة لا يمكن التعامل معها بوصفها قنوات محايدة. فقد نقلت نظريات التلقي القارئ من موقع المستقبل السلبي إلى موقع الفاعل في إنتاج المعنى، وأظهرت أعمال ياوس وإيزر وإيكو وفيش أن القراءة ليست مجرد استعادة لرسالة جاهزة، وإنما نشاط تاريخي وتأويلي واجتماعي تتداخل فيه توقعات القارئ وكفاءاته والجماعات التي ينتمي إليها. غير أن هذه النظريات تشكلت قبل ظهور أنظمة قادرة على بناء ملفات تفضيلات، وترتيب ما يراه المستخدم، وتقديم توصيات

شخصية، ثم توليد إجابات لغوية مخصصة لسؤاله. ومن ثم فإن السؤال لا يتعلق بإسقاط تلك النظريات، بل بتوسيع مجالها حتى تستطيع التعامل مع وسيط جديد دخل إلى المسافة التي يتشكل فيها المعنى بين النص والقارئ.

تسعى هذه المقدمة إلى تأسيس هذا التحول عبر ستة محاور مترابطة: تبدأ بسياق البحث وتحول الثقافة المكتوبة، ثم تنتقل إلى إشكالية العلاقة الجديدة بين النص والقارئ، قبل تحديد أسئلة البحث وفرضياته، ثم ضبط الجهاز المفاهيمي الذي سيشتغل به الكتاب، وأخيراً تحديد المنهج والمدونة التي تسمح بتحويل مفهوم القارئ الهجين من حدس نقدي إلى نموذج قابل للفحص والمراجعة.

سياق البحث

الثورة الرقمية وتحولات الثقافة المكتوبة

لا يمكن فهم القارئ الهجين من دون وضعه داخل التاريخ الأوسع لتحولات الثقافة المكتوبة، لأن القراءة لا تتغير بمعزل عن الحوامل والمؤسسات والتقنيات التي تحفظ النصوص وتنظم تداولها. لقد ارتبطت الثقافة المطبوعة طويلًا بنظام مادي واضح المعالم يقوم على الكتاب والصفحة والفهرس والمكتبة والناشر والموزع والمؤسسة النقدية والتعليمية، وكان هذا النظام يفرض على النص درجة من الاستقرار في شكله وترتيبه وحدوده، بحيث يعرف القارئ أين يبدأ العمل وأين ينتهي، ويقيم علاقة مكانية محسوسة مع الصفحات، ويعتمد على الفهرسة والذاكرة والملاحظات اليدوية لاستعادة المواضع والمعلومات. ومع ظهور الحاسوب والشبكات والكتاب الإلكتروني تغيرت هذه البنية تدريجيًا، ولم يعد النص مرتبطًا دائمًا بجسم مادي ثابت، بل أصبح قابلًا للنسخ والبحث والتحديث والربط والتجزئة وإعادة السياق، وهو ما غير في الوقت نفسه طبيعة حضور النص وطبيعة الأفعال الممكنة حوله.

لقد نقلت الرقمنة الثقافة المكتوبة من منطق الصفحة المغلقة نسبيًا إلى منطق الواجهة المفتوحة على وظائف متعددة. فالصفحة الورقية تعرض النص، أما الواجهة الرقمية فتستطيع أن تعرضه وتتيح البحث فيه وتغيير حجمه وإضافة العلامات والملاحظات والروابط والوسائط المصاحبة، وقد تجمع بين القراءة والاستماع والمشاهدة في فضاء واحد. ومن ثم لم يعد القارئ يتعامل فقط مع النص، بل مع بيئة تشغيل كاملة حوله، وهي بيئة يمكن أن تدعم القراءة أو تشتتها بحسب تصميمها وطريقة استخدامها. فالزر الذي يسمح بتفسير كلمة في اللحظة نفسها يوسع إمكان الوصول إلى المعنى، لكنه يلغي في المقابل بعض المسافة التي كانت تفصل القارئ عن المرجع؛ والرابط الذي يفتح نافذة معرفية جديدة يمكن أن يثري السياق، لكنه يستطيع كذلك أن يقطع استمرارية الانتباه. ولا يمكن، لذلك، اختزال

التحول الرقمي في حكم أخلاقي بسيط يعلن تفوق الشاشة أو يندد بها، لأن التقنية نفسها تحمل إمكانات متعارضة تتحدد قيمتها داخل الممارسة القرائية الفعلية.

وقد أدى انتشار النصوص الرقمية إلى انتقال ثقافي مهم من الندرة إلى الوفرة. فالكتاب المطبوع كان يحتاج إلى الطباعة والتوزيع والتخزين والوصول المادي، بينما أصبحت ملايين النصوص متاحة عبر الشبكة خلال لحظات. غير أن حل مشكلة الوصول أنتج مشكلة جديدة هي مشكلة الاختيار، لأن الإنسان لا يستطيع قراءة كل ما يستطيع الوصول إليه، ومن هنا ازدادت أهمية محركات البحث والمنصات وأنظمة التصنيف والترتيب. ولم يعد السؤال الثقافي «كيف أصل إلى النص؟» فقط، بل أصبح كذلك «أي نص سيظهر أمامي من بين عدد لا نهائي تقريبًا من النصوص؟». ومع هذه النقلة انتقل جزء من سلطة الاختيار إلى الأنظمة التي تنظم الوفرة، وبدأت الخوارزمية تدخل إلى تاريخ القراءة من بوابة تبدو للوهلة الأولى تقنية، لكنها ذات أثر معرفي وثقافي مباشر.

وتغيرت، بالتوازي مع ذلك، العلاقة بين القارئ والذاكرة. ففي الثقافة المطبوعة كان على القارئ أن يتذكر قدرًا كبيرًا من المعلومات أو أن يطور أنظمة شخصية لتسجيلها واستعادتها، بينما تتيح البيئة الرقمية تخزين الملاحظات والاقتباسات والكتب والسجلات بطريقة تجعل بعض عمليات التذكر والاسترجاع خارجية. ولم يعد امتلاك المعرفة يعني بالضرورة الاحتفاظ بتفاصيلها كلها في الذاكرة البيولوجية، بل أصبح جزءًا من الكفاءة المعرفية يتجسد في معرفة أين توجد المعلومة وكيف يمكن استعادتها بسرعة. وهذا التحول لا يثبت أن الإنسان أصبح أقل معرفة أو أكثر معرفة، لكنه يؤكد أن بنية المعرفة الشخصية نفسها بدأت تعتمد على شبكات خارجية وأنظمة تخزين واسترجاع قد تصبح جزءًا مستقرًا من الممارسة القرائية.

كما تغيرت العلاقة بين النص والزمن. فالكتاب المطبوع يرسخ شكلًا من البطء المرتبط بتتابع الصفحات وبالمسافة التي تفصل سؤال القارئ عن الوصول إلى مرجعه، بينما تضغط الثقافة الرقمية الزمن وتقدم الاسترجاع والبحث والمقارنة في شكل فوري تقريبًا. وقد أدى هذا إلى مكاسب واضحة في الكفاءة، لكنه طرح في الوقت نفسه سؤال القراءة العميقة، لأن السرعة في الوصول إلى المعلومة لا تعني السرعة في استيعابها، والقدرة على العثور على مفهوم لا تعني امتلاك بنيته النظرية. ومن هنا يظهر توتر أساسي سيظل حاضرًا في هذا الكتاب بين سرعة **الوصول وبطء الفهم**، وبين **اتساع المجال المعلوماتي وعمق الإقامة داخل النص**.

وأعادت البيئة الرقمية كذلك تشكيل العلاقة بين النص والجماعة. فلم تعد القراءة دائمًا ممارسة خاصة ينهيها القارئ قبل أن يدخل إلى النقاش، لأن المنصات الاجتماعية ومنصات الكتب والحواشي الرقمية تجعل تقييمات الآخرين وتعليقاتهم واقتباساتهم مرئية قبل القراءة وأثناءها. وبهذا تصبح الجماعة جزءًا أكثر حضورًا من تجربة التلقي، وقد يدخل القارئ إلى العمل وهو يعرف تقييمه العام ومراجعاته الأكثر انتشارًا والتأويلات التي يكررها المجتمع الرقمي. وتضيف المنصة إلى ذلك عملية ترتيب لهذه الأصوات، فلا يرى القارئ كل التعليقات بالطريقة نفسها، بل يرى ما يرفعه النظام أو ما يحظى بالتفاعل الأكبر، وهو ما يجعل الجماعة نفسها موسطة خوارزميًا.

وبذلك تتشكل الثقافة المكتوبة المعاصرة داخل شبكة مركبة من النصوص والمستخدمين والأجهزة والمنصات والبيانات والخوارزميات، ويصبح الانتقال من الصفحة إلى الشاشة مجرد المرحلة الأولى من تحول أوسع. فالرقمنة غيرت الحامل، والشبكة غيرت العلاقات بين النصوص، والمنصات غيرت تنظيم الظهور، والخوارزميات بدأت تغير الاختيار، بينما سيضيف الذكاء الاصطناعي التوليدي مرحلة أكثر عمقًا عندما يصبح النظام قادرًا على إنتاج كلام جديد حول النص. عند هذه اللحظة تحديدًا ينتقل السؤال من الثقافة الرقمية إلى **الثقافة الخوارزمية والتوليدية**، ومن القارئ الذي

يستخدم جهازًا إلى القارئ الذي يتفاعل مع وسيط معرفي قادر على المشاركة في بعض وظائف القراءة.

الذكاء الاصطناعي بوصفه وسيطًا معرفيًا جديدًا

يختلف الذكاء الاصطناعي التوليدي عن كثير من الوسائط الرقمية السابقة في أن تدخله لا يقتصر على التخزين أو العرض أو البحث أو الترتيب، بل يمتد إلى إنتاج استجابة لغوية جديدة بناءً على سؤال المستخدم. ومحرك البحث، في صورته التقليدية، يعيد القارئ إلى قائمة من المصادر التي ينبغي أن يفتحها ويفحصها، بينما يستطيع النظام التوليدي أن يقدم له مباشرة ملخصًا أو تفسيرًا أو مقارنة أو صياغة أو اقتراحًا، وهو تحول يبدو تقنيًا في الظاهر لكنه يمس بنية الوساطة المعرفية نفسها. فقد انتقل الوسيط من أن يكون «دليلًا إلى المعرفة» إلى أن يصبح، في كثير من الحالات، منتجًا لخطاب وسيط يقدم المعرفة في صورة أعيد تنظيمها وصياغتها.

ويقتضي هذا التحول تمييزًا دقيقًا بين المعرفة الأصلية والخطاب المولد عنها. عندما يطلب القارئ تلخيص فصل من كتاب، لا يحصل على الكتاب في صورة مختصرة محايدة، بل يحصل على اختيار لما عده النظام أكثر أهمية، وعلى ترتيب جديد للمعلومات، وقد تغيب عن هذا الملخص عناصر أسلوبية أو حجج فرعية أو توترات لا يمكن استعادتها بمجرد معرفة «الفكرة الأساسية». وعندما يطلب ترجمة نص، فإن النظام يختار مقابلات لغوية ويعيد بناء العبارة في نظام لغوي آخر، وعندما يطلب شرح مفهوم، فإنه ينتقي مستوى معينًا من التفصيل ويقرر أي سياق ينبغي إبرازه. ومن ثم فإن الوساطة التوليدية ليست مجرد نقل، بل هي شكل من إعادة التركيب.

وتظهر أهمية الذكاء الاصطناعي بالنسبة إلى القراءة بصورة أوضح عندما ينتقل من الوظائف المعلوماتية إلى الوظائف التأويلية. فالقارئ يستطيع أن يسأل عن معنى رمز أو وظيفة شخصية أو سبب تحول سردي أو الاحتمالات الممكنة لفهم خاتمة غامضة، ويحصل في المقابل على خطاب منظم يقدم واحدًا أو أكثر من التفسيرات. ولا يعني ذلك أن النظام أصبح قارئًا إنسانيًا

يمتلك تجربة أو وعيًا أو انفعالًا، لأن إنتاج لغة تصف الحزن لا يعادل عيش الحزن، والقدرة على تحليل صورة عن المنفى لا تعني امتلاك تجربة المنفى، غير أن غياب التجربة الذاتية عن الآلة لا يمنع خطابها من التأثير في تجربة القارئ. فإذا دخل التفسير المولد إلى وعيه ثم عاد إلى النص في ضوئه، فإن الآلة تكون قد أصبحت جزءًا من المسار الذي تشكل فيه المعنى، حتى لو ظل الحكم النهائي إنسانيًا.

ومن هنا يستخدم هذا الكتاب مفهوم »**الوساطة المعرفية الذكية** «للإشارة إلى العمليات التي يتدخل من خلالها نظام ذكاء اصطناعي بين الفرد والمعلومة أو النص عبر البحث والترتيب والشرح والترجمة والتلخيص والمقارنة والتوليد، بحيث يؤثر في شكل المعرفة التي تصل إلى المستخدم وفي الطريقة التي يستطيع تنظيمها بها. ويمكن تصور هذه الوساطة في درجات متصاعدة تبدأ بالوصول والاسترجاع، ثم تنتقل إلى التنظيم والتلخيص، وبعد ذلك إلى الشرح والمقارنة، قبل أن تبلغ مستوى اقتراح احتمالات للمعنى. وكلما ارتفع مستوى التدخل ازداد أثر النظام في عملية القراءة، وازدادت في المقابل الحاجة إلى وعي نقدي بطبيعة ما يقدمه.

ويغير الذكاء الاصطناعي كذلك وضع السؤال داخل القراءة. ففي الثقافة السابقة كان السؤال القرائي يقود غالبًا إلى بحث في مرجع أو حوار مع مدرس أو ناقد أو قارئ آخر، أما اليوم فيمكن توجيهه مباشرة إلى نظام قادر على إعادة بناء جوابه بحسب صيغة السؤال. وهذا يجعل المحفز نفسه جزءًا من فعل القراءة، لأن القارئ الذي يسأل «ما معنى هذا النص؟» لا يفتح المجال نفسه الذي يفتحه القارئ الذي يقول «اقترح ثلاث قراءات متعارضة، وبيّن ما يدعم كل واحدة وما يضعفها». وتصبح القدرة على صياغة السؤال كفاية جديدة، لأن السؤال يمكن أن يحول النظام إلى سلطة تغلق المعنى أو إلى أداة توسع الاحتمالات وتدفع القارئ إلى العودة إلى النص.

ومع ذلك تظل العلاقة بالذكاء الاصطناعي محكومة بمفارقة أساسية: فكلما أصبحت الإجابة أكثر سهولة ازدادت أهمية القدرة على التشكيك

فيها. إذ يمكن للمخرجات التوليدية أن تكون صحيحة أو ناقصة أو متحيزة أو خاطئة، وقد تقدم الاحتمال في لغة تبدو يقينية، ولذلك لا يستطيع القارئ الهجين أن يساوي بين الطلاقة اللغوية والوثوق المعرفي. ويصبح من الضروري أن يميز بين المعلومة والتفسير والفرضية والتخمين، وأن يعرف متى يحتاج إلى مصدر خارجي ومتى ينبغي العودة إلى النص الأصلي ومتى يكون من المفيد رفض الجواب كله.

وبهذا المعنى لا يختصر الذكاء الاصطناعي الحاجة إلى القارئ الخبير، بل قد يجعل الخبرة أكثر ضرورة، لأن الشخص الذي يمتلك معرفة سابقة يستطيع اكتشاف الخطأ أو التحيز أو التبسيط بسهولة أكبر من قارئ لا يملك معيارًا خارجيًا. ومن هنا تنشأ مفارقة أخرى :**أفضل استخدام للآلة يحتاج إلى إنسان يملك من المعرفة ما يسمح له بعدم تصديقها دائمًا** .وهذا المبدأ سيصبح لاحقًا أساسًا لمفهوم القراءة الميتا خوارزمية.

إشكالية الكتاب

تحول العلاقة بين النص والقارئ

بنت نظريات التلقي جزءًا كبيرًا من منجزها على إعادة تعريف العلاقة بين النص والقارئ. فبعد أن كانت القراءة تفهم داخل نماذج تجعل المؤلف مصدر المعنى والنص حامله والقارئ مستقبلًا له، أصبحت القراءة مع ياوس وإيزر وإيكو وفيش نشاطًا تاريخيًا وتأويليًا واجتماعيًا لا يتحقق المعنى بعيدًا عنه. ولم يعد القارئ متلقيًا سلبيًا، بل أصبح طرفًا يملأ الفراغات ويحمل أفق انتظار ويتعاون مع استراتيجية النص وينتمي إلى جماعة تأويلية تشكل بعض شروط الفهم. غير أن النموذج الذي تأسست عليه هذه النظريات ظل، في أغلبه، يقوم على تصور لعلاقة يمكن اختزالها في صيغة **النص ↔ القارئ**، مع إضافة التاريخ أو الجماعة أو السياق، بينما تكشف البيئة الرقمية اليوم أن هذه العلاقة أصبحت أكثر تشابكًا.

فالقارئ قد لا يصل إلى النص مباشرة، وإنما عبر نتائج بحث مرتبة أو توصيات منصة أو قوائم شخصية أو مراجعات خوارزمية. وقبل أن يبدأ الكتاب قد يكون قد رأى تقييمه وقرأ ملخصًا عنه وشاهد محتوى يقدم تأويلًا مسبقًا له، ثم يدخل إلى النص محملًا بهذه الطبقات. وهكذا تتوسع «عتبات القراءة» من عناصر مثل الغلاف والعنوان والمقدمة إلى منظومة من التقييمات والتصنيفات والتوصيات والملخصات والمواد المصاحبة. وتصبح العلاقة بين النص والقارئ علاقة بين نص محاط بخطابات ووسائط وبين قارئ وصل إليه عبر مسار جرى تنظيم جزء منه تقنيًا.

ومن هنا يمكن تمثيل التحول من نموذج بسيط إلى نموذج أكثر تعقيدًا. ففي القراءة التقليدية يمكن أن نتصور العلاقة في صورتها النظرية الأدنى باعتبارها نصًا وقارئًا، بينما تصبح في البيئة الرقمية نصًا وقارئًا وواجهة ومنصة وجماعة رقمية، وفي البيئة الخوارزمية تضاف **الخوارزمية والبيانات**، ومع الذكاء الاصطناعي التوليدي يظهر **النظام الذكي والخطاب الذي يولده**

حول النص .ولا يعني هذا أن كل هذه العناصر تكون حاضرة في كل قراءة، بل يعني أن النموذج النظري ينبغي أن يتسع لإمكان وجودها.

ويترتب على ذلك تغير في مفهوم الاختيار نفسه. فقد ظل النقد يفترض، في كثير من الأحيان، أن فعل القراءة يبدأ عندما يختار القارئ نصًا، لكن الخوارزمية تجعل السؤال أسبق من ذلك: من الذي جعل هذا النص ظاهرًا أمامه؟ فالقارئ يختار بالفعل، لكنه يختار من حقل جرى ترتيبه. ولا تلغي هذه الحقيقة حريته، غير أنها تكشف أن الحرية تمارس داخل بنية، وأن تلك البنية قادرة على تعزيز بعض الاحتمالات وتقليل ظهور غيرها. ومن هنا يصبح تحليل التلقي مطالبًا بالنظر إلى ما يحدث قبل القراءة بقدر ما ينظر إلى ما يحدث أثناءها.

ويضاف إلى ذلك أن القراءة أصبحت قابلة للتحول إلى بيانات. فالقارئ لا يقرأ النص فقط، بل يمكن للمنصة أن تسجل جوانب من سلوكه وتستعملها لبناء توقعات عن اهتماماته. وهكذا يصبح القارئ، في مفارقة أساسية لهذا الكتاب، ذاتًا تقرأ وموضوعًا تتم قراءته حسابيًا في الوقت نفسه .إنه يقرأ الكتاب، بينما تعالج المنصة آثار اختياره وتفاعله، ثم تستخدمها لتحديد ما سيظهر له لاحقًا. وتتكون بذلك حلقة من القراءة والبيانات والتوصية والقراءة الجديدة، بحيث يصبح تاريخ القارئ الشخصي جزءًا من بيئته المستقبلية.

ومن هذه الزاوية لا يعود النص كيانًا مستقلًا يصل إلى قارئ مستقل، بل يدخل الاثنان في نظام تبادلي أكثر تعقيدًا، وهو ما يدفعنا إلى اقتراح أن وحدة التحليل الملائمة في بعض الممارسات المعاصرة ليست «القارئ» وحده ولا «النص» وحده، بل **النظام القرائي** الذي يتكون من القارئ والنص والوسيط والخوارزمية والسياق. ولا يعني هذا توزيع المسؤولية بالتساوي، لأن النص والخوارزمية والإنسان لا يتمتعون بالمكانة الوجودية أو الأخلاقية نفسها، لكنه يعني أن تفسير ما يحدث في القراءة يتطلب أخذ العناصر كلها في الحسبان.

دخول الخوارزمية طرفًا في إنتاج المعنى

تصل الإشكالية إلى أكثر مستوياتها حساسية عندما تتجاوز الخوارزمية تنظيم الوصول إلى النص وتبدأ في التأثير في شروط إنتاج المعنى. ولا يقصد هذا البحث القول إن الخوارزمية تمتلك وعيًا تأويليًا مماثلًا للإنسان، لأن النظام لا يعيش المعنى ولا يمتلك التجربة الذاتية التي يحملها القارئ إلى العمل، وإنما المقصود أن الخوارزمية أصبحت قادرة على أداء وظائف تؤثر في المجال الذي يبني داخله الإنسان تأويله.

ويمكن لهذا التأثير أن يبدأ قبل القراءة، من خلال التصنيف والتوصية والتقييم، لأن تقديم رواية بوصفها «رواية سياسية» أو «رواية حب» يؤطر الانتباه بطريقة مختلفة، كما أن إخبار المستخدم بأن الكتاب يشبه أعمالًا سبق أن أحبها يخلق توقعًا قبل الدخول إليه. ويمكن لهذا التأثير أن يحدث أثناء القراءة من خلال الترجمة والتلخيص والشرح والمقارنة، وكلها عمليات تتضمن اختيارًا لما ينبغي إبرازه أو حذفه أو ربطه. وقد يصل أخيرًا إلى التأويل المباشر عندما يولد النظام فرضية حول رمز أو شخصية أو نهاية أو موقف فكري.

ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاثة مستويات للمعنى داخل البيئة الهجينة : المعنى الممكن الذي يتيحه النص، والمعنى الذي يبنيه القارئ، والمعنى الوسيط الذي تقترحه الأداة أو الخوارزمية .ولا تكون هذه المستويات منفصلة دائمًا، لأن القارئ قد يأخذ من التفسير المولد جزءًا ويفحصه ثم يدمجه في قراءته، وبذلك يتشكل ما يمكن تسميته، بصورة إجرائية، «معنى هجين» لا لأنه نصف بشري ونصف آلي، وإنما لأن مسار الوصول إليه مر عبر تفاعل بين الإنسان والآلة.

ويظهر هنا التوتر بين التوسيع والإغلاق. تستطيع الآلة أن توسع مجال المعنى عندما تقترح قراءات متعددة وتستعيد سياقات مجهولة وتعرض حججًا متعارضة، لكنها تستطيع في المقابل أن تغلق النص إذا قدمت تفسيرًا واحدًا بصيغة نهائية وأعفت القارئ من البقاء داخل الغموض. وهذا التوتر مهم بصفة

خاصة في الأدب، لأن القيمة الجمالية قد تقوم أحيانًا على عدم الحسم وعلى قدرة النص على الاحتفاظ بإمكانات متعددة، بينما تميل البنية الحوارية للأنظمة الذكية إلى تقديم جواب. ومن ثم لا يصبح أفضل استخدام للذكاء الاصطناعي هو طلب «المعنى الصحيح»، بل استخدامه لتوليد احتمالات يمكن إخضاعها للنص والسياق.

وبذلك يقترح الكتاب التمييز بين **الفاعل التأويلي الإنساني** والفاعل **الوسيطي الخوارزمي** .الإنسان هو من يعيش تجربة القراءة ويحمل ذاكرته وموقعه الثقافي والأخلاقي ويتحمل مسؤولية الحكم، بينما تستطيع الخوارزمية أن تنظم وتقترح وتولد وتعيد الصياغة. ولا يساوي هذا الدور الوظيفي بين الطرفين، لكنه يمنع كذلك من إنكار أثر الوسيط. إن الآلة لا تحتاج إلى أن تفهم بالطريقة البشرية لكي تؤثر في الطريقة التي يفهم بها البشر.

أسئلة البحث

من هو القارئ الهجين؟

يتمثل السؤال المركزي الأول في تحديد هوية القارئ الهجين وحدود المفهوم. فإذا كان كل قارئ يستخدم جهازًا إلكترونيًا سيُسمى هجينًا، فإن المصطلح لن يضيف شيئًا إلى مفهوم القارئ الرقمي، ولذلك يجب أن تتحدد الهجنة في مستوى أعمق من مجرد الحامل. يقترح هذا البحث أن القارئ الهجين هو القارئ البشري الذي تتم بعض عمليات قراءته داخل منظومة معرفية تتفاعل فيها قدراته مع أدوات رقمية وخوارزمية وذكاء اصطناعي في الوصول إلى النص وتنظيمه وفهمه واسترجاعه ومقارنته، وربما في توليد احتمالات لتأويله، مع بقاء المسؤولية النهائية عن الحكم في الجانب الإنساني.

وبهذا المعنى لا يمثل القارئ الهجين هوية ثابتة يحملها الفرد في كل وقت، بل يمكن أن يكون وضعًا قرائيًا يدخل إليه القارئ في مهمة ويخرج منه في أخرى. فقد يقرأ الشخص رواية ورقية من دون أي أداة، ثم يمارس قراءة هجينة أثناء إنجاز بحث أكاديمي يستخدم فيه البحث والترجمة ونظامًا توليديًا. ومن هنا يكون من الأنسب الحديث عن درجات للهجنة بدل تقسيم القراء إلى فئتين مغلقتين.

ما الفرق بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة؟

يقوم الفرق الجوهري بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة على التمييز بين رقمنة الوسيط وتهجين العملية المعرفية .فالقراءة الرقمية هي ممارسة يكون فيها النص متاحًا أو معروضًا عبر وسيط إلكتروني، وقد يستفيد القارئ من وظائف البحث والتظليل والتدوين، لكنها تستطيع أن تظل قراءة بشرية من حيث عمليات الفهم والتفسير. أما القراءة الهجينة فتبدأ عندما تدخل الأدوات إلى بعض هذه العمليات وتصبح وظائف مثل الاسترجاع والترجمة والتلخيص والمقارنة والشرح موزعة بين الإنسان والآلة.

ولهذا يمكن أن تكون القراءة على شاشة غير هجينة، كما يمكن لقراءة كتاب ورقي أن تصبح هجينة إذا استعان القارئ أثناءها بأدوات خوارزمية وذكاء اصطناعي. ومن ثم لا تكمن الهجنة في الجهاز، بل في طبيعة العلاقة بين القارئ والتقنية .ويمكن تصور طيف يبدأ بالقراءة الرقمية، ثم التلقي الخوارزمي الذي تتدخل فيه أنظمة التوصية، ثم القراءة المعززة، ثم القراءة الهجينة التي تتوزع فيها وظائف أعمق، وصولًا إلى القراءة الميتا خوارزمية التي يصبح فيها الوسيط نفسه موضوعًا للنقد.

هل تشارك الآلة القارئ في عملية التأويل؟

يتطلب هذا السؤال تحديد معنى المشاركة بدقة حتى لا نقع بين موقفين متطرفين: موقف ينكر أي أثر للآلة لأنها لا تمتلك وعيًا ، وموقف يساوي إنتاجها اللغوي بالتأويل البشري. يقترح الكتاب موقفًا ثالثًا يرى أن الآلة لا تؤوّل بالمعنى الإنساني الوجودي، لكنها تستطيع أن تصبح شريكًا وظيفيًا في العملية التأويلية من خلال توليد فرضيات وروابط وسياقات يمكن أن تدخل في بناء القارئ للمعنى.

فإذا قرأ القارئ خاتمة غامضة ثم طلب ثلاثة تأويلات، وعاد إلى النص ورفض اثنين واحتفظ بجزءٍ من الثالث، فإن التأويل النهائي يظل تأويلًا بشريًا من حيث المسؤولية، لكنه تشكل داخل مسار تفاعلي لم تكن الآلة خارجه.
ويمكن تمثيل هذا المسار في دورة من السؤال والاقتراح والفحص والعودة إلى النص وإعادة البناء، وهي الدورة التي تشكل أحد أهم مظاهر التلقي الهجين.

فرضيات البحث

القراءة المعاصرة فعل معرفي موزع

تنطلق الفرضية الأولى من أن بعض ممارسات القراءة المعاصرة لم تعد قابلة للفهم إذا حُصرت في ما يحدث داخل ذهن الفرد، لأن القارئ أصبح يعتمد بصورة متزايدة على موارد خارجية في الاسترجاع والحفظ والتنظيم والترجمة والمقارنة. ولا يعني ذلك أن العقل فقد مركزيته أو أن كل استعمال للأداة يمثل امتدادًا معرفيًا، وإنما يعني أن وحدة التحليل يمكن أن تتوسع في بعض الحالات لتشمل القارئ وبيئته التقنية.

وتقود هذه الفرضية إلى التمييز بين **التوزيع والتفويض** .فالتوزيع يحدث عندما يستخدم القارئ الأداة داخل عملية يظل هو قائدها، بينما يبدأ التفويض عندما يتحول النظام إلى بديل عن فعل القراءة نفسه. ويعتمد نجاح القراءة الهجينة، وفق هذا التصور، على قدرة القارئ على الاستفادة من الموارد الخارجية دون التنازل عن الحكم النهائي.

الخوارزمية لم تعد وسيطًا محايدًا

تقوم الفرضية الثانية على أن الخوارزمية لا تنقل المحتوى فحسب، بل تختار وترتب وتخصص وتوصي، وهو ما يجعل لها أثرًا في ما يصبح مرئيًا وجديرًا بالانتباه. ولا يقتضي عدم الحياد وجود نية سياسية مباشرة؛ فقد يكون النظام مصممًا لزيادة التفاعل، لكن هذا الهدف نفسه يمكن أن ينتج آثارًا ثقافية من خلال منح بعض المواد أفضلية في الظهور.

ومن هنا يصبح القارئ مطالبًا بالوعي بأن اختياره يجري داخل قائمة سبق أن شُكلت، وأن تاريخ سلوكه قد يؤثر في توصياته المستقبلية. وتؤسس هذه الفرضية لاحقًا لمفهوم القراءة الميتا خوارزمية، لأن الاستقلال في البيئة الجديدة لا يعني غياب الخوارزمية، بل معرفة وجودها ومساءلة آثارها.

ظهور نمط جديد من التلقي البشري ـ الآلي

تقوم الفرضية الثالثة على أن الأنظمة التوليدية أضافت إلى الوساطة بعدًا حواريًا يسمح بتكوين دورة جديدة من التلقي، حيث يقرأ الإنسان ويسأل، ويولد النظام جوابًا، ثم يعود القارئ إلى النص ويعدّل فهمه أو يرفض الاقتراح. ولا تمثل هذه الدورة مساواة بين طرفين، بل شكلًا من التكامل المعرفي غير المتماثل الذي تتوزع فيه الوظائف مع بقاء الخبرة والمسؤولية في الجانب الإنساني.

ومن مجموع الفرضيات الثلاث تتشكل الفرضية العامة للكتاب: إن القراءة المعاصرة تدخل مرحلة يصبح فيها بعض نشاطها موزعًا بين القارئ وبيئته التقنية، بينما تشارك الخوارزميات بصورة غير محايدة في تنظيم الوصول إلى النصوص، وتضيف أنظمة الذكاء الاصطناعي مستوى حواريًا يمكن أن يدخل في الشرح والمقارنة واقتراح التأويل، وهو ما يتيح الحديث عن نمط جديد من التلقي البشري ـ الآلي يشكل الأساس النظري لمفهوم القارئ الهجين.

الجهاز المفاهيمي

القارئ الهجين

يمثل القارئ الهجين المفهوم المركزي في الكتاب، ويُستخدم للدلالة على قارئ بشري تتم بعض وظائف قراءته داخل علاقة تفاعلية مع أدوات رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي. ولا يلغي هذا التعريف الفروق بين الإنسان والآلة، بل يقوم عليها، لأن الهجنة هنا هي هجنة في توزيع الوظائف لا في الهوية الوجودية. فالآلة قد تسترجع وتقارن وتقترح، بينما يظل القارئ هو الذي يربط هذه المخرجات بتجربته ويقرر قيمتها ويتحمل مسؤولية تبنيها.

التلقي الخوارزمي

يشير التلقي الخوارزمي إلى استقبال النصوص داخل بيئة تتدخل فيها الخوارزميات في الاختيار والترتيب والإظهار والتوصية والتخصيص، بحيث تصبح شروط وصول النص إلى القارئ جزءًا من موضوع التحليل. ولا يعني هذا أن الخوارزمية «تتلقى» النص، بل أن التلقي البشري أصبح موسطًا بواسطة نظام تقني قادر على تنظيم ما يظهر ومتى يظهر ولمن يظهر.

وينبثق من هذا المفهوم «أفق الانتظار الخوارزمي»، الذي يقصد به تلك الطبقة من توقعات القارئ التي تتشكل بفعل التوصيات والتصنيفات والتقييمات والملخصات والمواد الرقمية السابقة على القراءة.

القراءة المعززة

تدل القراءة المعززة على القراءة التي تستفيد من أدوات تزيد قدرة القارئ على الوصول والفهم والاسترجاع والترجمة والمقارنة من دون أن تصل بالضرورة إلى مشاركة تأويلية عميقة. وهي تقع بين القراءة الرقمية البسيطة والقراءة الهجينة المتقدمة، وتمثل المجال الذي تكون فيه التقنية أداة لتوسيع القدرات البشرية أكثر من كونها شريكًا في صناعة المسار التأويلي.

ويصبح التمييز بين التعزيز والاستبدال أساسيًا؛ فالأداة المعززة تقود القارئ إلى النص وتوسع قدرته على التعامل معه، بينما الأداة البديلة قد تعفيه من القراءة الأصلية وتقدم له ملخصًا أو تفسيرًا جاهزًا.

القراءة الميتا خوارزمية

تشير القراءة الميتا خوارزمية إلى ممارسة لا تكتفي بفهم النص، بل تجعل الوسيط الخوارزمي نفسه موضوعًا للفحص. فالقارئ يسأل لماذا ظهر هذا المحتوى، ولماذا قدم النظام هذا التفسير، وما الذي غاب، وهل الجواب معلومة أم فرضية، وما المصدر، وهل يمكن الحصول على قراءة مضادة. وهي بذلك تمثل انتقالًا من استخدام الخوارزمية إلى قراءة الخوارزمية أثناء استخدامها.

وتتكون هذه القراءة من أربع كفايات أساسية: الكشف عن الوساطة، ومساءلة منطقها، ومقارنة مخرجاتها، والتحقق من المعلومات والعودة إلى المصادر. ومن هنا يمكن النظر إليها بوصفها الشرط النقدي لنضج القارئ الهجين.

القراءة ما بعد الخوارزمية

أما القراءة ما بعد الخوارزمية فتستخدم في هذا الكتاب بوصفها مفهومًا استشرافيًا، لا باعتبارها مرحلة تاريخية مكتملة، وتشير إلى حالة تصبح فيها الخوارزميات والذكاء الاصطناعي مدمجين في البيئة اليومية للقراءة إلى حد يتراجع معه شعور المستخدم بأنه يستعمل أدوات مستقلة. ولا تعني «ما بعد» هنا اختفاء الخوارزمية، بل اندماجها في المحيط حتى تصبح جزءًا من البنية الاعتيادية للفعل القرائي.

وتثير هذه المرحلة المحتملة أسئلة أكثر حدة حول الاستقلال والذاكرة والهوية، لأن الوساطة كلما أصبحت أقل ظهورًا أصبح نقدها أكثر صعوبة، ولذلك تصبح القراءة الميتا خوارزمية ضرورية بوصفها وعيًا قادرًا على مرافقة هذا الاندماج.

المنهج والمدونة

المنهج البيني

تفرض طبيعة القارئ الهجين اعتماد منهج بيني لأن الظاهرة تقع في تقاطع النقد الأدبي ودراسات الوسائط وفلسفة التقنية وعلم الإدراك ودراسات الخوارزميات والتفاعل البشري ـ الآلي. ولا يستطيع أي حقل منها منفردًا أن يفسر الظاهرة كاملة؛ فنظرية التلقي تفسر بناء المعنى لكنها لا تكفي لتحليل أنظمة التوصية، ودراسات الوسائط تفسر أثر الواجهة لكنها لا تحيط وحدها بالتأويل، وعلم الإدراك يوضح الانتباه والذاكرة لكنه لا يستطيع اختزال القراءة في عمليات نفسية، بينما تقدم فلسفة التقنية إطارًا لتحليل علاقة الإنسان بالأداة.

ومن هنا لا يعني المنهج البيني جمع تخصصات متجاورة بصورة شكلية، بل توزيع الوظائف بينها بحيث يتولى كل حقل تفسير مستوى محدد من الظاهرة، ثم تتجمع النتائج داخل نموذج واحد.

نظرية التلقي ودراسات الوسائط

تشكل نظرية التلقي القاعدة الأدبية للمشروع لأنها قدمت المفاهيم التي تسمح بفهم القارئ بوصفه فاعلًا في إنتاج المعنى، ولا سيما أفق الانتظار وفعل القراءة والقارئ الضمني والقارئ النموذجي والجماعات التأويلية. غير أن هذه المفاهيم ستقرأ داخل بيئة جديدة من خلال دراسات الوسائط التي تؤكد أن الحامل والواجهة والتقنية ليست مجرد أوعية محايدة، بل تشارك في تنظيم كيفية ظهور النص وطرق التعامل معه.

وسيُعتمد في الدراسة على المقارنة بين أوضاع قرائية مختلفة للنص نفسه متى أمكن، بحيث يمكن تمييز أثر الوسيط عن أثر اختلاف النص. فالكتاب الورقي والكتاب الإلكتروني والمنصة الاجتماعية والمساعد التوليدي

تمثل بيئات مختلفة، والهدف ليس ترتيبها حسب الأفضلية، بل تحليل ما تضيفه كل واحدة وما تنتزعه من تجربة القراءة.

فلسفة التقنية وعلم الإدراك

تدخل فلسفة التقنية إلى المشروع من باب العلاقة بين الإنسان والأداة وحدود امتداد النشاط المعرفي إلى البيئة الخارجية، بينما يسمح علم الإدراك بدراسة مسائل الذاكرة والانتباه والفهم والقراءة العميقة. ويستفيد البحث من مفاهيم العقل الممتد والإدراك الموزع دون أن يتبناها بصورة حرفية، وإنما بوصفها أدوات للسؤال عن الوظائف التي أصبحت تعتمد على موارد خارجية.

وسيظل التمييز قائمًا بين توزيع العمل المعرفي وبين توزيع المسؤولية، لأن اعتماد القارئ على ذاكرة خارجية أو أداة ترجمة أو نظام توليدي لا يعفيه من التحقق والحكم. وبذلك يعتمد البحث مبدأ **التوزيع الوظيفي مع بقاء المسؤولية التأويلية بشرية**.

نماذج القراءة والمنصات محل الدراسة

تتكون مدونة البحث من طبقات متعددة تشمل النصوص والوسائط والمنصات وسلاسل التفاعل البشري ـ الآلي. وستضم المدونة نماذج من نصوص سردية وشعرية ونقدية ومعرفية، لأن أثر الوساطة يختلف باختلاف طبيعة النص، فالتلخيص قد يكون مفيدًا لاستعادة بنية رواية طويلة لكنه قد يكون أكثر اختزالًا لقصيدة تقوم قيمتها على الإيقاع والغموض والكثافة.

أما على مستوى الوسائط، فستشمل الدراسة الكتاب المطبوع والملفات الرقمية وتطبيقات القراءة، إلى جانب نماذج من المنصات الاجتماعية للكتب والحواشي التشاركية وأنظمة التوصية. وسيُنظر إلى هذه النماذج بوصفها تمثيلات لوظائف، لا علامات تجارية ثابتة، لأن النظرية ينبغي أن تظل صالحة حتى لو تغيرت الشركات أو الواجهات.

وسيحتل الذكاء الاصطناعي التوليدي موقعًا خاصًا في المدونة من خلال بناء سلاسل تفاعل يمكن تحليلها وفق بروتوكول يبدأ بالقراءة البشرية الأولية، ثم السؤال، فالجواب الآلي، فالعودة إلى النص والتحقق، ثم قبول المخرج أو رفضه وإعادة بناء التأويل. وسيتيح هذا المسار دراسة ما إذا كان النظام يغير فهم القارئ، وما الوظائف التي يؤديها، وما إذا كان يعزز القراءة أو يستبدلها.

كما ستراعي المدونة البعد العربي، لأن النظريات التي تتناول الذكاء الاصطناعي والقراءة لا ينبغي أن تبنى على نصوص إنجليزية وغربية فقط. وستتيح النصوص العربية اختبار قدرة الأنظمة على التعامل مع المجاز والإحالات التراثية والتنوع اللغوي والسياقات المحلية، كما ستسمح بطرح السؤال عن المرجعيات الثقافية التي يحملها التفسير الآلي ومدى قدرته على تمثيل فضاءات معرفية غير متساوية الحضور داخل البيانات.

وفي جميع هذه الحالات لن يدعي البحث كشف البنية الداخلية الكاملة للخوارزميات المغلقة، بل سيتعامل مع الوظائف المعلنة والمخرجات القابلة للملاحظة ويقارنها بالسلوك القرائي، وسيحافظ على تمييز منهجي بين ما يعرف عن النظام وما يستنتج من أثره. ومن هنا لا يقوم المنهج على إسناد نوايا بشرية إلى الآلة، بل على وصف ما تفعله وظيفيًا وما يحدث للقارئ نتيجة هذا الفعل.

خاتمة المقدمة العامة

تنطلق هذه الدراسة من تحول يمكن اختزاله في حركة تاريخية طويلة بدأت بتغير حامل النص وانتهت، في مرحلتها الراهنة، إلى تغير موقع الوسيط نفسه. لقد انتقلت الثقافة من الورق إلى الشاشة، ثم من النص المنعزل إلى النص الشبكي، ومن وفرة المواد إلى ضرورة ترتيبها، ومن البحث إلى التوصية، ومن الخوارزمية التي تنظم المحتوى إلى الذكاء الاصطناعي الذي يستطيع أن يتحدث عن المحتوى ويعيد صياغته ويقترح معانيه. وفي كل مرحلة من هذه المراحل تغير شيء في موقع القارئ، لكن المرحلة الحالية تكشف تحولًا أكثر عمقًا لأنها لا تمس المكان الذي يقرأ فيه فقط، بل تبدأ في ملامسة بعض الوظائف التي يقرأ بها.

ومن هنا فإن مفهوم «القارئ الهجين» لا يعلن موت القارئ التقليدي ولا نهاية الكتاب الورقي، كما لا يفترض أن كل قراءة أصبحت آلية أو أن الذكاء الاصطناعي صار ذاتًا تأويلية مساوية للإنسان، بل يحاول وصف وضع جديد أصبحت فيه بعض عمليات القراءة قابلة للتوزيع بين الإنسان والتقنية. ويظل نجاح هذا الوضع مرتبطًا بقدرة القارئ على إدارة هذه العلاقة، لأن الأداة التي توسع قدرته تستطيع في الوقت نفسه أن تقلل استقلاله إذا تحولت من مساعدة إلى بديل، والتوصية التي تسهل الوصول تستطيع أن تضيق المجال إذا أصبحت دائرة مغلقة، والتفسير الذي يفتح احتمالًا يستطيع أن يغلق الغموض إذا قدم بوصفه حقيقة نهائية.

ولذلك فإن الرهان النظري لهذا الكتاب ليس في تحديد مقدار «ذكاء» الآلة، بل في إعادة تعريف سيادة القارئ داخل بيئة لا يقرأ فيها وحده دائمًا. ولم تعد السيادة تعني القدرة على الاستغناء عن الوسائط، لأن القراءة كانت تاريخيًا عملية موسطة بأشكال مختلفة، وإنما تعني القدرة على معرفة الوسيط وإدارة تدخله والشك في مخرجاته والعودة إلى النص والمصدر والاحتفاظ بحق الحكم. ومن هنا تلتقي جميع مفاهيم الكتاب: فالتلقي الخوارزمي يصف البيئة التي تنظم الوصول، والقراءة المعززة تصف توسيع

القدرات، والقارئ الهجين يصف توزيع بعض الوظائف، والقراءة الميتا خوارزمية تصف الوعي النقدي بهذا التوزيع، بينما تمثل القراءة ما بعد الخوارزمية الأفق الذي تصبح فيه الوساطة التقنية أكثر اندماجًا في الحياة الثقافية.

وبهذا يمكن تمثيل المسار النظري الذي ستتبعه الدراسة في صورة متدرجة تبدأ بـ**القارئ التقليدي** الذي يواجه النص داخل وسيط مستقر نسبيًا، ثم **القارئ الرقمي** الذي ينتقل إلى الشاشة، ثم **القارئ الشبكي** الذي يتحرك بين الروابط والمجتمعات الرقمية، ثم **القارئ الخوارزمي** الذي تتدخل أنظمة التوصية والتخصيص في مجال اختياره، وصولًا إلى **القارئ الهجين** الذي تدخل الأدوات الذكية في بعض وظائف بحثه وفهمه وتأويله، ثم إلى **القارئ الميتا خوارزمي** الذي يجعل هذه الوساطة نفسها موضوعًا للنقد، وأخيرًا إلى **القارئ ما بعد الخوارزمي** بوصفه أفقًا افتراضيًا لمرحلة يصبح فيها التداخل البشري ـ التقني جزءًا اعتياديًا من فعل القراءة.

وتتغير، بالتوازي، بنية العلاقة التي كانت نظريات التلقي تصوغها أساسًا في صورة **نص ↔ قارئ**، لأن النموذج الذي يقترحه هذا البحث يصبح أكثر تركيبًا :**قارئ ↔ نص ↔ خوارزمية ↔ سياق** .ولا ينبغي لهذه الصيغة أن تقرأ بوصفها معادلة تساوي بين عناصرها، بل باعتبارها خريطة للقوى التي يمكن أن تدخل في إنتاج التجربة القرائية، حيث يظل الإنسان الفاعل التأويلي المسؤول، ويظل النص مجال الإمكانات والمقاومة الدلالية، بينما تعمل الخوارزمية بوصفها وسيطًا ينظم ويقترح، ويمنح السياق الثقافي والتاريخي واللغوي لهذه العلاقة شروطها.

وعليه، فإن السؤال الذي يقود بقية الكتاب ليس سؤالًا تقنيًا محضًا حول استخدام الذكاء الاصطناعي في القراءة، بل سؤال نقدي وفلسفي يتعلق بتحول مفهوم القارئ ذاته :**هل ما زال القارئ هو الفرد الذي يواجه النص بعقله وذاكرته فقط، أم أننا ننتقل إلى قارئ تعمل معرفته داخل منظومة موزعة، ويصبح استقلاله مرتبطًا بقدرته على إدارة هذه المنظومة بدل الانفصال**

عنها؟ ومن الإجابة عن هذا السؤال ينطلق مشروع «القارئ الهجين» بوصفه محاولة لإعادة بناء نظرية التلقي في عصر أصبحت فيه الخوارزمية جزءًا من البيئة الثقافية، وأصبح الذكاء الاصطناعي قادرًا على الانتقال من هامش القراءة إلى المسافة التي يتكون فيها الفهم والمعنى.

الفصل الأول

القارئ في النظريات الأدبية:

من الهامش إلى مركز إنتاج المعنى

يمثل تاريخ النظريات الأدبية، من زاوية موقع القارئ داخلها، تاريخًا لتحول عميق في مركز الثقل داخل العملية الأدبية نفسها، إذ لم تمنح العناصر المكونة للعمل الأدبي، من مؤلف ونص وقارئ وسياق، المكانة ذاتها في مختلف المراحل النظرية، بل انتقلت الأولوية من عنصر إلى آخر بحسب التحولات التي عرفها التفكير النقدي، فبعد أن هيمنت سلطة المؤلف طويلًا باعتباره المصدر الأول للمعنى والمفتاح الذي يُفترض أن تقود إليه القراءة، انتقل الاهتمام تدريجيًا إلى النص بوصفه بنية مستقلة تستحق أن تدرس في ذاتها، ثم بدأ القارئ، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، يحتل موقعًا مركزيًا بعدما أصبح فعل القراءة نفسه موضوعًا للنظرية، لا مجرد مرحلة تالية على اكتمال العمل. ولا ينبغي فهم هذا المسار بوصفه انتقالًا ميكانيكيًا ألغت فيه كل مرحلة ما سبقها، بل بوصفه إعادة توزيع مستمرة للسلطة التأويلية بين المؤلف والنص والقارئ والسياق، وهي الحركة التي تسمح لنا اليوم بطرح سؤال جديد يتعلق بموقع الخوارزمية والذكاء الاصطناعي داخل هذا التاريخ، لأن مشروع «القارئ الهجين» لا ينطلق من قطيعة مع نظريات التلقي، بل من محاولة استكمال المسار الذي بدأته حين نقلت القارئ من هامش العملية الأدبية إلى صلب إنتاج المعنى.

المبحث الأول: القارئ قبل نظريات التلقي

مركزية المؤلف في النقد التقليدي

يصعب التعامل مع ما يسمى «النقد التقليدي» باعتباره منظومة واحدة متجانسة، لأن تاريخ النقد، منذ البلاغة القديمة إلى المدارس الحديثة، عرف تصورات متعددة للعلاقة بين المؤلف والعمل والجمهور، غير أن تيارًا قويًا، وخصوصًا مع التصورات الرومانسية والبيوغرافية في العصر الحديث، منح المؤلف مكانة مركزية جعلت النص يُقرأ غالبًا بوصفه تعبيرًا عن ذات مبدعه أو ترجمة لتجربته أو انعكاسًا لوعيه وانفعالاته وخياله. وقد قدم م. هـ. أبرامز في كتابه *The Mirror and the Lamp* (المرآة والمصباح) تصنيفًا مؤثرًا للاتجاهات النقدية بحسب العنصر الذي تمنحه الأولوية، فميز، ضمن ما ميز، النظريات التعبيرية التي تجعل العمل الأدبي مرتبطًا بالفنان وتعامل الإبداع باعتباره انبثاقًا من الذات المبدعة [1]. وفي مثل هذا التصور يصبح النص طريقًا إلى صاحبه، بحيث يبحث الناقد في الصور والرموز والشخصيات والأحداث عن آثار التجربة الفردية للمؤلف، ويصبح السؤال «ماذا أراد الكاتب أن يقول؟» تعبيرًا عن تصور كامل للمعنى، لأنه يفترض أن الدلالة موجودة قبل النص في ذهن صاحبه، وأن النص يقوم بنقلها، وأن القارئ كلما اقترب من استعادة القصد الأصلي كان فهمه أكثر صحة.

ولا يعني هذا أن كل أشكال النقد السابقة على نظريات التلقي كانت تختزل العمل في السيرة الذاتية أو النية، فقد عرفت التقاليد البلاغية والفلسفية والتأويلية تصورات أكثر تعقيدًا، لكن مركزية المؤلف ظلت قوية في كثير من الممارسات النقدية الحديثة، خصوصًا عندما ارتبطت بفكرة العبقرية الفردية والأصالة والإبداع الذاتي. ومن هنا أصبحت سلطة المؤلف سلطة تفسيرية، لأن معرفة حياته ورسائله ومذكراته أو تصريحاته قد تستخدم بوصفها مفاتيح لتثبيت معنى معين وإقصاء معان أخرى، وكأن النص لا يستطيع تجاوز الوعي الذي أنشأه. وبهذا المعنى يمكن تمثيل العلاقة التقليدية بصيغة يتحرك فيها المعنى من المؤلف إلى النص ثم إلى

القارئ، أي في اتجاه واحد تقريبًا، وهو التصور الذي سيخضع لاحقًا لمراجعة حاسمة عندما يبدأ النقد في التساؤل عما إذا كان قصد المؤلف قادرًا فعلًا على التحكم في حياة العمل بعد نشره.

القارئ بوصفه متلقيًا سلبيًا

إذا كان المؤلف يمثل، داخل النموذج السابق، أصل المعنى ومصدره، فإن القارئ يحتل موقعًا متأخرًا بوصفه الطرف الذي يتلقى ما سبق أن أنتجه شخص آخر، ولذلك تكون وظيفته الأساسية هي الفهم والتذوق وفك الإشارات ومحاولة الاقتراب من المقصد المفترض، لا المشاركة في إنشاء المعنى نفسه. ويمكن القول إن هذا النموذج ينظر إلى القراءة باعتبارها عملية استقبال لمعنى موجود سلفًا، فيصبح النص قناة بين قصد سابق ومتلقي لاحق، ولا يكون اختلاف القراء سوى تفاوت في درجة الفهم أو سوء الفهم، لا اختلافًا مشروعًا في إنتاج الدلالة.

لكن وجود الجمهور في التاريخ الأدبي لا يعني أن القارئ كان حاضرًا بوصفه مفهومًا نظريًا متكاملًا؛ فالكتب كانت دائمًا تكتب لأناس يقرأونها، والنقد كان يدرك أثر النص في المتلقي، غير أن السؤال عن طبيعة فعل القراءة نفسه لم يكن يحتل المركز الذي سيأخذه لاحقًا. فقد يكون القارئ متأثرًا أو مستمتعًا أو متعلمًا أو متذوقًا، لكن المعنى يظل سابقًا عليه ومستقلًا عنه، وهو ما يجعل القراءة في هذا التصور فعلًا تابعًا للعمل لا شرطًا من شروط تحققه. وسيبدأ التحول الحقيقي عندما يتغير السؤال من «هل فهم القارئ ما قصده المؤلف؟» إلى «ما الذي يحدث للنص عندما يقرأه قارئ؟»، لأن هذا التغيير البسيط في صياغة السؤال سيقود إلى مراجعة كاملة لموقع القارئ داخل العملية الأدبية.

المبحث الثاني: من المؤلف إلى النص

استقلال النص عن صاحبه

قبل أن يصبح القارئ مركزًا للنظرية كان النقد بحاجة إلى تحرير النص من الارتباط الصارم بصاحبه، وقد لعب النقد الجديد في المجال الأنجلوسكسوني دورًا مهمًا في هذه النقلة، خصوصًا مع وليم ويمسات ومونرو بيردسلي في مقالتهما الشهيرة «المغالطة القصدية»، التي رفضا فيها جعل نية المؤلف الخارجية معيارًا نهائيًا للحكم على معنى العمل وقيمته [2]. وكانت أهمية هذا الموقف تتجاوز الاعتراض على استخدام السيرة الذاتية، لأنه أعاد تعريف موضع المعنى نفسه، إذ لم يعد على الناقد أن يفتش في حياة المؤلف لكي يعرف ماذا يعني النص، بل أصبح العمل المنشور يمتلك وجودًا يمكن تحليله من خلال لغته وبنيته وعلاقاته الداخلية، حتى عندما تختلف النتائج عما صرح به صاحبه.

وقد مثّل هذا التحول انتقالًا من مركزية المؤلف إلى مركزية النص، لأن السلطة لم تمنح للقارئ مباشرة، بل انتقلت أولًا إلى البنية اللغوية للعمل، فأصبح النقد يبحث في التوترات والصور والمفارقات والتكرار والإيقاع والتنظيم الداخلي، وهو ما فتح الطريق أمام تصور يرى النص قادرًا على إنتاج دلالات تتجاوز قصد صاحبه أو لا تتطابق معه بالكامل. وبلغ هذا الاتجاه صيغة أكثر راديكالية مع رولان بارت في مقالته «موت المؤلف»، التي انتقد فيها العودة المستمرة إلى الكاتب باعتباره الأصل النهائي لمعنى النص، ودافع عن تحرير الكتابة من سلطة المصدر الفردي الواحد [5]. ولم يكن المقصود بموت المؤلف اختفاء الكاتب الواقعي أو إنكار وجوده وحقوقه، بل إسقاط الفكرة التي تجعل سيرته وقصده المرجع النهائي الذي يغلق النص ويحدد كل معانيه، وهو ما أتاح للقارئ مساحة نظرية أكبر بعد أن لم يعد مطالبًا بالعودة إلى صاحب النص في كل اختلاف تأويلي.

البنيوية وإعادة تحديد موقع القارئ

أسهمت البنيوية بدورها في إضعاف مركزية المؤلف، لكنها لم تجعل القارئ فورًا مركز العملية الأدبية، لأن اهتمامها الأساسي انصب على الأنظمة والبنى والقواعد التي تجعل اللغة والنصوص ممكنة، وقد كان لتصور فردينان دو سوسير للغة بوصفها نظامًا من العلاقات أثر حاسم في إعادة توجيه النقد من الفرد إلى البنية [3]. فالدلالة لا تفهم بوصفها انعكاسًا مباشرًا لنية شخص، بل تنتج داخل نظام من الاختلافات والعلاقات، وبذلك يصبح النص جزءًا من شبكة من القواعد والأجناس والرموز والتقاليد التي تسبقه وتجاوز إرادة صاحبه.

غير أن البنيوية فتحت في الوقت نفسه الباب أمام إعادة تعريف القارئ، لأن فهم النص يفترض امتلاك نوع من الكفاية التي تسمح بالتعرف إلى القواعد الأدبية والثقافية التي تنظمه. وقد طور جوناثان كولر هذه الفكرة في *Structuralist Poetics* حين اهتم بما يجعل القارئ قادرًا على فهم التقاليد والاتفاقات الأدبية، أي بما يمكن وصفه بالكفاية الأدبية التي لا توجد داخل النص وحده بل يحملها المتلقي معه إلى فعل القراءة [4]. وهنا لم يعد القارئ وعاءً فارغًا، لأنه يحتاج إلى معرفة ضمنية بما هو سردي أو مجازي أو ساخر أو نوعي حتى يستطيع إنتاج قراءة ممكنة، غير أن البنيوية ظلت تميل إلى النظر إلى هذه الكفاية في إطار أنظمة عامة أكثر من اهتمامها بالقارئ التاريخي الفرد وتجربته المتغيرة.

وهكذا كان انتقال النقد من المؤلف إلى النص مرحلة ضرورية قبل انتقاله إلى القارئ، لأن النص لم يعد مجرد تعبير عن ذات مبدعه، والقارئ لم يعد مجرد مستقبل، لكنه لم يصبح بعد مركزًا كاملًا لإنتاج المعنى. وقد بينت جين تومبكنز، في مجموعتها المرجعية حول نقد استجابة القارئ، أن هذا المجال لم يظهر بوصفه مدرسة واحدة متجانسة، وإنما تبلور عبر انتقالات معقدة من الشكلانية والبنيوية إلى الظاهراتية وما بعد البنيوية [12]، وهو ما يدل على أن صعود القارئ كان نتيجة مسار طويل لا لحظة نظرية منفردة.

المبحث الثالث: جماليات التلقي

هانس روبرت ياوس وأفق الانتظار

تمثل جماليات التلقي التي ارتبطت بمدرسة كونستانس تحولًا حاسمًا في تاريخ موقع القارئ، لأنها نقلت الاهتمام من ظروف إنتاج العمل أو بنيته الداخلية وحدها إلى تاريخ استقباله وإلى الشروط التي يلتقي من خلالها الجمهور بالنصوص. وقد جاء هانس روبرت ياوس في قلب هذه النقلة حين جعل «أفق الانتظار» مفهومًا أساسيًا لفهم كيفية دخول القراء التاريخيين إلى الأعمال الأدبية [6]. فالقارئ، في هذا التصور، لا يواجه النص من فراغ، بل يدخل إليه حاملًا خبرة سابقة بالأنواع والأساليب والأعراف والتقاليد، ولذلك فإن العمل الجديد يُقاس في جانب من أثره بالمسافة بين ما يتوقعه الجمهور وما يقدمه النص بالفعل.

ويتيح مفهوم أفق الانتظار فهم القراءة بوصفها لقاءً بين جديد العمل وذاكرة المتلقي الثقافية، لأن القارئ لا يتلقى النص باعتباره وحدة مكتفية بنفسها، بل يقارنه ضمنيًا أو صراحة بأعمال عرفها وبمعايير تعلمها وبأنواع أدبية توقع منها خصائص محددة. وقد ينسجم العمل مع الأفق الموجود فيؤكد توقعات الجمهور، أو يصدمه ويعدل معاييره، وفي هذه المسافة بين المألوف والجديد تتشكل تجربة جمالية وتاريخية. ومن هنا أصبح القارئ عند ياوس صاحب تاريخ، ولم يعد وجوده مجرد لحظة لاحقة على الكتابة، لأن تاريخ الأدب نفسه لا يمكن أن يُفهم من دون تاريخ قراءاته وتحول قيمته من جيل إلى آخر.

وتكتسب هذه الفكرة أهمية خاصة بالنسبة إلى مشروع القارئ الهجين، لأن أفق الانتظار، وإن كان عند ياوس مفهومًا تاريخيًا وثقافيًا، يسمح لنا اليوم بطرح سؤال إضافي حول الدور الذي تؤديه المنصات والتوصيات والتقييمات الرقمية في تشكيل بعض توقعات القارئ قبل أن يبدأ العمل. وإذا كان هذا البحث سيقترح لاحقًا مفهوم «أفق الانتظار الخوارزمي»، فإن ذلك لا يعني

نسبته إلى ياوس أو استبدال مفهومه الأصلي، بل يعني تطويره ليتعامل مع عنصر جديد لم يكن موجوداً في البيئة التي ظهرت فيها جماليات التلقي.

تاريخ الأدب من منظور المتلقي

لم يكن مشروع ياوس مقتصراً على وصف تجربة قارئ فرد ، بل كان يتضمن إعادة نظر في طريقة كتابة تاريخ الأدب نفسه، لأن العمل الأدبي لا يعيش في لحظة ظهوره فقط، وإنما يدخل في سلسلة طويلة من الاستقبالات وإعادة التقييم وإعادة الاكتشاف. فقد يفشل نص عند صدوره ثم يصبح لاحقًا مركزيًا ، وقد يحقق عمل شهرة واسعة في عصر ثم تتراجع قيمته في عصر آخر، وقد تظهر في نص قديم دلالات لم تكن محور اهتمام جمهوره الأول، وبذلك يصبح تاريخ الأدب تاريخًا للعلاقات المتغيرة بين الأعمال والجماعات التي تستقبلها.

وتمثل هذه النقلة خطوة أساسية في الطريق نحو مفهوم القارئ الهجين، لأنها أثبتت أن القراءة ليست نشاطًا فرديًا معزولًا عن الزمن، بل واقعة تاريخية تتغير بتغير القراء والسياقات. وإذا وسعنا هذا المنظور اليوم ، فإن علينا ألا ندرس فقط تغير الأجيال والقيم ، بل كذلك تغير البيئات التقنية التي تتم داخلها القراءة، لأن القارئ الذي يقرأ عملًا ورقيًا في مكتبة لا يعيش شروط التلقي نفسها التي يعيشها قارئ يصل إلى العمل عبر توصية خوارزمية ويقرأه محاطًا بمراجعات رقمية ومساعد توليدي. ومن هنا تصبح مساهمة ن. كاثرين هايلز في ربط الممارسات المعرفية بتحولات الوسائط ذات قيمة خاصة، لأنها تسمح بتوسيع تاريخ الاستقبال إلى تاريخ البيئات التي تنظم هذا الاستقبال [13].

المبحث الرابع: فعل القراءة عند وولفغانغ إيزر

القارئ الضمني

إذا كان ياوس قد ركز على أفق الجمهور التاريخي، فإن وولفغانغ إيزر توجه بدرجة أكبر إلى البنية الداخلية لفعل القراءة، وخصوصًا من خلال مفهومي «القارئ الضمني» و«فعل القراءة» [7][8]. ولا يشير القارئ الضمني إلى فرد واقعي له اسم وسيرة، بل إلى موقع قرائي يبنيه النص من خلال الطريقة التي ينظم بها المعلومات ويؤجل بعض التفاصيل ويوزع وجهات النظر ويخلق التوقعات والمفاجآت، بحيث يفترض قارئًا قادرًا على متابعة هذه الاستراتيجية وتحقيقها أثناء القراءة.

وتكمن أهمية هذا المفهوم في أنه يمنع من جهة اختزال القراءة في ما يفعله أي قارئ فعلي اعتباطًا، ومن جهة أخرى يرفض فكرة أن النص يحمل دلالته مكتملة قبل التلقي، لأن العمل يحتاج إلى قارئ يفعّل إمكاناته وينظم العلاقات بين عناصره. وهكذا تصبح القراءة حدثًا يحدث بين الطرفين، لا مجرد انتقال للمعنى من النص إلى المتلقي، ويصبح القارئ عنصرًا في تحقق العمل الجمالي من دون أن يمتلك مع ذلك حرية مطلقة تتجاهل ما يتيحه النص أو يمنعه.

الفراغات النصية ودور القارئ في ملئها

تتضح فاعلية القارئ عند إيزر بصورة أكبر من خلال مفهوم الفراغات أو مناطق عدم التحديد، لأن النص لا يقول كل شيء ولا يستطيع أن يصرح بكل العلاقات الممكنة، ولذلك يترك فجوات بين الأحداث والمعلومات والمنظورات، ويكون على القارئ أن يبني استمرارية مؤقتة وأن يضع فرضيات ثم يعدلها كلما ظهرت معلومات جديدة. فالرواية قد تقفز سنوات من دون تفسير كامل لما حدث، وقد تترك دوافع شخصية غير محسومة، وقد تقدم منظورًا ثم تقوضه لاحقًا، وفي كل هذه الحالات يقوم القارئ بعمل معرفي وتأويلي لا يمكن الاستغناء عنه.

ولا تمثل الفراغات نقصًا في النص، بل هي جزء من آليته في استدعاء المشاركة، لأن العمل الذي يشرح كل شيء ويلغي كل غموض يقلل المساحة التي يعمل فيها القارئ. ومن هنا تصبح القراءة سلسلة متواصلة من بناء الفرضيات وتصحيحها وإعادة النظر فيها، وهو ما يجعل الزمن عنصرًا أساسيًا في فعل التلقي، لأن المعنى الذي كان للقارئ في بداية الرواية قد يتغير بعد نهايتها، وقد يعيد فهم المقاطع السابقة في ضوء ما عرفه لاحقًا.

وتصبح هذه الفكرة شديدة الأهمية عندما نضعها أمام الذكاء الاصطناعي التوليدي، لأن النظام الحواري يستطيع الدخول تحديدًا في هذه الفراغات وتقديم إجابات فورية عنها. فإذا واجه القارئ نهاية غامضة أو دوافع غير واضحة أو رمزًا متعدد الدلالات، فإنه يستطيع أن يسأل الآلة فورًا، وهنا لم تعد عملية ملء الفراغ بشرية خالصة كما كانت في النموذج الأصلي، بل يمكن أن تصبح عملية هجينة يشترك فيها القارئ والنظام بدرجات مختلفة. ومن ثم فإن السؤال الجديد الذي يطرحه مشروعنا لا يتمثل في إلغاء مفهوم إيزر، بل في توسيعه: ماذا يحدث لفراغ النص عندما توجد آلة مستعدة دائمًا لأن تقترح طريقة لملئه؟ وهل تساعد هذه الآلة القارئ على بناء تأويله أم أنها تملأ المسافة نيابة عنه وتختصر الجهد الذي كان جوهر الفعل القرائي؟

المبحث الخامس: القارئ النموذجي والجماعة التأويلية

أمبرتو إيكو والقارئ النموذجي

يقدم أمبرتو إيكو تصورًا يضيف إلى فاعلية القارئ مفهومًا مهمًا هو «القارئ النموذجي»، الذي لا يشير إلى قارئ حقيقي بعينه، بل إلى قارئ تفترضه استراتيجية النص وتحتاج إليه لكي تتحقق عملياتها الدلالية [9]. فالنص لا يفتح نفسه لكل استعمال ممكن بلا حدود، وإنما يوجه قارئه عبر شبكة من التعليمات والإشارات والافتراضات، ويحتاج إلى قدر من الكفاية اللغوية والثقافية والتناصية حتى يعمل بالطريقة التي تسمح بها بنيته.

ومن هنا تنشأ عند إيكو علاقة توازن دقيقة بين انفتاح النص وحدود التأويل، إذ لا يمكن العودة إلى مركزية المعنى الواحد، لكن لا يمكن كذلك القول إن كل تفسير مشروع لمجرد أن قارئًا أو نظامًا استطاع توليده. وقد عاد إيكو في *The Limits of Interpretation* (حدود التأويل) هذه المسألة بصورة أكثر صراحة، فانتقد التوسع غير المنضبط في التأويل ودافع عن ضرورة الاحتفاظ بحقوق النص في مواجهة التأويلات التي لا يمكن دعمها من بنيته وسياقه.[10]

وتكتسب هذه الفكرة أهمية استثنائية في عصر الذكاء الاصطناعي، لأن النظام يستطيع أن يولد عشرات القراءات المحتملة للعمل نفسه، وقد تكون لغته مقنعة حتى عندما تكون العلاقة بالنص ضعيفة. ولذلك يمكن تطوير المبدأ الإيكوي ليصبح قاعدة مركزية في نظرية القارئ الهجين: القدرة على توليد تأويل لا تمنحه الشرعية تلقائيًا، بل يجب أن يخضع للدليل النصي والسياقي. فالآلة تستطيع أن تقترح، لكن القارئ ينبغي أن يفحص، والنص ينبغي أن يظل مرجعًا للمساءلة، وبذلك يصبح إيكو أحد أهم المرتكزات في بناء مفهوم «المسؤولية التأويلية» الذي يحتاج إليه القارئ الهجين.

ستانلي فيش والجماعات التأويلية

يذهب ستانلي فيش إلى خطوة أخرى حين يجعل القراءة مرتبطة بالجماعات التأويلية التي ينتمي إليها القارئ، لأن الفرد لا يدخل إلى النص باستراتيجيات اخترعها وحده، بل يتعلم داخل جماعاته ما الذي يمكن اعتباره سؤالًا مشروعًا أو دليلًا مقنعًا أو معنى معقولًا [11]. وهكذا لا يكون التأويل فرديًا محضًا ولا نصيًا محضًا، بل يتشكل داخل ممارسات مشتركة تمنح القراءة قواعدها.

وتتيح هذه الفكرة تجاوز صورة القارئ المنعزل، لأن الإنسان يقرأ بوصفه عضوًا في ثقافة ومؤسسة ومدرسة وأفق اجتماعي، وقد يرى الناقد النفسي في النص عناصر لا يركز عليها الناقد التاريخي، وقد يقرأ الطالب العمل بطريقة مختلفة عن قارئ ينتمي إلى جماعة دينية أو سياسية أو أدبية معينة، لا لأن النص يتغير ماديًا، بل لأن الاستراتيجيات التي يحملها القراء مختلفة. ومن هنا يصبح المعنى مرتبطًا بجماعات تنتج شروط إمكانه.

غير أن البيئة الرقمية تضيف إلى هذه الفكرة عنصرًا جديدًا، لأن الجماعة التأويلية لم تعد بالضرورة محيطًا اجتماعيًا بعيدًا عن لحظة القراءة، بل يمكن أن تصبح مرئية حول النص من خلال التعليقات والمراجعات والتقييمات والحواشي الاجتماعية ومقاطع الفيديو، بحيث يدخل القارئ إلى العمل وهو يرى آثار قراءات الآخرين قبل أن يبني قراءته الخاصة. والأهم أن هذه الأصوات لا تظهر بالدرجة نفسها، لأن الخوارزمية ترتبها وتمنح بعض التعليقات والمراجعات حضورًا أكبر من غيرها، وبذلك تصبح الجماعة التأويلية نفسها موسطة تقنيًا. ومن هنا يمكن الحديث عن انتقال من الجماعة التأويلية عند فيش إلى «الجماعة التأويلية المؤطرة خوارزميًا»، حيث لا يقتصر أثر المجتمع على إنتاج المعنى، بل تدخل المنصة في تحديد أي معاني المجتمع تصبح أكثر ظهورًا أمام القارئ.

المبحث السادس: حدود نظريات التلقي التقليدية

غياب الوسيط الخوارزمي

قدمت نظريات التلقي والقراءة تحولات حاسمة في فهم العلاقة بين النص والمتلقي، لكنها تشكلت داخل بيئة لم تكن تعرف أنظمة التوصية والمنصات الخوارزمية والنماذج التوليدية، ولذلك فإن محدوديتها لا تنبع من خطأ في مفاهيمها، بل من أن موضوع القراءة نفسه أصبح أكثر تعقيداً مما كان عليه زمن ظهورها. فعندما تحدث ياوس عن أفق الانتظار، لم يكن القارئ يحصل على قوائم شخصية للكتب مبنية على تاريخه السلوكي، وعندما تحدث إيزر عن الفراغات لم تكن هناك آلة تستطيع أن تقدم تفسيراً فورياً لكل غموض، وعندما تحدث إيكو عن القارئ النموذجي لم يكن القارئ الفعلي قادراً على تعويض نقص كفايته عبر أداة توليدية تشرح له المرجعيات، وعندما تحدث فيش عن الجماعة التأويلية لم تكن الخوارزميات ترتب ملايين الآراء وتقرر أيها يصل أولًا إلى المستخدم.

ومن هنا لا يمكن الاكتفاء اليوم بالنموذج الذي يجعل العلاقة بين النص والقارئ مباشرة، لأن القراءة في كثير من البيئات الرقمية أصبحت تمر عبر منصة وخوارزمية وبيانات ومحتوى اجتماعي ونظم ذكية. وقد بين تارلتون غيليسبي أن الخوارزميات تشارك في تحديد ما يعتبر ذا صلة وفي ترتيب المعلومات داخل الأنظمة الرقمية [14]، كما حلل هالينان وستريبهاس أنظمة التوصية بوصفها جزءاً من «ثقافة خوارزمية» تشارك في تصنيف التفضيلات وتنظيم الاستهلاك الثقافي [15]، بينما درست تاينا بوخر القوة الخوارزمية من زاوية تأثيرها في الظهور وتجربة المستخدم داخل المنصات [16].

وعليه فإن القارئ المعاصر قد لا يصل إلى النص مباشرة، بل يصل إلى نص سبق أن مر عبر عمليات ترتيب وتصنيف وتوصية، وقد يكون قد شاهد تقييماته ومراجعاته قبل أن يبدأه، وقد تستخدم بياناته السابقة لتحديد الأعمال التي ستظهر له لاحقًا، وقد يستعين بعد ذلك بنظام توليدي لشرح ما يقرأه.

وهكذا لم يعد الوسيط شفافًا، لأن دوره انتقل من مجرد نقل المحتوى إلى المساهمة في تشكيل شروط ظهوره ومسار تلقيه.

وتزداد الفجوة بين النظريات التقليدية والبيئة الحالية وضوحًا عندما تتحول القراءة نفسها إلى بيانات، لأن القارئ لم يعد فقط من يقرأ النص، بل أصبح النظام قادرًا على معالجة آثار سلوكه القرائي وتوظيفها في تخصيص ما سيعرض له. ومن هنا يظهر نموذج لم يكن حاضرًا في نظريات التلقي السابقة، حيث تدخل القراءة في حلقة متكررة من التفاعل والبيانات والتوصية، فيصبح القارئ في الوقت نفسه فاعلًا يقرأ وموضوعًا يُحلل سلوكه.

ضرورة تحديث مفهوم القارئ

لا تعني ضرورة تحديث مفهوم القارئ إلغاء القارئ التاريخي عند ياوس أو القارئ الضمني عند إيزر أو القارئ النموذجي عند إيكو أو الجماعات التأويلية عند فيش، بل تعني إضافة طبقة جديدة إلى هذه التصورات تسمح بفهم القارئ الذي يعيش داخل بيئة رقمية وخوارزمية. فالقارئ الهجين يمكن أن يكون في الوقت نفسه قارئًا تاريخيًا ذا أفق انتظار، وقارئًا يملأ فراغات النص، وقارئًا يحتاج إلى كفايات نموذجية، وعضوًا في جماعة تأويلية، لكنه يستخدم أيضًا محرك بحث وترجمة آلية ومنصة توصية ونظامًا توليديًا، ولذلك فإن ما يميزه ليس إلغاء أشكال القارئ السابقة، بل تراكمها داخل وضع تقني جديد.

ومن هنا يمكن النظر إلى تاريخ القارئ بوصفه توسعًا تدريجيًا في وحدة التحليل، إذ انتقل من متلقٍ في نهاية السلسلة إلى حامل للكفاية، ثم إلى قارئ تاريخي، ثم إلى فاعل في تحقيق النص، ثم إلى عضو في جماعة تأويلية، ثم إلى مستخدم للوسائط الرقمية، ثم إلى قارئ خوارزمي، وأخيرًا إلى قارئ هجين تتوزع بعض وظائفه المعرفية بينه وبين أدوات خارجية. ويقترب هذا التصور من أطروحة «العقل الممتد» عند آندي كلارك وديفيد تشالمرز، التي تسمح بالتفكير في إمكان دخول بعض الموارد الخارجية

وظيفيًا في العمليات المعرفية [17]، كما ينسجم مع تصور هايلز للعلاقة المتبادلة بين الإنسان والتقنيات الرقمية.[13]

وهنا يظهر الفرق بين القارئ الرقمي والقارئ الهجين بصورة أكثر دقة، لأن الأول قد يقرأ نصًا إلكترونيًا دون أن تتدخل الآلة في عملية الفهم نفسها، بينما تبدأ الهجنة عندما تدخل الأدوات في وظائف مثل الاسترجاع والترجمة والتلخيص والمقارنة والشرح واقتراح التأويل. ولذلك يمكن القول إن الهجنة ليست خاصية في الشاشة، بل في البنية المعرفية للقراءة.

ومن هذا المنطلق يمكن إعادة النظر في مفاهيم النظريات السابقة بطريقة تسمح بتوسيعها دون تشويهها. فأفق الانتظار عند ياوس يمكن أن تضاف إليه طبقة خوارزمية تتشكل من التوصيات والتقييمات والتخصيص، والفراغات عند إيزر يمكن أن تصبح مجالًا لتدخل آلي قد يعزز نشاط القارئ أو يستبدله، والقارئ النموذجي عند إيكو يفتح أمامنا سؤالًا جديدًا حول قدرة التقنية على تعويض بعض الكفايات التي يفتقدها القارئ الفعلي، بينما تتحول الجماعات التأويلية عند فيش في البيئة الرقمية إلى جماعات تظهر أصواتها عبر ترتيب خوارزمي غير متساوٍ.

غير أن أهم تحول يفرضه هذا التحديث يتعلق بالانتقال من مركزية القارئ إلى شبكة إنتاج المعنى. فإذا كانت نظريات التلقي قد حررت القارئ من سلطة المؤلف والنص المغلق، فإن نظرية القارئ الهجين لا ينبغي أن تستبدل تلك المركزية بمركزية مطلقة للقارئ، لأن المعنى المعاصر قد يتشكل داخل شبكة تضم النص والقارئ والخوارزمية والسياق. ويصبح النموذج الأكثر ملاءمة لهذه البيئة هو :**النص ↔ القارئ ↔ الخوارزمية ↔ السياق**، مع ضرورة الإبقاء على الفروق بين هذه العناصر، لأن الخوارزمية تستطيع أن تقترح وتعيد الترتيب والتلخيص، لكنها لا تمتلك التجربة الإنسانية ذاتها ولا تتحمل المسؤولية الأخلاقية عن الحكم التأويلي، ولذلك يظل القارئ مركز المسؤولية حتى عندما تتوزع بعض الوظائف معرفيًا.

ومن هنا يصل الفصل إلى مفهوم «القارئ الميتا خوارزمي»، أي القارئ الذي لا يكتفي باستخدام النظام في القراءة، بل يجعل النظام نفسه موضوعًا للفحص، فيسأل لماذا وصل إليه هذا النص، ولماذا قدمت الآلة هذا التفسير، وما المصادر التي يمكن التحقق منها، وما الذي غاب عن الجواب، وهل التوصية محايدة أم مخصصة، وبذلك ينتقل النقد من قراءة المؤلف ثم النص ثم القارئ إلى قراءة البنية التقنية التي تشارك القارئ في إنتاج شروط القراءة.

خاتمة الفصل الأول

يكشف هذا المسار أن صعود القارئ إلى مركز النظريات الأدبية لم يكن لحظة واحدة ولا انقلاباً منفصلاً، بل كان نتيجة حركة طويلة بدأت بتفكيك سلطة المؤلف، ثم بإعطاء النص استقلالاً عن صاحبه، قبل أن تكشف البنيوية حاجة القراءة إلى كفايات وقواعد، ثم جاءت جماليات التلقي لتجعل القارئ صاحب أفق تاريخي، وأكد إيزر أن النص لا يتحقق جمالياً من دون نشاط القارئ داخل فراغاته، بينما حافظ إيكو على التوازن بين حرية التأويل وحدود النص، ووسّع فيش المجال ليشمل الجماعات التي تشكل استراتيجيات القراءة. غير أن البيئة الرقمية والخوارزمية تكشف اليوم أن هذه الجينالوجيا لم تصل إلى نهايتها، لأن القارئ أصبح يواجه وسيطاً يستطيع أن يختار ويصنف ويقترح ويترجم ويلخص ويولد خطاباً حول النص، وهو ما يفرض إضافة سؤال جديد إلى تاريخ نظريات القراءة.

ولا يعني ذلك أن النظريات السابقة أصبحت متجاوزة، بل العكس، إذ لا يمكن التفكير في القارئ الهجين من دونها، غير أن البيئة التي نشأت فيها لم تكن تعرف أنظمة توصية شخصية ولا مساعدات توليدية ولا اقتصاد بيانات قائماً على سلوك المستخدم. ولهذا فإن المهمة النظرية التي يقترحها هذا الكتاب تتمثل في نقل الأسئلة التي صاغها ياوس وإيزر وإيكو وفيش إلى بيئة جديدة، بحيث لا يعود السؤال فقط ماذا يفعل القارئ بالنص، بل ماذا يحدث للقارئ والنص معاً عندما تدخل الخوارزمية بينهما أو إلى جانبهما.

ومن هنا يمكن النظر إلى تطور موقع القارئ في تاريخ النظرية الأدبية بوصفه انتقالاً من المتلقي إلى الفاعل، ثم من الفاعل الفردي إلى الفاعل الاجتماعي، وأخيراً إلى الفاعل البشري الذي يعمل داخل شبكة تقنية. وعند هذه النقطة يبدأ مفهوم «القارئ الهجين» في اكتساب مبرره النظري الحقيقي، لأنه لا يصف مجرد قارئ يستخدم جهازاً جديداً، بل يصف قارئاً يعيد بناء فعله المعرفي داخل بيئة تشارك فيها الآلة بعض الوظائف من دون أن يصبح ذلك مبرراً لنقل المسؤولية التأويلية إليها. وبذلك يظل القارئ،

رغم كل التحولات التقنية، مركز الحكم والنقد والمسؤولية، لكن مركزه لم يعد معزولًا، بل أصبح نقطة تقاطع داخل شبكة أوسع لإنتاج المعنى.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Abrams, M. H.** *The Mirror and the Lamp: Romantic Theory and the Critical Tradition*. New York: Oxford University Press, 1953.

مرجع أساسي لفهم تحولات النظريات النقدية وخصوصًا الاتجاهات التعبيرية التي منحت المبدع موقعًا مركزيًا في تفسير العمل.

[2] **Wimsatt, W. K. Jr. & Beardsley, Monroe C.** "The Intentional Fallacy." *The Sewanee Review*, Vol. 54, No. 3, 1946, pp. 468–488.

يمثل المقال محطة أساسية في نقد الاعتماد على قصد المؤلف معيارًا نهائيًا لمعنى النص وقيمته.

[3] **Saussure, Ferdinand de.** *Course in General Linguistics*. Edited by Charles Bally and Albert Sechehaye, 1916.

يمثل المرجع اللساني المؤسس لفهم اللغة بوصفها نظامًا من العلاقات، وهو ما استفادت منه البنيوية الأدبية في نقل الاهتمام من الذات الفردية إلى البنى.

[4] **Culler, Jonathan.** *Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and the Study of Literature*. 1975.

يفيد في فهم الصلة بين البنيوية واللسانيات ومفهوم الكفاية الأدبية للقارئ.

[5] **Barthes, Roland.** "The Death of the Author." 1967؛ أعيد نشره في *Image–Music–Text*, translated by Stephen Heath, London: Fontana, 1977, pp. 142–148.

يمثل نصًا محوريًا في تفكيك سلطة المؤلف باعتباره المصدر النهائي لمعنى العمل.

[6] **Jauss, Hans Robert.** *Toward an Aesthetic of Reception*. Translated by Timothy Bahti. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.

أحد المراجع المؤسسة لجماليات التلقي، وخصوصًا مفهوم أفق الانتظار وإعادة بناء تاريخ الأدب من منظور المتلقي.

[7] Iser, Wolfgang. *The Implied Reader: Patterns of Communication in Prose Fiction from Bunyan to Beckett*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1974.
مرجع أساسي لمفهوم القارئ الضمني ولدراسة موقع القارئ الذي تبنيه استراتيجية النص.

[8] Iser, Wolfgang. *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.
يمثل الإطار النظري الأشمل لفعل القراءة ودور الفراغات وعدم التحديد في إنتاج المشاركة القرائية.

[9] Eco, Umberto. *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts*. Bloomington: Indiana University Press, 1979.
مرجع أساسي في مفهوم القارئ النموذجي والتعاون التأويلي والعلاقة بين النص والقارئ.

[10] Eco, Umberto. *The Limits of Interpretation*. Bloomington: Indiana University Press, 1990.
يكتسب أهميته في الدفاع عن حدود التأويل ونقد التفسير غير المنضبط الذي لا يستند إلى بنية النص.

[11] Fish, Stanley. *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980.
مرجع تأسيسي لمفهوم الجماعات التأويلية ودور الممارسات المشتركة في إنتاج المعنى.

[12] Tompkins, Jane P. (ed.). *Reader-Response Criticism: From Formalism to Post-Structuralism*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1980.
مجموعة مرجعية مهمة توثق تنوع النقد المتمحور حول القارئ وانتقالاته النظرية.

[13] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press,

2012.
يستخدم في هذا البحث لربط تاريخ القراءة بتاريخ الوسائط ولدراسة العلاقة المتبادلة بين الممارسات المعرفية والتقنيات الرقمية.

[14] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. MIT Press, 2014.
مرجع مركزي لدراسة الدور الثقافي والاجتماعي للخوارزميات في ترتيب المعلومات وتحديد الصلة والظهور.

[15] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137.
مرجع مهم لمفهوم الثقافة الخوارزمية ودراسة أنظمة التوصية بوصفها عناصر مشاركة في تصنيف التفضيلات وتنظيم الاستهلاك الثقافي.

[16] Bucher, Taina. *If…Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.
يفيد في تحليل القوة الخوارزمية وتأثيرها في الظهور وتجربة المستخدم داخل المنصات.

[17] Clark, Andy & Chalmers, David. "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19.
يوفر أساسًا فلسفيًا لفكرة إمكان امتداد بعض العمليات المعرفية إلى موارد خارجية، وهو ما يستثمره هذا الكتاب لاحقًا في تحليل القراءة الهجينة والذات القارئة الموزعة.

خلاصة مرجعية

تنتظم مراجع هذا الفصل في ثلاث طبقات متكاملة؛ إذ تفسر أعمال أبرامز وويمسات وبيردسلي وسوسير وكولر وبارت [1–5] انتقال النقد من مركزية المؤلف إلى استقلال النص وإعادة تعريف شروط القراءة، بينما تشكل أعمال ياوس وإيزر وإيكو وفيش وتومبكنز [6–12] الأساس النظري لصعود القارئ إلى مركز عملية إنتاج المعنى، في حين تتيح أعمال هايلز وغيليسبي وهالينان وستريبهاس وبوخر وكلارك وتشالمرز [13–17] الانتقال من نظريات القارئ التقليدية إلى سؤال القارئ الذي يعيش داخل بيئة رقمية وخوارزمية، وهو السؤال الذي ستتولى الفصول التالية تطويره وصولًا إلى تأسيس مفهوم القارئ الهجين.

الفصل الثاني

من الورق إلى الشاشة:

التحولات المادية والثقافية للقراءة

لا يمكن فهم التحولات التي أصابت القارئ المعاصر، ولا الانتقال الذي يقترحه هذا الكتاب من مفهوم القارئ الرقمي إلى مفهوم القارئ الهجين، من دون العودة إلى التاريخ المادي والثقافي لفعل القراءة نفسه، لأن القراءة لم تكن في أي مرحلة نشاطًا ذهنيًا خالصًا منفصلًا عن الأجسام والأدوات والفضاءات التي تحمل النصوص وتعرضها وتنظم التعامل معها، بل ظلت مرتبطة على الدوام باللوح والبردي والمخطوط والكتاب المطبوع والشاشة والواجهة، كما ظلت تتغير تبعًا للطريقة التي يُكتب بها النص ويُخزن ويوزع ويُسمع ويُرى ويُلمس ويُستعاد. ومن ثم فإن الانتقال من الورق إلى الشاشة لا يمكن اختزاله في استبدال مادة بمادة أو جهاز بكتاب، لأن الحامل ليس مجرد وعاء محايد يحتفظ بمحتوى يمكن نقله دون أثر، وإنما يشارك، بدرجات متفاوتة، في تنظيم مسار القراءة وعلاقتها بالذاكرة والانتباه والجسد والزمن والمكان.

وقد بينت دراسات تاريخ القراءة أن الممارسات القرائية لم تكن ثابتة عبر العصور، وأن الانتقال بين أنماط الكتابة وتقنيات إنتاج النصوص صاحبه تغير في طرائق القراءة والجمهور والأعراف الثقافية التي تنظم علاقة الإنسان بالمكتوب [1][2]. فهناك فرق بين النص الذي يُلقى في مجلس ويسكن الذاكرة من خلال الصوت والإيقاع، والمخطوط الذي ينسخه ناسخ وتحتفظ صفحاته بخصوصيتها المادية، والكتاب المطبوع الذي يتيح إنتاج نسخ متشابهة بكميات واسعة، والنص الرقمي الذي يتحول إلى بيانات قابلة للبحث والتعديل والربط والتفاعل. وقد قدم روجيه شارتييه، من خلال أعماله حول تاريخ الكتاب والقراءة، تصورًا يؤكد أن معنى النص لا ينفصل تمامًا عن الأشكال المادية التي تتيح تملكه واستعماله، وأن تاريخ الكتاب

يتقاطع بالضرورة مع تاريخ القراء والمكتبات وأشكال تنظيم المكتوب [3]. وتؤكد دراسات تاريخ القراءة في الغرب أن التغيرات التقنية في الأشكال المادية للكتب رافقتها تحولات في ممارسات القراءة والجمهور وأساليب استعمال النصوص .

ولهذا فإن هذا الفصل لا يسعى إلى كتابة تاريخ شامل للقراءة منذ العصور القديمة، وإنما إلى تتبع مجموعة من التحولات التي تساعد على فهم الشروط التي أفضت إلى الوضع الراهن، حيث لم تعد القراءة مرتبطة بنص ثابت وحامل واحد ومسار خطي محدد سلفًا، بل أصبحت تتم داخل بيئة يمكن أن تجمع النص والصورة والصوت والفيديو والرابط والتعليق والتوصية والبحث، قبل أن يضاف إليها الذكاء الاصطناعي بوصفه وسيطًا قادرًا على الحوار مع القارئ حول ما يقرأ. وسيكشف هذا المسار أن القارئ الهجين ليس طفرة ظهرت فجأة مع النماذج التوليدية، بل هو نتيجة بعيدة لسلسلة من التحولات التي بدأت بإعادة تنظيم العلاقة بين الصوت والكتابة، ثم بين المخطوط والطباعة، ثم بين الصفحة والواجهة، ثم بين الخطية والتشعب، وأخيرًا بين القراءة بوصفها انتقالًا داخل كتاب والقراءة بوصفها تنقلًا داخل شبكة.

المبحث الأول: القراءة الشفوية والمخطوط

القراءة الجماعية وذاكرة السماع

قبل أن تصبح القراءة مرتبطة في المخيال الحديث بصورة الفرد المنعزل أمام كتاب صامت، عرفت الثقافات الإنسانية أشكالًا واسعة من التلقي تقوم على الصوت والسماع والحضور الجماعي، ولم تكن الحدود بين القراءة والإلقاء والاستماع والحفظ مستقرة بالطريقة التي أصبحت عليها لاحقًا. وقد بين والتر أونغ في دراسته عن الشفوية والكتابة أن الثقافة الشفوية لا تقوم فقط على غياب الكتابة، بل تنتج أساليب خاصة في تنظيم المعرفة والذاكرة، حيث تؤدي الصيغ المتكررة والإيقاع والتوازي والعبارات القابلة للحفظ وظيفة أساسية في تثبيت المعرفة وانتقالها [1]. وفي مثل هذه البيئات لا يكون النص، بالمعنى الذي نفهمه اليوم، شيئًا موضوعًا أمام قارئ فردي يمكنه أن يعود إليه متى شاء، وإنما يكون الكلام حدثًا يحدث في الزمن، ويعتمد بقاؤه على الذاكرة وإعادة الأداء.

ويكتسب السماع في هذا السياق وظيفة معرفية وثقافية لا تقل عن وظيفة النظر، لأن المتلقي لا يملك النص بالمعنى المادي وحده، بل يتملكه عبر الأذن والذاكرة والجماعة، وهو ما يجعل القراءة الجماعية أو الإلقاء العلني ممارسة تتداخل فيها المعرفة بالأداء الاجتماعي. فالنص الذي يقرأ بصوت مرتفع لا يصل إلى كل متلق بالطريقة نفسها التي يصل بها النص الصامت إلى قارئ منفرد، لأن الإيقاع والنبر والوقفات والحضور الجسدي للقارئ الأول يصبح جزءًا من الوساطة، كما أن استجابة الجماعة نفسها قد تؤثر في تجربة المتلقي، وبذلك يصبح النص حدثًا اجتماعيًا بقدر ما هو محتوى لغويًا.

ولا يعني الانتقال إلى الكتابة أن الشفوية اختفت، بل استمرت الممارسات الصوتية إلى جانب الكتابة والمخطوط والطباعة، وقد ظلت القراءة الجهرية حاضرة في البيئات الدينية والتعليمية والأسرية والأدبية حتى بعد توسع القراءة الصامتة. وهذا التداخل مهم بالنسبة إلى مشروعنا، لأنه يبين

منذ البداية أن تاريخ القراءة ليس تاريخ إحلال كامل لوسيط محل آخر، وإنما تاريخ تراكم وإعادة توزيع للوسائط؛ فالشفوية بقيت داخل الثقافة المكتوبة، والصوت عاد اليوم بصورة جديدة داخل الكتب الصوتية والمساعدات الصوتية والواجهات التي تحول النص إلى كلام، وهو ما يدل على أن التقنيات الحديثة لا تعيد تشكيل المستقبل فقط، بل تستعيد أحيانًا وظائف قديمة داخل بنيات جديدة.

ومن الناحية المعرفية، تكشف القراءة السمعية عن ارتباط وثيق بين الذاكرة والإيقاع والتكرار، لأن المتلقي لا يستطيع دائمًا أن يعود إلى الجملة السابقة بالسهولة التي يتيحها النص المكتوب، ولذلك تكتسب بنية الخطاب أهمية مضاعفة في تثبيت المعنى. وفي المقابل تمنح الكتابة القارئ إمكان العودة والتوقف والمقارنة بين مواضع مختلفة، فتبدأ المعرفة في الانتقال من ذاكرة تعتمد بقوة على الاستيعاب الداخلي إلى ذاكرة تستطيع الاتكاء على العلامة الخارجية. ومن هنا يمكن اعتبار الكتابة بداية مبكرة لمسار طويل من إخراج بعض وظائف الذاكرة إلى وسيط مادي، وهو المسار الذي سيصل في البيئة الرقمية إلى قواعد البيانات ومحركات البحث والذاكرة السحابية.

المخطوط وخصوصية العلاقة بالنص

أحدث المخطوط تحولًا في علاقة الإنسان بالكلام حين منح النص وجودًا ماديًا يمكن العودة إليه، لكنه ظل يحمل خصائص تميزه بوضوح عن الكتاب المطبوع الحديث، لأن إنتاج النسخة المخطوطة كان عملًا فرديًا أو مؤسساتيًا يعتمد على النسخ اليدوي، وهو ما يجعل كل نسخة قابلة لأن تحمل فروقًا في الخط والتصحيح والزخرفة والترتيب والهوامش وأحيانًا في النص نفسه. ولم يكن القارئ يتعامل دائمًا مع «نسخة مطابقة» لما يملكه قراء آخرون، بل مع جسم مادي له تاريخه وخصائصه وآثار استعماله، ولذلك كانت العلاقة بالمخطوط تجمع بين القراءة ومشاهدة أثر اليد التي أنتجته.

وقد بين شارتييه أن تاريخ الكتاب لا يمكن فصله عن الطرق التي نظمت بها المجتمعات النصوص والمكتبات والكتابة، وأن الانتقال من الكتب المخطوطة إلى المطبوعات غيّر أنظمة إنتاج النصوص وتصنيفها وتداولها، لا محتوياتها فقط [3]. كما تكشف الدراسات الجامعة في تاريخ القراءة في الغرب أن شكل الكتاب وتقنيات إنتاجه أثرا في ممارسات القراءة وفي الجمهور الذي يستطيع الوصول إليه .[2]

ويتيح المخطوط نوعًا خاصًا من القرب المادي، لأن الصفحة لا تكون مجرد سطح موحد، بل فضاءً قد يجمع المتن والهامش والتعليق والتصحيح والرموز وأثر قارئ سابق، وقد يتحول الكتاب بذلك إلى تاريخ متراكم للقراءات. فالهوامش ليست دائمًا إضافات خارجية، بل يمكن أن تكشف الطريقة التي دخل بها القراء السابقون إلى النص، وهو ما يجعل الجسم المادي للمخطوط شاهدًا على تاريخ التلقي. ومن هذه الناحية يمكن للمخطوط أن يبدو أقرب، على نحو مفارق، إلى بعض البيئات الرقمية الحديثة التي تسمح للحواشي والتعليقات بالتراكم حول النص، مع فارق جوهري يتمثل في أن الهامش المخطوط يبقى مرتبطًا بجسم مادي محدود، بينما يمكن للهامش الرقمي أن يصبح مشتركًا بين عدد هائل من القراء.

كما أن ندرة النسخ وارتفاع تكلفة إنتاجها كانا يفرضان شروطًا مختلفة للوصول إلى المعرفة، بحيث لا يكون الكتاب شيئًا متاحًا بسهولة لكل قارئ، وهو ما يجعل القراءة مرتبطة بالمؤسسة الدينية أو التعليمية أو البلاط أو المكتبة أو جماعة محدودة. ومن هنا لا يمكن فصل تاريخ القراءة عن تاريخ إتاحة النص، لأن ما يستطيع الفرد قراءته يتحدد بقدر ما هو موجود أمامه. وهذه العلاقة بين الإتاحة والاختيار ستتغير بصورة جذرية مع الطباعة، ثم تنقلب مرة أخرى في العصر الرقمي عندما تنتقل المشكلة من ندرة النصوص إلى فائضها.

وكان للمخطوط كذلك إيقاعه الخاص في القراءة، إذ إن التعامل مع نص غير موحد الطبعة أو التقسيم يتطلب درجة مختلفة من الألفة المادية

بالكتاب، كما أن عملية النسخ نفسها كانت قادرة على أن تصبح فعل قراءة عميق، لأن الناسخ لا يمر على النص كما يمر عليه جهاز الاستنساخ، بل يعيد إنتاجه حرفًا بعد حرف، وهو ما يجعل الحدود بين الكتابة والقراءة أقل صرامة مما ستصبح عليه في الصناعة الطباعية. ويهمنا هذا الأمر لأن البيئة الرقمية ستعيد ، بطريقة مختلفة، تقريب الحدود بين القارئ والكاتب؛ فالقارئ المعاصر يستطيع النسخ والتعليق والمشاركة وإعادة الصياغة والنشر بسرعة، وبذلك يعود التلقي إلى اكتساب بعد إنتاجي كان حاضرًا بأشكال أخرى في ثقافات المخطوط.

المبحث الثاني: الطباعة وصناعة القارئ الحديث

الكتاب المطبوع واستقرار النص

شكل اختراع الطباعة بالحروف المتحركة وتوسعها الأوروبي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر نقطة تحول كبرى في تاريخ الثقافة المكتوبة، ليس لأن النصوص لم تكن موجودة قبلها، بل لأن الطباعة غيرت شروط تكاثرها وانتشارها واستقرارها النسبي. وقد خصصت إليزابيث آيزنشتاين عملها الضخم *The Printing Press as an Agent of Change* **لدراسة الآثار الواسعة للانتقال من النسخ اليدوي إلى الورشة الطباعية، وربطت هذا التحول بتغيرات في التعلم والبحث والتاريخ الفكري الأوروبي [4]. وتوضح** Cambridge University Press **أن كتابها يعالج الانتقال من المخطوط إلى الطباعة وآثاره في النهضة والإصلاح الديني وصعود العلم الحديث، كما يركز على الخصائص الجديدة التي أتاحتها الثقافة الطباعية..**

كان أحد آثار الطباعة الأكثر أهمية هو إمكان إنتاج أعداد كبيرة نسبيًا من النسخ المتشابهة، وهو ما دعم استقرارًا أكبر للنص وأتاح إحالات أكثر انتظامًا بين القراء، لأن الأشخاص أصبحوا قادرين، بصورة متزايدة، على الحديث عن طبعة واحدة وترقيم صفحات وفصول يمكن تحديدها بدرجة أعلى من الدقة. ولم يصبح النص ثابتًا بصورة مطلقة، فقد استمرت الاختلافات بين الطبعات والأخطاء والتعديلات، لكن مفهوم «النسخة» نفسه تغير، وأصبح الكتاب المطبوع يرسخ توقعًا بوجود نص يمكن تكراره على نطاق واسع مع الحفاظ على بنية متقاربة.

وهذا الاستقرار له أثر عميق في القراءة، لأنه يسمح ببناء ذاكرة مكانية أكثر انتظامًا، حيث يرتبط المعنى بموقع داخل الصفحة والفصل والكتاب، ويصبح الاقتباس والمراجعة والتدريس أكثر قابلية للتوحيد. كما سمحت الطباعة بتوسع الفهارس والمراجع وأنظمة التصنيف، وساعدت على تحول الكتاب إلى وحدة أكثر انتظامًا داخل السوق والمكتبة والمؤسسة

التعليمية. وإذا كانت الثقافة المخطوطة تجعل كل نسخة ذات فردية مادية قوية، فإن الثقافة الطباعية تدفع في اتجاه توحيد الشكل وتثبيت المرجع.

وقد ربط مارشال ماكلوهان في *The Gutenberg Galaxy* **صعود الطباعة بتحولات أوسع في الإدراك والثقافة والتنظيم الاجتماعي [5]، ورغم أن بعض تعميماته التاريخية تعرضت للنقد، فإن أهميته بالنسبة إلى بحثنا تكمن في الإصرار على أن التقنية التي تحمل الكلمة ليست مجرد خلفية محايدة، بل تدخل في إعادة تنظيم الحواس وعادات التلقي. ومن هنا يمكن فهم الكتاب المطبوع باعتباره أكثر من وسيلة لحفظ الكلام، لأنه رسخ شكلًا مخصوصًا من العلاقة بين القارئ والنص يقوم على الصفحة الخطية، والترتيب التسلسلي، والاستقرار المادي، والقدرة على امتلاك الكتاب والعودة إليه وفق بنية محددة.**

ولا ينبغي أن يعني ذلك أن الطباعة فرضت قراءة خطية واحدة لا يستطيع القارئ تجاوزها، فالقراء كانوا دائمًا يقفزون بين الفصول ويستخدمون الفهارس والهوامش ويقرؤون أجزاء دون أخرى، لكن بنية الكتاب المطبوع تمنح الخطية قوة تنظيمية واضحة، إذ يفترض الكتاب، في الغالب، بداية ونهاية وترتيبًا معينًا للصفحات، ويظل حتى القارئ الذي يقفز بين المواضع واعيًا بوجود بنية كاملة يمكن العودة إليها. وهذا الاستقرار هو الذي سيتعرض لاحقًا لإعادة التشكيل داخل النص التشعبي، حيث يصبح الانتقال بين الوحدات جزءًا من بنية النص نفسها لا مجرد قرار خارجي يتخذه القارئ.

القراءة الفردية وصعود الثقافة الجماهيرية

أتاحت الطباعة على المدى الطويل توسعًا في جمهور القراء وزيادة أعداد الكتب وتنوع أنواعها، وأسهمت إلى جانب التعليم والتحضر وتطور السوق والمؤسسات الثقافية في انتشار ممارسات القراءة الفردية، غير أن العلاقة بين الطباعة وصعود القراءة الصامتة أو الخاصة لا ينبغي اختزالها في سبب واحد، لأن تاريخ القراءة يكشف تداخلًا بين التحولات المادية والاجتماعية

والدينية والتعليمية [2][3]. ومن المهم هنا تجنب الرواية المبسطة التي تجعل اختراع المطبعة لحظة واحدة انتقلت فيها البشرية فجأة من القراءة الجماعية إلى الفردية، لأن الأنماط المختلفة ظلت تتعايش زمنًا طويلًا، إلا أن الكتاب المطبوع ساعد بلا شك على خلق شروط أكثر ملاءمة لامتلاك النص وقراءته بعيدًا عن المجلس الجماعي .

ومع توسع السوق الطباعية لم يعد الجمهور يتكون فقط من جماعات محدودة متصلة بالمؤسسات الدينية أو العلمية، بل أخذ يتسع مع انتشار الصحف والروايات والكتيبات والمنشورات الشعبية، وأصبحت القراءة جزءًا من ثقافة جماهيرية تتداخل فيها التجارة والتعليم والترفيه والسياسة. وتحول الكتاب بالتدريج إلى سلعة ثقافية يمكن إنتاجها لجمهور غير معروف للكاتب شخصيًا، وهو ما أعاد تنظيم العلاقة بين المؤلف والناشر والقارئ، لأن النص صار يدخل سوقًا واسعة تقتضي التنبؤ برغبات الجمهور.

وتظهر هنا نواة مبكرة لمسألة ستصبح مركزية في الثقافة الخوارزمية؛ إذ إن صناعة النشر كانت منذ وقت بعيد تسعى إلى معرفة ما يريده القراء، غير أن معرفة الجمهور كانت تعتمد على المبيعات والتوزيع والنقد واستطلاعات السوق، بينما تستطيع المنصة الرقمية اليوم جمع بيانات فردية أكثر تفصيلًا وإعادة استخدامها في التوصية. وبذلك لا يبدأ الاهتمام بقياس القارئ مع الخوارزمية، لكن التقنية المعاصرة تغير درجة الدقة والسرعة والاستمرارية التي يجري بها هذا القياس.

كما رسخت القراءة الفردية تصورًا للكتاب بوصفه فضاءً داخليًا يمكن للقارئ أن ينفصل من خلاله مؤقتًا عن محيطه، وهو تصور ارتبط في الثقافة الحديثة بصورة القارئ الغارق في الرواية أو الباحث المنعزل في المكتبة. وقد كان لهذا الشكل من الانفراد أثر في جعل القراءة فعلًا يبدو مستقلًا عن الجماعة، مع أن القارئ ظل بالطبع متأثرًا باللغة والتعليم والمجتمع والمؤسسات. وسيصبح هذا التصور موضع مراجعة في البيئة الرقمية، لأن الجهاز الذي يعرض الكتاب هو نفسه في كثير من الأحيان الجهاز الذي

يعرض الرسائل والإشعارات والمراجعات والتعليقات، وبذلك يدخل المجال الاجتماعي من جديد إلى اللحظة التي بدت في العصر المطبوع أكثر خصوصية وانغلاقاً.

المبحث الثالث: الكتاب الإلكتروني

تغير حامل النص

مثل ظهور الكتاب الإلكتروني انتقالًا مهمًا في تاريخ الثقافة المكتوبة، لكنه لم يكن في بداياته ثورة كاملة في بنية النص، لأن كثيرًا من الكتب الرقمية حافظ على الخصائص الأساسية للكتاب المطبوع؛ فهناك عنوان وغلاف وفصول وفهرس وتسلسل، غير أن المادة التي تحمل هذه العناصر تغيرت من الورق إلى البيانات المعروضة على شاشة. ومن هنا يمكن النظر إلى الكتاب الإلكتروني بوصفه حالة واضحة لما يسميه جاي ديفيد بولتر «إعادة تشكيل» المطبوع داخل فضاء رقمي، حيث تستعيد الوسائط الجديدة أشكالًا سابقة ثم تضيف إليها إمكانات لم تكن متاحة في الحامل القديم [6]. ويبين بولتر في *Writing Space* أن الكتابة الإلكترونية والنص التشعبي يعيدان تشكيل أشكال الطباعة وأجناسها، وأن الحاسوب ينبغي فهمه كتقنية للقراءة والكتابة لا مجرد آلة معالجة .

فالقارئ الإلكتروني يستطيع، بحسب الجهاز والتطبيق، تغيير حجم الخط والتباعد والإضاءة، والبحث عن كلمة داخل الكتاب، وحفظ ملاحظات، وتظليل مقاطع، والوصول إلى قاموس أو رابط خارجي، وهو ما يجعل الصفحة لم تعد وحدة مادية ثابتة تمامًا، لأن تغيير حجم الخط يعيد توزيع الكلمات ويغير عدد «الصفحات» الظاهرة. وهنا تبدأ العلاقة المكانية بالنص في التحول، لأن القارئ لا يملك دائمًا الإحساس نفسه بموقع العبارة داخل جسم الكتاب، وقد يحل رقم الموقع أو شريط التقدم محل التذكر الحسي للصفحة.

ولا ينبغي المبالغة في جعل الورق والشاشة عالمين منفصلين، لأن القارئ ينقل إلى الكتاب الإلكتروني عادات تعلمها في الثقافة المطبوعة، مثل التقدم عبر الفصول ووضع العلامات والهوامش، بينما تعيد الواجهة تقديم هذه الوظائف في صورة رقمية. وهذا ما يجعل الانتقال أقرب إلى إعادة

الوساطة منه إلى القطيعة، حيث تستمر بنية الكتاب القديمة داخل وسيط جديد وتدخل معها في علاقة من المحافظة والتغيير.

غير أن اختلاف الحامل يبقى ذا أثر، لأن الكتاب الورقي جسم محدود يمكن رؤية سمكه والشعور بالمسافة التي قطعت منه، بينما يصبح الكتاب الإلكتروني محتوى يمكن تحميله إلى جهاز يحمل في الوقت نفسه مئات الكتب. ويتغير بذلك معنى الامتلاك والمساحة، لأن المكتبة لم تعد بالضرورة غرفة أو رفوفًا، بل يمكن أن تكون قائمة أو قاعدة بيانات، وهي نقلة ذات أثر في الذاكرة الثقافية نفسها؛ فالكتاب الذي كان يحتل مكانًا دائمًا أمام العين قد يتحول إلى اسم داخل واجهة لا يظهر إلا عند البحث عنه.

تغير عادات القراءة

أثارت المقارنة بين القراءة على الورق والقراءة على الشاشة عددًا كبيرًا من الدراسات، ولا تسمح نتائجها ببناء حكم ساذج يقول إن أحد الوسيطين أفضل في جميع الأحوال، لأن الفهم يتأثر بنوع النص والمهمة والجهاز والزمن وخبرة القارئ. ومع ذلك وجدت دراسة آن مانغن وبنتي فالغيرمو وكولبيورن برونيك على طلاب نرويجيين أن المجموعة التي قرأت نصوصًا خطية مطبوعة حققت نتائج أفضل في اختبار الفهم من المجموعة التي قرأت النصوص نفسها بصيغة PDF على شاشة حاسوب [7]. وأكد تحليل تلوي واسع أجراه بابلو ديلغادو وزملاؤه وجود أفضلية متوسطة للورق في ظروف معينة، مع تأثير عوامل مثل ضغط الوقت ونوع النص، وهو ما يقتضي فهم الفرق باعتباره مشروطًا لا حكمًا كليًا ضد القراءة الرقمية .[8]

وتكتسب هذه الدراسات أهميتها بالنسبة إلى مشروع القارئ الهجين من أنها تكشف أن تغير الحامل وحده يستطيع أن يؤثر في بعض أبعاد القراءة، وهو ما يجعل من الضروري الفصل بين أثر الشاشة وأثر الخوارزمية وأثر الذكاء الاصطناعي .فإذا كان القارئ يفهم نصًا بطريقة مختلفة لأنه يقرأه على شاشة، فهذه مسألة وسائطية، أما إذا تغير ما يقرأه بسبب توصية آلية فهذه مسألة خوارزمية، وإذا تغير تفسيره بعد حوار مع نظام توليدي فهذه مسألة

هجينة. ومن دون هذا التمييز يمكن أن نخلط بين أنواع مختلفة من التحول وننسبها كلها إلى «الرقمنة.«

وقد تغيرت عادات القراءة كذلك بسبب إمكان البحث الفوري، لأن القارئ لم يعد مضطرًا دائمًا إلى حفظ موقع المعلومة أو المرور بالفصول لكي يعثر عليها، بل يستطيع الوصول مباشرة إلى كلمة أو اسم. وهذه القدرة تعزز الكفاءة في بعض المهام، لكنها تستطيع أيضًا أن تشجع القراءة الانتقائية التي تتعامل مع الكتاب باعتباره قاعدة بيانات من الفقرات أكثر من كونه بنية متصلة ينبغي تتبعها من البداية إلى النهاية. ومن هنا يبدأ التوتر بين الكتاب بوصفه عملًا والكتاب بوصفه موردًا قابلًا للبحث.

كما غيرت القراءة الرقمية علاقة القارئ بالزمن، لأن الجهاز نفسه يستطيع حمل تطبيقات أخرى وإشعارات ووسائل اتصال، فيصبح فعل القراءة معرضًا لتداخل أنشطة متعددة. ولا تعني قابلية التشتيت أن القارئ سيتشتت دائمًا، لكنها تجعل الانقطاع إمكانًا مدمجًا في البيئة، بخلاف كتاب ورقي لا يستطيع بنفسه إرسال رسالة أو عرض إشعار. ومن هنا لا تعود مسألة الانتباه خاصية نفسية فردية فقط، بل تصبح مرتبطة بتصميم الوسيط وما يتيحه من انتقالات.

المبحث الرابع: النص التشعبي

تفكيك الخطية

إذا كان الكتاب الإلكتروني في صورته البسيطة ينقل الكتاب المطبوع إلى شاشة، فإن النص التشعبي يمثل تحولًا أعمق، لأنه لا يكتفي بتغيير الحامل بل يعيد تنظيم العلاقات بين وحدات النص. وقد كان جورج لاندو من أبرز من ربطوا بين النص التشعبي والنظرية الأدبية، ورأى في إمكانية الانتقال عبر الروابط تحولًا يعيد تشكيل مفاهيم مثل مركز النص وحدوده ودور القارئ [9]. وتوضح Johns Hopkins University Press أن أعمال لاندو في *Hypertext* جمعت مبكرًا بين النظرية الأدبية وتقنيات الحاسوب، واهتمت بما يمنحه النص التشعبي للقارئ من قدرة أكبر على التحكم في ما يقرأ وكيف يقرأ .

فالكتاب التقليدي يقدم، حتى مع حرية القفز، ترتيبًا ماديًا مسبقًا للصفحات، بينما يستطيع النص التشعبي أن يبني العمل نفسه بوصفه شبكة من العقد التي تتصل عبر روابط، بحيث يمكن أن تختلف الطريق التي يسلكها قارئ عن طريق قارئ آخر. وهنا لا تصبح الخطية مجرد ترتيب يمكن مخالفته، بل تصبح أحد المسارات الممكنة بين مسارات متعددة، وهو ما يغير معنى البداية والنهاية والترتيب.

ولا يعني تفكيك الخطية أن القراءة الرقمية خالية من كل تسلسل، لأن القارئ لا يستطيع قراءة جملتين في اللحظة نفسها، كما أن كثيرًا من المواقع والنصوص التشعبية تفرض هياكل واضحة، لكن الفرق يكمن في أن البنية تسمح بمسارات بديلة تصبح جزءًا مقصودًا من التصميم. ومن هنا يتحول القارئ من شخص يتتبع خطًا وضعه المؤلف إلى شخص يشارك، بدرجة أكبر، في تحديد مسار القراءة.

وهذا التحول يرتبط بقوة بمفهوم القارئ الهجين، لأن توزيع السلطة بين النص والقارئ بدأ يتغير قبل ظهور الذكاء الاصطناعي. فالنص التشعبي يمنح

القارئ حرية نسبية في الاختيار بين الروابط، لكن تلك الحرية تظل محكومة بما صممه الكاتب أو المبرمج؛ إنه يستطيع اختيار الطريق، لكنه لا يستطيع اختيار رابط غير موجود. ومن هنا يتضح أن التفاعل لا يعني غياب البنية، بل ظهور شكل جديد منها، وهو الأمر نفسه الذي سنراه لاحقًا في البيئة الخوارزمية، حيث تبدو الخيارات واسعة بينما تكون مرتبة ومصممة داخل نظام سابق.

الرابط بوصفه مسارًا للقراءة

الرابط التشعبي ليس مجرد أداة تقنية تنقل المستخدم من صفحة إلى أخرى، بل هو اقتراح دلالي؛ فعندما يربط الكاتب كلمة بمادة أخرى، فإنه يقول ضمنيًا إن هناك علاقة تستحق أن يتبعها القارئ، ولذلك يستطيع الرابط أن يعمل مثل هامش أو إحالة أو باب إلى سياق جديد ، لكنه يمتلك قوة أكبر لأنه يتيح الانتقال الفوري. ومن هنا تصبح هندسة الروابط شكلًا من أشكال تنظيم القراءة.

وقد أشار لاندو إلى أن النص التشعبي يمنح القارئ قدرة غير مسبوقة نسبيًا على الوصول السريع إلى شبكة من المصادر وتحديد بعض طرق حركته بينها .[9] غير أن هذه القدرة تحمل مفارقة، لأن كل رابط يوسع مجال المعرفة لكنه يهدد في الوقت نفسه استمرارية النص الأصلي؛ فالقارئ الذي ينتقل من رابط إلى رابط قد يجد نفسه بعد دقائق بعيداً عن العمل الذي بدأه، وهو ما يجعل القراءة التشعبية تفاوضًا دائمًا بين الاستكشاف والاستمرار.

ومن هنا يمكن تعريف كفاية جديدة ظهرت مع البيئة الشبكية هي إدارة المسار القرائي، لأن القارئ لا يحتاج فقط إلى فهم الجملة، بل إلى تقرير ما إذا كان سيغادرها نحو رابط آخر، ومتى يعود ، وأي المسارات يهمه وأيها يمكن تجاهلها. وهذه الكفاية ستصبح أكثر تعقيداً مع محركات البحث والذكاء الاصطناعي، لأن الروابط التي كانت ثابتة نسبيًا ستتحول إلى توصيات ديناميكية ومقترحات تتغير بحسب المستخدم.

كما يمثل الرابط انتقالًا من الهامش الثابت إلى السياق المفتوح. كان الهامش الورقي محدودًا بالمساحة التي يخصصها المؤلف أو المحقق، بينما يمكن للرابط أن يقود إلى كتاب كامل أو قاعدة بيانات أو فيديو أو أرشيف، وبذلك يصبح السياق المحتمل للنص شبه غير محدود. وهنا يتغير مفهوم «القراءة الكاملة»، لأن القارئ لا يستطيع أن يتبع كل الإحالات، ويصبح اختيار ما لا يقرأه جزءًا من الكفاءة بقدر اختيار ما يقرأه.

المبحث الخامس: القراءة متعددة الوسائط

النص والصورة والصوت

لم يعد النص الرقمي في كثير من البيئات يتكون من الكلمات وحدها، إذ أصبحت الصورة والصوت والتصميم والحركة عناصر قادرة على المشاركة في بناء الرسالة، وهو ما يجعل القراءة جزءًا من ممارسة أوسع لتفسير العلامات متعددة الوسائط. وقد أكد غونتر كريس في *Literacy in the New Media Age* **أن الانتقال إلى الشاشة غير العلاقة بين الكتابة والصورة وأعاد تنظيم الأدوار التي تؤديها أنماط التواصل المختلفة، بحيث لا يمكن فهم محو الأمية المعاصر بالاعتماد على الكتابة وحدها** [10]. **ويعرض** Routledge **الكتاب باعتباره دراسة لتحول العلاقة بين الكتاب والشاشة ولصعود التعدد الوسائطي ضمن بيئات الاتصال الجديدة .**

فعندما يقرأ المستخدم مادة رقمية قد يواجه عنوانًا مكتوبًا وصورة توضيحية ومقطعًا صوتيًا وخريطة تفاعلية في الصفحة نفسها، ولا تكون هذه العناصر بالضرورة إضافات تجميلية، بل قد يحمل كل واحد منها جزءًا من المعنى. ويحتاج القارئ، لذلك، إلى توزيع انتباهه بين أنماط مختلفة من العلامات، كما يحتاج إلى فهم العلاقات بينها، لأن الصورة قد تؤكد النص أو تناقضه أو تقدم معلومات لا يقولها، والصوت قد يضيف نبرة أو زمنًا، والتصميم قد يحدد ما ينبغي أن يظهر بوصفه أساسيًا وما يظل ثانويًا.

ومن هنا تتغير هوية القراءة نفسها، لأن فعل «القراءة» يبدأ في تجاوز فك الرموز الكتابية إلى تفسير بيئة مركبة من اللغة والصورة والصوت. ولا يعني ذلك اختفاء القراءة بالمعنى التقليدي، بل توسعها داخل ثقافة تصبح فيها الكفاءة النصية واحدة من كفاءات متعددة، وهو توسع سيزداد تعقيدًا مع الأدب الرقمي والأعمال التفاعلية التي لا يستطيع القارئ فهمها من خلال الكلمات وحدها.

كما أن الصوت يعود في البيئة الرقمية بصورة تكشف الطبيعة غير الخطية لتاريخ الوسائط؛ فالقراءة التي انتقلت طويلًا في المخيال الحديث من الجهر إلى الصمت تستعيد اليوم بعدًا سمعيًا عبر الكتب الصوتية ومحركات تحويل النص إلى كلام والمساعدات الصوتية. غير أن الصوت المعاصر مختلف عن القراءة الجماعية القديمة، لأنه غالبًا مسجل أو مولد تقنيًا ويمكن إيقافه وتسريعه وإعادته، وبذلك تلتقي خاصية السماع القديمة بقدرات التحكم الرقمية.

الفيديو والرسوم والتفاعل

يزداد التعدد الوسائطي وضوحًا عندما يدخل الفيديو والرسوم المتحركة والمحاكاة والتفاعل إلى المادة المقروءة، لأن المستخدم لم يعد يشاهد تمثيلًا ثابتًا فحسب، بل يمكن أن يغير زاوية العرض أو يضغط على عنصر أو يختار مسارًا فتتغير المادة التي تظهر أمامه. وقد أسهم ليف مانوفيتش في تأسيس دراسة الوسائط الجديدة بوصفها مجالًا يجمع تاريخ الصورة والسينما والحوسبة والواجهة، وركز على مفاهيم مثل قاعدة البيانات والواجهة الثقافية والأشكال الرقمية الجديدة [11]. وتقدم MIT Press كتابه

The Language of New Media بوصفه محاولة منهجية لبناء نظرية للوسائط الجديدة من خلال الجمع بين تاريخ الوسائط والثقافة البصرية وعلوم الحاسوب .

وتغير هذه العناصر علاقة القارئ بالزمن والبنية، لأن الفيديو يفرض زمنًا متتابعًا لكنه يتيح الإيقاف والتقديم والتأخير، بينما تسمح الرسوم التفاعلية بإنتاج معلومة تتغير بحسب فعل المستخدم. وهنا يصبح القارئ مشاركًا في تشغيل المادة، بحيث لا يكون معنى بعض الأجزاء موجودًا في صورة واحدة ثابتة، بل يظهر نتيجة للفعل الذي يقوم به المتلقي.

ومن هذه الناحية تنتقل القراءة من استهلاك تمثيل جاهز إلى تشغيل واجهة، وهي خطوة أساسية في الطريق إلى القارئ الهجين، لأن القدرة على تشغيل

النظام واتخاذ قرارات داخله تصبح جزءًا من الوصول إلى النص. وإذا كان الكتاب المطبوع يطلب من القارئ أساسًا أن يقلب الصفحات ويحدد أين يتوقف، فإن البيئة متعددة الوسائط قد تطلب منه الاختيار بين عناصر وتحريك مؤشرات وفتح نوافذ وتغيير مستويات المعلومات، وبذلك يصبح التفاعل جزءًا من البنية الدلالية.

غير أن التفاعل لا يعني تلقائيًا زيادة الفهم، لأن كثرة الوسائط قد تؤدي إلى تحميل الانتباه أكثر مما يحتمل، وقد يتحول العرض المتعدد إلى منافسة بين الصورة والنص والصوت بدل أن تكون العلاقة بينها تكاملية. ومن هنا يجب أن تظل نظرية القراءة حذرة من مساواة الثراء الوسائطي بالثراء المعرفي، لأن كثرة الإمكانات لا تنتج بالضرورة تجربة أعمق، كما أن البساطة المادية للصفحة قد تكون في بعض الحالات شرطًا للتركيز الطويل.

المبحث السادس: من الصفحة إلى البيئة الرقمية

تحول الكتاب إلى واجهة

يمثل الانتقال من الصفحة إلى الواجهة أكثر من تغير في الشكل، لأن الصفحة الورقية تقدم نفسها أساسًا بوصفها سطحًا يحمل النص، بينما الواجهة الرقمية تجمع بين العرض والأوامر والخيارات والإشارات إلى إمكانات أخرى. وقد أصبح مفهوم «الواجهة» مركزيًا في دراسات الوسائط الجديدة، لأن ما يراه المستخدم ليس البيانات في ذاتها، بل طريقة نظمها البرنامج وتقديمها له، وهو ما يجعل التصميم جزءًا من الوساطة [11]. ويؤكد مانوفيتش على أهمية الواجهة وقاعدة البيانات بوصفهما من الأشكال المركزية في الوسائط الجديدة .

وعندما يتحول الكتاب إلى واجهة، فإنه لا يعود مجرد نص ظاهر على شاشة، بل يدخل إلى منظومة يمكن أن تحتوي مكتبة وفهرسًا ومحرك بحث وقاموسًا وملاحظات وتوصيات وإعدادات وشريط تقدم، وقد تتيح الاتصال بالشبكة أو بخدمات أخرى. ومن ثم فإن القارئ لا يتعامل مع النص فقط، بل يتعلم كذلك منطق البرنامج الذي يعرضه، حتى لو لم يكن واعيًا بذلك بصورة كاملة.

ويترتب على هذا التحول تغير في السلطة داخل القراءة؛ فالكتاب الورقي يفرض على القارئ شكلًا ثابتًا نسبيًا لكنه لا يغير نفسه تبعًا له، بينما تستطيع الواجهة الرقمية التكيف مع المستخدم، وقد تصبح في البيئات الخوارزمية قادرة على ترتيب المواد بطريقة شخصية. وهنا ننتقل من واجهة تعرض النص بالطريقة نفسها لكل شخص إلى واجهة تستجيب لبيانات القارئ، وهي نقطة حاسمة لأنها تمهد للانتقال من القراءة الرقمية إلى التلقي الخوارزمي.

لقد أوضحت هايلز، في دعوتها إلى دراسات الوسائط المقارنة، أن التفكير الإنساني يحدث مع الوسائط ومن خلالها، وأن الانتقال من الثقافة المطبوعة

إلى الرقمية ينبغي ألا يعالج باعتباره تبديلًا سطحيًا للوعاء، بل بوصفه جزءًا من علاقة تطور متبادل بين البشر والتقنيات [12]. وتعرض

University of Chicago Press مشروعها باعتباره بحثًا في الطريقة التي نفكر بها «مع» الوسائط و«إلى جانبها»، وفي الحاجة إلى فهم الأعمال الرقمية في علاقتها بالتقاليد المطبوعة لا خارجها .

ومن هنا يصبح تحول الكتاب إلى واجهة تحولًا في المحيط الذي يحدث فيه التفكير القرائي .فالقارئ لا يقرأ الكلمات فقط، بل يتعلم أين توجد الأوامر وما الذي يستطيع البحث عنه وكيف يحفظ وما الذي يظهر إلى جوار النص، وقد تصبح هذه الممارسات مع الوقت مندمجة في عادات القراءة إلى حد يفقد المستخدم إحساسه بأنها إضافات تقنية، وهو ما يمهد نظريًا لما سيسميه هذا الكتاب لاحقًا القراءة ما بعد الخوارزمية، أي المرحلة التي تصبح فيها الوساطة جزءًا طبيعيًا وغير ملحوظ من الفعل القرائي.

القراءة بوصفها تنقلًا داخل شبكة

يبلغ التحول المادي والثقافي للقراءة مستوى أكثر جذرية عندما لا يعود القارئ يتنقل فقط بين صفحات كتاب، بل بين عقد شبكة تتصل عبر البحث والروابط والمنصات والتعليقات والمصادر الخارجية. فعملية القراءة المعاصرة قد تبدأ بنص ثم تنتقل إلى اسم، ومنه إلى موقع، ثم إلى دراسة أكاديمية، ثم إلى فيديو، ثم إلى نقاش اجتماعي، قبل العودة إلى الأصل، وهو ما يجعل مسار القراءة أقرب إلى رحلة معرفية قابلة للتفرع من كونه تقدمًا داخل جسم واحد.

ولا ينبغي فهم الشبكية بوصفها فوضى كاملة، لأن المسارات التي يسلكها القارئ منظمة دائمًا بدرجات مختلفة؛ ففي النص التشعبي يحدد الكاتب الروابط، وفي محرك البحث ترتب الخوارزمية النتائج، وفي المنصة تنظم التوصيات، وفي النظام التوليدي يصبح الانتقال نفسه حواريًا، بحيث لا يبحث المستخدم عن الرابط فقط، بل قد يطلب من النظام أن يلخص له ما كان

سيبحث عنه. وهنا يبدأ التحول من التنقل عبر الشبكة إلى الاستعانة بوسيط يعيد تركيب الشبكة في جواب.

ومن هذه الزاوية يمكن قراءة تاريخ التحول من الورق إلى الشاشة بوصفه انتقالًا تدريجيًا في وحدة القراءة. ففي المخطوط كانت الوحدة مرتبطة بجسم مادي فريد نسبيًا، وفي الكتاب المطبوع أصبحت النسخة جزءًا من نظام إنتاج واسع ومستقر، وفي الكتاب الإلكتروني انفصل النص بدرجة أكبر عن جسم واحد، وفي النص التشعبي أصبحت الوحدة موزعة بين عقد وروابط، وفي البيئة متعددة الوسائط دخلت أنظمة دلالية مختلفة إلى التجربة، وأخيرًا في الشبكة الخوارزمية أصبح القارئ يتحرك داخل فضاء ترتب مكوناته ديناميكيًا.

ويغير ذلك مفهوم السياق، لأن السياق في القراءة الورقية يمكن أن يكون ما يحيط بالنص داخل الكتاب أو ما يستدعيه القارئ من معرفته، بينما يستطيع القارئ الشبكي استدعاء سياقات خارجية بصورة فورية. وهذه القدرة هائلة من حيث توسيع المعرفة، لكنها تجعل الانضباط القرائي أكثر أهمية، لأن السياق المفتوح بلا حدود قد يتحول إلى فقدان للمركز. ومن هنا تظهر كفاية جديدة يمكن تسميتها القدرة على العودة، أي قدرة القارئ على الاستفادة من التفرعات دون أن يفقد النص الذي انطلق منه.

وتمثل هذه القدرة أحد الشروط السابقة لظهور القارئ الهجين، لأن القارئ الذي لا يستطيع إدارة شبكة الروابط والمصادر سيكون أكثر عرضة لأن تصبح الآلة هي التي تديرها نيابة عنه. فإذا كان محرك البحث قد تطلب من القارئ تقييم قائمة من المصادر، فإن النظام التوليدي يستطيع أن يختزل القائمة في جواب واحد، وبذلك يصبح تاريخ القراءة الشبكية خلفية ضرورية لفهم التحول الذي سيحدث مع الذكاء الاصطناعي؛ إذ إن الآلة التوليدية لا تلغي الشبكة، بل تقف بين القارئ وبينها وتقدم له تمثيلًا منتقى منها.

ومن هنا يتضح أن الانتقال من الصفحة إلى البيئة الرقمية ليس مجرد تطور في وسائل العرض، بل انتقال من نص يملك حدوداً مادية واضحة إلى بيئة قرائية تضم النص ووسائل التنقل والبحث والتعليق والربط والاقتراح. وفي هذه البيئة يبدأ القارئ في اكتساب هوية مختلفة، لأنه لا يتعامل فقط مع المعنى الموجود في العمل، بل مع مجموعة من الأدوات التي تساعده على تحديد طريقه إليه.

خاتمة الفصل الثاني

يكشف المسار التاريخي الذي تتبعناه أن القراءة لم تكن فعلًا ثابتًا انتقل من وسيط إلى آخر دون أن يتغير، بل ظلت تعيد تشكيل نفسها مع تحولات المادة والتقنية والثقافة. فالقراءة الشفوية ربطت المعرفة بالصوت والحضور والذاكرة الجماعية، وأتاح المخطوط للنص أن يصبح جسمًا ماديًا يمكن الرجوع إليه مع بقاء النسخة مرتبطة بخصوصية إنتاجها، ثم وسعت الطباعة إمكان التكرار والاستقرار والانتشار وأسهمت في تكوين القارئ الحديث وفي تحول الكتاب إلى وحدة ثقافية قابلة للتداول على نطاق واسع، قبل أن يأتي الكتاب الإلكتروني فيفصل المحتوى بدرجة أكبر عن جسم مادي واحد ويضيف إلى القراءة وظائف البحث والتخصيص والتخزين الرقمي. ثم أعاد النص التشعبي تنظيم المسار عبر الروابط، ووسعت الوسائط المتعددة مفهوم القراءة بحيث أصبح النص يتجاور مع الصورة والصوت والحركة والتفاعل، إلى أن تحولت الصفحة نفسها داخل الثقافة الرقمية إلى واجهة تعمل داخل شبكة.

ولا ينبغي فهم هذه المراحل بمنطق التعاقب الذي يلغي فيه الجديد القديم، لأن القراءة المعاصرة تحمل آثار جميع هذه الأشكال في الوقت نفسه؛ فنحن ما زلنا نقرأ بصوت مرتفع ونستمع إلى الكتب، وما زال الكتاب المطبوع حاضرًا إلى جوار الملف الرقمي، وما تزال الصفحة الخطية قائمة داخل الشبكة، بينما تعمل التطبيقات والمنصات على إعادة دمج هذه الأشكال داخل فضاء واحد. ولذلك فإن التاريخ الأنسب لفعل القراءة هو تاريخ التراكم الوسائطي أكثر منه تاريخ الإحلال، وهو ما يجعل مفهوم الهجنة امتدادًا منطقيًا لهذا المسار، لأن القارئ الهجين نفسه يجمع بين ممارسات وأدوات تنتمي إلى طبقات مختلفة من تاريخ القراءة.

ويكشف هذا التاريخ كذلك أن كل توسع في إمكانات القارئ حمل معه شكلًا جديدًا من التوتر. فالكتابة دعمت الذاكرة الخارجية لكنها غيرت مكانة الحفظ الشفوي، والطباعة وسعت الانتشار لكنها رسخت أشكالًا من

التوحيد، والكتاب الإلكتروني سهل البحث لكنه أضعف بعض الإشارات المكانية المادية، والنص التشعبي وسع الاستكشاف لكنه جعل التشتت احتمالًا دائمًا، والوسائط المتعددة أثرت التعبير لكنها زادت المنافسة على الانتباه. ومن ثم فإن الانتقال إلى الذكاء الاصطناعي لن يكون استثناءً، لأنه بدوره سيقدم إمكانات معرفية جديدة مقابل مخاطر جديدة، وستصبح المهمة النقدية هي تحديد الحد الفاصل بين الأداة التي توسع القراءة والأداة التي تبدأ في القيام بها بدلًا من القارئ.

وتتضح هنا الصلة المباشرة بين هذا الفصل والمشروع العام للكتاب، لأن الانتقال من الورق إلى الشاشة أعد الشروط اللازمة للانتقال من القارئ الذي يقرأ داخل كتاب إلى القارئ الذي يقرأ داخل بيئة .والبيئة الرقمية لا تعرض النص فقط، بل تمنحه سياقًا وطرقًا للتنقل والبحث والتفاعل، وعندما تدخل الخوارزمية إلى هذه البيئة فإنها تبدأ في ترتيب ما يظهر داخلها، وعندما يدخل الذكاء الاصطناعي التوليدي فإنه يصبح قادرًا على الكلام عن النص نفسه. وهكذا يمكن تمثيل التحول التاريخي العميق في مسار يبدأ من الكتاب بوصفه جسمًا، ثم الصفحة بوصفها وحدة، ثم الشاشة بوصفها حاملًا، ثم الواجهة بوصفها منظومة، وأخيرًا الشبكة بوصفها فضاءً للتلقي.

وبهذه النقلة يصبح السؤال الذي سيقود الفصول اللاحقة أكثر دقة: إذا كانت المادة التي نقرأ عبرها قد غيرت بالفعل عادات القراءة وإيقاعها ومساراتها، فماذا يحدث عندما يصبح الوسيط نفسه قادرًا على اقتراح ما نقرأ، واسترجاع ما نسينا، وشرح ما لم نفهم، وتوليد احتمالات لما يمكن أن يعنيه النص؟ عند هذه النقطة ينتهي تاريخ الانتقال من الورق إلى الشاشة بوصفه تحولًا في الحامل، ويبدأ تاريخ آخر يتعلق بتحول القارئ ذاته، وهو التاريخ الذي سيقودنا من القراءة الرقمية والشبكية إلى تأسيس مفهوم القارئ الهجين.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Ong, Walter J. *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word*. London/New York: Methuen؛ **ثم** Routledge، 1982 **وما تلاها من طبعات.**

يمثل الكتاب أحد المراجع الأساسية في دراسة الانتقال من الثقافات الشفوية إلى الكتابية، وعلاقة الصوت والذاكرة والتكرار ببناء المعرفة في البيئات الشفوية.

[2] Cavallo, Guglielmo & Chartier, Roger (eds.). *A History of Reading in the West*. Cambridge: Polity Press, 1999.

مرجع جامع في تاريخ الممارسات القرائية منذ العالم القديم إلى العصر الحديث، مع اهتمام بالعلاقة بين التحولات التقنية في الكتاب وتغير القراء وأنماط القراءة. وتصف البيانات الببليوغرافية العمل بأنه دراسة واسعة لتغير ممارسات القراءة والأشكال المادية للنصوص والجمهور عبر التاريخ (Google Books) .

[3] Chartier, Roger. *The Order of Books: Readers, Authors, and Libraries in Europe Between the Fourteenth and Eighteenth Centuries*. Translated by Lydia G. Cochrane. Stanford: Stanford University Press, 1994.

يفيد في تحليل العلاقة بين النصوص والقراء والمكتبات وأنظمة تنظيم الكتاب، وفي تأكيد أن تحولات الشكل المادي والثقافي للكتاب تؤثر في العلاقة بين القارئ والنص. وتؤكد Stanford University Press **صدور الترجمة الإنجليزية سنة** 1994 **وتركيزها على أنظمة تنظيم الكتابة والتحولات التي غيرت علاقة القارئ بالنص**(Sup) .

[4] Eisenstein, Elizabeth L. *The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early-Modern Europe*. Cambridge: Cambridge University Press, 1980.

من المراجع المؤسسة لدراسة آثار الانتقال من النسخ المخطوط إلى الطباعة في الثقافة الأوروبية، ولا سيما في المعرفة والعلم والدين وتداول النصوص.

وتصف Cambridge University Press الكتاب بأنه دراسة تاريخية واسعة لظهور الطباعة وأهميتها بوصفها عاملًا في التحول(Cambridge) .

[5] McLuhan, Marshall. *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man*. Toronto: University of Toronto Press, 1962.
مرجع كلاسيكي في دراسة العلاقة بين الطباعة والتحولات الإدراكية والثقافية والاجتماعية، ويستفاد منه في هذا الفصل مع مراعاة النقاشات النقدية التي أحاطت بحتميته الوسائطية.

[6] Bolter, Jay David. *Writing Space: Computers, Hypertext, and the Remediation of Print*. 2nd ed. Mahwah/London: Lawrence Erlbaum Associates, 2001.
يستخدم لفهم العلاقة بين الكتابة المطبوعة والفضاء الإلكتروني والنص التشعبي، ولتحليل إعادة تشكيل أشكال الطباعة داخل الوسائط الرقمية.
وتوضح Routledge أن الكتاب يدرس الحاسوب بوصفه تقنية للقراءة والكتابة وكيف تعيد الكتابة الإلكترونية والنص التشعبي تشكيل أجناس الطباعة(Routledge) .

[7] Mangen, Anne; Walgermo, Bente R. & Brønnick, Kolbjørn. "Reading Linear Texts on Paper versus Computer Screen: Effects on Reading Comprehension." *International Journal of Educational Research*, Vol. 58, 2013, pp. 61–68. DOI: 10.1016/j.ijer.2012.12.002.
دراسة تجريبية قارنت فهم نصوص خطية مطبوعة ومقروءة بصيغة PDF على الشاشة لدى طلاب نرويجيين، ووجدت في شروط الدراسة أداءً أفضل للمجموعة التي قرأت على الورق(ScienceDirect) .

[8] Delgado, Pablo; Vargas, Cristina; Ackerman, Rakefet & Salmerón, Ladislao. "Don't Throw Away Your Printed Books: A Meta-Analysis on the Effects of Reading Media on Reading Comprehension." *Educational Research Review*, Vol. 25, 2018, pp. 23–38. DOI: 10.1016/j.edurev.2018.09.003.
تحليل تلوي واسع لأبحاث المقارنة بين القراءة الورقية والرقمية، أظهر

أفضلية للورق في بعض ظروف الفهم ، مع تأثير عوامل وسيطة مثل نوع النص وضغط الوقت(ScienceDirect) .

[9] Landow, George P. *Hypertext 3.0: Critical Theory and New Media in an Era of Globalization*. 3rd ed. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006.
مرجع أساسي في دراسات النص التشعبي وعلاقته بالنظرية الأدبية، ويبحث في الروابط وإعادة تشكيل مفاهيم النص والمؤلف والقارئ وإمكانات التحكم في مسارات القراءة. وتصف Johns Hopkins University Press **الكتاب بأنه من الأعمال الرائدة التي جمعت بين النظرية الأدبية وتقنيات النص التشعبي**(Hopkins Press) .

[10] Kress, Gunther. *Literacy in the New Media Age*. London/New York: Routledge, 2003.
يُستفاد منه في تحليل انتقال الثقافة من هيمنة الكتاب والكتابة إلى بيئة شاشة متعددة الوسائط، وفي دراسة العلاقة بين النص والصورة والأنماط السيميائية المختلفة. وتوضح Routledge **أن العمل يعالج أثر صعود الشاشة والتعدد الوسائطي في مستقبل محو الأمية والاتصال**(Routledge) .

[11] Manovich, Lev. *The Language of New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 2001.
من المراجع الأساسية في بناء نظرية للوسائط الجديدة، ولا سيما في تحليل الواجهة وقاعدة البيانات والعلاقة بين الثقافة البصرية والحوسبة والأشكال الرقمية. وتقدم MIT Press **الكتاب باعتباره محاولة منهجية لوضع الوسائط الجديدة داخل تاريخ الثقافة البصرية والإعلامية وتحليل أشكال مثل الواجهة وقاعدة البيانات**(MIT Press) .

[12] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.
مرجع رئيسي في فهم العلاقة المتبادلة بين البشر والتقنيات الرقمية، وفي الدعوة إلى دراسات وسائطية مقارنة تنظر إلى الثقافة الرقمية والمطبوعة

ضمن تاريخ مشترك، كما يفيد في ربط الوسيط بالممارسة المعرفية والقرائية(University of Chicago Press) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في مسار يوازي تاريخ التحولات التي ناقشها؛ إذ يتيح أونغ وكافالو وشارتييه [1–3] فهم الانتقال من الشفوية والمخطوط إلى أشكال القراءة المرتبطة بالكتاب، وتوضح آيزنشتاين وماكلوهان [4–5] الأبعاد الثقافية والإدراكية للثورة الطباعية، بينما يسمح بولتر ومانغن وديلغادو وزملاؤهما [6–8] بتحليل الانتقال من الورق إلى الكتاب الإلكتروني وبعض آثاره في الممارسة والفهم، ويقدم لاندو [9] الأساس النظري لفهم النص التشعبي وتفكيك الخطية، في حين يتيح كريس ومانوفيتش وهايلز [10–12] الانتقال من الكتاب الرقمي إلى التعدد الوسائطي والواجهة والبيئة الرقمية التي يعمل داخلها القارئ المعاصر.

ومن تقاطع هذه المراجع تتأكد الفكرة التي يقوم عليها الفصل كله، وهي أن تاريخ القراءة ليس تاريخًا للنصوص وحدها، بل هو كذلك تاريخ للأجسام والصفحات والواجهات والمسارات التي تمنح النص شكله الممكن أمام القارئ، وأن الانتقال من الورق إلى الشاشة لم يكن نهاية التحول، بل كان الشرط التاريخي الذي جعل الانتقال اللاحق من الشاشة إلى الخوارزمية، ومن القارئ الرقمي إلى القارئ الهجين، ممكنًا من الناحية الثقافية والمعرفية.

الفصل الثالث

القراءة العميقة وأزمة الانتباه

تمثل القراءة العميقة واحدة من أكثر الممارسات المعرفية التي تكشف الطبيعة المركبة لفعل القراءة، لأنها لا تقتصر على التعرف إلى الكلمات أو استخراج المعلومات المباشرة، بل تستدعي مجموعة مترابطة من العمليات تشمل الانتباه والذاكرة والاستدلال والمقارنة وربط الجديد بالمعرفة السابقة وتكوين الفرضيات ومراجعتها وبناء موقف تأويلي يمكن الدفاع عنه، ولذلك فإن السؤال عن مستقبل القراءة في البيئة الرقمية والخوارزمية لا ينبغي أن يُختزل في المقارنة بين الورق والشاشة، وإنما يجب أن يمتد إلى الشروط المعرفية التي تسمح للقارئ بأن يقيم داخل النص زمنًا كافيًا حتى تنتقل الكلمات من مجرد إشارات متتابعة إلى بنية من العلاقات والمعاني. وإذا كان الفصل السابق قد أظهر أن الانتقال من الورق إلى الشاشة أعاد تشكيل الحامل والمسار والواجهة، فإن هذا الفصل ينتقل إلى المستوى الداخلي للعملية القرائية لبحث ما يحدث للانتباه والذاكرة والفهم عندما تصبح القراءة جزءًا من بيئة تتسم بالسرعة والتعدد والإشعارات والروابط والانتقال المستمر بين المهام، ثم لما قد يحدث لاحقًا عندما يدخل الذكاء الاصطناعي إلى هذه البيئة ويوفر للقارئ إمكان الحصول الفوري على التلخيص والشرح والاسترجاع.

ولا ينطلق هذا البحث من فرضية حنينية ترى أن القراءة العميقة خاصية طبيعية للكتاب الورقي وأن الوسائط الرقمية تقضي عليها بصورة حتمية، لأن القراءة العميقة نفسها مهارة مكتسبة تاريخيًا وثقافيًا وتحتاج إلى تدريب، كما أن الشاشة لا تمنع الإنسان من التركيز إذا توفرت شروطه، والكتاب المطبوع لا يضمن الفهم بمجرد حمله. وإنما تكمن المسألة في أن البيئات المختلفة تقدم درجات مختلفة من الاحتكاك المعرفي، وتخلق إمكانات مختلفة للانتقال والانقطاع والاسترجاع، ولذلك يصبح الانتباه نتيجة لعلاقة بين القارئ والمهمة والنص والوسيط والسياق، لا خاصية ثابتة

في الإنسان أو الجهاز. ومن هنا لا يسأل الفصل إن كانت القراءة الرقمية سطحية في ذاتها، بل يبحث في الشروط التي تجعل بعض ممارساتها أكثر ميلًا إلى المسح السريع والتجزئة، وفي الكيفية التي يمكن من خلالها حماية القراءة العميقة داخل بيئة أصبحت السرعة فيها قيمة ثقافية واقتصادية.

المبحث الأول: القراءة بوصفها عملية معرفية

الإدراك والفهم

لا يولد الإنسان وهو يمتلك جهازًا عصبيًا مخصصًا للقراءة بالطريقة التي يولد بها مزودًا باستعدادات للغة الشفوية، بل تتكون القراءة من خلال تعلم يعيد تنظيم شبكات عصبية كانت تؤدي وظائف أخرى، وهو ما جعل ستانيسلاس ديهان يصفها بوصفها مثالًا على قدرة الدماغ على «إعادة تدوير» بنياته لخدمة اختراع ثقافي حديث نسبيًا مثل الكتابة [1]. وتكتسب هذه الفكرة أهمية خاصة لأنها تنزع عن القراءة صفة البداهة؛ فالتعرف السريع إلى الكلمات، وربط الحروف بالأصوات والمعاني، وتجاوز مستوى فك الشفرة إلى بناء الفهم، كلها نتائج لتدريب طويل يجعل العمليات الأولية أكثر آلية حتى تتاح موارد معرفية أعلى للاستدلال والتأويل.

وعندما يصبح التعرف إلى الكلمات أكثر سرعة، لا تنتهي القراءة عند هذا المستوى، بل تبدأ مرحلة أكثر تعقيدًا تتطلب بناء تمثيل لما يقوله النص وما يفترضه وما يربطه القارئ بمعرفته السابقة. وقد قدم والتر كينتش في نموذج «البناء ـ التكامل» تصورًا مؤثرًا للفهم يرى أن القارئ يبني أثناء القراءة شبكة أولية من المعاني والاستدلالات ثم يعمل على دمج العناصر المتوافقة داخل تمثيل أكثر استقرارًا للنص والموقف الذي يتحدث عنه [2]. ومن هنا فإن الفهم لا يساوي الاحتفاظ بجمل منفردة، بل يقوم على تحويل السلسلة اللغوية إلى بنية مترابطة تتجاوز الكلمات الظاهرة، لأن القارئ يحتاج باستمرار إلى استنتاج العلاقات السببية والزمنية والمنطقية وإلى استحضار معلومات غير مذكورة صراحة عندما تكون ضرورية لربط أجزاء الخطاب.

ولهذا يمكن أن يقرأ شخصان الكلمات نفسها ويختلف مستوى فهمهما اختلافًا كبيرًا، لأن الفرق لا يكون في فك الحروف وحده، بل في مقدار المعرفة السابقة التي يستطيع كل واحد استحضارها، وفي جودة الاستدلال الذي يبنيه، وفي القدرة على الاحتفاظ بالعناصر المهمة أثناء تقدم النص. وتصبح

المعرفة السابقة في هذا السياق عنصرًا حاسمًا، لأن المعلومة الجديدة لا تدخل إلى فراغ وإنما تتصل بشبكات موجودة في الذاكرة طويلة المدى، وكلما كانت هذه الشبكات أكثر تنظيمًا كان من الأسهل على القارئ أن يضع المعلومة الجديدة داخل سياق وأن يميز المركزي من الهامشي.

وتكشف هذه الطبيعة المركبة للقراءة أن السرعة ليست قيمة واحدة في جميع المستويات؛ فالسرعة في التعرف إلى الكلمات مفيدة لأنها تحرر الموارد، أما السرعة في الحكم على الحجة أو في الانتقال بين الدلالات فقد تصبح عائقًا إذا منعت القارئ من بناء العلاقات الضرورية. ومن هنا ينبغي التمييز بين **الطلاقة** التي تعني أتمتة بعض العمليات الأساسية، و**العجلة** التي تختصر العمليات العليا قبل اكتمالها، لأن القارئ الخبير قد يكون سريعًا في التعرف إلى الكلمات لكنه بطيئًا عمدًا أمام فقرة تحتاج إلى إعادة القراءة أو أمام استعارة تستدعي التأمل.

وهذه النقطة أساسية بالنسبة إلى مفهوم القارئ الهجين، لأن الأدوات الرقمية والذكاء الاصطناعي تستطيع تسريع عدد كبير من الوظائف المحيطة بالقراءة، لكنها لا تستطيع أن تجعل الاستيعاب الإنساني نفسه يحدث بالسرعة ذاتها. يمكن للنظام أن يعثر على السياق خلال ثانية، وأن ينتج تلخيصًا خلال لحظات، لكن القارئ يحتاج إلى زمن لدمج هذه المادة في معرفته، ولذلك قد تنشأ فجوة بين سرعة إنتاج المعلومات وسرعة تكوّن الفهم .وكلما اتسعت هذه الفجوة أصبح من السهل أن يخلط المستخدم بين امتلاك جواب وبين امتلاك معرفة.

بناء المعنى

لا يحدث بناء المعنى في النص وحده ولا في ذهن القارئ وحده، بل يتشكل في العلاقة بين ما يقدمه العمل وما يحمله المتلقي من معرفة وتوقعات واستراتيجيات، وهو ما يجعل القراءة عملية تراكمية يعاد فيها تفسير الوحدات السابقة في ضوء ما يأتي بعدها. فإذا بدأ القارئ رواية وهو يعتقد أن شخصية معينة صادقة، ثم ظهرت لاحقًا إشارات تكشف تناقضها، فإنه لا

يضيف المعلومة الجديدة فحسب، بل يعيد بناء قراءته للمشاهد السابقة، وبذلك يكون المعنى نتيجة حركة مستمرة بين الذاكرة الحالية للنص وما يضيفه التقدم داخله.

وتستند هذه العملية إلى ما يمكن تسميته النموذج الذهني الذي يبنيه القارئ، أي التمثيل الداخلي للأحداث والأفكار والعلاقات بدل الاحتفاظ بالجمل حرفيًا. وقد بينت دراسات الفهم أن القراء لا يتذكرون عادة كل الصياغات اللفظية التي واجهوها، لكنهم يحتفظون بتمثيل لمعنى النص وبنيته، وهو ما يسمح لهم بالإجابة عن أسئلة لم ترد بصيغتها نفسها في المادة الأصلية [2]. ومن هنا فإن القراءة العميقة لا تعني حفظ الكلمات، بل القدرة على بناء نموذج متماسك يسمح بالتفسير والاستنتاج والنقد.

ويكتسب الزمن هنا قيمة معرفية، لأن بعض العلاقات لا تظهر في القراءة الأولى، وقد يحتاج القارئ إلى التوقف والعودة والتردد قبل أن يستقر على تفسير. ولذلك لا تكون الصعوبة دائمًا عائقًا، بل قد تكون جزءًا من الفعل الذي يجعل القراءة منتجة؛ فالنص الذي يقاوم الفهم الفوري يجبر المتلقي على إعادة تنظيم معرفته، وقد يكون هذا الاحتكاك المعرفي ضروريًا لتكوين معنى أكثر عمقًا. ويصبح الخطر حين تتوفر أداة تستطيع إزالة كل مقاومة فورًا، لأن القارئ قد يميل إلى التعامل مع الغموض باعتباره خللًا ينبغي إصلاحه بدل اعتباره أحيانًا جزءًا من استراتيجية النص.

ومن هنا ينبغي أن يميز القارئ الهجين بين حالتين مختلفتين: حالة تكون فيها المساعدة التقنية ضرورية لتجاوز عائق خارجي، مثل كلمة مجهولة أو مرجع تاريخي لا يمكن فهم المقطع بدونه، وحالة يكون فيها الصعوبة جزءًا من العمل التأويلي نفسه، بحيث تكون محاولة حلها ذاتيًا جزءًا من بناء المعنى. وفي الحالة الثانية قد يؤدي الجواب الفوري إلى اختصار المسار المعرفي الذي كان ينبغي للقارئ أن يقطعه، ولذلك تصبح القدرة على تحديد متى لا ينبغي سؤال الآلة كفاية لا تقل أهمية عن معرفة كيفية استخدامها.

المبحث الثاني: الذاكرة والقراءة

الذاكرة العاملة

تؤدي الذاكرة العاملة دورًا محوريًا في القراءة لأنها المساحة المحدودة التي يحتفظ فيها القارئ مؤقتًا بالعناصر التي يحتاج إليها لربط ما يقرأه الآن بما قرأه قبل لحظات. وقد طور آلان بادلي وغراهام هيتش نموذجًا مؤثرًا للذاكرة العاملة، ثم واصل بادلي تطويره من خلال التمييز بين مكونات تؤدي وظائف مختلفة في حفظ المعلومات ومعالجتها، وهو ما جعل الذاكرة العاملة مفهومًا مركزيًا في علم النفس المعرفي [3]. ولا يهم هذا البحث الدخول في كل التفاصيل التجريبية للنموذج بقدر ما يهمه إدراك حقيقة أساسية هي أن قدرة الإنسان على الاحتفاظ بعناصر متعددة في الوعي في اللحظة نفسها محدودة، وأن الفهم يتأثر عندما تتجاوز المهمة هذه الحدود.

فعندما يقرأ الشخص جملة طويلة أو حجة مركبة، يحتاج إلى الاحتفاظ ببداياتها وهو يصل إلى نهايتها، وعندما ينتقل من فقرة إلى أخرى يحتاج إلى حفظ بعض الأفكار السابقة حتى يستطيع فهم العلاقة الجديدة. وإذا تعرض في أثناء ذلك لإشعار أو رسالة أو انتقال إلى تطبيق آخر، فإن جزءًا من الموارد التي كانت مخصصة للنص يعاد توجيهه إلى مهمة أخرى، وقد يضطر القارئ بعد العودة إلى إعادة بناء السياق الذي فقده. ولهذا فإن تكلفة الانقطاع لا تقتصر على الثواني التي استغرقها النظر إلى الهاتف، بل تشمل كذلك عملية إعادة الدخول المعرفي إلى المهمة السابقة.

وقد أظهرت أبحاث نيلسون كوان أن سعة التركيز الواعي في الذاكرة العاملة محدودة بدرجة كبيرة، وهو ما دفعه إلى مراجعة التصورات القديمة التي كانت تتحدث عن سبعة عناصر تقريبًا، واقتراح أن مركز الانتباه يستطيع الاحتفاظ بعدد أقل من الوحدات المستقلة في كثير من الظروف [4]. وهذه المحدودية تجعل تعدد المهام، عندما تتطلب المهام المتزامنة معالجة معرفية حقيقية، أقرب في كثير من الأحيان إلى انتقال سريع بين المهام منه إلى تنفيذها جميعًا في الوقت نفسه.

ومن هنا يظهر أن الانتباه ليس موردًا غير محدود يمكن تقسيمه بلا تكلفة، وأن القراءة تحتاج إلى حماية قدر من الذاكرة العاملة من المنافسة المستمرة. فالقارئ الذي يحاول فهم حجة فلسفية بينما يتابع في الوقت نفسه سلسلة إشعارات لا يواجه مجرد «إزعاج»، بل يضع نظامه المعرفي أمام عمليات متكررة من التفريغ وإعادة التحميل، وهو ما يزيد احتمال فقدان الروابط البعيدة التي تحتاج إليها القراءة العميقة.

الذاكرة طويلة المدى

إذا كانت الذاكرة العاملة تمثل مساحة التشغيل المؤقتة، فإن الذاكرة طويلة المدى تمنح القراءة عمقها التاريخي، لأن القارئ يفهم الجديد من خلال ما سبق أن تعلمه وخزنه، كما أن القراءة الجديدة تستطيع بدورها تعديل هذه المخزونات وبناء شبكات أكثر تعقيدًا. ومن هنا لا تقاس قيمة القراءة العميقة بما يتذكره القارئ بعد دقائق فقط، بل بما يستطيع دمجه داخل بنيته المعرفية بحيث يصبح مادة لفهم نصوص وتجارب لاحقة.

ويحدث الانتقال إلى الذاكرة طويلة المدى من خلال عمليات لا تختزل في مجرد التعرض للمعلومة، لأن التكرار المنظم والاسترجاع والربط بالمعرفة السابقة والتفكير النشط كلها عوامل تساعد على تثبيت التعلم. ويكتسب الاسترجاع هنا قيمة خاصة، لأن محاولة تذكر فكرة من دون الرجوع الفوري إلى المصدر تختلف معرفيًا عن إعادة قراءتها فقط، وتدعم أبحاث التعلم ما يسمى «أثر الاختبار» أو الاسترجاع بوصفه عملية تعزز الاحتفاظ بالمعلومات مقارنة بإعادة الدراسة وحدها.[5]

ومن هنا يطرح الاعتماد المستمر على الذاكرة الرقمية سؤالًا دقيقًا؛ فمن المفيد أن يستطيع القارئ تخزين آلاف الملاحظات واستعادتها، لكن سهولة الاسترجاع الخارجي قد تقلل الدافع إلى بعض أشكال الاسترجاع الداخلي إذا لم يستخدمها بوعي. وقد بينت دراسات عن أثر محركات البحث في الذاكرة أن الأفراد عندما يتوقعون إمكان الوصول اللاحق إلى المعلومة قد يتذكرون بدرجة أفضل مكان العثور عليها بدل تذكر تفاصيلها نفسها [6]. ولا يعني

ذلك أن الإنترنت «يدمر الذاكرة»، بل أنه يعيد توزيع ما نتذكره بين المحتوى ومسار الوصول إليه.

وهذا التحول شديد الصلة بالقارئ الهجين، لأن الذاكرة الخارجية يمكن أن تكون امتدادًا فعالًا للقراءة إذا ظلت مرتبطة بعمليات داخلية من الفهم والاسترجاع، لكنها قد تتحول إلى بديل إذا أصبح القارئ عاجزًا عن بناء أي معرفة مستقرة خارج لحظة البحث. ومن هنا يصبح المطلوب ليس رفض الذاكرة الخارجية، بل إدارة التكامل بين الذاكرة الداخلية والخارجية، بحيث يستخدم القارئ الأدوات في حفظ التفاصيل التي لا تحتاج إلى احتلال الذاكرة باستمرار، بينما يبني داخليًا الشبكات المفاهيمية التي تسمح له بتقييم ما يسترجعه.

ويظهر الخطر بصورة أوضح مع الذكاء الاصطناعي التوليدي، لأن النظام لا يسترجع المعلومة فحسب بل يستطيع أن يعيد صياغتها، وهو ما قد يجعل القارئ أقل وعيًا بالفرق بين ما يعرفه هو وما يستطيع النظام أن يقدمه له عند الطلب. ومن هنا ينبغي لنظرية القارئ الهجين أن تميز بين امتلاك المعرفة وامتلاك الوصول إلى المعرفة؛ فهما متداخلان لكنهما غير متطابقين، ولا يستطيع الإنسان بناء حكم نقدي قوي إذا كان يملك الوصول إلى المعلومات من دون بنية معرفية داخلية تسمح له بتقييمها.

المبحث الثالث: مفهوم القراءة العميقة

التأمل والتأويل

لا تشير القراءة العميقة إلى بطء ميكانيكي في تحريك العين عبر الكلمات، بل إلى نمط من المعالجة يمنح القارئ الوقت اللازم للاستدلال والتعاطف والتأمل النقدي وربط النص بخبرات أخرى وبناء تأويل لا يتوقف عند المعنى المباشر. وقد جعلت ماريان وولف مفهوم القراءة العميقة محورًا في أعمالها حول الدماغ القارئ، إذ تنظر إليها بوصفها منظومة من العمليات المكتسبة التي تتطور مع الممارسة وتشمل الاستدلال والتحليل والتعاطف والتأمل [7][8]. ويهم هذا البحث في أطروحة وولف أن القراءة العميقة ليست استجابة أوتوماتيكية لكل نص، بل قدرة تحتاج إلى زمن وتدريب ويمكن أن تتأثر بالعادات التي تفرضها البيئات المختلفة.

ويظهر العمق بوضوح في القراءة الأدبية، لأن الرواية أو القصيدة لا تقدم دائمًا رسالة مباشرة يمكن استخراجها بسرعة، بل تضع القارئ أمام مستويات من اللغة والمنظور والصمت والتلميح والتناص قد تحتاج إلى العودة وإعادة البناء. ولذلك لا يمكن مساواة التفسير العميق بتلخيص مضمون العمل، لأن معرفة «ماذا حدث» لا تكفي لمعرفة كيف صيغ الحدث ولماذا اختير هذا الصوت السردي أو هذا الإيقاع أو هذا الانقطاع. ومن هنا تصبح القراءة العميقة ممارسة مقاومة للاختزال، لا لأنها ترفض التلخيص بوصفه أداة، بل لأنها ترفض مساواته بالعمل.

ويظهر في هذا السياق أن التأويل يحتاج إلى قدر من الصمت المعرفي لا يكون فيه الجواب متاحًا فورًا، لأن القارئ يحتاج أحيانًا إلى أن يعيش مع السؤال قبل أن يقرر ما يعنيه النص. وقد يكون هذا الزمن الذي يبدو غير منتج من منظور اقتصاد السرعة جزءًا من الإنتاج الحقيقي للمعنى، لأن التأويل لا يتشكل دائمًا في اللحظة التي ننتهي فيها من الجملة، بل قد يستمر بعد إغلاق الكتاب أو أثناء المقارنة بين مواضع بعيدة.

ومن هنا يمكن القول إن القراءة العميقة تقوم على **تأجيل الإغلاق**، أي مقاومة الرغبة في تثبيت معنى سريع عندما يظل النص قادرًا على إنتاج أكثر من احتمال. وهذا المبدأ سيكون بالغ الأهمية في التعامل مع الذكاء الاصطناعي، لأن النظام الحواري مصمم وظيفيًا ليجيب، بينما تحتاج بعض النصوص إلى قارئ يعرف أن عدم الحصول على جواب فوري قد يكون جزءًا من القراءة الجيدة.

البطء بوصفه شرطًا للفهم

لا ينبغي تحويل البطء إلى قيمة رومانسية مطلقة، لأن بعض النصوص والمهام تحتاج إلى سرعة، كما أن القارئ الخبير يستطيع معالجة مواد مألوفة بسرعة من دون فقدان الفهم، غير أن البطء يصبح ضروريًا عندما تتطلب المهمة إعادة التنظيم والاستدلال والمقارنة. ومن هنا يكون الأدق الحديث عن **السرعة الملائمة للمهمة**، لا عن تفضيل البطء في ذاته.

وقد ميزت ن. كاثرين هايلز بين «الانتباه العميق» و«الانتباه الفائق»، حيث يرتبط الأول بالتركيز المطول على موضوع واحد، بينما يتصل الثاني بالانتقال السريع بين مهام متعددة وبالحاجة إلى مستويات عالية من التحفيز [9]. ولا تقدم هايلز هذا التمييز بوصفه حربًا أخلاقية بين جيلين، بل بوصفه وصفًا لأنماط معرفية مختلفة يمكن أن تكون لكل منها مزاياها وقيودها. ومن هنا يمكن للقارئ المعاصر أن يحتاج إلى النوعين؛ فهو يحتاج إلى المسح السريع عندما يبحث عن معلومة، لكنه يحتاج إلى الانتباه العميق عندما يحلل حجة أو يقرأ رواية طويلة.

ويصبح الخطر عندما يتحول نمط واحد إلى عادة مهيمنة تنتقل إلى جميع المهام. فالقارئ الذي يتدرب ساعات يومية على التمرير السريع والانتقال المتواصل قد يجد صعوبة أكبر في الدخول إلى نص لا يقدم محفزات متجددة باستمرار، لا لأن قدرته العصبية فقدت بصورة نهائية، بل لأن العادة المعرفية أصبحت تميل إلى طلب التجديد. ومن هنا لا يكون مستقبل القراءة

العميقة مرتبطًا بمنع التقنية، وإنما بتدريب القارئ على تبديل النمط بحسب المهمة.

ويظهر في هذا السياق ما يمكن تسميته حق النص في الزمن، أي الاعتراف بأن بعض الأعمال لا تكشف قيمتها تحت ضغط السرعة، وأن القارئ يحتاج إلى منحها مدة لا تحددها وتيرة المنصة أو الخوارزمية. وبالنسبة إلى القارئ الهجين يصبح هذا الحق أكثر أهمية، لأن وجود أداة قادرة على تسريع كل مرحلة تقريبًا قد يخلق وهمًا بأن التأويل نفسه يمكن تسريعه بالقدر ذاته، بينما تظل بعض عمليات الفهم مرتبطة بزمن بشري لا يمكن اختزاله إلى سرعة المعالجة الحاسوبية.

المبحث الرابع: اقتصاد التشتيت

الإشعارات وتعدد المهام

تتخذ أزمة الانتباه في البيئة الرقمية شكلًا ثقافيًا واقتصاديًا يتجاوز ضعف الإرادة الفردية، لأن كثيرًا من المنصات والخدمات تعمل داخل سوق تصبح فيه القدرة على الحصول على وقت المستخدم وعودته المتكررة موردًا ذا قيمة. وقد صاغ توماس دافنبورت وجون بيك مفهوم «اقتصاد الانتباه» بوصفه إطارًا لفهم عالم أصبحت فيه وفرة المعلومات تجعل الانتباه البشري موردًا نادرًا ينبغي التنافس عليه [10]. وإذا كان هذا التصور قد ظهر قبل منصات الهاتف الذكي في صورتها الحالية، فإنه يساعد على فهم السبب الذي يجعل الإشعارات والتحديثات والتوصيات والاستدعاءات المستمرة ليست مجرد إضافات تقنية، بل جزءًا من صراع على الموارد المعرفية للمستخدم.

ويؤدي تعدد المهام في هذا السياق دورًا ملتبسًا، لأن الثقافة الرقمية تمنح الفرد قدرة عملية على الانتقال بين الكتاب والبريد والمحادثة والبحث، لكن الدماغ لا ينفذ بالضرورة كل هذه المهام المعرفية المعقدة في الوقت نفسه دون تكلفة. وقد بينت دراسة إيال أوفير وكليفورد ناس وأنتوني واغنر حول مستخدمي الوسائط المتعددة بكثافة أن كثافة تعدد الوسائط ارتبطت بأداء أضعف في بعض اختبارات التحكم المعرفي لدى المجموعة التي تمارس تعدد الوسائط بصورة أكبر [11]. ولا ينبغي تحويل نتيجة واحدة إلى حكم حتمي على جميع المستخدمين، لكنها تذكر بأن التدريب على الانتقال المستمر بين مصادر المعلومات قد لا يساوي تحسين القدرة على التركيز.

كما أظهرت دراسات لاحقة أن التبديل بين المهام يحمل تكاليف معرفية مرتبطة بإعادة توجيه الانتباه وإعادة تفعيل قواعد المهمة السابقة، وهو ما يجعل القراءة الطويلة حساسة بصورة خاصة للانقطاعات [12]. ومن هنا فإن الإشعار، حتى عندما يستغرق لحظات، قد يترك أثرًا أطول من مدة ظهوره،

لأن القارئ يحتاج بعد العودة إلى استعادة موضعه العقلي وليس فقط موضع الصفحة.

ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما تكون المشتتات مرتبطة بالقراءة نفسها؛ فالتطبيق قد يعرض رابطًا أو توصية تبدو معرفية، ولذلك لا يشعر القارئ أنه غادر النص تماماً، بينما يكون قد انتقل فعلياً من مهمة إلى أخرى. ومن هنا تنشأ التجزئة المقنعة بالبحث، حيث يصبح من الصعب على الفرد التمييز بين الاستطراد الضروري والاستطراد الذي يبدد بنية القراءة.

التجزئة المستمرة للانتباه

لا تتمثل مشكلة التجزئة في عدد الانقطاعات وحده، بل في تحول الانقطاع إلى نمط افتراضي للعلاقة بالمحتوى، بحيث يتعلم القارئ أن كل مادة يمكن تركها فوراً إذا ظهر محفز أكثر جدة. وتصبح الجدة في هذه البيئة قيمة تنافس القيمة المعرفية، لأن المحتوى الجديد يحصل على فرصة تلقائية للاستحواذ على الانتباه حتى عندما يكون أقل أهمية من المهمة الحالية.

ومن هنا يمكن فهم أزمة الانتباه باعتبارها صراعًا بين منطق الاستمرار ومنطق الاستجابة؛ فالقراءة العميقة تحتاج إلى الاستمرار داخل بنية واحدة، بينما المنصة تدرب المستخدم على الاستجابة لما يظهر الآن. ولا يكون الانتباه في الحالة الأولى غيابًا للمثيرات، بل القدرة على إبقاء الهدف السابق أقوى من المثير الجديد، وهي قدرة تحتاج إلى ممارسة وإلى بيئة تساعد على حمايتها.

وتكتسب هذه المسألة بعداً جديداً في البيئة الخوارزمية، لأن التوصيات لا تكون عشوائية تماماً، بل تستطيع أن تصبح أكثر ملاءمة لاهتمامات المستخدم، وهو ما يجعل مقاومتها أصعب من مقاومة إعلان غير ذي صلة. فالخوارزمية لا تحتاج إلى أن تجبر القارئ على المغادرة، بل يكفي أن تقدم له شيئًا «قد يعجبه» في اللحظة التي يحتاج فيها النص الحالي إلى جهد، وعندها يصبح الانتقال مكافأة فورية مقارنة بصعوبة الاستمرار.

ومن هنا يمكن الحديث عن اقتصاد الاحتكاك؛ فكلما كان النص صعبًا زادت كلفة البقاء فيه، وكلما كان البديل المعروض أسهل وأكثر جاذبية ارتفعت احتمالات الانتقال. وتصبح حماية القراءة العميقة مرتبطة بقدرة القارئ على تحمل مقدار من الصعوبة دون طلب مكافأة فورية، وهي قدرة يمكن تدريبها لكنها تحتاج إلى وعي بأن بعض تصميمات المنصات تعمل في الاتجاه المعاكس.

المبحث الخامس: التصفح في مقابل القراءة

المسح البصري السريع

لا ينبغي وضع التصفح والقراءة في تعارض أخلاقي يجعل الأول سطحيًا دائمًا والثانية عميقة دائمًا ، لأن المسح البصري مهارة ضرورية عندما يبحث القارئ عن معلومة أو يقرر ما إذا كان النص يستحق القراءة أو يحدد موقع مفهوم معين. وقد أظهرت دراسات سلوك القراءة في البيئة الرقمية أن المستخدمين يميلون بدرجات متفاوتة إلى المسح والتصفح واختيار الكلمات المفتاحية والقراءة غير الخطية، وهو ما رصده زيمينغ ليو في دراسته المبكرة عن تغير سلوك القراءة في البيئة الرقمية [13]. وتكمن المشكلة عندما يتحول المسح من استراتيجية ملائمة لمهمة محددة إلى النمط الافتراضي الذي يستخدمه القارئ حتى أمام النصوص التي تحتاج إلى تتبع طويل.

ويساعدنا التمييز بين البحث عن معلومة وبناء فهم على توضيح الفرق. ففي الحالة الأولى يمكن أن يكون القارئ ناجحًا إذا عثر على التاريخ أو التعريف المطلوب خلال ثوان، أما في الثانية فلا يكفي الوصول إلى الجملة المركزية، لأن الفهم يحتاج إلى معرفة موقعها داخل حجة أو سرد أو شبكة من العلاقات. ومن هنا يستطيع الشخص أن يلتقط المعلومات كلها تقريبًا ويفشل مع ذلك في فهم النظام الذي يربط بينها.

وتؤدي واجهات الويب والهواتف دورًا في دعم هذا النوع من المسح من خلال العناوين القصيرة والروابط والقوائم والتمرير، وهي أشكال مفيدة في تنظيم وفرة المعلومات، لكنها تشجع العين على اتخاذ قرارات سريعة بشأن ما يستحق الانتباه. ومن هنا تصبح القراءة الرقمية تدريبًا مستمرًا على الاختيار، وهي كفاية مهمة، لكنها قد تنتج مشكلة إذا أصبحت سرعة القرار أهم من جودة الفهم.

الانتقال من الفهم إلى التقاط المعلومة

يمثل الانتقال من الفهم إلى التقاط المعلومة أحد التحولات الثقافية الأكثر أهمية في عصر الوفرة، لأن القارئ الذي يواجه آلاف الصفحات لا يستطيع التعامل معها جميعًا بالعمق نفسه، ولذلك يطور استراتيجيات للعثور على الجزء المفيد وتجاهل الباقي. وهذه الاستراتيجية عقلانية في كثير من السياقات، لكنها تستطيع أن تغير تصورنا للكتاب نفسه إذا أصبح العمل يُعامل دائمًا بوصفه مستودعًا لمقاطع قابلة للاستخراج.

ففي القراءة البحثية قد يبحث المستخدم عن كلمة داخل كتاب ثم يأخذ الفقرة المحيطة بها من دون قراءة البناء الذي جاءت داخله، وفي القراءة التوليدية يستطيع أن يطلب من النظام استخراج الأفكار الرئيسية أو الحجج، وبذلك ينتقل من مواجهة النص إلى مواجهة تمثيل منتقى للنص .ولا يكون هذا خطأ بالضرورة، لأن الباحث يحتاج أحيانًا إلى الفرز الأولي، لكن الخطر يبدأ عندما يتحول التمثيل إلى بديل دائم عن الأصل.

وهنا يظهر مفهوم يمكن تسميته القراءة المستبدلة، أي الحالة التي يحصل فيها الفرد على نتائج القراءة من دون أن يمارس العمليات الأساسية التي تنتج الفهم. فالتلخيص الذي يستخدم بعد قراءة الكتاب أداة للاسترجاع، أما التلخيص الذي يحل محل الكتاب دائمًا فقد ينتج معرفة بالموضوع لا معرفة بالعمل، وهو فرق حاسم في الأدب والفلسفة والنصوص المركبة.

ومن هنا لا ينبغي للقارئ الهجين أن يرفض أدوات الالتقاط، بل أن يعرف موقعها داخل العملية. يمكنه أن يبدأ بالمسح ليحدد ما يحتاج إلى عمق، وأن يستخدم الملخص ليستعيد بنية سبق أن فهمها، وأن يطلب من النظام استخراج المصطلحات قبل الدخول إلى الفصل، لكن ينبغي ألا يخلط بين الاستكشاف الأولي والقراءة النهائية .وفي هذا التمييز تكمن إحدى أهم كفايات القراءة الهجينة الناضجة.

وقد أظهرت أبحاث مقارنة بين الورق والشاشة وجود أفضلية للورق في بعض ظروف الفهم، كما بين تحليل تلوي واسع أن هذه الفروق تتأثر بعوامل مثل ضغط الوقت ونوع النص [14][15]. ولا تبرهن هذه النتائج أن الشاشة تمنع العمق، لكنها تشير إلى أن الوسيط والسلوك المرتبط به يمكن أن يؤثرا في النتائج، وهو ما يعزز الحاجة إلى تدريب القارئ على استخدام الشاشة بطريقة تناسب المهمة بدل افتراض أن الوسيط محايد دائمًا.

المبحث السادس: مستقبل القراءة العميقة

إمكان التعايش بين السرعة والعمق

لا يبدو مستقبل القراءة العميقة مرتبطًا بإمكانية العودة إلى عالم سابق يخلو من الشبكات والهواتف والخوارزميات، لأن هذه التقنيات أصبحت جزءًا من البنية الثقافية والمعرفية المعاصرة، كما أن كثيرًا من وظائفها يوسع إمكان الوصول إلى المعرفة بصورة لا يمكن اختزالها في أثر سلبي. ومن ثم فإن السؤال الواقعي لا يتمثل في اختيار الورق أو الشاشة اختيارًا مطلقًا، بل في بناء قارئ يستطيع الانتقال الواعي بين أنماط متعددة للقراءة.

يمكن للقارئ أن يمسح عشرات العناوين بسرعة ليحدد ما يحتاج إليه، ثم ينتقل إلى قراءة متأنية لعدد محدود منها، ويمكنه أن يستخدم محرك البحث لتحديد المرجع ثم يغلق الشبكة أثناء دراسته، وأن يستعين بالذكاء الاصطناعي في استخراج أسئلة للمقارنة ثم يعود إلى النصوص الأصلية. ومن هنا يصبح التعايش بين السرعة والعمق ممكنًا عندما تعمل السرعة بوصفها مرحلة اختيار لا بوصفها بديلًا عن المعالجة العميقة.

ويقترب هذا التصور من دعوة ماريان وولف إلى بناء ما تسميه بصورة مجازية «دماغًا قارئًا ثنائي القدرة»، أي قارئ قادر على الاستفادة من خصائص البيئة الرقمية مع الاحتفاظ بالدارات والممارسات التي تدعم القراءة العميقة [8]. ولا ينبغي فهم الثنائية هنا بوصفها انقسامًا فسيولوجيًا بسيطًا، بل بوصفها تربية على المرونة، بحيث يعرف القارئ متى يحتاج إلى المسح ومتى ينبغي أن يبطئ، ومتى تكون الأداة الرقمية معززة ومتى تتحول إلى مقاطعة.

ويضيف مشروع القارئ الهجين إلى هذا التصور مستوى جديدًا، لأن الانتقال لم يعد بين الورق والشاشة فقط، بل بين العمل البشري والعمل المفوض للآلة . فالقارئ يحتاج إلى أن يقرر متى يستخدم التلخيص، ومتى يحتفظ بمهمة التلخيص لنفسه لأنها تساعده على الفهم، ومتى يطلب مقارنة، ومتى يكون

بناء المقارنة بنفسه هو الهدف المعرفي. ومن هنا يصبح ضبط التدخل الآلي جزءًا من إدارة الانتباه.

ويمكن تسمية هذا المبدأ **اقتصاد التدخل الآلي**، أي عدم استخدام الأداة في كل موضع تستطيع فيه التدخل، بل في الموضع الذي تضيف فيه قيمة من دون أن تلغي وظيفة يحتاج القارئ إلى ممارستها بنفسه. فالذكاء الاصطناعي قد يستطيع كتابة ملخص، لكن إذا كان هدف الطالب هو تعلم بناء الملخص فإن تفويض المهمة يفوت الهدف، وقد يستطيع النظام تفسير قصيدة، لكن إذا كان الهدف تدريب الحس التأويلي فإن الجواب الجاهز يقلل القيمة التعليمية. وهكذا يتغير معيار الكفاءة من «كم وظيفة تستطيع الآلة تنفيذها؟» إلى «أي وظيفة ينبغي أن تبقى بشرية في هذه اللحظة؟.«

نحو تربية جديدة على الانتباه

إذا كانت القراءة العميقة مهارة مكتسبة، فإن الدفاع عنها لا يمكن أن يقوم على الوعظ ضد الهواتف أو على تمجيد الكتاب الورقي، بل يحتاج إلى **تربية على الانتباه** تعلم القارئ إدارة البيئة التي يقرأ داخلها. ويتضمن ذلك معرفة حدود الذاكرة العاملة، وفهم تكلفة الانتقال بين المهام، والتمييز بين البحث والتصفح والقراءة العميقة، والقدرة على إنشاء فترات قراءة محمية من الإشعارات، إلى جانب تنمية عادة الاسترجاع وإعادة الصياغة الشخصية بدل الاعتماد الدائم على التخزين الخارجي.

وتحتاج هذه التربية كذلك إلى تعليم القارئ أن الصعوبة ليست دائمًا إشارة إلى فشل النص أو نقص الأداة، وأن بعض درجات الحيرة والتردد مفيدة لأنها تدفع إلى إعادة التنظيم. ويصبح من الضروري إعادة الاعتبار إلى **الصبر المعرفي**، لا بوصفه فضيلة أخلاقية مجردة، بل بوصفه شرطًا لبعض أنماط الفهم التي لا يمكن اختزالها في إجابة سريعة.

وفي البيئة الهجينة ينبغي أن تتضمن التربية على الانتباه بعدًا خوارزميًا، بحيث يعرف القارئ أن المنصة قد تنظم ما يظهر أمامه، وأن التوصيات مصممة لإدامة التفاعل، وأن الجواب التوليدي ليس خاتمة طبيعية للسؤال. ومن هنا تتقاطع التربية على الانتباه مع القراءة الميتا خوارزمية، لأن التحكم في الانتباه يحتاج إلى فهم القوى التي تنافس عليه.

وتتجسد الكفاية الجديدة في مجموعة من الاختيارات الواعية؛ فيستطيع القارئ أن يقرر متى يقرأ دون اتصال، ومتى يسمح بالروابط، ومتى يستخدم البحث، ومتى يؤجل سؤال الذكاء الاصطناعي حتى ينتهي من بناء فرضيته الأولية، ومتى يقارن جواب النظام بالنص، ومتى يترك سؤالًا مفتوحًا بدل البحث عن حل نهائي. وبذلك تصبح القراءة العميقة في عصر الخوارزمية أقل ارتباطًا بنوع الجهاز وأكثر ارتباطًا بقدرة الإنسان على تصميم شروط قراءته.

ومن هنا يمكن القول إن مستقبل القراءة العميقة لا يتوقف على هزيمة السرعة، بل على وضعها في مكانها المناسب. فالسرعة ممتازة في العثور على الطريق، لكنها لا تستطيع دائمًا أن تسير بدل القارئ داخله، والتوصية مفيدة في اكتشاف النص، لكنها لا تضمن فهمه، والتلخيص يساعد على الاستعادة، لكنه لا يعادل التجربة، والذكاء الاصطناعي يستطيع أن يوسع السؤال، لكنه لا ينبغي أن يلغي الزمن الذي يحتاج إليه الإنسان لكي يصبح السؤال جزءًا من معرفته.

خاتمة الفصل الثالث

يكشف تحليل القراءة العميقة وأزمة الانتباه أن التحولات الرقمية لا تؤثر في القراءة من الخارج فقط، بل تستطيع أن تصل إلى بعض الشروط المعرفية التي يقوم عليها الفهم، لأن الذاكرة العاملة محدودة، والانتباه قابل للمنافسة، والذاكرة طويلة المدى تحتاج إلى عمليات من الربط والاسترجاع، وبناء المعنى يحتاج إلى زمن يسمح بتكوين العلاقات وتصحيح الفرضيات. ومن هنا لا يمكن التعامل مع الإشعار والرابط والتوصية والتلخيص باعتبارها أدوات محايدة تماماً، لأن كل واحد منها يعيد توزيع الزمن والانتباه بصورة يمكن أن تدعم القراءة أو تقطعها.

وقد ظهر خلال الفصل أن التمييز الحاسم لا يقع بين الورق والشاشة، بل بين أنماط المعالجة .فالقارئ يستطيع أن يمارس قراءة سطحية على الورق، كما يستطيع أن يقرأ نصاً رقمياً بعمق، لكن بعض البيئات الرقمية تجعل الانتقال والتجديد والتجزئة أسهل، وهو ما يفرض على القارئ مهارة أكبر في إدارة انتباهه. ولا تصبح التقنية هنا عدواً للقراءة، بل عنصراً داخل بيئة ينبغي تعلم استخدامها بوعي.

ويكشف الفصل كذلك أن القراءة العميقة لا تعني رفض السرعة، بل القدرة على التمييز بين المهام التي تستفيد منها والمهام التي تحتاج إلى البطء. فالاستكشاف والمسح والبحث والاسترجاع يمكن أن تتم بسرعة عالية، بينما تحتاج المقارنة والتأويل وبناء الحجة إلى زمن أطول، ومن هنا يكون القارئ الناضج هو الذي يملك مرونة إيقاعية تسمح له بتغيير سرعة القراءة وفق غرضها.

غير أن دخول الذكاء الاصطناعي يضيف مستوى جديداً إلى أزمة الانتباه، لأن الخطر لم يعد يقتصر على قطع القراءة بإشعار خارجي، بل يمتد إلى إمكان اختصار القراءة من الداخل عبر أدوات تقدم النتيجة قبل أن يمر القارئ بالعملية. فإذا كان التشتت التقليدي يسحب القارئ بعيداً عن النص، فإن الاستبدال التوليدي قد يجعله يعتقد أنه بقي قريباً منه بينما كان

يتعامل في الحقيقة مع ملخص أو تفسير بديل. ومن هنا يصبح الدفاع عن القراءة العميقة مرتبطًا بالتمييز بين المساعدة والاستبدال، وبين الوصول إلى المعرفة وبنائها.

ويؤدي هذا كله إلى نتيجة مركزية في مشروع الكتاب: إن القارئ الهجين لا ينبغي تعريفه بكمية الأدوات التي يستخدمها، بل بقدرته على إدارة العلاقة بين التوسيع التقني والسيادة المعرفية .فكلما ازدادت قدرة الآلة على القيام بوظائف القراءة، أصبحت حاجة الإنسان أكبر إلى معرفة الوظائف التي ينبغي أن يحتفظ بها، وكلما أصبح الحصول على الجواب أسرع، ازدادت أهمية السؤال عن نوع المعرفة التي لم تتكون بعد داخله.

ومن هنا يمهد هذا الفصل للانتقال إلى تأسيس مفهوم القارئ الهجين في الباب التالي، لأن أزمة الانتباه تكشف أن الهجنة الناجحة لا تقوم على أكبر قدر ممكن من المساعدة، وإنما على توزيع واع للوظائف يحمي ما تحتاج إليه القراءة من زمن وصعوبة واسترجاع ومقاومة. وإذا كانت البيئة الرقمية قد جعلت القارئ أسرع في الوصول، فإن التحدي القادم يتمثل في أن يصبح أكثر قدرة على معرفة الموضع الذي ينبغي أن يتوقف فيه عن السرعة، وإذا كان الذكاء الاصطناعي قد جعله قادرًا على الحصول على تفسير خلال لحظات، فإن النضج القرائي سيقاس بقدرته على معرفة الموضع الذي يجب فيه تأجيل التفسير حتى يعمل عقله هو أولًا.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Dehaene, Stanislas. *Reading in the Brain: The New Science of How We Read*. New York: Viking, 2009.

مرجع أساسي في دراسة الأسس العصبية والمعرفية للقراءة وفي فكرة إعادة توظيف شبكات الدماغ لخدمة الاختراع الثقافي للكتابة.

[2] Kintsch, Walter. "The Role of Knowledge in Discourse Comprehension: A Construction–Integration Model." *Psychological Review*, Vol. 95, No. 2, 1988, pp. 163–182.

يمثل نموذج البناء ـ التكامل أحد المراجع الأساسية في تفسير الفهم بوصفه عملية لبناء تمثيلات أولية ثم دمجها داخل بنية أكثر اتساقًا.

[3] Baddeley, Alan D. "The Episodic Buffer: A New Component of Working Memory?" *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 4, No. 11, 2000, pp. 417–423.

يستفاد منه في فهم الذاكرة العاملة بوصفها منظومة محدودة تضم مكونات متعددة وتؤدي دورًا أساسيًا في الاحتفاظ المؤقت بالمعلومات ودمجها أثناء النشاط المعرفي.

[4] Cowan, Nelson. "The Magical Number 4 in Short-Term Memory: A Reconsideration of Mental Storage Capacity." *Behavioral and Brain Sciences*, Vol. 24, No. 1, 2001, pp. 87–114.

مرجع مهم في مناقشة الحدود الفعلية للسعة التي يستطيع مركز الانتباه الاحتفاظ بها أثناء المعالجة.

[5] Roediger, Henry L. III & Karpicke, Jeffrey D. "Test-Enhanced Learning: Taking Memory Tests Improves Long-Term Retention." *Psychological Science*, Vol. 17, No. 3, 2006, pp. 249–255.

يمثل أحد المراجع البارزة في أثر الاسترجاع والاختبار في دعم الاحتفاظ طويل المدى مقارنة بإعادة الدراسة وحدها.

[6] Sparrow, Betsy; Liu, Jenny & Wegner, Daniel M. "Google Effects on Memory: Cognitive Consequences of Having Information at Our Fingertips." *Science*, Vol. 333, No. 6043, 2011, pp. 776–778.

تستفاد منه في مناقشة التحول من تذكر بعض المعلومات نفسها إلى تذكر مواقع الوصول إليها عندما يتوقع الفرد أن تظل المعلومات متاحة خارجيًا.

[7] **Wolf, Maryanne.** *Proust and the Squid: The Story and Science of the Reading Brain*. New York: Harper, 2007.
مرجع مهم في تاريخ الدماغ القارئ وفي فهم القراءة بوصفها قدرة ثقافية مكتسبة تتطور عبر التدريب.

[8] **Wolf, Maryanne.** *Reader, Come Home: The Reading Brain in a Digital World*. New York: Harper, 2018.
يستخدم في هذا الفصل لتأصيل مفهوم القراءة العميقة ومناقشة مستقبل الانتباه والقراءة التأملية داخل البيئة الرقمية.

[9] **Hayles, N. Katherine.** "Hyper and Deep Attention: The Generational Divide in Cognitive Modes." *Profession*, 2007, pp. 187–199.
يمثل مرجعًا مهمًا في التمييز بين الانتباه العميق والانتباه الفائق وفي فهم الممارسات المعرفية المتصلة بالبيئات الرقمية دون اختزالها في حكم أحادي.

[10] **Davenport, Thomas H. & Beck, John C.** *The Attention Economy: Understanding the New Currency of Business*. Boston: Harvard Business School Press, 2001.
يفيد في بناء مفهوم اقتصاد الانتباه وفهم التنافس على الوقت والتركيز البشري في بيئة تتسم بوفرة المعلومات.

[11] **Ophir, Eyal; Nass, Clifford & Wagner, Anthony D.** "Cognitive Control in Media Multitaskers." *Proceedings of the National Academy of Sciences*, Vol. 106, No. 37, 2009, pp. 15583–15587.
دراسة مؤثرة في العلاقة بين كثافة تعدد الوسائط وبعض أبعاد التحكم المعرفي، ويستفاد منها بحذر بوصفها جزءًا من أدبيات أوسع حول تبديل المهام والانتباه.

[12] Monsell, Stephen. “Task Switching.” *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 7, No. 3, 2003, pp. 134–140.

مرجع أساسي في تفسير تكاليف الانتقال بين المهام وإعادة تهيئة النظام المعرفي عند تبديل الهدف أو قواعد النشاط.

[13] Liu, Ziming. “Reading Behavior in the Digital Environment: Changes in Reading Behavior over the Past Ten Years.” *Journal of Documentation*, Vol. 61, No. 6, 2005, pp. 700–712.

دراسة مبكرة ومهمة في رصد الميل إلى المسح والتصفح والكلمات المفتاحية والقراءة غير الخطية داخل البيئة الرقمية.

[14] Mangen, Anne; Walgermo, Bente R. & Brønnick, Kolbjørn. “Reading Linear Texts on Paper versus Computer Screen: Effects on Reading Comprehension.” *International Journal of Educational Research*, Vol. 58, 2013, pp. 61–68.

دراسة تجريبية تقارن فهم نصوص خطية على الورق والشاشة، وتفيد في إبراز أن أثر الوسيط يمكن أن يظهر في بعض شروط القراءة دون تعميم النتيجة على جميع السياقات.

[15] Delgado, Pablo; Vargas, Cristina; Ackerman, Rakefet & Salmerón, Ladislao. “Don’t Throw Away Your Printed Books: A Meta-Analysis on the Effects of Reading Media on Reading Comprehension.” *Educational Research Review*, Vol. 25, 2018, pp. 23–38.

تحليل تلوي واسع يبين وجود أفضلية للورق في بعض ظروف الفهم مع أهمية متغيرات مثل ضغط الوقت ونوع النص، ويستخدم في هذا الفصل لتأكيد أن العلاقة بين الوسيط والفهم مشروطة وليست حتمية.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في أربعة محاور متكاملة؛ إذ تؤسس أعمال ديهان وكينتش [1–2] لفهم القراءة بوصفها عملية معرفية يتجاوز فيها القارئ فك الشفرة إلى بناء تمثيل متماسك للمعنى، بينما توضح أعمال بادلي وكوان وورويديغر وكاربيك وسبارو وزملائها [3–6] دور الذاكرة العاملة والذاكرة طويلة المدى والاسترجاع والذاكرة الخارجية في دعم القراءة أو إعادة توزيع وظائفها. وتقدم أعمال وولف وهايلز [7–9] الأساس النظري لمفهوم القراءة العميقة والتوتر بين أنماط الانتباه المختلفة، في حين تسمح أعمال دافنبورت وبيك وأوفير وناس وواجنر ومونسيل وليو ومانغن وديلغادو وزملائهم [10–15] بتحليل اقتصاد الانتباه وتعدد المهام والمسح الرقمي وآثار الوسيط في الفهم.

ومن تقاطع هذه المحاور يتأكد الافتراض الذي يمهد للباب التالي من الكتاب، وهو أن القارئ الهجين لا يمكن أن يُبنى نظريًا بوصفه قارئًا أسرع أو أكثر اتصالًا بالأدوات، وإنما بوصفه قارئًا يعرف كيف يحمي شروط الفهم العميق داخل بيئة توسع إمكان الوصول والتدخل والتشتيت في الوقت نفسه؛ فالهجنة الناضجة لا تقاس بكمية التكنولوجيا الداخلة في القراءة، بل بقدرة القارئ على توزيع وظائفه المعرفية من دون أن يفقد الانتباه والذاكرة والحكم التي تجعل القراءة فعلًا إنسانيًا منتجًا للمعنى.

الفصل الرابع

القارئ الهجين: المفهوم والحدود النظرية

يمثل مفهوم «القارئ الهجين» النقطة التي تنتقل عندها هذه الدراسة من تتبع التحولات التاريخية والمادية والمعرفية لفعل القراءة إلى محاولة بناء جهاز نظري قادر على وصف القارئ الذي يتشكل داخل البيئة الرقمية والخوارزمية المعاصرة، لأن الفصول السابقة بينت أن الانتقال من المخطوط إلى المطبوع، ثم من الورق إلى الشاشة والنص التشعبي والواجهة متعددة الوسائط، لم يكن مجرد تعاقب في الحوامل، وإنما صاحبه باستمرار تحول في العلاقات التي يقيمها القارئ بالنص والذاكرة والانتباه والجماعة والسياق. كما ظهر أن الذكاء الاصطناعي التوليدي يدفع هذه التحولات إلى مستوى أكثر عمقًا حين لا يكتفي الوسيط بعرض النص أو إتاحته أو ربطه بمصادر أخرى، بل يصبح قادرًا على إنتاج خطاب حوله، وعلى تقديم ملخصات وشروح ومقارنات وترجمات واقتراحات تأويلية، وهو ما يطرح مسألة الحدود بين النشاط المعرفي الذي يقوم به الإنسان والوظائف التي أصبحت قابلة للتفويض أو التوزيع على الأدوات.

ولا يُطرح مفهوم القارئ الهجين هنا باعتباره تسمية مستقرة في نظريات القراءة السابقة يمكن نقل تعريفها الجاهز إلى هذا الكتاب، بل بوصفه اقتراحًا نظريًا إجرائيًا يسعى البحث إلى تأسيسه بالاستفادة من سلسلة من المفاهيم التي تطورت في الدراسات الثقافية والوسائطية وفلسفة التقنية وعلم الإدراك، من دون الادعاء بأن هذه المرجعيات استخدمت المصطلح بالمعنى نفسه الذي نقترحه. ومن ثم فإن مهمة هذا الفصل لا تقتصر على تعريف القارئ الهجين، بل تتطلب تحديد الشروط التي تجعل المفهوم ضروريًا، ورسم الحدود التي تفصله عن القارئ الرقمي والقارئ الشبكي والقارئ المعزز، ثم بيان الدرجة التي يصبح عندها تدخل التقنية في القراءة أعمق من مجرد استعمال أداة خارجية، بحيث تبدأ بعض الوظائف المعرفية في التوزع بين القارئ والوسيط.

ويقتضي هذا التأسيس منذ البداية الحذر من تصور الهجنة باعتبارها اتحاداً بين طرفين متساويين، لأن الإنسان والنظام التقني لا يتمتعان بالطبيعة الوجودية نفسها ولا يؤديان الوظائف ذاتها. فالقارئ البشري يحمل ذاكرة شخصية وتجربة جسدية وثقافية وتاريخًا في التعلم واللغة والانفعال، بينما تعتمد الأنظمة الحسابية على معالجة المدخلات وإنتاج المخرجات بحسب بنياتها ونماذجها وبياناتها، ولذلك لا تعني مشاركة الآلة في بعض عمليات القراءة أنها أصبحت قارئًا بشريًا آخر، كما لا تعني الاستفادة من قدراتها أن الإنسان فقد موقعه. إن الهجنة التي يدافع عنها هذا الكتاب هجنة وظيفية ومعرفية ووسائطية غير متماثلة، تتداخل فيها القدرات من دون أن تختلط المسؤوليات، وتظل فيها الذات البشرية مسؤولة عن التحقق والاختيار والتأويل النهائي.

المبحث الأول: مفهوم الهجنة

الهجنة في العلوم الإنسانية

انتقل مفهوم الهجنة عبر حقول معرفية متعددة قبل أن يصبح واحداً من المصطلحات المؤثرة في الدراسات الثقافية وما بعد الاستعمارية، ولذلك لا يمكن استعماله في دراسة القراءة من دون الانتباه إلى تاريخه الدلالي وإلى المخاطر التي تنتج عن نقله من مجال إلى آخر. فقد استخدمت استعارات الاختلاط والتهجين لوصف اللغات والثقافات والهويات والأشكال الفنية والاجتماعية، لكن هذا الاستعمال لم يكن محايداً دائماً، إذ ارتبط في مراحل تاريخية بخطابات بيولوجية وعنصرية، قبل أن تعيد العلوم الإنسانية توظيفه بصورة نقدية للإشارة إلى العمليات التي تنتج أشكالًا ثقافية جديدة من التماس والتفاوض وإعادة التركيب.

وقد منح هومي ك. بابا مفهوم الهجنة موقعاً مركزياً داخل دراسات ما بعد الاستعمار، خصوصاً في *The Location of Culture*، حيث ارتبط عنده بمفاهيم المنطقة البينية والمحاكاة والالتباس وبإمكان تشكل فضاءات ثقافية لا يمكن اختزالها إلى أحد الأصلين المتقابلين [1]. ولا تستعمل هذه الدراسة مفهوم بابا مباشرة لتفسير القراءة التقنية، لأن الهجنة الثقافية في سياق العلاقات الاستعمارية والهويات لا تساوي الهجنة المعرفية بين القارئ والأداة، غير أن أهمية بابا تكمن في تفكيك التصورات الثنائية التي تفترض وجود كيانات نقية مكتفية بذاتها، وفي إبراز أن اللقاء بين نظم مختلفة قد ينتج موقعاً ثالثاً تتغير داخله العلاقة بين العناصر الأصلية، وهو ما يوفر خلفية إبستمولوجية تسمح بالتفكير في الهجنة بوصفها عملية تعيد تشكيل الحدود بدل أن تكون مجرد جمع حسابي بين طرفين .

ويقدم بيتر بيرك في *Cultural Hybridity* معالجة تاريخية أوسع لعمليات التفاعل والتبادل والمزج الثقافي، ويشدد في أعماله اللاحقة على أن الحديث عن التهجين بوصفه عملية قد يكون أدق من التعامل مع «الهجنة» كحالة مكتملة، لأن النظر إلى العملية يسمح بالتفكير في الدرجات والتحولات

بدل الاقتصار على ثنائية الوجود والغياب [2]. وهذه الفكرة ذات فائدة مباشرة في بناء مفهوم القارئ الهجين، إذ لا ينبغي أن نسأل فقط ما إذا كان القارئ هجينًا أو غير هجين، بل ما درجة الهجنة التي تتشكل داخل ممارسة معينة، وما الوظائف التي دخلت فيها التقنية، وهل بقيت مجرد مساعدة خارجية أم أصبحت جزءًا متكررًا من طريقة الوصول إلى النص وفهمه ومراجعته. وقد أشار بيرك صراحة في تناوله لمفهوم التهجين إلى فائدة التفكير فيه بوصفه عملية يمكن أن تكون أكثر أو أقل كثافة، بدل التعامل معه كصفة ثنائية ثابتة([2]

ويكتسب مفهوم الهجنة بعدًا آخر مع دونا هاراواي في «بيان السايبورغ» وفي مجموعة *Simians, Cyborgs, and Women*، حيث استخدمت صورة السايبورغ لتفكيك عدد من الحدود التي بدت مستقرة في الفكر الغربي، ومن بينها الفصل بين الكائن والآلة والطبيعة والثقافة [3]. ولا يحتاج مشروع القارئ الهجين إلى استعارة السايبورغ بمعناها السياسي والفلسفي الكامل، ولا إلى تحويل القارئ إلى كائن نصف عضوي ونصف آلي، لكن قيمة هاراواي تكمن في فتح مجال التفكير في أن الحدود بين الإنسان والتقنية يمكن أن تصبح أقل بساطة عندما تدخل الأدوات إلى الحياة اليومية والمعرفة والهوية والممارسة. وتصف Routledge السايبورغ عند هاراواي بوصفه هجينًا من الكائن والآلة يستخدم لتحدي الثنائيات الجامدة بين الطبيعة والثقافة وبين العضوي والتقني .[3]

وتسمح هذه المرجعيات الثلاث باستخلاص مبدأ منهجي دون استنساخ مفاهيمها: الهجنة، في استعمالها الذي يهم هذا الكتاب، لا تعني ذوبان عنصرين في كيان يفقد خصائصهما، وإنما تعني إعادة تنظيم العلاقة بين وظائف كانت تبدو منفصلة، بحيث يظهر نمط من الممارسة لا يمكن تفسيره تفسيرًا كاملًا برده إلى أحد الطرفين وحده. ومن هنا فإن القراءة الهجينة ليست قراءة بشرية خالصة أضيفت إليها شاشة بصورة عرضية، كما أنها ليست عملية آلية يقوم فيها النظام بدل الإنسان، بل هي وضع تتوزع فيه

بعض مراحل النشاط على طرف بشري وموارد تقنية مع المحافظة على عدم التماثل بينهما.

ويتيح هذا التعريف كذلك تجاوز الاستخدام الاحتفالي للهجنة الذي يجعل كل مزج قيمة إيجابية في ذاته، لأن الهجنة يمكن أن توسع قدرات القارئ كما يمكن أن تزيد تبعيته، ويمكن أن تفتح أمامه نصوصًا ولغات وسياقات جديدة كما يمكن أن تضعف بعض مهاراته إذا تحول التعزيز إلى استبدال. ولهذا ينبغي النظر إلى الهجنة بوصفها وصفًا لبنية العلاقة قبل أن تكون حكمًا عليها، ثم يأتي التقييم لاحقًا بحسب درجة استقلال القارئ ووعيه بالوساطة وقدرته على التحقق والعودة إلى النص.

انتقال المفهوم إلى الدراسات الرقمية

لم تنتقل فكرة الهجنة إلى الدراسات الرقمية من طريق اصطلاحي واحد، وإنما ظهرت في مجموعة واسعة من النظريات التي حاولت تفسير تداخل الوسائط القديمة والجديدة، وتفاعل البشر مع الحواسيب، وتحوّل الحدود بين الإنتاج والاستهلاك، وبين الكتابة والقراءة، وبين الذاكرة الداخلية والموارد الخارجية. وقد قدمت ن. كاثرين هايلز مفهوم «التكوين التقني المعاصر» بوصفه إطارًا لفهم التطور المتبادل بين الإنسان والتقنيات التي يستخدمها، ودعت إلى دراسة كيفية التفكير «من خلال الوسائط ومعها وإلى جانبها»، وهو تصور يرفض النظر إلى التقنية باعتبارها جسمًا خارجيًا لا يترك أثرًا في العمليات المعرفية [4]. وتبين *How We Think* أن هايلز تربط تحولات الوسائط الرقمية بالممارسات المعرفية، وتقدم مفهوم technogenesis باعتباره علاقة تطور متبادل بين البشر والتقنيات .[4]

ويذهب ليف مانوفيتش في اتجاه مواز حين يحلل الوسائط الجديدة بوصفها بيئة لها منطقها الخاص، لا مجرد حامل إلكتروني لمحتوى قديم، ويجعل الواجهة وقاعدة البيانات من الأشكال الأساسية التي تنظم العلاقة بين المستخدم والمادة الرقمية [5]. وهنا تصبح الهجنة أكثر وضوحًا لأن ما يواجهه القارئ على الشاشة ليس النص في حالته المجردة، بل بناءً واجهيًا

يجمع بين المحتوى والأوامر والروابط وأشكال التنقل، وهو ما يجعل القراءة ممارسة تقع منذ البداية بين اللغة وتصميم البرمجيات. وقد عرضت MIT Press *The Language of New Media* بوصفه عملًا يؤسس نظرية منهجية للوسائط الجديدة ويركز، ضمن ما يركز عليه، على الواجهة وقاعدة البيانات والعلاقات بين الوسائط القديمة والجديدة .[5]

وتظهر فكرة التداخل كذلك في مفهوم «ثقافة التقارب» عند هنري جنكينز، حيث تلتقي الوسائط القديمة والجديدة وتتداخل أدوار المنتجين والمستهلكين وتتحرك المضامين بين قنوات متعددة [6]. وعلى الرغم من أن موضوع جنكينز أوسع من القراءة، فإن فكرته عن التقاء قوى المنتج والمستهلك والوسائط المختلفة تساعد على تفسير ظهور قارئ لا يكتفي باستقبال النص، بل يعلق عليه ويشارك مقاطعه ويعيد إنتاجه ويدخل في مجتمعات رقمية حوله، بحيث تتقاطع القراءة والكتابة والمشاركة الاجتماعية في النشاط نفسه. وتصف» NYU Press ثقافة التقارب» بأنها مجال تتلاقى فيه الوسائط القديمة والجديدة وتتصادم فيه سلطات المنتجين مع قوى الجمهور بصورة غير متوقعة.[6]

كما يكشف تطور «القراءة الاجتماعية الرقمية» أن القراءة الشبكية لم تعد مجرد استعارة، بل أصبحت ممارسة موثقة داخل منصات تتيح للقراء التعليق والمراجعة والتوصية والمناقشة والمشاركة في إنتاج خطاب حول النصوص. وتبين بحوث حديثة أن القراءة الاجتماعية الرقمية تشمل المراجعات والتعليقات داخل النص والمناقشات والكتابة التشاركية وغيرها من الممارسات التي تجعل التواصل بين القراء جزءًا من الثقافة الأدبية الرقمية [7]، بينما يؤكد فيديريكو بيانزولا في كتابه *Digital Social Reading* أن التطبيقات الاجتماعية غيّرت بعض الطرق التي يقرأ بها الأفراد الأدب ويتفاعلون حوله[8]

غير أن الانتقال الأهم بالنسبة إلى مفهومنا لا يتمثل في مزج الوسائط أو تداخل القراءة والكتابة وحدهما، بل في تحول العلاقة بين الإنسان

والتقنية من علاقة استعمال إلى علاقة يمكن أن تصبح تكاملًا وظيفيًا متكررًا .وتوفر أطروحة «العقل الممتد» عند آندي كلارك وديفيد تشالمرز خلفية فلسفية لهذا السؤال، إذ تقترح أن الموارد الخارجية تستطيع في بعض الشروط أن تؤدي دورًا فعليًا داخل عملية معرفية موسعة، بينما يقدم إدوين هاتشنز في «الإدراك الموزع» تصورًا يجعل النشاط المعرفي قابلًا للدراسة على مستوى الأنظمة التي تتفاعل فيها الأفراد والأدوات والممارسات [9][10]. ولا يساوي هذا الكتاب بين القراءة الهجينة وأطروحة العقل الممتد، لكنه يستفيد منها في طرح سؤال الوظائف: إذا أصبح القارئ يعتمد بصورة منتظمة على البحث الرقمي والذاكرة الخارجية والترجمة الآلية والمساعد التوليدي، فهل تظل وحدة التحليل هي الفرد وحده، أم يصبح من المفيد أحيانًا تحليل «القارئ والأداة» بوصفهما نظامًا قرائيًا مؤقتًا؟ وتثبت المراجع الأصلية لأطروحة العقل الممتد ومشروع الإدراك الموزع موقع هذين التصورين داخل النقاش حول مشاركة البيئة والأدوات في بعض العمليات المعرفية [9 .[10]]

ومن هنا يصبح انتقال مفهوم الهجنة إلى القراءة الرقمية انتقالًا من الحديث عن مزج الوسائط إلى الحديث عن تداخل الوظائف، وهي النقطة التي يبدأ عندها مفهوم القارئ الهجين في اكتساب خصوصيته؛ فالقارئ الرقمي يستخدم وسيطًا جديدًا، والقارئ الشبكي يتحرك بين الروابط والجماعات، والقارئ المعزز يستفيد من أدوات توسع قدراته، أما القارئ الهجين فينشأ عندما يصبح هذا التفاعل جزءًا من البنية المتكررة التي تتشكل داخلها القراءة نفسها.

المبحث الثاني: تعريف القارئ الهجين

البعد البشري

يقوم تعريف القارئ الهجين على أولوية واضحة للبعد البشري، لأن الهجنة لا تفهم في هذا الكتاب بوصفها عملية يتحول فيها الإنسان إلى ملحق للآلة، وإنما باعتبارها تنظيماً جديداً لبعض الموارد التي يستخدمها أثناء القراءة. ولهذا يمكن تعريف القارئ الهجين، تعريفاً أولياً، بأنه قارئ بشري تتم بعض عمليات قراءته داخل منظومة معرفية موزعة تتفاعل فيها قدراته اللغوية والذاكرية والتأويلية والنقدية مع أدوات رقمية وخوارزمية وأنظمة ذكاء اصطناعي تساعده في الوصول إلى النص واختياره والبحث فيه وترجمته وشرحه ومقارنته وربطه بسياقات أخرى واقتراح احتمالات لتأويله، مع بقاء مسؤولية الحكم النهائي على المعنى مسؤولية بشرية.

ويكتسب وصف القارئ بالبشري هنا دلالة منهجية لا بلاغية، لأن جزءاً من الخطاب المعاصر حول الذكاء الاصطناعي يميل إلى استخدام كلمات مثل الفهم والتفسير والقراءة للآلة من دون التمييز دائماً بين معناها الوظيفي ومعناها الإنساني. إن القارئ الإنساني لا يتعامل مع النص من خارج حياته، بل يقرأه من موقع في التاريخ واللغة والجسد والثقافة، ويحمل إليه خبرات سابقة وذكريات وانفعالات ومصالح وقيماً، وقد يتغير موقفه منه مع تغير تجربته، ولذلك فإن تأويله لا يمكن اختزاله إلى معالجة رموز. أما النظام التقني فيستطيع إنتاج خطاب يمكن أن يشبه التفسير أو النقد، لكنه لا يملك، بالمعنى نفسه، تاريخ حياة أو تجربة جسدية أو مسؤولية أخلاقية عن موقفه.

ولا يعني هذا التمييز التقليل من قدرة الأنظمة على التأثير، بل على العكس يسمح بوصف أثرها دون الحاجة إلى أنسنتها، إذ يستطيع النظام أن يقدم فرضية تغير قراءة إنسان حتى لو لم تكن له تجربة بشرية للمعنى. ومن هنا يميز الكتاب بين **التجربة التأويلية** التي تظل بشرية **والمساهمة الوظيفية في التأويل** التي يمكن أن تقوم بها الآلة، وهي مساهمة تحدث عندما يدخل

المخرج التوليدي إلى مجموعة المواد التي يفحصها القارئ ويقبل بعضها ويرفض بعضها ويعيد تنظيمها داخل تفسيره.

ويظل البعد البشري أساسيًا كذلك لأن القراءة ليست دائمًا حلًا لمشكلة معرفية واضحة، فقد يقرأ الإنسان من أجل المتعة أو الصدمة أو التذكر أو التماهي أو المقاومة، وقد يترك النص مفتوحًا دون أن يريد الوصول إلى معنى نهائي، وهو ما يجعل تصور القراءة باعتبارها عملية تحسين للكفاءة وحدها تصورًا ناقصًا. فالذكاء الاصطناعي يستطيع أن يجعل البحث أسرع، لكنه لا يحدد بالضرورة لماذا يريد الفرد القراءة أو ما القيمة التي يمنحها للبطء أو للغموض أو للاكتشاف الذاتي. ومن هنا يتعين أن يظل مفهوم القارئ الهجين مرتبطًا بغاية بشرية توجه الأدوات لا بأن تصبح الأداة هي التي تحدد تلقائيًا ما ينبغي أن يفعله القارئ.

ويتصل بذلك مبدأ «السيادة التأويلية» الذي سيعود إليه الكتاب في الفصول اللاحقة، والمقصود به قدرة القارئ على الاحتفاظ بحق تحديد السؤال، وفحص المخرجات، والعودة إلى النص، ورفض الاقتراح الآلي، وبناء الموقف الذي يستطيع تحمل مسؤوليته. ولا تعني السيادة هنا الاستغناء عن التقنية، لأن الاستقلال في البيئة المعاصرة قد يقوم على استعمال الأدوات بوعي بدل رفضها، وإنما تعني ألا يتحول الاعتماد الوظيفي عليها إلى تنازل عن القدرة على الحكم.

البعد التقني والخوارزمي

إذا كان البعد البشري يحافظ على مركز المسؤولية، فإن البعد التقني هو الذي يجعل استعمال مفهوم «الهجين» ضروريًا بدل الاكتفاء بمفهوم القارئ التقليدي أو الرقمي، لأن الأدوات المعاصرة لا تؤدي وظيفة واحدة بسيطة، بل يمكن أن تتدخل في مراحل متعددة من الدورة القرائية. ففي مرحلة ما قبل القراءة تستطيع الخوارزميات أن تنظم نتائج البحث والتوصيات وتؤثر في اكتشاف النص، وأثناء القراءة يمكن للأدوات أن تبحث وتترجم وتفسر وتستخرج المعلومات، وبعد القراءة تستطيع أن تلخص وتقارن وتساعد في

تنظيم الملاحظات وإعادة الإنتاج والمشاركة، وهو ما يجعل التقنية قابلة للحضور عبر الدورة القرائية كاملة.

وتتفاوت درجة هذا التدخل من أداة إلى أخرى، فالقاموس الرقمي يقدم وظيفة محددة نسبيًا، ومحرك البحث يعيد مجموعة من النتائج يحتاج القارئ إلى تقييمها، بينما يستطيع النظام التوليدي أن يجمع وظائف متعددة داخل واجهة واحدة ويقدم إجابة جديدة بدل إرجاع قائمة مصادر فقط. وتكمن أهمية هذا الفرق في أن الوسيط يصبح قادرًا على الانتقال من الاسترجاع إلى إعادة التركيب والتوليد، ومن ثم يصبح أكثر قربًا من مجال المعنى، لأن التلخيص والتفسير والمقارنة ليست عمليات محايدة كليًا، بل تقوم على اختيار عناصر وترتيبها وربطها.

ويقدم إطار «الفاعلية الآلية» عند س. شيام سوندار مدخلًا مفيدًا لتحليل هذا التحول، لأنه يدرس الأنظمة الحديثة بوصفها قادرة على أداء وظائف كان المستخدم يتوقع تقليديًا أن تصدر عن البشر أو أن تحتاج إلى تدخل بشري مباشر، ويربط صعود هذه الفاعلية بقضايا الثقة والشفافية والسيطرة البشرية في التفاعل مع الذكاء الاصطناعي [11]. ولا يستعمل هذا الكتاب «الفاعلية» بمعناها الوجودي أو الأخلاقي الكامل، بل بمعنى أن النظام يستطيع تنفيذ فعل يغير ما يحدث للقارئ بعده، كأن يقترح نصًا أو يقدم تفسيرًا يغير مسار السؤال. وتبين دراسة سوندار أن تصاعد قدرات التخصيص والتعلم الآلي يفرض دراسة جديدة للتفاعل البشري ـ الآلي، مع مخاوف متصلة بالشفافية والتحكم البشري .[11]

ويصبح البعد الخوارزمي أكثر وضوحًا عندما تكون الأداة غير متساوية في الشفافية، لأن القارئ قد يستخدم خدمة يعرف وظيفتها العامة لكنه لا يعرف تمامًا كيف ترتب النتائج أو لماذا ولد النظام جوابًا محددًا. ومن هنا تختلف القراءة الهجينة عن الاستعانة التقليدية بمرجع ثابت، إذ تدخل إلى العملية بنية احتمالية وديناميكية قد يتغير مخرجها بحسب صياغة السؤال أو السياق أو تحديث النظام. ولذلك فإن القارئ الهجين يحتاج إلى

كفاية إضافية تتمثل في إدراك أن الوسيط نفسه متغير وقابل للخطأ وغير محايد بالكامل.

غير أن وجود التقنية وحده لا يكفي لإعلان الهجنة، لأن استعمال آلة حاسبة لعد صفحات الكتاب أو استخدام شاشة لعرض ملف لا يدخل بالضرورة إلى البنية المعرفية للقراءة. ويقترح البحث، لذلك، أن يتحقق البعد التقني للهجنة عندما تؤدي الأداة وظيفة ذات صلة مباشرة بواحدة أو أكثر من العمليات التالية :اختيار النص، والوصول إليه، واسترجاع المعرفة المتعلقة به، وتنظيمه، وترجمته، وشرحه، ومقارنته، وتلخيصه، وبناء سياقه، واقتراح معانٍ محتملة له .وكلما اتسع عدد الوظائف وازداد تداخلها مع فعل القارئ، ارتفعت درجة الهجنة.

المبحث الثالث: القارئ الرقمي والقارئ الهجين

نقاط التقاطع

ينتمي القارئ الرقمي والقارئ الهجين إلى البيئة الثقافية نفسها في كثير من الحالات، ولهذا توجد بينهما مساحة واسعة من التقاطع تجعل الفصل الحاد بينهما مضللًا. فكلاهما يستطيع قراءة النص على شاشة، واستخدام البحث والتظليل والملاحظات، والانتقال بين النصوص، والاستفادة من المكتبات الرقمية، والمشاركة في المنصات الاجتماعية، ولذلك لا يمثل القارئ الهجين نقيضًا للقارئ الرقمي، بل يمكن النظر إليه بوصفه درجة أكثر تعقيدًا من بعض الممارسات الرقمية.

كما يشترك الاثنان في التعامل مع النص بوصفه مادة أقل ارتباطًا بجسم مادي ثابت، ويمكن لكليهما أن يغير حجم الخط أو يعيد ترتيب بعض عناصر الواجهة أو يستدعي رابطًا أو يعثر على كلمة بسرعة، وهي خصائص ناقشها الفصل السابق ضمن تحول الكتاب إلى واجهة. ومن هذه الزاوية يتأسس القارئ الهجين تاريخيًا على القارئ الرقمي، لأن انتقال القراءة إلى فضاء قابل للبرمجة والربط والبحث هو الذي أتاح لاحقًا دخول الخوارزميات والذكاء الاصطناعي إلى مراحلها المختلفة.

كما تلتقي الممارستان في التعدد الوسائطي، لأن القارئ الرقمي يستطيع التعامل مع النص والصورة والصوت والفيديو، بينما يستفيد القارئ الهجين من البنية نفسها لكنه يضيف إليها مستوى جديدًا من التفاعل مع أنظمة تستطيع تحليل هذه المواد أو إعادة صياغتها أو الربط بينها. ومن هنا لا يكون الفرق في وجود الوسيط الرقمي بل في درجة ما يفعله الوسيط داخل النشاط.

وتؤكد الدراسات الحديثة للقراءة الرقمية أن نتائجها لا يحددها الحامل وحده، بل تتشكل من تفاعل كفايات القارئ والمتطلبات المعرفية وتصميم التقنية والسياق التعليمي أو المؤسسي، وهو ما يعزز رفض التعامل مع «الرقمي» بوصفه نمطًا واحدًا متجانسًا [12]. ومن ثم فإن القارئ الرقمي قد يمارس قراءة

عميقة أو سطحية، فردية أو اجتماعية، خطية أو شبكية، ولا يصبح هجينًا فقط لأنه يستعمل الشاشة .

حدود الاختلاف

يكمن الاختلاف الأساسي بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة في مستوى العملية الذي تدخله التقنية، ويمكن اختصار الفرق في مبدأ مركزي سيعتمد عليه هذا الكتاب :كل قراءة هجينة تتضمن بعدًا رقميًا أو تقنيًا بدرجة ما، لكن ليست كل قراءة رقمية قراءة هجينة .فالقراءة الرقمية تتحدد أولًا بحامل النص وخصائصه الإلكترونية، بينما تتحدد القراءة الهجينة بتوزيع بعض وظائف النشاط المعرفي بين الإنسان والأداة.

إذا فتح القارئ رواية على جهاز إلكتروني وقرأها من البداية إلى النهاية من دون أن تستعمل الخوارزمية في تنظيم اختياره أو أن يستخدم أدوات في فهمها، فإننا أمام قراءة رقمية لا نحتاج إلى وصفها بالهجين. وإذا قرأ شخص رواية ورقية لكنه استخدم هاتفه لترجمة بعض العبارات والبحث في سياقها التاريخي ثم دخل في حوار مع نظام توليدي يقارن بين تفسيره وتفسيرات بديلة، فإن تجربته تصبح هجينة رغم أن النص الأصلي ورقي. وهكذا لا تكون الشاشة هي المعيار، بل البنية الوظيفية للقراءة.

ويمكن التعبير عن الفرق بأن القراءة الرقمية تقوم على رقمنة الوسيط، بينما تقوم القراءة الهجينة على تهجين العملية المعرفية، وهو فرق يسمح بتجاوز كثير من الالتباس الاصطلاحي. فالوسيط قد يكون رقميًا بينما يبقى النشاط التأويلي بشريًا بصورة شبه كاملة، في حين قد تدخل التقنية في القراءة الورقية نفسها من خارج الكتاب وتغير طريقة بناء الفهم.

ويتصل بهذا الفرق معيار آخر هو درجة الاعتماد المتكرر .فقد يستخدم القارئ قاموسًا رقميًا مرة عابرة من دون أن يصبح ذلك بنية مستقرة في قراءته، بينما يصبح الاعتماد على مجموعة من الأدوات في الترجمة والاسترجاع والمقارنة جزءًا من أسلوبه المعرفي المعتاد، وعندها تصبح

الهجنة أكثر رسوخًا. ومن هنا يقترح الكتاب التفكير في «طيف للهجنة القرائية» يبدأ بوظائف بسيطة محدودة وينتهي بتفاعل حواري متكرر تدخل فيه الأنظمة الذكية إلى عمليات متقدمة من الفهم والتأويل.

ويجب ألا يُفهم ارتفاع درجة الهجنة باعتباره ارتفاعًا في جودة القراءة بصورة تلقائية، لأن القارئ الذي يفوض كل وظائف الفهم إلى النظام قد يكون أكثر هجنة من الناحية التقنية لكنه أقل استقلالًا من قارئ يستخدم أداة واحدة استخدامًا نقديًا. ولهذا لا تتطابق درجة الهجنة مع درجة الكفاءة، وهو تمييز ضروري حتى لا يتحول المفهوم إلى مقياس احتفالي لكمية التكنولوجيا المستخدمة.

المبحث الرابع: القارئ الشبكي والقارئ المعزز

القراءة داخل الشبكات

يُعد القارئ الشبكي مرحلة مهمة بين القارئ الرقمي والقارئ الهجين، لأنه لا يكتفي بقراءة نص على شاشة، بل يتحرك بين روابط ومصادر ومجتمعات وتفاعلات تجعل القراءة نشاطًا موزعًا على فضاء اتصالي واسع. وقد أظهر النص التشعبي منذ مراحله المبكرة أن القارئ يمكن أن يشارك بدرجة أكبر في تحديد مسار القراءة، ثم جاءت الشبكات الاجتماعية والمنصات الأدبية لتضيف إلى المسار روابط بشرية، بحيث يصبح الانتقال من نص إلى آخر مصحوبًا بالانتقال بين مراجعات وتعليقات وتوصيات ومجتمعات.

وتقدم دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية دليلًا واضحًا على هذا التحول، لأن المستخدمين لا يكتفون باستهلاك النصوص بل يراجعونها ويناقشونها ويضيفون تعليقات إليها ويشاركون اقتباساتها، وقد أصبحت هذه الممارسات موضوعًا لدراسات الأدب الرقمي والعلوم الإنسانية الرقمية [7][8]. ومن هنا يصبح القارئ الشبكي جزءًا من دورة تواصلية يتحول فيها التلقي بسهولة إلى كتابة، ويصبح الأثر الذي يتركه القارئ مادة لقراء آخرين، وهو ما يعيد بناء الجماعة التأويلية داخل بيئة متصلة .

وتتميز القراءة الشبكية كذلك باتساع السياق المحتمل، لأن القارئ يستطيع الانتقال من النص إلى سيرة المؤلف ثم إلى أرشيف أو مقابلة أو مرجع نقدي خلال دقائق، وهو ما يوسع أفق الفهم لكنه يضع عليه عبئًا جديدًا هو إدارة المسار. فالانتقال بين العقد لا يضمن بناء معرفة مترابطة، وقد يتحول التوسع إلى تشتت إذا لم يمتلك القارئ القدرة على تحديد ما يحتاج إليه وما يمكن تأجيله.

ولهذا لا يساوي القارئ الشبكي القارئ الهجين، لأن الشبكة توسع المجال الذي يتحرك فيه الإنسان لكنها لا تعني بالضرورة أن الآلة تشارك في عمليات فهمه. فإذا كان القارئ هو الذي يفتح الروابط ويختار المصادر

ويقيمها، فإن التقنية تنظم الفضاء لكنها لا تدخل بالضرورة إلى التأويل، أما عندما يبدأ النظام في اختيار الروابط نيابة عنه أو تلخيص المصادر أو اقتراح العلاقات بينها فإننا نقترب من الهجنة المعرفية.

القراءة المدعومة بالأدوات الذكية

يقوم مفهوم القارئ المعزز على مرحلة أكثر تقدمًا، حيث لا تكتفي التقنية بإتاحة الشبكة وإنما تساعد القارئ على تنفيذ وظائف كانت تتطلب وقتًا أو مهارة أو معرفة أكبر، مثل الترجمة الفورية، أو تحويل النص إلى صوت، أو استخراج تعريف، أو البحث داخل آلاف الصفحات، أو المقارنة الأولية بين مستندات. ويمكن تعريف «القراءة المعززة» في هذا الكتاب بأنها قراءة بشرية تستفيد من أدوات تقنية توسع إمكانات الوصول والفهم والاسترجاع والترجمة والمقارنة والسياق، من دون أن تنتقل بالضرورة إلى شراكة تأويلية عميقة مع الآلة.

وتكمن أهمية هذا المستوى في أنه يسمح بتحديد منطقة انتقالية بين الرقمي والهجين، لأن التقنية قد توسع قدرة القارئ من دون أن تصبح جزءًا من بنية القرار التأويلي. فالشخص الذي يستخدم أداة لتحويل نص ضعيف البصر إلى صوت يحصل على تعزيز للوصول، والذي يستعمل قاموسًا آليًا يحصل على تعزيز لغوي، والذي يستخدم البحث الدلالي لاستدعاء مواضع متفرقة يحصل على تعزيز للاسترجاع، لكن هذا كله لا يعني أن الآلة شاركت في بناء معنى العمل بالمستوى نفسه الذي يحدث عندما تولد تفسيرًا ويناقشها القارئ حوله.

ويمكن تقسيم القراءة المعززة إلى ثلاث درجات وظيفية :**تعزيز الوصول** حين تزيل التقنية عائقًا يحول دون الوصول إلى النص، و**تعزيز الفهم** حين تقدم شرحًا أو ترجمة أو سياقًا، و**تعزيز الاستكشاف** حين تساعد في المقارنة والبحث وربط المواد. وتبدأ الهجنة الأكثر وضوحًا حين ينتقل النظام من تقديم مورد يمكن للقارئ استخدامه إلى الدخول في سلسلة من الأسئلة والأجوبة تعيد تشكيل فرضياته.

ومن هنا يمكن صياغة قاعدة عملية مفادها أن الأداة المعززة تقود القارئ إلى النص، بينما الأداة البديلة قد تعفيه من النص، وهي قاعدة تسمح بالتمييز بين الاستعمال الذي يوسع فعل القراءة والاستعمال الذي يستبدله. فإذا قدم النظام للقارئ معنى كلمة ليعود إلى القصيدة، فإنه يعزز القراءة، أما إذا قدم له «معنى القصيدة» فاستغنى عن قراءتها، فقد انتقلنا من التعزيز إلى الاستبدال.

المبحث الخامس: خصائص القارئ الهجين

التعدد الوسائطي والتفاعلية

يتصف القارئ الهجين أولًا بقدرته على التحرك داخل بيئة متعددة الوسائط دون أن يتقيد بنظام سيميائي واحد، لأن النص يمكن أن يظهر إلى جانب الصورة والصوت والفيديو والخرائط والروابط والرسوم التفاعلية، وقد تصبح هذه العناصر جزءًا من بناء الفهم لا إضافات خارجة عنه. ولا يعني ذلك أن كل قارئ يتعامل مع فيديو ونص يصبح هجينًا بالمعنى الكامل، لكن التعدد الوسائطي يخلق أحد الشروط التي تسهل توزيع الوظائف بين وسائط مختلفة.

وتظهر الهجنة بدرجة أكبر عندما لا يكون التفاعل محدودًا بالاختيار بين عناصر ثابتة، بل يصبح النظام قادرًا على الاستجابة للقارئ وتعديل المخرج تبعًا لسؤاله، لأن القراءة هنا تنتقل من التفاعل مع واجهة صامتة إلى التفاعل مع وسيط قادر على توليد استجابة. ويصبح السؤال نفسه جزءًا من القراءة، كما يصبح تغيير السؤال وسيلة لإعادة تشكيل ما يقدمه النظام، وهو ما يجعل التجربة أقرب إلى دورة حوارية منها إلى استهلاك مادة مكتملة.

ويتصل بذلك أن القارئ الهجين لا يستهلك النص في صورة واحدة فقط، بل يستطيع تحويله بين أوضاع متعددة؛ فقد يقرأه ثم يستمع إليه، أو يطلب تلخيصه أو تحويل عناصره إلى جدول أو مقارنة أو شرح، وبذلك يصبح المحتوى قابلًا للتحول وفق المهمة. وتمنح هذه المرونة القارئ قدرة واسعة على تخصيص التجربة، لكنها تفرض عليه مسؤولية معرفة أثر كل تحويل، لأن تحويل الرواية إلى ملخص أو القصيدة إلى شرح ليس إجراءً بريئًا، بل يغير ما يصل من العمل.

وتكشف هنا فكرة «التكوين التقني» عند هايلز أهميتها مرة أخرى، لأن العلاقة بين الإنسان والوسائط لا تفهم بوصفها استخدامًا خارجيًا بحتًا، بل بوصفها بيئة تتغير داخلها الممارسات نفسها [4]. فالذي يعتاد القراءة مع البحث والتعليق والاسترجاع الفوري قد يطور استراتيجيات مختلفة عن قارئ

يتعامل مع نص مغلق، وهو ما يجعل القارئ الهجين ليس صاحب مجموعة أدوات فقط بل صاحب عادات معرفية تشكلت مع الأدوات) .

السرعة والانتقال وإعادة الإنتاج

تتمثل الخاصية الثانية في ارتفاع قدرة القارئ على الانتقال بين المستويات والمصادر، لأن البحث والروابط والواجهات التفاعلية تتيح الوصول السريع إلى معلومات كانت تحتاج سابقًا إلى وقت طويل، بينما يضيف الذكاء الاصطناعي إمكانية اختصار مراحل كاملة من البحث الأولي. ويمنح ذلك القارئ قدرة غير مسبوقة على توسيع سياقه، لكنه يهدد كذلك بتحويل السرعة من وسيلة إلى معيار، بحيث يشعر أن كل تأخير في الفهم مشكلة يجب أن تحلها الأداة.

ولهذا فإن القارئ الهجين الناضج لا يتحدد بالسرعة نفسها بل بقدرته على إدارة السرعات؛ فهو يعرف متى يستخدم البحث الفوري ومتى يحتاج إلى الإقامة داخل النص، ومتى يستفيد من التلخيص ومتى يكون تلخيص النص بنفسه جزءًا من التعلم ، ومتى يسأل النظام ومتى يؤجل السؤال حتى يبني تفسيره الأولي. ومن هنا يرتبط مفهوم القارئ الهجين بالفصل السابق حول القراءة العميقة، لأن الهجنة التي لا تحافظ على القدرة على البطء قد تتحول إلى اعتماد على التقاط المعلومات بدل بناء المعنى.

وتتمثل خاصية ثالثة في إعادة الإنتاج، لأن الحدود بين القراءة والكتابة أصبحت أقل صرامة داخل البيئة الرقمية؛ فالقارئ يستطيع اقتباس النص ومشاركته والتعليق عليه وإعادة تركيبه في منشور أو مراجعة أو حاشية أو عمل مشتق، بينما يستطيع الذكاء الاصطناعي مساعدته في إعادة الصياغة والتنظيم. وقد بينت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن ممارسات التعليق والمراجعة والكتابة المرتبطة بالقراءة أصبحت جزءًا واسعًا من التفاعل الأدبي في المنصات [7][8]، وهو ما يجعل القارئ المعاصر منتجًا لطبقة من الخطاب حول النص يمكن أن تدخل بدورها في تلقي قراء آخرين

ومن هنا يصبح القارئ الهجين قادرًا على التحرك في دورة تبدأ بالاستقبال وتنتهي بإنتاج محتوى يعود إلى الشبكة، وهو ما يقربه من مفهوم القارئ المنتج الذي سيعالجه الكتاب بصورة أكثر تفصيلًا لاحقًا. غير أن إعادة الإنتاج تحمل بدورها مخاطر الاختزال، لأن سهولة اقتطاع الجمل ونشرها قد تفصلها عن السياق، كما أن التلخيص الآلي يمكن أن ينشر تمثيلًا للعمل يصبح أكثر تداولًا من الأصل، ولذلك يجب أن يرتبط الإنتاج المعزز بالوعي بالمصدر والسياق.

وتتصف الهجنة كذلك بقابلية التخصيص؛ فالقارئ يستطيع أن يطلب من النظام مستوى معينًا من الشرح أو لغة مختلفة أو مقارنة تلائم اهتمامه، وهو ما يمنح القراءة مرونة كبيرة، لكنه قد ينتج «قراءة على مقاس القارئ» تقل فيها فرصة مواجهة المختلف أو الصعب. ومن هنا يظهر التوتر بين التخصيص والمفاجأة الثقافية، لأن القراءة ليست فقط الحصول على ما يتفق مع حاجاتنا، بل يمكن أن تكون مواجهة لنص يقاوم عاداتنا ويغيرها.

المبحث السادس: شروط تحقق الهجنة القرائية

مشاركة الآلة في عمليات القراءة

لا تتحقق الهجنة القرائية، وفق التعريف المقترح، لمجرد وجود جهاز أو اتصال بالشبكة، وإنما تبدأ عندما تشارك التقنية بصورة وظيفية في بعض العمليات التي يتكون منها النشاط القرائي. ويمكن ترتيب هذه المشاركة على طيف يبدأ بمستوى ضعيف ثم يتدرج نحو مستويات أكثر عمقاً، بما يسمح بتحديد اللحظة التي يصبح عندها استعمال التقنية جزءاً من بنية القراءة بدل أن يظل مرفقاً خارجياً.

يتمثل المستوى الأول في المشاركة في الوصول، عندما تساعد التقنية القارئ على العثور على النص أو تحويله إلى صيغة يمكنه استخدامها، وهو المستوى الأقرب إلى القراءة الرقمية. ويأتي بعده مستوى الاسترجاع والتنظيم، حيث تستخدم أدوات البحث والفهرسة والذاكرة الرقمية في تحديد المواضع وتجميع الملاحظات وربط المواد، ثم المستوى التفسيري المساعد الذي تدخل فيه الترجمة والشرح والتبسيط والسياق، ويليه المستوى التحليلي حيث تبدأ الأداة في المقارنة واستخراج العلاقات وبناء التصنيفات، ثم المستوى التأويلي الاقتراحي عندما يولد النظام فرضيات حول معنى النص، وأخيراً المستوى الحواري الذي يصبح فيه القارئ والنظام داخل دورة من السؤال والجواب والاعتراض وإعادة الصياغة.

ولا تعني هذه المستويات أن كل انتقال إلى درجة أعلى يمثل تقدماً قرائياً، لأن قيمة التدخل تتحدد بحسب المهمة. فقد تكون أفضل قراءة لقصيدة قصيرة هي إبقاء النظام خارجها في المرحلة الأولى، بينما يكون استعماله في استعادة مرجع تاريخي ضرورياً بعد ذلك، ولذلك فإن الكفاءة الحقيقية لا تتمثل في الوصول إلى أعلى درجة من المشاركة التقنية، وإنما في اختيار الدرجة المناسبة لكل مهمة.

ومن هنا يمكن اقتراح معيارين لقياس الهجنة: الأول هو عدد الوظائف التي تشارك فيها التقنية، والثاني هو عمق هذه الوظائف بالنسبة إلى إنتاج المعنى .فالقارئ الذي يستخدم خمس أدوات سطحية قد لا يكون أكثر هجنة معرفيًا من شخص يدخل في حوار تأويلي واحد يعيد تشكيل قراءته. ولهذا لا يمكن قياس الهجنة بعدد التطبيقات المستخدمة، بل بموقع تدخلها داخل دورة القراءة.

كما ينبغي أن يكون هناك شرط ثالث هو **التكامل الفعلي**، لأن استعمال أداة منفصلة مرة عرضية لا يكفي دائمًا للحديث عن بنية هجينة. وتصبح الهجنة أكثر وضوحًا عندما تدخل التقنية في سير العمل بحيث يعتمد القارئ عليها بصورة متكررة ويطور مهارات لإدارتها ومراجعتها. ويمكن هنا الاستفادة من أطروحات العقل الممتد والإدراك الموزع، التي تؤكد أهمية العلاقات المستقرة والعملية بين الفرد والموارد الخارجية عند تحليل النظام المعرفي [9 .[10][

غير أن شرط الاستقرار لا يعني التبعية المطلقة؛ فالاعتماد الذي يلغي قدرة القارئ على العمل عند غياب النظام يطرح مشكلة مختلفة يمكن تسميتها **الاستلاب الخوارزمي للقارئ**، حين لا تعود الأداة توسع قدرته بل تصبح شرطًا لقيامه بالوظيفة التي كان ينبغي أن يحتفظ بحد أدنى منها. ومن هنا تتضح الطبيعة المتناقضة للهجنة: فهي يمكن أن تكون توسعًا أو إفقارًا بحسب إدارة الحدود بين الإنسان والأداة.

تحول التقنية من أداة إلى شريك معرفي

تمثل عبارة «الشريك المعرفي» أكثر نقاط هذا الفصل حساسية، لأنها قد توحي بسهولة بمساواة الأنظمة الذكية بالإنسان، ولذلك يستخدمها الكتاب بمعنى وظيفي محدد. فالآلة تصبح **شريكًا معرفيًا وظيفيًا** عندما لا تكتفي بتنفيذ أمر تقني بسيط، بل تدخل في دورة يتغير فيها نشاط القارئ استجابة لما تنتجه، ويتغير مخرج النظام استجابة لسؤال القارئ، بحيث تقوم بين الطرفين علاقة تكرارية تؤثر في مسار الفهم.

ويمكن توضيح الفرق بين الأداة والشريك من خلال مثال بسيط؛ فالمسطرة التي يضع بها القارئ خطًا تحت جملة أداة، لأنها لا تعيد إليه أي اقتراح، والقاموس الورقي يظل مرجعًا ثابتًا نسبيًا، بينما النظام الحواري الذي يقدم تفسيرًا ثم يعيد صياغته بعد اعتراض القارئ يدخل في علاقة أكثر دينامية. غير أن هذا لا يجعله شريكًا إنسانيًا في التجربة، بل يجعله عنصرًا تفاعليًا في النظام المعرفي.

ويقترب هذا الفهم من إطار سوندار حول الفاعلية الآلية ومن التصورات التي قدمها كلارك حول استعداد البشر لدمج الأدوات في أنظمتهم المعرفية، إذ يرى كلارك في *Natural-Born Cyborgs* أن البشر يتميزون تاريخيًا بقدرة واسعة على بناء روابط مع الأدوات التي توسع قدراتهم [11][13]. ولا يحتاج الكتاب إلى تبني وصف «السايبورغ الطبيعي» بصورة حرفية، لكنه يستفيد منه في تأكيد أن العلاقة الوثيقة بالتقنيات ليست مجرد ظاهرة مستجدة، بينما يكمن الجديد الحالي في نوع الوظائف اللغوية والتفسيرية التي أصبحت التقنية تستطيع أداءها .وتثبت بيانات Oxford University Press لكتاب كلارك موقعه ضمن النقاش حول العقل والتكنولوجيا ومستقبل الذكاء البشري .[13]

ومن هنا يكون الانتقال من الأداة إلى الشريك المعرفي مرتبطًا بثلاثة شروط مترابطة :التفاعلية بحيث يستجيب النظام للقارئ، والتوليد بحيث لا يعرض موردًا ثابتًا فقط بل ينتج مخرجًا جديدًا، والتأثير الرجعي بحيث يؤدي المخرج إلى تغيير السؤال أو مسار القراءة. فإذا غاب الشرط الأخير، فقد يبقى النظام مجرد أداة متقدمة؛ أما إذا أصبح القارئ يراجع تفسيره استجابة للمخرجات ويعيد السؤال في ضوء ما قرأ، فإننا ندخل بوضوح في بنية هجينة.

ومع ذلك ينبغي أن يقترن مفهوم الشراكة الوظيفية بمبدأ مضاد يمنع الانزلاق إلى التبعية، وهو مبدأ بقاء الإنسان في دائرة التأويل .فالقارئ هو الذي ينبغي أن يقرر متى يستدعي النظام، وما الذي يقبله من جوابه، ومتى

يحتاج إلى تحقق مستقل، وما إذا كان المخرج متوافقًا مع النص والسياق. وإذا اختفى هذا الدور وتحولت المخرجات إلى أجوبة تتلقى بلا مراجعة، لم نعد أمام شراكة معرفية ناضجة بل أمام **تفويض معرفي** قد يصل إلى الاستبدال.

وبهذا يمكن التمييز بين أربعة أنماط للعلاقة: علاقة أداتية تنفذ فيها التقنية وظيفة محدودة، وعلاقة معززة توسع فيها بعض قدرات القارئ، وعلاقة هجينة تتوزع فيها وظائف معرفية مع استمرار الإدارة البشرية، وعلاقة استبدالية تنتقل فيها الوظائف الأساسية إلى النظام بينما يتحول الإنسان إلى مستهلك للمخرجات. ولا ينبغي لنظرية القارئ الهجين أن تتوقف عند وصف النمط الثالث، بل عليها أن تمتلك الأدوات النقدية التي تمنع انزلاقه إلى الرابع.

وهنا تتحدد الحدود النظرية للمفهوم بصورة أدق؛ فالقارئ الهجين ليس القارئ الأكثر استخداماً للتكنولوجيا، ولا القارئ الذي يثق بالآلة أكثر، ولا القارئ الذي يستطيع الحصول على الأجوبة أسرع، وإنما هو القارئ الذي يدمج التقنية في فعل القراءة من دون أن يسلمها حق الحكم نيابة عنه .وتصبح الهجنة ناضجة حين يعرف الإنسان ما الذي يمكن أن يفوضه وما الذي ينبغي أن يحتفظ به، وحين يستخدم النظام لتوسيع مساحة السؤال بدل تقليصها، وحين يعود من المخرج إلى النص بدل أن يستبدل النص بالمخرج.

الحدود النظرية لمفهوم القارئ الهجين

يقتضي تأسيس أي مفهوم جديد بيان ما لا يعنيه بقدر بيان ما يعنيه، ولذلك ينبغي رسم مجموعة من الحدود تمنع توسع «القارئ الهجين» حتى يصبح اسماً فضفاضاً لكل قراءة معاصرة. يتمثل الحد الأول في أن الهجنة ليست مرادفًا للرقمنة، لأن تغير الحامل لا يعني بالضرورة تغير توزيع الوظائف المعرفية، ويتمثل الحد الثاني في أنها ليست مرادفًا للتعدد الوسائطي، لأن الجمع بين النص والصورة والصوت يمكن أن يحدث من دون مشاركة خوارزمية في الفهم، بينما يتمثل الحد الثالث في أنها ليست مرادفًا للقراءة الشبكية، لأن

الاتصال بقراء ومصادر أخرى يوسع السياق لكنه لا يساوي بالضرورة التكامل البشري ـ الآلي.

أما الحد الرابع فيتمثل في أن القارئ الهجين ليس «قارئًا اصطناعيًا»، لأن المفهوم لا يصف نظام ذكاء اصطناعي يقرأ النصوص بمعزل عن الإنسان، بل يصف ممارسة بشرية تدخل فيها الآلة بوظيفة وسيطة أو معززة أو اقتراحية. ويتمثل الحد الخامس في أن الهجنة لا تعني المساواة بين الطرفين؛ فالتفاعل قد يكون شديدًا، لكن الخبرة والمسؤولية والتقييم الأخلاقي تظل بشرية. ويتمثل الحد السادس في أن الهجنة ليست بالضرورة قيمة إيجابية، لأنها يمكن أن تنتج توسعًا معرفيًا أو اعتمادًا مفرطًا بحسب شروطها.

ومن هنا يقترح البحث أن يوضع مفهوم القارئ الهجين داخل سلسلة مفاهيم متدرجة تساعد على ضبطه :**القارئ الرقمي** هو الذي يقرأ عبر وسيط إلكتروني، و**القارئ الشبكي** هو الذي تتحرك قراءته عبر روابط وجماعات ومصادر متصلة، و**القارئ المعزز** هو الذي تستخدم التقنية لتوسيع بعض قدراته، و**القارئ الهجين** هو الذي تتوزع بعض وظائف قراءته بصورة أعمق بين قدراته والأدوات، و**القارئ الميتا خوارزمي** هو الذي يضيف إلى هذه الهجنة وعيًا نقديًا بالنظام الذي يتدخل فيها، بينما يمثل **القارئ ما بعد الخوارزمي** أفقًا نظريًا تصبح فيه الوساطة مندمجة في البيئة إلى حد يتراجع معه إحساس المستخدم بحدودها.

ولا تشكل هذه السلسلة سلمًا زمنيًا حتميًا، لأن الشخص نفسه يستطيع الانتقال بينها في اليوم الواحد، كما تستطيع أشكال القراءة التقليدية أن تتعايش معها. والغرض منها هو توفير لغة تحليلية تسمح بتحديد نوع الممارسة بدل وضع جميع استخدامات التقنية تحت عنوان واحد.

خاتمة الفصل الرابع

يؤسس هذا الفصل لمفهوم «القارئ الهجين» انطلاقًا من تاريخ طويل لفكرة الهجنة ومن التحولات التي أدخلتها الثقافة الرقمية على العلاقة بين الإنسان والوسيط، لكنه يحرص في الوقت نفسه على عدم استنساخ الهجنة الثقافية أو صورة السايبورغ أو أطروحة العقل الممتد وإسقاطها آليًا على القراءة.
فالمفهوم المقترح هنا ينتمي إلى نظرية القراءة ويحتاج إلى تعريف وظيفي خاص به، ولذلك جرى تحديده بوصفه قارئًا بشريًا تدخل الأدوات الرقمية والخوارزمية والذكاء الاصطناعي في بعض وظائف قراءته بدرجات متفاوتة، مع استمرار الإنسان في تحمل المسؤولية عن الاختيار والتحقق والحكم.

وقد أظهر التحليل أن الهجنة ليست في الجهاز الذي يحمل النص، بل في العلاقة المعرفية التي تنشأ أثناء القراءة، ولذلك يستطيع النص الورقي أن يدخل في قراءة هجينة كما تستطيع الشاشة أن تستضيف قراءة رقمية غير هجينة. ومن هنا يصبح الفرق بين القارئ الرقمي والقارئ الهجين فرقًا بين رقمنة الوسيط وتهجين العملية، ويصبح القارئ الشبكي والقارئ المعزز مرحلتين أو نمطين وسيطين يساعدان على فهم الانتقال من الاتصال بالأدوات إلى توزيع بعض الوظائف عليها.

كما تبين أن القارئ الهجين لا ينبغي أن يقاس بعدد الأدوات التي يستخدمها، بل بدرجة دخولها إلى عمليات الوصول والاسترجاع والشرح والمقارنة والتأويل، وأن هذا الدخول لا يمكن تقييمه إيجابًا أو سلبًا بعيدًا عن موقع القارئ في العلاقة. فإذا بقي الإنسان قادرًا على تحديد السؤال والعودة إلى النص ومراجعة المخرج ورفضه، فإن الهجنة تستطيع أن تكون توسعًا في المجال المعرفي، أما إذا تحولت المخرجات إلى بدائل عن القراءة وأصبحت الوظائف تفوض بلا تحقق، فإن الهجنة تنزلق إلى التبعية.

وبذلك يمكن صياغة التعريف النظري الذي سيعتمده الكتاب في الفصول اللاحقة على النحو الآتي :القارئ الهجين هو قارئ بشري تتوزع بعض وظائف قراءته، بدرجات متفاوتة، بين قدراته اللغوية والمعرفية والتأويلية وبين

وسائط رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي تؤدي وظائف الوصول والاسترجاع والتنظيم والشرح والمقارنة والتوليد، ضمن علاقة تفاعلية يحتفظ فيها الإنسان بالسيادة التأويلية والمسؤولية عن الحكم النهائي.

وتسمح هذه الصيغة بتحديد المبدأ الذي يفصل الهجنة الخلاقة عن الهجنة التابعة، إذ لا تكون التقنية ذات قيمة لأنها تستطيع أداء وظائف أكثر، وإنما لأنها تدخل في الموضع الذي توسع فيه قدرة القارئ دون أن تلغي الممارسة التي يحتاج إليها لبناء معرفته. ولذلك يمكن تلخيص الحدود النظرية للمفهوم في قاعدة ستكون حاضرة في بقية الكتاب :**الهجنة ليست مقدار التقنية داخل القراءة، بل طبيعة العلاقة النقدية التي يقيمها القارئ مع التقنية.**

ومن هنا يصبح السؤال التالي أكثر تحديداً: إذا كانت الهجنة درجات وليست حالة واحدة، فما الأنماط التي يمكن أن يتخذها القارئ الهجين، وكيف يمكن التمييز بين القارئ الهجين البسيط، والشبكي، والاجتماعي، والمعزز، والتوليدي، والنقدي؟ وهو السؤال الذي سيقود مباشرة إلى الفصل التالي المخصص لأنماط القارئ الهجين ودرجات الهجنة.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Bhabha, Homi K.** *The Location of Culture*. London/New York: Routledge, 1994.

يُستفاد منه في تأصيل مفهوم الهجنة داخل الدراسات الثقافية وما بعد الاستعمارية، ولا سيما في تفكيك الحدود الصلبة بين الهويات والثقافات ومفهوم الفضاء البيني، مع التأكيد أن مفهوم القارئ الهجين المقترح في هذا الكتاب ليس نقلًا مباشرًا لنظرية بابا. وتصف Routledge الكتاب بأنه يقدم نظرية للهجنة الثقافية من خلال مفاهيم مثل المحاكاة والهجنة والحدية والفضاء البيني(Routledge) .

[2] **Burke, Peter.** *Cultural Hybridity*. Cambridge: Polity, 2009.

يمثل مرجعًا مهمًا في دراسة التفاعل والاختلاط والتبادل الثقافي، ويستفاد منه خصوصًا في النظر إلى التهجين بوصفه عملية ذات درجات بدل اعتباره حالة ثنائية ثابتة. وتشير أعمال بيرك إلى فائدة مفهوم hybridization **في التفكير في «الأكثر والأقل» بدل الحضور والغياب المطلقين**(Wiley-VCH) .

[3] **Haraway, Donna J.** *Simians, Cyborgs, and Women: The Reinvention of Nature*. New York/London: Routledge, 1991، **ويتضمن** "A Cyborg Manifesto".

يفيد في الخلفية النظرية المتعلقة بتفكيك الحدود بين الإنسان والتقنية والطبيعة والثقافة، مع عدم مساواة مفهوم السايبورغ بمفهوم القارئ الهجين في هذه الدراسة(Routledge) .

[4] **Hayles, N. Katherine.** *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.

مرجع مركزي في دراسة التطور المتبادل بين البشر والتقنيات وفي تحليل التفكير والقراءة داخل البيئات الرقمية، كما يقدم مدخلًا إلى دراسات الوسائط المقارنة والتحولات المعرفية المتصلة بالوسائط(University of Chicago Press) .

[5] **Manovich, Lev.** *The Language of New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 2001.
يُستفاد منه في تحليل الواجهة وقاعدة البيانات والأشكال الخاصة بالوسائط الجديدة وفي فهم انتقال المستخدم من التعامل مع النص وحده إلى التفاعل مع بنية برمجية تنظم ظهوره ومساراته(MIT Press) .

[6] **Jenkins, Henry.** *Convergence Culture: Where Old and New Media Collide*. New York: New York University Press, 2006.
يفيد في تحليل التقاء الوسائط القديمة والجديدة وتغير العلاقات بين المنتجين والمستهلكين والثقافات التشاركية التي يتحول فيها المتلقي بدرجات مختلفة إلى مشارك في تداول المحتوى وإعادة إنتاجه (NYU Press) .

[7] **Rebora, Simone; Boot, Peter; Pianzola, Federico; Gasser, Brigitte; Herrmann, J. Berenike; Kraxenberger, Maria; Kuijpers, Moniek; Lauer, Gerhard; et al.** "Digital Humanities and Digital Social Reading." *Digital Scholarship in the Humanities*, Vol. 36, Supplement 2, 2021, pp. ii230–ii250.
مرجع مهم في تعريف القراءة الاجتماعية الرقمية وفي دراسة التعليقات والمراجعات والمناقشات والكتابة التي تتشكل حول النصوص داخل المنصات الرقمية(OUP Academic) .

[8] **Pianzola, Federico.** *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.
يوفر مرجعًا حديثًا لفهم الأشكال الاجتماعية للقراءة الرقمية وكيف تعيد التطبيقات والمنصات تنظيم مشاركة القراء وتفاعلهم حول الأدب (MIT Press) .

[9] **Clark, Andy & Chalmers, David.** "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.
يمثل الأساس الفلسفي لأطروحة العقل الممتد وفكرة الدور النشط لبعض الموارد الخارجية في النشاط المعرفي، ويُستفاد منه في هذه الدراسة بوصفه خلفية لا تعريفًا جاهزًا للقارئ الهجين(DOI) .

[10] Hutchins, Edwin. *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

مرجع تأسيسي في الإدراك الموزع، ويفيد في النظر إلى بعض الأنشطة المعرفية بوصفها واقعة داخل أنظمة تتفاعل فيها الأفراد والأدوات والممارسات الثقافية بدل حصر التحليل في الفرد المنعزل(MIT Press) .

[11] Sundar, S. Shyam. "Rise of Machine Agency: A Framework for Studying the Psychology of Human–AI Interaction (HAII)." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 25, No. 1, 2020, pp. 74–88. DOI: 10.1093/jcmc/zmz026.

يُستفاد منه في ضبط مفهوم الفاعلية الآلية وظيفيًا وفي تحليل انتقال النظام من أداة جامدة إلى عنصر قادر على تنفيذ أفعال واقتراحات تؤثر في خبرة المستخدم ، مع بروز أسئلة الشفافية والتحكم والثقة(DOI) .

[12] Alkhalaf, Abdulrahman. "Digital Reading in Higher Education: Trends, Behaviours, and Evidence-Based Strategies—A Systematic Review." *International Journal of Learning, Teaching and Educational Research*, Vol. 25, No. 7, 2026.

تستفاد منه في تأكيد أن نتائج القراءة الرقمية تتشكل من تفاعل كفايات القارئ والمتطلبات المعرفية وتصميم التكنولوجيا والسياق، وليس من الحامل منفردًا، وهو ما يساند التمييز بين القراءة الرقمية والقراءة الهجينة . (IJLTER)

[13] Clark, Andy. *Natural-Born Cyborgs: Minds, Technologies, and the Future of Human Intelligence*. New York: Oxford University Press, 2003.

يفيد في التفكير في استعداد البشر التاريخي لدمج الأدوات والتقنيات داخل أنشطتهم المعرفية، مع التأكيد أن مفهوم القارئ الهجين في هذا الكتاب أضيق ويظل مرتبطًا على وجه التحديد بفعل القراءة والتلقي(Google Books) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في ثلاث دوائر متكاملة؛ إذ تقدم أعمال بابا وبيرك وهاراواي [1–3] الخلفية الإنسانية والثقافية لمفهوم الهجنة وتساعد على تفكيك التصورات الثنائية الصلبة، بينما تسمح أعمال هايلز ومانوفيتش وجنكينز ودراسات القراءة الاجتماعية الرقمية [4–8] بفهم انتقال التفاعل والهجنة إلى البيئة الرقمية والشبكية وتداخل الوسائط والممارسات، في حين توفر أعمال كلارك وتشالمرز وهاتشنز وسوندار وكلارك [9–11][13] الأساس المعرفي والفلسفي لتحليل العلاقة المتزايدة بين النشاط البشري والأدوات والفاعلية الآلية، ويضيف البحث الحديث في القراءة الرقمية [12] ما يدعم ضرورة التمييز بين مجرد استعمال الوسيط الإلكتروني وبين التحول الأعمق في بنية الممارسة القرائية.

ومن تقاطع هذه المرجعيات لا يستمد هذا الكتاب تعريفًا جاهزًا لمفهوم «القارئ الهجين»، وإنما يبني مفهومه الخاص بوصفه فرضية نظرية قابلة للتطوير والاختبار، قوامها أن الهجنة القرائية تبدأ عندما تنتقل التقنية من محيط النص إلى داخل بعض وظائف القراءة، لكنها لا تصبح ممارسة نقدية ناضجة إلا عندما يحتفظ القارئ بقدرته على إدارة هذا التدخل ومساءلته والعودة منه إلى النص بدل السماح له بأن يحل محل النص أو الحكم البشري عليه.

الفصل الخامس

أنماط القارئ الهجين ودرجات الهجنة

إذا كان الفصل السابق قد حاول تأسيس مفهوم «القارئ الهجين» ورسم حدوده النظرية وتمييزه عن القارئ الرقمي والشبكي والمعزز، فإن الانتقال من التعريف إلى بناء نظرية أكثر قابلية للاستخدام يقتضي التخلي عن تصور القارئ الهجين بوصفه نموذجًا واحدًا مغلقًا، والانتقال بدل ذلك إلى التفكير فيه باعتباره طيفًا من الممارسات تتفاوت فيه درجة دخول التقنية إلى فعل القراءة من المستوى المادي والوسائطي البسيط إلى المستوى المعرفي والتأويلي الأكثر تركيبًا. فالقارئ لا يصبح هجينًا بطريقة واحدة، كما أن استعماله للأدوات لا يبقى بالدرجة نفسها في جميع النصوص والمهام، بل يستطيع أن يبدأ بقراءة كتاب مطبوع ثم ينتقل إلى نسخة إلكترونية منه، أو يستخدم الروابط ومحرك البحث، أو يشارك في مجتمع رقمي للقراء، أو يستعين بأدوات الترجمة والتلخيص، أو يدخل في حوار مع نظام توليدي حول معنى النص، وقد يضيف إلى جميع هذه الممارسات مستوى نقديًا يفحص فيه الخوارزمية ذاتها ويقاوم ميلها إلى تنظيم ما يراه وكيف يراه.

ومن هنا لا يتعامل هذا الفصل مع الأنماط الستة المقترحة باعتبارها شخصيات منفصلة ينتمي كل قارئ إلى واحدة منها بصورة دائمة، وإنما بوصفها درجات وظيفية للهجنة يستطيع الفرد نفسه أن ينتقل بينها خلال فعل قرائي واحد، فقد يبدأ قارئًا هجينًا بسيطًا حين يتنقل بين النسخة الورقية والرقمية، ثم يصبح شبكيًا عندما يبحث في الإحالات والروابط، واجتماعيًا عندما يقرأ مراجعات الآخرين أو يناقش الكتاب معهم، ومعززًا عندما يستخدم الترجمة أو البحث الذكي، وتوليديًا عندما يدخل في حوار مع نظام ذكاء اصطناعي حول العمل، ثم نقديًا إذا أخضع نتائج هذه الأنظمة ومنطق توصياتها ومصادرها وافتراضاتها للمساءلة. ولذلك فإن ما نبحث عنه ليس تصنيف الأشخاص بقدر ما هو تصنيف أوضاع القراءة، وهو

تمييز ضروري حتى لا يتحول مفهوم القارئ الهجين إلى هوية ثابتة أو إلى وصف فضفاض لكل مستخدم للتقنية.

كما لا ينبغي أن يُفهم ترتيب الأنماط الوارد في هذا الفصل باعتباره سلمًا للقيمة ترتفع فيه جودة القراءة كلما اقتربنا من القارئ التوليدي أو النقدي، لأن زيادة تدخل التقنية لا تعني تلقائيًا زيادة الفهم، وقد يكون قارئ يعتمد على عدد قليل من الأدوات أكثر استقلالًا وعمقًا من قارئ يوظف أنظمة كثيرة لكنه يقبل نتائجها من دون مراجعة. إن ما يرتفع من نمط إلى آخر هو، أساسًا، عمق تدخل الوسيط في وظائف القراءة، لا القيمة الأدبية أو الفكرية للقارئ، ومن هنا ينبغي أن نظل أوفياء للقاعدة التي جرى تأسيسها في الفصل السابق، ومفادها أن الهجنة لا تقاس بمقدار التكنولوجيا داخل القراءة فقط، بل بطبيعة العلاقة التي يقيمها الإنسان معها وبدرجة احتفاظه بالسيادة التأويلية.

المبحث الأول: القارئ الهجين البسيط

الجمع بين الورق والشاشة

يمثل القارئ الهجين البسيط الدرجة الأولى والأكثر وضوحًا من التداخل بين أنظمة القراءة، لأنه يجمع بين الحامل الورقي والحامل الرقمي من دون أن تكون التقنية قد دخلت بعد بصورة عميقة في إنتاج المعنى أو التأويل، ولذلك يمكن النظر إلى هذا النمط باعتباره هجنة مادية ووسائطية تمهيدية أكثر منه هجنة معرفية مكتملة. فالقارئ قد يبدأ كتابًا ورقيًا في المنزل، ثم يواصل قراءة نسخة إلكترونية أثناء السفر، وقد يرجع إلى النسخة المطبوعة للتدوين في الهامش ثم يستخدم ملفًا رقميًا للبحث عن كلمة أو اقتباس، وهو في هذه الحالة لا يستبدل وسيطًا بآخر نهائيًا، بل يبني ممارسة تتحرك بينهما بحسب الوظيفة والظرف.

ولا تمثل هذه الممارسة حالة استثنائية في الثقافة الرقمية، لأن الوسائط الجديدة لم تنشأ تاريخيًا من خلال إلغاء الوسائط السابقة، بل غالبًا عن طريق إعادة تمثيلها واستيعاب بعض خصائصها، وهو ما صاغه جاي ديفيد بولتر وريتشارد غروسن في مفهوم «إعادة الوساطة»، حيث تعيد الوسائط الرقمية تشكيل أشكال سبقتها بدل أن تقطع معها بصورة مطلقة [1]. ويتيح هذا المدخل فهم استمرار الصفحة والغلاف والفهرس والتظليل والهامش داخل الكتاب الإلكتروني بوصفه دليلًا على أن الثقافة الرقمية تحمل داخلها آثار الثقافة الطباعية، وأن القارئ المعاصر لا ينتقل دائمًا من عالم ورقي انتهى إلى عالم رقمي بدأ، بل يعيش في فضاء تتجاور فيه الأنظمة القديمة والجديدة وتتبادل الوظائف .

ويكتسب هذا الجمع بين الورق والشاشة أهمية نظرية أكبر مما قد يبدو لأول وهلة، لأن كل حامل يقدم للقارئ إمكانات تختلف جزئيًا عن الآخر؛ فالكتاب المطبوع يمنحه علاقة مادية مستقرة بالصفحة وحضورًا محسوسًا لبنية العمل، في حين تسمح النسخة الإلكترونية بسرعة البحث والتخزين والحمل والوصول، ولذلك يستطيع القارئ أن يوزع احتياجاته بين الوسيطين

بدل أن يختار أحدهما اختيارًا مطلقًا. ويتقاطع هذا مع دعوة ن. كاثرين هايلز إلى «دراسات الوسائط المقارنة» التي ترفض بناء قطيعة مبسطة بين المطبوع والرقمي، وتنظر بدل ذلك في كيفية تشكل التفكير من خلال الوسائط المختلفة وفي العلاقة المتبادلة بين الإنسان وتقنياته .[2]

غير أن وصف هذه الممارسة بأنها «هجنة» يحتاج إلى احتراز، لأن مجرد الانتقال بين نسختين لا يكفي، وفق التعريف الصارم الذي تبناه الكتاب، لإثبات أن الوظائف المعرفية للقراءة أصبحت موزعة بين الإنسان والتقنية. ولهذا ينبغي التمييز بين الهجنة الوسائطية الدنيا التي يمثلها الجمع بين الحوامل، والهجنة المعرفية التي ستظهر في الأنماط اللاحقة عندما تدخل الأدوات في البحث والشرح والمقارنة والتأويل. ومن هنا يحتل القارئ الهجين البسيط موقع البداية في الطيف لا لأنه النموذج الكامل للمفهوم، بل لأنه يكشف أول تحول في وحدة الممارسة: لم تعد القراءة مرتبطة بحامل وحيد، بل أصبحت قادرة على الانتقال بين تمثيلات مختلفة للنص نفسه.

ويظهر أثر هذه الممارسة كذلك في الذاكرة القرائية، لأن القارئ الذي يوزع نشاطه بين الكتاب الورقي والنسخة الرقمية يكتسب أكثر من نظام لاستعادة النص؛ فقد يتذكر الموضع بصريًا في الصفحة الورقية، لكنه يستطيع في النسخة الرقمية استدعاء الجملة بالبحث، وقد يعتمد في الحامل الأول على أثر القلم والهامش وفي الثاني على العلامة الرقمية وقائمة الملاحظات. ولا يعني ذلك أن إحدى الطريقتين أفضل في ذاتها، وإنما يكشف أن القارئ أصبح قادرًا على تركيب نظام شخصي للقراءة يستثمر خصائص وسائط متعددة بحسب الحاجة، وهو ما يشكل البنية الأولية لفكرة «الذات القارئة الموزعة» التي سيطورها الكتاب لاحقًا.

ـ الانتقال بين الحوامل

لا يقتصر الانتقال بين الحوامل على تغير المكان الذي تظهر فيه الكلمات، بل يمكن أن يؤدي إلى تغير في طريقة التعامل مع النص ذاته، لأن القارئ قد يختار الحامل وفق نوع المهمة؛ فيفضل النسخة الورقية للقراءة المتصلة

الطويلة، والنسخة الإلكترونية للبحث والاسترجاع، والكتاب الصوتي للاستماع أثناء الحركة، وقد يستخدم أكثر من شكل في اليوم نفسه. وتكمن الهجنة هنا في أن الممارسة لم تعد تعرف وسيطًا افتراضيًا واحدًا، بل أصبحت تقوم على اختيار وظيفي للحامل، وهو ما يجعل القارئ نفسه مديرًا لبيئة من الوسائط.

ويصبح هذا الانتقال أكثر أهمية عندما تتحول النسخ المختلفة إلى أجزاء متصلة من تجربة واحدة، بحيث يبدأ القارئ القراءة في جهاز ويواصلها في جهاز آخر ويستعيد ملاحظاته في فضاء ثالث، وعندها لا تعود وحدة القراءة هي الجسم المادي للكتاب، بل تصبح الحساب أو الملف أو النص القابل للظهور في أكثر من مكان. ويُعد هذا التحول مقدمة ضرورية للهجنة الأعمق، لأن انفصال النص عن حامل واحد هو الذي سمح لاحقًا بأن ترتبط القراءة بقواعد البيانات ومحركات البحث والمنصات وأنظمة التوصية والمساعدات الذكية.

ومن الناحية النظرية يمكن القول إن القارئ الهجين البسيط يغير جغرافية القراءة قبل أن يغير بنيتها المعرفية؛ إذ يصبح النص قادرًا على مرافقته عبر سياقات مختلفة، لكنه يبقى في جوهره موضوعًا يفسره القارئ بقدراته الخاصة. ولهذا فإن هذه الدرجة لا ينبغي أن تتضخم مفهوميًا، بل يجب أن تبقى الحد الأدنى في الطيف الذي يسمح بفهم الانتقال التاريخي من قارئ مرتبط بحامل واحد إلى قارئ يستطيع أن يبني بيئة شخصية متعددة الحوامل، ومنها سينتقل إلى فضاء أكثر تعقيدًا لا يغير مكان النص فقط، بل يغير شبكة العلاقات التي تحيط به.

المبحث الثاني: القارئ الشبكي

الروابط التشعبية

يبدأ القارئ الشبكي في تجاوز الهجنة الوسائطية البسيطة عندما لا يعود النص وحدة مغلقة تنتقل بين الحوامل، بل يصبح عقدة داخل شبكة من العلاقات تسمح للقارئ بالتحرك الفوري بين عمل وآخر ومصدر وآخر وسياق وآخر. وقد مثل النص التشعبي أحد أهم التحولات التي مهدت لهذا النمط، لأنه جعل الرابط عنصراً بنيوياً في فعل القراءة، ومنح القارئ قدرة أكبر على اختيار الطريق الذي يسلكه داخل المادة، وهي النقلة التي ربطها جورج لاندو مبكراً بتحولات أوسع في مفاهيم النص والمؤلف والقارئ [3]. وتؤكد Hopkins Pressأن مشروع لاندو جمع بين النظرية الأدبية وتقنيات الحاسوب ودرس ما يمنحه النص التشعبي للقراء من قدرة على الوصول السريع إلى مكتبات افتراضية من المصادر وعلى التحكم بصورة أكبر في ماذا يقرؤون وكيف يقرؤون .

ولا يعني الرابط أن القارئ أصبح حراً حرية مطلقة، لأن المسارات الممكنة تظل محددة بما أتاحه تصميم النص أو الموقع، لكنه يغير طبيعة الاختيار من اتباع تسلسل واحد إلى اتخاذ قرارات متكررة حول البقاء أو الانتقال. ومن هنا يصبح القارئ الشبكي قارئاً للمسارات بقدر ما هو قارئ للجمل، لأنه يحتاج إلى أن يقرر ما إذا كان الرابط ضرورياً لفهم النص، وما إذا كان السياق الجديد يستحق مغادرة المسار الأصلي، ومتى ينبغي العودة، وهي مهارات لم تكن غائبة عن القراءة المطبوعة تماماً لكنها أصبحت أكثر حضوراً واستمرارية داخل الفضاء الشبكي.

ويترتب على ذلك أن القارئ الشبكي يعيش باستمرار بين قوتين؛ الأولى قوة التوسيع السياقي التي تتيح له الانتقال من مفهوم إلى مرجع ومن اسم إلى سيرة ومن حدث إلى أرشيف، والثانية قوة التشتيت التي قد تجعل كل رابط باباً إلى سلسلة لا تنتهي من الروابط. ولهذا فإن الكفاءة الشبكية لا تقاس بعدد الصفحات التي يستطيع القارئ فتحها، بل بقدرته على إدارة المسار والحفاظ

على سؤال يوجه حركته، لأن الشبكة تستطيع أن تمنحه سياقًا أوسع لكنها لا تمنحه بالضرورة بنية معرفية متماسكة.

ويتضح هنا فرق جوهري بين القارئ الشبكي والقارئ الهجين البسيط؛ ففي النمط الأولي ينتقل النص بين حوامل مختلفة بينما تظل حدود العمل واضحة نسبيًا، أما في النمط الشبكي فإن القارئ نفسه يبدأ في إعادة تشكيل حدود المادة التي يقرأها، لأن النص الأصلي يصبح محاطًا بمصادر وإحالات وتعليقات يمكن أن تدخل في تجربته. ومن هنا تتوسع وحدة القراءة من **العمل إلى الشبكة المحيطة بالعمل**، وهي نقلة ستصبح أكثر عمقًا عندما تدخل الخوارزمية لتقرر أي أجزاء هذه الشبكة ينبغي أن تظهر أولًا.

البحث المتزامن مع القراءة

يمثل البحث المتزامن مع القراءة مستوى أكثر تقدمًا من الشبكية، لأن القارئ لا يكتفي باتباع الروابط الموجودة سلفًا، بل يصنع بنفسه مسارات جديدة من خلال محرك البحث وقواعد البيانات والأرشيفات. ويغير ذلك طبيعة القراءة من استقبال بنية إحالية جاهزة إلى بناء سياق شخصي حول النص، حيث يستطيع القارئ التوقف عند أي لحظة لاستدعاء معلومة أو تاريخ أو تعريف أو مقارنة، ثم يعود إلى العمل وقد تغيرت المعرفة التي يحملها إليه.

وتكمن أهمية البحث المتزامن في أنه يجعل القراءة والبحث عمليتين متداخلتين بدل أن تكون إحداهما سابقة على الأخرى، وقد يصبح القارئ خلال جلسة واحدة متلقيًا للنص وباحثًا في خلفياته ومقيمًا للمصادر ومنظمًا للمواد التي يجدها. ومن هنا تظهر أول صورة واضحة **لتوزيع العمل القرائي** بين النص الأصلي وشبكة خارجية من المعلومات، حتى عندما يبقى الإنسان هو الذي يقوم بكل الاختيارات التأويلية.

غير أن محرك البحث يضيف إلى هذه الحرية مستوى خوارزميًا يجب ألا يغيب عن التحليل، لأن النتائج لا تظهر في فضاء محايد، بل ترتب وفق أنظمة تحدد الصلة والأهمية. وقد أبرز تارلتون غيليسبي أن الخوارزميات تؤدي دورًا متزايدًا

في تحديد المعلومات التي تعد ذات صلة بالمستخدمين وفي تنظيم الوصول إلى كميات ضخمة من البيانات [9]، وهو ما يعني أن القارئ الشبكي الذي يعتقد أنه يختار بحرية بين مصادر الشبكة يفعل ذلك، في كثير من الحالات، داخل ترتيب سابق لا يصنعه بنفسه .

ومن هنا يبدأ الانتقال من القارئ الشبكي إلى القارئ الخوارزمي؛ فالأول يتحرك في الشبكة، أما الثاني فتتحرك الشبكة أمامه وفق عمليات ترتيب وتوصية وتخصيص، وبينهما لا يوجد حد صارم بل تحول تدريجي في مصدر المبادرة. وكلما أصبحت نتائج البحث والتوصيات أكثر قدرة على استباق السؤال وتوقع الاهتمام ، أصبح من الضروري أن يضيف القارئ إلى مهارة العثور على المعلومة مهارة أخرى هي معرفة أن ترتيب المعلومة ذاته جزء من الوساطة.

المبحث الثالث: القارئ الاجتماعي

التعليق والتقييم

يتجاوز القارئ الاجتماعي تصور القراءة باعتبارها علاقة فردية بين شخص ونص، لأن المنصات الرقمية تتيح له أن يترك أثر قراءته فورًا في صورة تعليق أو تقييم أو حاشية أو مراجعة، وبذلك تصبح استجابته جزءًا من البيئة التي سيواجه فيها قراء آخرون النص لاحقًا. وإذا كانت الهوامش والمناقشات حول الكتب موجودة منذ زمن طويل، فإن الجديد في القراءة الاجتماعية الرقمية يتمثل في سرعة تداول هذه الآثار واتساع جمهورها وإمكان تراكمها حول العمل نفسه بصورة تجعل التعليق جزءًا شبه دائم من حضوره الشبكي.

وقد خصص فيديريكو بيانزولا مشروعًا واسعًا للقراءة الاجتماعية الرقمية، موضحًا أن الوسائط الرقمية تسمح للقراء بالدخول في محادثات في الهوامش وبقراءة تعليقات غيرهم والرد عليها، وأن التحول لا يمس الوسيط وحده بل يمتد إلى سياق القراءة ومواقف القراء وممارساتهم [4]. ويعرض كتابه *Digital Social Reading* القراءة الاجتماعية بوصفها مجالًا تغير فيه التطبيقات الرقمية الطريقة التي يتفاعل بها القراء مع القصص ومع بعضهم بعضًا، وهو ما يتيح دراسة القراءة لا باعتبارها فعلًا فرديًا فقط، بل باعتبارها نشاطًا اجتماعيًا يمكن تتبع آثاره على نطاق واسع .

ويغير التقييم بدوره شروط دخول القارئ إلى النص، لأن الرقم أو عدد النجوم أو حجم التفاعل يمكن أن يصنع انطباعًا قبل القراءة، وبذلك يتحول أثر القراء السابقين إلى جزء من أفق انتظار القارئ اللاحق. ولا يكون هذا التأثير بالضرورة سلبيًا، لأن المراجعات قد تساعد على اكتشاف الكتب وتوسيع الحوار حولها، لكنه يثير سؤالًا حول مقدار استقلال الحكم الأولي عندما يصل العمل محاطًا بإشارات اجتماعية كثيفة.

ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما لا تعرض المنصة جميع التعليقات والمراجعات بالدرجة نفسها، لأن الترتيب الخوارزمي يدخل بين الجماعة والقارئ ويحدد أي أصواتها أكثر ظهوراً، وعندها ننتقل من مفهوم «الجماعة التأويلية» إلى صورة أكثر تركيباً يمكن تسميتها **الجماعة التأويلية المؤطرة خوارزمياً** .فالقارئ لا يواجه المجتمع القرائي في مجموعه، بل يواجه تمثيلاً مرتباً لهذا المجتمع، وقد تصبح بعض القراءات أكثر حضوراً لأنها حصلت على تفاعل أكبر أو لأن النظام قرر أنها أكثر صلة.

<u>مجتمعات القراءة الافتراضية</u>

لا تتحدد اجتماعية القراءة الرقمية بالتعليقات الفردية وحدها، بل تتشكل عبر مجتمعات افتراضية حول الأجناس الأدبية والمؤلفين والكتب والسلاسل، وقد تصبح المشاركة في هذه الجماعات عنصراً أساسياً في تجربة القراءة نفسها. فالقارئ يشارك توقعاته أثناء تقدم الرواية، ويناقش الشخصيات، ويرشح كتباً، ويتلقى اقتراحات، وقد ينشئ مواد مشتقة أو قوائم أو مراجعات طويلة، وبذلك تصبح القراءة جزءاً من هوية اجتماعية رقمية لا مجرد نشاط خاص.

وتكشف هذه المجتمعات أن الانتقال من القارئ الفردي إلى القارئ الاجتماعي لا يلغي الفهم الشخصي، لكنه يضيف إليه طبقة من التفاوض مع الآخرين، حيث يمكن للتفسير أن يتغير بعد الحوار أو يتصلب أمام رأي الجماعة، ويمكن للقراءة الجماعية أن توسع المجال التأويلي حين تجمع خبرات متنوعة، كما يمكنها أن تنتج أشكالاً من الضغط نحو المعاني الأكثر شعبية. وتكمن قيمة دراسة القارئ الاجتماعي في أنها تمنعنا من تصور الهجنة التقنية باعتبارها علاقة ثنائية بين الإنسان والجهاز فقط، لأن التقنية نفسها تربط الإنسان بفاعلين بشريين آخرين، وبذلك يكون جزء من «الهجين» اجتماعياً بقدر ما هو آلي.

ويحتل هذا النمط موقعاً وسيطاً في طيف الهجنة؛ فالقارئ الاجتماعي أكثر تعقيداً من القارئ الشبكي لأن البشر الآخرين يدخلون بصورة مباشرة في

تجربته، لكنه قد يظل غير هجين معرفيًا بالمعنى القوي إذا كانت الآلة لا تفعل أكثر من توفير البنية الاتصالية. غير أن المنصات الحديثة تجعل الفصل صعبًا، لأن المجتمع نفسه تحكمه التوصية والترتيب والتخصيص، وهنا تبدأ الهجنة الاجتماعية بالتقاطع مع الهجنة الخوارزمية.

ومن هذا التقاطع يظهر شكل من أشكال القراءة تكون فيه الذائقة نتيجة لعلاقة ثلاثية بين القارئ والجماعة والمنصة، إذ إن القراء ينتجون التقييمات والمراجعات، والخوارزمية ترتبها وتتعلم من السلوك، ثم يعود هذا الترتيب ليؤثر في الاختيارات المستقبلية. وقد حلل هالينان وتيد ستريبهاس أنظمة التوصية في سياق ما سمياه «الثقافة الخوارزمية»، حيث تدخل المعالجة الحسابية إلى تنظيم التفضيلات والمنتجات الثقافية [10]، وهو ما يجعل القارئ الاجتماعي المعاصر يعيش في جماعة لا تتشكل فقط بالعلاقات بين أفرادها، بل كذلك بالبنية التي توزع انتباههم .

المبحث الرابع: القارئ المعزز

الترجمة والتلخيص الآليان

يمثل القارئ المعزز نقلة نوعية في طيف الهجنة، لأن التقنية لا تكتفي عند هذا المستوى بتغيير الحامل أو تنظيم الروابط أو ربط القارئ بجماعة، بل تبدأ في أداء وظائف معرفية تساعده على الوصول إلى مضمون النص وفهمه .ويمكن للترجمة الآلية أن تفتح أمام القارئ نصوصًا بلغات لا يتقنها، بينما يسمح التلخيص الآلي باستعادة البنية الأساسية لمادة طويلة أو بناء تصور أولي عنها، وهو ما يجعل الأداة جزءًا مباشرًا من عملية الوساطة بين النص والفهم.

ولا ينبغي النظر إلى الترجمة الآلية بوصفها مجرد استبدال للكلمات بكلمات، لأن الترجمة تتضمن إعادة بناء لغوي وسياقي يمكن أن يؤثر في ما يصل إلى القارئ. وقد درست شيلا كاستيليو وآنا غيربيروف أريناس فهم القراء لمخرجات الترجمة الآلية في تجربة أولية قارنت نماذج مختلفة من الترجمة، وهو ما يبين أن قابلية النص المترجم آليًا للقراءة والفهم موضوع تجريبي مستقل، لا افتراضًا تقنيًا بسيطًا [5]. وتفيد هذه الدراسات مشروع القارئ الهجين لأنها تؤكد أن الأداة التي تسهل الوصول إلى نص أجنبي تدخل بالضرورة في سلسلة الوساطة التي يتلقى من خلالها القارئ ذلك النص .

ويحمل التلخيص مفارقة مماثلة، لأنه يمكن أن يكون شديد الفائدة حين يستخدم بوصفه أداة للاسترجاع أو الاستكشاف، لكنه يصبح خطرًا على فعل القراءة إذا تحول إلى بديل عن النص. ومن هنا ينبغي التمييز بين قارئ يطلب ملخصًا بعد أن قرأ الفصل لكي يراجع بنيته، وقارئ يطلب الملخص بدل قراءته ثم يتعامل معه كما لو كان العمل نفسه، لأن الأول يستخدم التقنية لتعزيز ذاكرته بينما ينقل الثاني الوظيفة الأساسية للقراءة إلى النظام.

وتظهر هنا أهمية مفهوم القراءة المعززة الذي جرى تعريفه في الفصل السابق بوصفه قراءة بشرية تستفيد من أدوات توسع إمكانات الوصول والفهم والاسترجاع من دون أن تصل بالضرورة إلى مشاركة تأويلية عميقة مع الآلة. فالترجمة والتلخيص يدخلان إلى البنية المعرفية للقراءة، لكنهما لا يحولان القارئ تلقائيًا إلى قارئ توليدي، لأن النظام قد يظل يؤدي وظيفة محددة يطلبها المستخدم ثم يعود الأخير إلى النص ليواصل نشاطه بنفسه.

<u>البحث والمساعدة المعرفية</u>

يتسع التعزيز عندما تبدأ الأدوات في القيام بعمليات البحث داخل النصوص واستعادة المواضع والمفاهيم والمقارنة بين مصادر متعددة وتنظيم الملاحظات، وعندها يصبح القارئ أقل اعتمادًا على ذاكرته الداخلية في التفاصيل وأكثر قدرة على توظيف موارد خارجية بصورة منتظمة. ويجد هذا التحول خلفية فلسفية في أطروحة آندي كلارك وديفيد تشالمرز حول «العقل الممتد»، التي اقترحت أن بعض الموارد الخارجية يمكن، في شروط معينة، أن تدخل وظيفيًا في عمليات معرفية أوسع، مع التأكيد أن استثمار هذه الأطروحة في هذا الكتاب لا يعني أن كل تطبيق أو جهاز يصبح تلقائيًا جزءًا من عقل القارئ .[6]

ومن هذا المنظور يمكن فهم القارئ المعزز بوصفه قارئًا بدأ يوزع بعض العمل المعرفي، حيث يحتفظ هو بالسؤال والغاية والحكم بينما تقوم الأدوات بالاسترجاع أو التنظيم أو المعالجة الأولية. فالذاكرة الخارجية لا تلغي الذاكرة الداخلية، لكنها تعيد توزيع ما يحتاج القارئ إلى حفظه، ومحرك البحث لا يلغي المعرفة ولكنه يغير طريقة الوصول إليها، والمساعد المعرفي لا يلغي التحليل بالضرورة لكنه يستطيع أن يخفف بعض أعبائه الأولية.

غير أن هذا النمط يمثل كذلك المنطقة التي يصبح فيها الحد بين التعزيز والتبعية شديد الحساسية، لأن الوظيفة التي تبدأ مساعدة يمكن أن تتحول مع التكرار إلى بديل. فإذا أصبح القارئ لا يستطيع بناء ملخص بنفسه لأنه يطلبه دائمًا، أو لا يتحقق من أي مرجع لأن النظام يستعيده له، فإن التوزيع

الوظيفي يقترب من التفويض. ومن هنا يحتاج القارئ المعزز إلى اقتصاد في التدخل الآلي، بحيث لا يستعمل الأداة في كل وظيفة تستطيع القيام بها، وإنما يسأل ما إذا كانت ممارسة الوظيفة بنفسه جزءًا من الهدف القرائي أو التعليمي.

وتظهر هنا قاعدة مركزية في طيف الهجنة :كلما اقتربت الأداة من وظيفة معرفية مركزية، ازدادت ضرورة أن يعرف القارئ لماذا يستخدمها وما الذي يخسره إذا فوض إليها هذه الوظيفة .فالترجمة التي تفتح نصًا غير متاح قد توسع القراءة بصورة واضحة، بينما الترجمة التي تحل دائمًا محل تعلم الفروق اللغوية قد تنتج تبعية، والمقارنة الآلية التي توفر نقطة انطلاق قد تكون مفيدة، بينما المقارنة التي يعتمدها الباحث دون فحص قد تلغي جزءًا من عمله التحليلي.

المبحث الخامس: القارئ التوليدي

الحوار مع الذكاء الاصطناعي

يمثل القارئ التوليدي الدرجة التي تدخل عندها الهجنة إلى مجال أكثر حساسية، لأن التقنية لم تعد تكتفي بالبحث أو العرض أو الترجمة أو التلخيص، بل تصبح قادرة على توليد خطاب جديد استجابة لسؤال القارئ، وهو ما يحول العلاقة من استعمال أداة محددة الوظيفة إلى حوار تكراري يمكن أن يتغير فيه مسار القراءة بعد كل جواب. ويختلف هذا النمط عن القارئ المعزز في أن النظام لا يقدم موردًا جاهزًا فقط، بل ينتج صياغة مخصصة نسبيًا للمحفز الذي قدمه المستخدم، ولذلك يصبح السؤال نفسه جزءًا من الممارسة القرائية.

وقد قدم س. شيام سوندار إطار «الفاعلية الآلية» لفهم التفاعل البشري ـ الآلي في سياق الأنظمة التي أصبحت قادرة على اتخاذ أدوار أكثر فاعلية في تجربة المستخدم، مع ما يرافق ذلك من أسئلة حول الثقة والسيطرة والشفافية [7]. ويستفيد مفهوم القارئ التوليدي من هذا الإطار ليصف نظامًا لا ينتظر فقط أمرًا آليًا بسيطًا، بل يشارك وظيفيًا في دورة من السؤال والجواب يمكن أن تغير ما يفعله الإنسان بعد ذلك) .

ويمكن أن تبدأ الدورة بقراءة بشرية أولية، ثم بسؤال يوجهه القارئ إلى النظام، فيقدم النظام جوابًا أو احتمالًا، ثم يقارن القارئ هذا المخرج بالنص ويعترض عليه أو يطلب بديلًا، فيتغير الجواب ويتغير معه السؤال، وهكذا تتحول القراءة إلى مسار يمكن تمثيله في صورة :نص → قراءة أولية → سؤال → اقتراح آلي → فحص بشري → عودة إلى النص → سؤال جديد → تأويل معدل .ولا تكون أهمية هذه الدورة في أن الآلة أصبحت تمتلك تجربة القراءة ذاتها، بل في أن مخرجاتها صارت جزءًا من المواد التي يعمل عليها القارئ أثناء بناء فهمه.

ويظهر هنا معنى «الكفاية الحوارية الخوارزمية»، لأن جودة التفاعل تعتمد بدرجة كبيرة على قدرة القارئ على صياغة أسئلة لا تدفع النظام إلى الإغلاق السريع للمعنى. فالسؤال الذي يطلب «المعنى الصحيح» لنص أدبي غامض يشجع على جواب نهائي، بينما السؤال الذي يطلب فرضيات متعارضة وأدلة وحدودًا لكل فرضية يفتح مجالًا للمقارنة. ومن هنا لا يصبح القارئ التوليدي أكثر فاعلية لأنه يتلقى إجابات أكثر، بل لأنه يعرف كيف يستخدم الحوار لتوسيع السؤال ثم يعيد النتائج إلى النص.

ومع ذلك تظل ضرورة التمييز بين إنتاج اللغة والفهم الإنساني قائمة، لأن قدرة النموذج اللغوي على توليد خطاب متماسك لا تمنحه تجربة بشرية للمعنى. وقد نبهت إميلي بندر وتمنيت غبرو وأنجلينا ماكميلان-ماجور وشمارغريت شميتشل إلى جملة من المخاطر المرتبطة بالنماذج اللغوية الكبيرة وبياناتها وميل المستخدمين إلى إسناد معنى وفهم إلى مخرجاتها اللغوية بصورة قد تتجاوز ما تبرره آلية النظام [8]. ولهذا يتعامل هذا الكتاب مع الآلة في القارئ التوليدي بوصفها شريكًا تأويليًا وظيفيًا لا ذاتًا تأويلية مساوية للإنسان

ـ *إعادة بناء النص وتأويله*

تبلغ الهجنة التوليدية مستوى أكثر عمقًا عندما لا يستخدم القارئ النظام لفهم عنصر منفرد فقط، بل لإعادة بناء النص في أشكال أخرى، كأن يطلب مقارنة الشخصيات، أو إعادة تنظيم الحجة، أو استخراج شبكة المفاهيم، أو تقديم قراءة مضادة، أو تفسير العمل من منظور نظري معين. وفي هذه الحالات ينتج النظام نصًا ثانيًا عن النص الأول، ويصبح على القارئ أن يدرك أنه لم يعد يتعامل مباشرة مع الأصل، بل مع تمثيل مولد له يختار ويعيد ترتيب ويختصر ويبرز عناصر على حساب أخرى.

ومن هنا يصبح الفرق بين «النص» و«الخطاب التوليدي حول النص» من أهم الفروق التي يجب أن يحتفظ بها القارئ التوليدي، لأن اللغة المتماسكة للجواب قد تخلق وهمًا بأن الوسيط شفاف، بينما كل تلخيص أو تفسير أو

إعادة بناء تتضمن قرارات ضمنية بشأن ما هو مركزي وما هو هامشي. فإذا طلب القارئ من النظام شرح رواية في عشر نقاط، فإن هذه النقاط لا تكون الرواية في صورة مضغوطة، بل اختيارًا لمجموعة من عناصرها، وقد تختفي في العملية البنية الإيقاعية أو تعدد الأصوات أو الغموض أو التفاصيل التي تشكل جزءًا من التجربة الأدبية.

وتصبح المسألة أكثر حساسية في التأويل، لأن النظام يستطيع توليد أكثر من قراءة، وهو ما يمثل إمكانًا كبيرًا لتوسيع أفق القارئ إذا تعامل معها كفرضيات، لكنه يصبح مشكلة إذا تعامل معها كأحكام نهائية. ومن هنا يقترح الكتاب مفهوم **التأويل الهجين** للدلالة على عملية بناء للمعنى يظل فيها الإنسان الفاعل المسؤول، لكنه يستفيد من النظام في توليد فرضيات وسياقات ومقارنات قبل أن يخضعها للفحص ويعيد دمج المقبول منها في قراءته.

ويعمل القارئ التوليدي الناضج، وفق هذا التصور، في حركة مزدوجة لا يبتعد فيها عن النص مع كل جواب بل يعود إليه باستمرار، لأن قيمة المساعدة الاصطناعية تقاس بقدرتها على إعادة القارئ إلى النص بأسئلة أفضل لا بقدرتها على إعفائه منه. وإذا انقطعت العودة إلى الأصل وأصبح القارئ يتعامل فقط مع المخرجات التوليدية، فإن الهجنة تتحول من حوار تأويلي إلى «قراءة مستبدلة» يصبح فيها خطاب الآلة بديلًا عن العمل.

ومن هنا يمكن تلخيص علاقة القارئ التوليدي بالآلة في قاعدة ستتكرر في الفصول اللاحقة :الآلة تقترح، والقارئ يختبر، والنص يقاوم أو يؤيد، والسياق يراجع .وتسمح هذه الصيغة بالحفاظ على فائدة التفاعل من دون تحويله إلى مساواة بين الإنسان والنظام، كما تجعل المسؤولية التأويلية معيارًا أساسيًا للانتقال من القارئ التوليدي إلى النمط الأكثر تطورًا في هذا الفصل، أي القارئ الهجين النقدي.

المبحث السادس: القارئ الهجين النقدي

الوعي بتحيز الآلة

لا يكتمل مفهوم القارئ الهجين إذا توقف عند القدرة على استخدام الأدوات، لأن الاتساع المستمر لتدخل الخوارزميات يجعل الكفاية النقدية جزءًا من القراءة نفسها. فالقارئ الهجين النقدي هو الذي يدرك أن نتائج البحث والتوصيات والترتيب والتلخيص والتفسير لا تظهر من فراغ، وأن الأنظمة تتشكل من تصميمات وأهداف وبيانات واختيارات مؤسساتية يمكن أن تؤثر في ما يصبح ظاهرًا وفي ما يبقى غائبًا. ومن هنا ينتقل من السؤال «ماذا قدمت لي الخوارزمية؟» إلى سؤال أعمق هو «ما الشروط التي جعلتها تقدم لي هذا بدل غيره؟.«

وقد بين غيليسبي أن دراسة الخوارزميات يجب ألا تختزلها في إنجازات تقنية مجردة، بل أن تنظر إلى الاختيارات البشرية والمؤسساتية التي تحيط بها وإلى دورها في تحديد ما يعد ذا صلة وما يصل إلى الجمهور [9]، بينما تذهب تاينا بوخر إلى أن الخوارزميات، من خلال المعالجة والتصنيف والترتيب، تشارك في جعل العالم يظهر بطرق معينة بدل أخرى [11]. وتوفر هاتان المقاربتان أساسًا لفكرة أن القارئ النقدي لا يحتاج إلى معرفة الشفرة البرمجية كاملة لكي يدرك أن الترتيب نفسه فعل ذو آثار ثقافية ومعرفية) .

ويصبح الوعي الخوارزمي بذلك جزءًا من الكفاية القرائية، لأنه يسمح للقارئ بالتمييز بين النص الذي اختاره بعد بحث واسع والنص الذي ظهر بسبب توصية شخصية، وبين إجابة تستند إلى مصدر يمكن الرجوع إليه وصياغة توليدية تحتاج إلى تحقق، وبين قائمة تعكس جميع النتائج الممكنة وقائمة رتبتها المنصة وفق منطق لا يراه المستخدم بصورة كاملة. ولا يعني هذا الوعي أن القارئ يستطيع كشف كل عمليات النظام، بل يعني أنه يتخلى عن فرضية الشفافية ويعامل الوسيط بوصفه طرفًا يحتاج إلى السؤال.

وقد بحثت آن أودلف-هيرش وجيرمان نويباوم مفهوم الوعي الخوارزمي لدى مستخدمي وسائل التواصل، وربطت الدراسة بين معرفة المستخدمين بالخوارزميات واتجاهاتهم وسلوكهم تجاهها، وهو ما يدعم النظر إلى «محو الأمية الخوارزمية» باعتباره مجموعة من المعارف والمواقف والممارسات لا مجرد معرفة تقنية نظرية [12]. ويستفيد هذا الكتاب من هذه الأدبيات لتأسيس مفهوم أضيق مرتبط بالقراءة هو الكفاءة الخوارزمية النقدية، أي قدرة القارئ على التعرف إلى وجود الوساطة ومساءلة مخرجاتها ومقارنتها والتحقق منها .

ويتطلب الوعي بالتحيز كذلك إدراك أن الأنظمة التوليدية قد تعكس تفاوتًا في تمثيل اللغات والثقافات والأنواع النصية، وأن التعامل مع نص عربي أو تراثي أو شعري قد يحتاج إلى درجة أعلى من الحذر إذا كانت الإحالات الثقافية أو اللغوية غير ممثلة بالقدر نفسه في مصادر النظام. ومن هنا يصبح القارئ الهجين النقدي قادرًا على السؤال عن الغياب لا عن الخطأ فقط؛ فما الذي لم يظهر في التفسير؟ وما القراءة التي لم يقترحها النظام؟ وهل استدعى نموذجًا نظريًا مألوفًا وأهمل سياقًا محليًا؟ وهل قدم المرجعية الثقافية بوصفها حقيقة بينما كانت مجرد احتمال؟ وهكذا يصبح النقد الخوارزمي امتدادًا للنقد الثقافي لا مهارة تقنية مستقلة عنه.

مقاومة الهيمنة الخوارزمية

إذا كان الوعي شرطًا أوليًا، فإن القارئ الهجين النقدي يتجاوز المعرفة النظرية بالخوارزمية إلى تطوير ممارسات تحافظ على استقلاله أمام منطق التخصيص والتوصية والإجابة الفورية. ولا تعني المقاومة هنا رفض التكنولوجيا أو الانسحاب من المنصات، بل القدرة على استعمالها ضد ميلها المحتمل إلى تضييق المجال أو تثبيت العادات أو تحويل التوصيات إلى مسار وحيد. وقد تناولت جوليا فيلكوفا وآن كاون مفهوم «المقاومة الخوارزمية» من خلال ممارسات يحاول فيها المستخدمون التفاوض مع الأنظمة وإصلاح

العلاقات التي تفرضها الخوارزميات أو التحايل عليها، وهو ما يبين أن المستخدم ليس بالضرورة عنصرًا سلبيًا أمام القوة الخوارزمية .[13]

وتظهر المقاومة القرائية في صور مختلفة، فقد يقرر القارئ البحث خارج قائمة التوصيات الشخصية، أو استخدام ترتيب زمني بدل الترتيب المخصص حين يكون ذلك متاحًا، أو استكشاف كتب لا تتوافق مع تاريخه السابق، أو مقارنة محركات ومصادر مختلفة، أو طرح السؤال نفسه على أكثر من نظام، أو طلب قراءة مضادة للجواب الأول، أو الامتناع عمدًا عن استخدام الذكاء الاصطناعي في المرحلة الأولى من قراءة نص أدبي حتى يسمح لتأويله الشخصي بالتشكل. ويمكن جمع هذه الممارسات تحت مفهوم العصيان القرائي، الذي لا يقصد تمردًا تقنيًا مطلقًا، بل ممارسة واعية لكسر المسار الأكثر سهولة الذي تقترحه الخوارزمية عندما يحتاج القارئ إلى توسيع أفقه.

ويكتسب هذا العصيان أهمية خاصة أمام التخصيص، لأن أنظمة التوصية تستطيع أن تسهل اكتشاف ما يوافق الذائقة السابقة، لكنها تستطيع في الوقت نفسه أن تقلل احتمالات المصادفة الثقافية إذا ظل القارئ يتحرك داخل المجال نفسه. وقد حلل هالينان وستريبهاس دور أنظمة التوصية في إنتاج الثقافة الخوارزمية [10]، بينما تبين بوخر أن التصنيف والترتيب ليسا عمليتين محايدتين بالنسبة إلى كيفية ظهور العالم للمستخدم [11]، ومن هنا تصبح مقاومة التخصيص أحيانًا وسيلة لاستعادة ما يمكن تسميته حق القارئ في المفاجأة، أي حقه في أن يواجه نصوصًا لا يعرف النظام بعد أنه سيحبها .

ولا تقتصر المقاومة على اختيار النصوص، بل تمتد إلى مجال المعنى، لأن القارئ التوليدي قد يقع بسهولة تحت سلطة «الإجابة الأولى» التي ينتجها النظام، وخصوصًا عندما تكون مكتوبة بلغة واثقة ومتماسكة. ويصبح القارئ النقدي هو الذي يكسر هذه السلطة بطلب البديل والدليل والنقد المضاد، ثم يعود إلى النص ليتأكد مما إذا كانت الفرضية قابلة للدفاع

عنها. وهنا تتحول القراءة من استخدام الذكاء الاصطناعي إلى نقد استخدام الذكاء الاصطناعي أثناء حدوثه، وهي الحركة التي سيسميها الكتاب في باب لاحق «القراءة الميتا خوارزمية.«

ومن هذا المنظور يمثل القارئ الهجين النقدي أعلى درجات النضج داخل التصنيف الحالي، لا لأنه يستخدم التقنية أكثر من غيره، بل لأنه يستطيع استخدامها والابتعاد عنها، وقبول مخرجاتها ورفضها، والاستفادة من التخصيص والخروج منه، والطلب من النظام أن يساعده ثم إدراك اللحظة التي ينبغي فيها أن يتوقف عن المساعدة. فالنقد هنا قدرة على إدارة المسافة، بحيث لا تظل الآلة خارج القراءة تماماً ولا تندمج فيها إلى الحد الذي يصبح معه القارئ عاجزًا عن رؤية حدودها.

درجات الهجنة: من الوساطة المادية إلى الوعي النقدي

تسمح الأنماط السابقة ببناء تصور تدريجي للهجنة القرائية لا يعتمد على ثنائية «هجين/غير هجين»، بل على مقدار ونوع مشاركة التقنية داخل النشاط. ففي الدرجة الأولى نجد **الهجنة الوسائطية** التي يتنقل فيها القارئ بين الورق والشاشة من دون تدخل تقني عميق في الفهم، ثم تأتي **الهجنة الشبكية** حين يتوزع مسار القراءة بين النص والروابط والبحث، تليها **الهجنة الاجتماعية** عندما تصبح استجابات القراء الآخرين ومجتمعاتهم جزءًا من تجربة التلقي، ثم **الهجنة المعرفية المعززة** عندما تؤدي الأدوات وظائف في الترجمة والتلخيص والاسترجاع والمقارنة، وبعدها **الهجنة التوليدية التأويلية** التي يدخل فيها النظام إلى الحوار حول النص ويولد احتمالات للمعنى، وصولًا إلى **الهجنة النقدية** التي يضيف فيها القارئ إلى كل ذلك وعيًا بمنطق الوساطة وقدرة على مقاومتها ومراجعتها.

ولا تمثل هذه الدرجات مراحل تاريخية يجب أن يمر بها كل قارئ، لأن الفرد يستطيع أن يتحرك بينها في جلسة واحدة، كما لا تمثل طبقات متراكمة يجب الاحتفاظ بها جميعًا؛ فقد يختار قارئ نقدي واعٍ أن يمارس قراءة ورقية خالصة لنص معين، ثم يستخدم الذكاء الاصطناعي بكثافة في مهمة أخرى. ومن هنا ينبغي تعريف درجة الهجنة بحسب **الوضع القرائي المحدد** لا بحسب هوية الشخص بصورة مطلقة.

ويمكن تحديد الدرجة عبر ثلاثة مؤشرات مترابطة؛ يتعلق الأول **بعدد الوظائف** التي تشارك فيها التقنية، ويتعلق الثاني **بعمق هذه الوظائف** واقترابها من مجال المعنى، بينما يتعلق الثالث **بدرجة استقلال القارئ** في إدارة التدخل. وقد يكون القارئ عالي الهجنة من حيث العدد والعمق لكنه منخفض الاستقلال إذا اعتمد المخرجات مباشرة، في حين يمكن لقارئ يستخدم أدوات أقل أن يحقق مستوى أعلى من النضج النقدي. ولهذا ينبغي ألا يخلط البحث بين كثافة الهجنة وجودة الهجنة.

وتسمح هذه الثنائية بتطوير تصنيف أكثر دقة؛ فكثافة الهجنة تشير إلى مقدار تدخل التقنية، بينما تشير جودتها إلى طبيعة العلاقة النقدية التي يحتفظ بها الإنسان معها. وتصبح القراءة الهجينة الناضجة هي الحالة التي ترتفع فيها إمكانات التعزيز من دون أن تنهار السيادة التأويلية، بحيث يستطيع القارئ توسيع ذاكرته وسياقه ومقارناته والاستفادة من الاقتراح التوليدي، لكنه يظل قادرًا على التحقق والاستغناء والاعتراض والعودة إلى النص.

ومن هنا يصل الفصل إلى نتيجة تتجاوز مجرد وضع قائمة للأنماط، وهي أن تطور القارئ الهجين لا يسير بالضرورة نحو مزيد من الآلة، بل نحو مزيد من الوعي بطريقة توزيع الوظائف بين الإنسان والآلة .فالقارئ الهجين البسيط يتعلم الانتقال بين الحوامل، والشبكي يتعلم إدارة المسارات، والاجتماعي يتعلم التعامل مع أصوات الجماعة، والمعزز يتعلم توزيع بعض العمل المعرفي، والتوليدي يتعلم الحوار، أما النقدي فيتعلم قراءة كل هذه الوساطات ومقاومة اللحظة التي تبدأ فيها في العمل بدلًا عنه.

خاتمة الفصل الخامس

يكشف تصنيف أنماط القارئ الهجين ودرجات الهجنة أن المفهوم لا يمكن اختزاله في نموذج واحد أو في علاقة ثابتة بين الإنسان والآلة، لأن الممارسة القرائية المعاصرة تتحرك داخل طيف يبدأ من أبسط أشكال التداخل الوسائطي وينتهي بأنظمة معقدة من التعاون المعرفي والتأويل التوليدي والنقد الخوارزمي. ومن هنا فإن القيمة النظرية لهذا التصنيف لا تتمثل في تسمية القراء بقدر ما تتمثل في تقديم لغة تسمح بوصف المكان الذي توجد فيه التقنية داخل عملية القراءة، وما الوظيفة التي تقوم بها، وما مقدار السلطة التي يحتفظ بها القارئ أثناء تدخلها.

وقد أظهر المبحث الأول أن القارئ الهجين البسيط يمثل درجة تمهيدية تقوم أساسًا على الجمع بين الحوامل والتنقل بينها، بحيث تكون الهجنة مادية ووسائطية أكثر منها معرفية، بينما كشف القارئ الشبكي أن انتقال النص إلى الشبكة غير بنية المسار نفسه وأدخل البحث والروابط في صلب الممارسة. ومع القارئ الاجتماعي اتسعت وحدة التلقي لتشمل الجماعات والمراجعات والتعليقات، لكن هذه الجماعة لم تعد تظهر للقارئ بصورة خام، إذ تتدخل أنظمة الترتيب والتوصية في تنظيم أصواتها. ثم جاء القارئ المعزز ليشكل نقطة التحول التي تبدأ فيها التقنية بأداء وظائف معرفية مباشرة مثل الترجمة والتلخيص والبحث والاسترجاع، وهو ما يجعل توزيع العمل بين الإنسان والأداة أكثر وضوحًا.

أما القارئ التوليدي فيمثل الانتقال من المساعدة إلى الحوار، لأن النظام يصبح قادرًا على إنتاج خطاب جديد حول النص والدخول في دورة تكرارية من السؤال والاقتراح والفحص وإعادة السؤال، وهو ما يسمح لأول مرة بالحديث عن مشاركة وظيفية للآلة في المجال التأويلي، مع ضرورة الإبقاء على التمييز الصارم بين القدرة على توليد التفسير وبين التجربة البشرية للمعنى. وعند هذه النقطة يصبح القارئ الهجين النقدي ضرورة لا مجرد نمط إضافي، لأن اتساع الفاعلية التقنية يفرض اتساعا موازيا في قدرة القارئ على

فهم الوساطة والتحقق من المخرجات واكتشاف التحيزات ومقاومة مسارات التخصيص والإجابة الجاهزة.

وبذلك لا يمكن تمثيل درجات الهجنة بسؤال واحد من قبيل «كم تستخدم التقنية؟»، بل بمجموعة من الأسئلة المتصلة :**ما الذي تفعله التقنية داخل القراءة؟ وإلى أي عمق يصل تدخلها؟ وهل يستطيع القارئ معرفة هذا التدخل ومراجعته وإيقافه عند الضرورة؟** وعلى أساس هذه الأسئلة يصبح الفرق بين الهجنة الخلاقة والهجنة التابعة أكثر وضوحًا، لأن الأولى توسع وظائف القارئ مع إبقائه داخل دائرة الحكم، بينما تنقل الثانية الوظائف تدريجيًا إلى النظام حتى لا يبقى للإنسان سوى استهلاك النتائج.

ومن هنا يمكن صياغة المبدأ الجامع للفصل على النحو التالي :**ليست أعلى درجات الهجنة هي التي تفعل فيها الآلة أكثر، بل التي يعرف فيها القارئ بدقة ما الذي ينبغي أن تفعله الآلة وما الذي ينبغي أن يبقى من عمله هو** .
ويقود هذا الاستنتاج مباشرة إلى الفصل التالي، لأن القدرة على توزيع الوظائف بين الداخل والخارج تستدعي سؤالًا أعمق عن بنية العقل القارئ نفسه، وعن العلاقة بين الذاكرة البشرية والذاكرة الخارجية والإدراك الموزع والتفويض المعرفي، وهي القضايا التي ستشكل أساس الفصل السادس حول العقل الممتد والذات القارئة الموزعة.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Bolter, Jay David & Grusin, Richard. *Remediation: Understanding New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 1999.

يمثل مفهوم «إعادة الوساطة» أساسًا لفهم استمرار أشكال الوسائط القديمة داخل الجديدة، ويفيد في تفسير القارئ الهجين البسيط بوصفه قارئًا يعيش تداخلًا بين المطبوع والرقمي بدل انتقال نهائي من أحدهما إلى الآخر.
وتوضح MIT Press **أن الكتاب يعارض التصور الذي يفترض انفصال الوسائط الرقمية الكامل عن سابقاتها ويحلل عمليات إعادة تشكيل الوسائط بعضها لبعض**(MIT Press) .

[2] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.

يُستفاد منه في فهم التفاعل بين الممارسات المعرفية والوسائط المختلفة، وفي دعم المقاربة المقارنة بين المطبوع والرقمي، إضافة إلى مفهوم التكوين التقني الذي ينظر إلى البشر والتقنيات بوصفهما في علاقة تغير متبادل(Google Books) .

[3] Landow, George P. *Hypertext 3.0: Critical Theory and New Media in an Era of Globalization*. 3rd ed. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2006.

مرجع مركزي في فهم النص التشعبي وتغير موقع القارئ داخل الشبكات، ولا سيما ما يتعلق بالروابط والتحكم في مسارات القراءة والوصول الفوري إلى مصادر متعددة(press.jhu.edu) .

[4] Pianzola, Federico. *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.

مرجع حديث في دراسة القراءة الاجتماعية الرقمية وتفاعل القراء داخل التطبيقات والمنصات وممارسات التعليق والحوار حول الأدب، ويؤكد أن التحول الرقمي يغير سياق القراءة ومواقف القراء لا الوسيط فقط (MIT Press) .

[5] Castilho, Sheila & Guerberof Arenas, Ana. "Reading Comprehension of Machine Translation Output: What Makes for a Better Read?" In *Proceedings of the 21st Annual Conference of the European Association for Machine Translation (EAMT)*, 2018.

يُستفاد من الدراسة في مناقشة الترجمة الآلية بوصفها وسيطًا في الوصول إلى النص وفهمه، وفي تأكيد أن قابلية المخرجات المترجمة آليًا للقراءة والفهم مسألة يمكن فحصها تجريبيًا(ACL Anthology) .

[6] Clark, Andy & Chalmers, David. "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.

مرجع تأسيسي لأطروحة العقل الممتد، ويُستفاد منه في هذا الفصل بوصفه خلفية لفهم إمكان دخول بعض الموارد الخارجية وظيفيًا في النشاط المعرفي، من دون افتراض أن كل استخدام تقني يحقق امتدادًا معرفيًا بالمعنى الفلسفي الصارم(OUP Academic) .

[7] Sundar, S. Shyam. "Rise of Machine Agency: A Framework for Studying the Psychology of Human–AI Interaction (HAII)." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 25, No. 1, 2020, pp. 74–88. DOI: 10.1093/jcmc/zmz026.

يوفر إطارًا لدراسة الفاعلية الآلية والتغير في علاقة المستخدم بالأنظمة القادرة على التخصيص والاستجابة والمبادرة، ويستفاد منه في تأسيس مفهوم القارئ التوليدي والتفاعل الحواري مع الأنظمة الذكية.

[8] Bender, Emily M.; Gebru, Timnit; McMillan-Major, Angelina & Shmitchell, Shmargaret. "On the Dangers of Stochastic Parrots: Can Language Models Be Too Big?" *Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (FAccT '21)*, 2021.

مرجع نقدي مهم في دراسة النماذج اللغوية الكبيرة ومخاطر بياناتها وتمثيلاتها، ويُستفاد منه في الحفاظ على التمييز بين القدرة على توليد خطاب لغوي وبين إسناد الفهم أو التجربة الإنسانية إلى النظام(ACM Digital Library) .

[9] **Gillespie, Tarleton.** "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014, pp. 167–194.

يمثل مرجعًا أساسيًا في فهم دور الخوارزميات في تحديد الصلة وترتيب المعلومات وفي تحليل الخيارات والمؤسسات التي تقف وراء العمليات الحسابية التي تنظم ما يظهر للمستخدم(direct.mit.edu) .

[10] **Hallinan, Blake & Striphas, Ted.** "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.

مرجع مهم لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل الطريقة التي تدخل بها أنظمة التوصية في تنظيم التفضيلات والاختيارات الثقافية، وهو ما يفيد في دراسة القارئ الاجتماعي والقارئ الذي يعيش داخل بيئة مخصصة (Sage Journals) .

[11] **Bucher, Taina.** *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

تقدم بوخر تحليلًا للقوة الخوارزمية يبين أن عمليات المعالجة والتصنيف والترتيب تسهم في جعل بعض جوانب العالم أكثر ظهورًا من غيرها، وهو ما يشكل أساسًا مهمًا لفكرة الوعي النقدي بالوسيط ومقاومة التعامل معه بوصفه قناة محايدة(OUP Academic) .

[12] **Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German.** "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035.

تفيد الدراسة في تأسيس مفهوم الوعي أو محو الأمية الخوارزمية، وتوضح أن معرفة المستخدمين بالخوارزميات ترتبط كذلك بالمواقف والسلوكيات التي يتخذونها تجاهها، وهو ما يستثمره هذا الكتاب في بناء مفهوم القارئ الهجين النقدي(OUP Academic) .

[13] Velkova, Julia & Kaun, Anne. "Algorithmic Resistance: Media Practices and the Politics of Repair." *Information, Communication & Society*, Vol. 24, No. 4, 2021, pp. 523–540. DOI: 10.1080/1369118X.2019.1657162.
يمثل مرجعًا مهمًا لمفهوم المقاومة الخوارزمية ودراسة ممارسات المستخدمين في التفاوض مع الأنظمة الخوارزمية والتعامل النقدي مع سلطتها، ويُستفاد منه في هذا الفصل لتطوير مفهوم العصيان القرائي ومقاومة المسارات التي تفرضها التوصيات والتخصيص(Taylor & Francis Online) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم المرجعيات السابقة بحسب درجات الهجنة نفسها؛ إذ يسمح بولتر وغروسن وهايلز [1–2] بفهم الانتقال بين الوسائط بوصفه تداخلًا وإعادة تشكيل، ويقدم لاندو [3] الخلفية الأساسية للقارئ الشبكي والنص التشعبي، بينما يؤسس بيانزولا [4] لفهم القارئ الاجتماعي ومجتمعات القراءة الرقمية، وتساعد دراسات الترجمة والعقل الممتد [5–6] على بناء مفهوم القارئ المعزز وتوزيع بعض الوظائف المعرفية، في حين يوفر سوندار وبندر وزملاؤها [7–8] إطارًا لفهم الانتقال إلى القارئ التوليدي مع الحفاظ على التمييز بين الفاعلية الآلية والخبرة البشرية، وأخيرًا تسمح أعمال غيليسبي وهالينان وستريبهاس وبوخر وأودلف-هيرش ونويباوم وفيلكوفا وكاون [9–13] بتأسيس القارئ الهجين النقدي بوصفه قارئًا يضيف إلى استخدام الخوارزمية القدرة على رؤيتها ومساءلتها ومقاومة بعض آثارها.

وبهذا يتحول طيف الهجنة من مجرد تدرج تقني إلى تدرج في وعي القارئ بتوزيع الوظائف والسلطة داخل فعل القراءة، وهو ما يجعل الانتقال من القارئ الهجين البسيط إلى القارئ الهجين النقدي انتقالًا من استعمال الوسائط إلى امتلاك القدرة على إدارة الوساطة نفسها.

الفصل السادس

العقل الممتد والذات القارئة الموزعة

إذا كان الفصل السابق قد انتهى إلى أن القارئ الهجين لا ينبغي أن يُعرَّف بكثرة الأدوات التي يستخدمها، وإنما بطبيعة توزيع الوظائف بينه وبين بيئته التقنية وبقدرته على الاحتفاظ بالسيادة التأويلية، فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذه المرحلة يتعلق بالأساس المعرفي الذي يجعل هذا التوزيع ممكنًا أصلًا، لأن الحديث عن قارئ يستخدم محركات البحث والذاكرة السحابية والترجمة الآلية والمساعدات التوليدية لا يكفي ما لم نحدد ما إذا كانت هذه الأدوات تظل خارج فعل القراءة باعتبارها وسائل مساعدة منفصلة، أم أنها تستطيع، في بعض الشروط، أن تدخل في التنظيم الفعلي للعمليات المعرفية التي تقوم عليها القراءة. ومن هنا يصبح الانتقال إلى فلسفة العقل الممتد والإدراك الموزع والتفويض المعرفي ضروريًا، لا لكي نحول نظرية القراءة إلى فرع من علوم الإدراك، ولا لكي نعلن أن الحاسوب أو الهاتف قد أصبحا أجزاء حرفية من عقل القارئ، وإنما لكي نعيد التفكير في الحدود التقليدية التي تفصل ما يحدث «داخل» القارئ عما يحدث «خارجه»، ونسأل عن الكيفية التي أصبحت بها البيئة التقنية تشارك في الحفظ والاسترجاع والتنظيم والبحث والمقارنة والتوجيه، وهي وظائف كانت تنسب في نماذج كثيرة إلى الفرد بوصفه الوحدة الأساسية للفعل المعرفي.

يكتسب هذا السؤال أهميته من أن تاريخ القراءة نفسه، كما أوضحت الفصول السابقة، كان تاريخًا مستمرًا للاستعانة بوسائط خارجية؛ فالكتابة منذ ظهورها مثلت شكلًا من إخراج المعرفة من الذاكرة الفردية إلى العلامة المادية، والمخطوط والكتاب المطبوع والمكتبة والفهرس والهامش والبطاقة البيبليوغرافية كلها أدوات جعلت الإنسان قادرًا على بناء معرفة تفوق ما يستطيع الاحتفاظ به داخل ذاكرته البيولوجية في لحظة واحدة. غير أن التحول الرقمي رفع هذه العلاقة إلى درجة جديدة، لأن الوسيط

الخارجي لم يعد مجرد مخزن ينتظر أن يعود إليه القارئ، بل أصبح قادرًا على الاسترجاع السريع والترتيب الآلي والتخصيص والربط، ثم أضاف الذكاء الاصطناعي التوليدي قدرة على إعادة الصياغة والتلخيص والمقارنة واقتراح الإجابات، وهو ما يجعل الحدود بين «ما يعرفه القارئ» و«ما يستطيع الوصول إليه» و«ما يستطيع النظام أن يبنيه له عند الطلب» أكثر تعقيدًا مما كانت عليه في الثقافة المطبوعة.

ولهذا يقترح الفصل مفهوم »**الذات القارئة الموزعة** «بوصفه مفهومًا إجرائيًا يساعد على فهم القارئ الذي لا ينحصر نشاطه داخل الذاكرة الفردية، بل ينجز بعض وظائف القراءة بواسطة شبكة من الموارد الداخلية والخارجية، من دون أن يعني ذلك أن الذات قد تفتت أو أن المسؤولية أصبحت موزعة بصورة متساوية بين الإنسان والآلة. فالتوزيع الذي يهم هذا الكتاب توزيع وظيفي، أما المسؤولية التأويلية فتبقى مرتبطة بالقارئ البشري الذي يحدد غاية القراءة، ويقرر متى يستخدم الأداة، ويقيم صحة ما تسترجعه أو تولده، ويختار ما سيدخله في فهمه. ومن هنا يصبح الفصل محاولة لبناء توازن بين فكرتين ينبغي ألا تلغي إحداهما الأخرى: الأولى أن العقل القارئ ليس معزولًا عن أدواته وبيئته، والثانية أن الاعتراف بهذا الارتباط لا يبرر نقل سلطة الحكم من الإنسان إلى النظام.

المبحث الأول: مفهوم العقل الممتد

حدود العقل البيولوجي

طرح آندي كلارك وديفيد تشالمرز في مقالتهما الشهيرة «العقل الممتد» سؤالًا أصبح من أكثر الأسئلة تأثيرًا في فلسفة العقل المعاصرة: أين ينتهي العقل وأين يبدأ العالم؟ وقد رفضا الاقتصار على الافتراض الذي يجعل حدود الجلد والجمجمة حدودًا تلقائية لكل العمليات المعرفية، واقترحا بدل ذلك صورة لما أسمياه «الخارجية النشطة»، حيث تستطيع عناصر من البيئة أن تؤدي، في شروط معينة، دورًا سببيًا ووظيفيًا داخل نظام معرفي أوسع [1]. وتوضح الصياغة الأصلية للمقال أن الفكرة لا تتعلق بمجرد تأثير البيئة في العقل من الخارج، لأن كل معرفة بشرية تتأثر بالبيئة بهذا المعنى العام، وإنما تتعلق بإمكان أن تدخل بعض العناصر الخارجية نفسها في الحلقة التي تنجز الوظيفة المعرفية، بحيث يصبح من التعسف أحيانًا تفسير النشاط بالنظر إلى الدماغ وحده .

ولا تعني هذه الأطروحة أن كل شيء نستعمله يتحول إلى جزء من العقل، كما لا تعني أن وجود كتاب على الرف يجعل محتواه جزءًا من ذاكرة صاحبه، لأن مفهوم الامتداد يحتاج إلى علاقة وظيفية واستقرار واعتماد يمكن بسببهما للأداة أن تدخل بصورة منتظمة في سير النشاط. وقد أثارت أطروحة كلارك وتشالمرز نقاشًا واسعًا حول شروط الامتداد وحدوده والتمييز بين ما هو جزء من النظام المعرفي وما هو مجرد مورد يستعين به الفرد، وهو النقاش الذي جمع ريتشارد ميناري عددًا من اتجاهاته في كتاب *The Extended Mind* [2]. وتؤكد الأدبيات الناتجة عن هذا الجدل أن قوة الأطروحة لا تكمن في محو الفرق بين الداخل والخارج بصورة اعتباطية، بل في إجبار النظرية المعرفية على تبرير السبب الذي يجعل العملية المنجزة بمساعدة مورد خارجي أقل «معرفية» لمجرد أن جزءًا منها يقع خارج الجمجمة .

وتكتسب هذه المسألة أهمية مباشرة بالنسبة إلى القراءة، لأن القارئ لم يكن تاريخيًا كائنًا مكتفيًا بذاكرته الداخلية، بل ظل يعتمد على النص نفسه بوصفه مخزنًا خارجيًا يمكن الرجوع إليه، وعلى الهوامش والفهارس والملاحظات والمعاجم بوصفها أجهزة مساندة للفهم والاسترجاع، غير أن البيئة الرقمية رفعت سرعة التكامل بين القارئ وهذه الموارد إلى مستوى يجعل العودة إلى الخارج جزءًا شبه لحظي من سير التفكير. فإذا واجه القارئ اسمًا نسيه، لم يعد مضطرًا إلى الاحتفاظ بالسؤال حتى يصل إلى مكتبة أو موسوعة، بل يستطيع استرجاعه في ثوان، وإذا أراد مقارنة فقرتين في كتابين مختلفين يمكنه استدعاؤهما في نافذتين متجاورتين، وإذا احتاج إلى تنظيم عشرات الملاحظات يستطيع البحث فيها بعبارة واحدة. ومن هنا يصبح من المشروع السؤال عما إذا كانت القراءة الرقمية المتقدمة لا تغير حجم المعلومات المتاحة فقط، بل تغير كذلك الموقع الذي تؤدى فيه بعض الوظائف المعرفية.

وقد دفع كلارك نفسه أطروحة الامتداد إلى صياغة أكثر تفصيلًا في *Supersizing the Mind*، حيث دافع عن تصور للعقل يرى أن التفكير البشري يمكن أن يتشكل من حلقات تتقاطع فيها عمليات الدماغ والجسد والعالم، وأن الموارد الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية تستطيع أن تعمل بوصفها «سقالات» معرفية توسع قدرات الفرد [3]. ويكتسب مفهوم السقالة أهمية خاصة في هذا الكتاب، لأنه يتيح تجنب القول إن الأداة «تفكر» مثل الإنسان، وفي الوقت نفسه يسمح بالاعتراف بأن بعض أنماط التفكير لا يمكن وصفها وصفًا كاملًا إذا حذفنا الأداة التي يعتمد عليها الفاعل بصورة منظمة. وتقدم Oxford University Press كتاب كلارك باعتباره دفاعًا عن مقاربة للعقل تتجاوز الرؤية «المحبوسة في الدماغ» وتعترف بأهمية الجسد والفعل والبيئة والوسائط التقنية في تنظيم النشاط المعرفي .[3]

ومن هذه الزاوية يمكن صياغة السؤال الخاص بالقراءة على النحو الآتي: هل القارئ الذي يبني حجته مستعينًا بذاكرته الشخصية وقاعدة بيانات للملاحظات ومحرك بحث ونظام استرجاع ذكي يقوم بالفعل المعرفي نفسه

الذي يقوم به قارئ يعتمد على ذاكرته الداخلية وحدها؟ الجواب لا ينبغي أن يكون أن الأول فقد فاعليته لمجرد الاستعانة بالخارج، كما لا ينبغي أن يكون أن جميع العناصر أصبحت عقلًا واحدًا بالمعنى الحرفي، بل يمكن القول إننا أمام نظام قراءة موسع وظيفيًا، حيث تتوزع بعض العمليات على موارد متعددة بينما يظل القارئ هو الطرف الذي يحدد الغرض ويراجع النتائج.

وهذا التمييز مهم لأنه يسمح بتأسيس مفهوم القارئ الهجين على أرضية معرفية أكثر دقة؛ فالهجنة لا تبدأ عند وجود الجهاز قرب القارئ، وإنما عندما تدخل الأداة في دورة متكررة من الفعل والاستجابة وتصبح جزءًا من استراتيجية إنجاز المهمة. وإذا احتاج القارئ إلى البحث مرة استثنائية عن معلومة لا يعرفها، فقد يكون الأمر استعانة خارجية بسيطة، أما إذا كانت طريقته المعتادة في التفكير تقوم على كتابة الملاحظات في نظام رقمي قابل للبحث، وربطها بالنصوص، واستدعاء أدوات تحليلية أثناء القراءة، فإن البنية المعرفية للممارسة نفسها تصبح أكثر توزيعًا.

الأدوات بوصفها امتدادًا للإدراك

تكشف الأدوات المعرفية أن الإنسان لم يتطور ثقافيًا عن طريق زيادة قدرته الداخلية وحدها، بل عن طريق ابتكار بيئات وأجسام تسمح له بتقليل بعض الأعباء وتكبير بعض الإمكانات، فالقلم والورقة يسمحان بالحساب خارج الذاكرة العاملة، والخريطة تحول فضاءً جغرافيًا معقدًا إلى تمثيل يمكن النظر إليه، والفهرس يجعل آلاف الكتب قابلة للتنظيم، والمذكرة الخارجية تحول نية مستقبلية إلى علامة في العالم. ومن ثم لا تكون الأداة مجرد قناة لتنفيذ قرار اتخذ مسبقًا في الرأس، بل تستطيع أن تغير نوع المشكلة نفسها وتجعل عمليات لم تكن ممكنة أو كانت شديدة الصعوبة قابلة للتنفيذ.

وينطبق ذلك على القراءة بصورة واضحة، لأن وضع خط تحت فقرة أو كتابة هامش ليس فعلًا يقع بعد الفهم فقط، بل يمكن أن يدخل في تشكيله؛ فالقارئ حين يكتب سؤالًا بجوار النص يخرج جزءًا من عملية التفكير إلى

الصفحة، ويستطيع بعد ذلك أن يعامل السؤال المكتوب باعتباره موضوعًا جديدًا للتأمل، كما أن ترتيب الاقتباسات في بطاقات أو ملفات يسمح برؤية علاقات لم تكن ظاهرة وهي موزعة بين مئات الصفحات. ومن هنا يتضح أن الأدوات لا تحفظ النتائج وحدها، بل تستطيع أن تشارك في إنتاج شروط ظهور النتائج.

ويقدم كلارك في *Supersizing the Mind* أمثلة على استخدام الرموز والملاحظات والأدوات الخارجية بوصفها أجزاء من حلقات التفكير، مؤكدًا أن بعض العمليات الإنسانية المتقدمة تتشكل من تغذية راجعة مستمرة بين النشاط العصبي والمواد الموجودة في العالم [3]. ولا نحتاج في نظرية القراءة إلى تبني جميع النتائج الميتافيزيقية لهذه الأطروحة، لكن يمكن الاستفادة من مبدئها الوظيفي: عندما يكون الوسيط الخارجي جزءًا ثابتًا من الطريقة التي ينظم بها القارئ المشكلة ويعيد تمثيلها ويستخرج العلاقات منها، فإن تجاهله يترك وصفًا ناقصًا لفعل القراءة

غير أن الانتقال من الأدوات التقليدية إلى الأدوات الخوارزمية يضيف فرقًا نوعيًا، لأن الورقة لا تعيد ترتيب ما كتب عليها من تلقاء نفسها، بينما يستطيع النظام الرقمي البحث والتصنيف والاقتراح، كما أن دفتر الملاحظات لا يولد جوابًا جديدًا، بينما يستطيع النظام التوليدي أن ينتج ملخصًا أو مقارنة أو فرضية. ولذلك فإننا ننتقل من أدوات يمكن وصفها بأنها امتدادات ساكنة نسبيًا للإدراك إلى أدوات فاعلة وظيفيًا تستطيع معالجة المواد والاستجابة للمستخدم. وهذا التحول لا يجعلها ذواتًا واعية، لكنه يزيد مقدار تأثيرها في سير العملية المعرفية ويضاعف الحاجة إلى تحديد موقع القرار البشري.

ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال من الامتداد داخل القراءة: امتداد تخزيني تحفظ فيه الأداة ما لا يريد القارئ حمله في ذاكرته، وامتداد تشغيلي تساعد فيه الأداة على البحث والترتيب والمقارنة، وامتداد اقتراحي تولد فيه الأداة فرضيات أو تلخيصات أو علاقات جديدة يمكن أن تؤثر في

الفهم. وكل انتقال من المستوى الأول إلى الثالث يقرب الأداة أكثر من قلب العملية التأويلية، لكنه في الوقت نفسه يجعل ضرورة التحقق والنقد أكثر إلحاحًا.

ولا ينبغي أن يقودنا الحديث عن الامتداد إلى الاعتقاد بأن قيمة الأداة تكمن في تخفيف كل جهد، لأن بعض أوجه الجهد نفسها جزء من التعلم. فإذا كان الهدف من القراءة بناء ذاكرة للمفاهيم، فإن جعل النظام يسترجعها دائمًا قد يحرم القارئ من ممارسة الاسترجاع، وإذا كان الهدف تعلم بناء الحجة فإن تفويض تلخيصها وتحليلها إلى الآلة قد ينتج نتيجة جيدة خارجيًا لكنه لا يضمن تشكل الكفاءة داخليًا. ومن هنا يصبح السؤال التربوي والنقدي هو تحديد أي الجهود قابلة للتخفيف وأيها ينبغي الاحتفاظ بها لأنها هي النشاط الذي نريد تنميته.

المبحث الثاني: الإدراك الموزع

توزيع العمليات المعرفية

إذا كان مفهوم العقل الممتد يبدأ من سؤال حدود العقل الفردي، فإن نظرية الإدراك الموزع تنقل الاهتمام إلى مستوى أوسع هو مستوى النظام الذي تنجز داخله المهمة، وقد قدم إدوين هاتشنز في *Cognition in the Wild* أحد أكثر النماذج تأثيرًا لهذا الاتجاه من خلال دراسته لعمليات الملاحة على السفن، حيث أظهر أن الإنجاز المعرفي لا يمكن فهمه بالتركيز على عقل فرد واحد، لأنه يتوزع بين أفراد ذوي أدوار مختلفة وأدوات وتمثيلات وإجراءات اجتماعية تشكل مجتمعة نظامًا قادرًا على إنجاز المهمة [4]. ولا يعني ذلك أن «الجماعة» تمتلك عقلًا بالمعنى الحرفي نفسه الذي يمتلكه الفرد، بل إن مستوى النظام يكشف خصائص وعمليات لا تظهر إذا عزلنا كل عنصر عن بقية العناصر .

وتكتسب هذه الرؤية قيمة خاصة في دراسة القراءة الهجينة، لأن فعل القراءة الذي يبدو فرديًا يمكن، عند تفكيكه، أن يتبين أنه يعتمد على توزيع مستمر للوظائف: فالقارئ يحتفظ بجزء من السياق في ذاكرته، والنص يحمل جزءًا آخر، ونظام الملاحظات يسجل علاقات سابقة، ومحرك البحث يسترجع مرجعًا، والمنصة ترتب المواد، وقد يولد النظام الذكي تفسيرًا أوليًا، ثم يعود الإنسان لدمج هذه العناصر داخل موقفه. ومن هنا لا تصبح وحدة التحليل المناسبة دائمًا «العقل الذي يقرأ» بمعزل عن العالم، بل قد تصبح منظومة قراءة تتكون من القارئ والنص والواجهة والأداة والذاكرة الخارجية والخوارزمية والسياق.

ويتيح هذا النموذج تفسير بعض الاختلافات بين القارئ التقليدي والقارئ الهجين بصورة أكثر دقة، لأن الفرق لا يكمن في أن الأول يستخدم العقل والثاني يستخدم الآلة، فالاثنان يستخدمان أدوات وبيئات خارجية بدرجات متفاوتة، وإنما يكمن في مقدار التنظيم الذي أصبح ينتقل من الإنسان إلى البيئة التقنية. فحين يستخدم القارئ فهرسًا مطبوعًا يظل هو الذي يربط بين

الكلمات والمرجع، أما محرك البحث فينفذ عملية واسعة من الفهرسة والترتيب قبل أن يعرض النتائج، وحين يضع الشخص بطاقات اقتباس فهو الذي يرتبها، أما برنامج إدارة المعرفة فيستطيع أن يبحث فيها آليًا ويربط بينها، وحين يسأل مساعدًا توليديًا قد يحصل على مقارنة كاملة بين مفاهيم لم يجمعها يدويًا من قبل. وهكذا يتسع التوزيع من التخزين إلى المعالجة.

لكن مفهوم الإدراك الموزع يحذر في الوقت نفسه من خطأ اختزال نجاح النظام في أداة واحدة، لأن الأداء لا يعتمد على التقنية فقط بل على تنظيم العلاقة بين العناصر. فإذا كان النظام يقدم معلومات كثيرة لكن القارئ لا يستطيع تقييمها، فإن التوزيع لا ينتج بالضرورة معرفة أفضل، وإذا كانت الأداة قوية لكن صياغة السؤال ضعيفة، فقد يكون المخرج محدودًا، وإذا كانت المصادر غير مناسبة فإن سرعة المعالجة لن تصلح المشكلة. ومن هنا ينبغي أن ندرس القارئ الهجين بوصفه منسقًا لنظام معرفي أكثر من كونه مستخدمًا سلبيًا لآلة ذكية.

ويترتب على هذا التحول مفهوم مهم هو «هندسة البيئة القرائية»، لأن القارئ لا يكتفي باختيار النص، بل يمكنه أن يختار كذلك الأدوات التي تحيط به وطريقة توزيع الوظائف بينها، فيحدد ما الذي سيحتفظ به في الملاحظات، وما الذي سيستدعيه من قاعدة بيانات، وما المهمة التي سيطلبها من الذكاء الاصطناعي، وما المرحلة التي سيقرأ فيها دون مساعدة. ومن هنا تصبح الكفاءة في البيئة الهجينة مرتبطة بقدرة الفرد على تصميم النظام الذي يقرأ من خلاله، بحيث لا يكون توزيع الوظائف عشوائيًا أو مفروضًا بالكامل من المنصة.

الإنسان والبيئة التقنية

لا توجد العمليات المعرفية البشرية خارج بيئة ثقافية وتقنية، لأن الأدوات والرموز والمؤسسات لا تأتي بعد العقل بوصفها إضافات محايدة، بل تشكل جزءًا من العالم الذي يتعلم الإنسان داخله التفكير. وقد وسعت ن. كاثرين

هايلز هذا المنظور من خلال مفهوم «التكوين التقني المعاصر»، الذي يركز على التطور المتبادل بين الإنسان والتقنيات، ويؤكد أن التفكير يحدث «من خلال الوسائط ومعها وإلى جانبها» [8]. ومن هنا لا يكون السؤال فقط ماذا تفعل التقنية بعقل موجود مسبقًا، بل كذلك ما العادات والكفايات وأنماط الانتباه والذاكرة التي تتشكل عندما يعيش الفرد طويلًا داخل بيئة تقنية معينة

ويظهر هذا بوضوح في القراءة الرقمية؛ فالقارئ الذي اعتاد البحث داخل النص يطور استراتيجية مختلفة عن قارئ يعتمد على التذكر المكاني للصفحة، والذي يستخدم الملاحظات السحابية يتعلم أن جزءًا من ذاكرته القرائية قابل للاستدعاء من أي جهاز، والذي يعتمد على الروابط يستطيع أن يبني مسارًا بين مصادر متباعدة، بينما يتعلم القارئ التوليدي أن بعض الأسئلة يمكن تحويلها فورًا إلى حوار مع نظام. ولا تبقى هذه الممارسات خارجية تمامًا، لأنها مع التكرار تصبح عادات في تنظيم المشكلة نفسها.

لكن البيئة التقنية ليست تحت سيطرة القارئ بالكامل، لأن الأدوات تأتي بتصميمات وافتراضات وأولويات تحدد ما هو سهل وما هو صعب، وقد تجعل بعض أشكال السلوك افتراضية. فالمنصة التي تضع البحث في الواجهة تشجع نمطًا معينًا من الاسترجاع، والتي تعرض التوصيات باستمرار تجعل الاكتشاف المخصص جزءًا من القراءة، والنظام الذي يقدم ملخصًا بنقرة واحدة يقلل الاحتكاك الذي كان يفصل القارئ عن عملية التلخيص. ومن هنا لا يقتصر الإدراك الموزع على أن الإنسان يمد عقله إلى البيئة، بل يجب أن نعترف كذلك بأن البيئة تعيد تشكيل المسارات التي يتحرك فيها العقل.

وهذا ما يجعل مفهوم الذات القارئة الموزعة بحاجة إلى بعد نقدي؛ فالتوزيع ليس قرارًا حرًا دائمًا، بل قد يُفرض جزئيًا من تصميم النظام، وقد يصبح المستخدم مع مرور الوقت معتمدًا على وظائف لم يختر أصلًا أن تكون مركزية في ممارسته. ولذلك ينبغي للقارئ الهجين أن يستطيع التمييز بين

التوزيع الذي يديره والتوزيع الذي تديره المنصة نيابة عنه، لأن الأول يمكن أن يمثل توسعًا في الفاعلية، بينما قد يتحول الثاني إلى شكل من أشكال التوجيه غير المرئي.

المبحث الثالث: الذاكرة الخارجية

محركات البحث بوصفها ذاكرة

تمثل الذاكرة الخارجية واحدة من أقدم صور امتداد المعرفة البشرية، لأن الكتابة نفسها تحفظ ما يتجاوز قدرة الفرد على التذكر، غير أن محركات البحث أحدثت تحولًا مهمًا في طبيعة هذا الامتداد عندما جعلت الوصول إلى المخزون الخارجي سريعًا إلى درجة تسمح له بالدخول مباشرة في سير التفكير. وقد أظهرت دراسة بيتسي سبارو وجيني ليو ودانييل فيغنر سنة 2011 أن توقع إمكان الوصول المستقبلي إلى المعلومات يمكن أن يرتبط بانخفاض تذكر المعلومات نفسها وارتفاع تذكر المكان الذي يمكن العثور عليها فيه، وهو ما دفع الباحثين إلى وصف الإنترنت بوصفه شكلًا من الذاكرة الخارجية أو «التبادلية» [6]. ولا تعني هذه النتيجة أن محركات البحث تدمر الذاكرة أو أن الإنسان توقف عن التذكر، بل تكشف تحولًا في استراتيجية التذكر، حيث يصبح السؤال أحيانًا «أين توجد المعلومة؟» بدل «ما المعلومة نفسها؟ .«

وترتبط هذه الفكرة بمفهوم «الذاكرة التبادلية» الذي طوره دانييل فيغنر في سياق دراسة الجماعات، حيث تستطيع مجموعة من الأفراد أن تبني نظامًا معرفيًا يعتمد كل عضو فيه على معرفة من يعرف ماذا، وبذلك لا يحتاج الجميع إلى الاحتفاظ بالمعلومات نفسها ما دام النظام الجماعي يسمح باستعادتها عند الحاجة [5]. وقد صيغ هذا المفهوم قبل الإنترنت بسنوات طويلة، لكنه أصبح مرجعًا مناسبًا لفهم جزء من علاقتنا بمحركات البحث، لأن المستخدم قد لا يحتفظ بالمعلومة ذاتها لكنه يحتفظ ضمنيًا بمعرفة أن الشبكة تستطيع استعادتها .

ويذهب أدريان وورد إلى أن العلاقة بالإنترنت قد تتجاوز الاستعانة العرضية إلى نمط يجعل الشبكة موردًا معرفيًا حاضرًا باستمرار في تشكيل ما نحاول تذكره وكيف نحل المشكلات، وهو ما يزيد أهمية التمييز بين الذاكرة الداخلية والذاكرة المتاحة خارجيًا [7]. ولا ينبغي فهم هذه العلاقة

بطريقة صفرية تفترض أن زيادة أحد الطرفين تساوي نقص الآخر دائمًا، لأن الذاكرة الخارجية تستطيع تحرير موارد بشرية للتركيب والتحليل إذا كان القارئ يملك بنية داخلية كافية لتقييم ما يسترجعه، لكنها تستطيع في المقابل أن تنتج اعتمادًا هشًا إذا أصبحت المعرفة الشخصية لا تتجاوز معرفة المسار إلى المعلومة .

ويظهر هذا الفرق بوضوح في القراءة البحثية؛ فالباحث لا يحتاج إلى حفظ كل أرقام الصفحات والمراجع، ويمكن لنظام خارجي أن يقوم بهذه الوظيفة بكفاءة أكبر، لكن عليه أن يمتلك داخل ذاكرته طويلة المدى خريطة مفهومية للمجال تسمح له بفهم لماذا هذا المرجع مهم وكيف يرتبط بغيره. ومن هنا يمكن القول إن البيئة الرقمية تعيد توزيع الذاكرة على مستويين :ذاكرة للتفاصيل يمكن نقل جزء كبير منها إلى الخارج، وذاكرة للبنية والمفاهيم ينبغي أن تبقى قوية داخل القارئ حتى يستطيع استخدام التفاصيل الخارجية استخدامًا ذا معنى.

وتصبح المشكلة أكثر تعقيدًا مع الذكاء الاصطناعي التوليدي، لأن القارئ لم يعد يستدعي المعلومة من مخزن فقط، بل قد يطلب من النظام أن يعيد تركيب عدد من المعلومات في جواب جديد، وعندها ينتقل الاعتماد من «الذاكرة الخارجية» إلى ما يمكن تسميته الذاكرة الخارجية المولدة، حيث لا يسترجع المستخدم شيئًا محفوظًا بالصيغة نفسها، بل يحصل على بناء جديد استنادًا إلى معالجة النظام. وهذه النقلة تزيد الفائدة المحتملة، لكنها تجعل التحقق أكثر ضرورة، لأن استرجاع الصفحة الأصلية يسمح للقارئ بمراجعة المصدر، بينما الجواب المركب قد يخفي الحدود بين المعلومة والاستنتاج.

السحابة والمحفوظات الرقمية

أحدث التخزين السحابي تحولًا آخر في معنى الذاكرة الخارجية، لأن الملاحظات والصور والوثائق والكتب لم تعد مرتبطة بجهاز أو مكان واحد، بل أصبحت قابلة للاستدعاء من بيئات مختلفة، وهو ما يجعل الذاكرة

الشخصية نفسها أكثر انفصالًا عن الجسم المادي الذي كانت تحفظ فيه. وقد درست خوسيه فان دايك التحول من وسائل الذاكرة التناظرية إلى الرقمية من زاوية العلاقة بين التكنولوجيا والذاكرة الشخصية والهوية، مبينة أن أدوات الوساطة تدخل في الطريقة التي نحفظ بها الماضي ونستعيده ونمنحه معنى [8]. وينطبق المبدأ نفسه على القراءة، لأن سجل الاقتباسات والتعليقات والكتب والملاحظات الرقمية لا يمثل مجرد أرشيف خام، بل يصبح جزءًا من الطريقة التي يعيد القارئ من خلالها تركيب تاريخه القرائي .

ويتميز الأرشيف الرقمي عن دفتر الملاحظات التقليدي بقدرات البحث والنسخ والترتيب والربط، ولذلك لا يعمل فقط بوصفه مخزنًا بل بوصفه بنية قابلة للحوسبة .يستطيع القارئ أن يبحث في عشر سنوات من الملاحظات بعبارة واحدة، وأن يجمع كل ما كتبه حول مفهوم معين، وأن يربط الكتاب بملخصاته ومراجعاته ومصادره، وهو ما يجعل الذاكرة الخارجية أكثر قابلية للدخول في لحظة التفكير. وفي هذا المعنى لا يكون الأرشيف امتدادًا كميًا للذاكرة فقط، بل تغيرًا في كيفية استرجاع الماضي القرائي.

غير أن سهولة التخزين تنتج مشكلة مقابلة هي تضخم المحفوظات؛ فحين يصبح حفظ كل شيء رخيصًا، تنتقل المشكلة من عدم القدرة على الاحتفاظ إلى عدم القدرة على معرفة ما يستحق العودة إليه، ولذلك تظهر أنظمة التصنيف والبحث والترشيح باعتبارها وسائط داخل الذاكرة نفسها. وهنا تدخل الخوارزمية مرة أخرى، لأن القارئ قد لا يتذكر ما حفظه إلا حين يقترحه النظام أو يعثر عليه عبر بحث، وبذلك تصبح علاقته بماضيه المعرفي جزئيًا علاقة موسطة بأدوات تنظيم لا يسيطر على جميع منطقها.

ومن هنا يمكن التمييز بين ذاكرة خارجية تحت إدارة القارئ، مثل نظام ملاحظات يبنيه هو ويحدد تصنيفاته، وذاكرة خارجية تحت إدارة المنصة، حيث تحدد الأداة كيفية الترتيب والاسترجاع وربما ما يظهر تلقائيًا. وتزداد

السيادة المعرفية كلما كان القارئ قادرًا على فهم بنية أرشيفه والبحث فيه ونقل مواده والتحقق من أصولها، بينما تضعف عندما يصبح تاريخ القراءة محبوسًا في نظام مغلق لا يستطيع الفرد رؤية منطقه أو الوصول إليه خارج واجهته.

وتطرح هذه المسألة سؤالًا آخر يتعلق بالنسيان، لأن الذاكرة البشرية لا تقوم على الحفظ الكامل، بل على عمليات من الانتقاء وإعادة التنظيم، بينما تستطيع البيئة الرقمية أن تحتفظ بتفاصيل لم يعد الإنسان يتذكرها. ولا يعني ذلك أن الحفظ المستمر سيئ، لكنه يجعل إدارة المحفوظات جزءًا من الكفاءة؛ فالقارئ يحتاج أحيانًا إلى حذف المواد المتكررة وإعادة تصنيفها وتحديد ما هو مركزي، وإلا تحول الأرشيف من امتداد للذاكرة إلى كتلة من البيانات التي لا تضيف معرفة. ومن هنا يصبح التنظيم والنسيان الانتقائي جزءًا من هندسة الذات القارئة الموزعة.

المبحث الرابع: التفويض المعرفي

تفويض الاسترجاع للآلة

يختلف التفويض المعرفي عن مجرد استخدام الأداة في أن القارئ ينقل إليها وظيفة كان يمكن، من حيث المبدأ، أن يقوم بها بنفسه، ويعتمد على نتيجتها لتقليل العبء المعرفي. وقد قدم إيفان ريسكو وسام غيلبرت مفهوم «التفريغ المعرفي» أو *cognitive offloading* **بوصفه استخدام فعل أو مورد خارجي لتغيير متطلبات معالجة المهمة وتقليل العبء الداخلي، وأظهرا أن الميل إلى هذا السلوك لا يعتمد فقط على صعوبة المهمة بل كذلك على تقييم الفرد لقدراته المعرفية** [9]**. وتكتسب هذه الفكرة أهمية كبيرة في القراءة الهجينة لأن الهاتف ومحرك البحث والتذكير الرقمي والآلة الحاسبة والمساعد التوليدي كلها تستطيع أن تصبح وسائل لتفريغ جزء من العمل إلى الخارج .**

ولا يحمل التفويض قيمة سلبية في ذاته؛ فالعقل البشري محدود ، ومن غير المعقول مطالبة القارئ بحفظ جميع التواريخ والأسماء والمراجع التي يستطيع استرجاعها بسهولة، بل إن نقل بعض الأعباء الروتينية إلى الخارج قد يتيح موارد أكبر للتحليل، كما أن الباحث المتمرس لا يقاس بقدرته على حفظ كل صفحة بل بقدرته على معرفة أي مرجع يحتاج إليه وكيف يضعه داخل الحجة. ولذلك فإن الاسترجاع الآلي يمكن أن يمثل تفويضًا منتجًا عندما يخفف وظيفة منخفضة القيمة بالنسبة إلى الهدف ويترك للإنسان المهمة العليا.

لكن التفويض يصبح أكثر إشكالًا عندما ينتقل من التفاصيل إلى البنية، لأن القارئ الذي يفوض كل عمليات التذكر قد يفقد تدريجيًا المادة الداخلية التي يحتاج إليها للحكم على ما يسترجعه. فإذا بحث شخص عن كل معلومة منفردة دون أن يبني إطارًا معرفيًا مستقرًا، فقد يصبح قادرًا على الوصول إلى الأجوبة وغير قادر على رؤية تناقضاتها. ومن هنا يمكن القول

إن التفويض الصحي يحتاج إلى حد أدنى من المعرفة الداخلية يراقب المعرفة الخارجية.

ويظهر هذا الشرط بصورة خاصة في استخدام الذكاء الاصطناعي، لأن سهولة طرح السؤال والحصول على جواب قد تغري القارئ بتفويض الاسترجاع حتى في المواضع التي تكون فيها محاولة التذكر نفسها جزءًا من التعلم. ومن هنا يصبح «متى أبحث؟» سؤالًا تربويًا لا يقل أهمية عن «كيف أبحث؟»، لأن الاستدعاء السريع مفيد بعد أن يكون المفهوم قد بُني، لكنه قد يعيق بناءه إذا حل دائمًا محل محاولة الاسترجاع الداخلية.

ويعتمد القارئ الهجين الناضج، لذلك، مبدأ **التفويض الانتقائي**، حيث لا يحدد ما ينقله إلى الآلة بحسب قدرتها على القيام بالمهمة فقط، بل بحسب قيمة المهمة في بناء كفايته. فإذا كانت الوظيفة روتينية أو تتعلق بتفصيل يمكن التحقق منه بسهولة، قد يكون التفويض عقلانيًا، أما إذا كانت الوظيفة هي جوهر المهارة التي يريد القارئ تنميتها، فإن الاحتفاظ بها في الجانب البشري يصبح ضروريًا.

تفويض التلخيص والتحليل

يمثل تفويض التلخيص والتحليل مستوى أكثر حساسية من تفويض الاسترجاع، لأن القارئ لم يعد ينقل إلى الأداة مهمة العثور على معلومة، بل ينقل جزءًا من عملية تحديد ما هو مهم وبناء العلاقات بين العناصر، وهي وظائف تدخل مباشرة في إنتاج الفهم. فالتلخيص ليس مجرد تقليل عدد الكلمات، بل يتطلب تمييز المركزي من الثانوي وربط الحجج وتحديد الهيكل، والتحليل لا يقوم على استخراج وحدات منفصلة فقط بل على بناء علاقات واستنتاجات، ولذلك فإن نقل هذه الوظائف إلى النظام يقترب أكثر من نقل جزء من العمل التأويلي.

ولا يعني ذلك أن التلخيص الآلي ينبغي رفضه، لأن فائدته قد تكون كبيرة في الاستكشاف الأولي أو استعادة مادة سبق للقارئ دراستها أو فرز

مجموعة كبيرة من النصوص قبل اختيار ما يحتاج إلى قراءة عميقة، لكن موقعه داخل الدورة القرائية هو الذي يحدد قيمته. فإذا استخدم القارئ الملخص قبل النص وبديلاً عنه بصورة دائمة، فإنه قد يحصل على معرفة بالخطوط العامة دون المرور بعملية بناء الفهم، أما إذا استخدمه بعد القراءة لمقارنة ما فهمه أو اكتشاف عناصر أغفلها، فإن الأداة تصبح جزءًا من حلقة مراجعة قد تعزز نشاطه.

وينطبق الشيء نفسه على التحليل؛ فطلب النظام استخراج الحجج المضادة يمكن أن يوسع مجال التفكير إذا كان القارئ يمتلك موقفًا أوليًا يقارن به النتائج، أما طلب تحليل كامل لنص لم يقرأه ثم تبني الناتج فيحوله إلى مستهلك لممارسة كان يفترض أن يقوم بها. ومن هنا يصبح الفرق بين المساعدة المعرفية والإحلال المعرفي فرقًا في ترتيب العلاقة: هل تأتي الآلة داخل نشاط بشري قائم، أم يأتي الإنسان بعد أن أكملت الآلة النشاط نيابة عنه؟

ويمكن أن نصوغ هنا ما نسميه عتبة التفويض، وهي النقطة التي ينتقل عندها تدخل التقنية من تخفيف عبء جانبي إلى نقل وظيفة مركزية من وظائف الفهم إلى النظام. ولا يمكن تحديد هذه العتبة بصورة واحدة لجميع المهمات، لأن وظيفة تعد جانبية في سياق قد تكون جوهرية في سياق آخر؛ فتلخيص وثيقة سبق للباحث قراءتها ليس كتلخيص رواية يدّعي بعدها أنه درس أسلوبها، واستخراج قائمة بالأسماء ليس كاستخراج الحجة التي يفترض أن يتعلم الطالب بنفسه إعادة بنائها. ولذلك فإن عتبة التفويض مرتبطة بغاية القراءة.

وتكشف هذه المسألة أن الخطر الأكبر للذكاء الاصطناعي في القراءة لا يتمثل فقط في احتمال الخطأ، بل في أن يكون الجواب صحيحًا ونافعًا إلى درجة تجعل القارئ لا يمارس المهارة التي كان ينبغي أن يبنيها. فالخطأ يمكن اكتشافه وتصحيحه، أما النجاح الاستبدالي فقد يكون أكثر خفاء، لأن المستخدم يحصل على النتيجة المطلوبة بينما لا تتكون داخله

الكفاية التي أنتجتها. ومن هنا تصبح نظرية القارئ الهجين مطالبة بتقييم ليس فقط جودة المخرج، بل أثر طريقة الوصول إليه في تكوين القارئ نفسه.

المبحث الخامس: الذات القارئة الموزعة

ـ تداخل البشري والتقني

يتيح الجمع بين العقل الممتد والإدراك الموزع والذاكرة الخارجية والتفويض المعرفي صياغة مفهوم «الذات القارئة الموزعة» الذي يقترحه هذا الكتاب بوصفه وصفًا وظيفيًا للقارئ الذي لا تنجز جميع عملياته داخل حدود الذاكرة الفردية، بل يعمل داخل شبكة من الموارد البشرية والتقنية. ولا يعني هذا المفهوم أن الذات تنقسم إلى أجزاء مستقلة أو أن التقنية تكتسب نصيبًا من الهوية الشخصية بصورة مباشرة، بل يشير إلى أن وحدة إنجاز القراءة يمكن أن تكون أوسع من الفرد حين تدخل الأدوات بصورة منظمة في البحث والاسترجاع والحفظ والمقارنة والتفسير.

فالذات القارئة في البيئة الهجينة قد تحفظ النص في جهاز، وتخزن الملاحظات في السحابة، وتعتمد على محرك بحث في الاسترجاع، وعلى قاموس آلي في الترجمة، وعلى نظام توليدي في اختبار فرضية تأويلية، ثم تعود إلى حكمها الداخلي لتقرر ما تقبله وما ترفضه. وإذا حذفنا هذه الموارد من الوصف سنحصل على صورة ناقصة للممارسة، لكن إذا ساويناها جميعًا بالذات سنفقد الفروق الضرورية بين الفاعل البشري والوسائط. ومن هنا يكون وصف الذات بـ«الموزعة» محاولة للحفاظ على طرفي المعادلة :اتساع النظام ووحدة المسؤولية.

ويتقاطع هذا التصور مع هايلز في التفكير في الإنسان والتقنية بوصفهما داخل علاقة تطور متبادل [8]، ومع هاتشنز في النظر إلى النشاط المعرفي داخل نظام أوسع [4]، ومع كلارك وتشالمرز في نقد الحدود الصلبة للعقل [1]، لكنه يختلف عنها في أن وحدة الدراسة هنا محددة بفعل القراءة وبالأسئلة النقدية المتعلقة بالتأويل. ومن ثم فإن «الذات القارئة الموزعة» ليست ادعاءً عامًا عن طبيعة الوعي الإنساني، بل مفهوم تحليلي يصف الطريقة التي أصبح بها القارئ قادرًا على توزيع بعض وظائفه مع الاحتفاظ بموقعه كفاعل مسؤول.

ويظهر التداخل البشري ـ التقني في القراءة على مستويات متفاوتة؛ ففي المستوى الأدنى يحفظ القارئ موضعه وملاحظاته خارج ذاكرته، وفي المستوى المتوسط تستعيد الأدوات المعلومات وتنظمها، وفي المستوى المتقدم تدخل الأنظمة إلى المقارنة والتلخيص والتفسير. وكلما ارتفع المستوى أصبحت الحدود الوظيفية أكثر قابلية للتفاوض، لأن السؤال لا يعود «هل استخدم القارئ تقنية؟» بل «أي جزء من الفعل أنجزه الإنسان وأي جزء أنجزه النظام وكيف انتقلت النتيجة من أحدهما إلى الآخر؟.«

ومن هنا يمكن تمثيل الذات القارئة الموزعة في صيغة تتكون من خمس دوائر متفاعلة :**الذاكرة البشرية** التي تحمل اللغة والخبرة والمعرفة السابقة، **والنص** الذي يقدم المادة ويقاوم التأويلات غير المسندة، **والذاكرة الخارجية** التي تحفظ وتسترجع، **والوسيط الخوارزمي** الذي يرتب ويقترح ويعالج، **والسياق الثقافي والاجتماعي** الذي يمنح القراءة معاييرها وأسئلتها. ولا يعمل أي من هذه العناصر في فراغ، لكن مركز المسؤولية يظل في الطرف البشري الذي يدخل في العلاقة.

ويمكن هنا الحديث عن ذات موزعة وظيفيًا وغير موزعة أخلاقيًا، وهي صيغة أساسية في نظرية القارئ الهجين، لأن القول بتوزيع الإدراك قد يساء فهمه باعتباره توزيعًا للمساءلة. فإذا أدخل باحث تفسيرًا خاطئًا ولده نظام ذكاء اصطناعي في دراسة أكاديمية، لا يستطيع أن يتنصل من المسؤولية لأن «النظام قال ذلك»، وإذا اعتمد قارئ ترجمة آلية دون مراجعة ثم بنى عليها حكمًا، فإن الوساطة تفسر الخطأ لكنها لا تلغي مسؤوليته عن اعتماده. ومن هنا يصبح الفرق بين الوظيفة والمسؤولية أحد الحدود الأساسية للهجنة.

ـ إعادة تعريف استقلال القارئ

يحتاج مفهوم الاستقلال في ضوء الذات الموزعة إلى إعادة بناء، لأن الاستقلال لا يمكن أن يعني أن القارئ يقوم بكل شيء وحده، فهذا التصور لم يكن واقعيًا حتى في الثقافة المطبوعة التي اعتمدت على المعاجم

والمكتبات والنقاد والمحررين والهوامش، ويصبح أقل واقعية في بيئة رقمية لا يمكن فيها التعامل مع الوفرة الهائلة من النصوص من دون أدوات بحث وتنظيم. ولذلك يقترح هذا الكتاب الانتقال من مفهوم الاستقلال بوصفه غياب المساعدة إلى مفهوم الاستقلال بوصفه القدرة على إدارة المساعدة.

ويصبح القارئ مستقلًا، وفق هذا التصور، حين يعرف الوظائف التي فوّضها، ويستطيع تقييم نتائجها، ويملك إمكانية العودة إلى المصدر، ويستطيع تغيير الأداة أو الاستغناء عنها في المراحل التي تحتاج إلى عمله المباشر، ولا يخلط بين رأيه والمخرج الذي اقترحه النظام. ومن ثم فإن الاعتماد على أداة لا يناقض الاستقلال بالضرورة، تمامًا كما أن استخدام المعجم لا يجعل القارئ فاقدًا لاستقلاله، لكن الاعتماد يصبح تبعية عندما يفقد المستخدم القدرة على تقييم الوظيفة أو تصور بديل لها.

ومن هنا يمكن تعريف **الاستقلال الهجين** بأنه قدرة القارئ على العمل داخل نظام معرفي موزع مع الاحتفاظ بالسيطرة على توزيع الوظائف وبالحكم على نتائجها. وهذا التعريف يجعل الاستقلال قدرة تنظيمية وميتامعرفية أكثر منه عزلة، لأن القارئ يحتاج إلى أن يعرف ليس فقط ما يفهمه، بل كيف وصل إلى هذا الفهم ومن أين جاءت عناصره.

ويصبح هذا الوعي أكثر أهمية مع النظم التوليدية لأن الحدود بين كلام القارئ وكلام الأداة يمكن أن تصبح أقل وضوحًا بعد حوار طويل، وقد يتذكر الفرد فكرة دون أن يتذكر هل استنتجها بنفسه أم قرأها في جواب مولد، وهو ما يطرح مسألة «مصدر المعرفة» داخل الذات الموزعة. ولهذا ينبغي للقارئ الهجين، ولا سيما في البحث الأكاديمي، أن يحتفظ بأثر للمصادر والأسئلة والمخرجات، لا لكي يسجل كل حركة آليًا، بل لكي يستطيع إعادة بناء الطريق الذي وصل من خلاله إلى النتيجة.

كما يتطلب الاستقلال القدرة على تحمل الاحتكاك المعرفي وعدم تفويض المهمة فور ظهور الصعوبة، لأن الاستقلال لا يختبر في الوظائف السهلة بل في اللحظة التي تعرض فيها الأداة أن تنجز مكان القارئ ما يحتاج

إلى جهد. وإذا كانت القراءة العميقة تتطلب التردد وإعادة المحاولة، فإن القارئ المستقل يحتاج أحيانًا إلى مقاومة الراحة التي تقدمها الآلة حتى تتكون لديه فرضية أولى، ثم يستطيع بعد ذلك استعمال الأداة في المقارنة والنقد. ومن هنا تصبح القدرة على تأجيل المساعدة جزءًا من الاستقلال بقدر القدرة على استدعائها.

ويؤدي هذا المنظور إلى إعادة تعريف السيادة التأويلية بصورة أكثر دقة؛ فهي ليست احتكار الإنسان لكل خطوة، بل حقه في أن يكون صاحب القرار الأخير حول معنى ما يقرأ، وأن يستطيع تفسير الطريق الذي قاده إليه، وأن يعرف حدود الأدوات التي شاركت في بناء هذا الطريق. وعليه فإن الذات القارئة الموزعة لا تعني نهاية استقلال القارئ، بل انتقال استقلاله من الاعتماد على الذات وحدها إلى إدارة الاعتماد المتبادل.

المبحث السادس: كفايات القارئ الهجين

- *الكفاية الرقمية والخوارزمية*

إذا كانت القراءة الهجينة تقوم على توزيع بعض الوظائف بين القارئ وبيئته التقنية، فإنها تحتاج إلى كفايات تتجاوز القدرة التقليدية على فك النص وفهمه، لأن المستخدم أصبح مطالبًا بمعرفة خصائص الأدوات التي تدخل في نشاطه وكيفية اختيارها وضبطها والتحقق من حدودها. ولا ينبغي اختزال هذه الكفاية في مهارات التشغيل، لأن معرفة فتح تطبيق أو كتابة سؤال لا تعني فهم طبيعة النظام الذي يقدم الجواب، ولذلك ينبغي التمييز بين الكفاية الرقمية الإجرائية والكفاية الخوارزمية النقدية.

تشمل الكفاية الرقمية القدرة على الوصول إلى النصوص وتنظيم الملفات واستخدام البحث وحماية البيانات وتمييز الصيغ وإدارة الملاحظات والمصادر، وهي مهارات ضرورية لكنها تمثل المستوى الأول فقط. أما الكفاية الخوارزمية فتبدأ عندما يدرك القارئ أن نتائج البحث والتوصيات والترتيب والمخرجات التوليدية ليست انعكاسًا محايدًا للعالم، بل نتائج عمليات تصميم ومعالجة وترشيح. وقد أظهرت أبحاث آن أودلف-هيرش وجيرمان نويباوم أن «الوعي الخوارزمي» متعدد الأبعاد، ويرتبط بالمعرفة والمواقف والسلوك، وأن وعي المستخدمين بعمليات التصفية يمكن أن يرتبط بممارسات تهدف إلى التعامل مع آثارها أو مقاومتها.[12]

ويضاف إلى ذلك ما يسمى «محو الأمية في الذكاء الاصطناعي»، وقد اقترح دوري لونغ وبرايان ماغيركو إطارًا للكفايات التي يحتاج إليها الأفراد للتفاعل الفعال مع أنظمة الذكاء الاصطناعي وتقييمها نقديًا، مؤكدين أن الثقافة المرتبطة بالذكاء الاصطناعي لا تقتصر على المعرفة التقنية المتخصصة، بل تشمل فهم ما تستطيع هذه الأنظمة فعله وما لا تستطيع، وكيف ينبغي التفاعل معها وتقييم مخرجاتها [11]. ويستفيد هذا الكتاب من هذا الاتجاه لتطوير صيغة خاصة بالقراءة، حيث لا يحتاج القارئ إلى أن يصبح مهندس تعلم آلي، لكنه يحتاج إلى معرفة أن النظام قد يخطئ، وأن

صياغة السؤال تؤثر في المخرج، وأن التوليد لا يساوي الاسترجاع من مصدر، وأن الثقة اللغوية في الصياغة لا تضمن صحة المحتوى .

ومن هنا يمكن تحديد مجموعة من مكونات **الكفاية الرقمية والخوارزمية للقارئ الهجين**، تبدأ بمعرفة نوع الأداة ووظيفتها، ثم القدرة على اختيار الأداة المناسبة بدل استعمال نظام واحد لكل المهمات، والتمييز بين البحث الذي يقود إلى مصادر والتوليد الذي يقدم تركيباً، وفهم أثر التخصيص في ما يظهر، ومعرفة أن المخرجات قابلة للاختلاف بتغير صياغة السؤال، ثم القدرة على تتبع المصدر حين تكون المعلومة قابلة للتحقق. ولا ينبغي التعامل مع هذه المكونات باعتبارها قائمة تقنية منفصلة عن القراءة، لأنها أصبحت جزءاً من شروطها حين يدخل الوسيط إلى المجال المعرفي.

وتشمل هذه الكفاية كذلك **إدارة الذاكرة الخارجية**؛ فالقارئ الهجين ينبغي أن يعرف ما الذي يخزنه وأين، وكيف يستعيده، وكيف يتجنب أن يتحول الأرشيف إلى مستودع لا يعرف ما فيه، وأن يميز بين حفظ مادة للرجوع إليها وبين تحويل عملية الفهم نفسها إلى بحث دائم. ومن هنا يصبح تنظيم الملاحظات والفهارس الشخصية والروابط والمراجع جزءاً من بناء الذات الموزعة، لأن قوة الذاكرة الخارجية لا تقاس بحجمها بل بإمكان دمجها في التفكير.

كما تتطلب الكفاية القدرة على **إدارة التفويض**؛ أي تحديد ما الذي يمكن أن يقوم به النظام دون خسارة معرفية كبيرة، وما المهمة التي ينبغي أن يبقى أداؤها بشرياً لأنها جوهر التعلم أو التأويل. وإذا كانت الأداة تستطيع تلخيص كل شيء، فإن الكفاءة لا تتمثل في استعمالها دائماً، بل في معرفة الحالات التي يكون فيها بناء الملخص بنفسك هو النشاط الذي تحتاج إليه، وإذا كان النظام يستطيع تقديم تحليل أدبي كامل، فإن القارئ يحتاج إلى معرفة أن أفضل استخدام له قد يكون بعد بناء قراءته الأولية لا قبلها.

ـ الكفاية النقدية والتأويلية

لا تكتمل كفايات القارئ الهجين بالكفاءة الرقمية والخوارزمية، لأن القراءة تظل في أساسها فعلًا يتعلق بالمعنى، ولذلك يحتاج القارئ إلى كفاية نقدية وتأويلية تسمح له بتقييم ما تقدمه الأدوات داخل بنية النص والسياق. فالنظام يستطيع أن ينتج تفسيرًا مقنعًا أسلوبيًا، لكن القارئ هو الذي ينبغي أن يسأل عن الدليل، وأن يقارن بين الفرضية والنص، وأن يميز بين إمكان تأويلي مشروع وإسقاط لا يسنده العمل. ومن هنا تصبح الخبرة الأدبية والنقدية أكثر أهمية في البيئة الهجينة بدل أن تصبح أقل أهمية.

وتبدأ هذه الكفاية بالقدرة على بناء قراءة أولية مستقلة قبل استدعاء الوسيط في المهام التي يكون فيها ذلك ممكنًا، لأن القارئ يحتاج إلى موقف يقارن به ما سيقدمه النظام، وإلا تحولت الإجابة الأولى إلى إطار يحدد جميع الأسئلة اللاحقة. ولا يعني ذلك منع استخدام الذكاء الاصطناعي قبل القراءة في كل الأحوال، فقد يحتاج القارئ إلى ترجمة أو تعريف يسمح له أصلًا بالدخول إلى النص، لكن المبدأ هو أن يحتفظ بمساحة يستطيع داخلها التفكير قبل أن يتلقى التأويل الجاهز.

وتتضمن الكفاية النقدية كذلك القدرة على توليد البدائل، لأن أفضل وسيلة لمقاومة سلطة الجواب الواحد هي مطالبة النظام أو الذات بإنتاج قراءات متعارضة ثم مقارنتها. فإذا قدم المساعد تفسيرًا نفسيًا، يمكن للقارئ أن يطلب قراءة تاريخية أو شكلانية أو مضادة، ثم يبحث في النص عن العناصر التي تدعم كل احتمال، وبذلك يتحول الذكاء الاصطناعي من سلطة تحدد المعنى إلى أداة تساعد على توسيع المجال الذي يمارس داخله الإنسان حكمه.

ويضاف إلى ذلك التحقق النصي، وهو مبدأ لا يمكن الاستغناء عنه في الأدب والدراسات الإنسانية، لأن كل تفسير ينبغي أن يعود في النهاية إلى ما يسمح به العمل، حتى عندما يكون المعنى متعددًا. ويعني ذلك أن القارئ لا يقبل الاستشهاد أو الإحالة التي يقدمها النظام دون الرجوع إلى أصلها، ولا

يكتفي بعبارة «يرمز هذا إلى كذا» ما لم يجد في البنية النصية ما يجعل الرمز قابلًا للدفاع. ومن هنا تصبح الحركة الأساسية للقراءة الهجينة الناضجة هي :**اقتراح خوارزمي → فحص بشري → تحقق نصي → مراجعة سياقية → حكم تأويلي**.

وتتصل الكفاية التأويلية أخيرًا بالقدرة على الحفاظ على الغموض عندما يكون الغموض جزءًا من العمل، لأن الأنظمة التوليدية تميل بحكم وظيفتها الحوارية إلى إنتاج جواب، بينما لا تحتاج القراءة الجيدة دائمًا إلى إغلاق السؤال. ومن هنا يستطيع القارئ الهجين أن يستخدم الآلة للحصول على احتمالات، ثم يقرر أن النص يظل مفتوحًا بينها، وأن عدم الحسم أكثر أمانة للعمل من اختيار جواب واحد. وتصبح القدرة على القول «لا أعرف بعد» علامة كفاءة لا نقصًا في عصر أصبحت فيه الإجابة متاحة فورًا.

ومن مجموع هذه القدرات يتشكل ما يمكن تسميته الكفاءة الهجينة المركبة، التي تتكون من بعد رقمي يسمح باستخدام الأدوات، وبعد خوارزمي يسمح بفهم الوساطة، وبعد ميتامعرفي يسمح بإدارة التفويض، وبعد نقدي يسمح بالتحقق، وبعد تأويلي يسمح ببناء المعنى، وهي كفاءة لا يمكن اختزالها في مهارة تقنية واحدة. وكلما ارتفعت هذه الكفاءة استطاع القارئ أن يستفيد من توسع النظام المعرفي من دون أن يتحول إلى تابع له.

<u>*من العقل الممتد إلى السيادة التأويلية*</u>

يسمح المسار الذي تتبعناه في هذا الفصل بإعادة صياغة العلاقة بين الامتداد والاستقلال، لأن الأدوات الخارجية لا تمثل بالضرورة تهديدًا للذات، كما أن الاحتفاظ بكل الوظائف داخلها لا يمثل بالضرورة الشكل الأعلى من الاستقلال. فالقوة البشرية نفسها قامت تاريخيًا على بناء نظم خارجية للذاكرة والحساب والكتابة، ولذلك فإن القارئ الذي يستخدم التقنية يمكن أن يصبح أكثر قدرة على المقارنة والوصول إلى سياقات لم تكن في متناوله، غير أن توسع الإمكان لا يضمن توسع الحكم، وهنا يكمن التحدي الأساسي.

يمكن للذاكرة الخارجية أن تحرر القارئ من حفظ التفاصيل لكنها لا تستطيع أن تختار وحدها ما ينبغي أن يعنيه النص، ويمكن لمحرك البحث أن يعثر على ألف مصدر لكنه لا يستطيع أن يعفي الباحث من تقييمها، ويمكن للنظام التوليدي أن يقدم خمس قراءات لكنه لا يتحمل مسؤولية تبني السادسة أو رفض الخمس كلها. ومن هنا يصبح العقل الممتد مفيدًا لفهم كيف تتوسع القدرة، بينما يصبح مفهوم السيادة التأويلية ضروريًا لفهم أين ينبغي أن تتوقف سلطة الوسيط.

ويتيح هذا الجمع اقتراح مبدأ يمكن تسميته **التكامل المعرفي غير المتماثل**، حيث تتكامل قدرات الإنسان والآلة دون أن تكون متطابقة أو متساوية. فالآلة تمتلك سرعة في البحث والمعالجة والربط لا يستطيع الفرد مجاراتها، بينما يمتلك الإنسان تجربة وسياقًا ومسؤولية وقدرة على جعل المعنى جزءًا من حياته وموقفه. وتكون أفضل أشكال الهجنة هي التي تستثمر عدم التماثل بدل محاولة محوه؛ أي تستخدم النظام حيث تكون قدراته مناسبة، وتحافظ على الإنسان حيث تكون الخبرة والحكم والتأويل هي الوظيفة الأساسية.

ومن هنا لا ينبغي أن يطمح القارئ الهجين إلى جعل التقنية غير مرئية تمامًا، لأن الاندماج الكامل الذي يفقد معه المستخدم وعيه بالوساطة قد يقلل قدرته على نقدها. وكلما أصبحت الأدوات أكثر اندماجًا في بيئة القراءة ازدادت الحاجة إلى مستوى من الوعي الميتا خوارزمي يسمح برؤية الوظائف الموزعة وإعادة توزيعها عند الضرورة. وهذا هو السبب الذي يجعل الذات القارئة الموزعة لا تجد اكتمالها في الاعتماد على التقنية، بل في الوعي بالتوزيع نفسه.

خاتمة الفصل السادس

أظهر هذا الفصل أن مفهوم القارئ الهجين لا يمكن تأسيسه على وصف الاستخدام الظاهري للأدوات وحده، لأنه يرتبط بتحول أعمق في الطريقة التي تتوزع بها بعض وظائف القراءة بين الإنسان وبيئته. وقد سمحت أطروحة العقل الممتد بإعادة طرح سؤال حدود الفعل المعرفي، لا بهدف إعلان أن كل أداة جزء من العقل، بل لإظهار أن بعض الموارد الخارجية تستطيع، في شروط من الاعتماد والاستقرار والتكامل، أن تدخل بصورة وظيفية في العمليات التي ينجز بها الإنسان مهامه [1][2][3]. كما أتاح الإدراك الموزع عند هاتشنز توسيع وحدة التحليل من الفرد إلى النظام الذي تتفاعل داخله الأشخاص والأدوات والتمثيلات [4]، وهو ما يوفر أساسًا لفهم القراءة الهجينة باعتبارها أحيانًا نشاطًا لا ينجز داخل رأس القارئ وحده، بل داخل بيئة معرفية مركبة.

وقد كشف تحليل الذاكرة الخارجية أن التحول الرقمي لا يزيد مقدار ما يستطيع القارئ الوصول إليه فقط، بل يعيد تنظيم العلاقة بين التذكر والوصول، بحيث يمكن للفرد أن يحتفظ بمسار استعادة المعلومة بدل تفاصيلها، وهو ما تدعمه بحوث الذاكرة التبادلية وتأثير توقع الوصول إلى المعلومات عبر الإنترنت [5][6][7]. ومع السحابة والمحفوظات الرقمية يصبح تاريخ القراءة نفسه قابلًا للتخزين والبحث وإعادة الترتيب، وهو ما يجعل الأرشيف الشخصي جزءًا من الذات القارئة الموزعة، لكنه يخلق في الوقت نفسه حاجة إلى تنظيم هذه الذاكرة الخارجية وإدراك من يتحكم في منطق استرجاعها.[8]

أما التفويض المعرفي فقد أظهر أن نقل الوظائف إلى البيئة ليس ظاهرة استثنائية أو سلبية بالضرورة، وأن الإنسان يستخدم أدوات خارجية باستمرار لتقليل العبء، لكن ريسكو وغيلبرت يبينان أن قرارات التفريغ ترتبط كذلك بتقييم الفرد لقدراته وبطبيعة المهمة [9]، وهو ما يجعل إدارة التفويض جزءًا من الكفاءة الهجينة. ومن هنا جرى التمييز بين تفويض منتج

يخفف وظائف هامشية ويترك الموارد البشرية للمهمات العليا، وتفويض استبدالي ينتقل إلى صميم المهارة التي يفترض أن يبنيها القارئ، وبينهما تقع «عتبة التفويض» التي تختلف باختلاف غاية القراءة.

وعلى أساس هذه العناصر اقترح الفصل مفهوم **الذات القارئة الموزعة** باعتباره مفهومًا وظيفيًا لا وجوديًا، فالقارئ يستطيع أن ينجز القراءة بواسطة منظومة تضم ذاكرته الداخلية ونصوصه وملاحظاته ومحركات البحث والأرشيفات الرقمية والخوارزميات والأنظمة التوليدية، لكنه يظل الطرف الذي ينبغي أن يتحمل مسؤولية الحكم. ومن هنا جاءت الصيغة التي يمكن اعتبارها إحدى القواعد الأساسية لهذا الكتاب :**الذات القارئة موزعة في وظائفها، لكنها لا ينبغي أن تكون موزعة في مسؤوليتها التأويلية.**

وقد أدى ذلك إلى إعادة تعريف استقلال القارئ، فلم يعد الاستقلال يعني أداء جميع العمليات دون مساعدة، وإنما يعني القدرة على معرفة ما جرى تفويضه، والتحكم في توقيته، وتقييم المخرجات، والعودة إلى المصادر، والاحتفاظ بالقدرة على الاعتراض أو الاستغناء. وبذلك يصبح الاستقلال في البيئة الهجينة **استقلالًا داخل الاعتماد**، أو بصورة أدق قدرة على إدارة الاعتماد بدل وهم التخلص منه.

وتظهر أهمية هذا التصور بوضوح في كفايات القارئ الهجين، لأن القراءة في البيئة الجديدة تحتاج إلى مهارات رقمية وخوارزمية وذكاء اصطناعي، لكنها تحتاج بالقدر نفسه إلى معرفة نقدية وتأويلية وميتامعرفية [11][12]. فالقارئ الجيد لا يعرف فقط كيف يطرح السؤال على النظام، بل يعرف لماذا يطرحه، وما الذي ينبغي أن يتحقق منه، ومتى تكون الإجابة مفيدة، ومتى تكون محاولة بناء الإجابة بنفسه جزءًا من عملية التعلم. ومن هنا لا تكون الكفاءة الأعلى هي الحصول على نتائج أسرع، **بل القدرة على اختيار التوزيع المعرفي المناسب للمهمة.**

وبذلك يصل الفصل إلى مفارقة تشكل إحدى النتائج النظرية المركزية للكتاب :**كلما أصبح العقل القارئ أكثر امتدادًا في الأدوات، ازدادت حاجته**

إلى وعي أكثر تمركزًا بالمسؤولية .فالانتشار الوظيفي لا ينبغي أن يؤدي إلى تشتت الحكم، والذاكرة الخارجية لا ينبغي أن تلغي البنية المعرفية الداخلية، والذكاء الاصطناعي لا ينبغي أن يحول القارئ من مدير للعملية إلى مستهلك لمخرجاتها. ومن هنا يمكن اعتبار «السيادة التأويلية» الوجه المقابل للعقل الممتد؛ فالأول يفسر اتساع النظام الذي تحدث فيه القراءة، والثاني يحدد الطرف الذي ينبغي أن يبقى مسؤولًا عن معنى ما ينتجه هذا النظام.

وتمهد هذه النتيجة للانتقال إلى الباب التالي من الكتاب، لأن الذات القارئة الموزعة لا تعمل داخل فضاء تقني محايد، بل تتحرك داخل منصات ومحركات بحث وأنظمة توصية تملك سلطة ترتيب ما يظهر وما يختفي، ولذلك يصبح السؤال التالي متعلقًا بالخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص، وبالانتقال التاريخي من المكتبة التي يختار القارئ داخلها إلى المنصة التي تشارك في تشكيل مجال اختياره، وهو ما سيقود إلى دراسة أنظمة التوصية والبحث والملف الخوارزمي وفقاعات الترشيح وسلطة الوسيط داخل القراءة في البيئة الخوارزمية.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Clark, Andy & Chalmers, David. “The Extended Mind.” *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.

يمثل المرجع المؤسس لأطروحة العقل الممتد و«الخارجية النشطة»، ويُستفاد منه في هذا الفصل لإعادة طرح حدود النشاط المعرفي وإمكان دخول بعض العناصر البيئية في أداء وظائف معرفية، مع تجنب تحويل الأطروحة إلى ادعاء بأن كل أداة خارجية جزء من العقل. وتثبت بيانات Oxford Academic **صدور المقال في المجلد** 58، **العدد الأول، سنة** 1998، **الصفحات** 7–19 (DOI) .

[2] Menary, Richard (ed.). *The Extended Mind*. Cambridge, MA: MIT Press, 2010.

مجموعة مرجعية تجمع النقاشات الفلسفية التي تطورت حول أطروحة العقل الممتد، وتفيد في هذا البحث لتأكيد أن مفهوم الامتداد ليس نظرية محسومة بلا حدود، وإنما مجال جدل يتعلق بشروط دخول الموارد الخارجية في النظام المعرفي والتمييز بين الامتداد الحقيقي والمساعدة العرضية . (OUP Academic)

[3] Clark, Andy. *Supersizing the Mind: Embodiment, Action, and Cognitive Extension*. New York: Oxford University Press, 2008.

يطور كلارك في هذا الكتاب أطروحة الإدراك الممتد من خلال التركيز على تفاعل الدماغ والجسد والعالم وعلى السقالات الاجتماعية والثقافية والتقنية التي تدخل في التفكير، ويُستفاد منه في هذا الفصل لفهم الأدوات القرائية بوصفها موارد قد تشارك وظيفيًا في تنظيم النشاط المعرفي . (OUP Academic)

[4] Hutchins, Edwin. *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

مرجع تأسيسي في نظرية الإدراك الموزع، ويحلل هاتشنز النشاط المعرفي داخل أنظمة تتفاعل فيها الأفراد والأدوات والتمثيلات والممارسات الثقافية،

وهو ما يوفر خلفية مباشرة لمفهوم «الذات القارئة الموزعة» المقترح في هذا الكتاب(MIT Press) .

[5] Wegner, Daniel M. "Transactive Memory: A Contemporary Analysis of the Group Mind." In Brian Mullen & George R. Goethals (eds.), *Theories of Group Behavior*. New York: Springer, 1987, pp. 185–208. DOI: 10.1007/978-1-4612-4634-3_9.

يقدم الأساس النظري لمفهوم الذاكرة التبادلية، حيث يمكن توزيع حفظ المعرفة واسترجاعها داخل نظام اجتماعي يعتمد فيه الأفراد على معرفة من يحتفظ بالمعلومة، ويُستفاد منه في فهم الخلفية السابقة لتحول الإنترنت إلى مورد للذاكرة الخارجية(cir.nii.ac.jp) .

[6] Sparrow, Betsy; Liu, Jenny & Wegner, Daniel M. "Google Effects on Memory: Cognitive Consequences of Having Information at Our Fingertips." *Science*, Vol. 333, No. 6043, 2011, pp. 776–778. DOI: 10.1126/science.1207745.

دراسة تجريبية مهمة أظهرت أن توقع إمكان الوصول لاحقًا إلى المعلومات يمكن أن يرتبط بانخفاض تذكر المحتوى نفسه وتحسن تذكر مكان الوصول إليه، ويُستفاد منها في مناقشة محركات البحث بوصفها شكلًا من أشكال الذاكرة الخارجية أو التبادلية(PubMed) .

[7] Ward, Adrian F. "Supernormal: How the Internet Is Changing Our Memories and Our Minds." *Psychological Inquiry*, Vol. 24, No. 4, 2013, pp. 341–348. DOI: 10.1080/1047840X.2013.850148.

يفيد في توسيع النقاش حول العلاقة بين الإنترنت والذاكرة والعمليات المعرفية، وفي التفكير في الشبكة بوصفها موردًا معرفيًا شديد الحضور يمكن أن يؤثر في كيفية تذكر الأفراد للمعلومات واعتمادهم على الخارج(Taylor & Francis Online) .

[8] van Dijck, José. *Mediated Memories in the Digital Age*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2007.

يعالج الكتاب العلاقة بين أدوات الوساطة الرقمية والذاكرة الشخصية وكيف تغير التكنولوجيا ممارسات الحفظ والاستعادة وبناء الماضي،

ويُستفاد منه في هذا الفصل عند تحليل المحفوظات الرقمية والسحابة بوصفها جزءًا من بيئة الذاكرة المعاصرة(Sup) .

[9] Risko, Evan F. & Gilbert, Sam J. "Cognitive Offloading." *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 20, No. 9, 2016, pp. 676–688. DOI: 10.1016/j.tics.2016.07.002.
مرجع مركزي لمفهوم التفريغ أو التفويض المعرفي، الذي يصف استخدام أفعال وموارد خارجية لتقليل متطلبات المعالجة الداخلية، كما يناقش العوامل الميتامعرفية التي تؤثر في قرارات الأفراد بشأن متى يعتمدون على الخارج(DOI) .

[10] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.
يُستفاد منه في تحليل العلاقة المتبادلة بين الإنسان والتقنيات وفي النظر إلى التفكير بوصفه ممارسة تحدث من خلال الوسائط ومعها وإلى جانبها، وهو ما يساعد على وضع الذات القارئة الموزعة داخل إطار ثقافي ووسائطي أوسع من فلسفة العقل وحدها(University of Chicago Press) .

[11] Long, Duri & Magerko, Brian. "What is AI Literacy? Competencies and Design Considerations." In *Proceedings of the 2020 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems (CHI '20)*. New York: Association for Computing Machinery, 2020, pp. 1–16. DOI: 10.1145/3313831.3376727.
يقدم العمل إطارًا لكفايات محو الأمية في الذكاء الاصطناعي، ولا سيما القدرات اللازمة للتفاعل الفعال مع أنظمة الذكاء الاصطناعي وتقييمها نقديًا، ويُستفاد منه في بناء الكفاية الرقمية والخوارزمية للقارئ الهجين . (DOI)

[12] Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German. "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035. DOI: 10.1093/jcmc/zmad035.

تفيد الدراسة في تأصيل مفهوم الوعي الخوارزمي بوصفه بناءً يتداخل فيه العلم بالخوارزميات مع المواقف والسلوك، وتدعم انتقال مفهوم الكفاية الرقمية من معرفة تشغيل التقنية إلى القدرة على فهم آثار الترشيح والتخصيص واتخاذ سلوك نقدي تجاهها(OUP Academic) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مراجع الفصل في أربعة محاور مترابطة؛ إذ تقدم أعمال كلارك وتشالمرز وميناري وكلارك [1–3] الأساس الفلسفي لمساءلة حدود العقل ودور الأدوات والسقالات الخارجية، بينما يتيح هاتشنز [4] الانتقال من امتداد عقل الفرد إلى تحليل الإدراك بوصفه عملية موزعة على نظام من الأشخاص والوسائط والتمثيلات. وتوفر أعمال فيغنر وسبارو وليو ووارد وفان دايك [5–8] الخلفية اللازمة لدراسة الذاكرة التبادلية والذاكرة الخارجية والمحفوظات الرقمية والتحول من تذكر المحتوى إلى تذكر سبل الوصول إليه، في حين يقدم ريسكو وغيلبرت [9] الأساس التجريبي والنظري لمفهوم التفويض المعرفي وما يرتبط به من قرارات ميتامعرفية. وأخيرًا تسمح أعمال هايلز ولونغ وماغيركو وأودلف-هيرش ونويباوم [10–12] بربط توزيع المعرفة بالوسائط الرقمية وكفايات التعامل النقدي مع الذكاء الاصطناعي والخوارزميات.

ومن تقاطع هذه المسارات يتأسس مفهوم »**الذات القارئة الموزعة** «بوصفه امتدادًا نظريًا لمفهوم القارئ الهجين، لا باعتباره ذاتًا ذابت في التقنية، وإنما قارئًا يعمل داخل نظام معرفي تتوزع فيه بعض وظائف الاسترجاع والتنظيم والحفظ والتحليل بين الإنسان والأداة، بينما يبقى الحكم على المعرفة والمعنى فعلًا بشريًا مسؤولًا. ولذلك يمكن تلخيص النتيجة النظرية للفصل في الصيغة التالية :**العقل القارئ يستطيع أن يمتد، والذاكرة تستطيع أن تتوزع، والوظائف تستطيع أن تفوِّض، لكن المسؤولية التأويلية لا ينبغي أن تغادر القارئ.**

الفصل السابع

الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص

لقد انتهت الفصول السابقة إلى أن القارئ الهجين يعمل داخل نظام معرفي موزع لا تقتصر عناصره على النص والذاكرة البشرية، بل تمتد إلى الواجهة ومحرك البحث والذاكرة الخارجية والمنصة والأدوات الذكية، فإن الانتقال إلى دراسة البيئة الخوارزمية يفرض تعديل نقطة البداية التي اعتادت نظريات القراءة الانطلاق منها؛ ذلك أن فعل القراءة لا يبدأ دائمًا في اللحظة التي يفتح فيها القارئ الكتاب أو تظهر أمامه الصفحة الأولى، بل قد يبدأ قبل ذلك بكثير، في اللحظة التي تقرر فيها منصة ما أن تعرض نصًا بعينه، أو يضع محرك البحث نتيجة في مقدمة القائمة، أو يقترح نظام توصية رواية اعتمادًا على سجل سابق من الاختيارات والتقييمات. وهنا تصبح مسألة الوصول إلى النص جزءًا من نظرية التلقي نفسها، لأن السؤال لم يعد متعلقًا فقط بما يفعله القارئ بالعمل بعد وصوله إليه، وإنما أصبح متعلقًا كذلك بالشروط التقنية والثقافية التي جعلت هذا العمل، دون غيره، حاضرًا في مجال رؤيته.

لقد كان الوصول إلى الكتب تاريخيًا عملية موسطة بمؤسسات وأشخاص وآليات تصنيف مختلفة؛ فالمكتبة ترتب مجموعاتها، والناشر يقرر ما ينشره، والمكتبي يقترح، والناقد يرشح، والصحافة الثقافية تمنح بعض الأعمال حضورًا أكبر من غيرها، ولذلك لا ينبغي الوقوع في وهم وجود عصر سابق كان فيه القارئ يختار داخل فضاء نقي لا يخضع لأي وساطة. غير أن التحول الخوارزمي يغير طبيعة هذه الوساطة من حيث الحجم والسرعة والتخصيص والقدرة على التعلم من السلوك، إذ تستطيع المنصة أن تنظم ملايين المواد بصورة مختلفة لمستخدمين مختلفين، وأن تعدل توصياتها باستمرار اعتمادًا على بيانات جديدة، وأن تجعل ترتيب المحتوى متحركًا بدل أن يظل فهرسًا ثابتًا نسبيًا. وقد بين خوسيه فان ديك وتوماس بول ومارتين دي وال أن المنصات لم تعد مجرد خدمات تقنية منفصلة، بل أصبحت بنى تحتية

تتوسط قطاعات واسعة من الحياة الاجتماعية والثقافية وتعمل وفق آليات من بينها تحويل النشاط إلى بيانات، وانتقاء المحتوى وترتيبه، وتكوين علاقات اقتصادية ومؤسساتية جديدة .[1]

ومن هنا يقترح هذا الفصل النظر إلى الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص، لا لأنها تقف دائمًا بصورة حرفية بين القارئ والعمل، بل لأنها أصبحت في عدد متزايد من البيئات تشارك في تحديد ما يمكن اكتشافه، وما يظهر أولًا، وما يتكرر عرضه، وما يُربط بتاريخ المستخدم، وما يبقى في أعماق القوائم أو خارج مجال الانتباه. ولا تعني البوابة منع الحرية أو إلغاء إرادة القارئ، بل تعني أن الحرية تمارس داخل مجال سبق أن جرى تنظيمه، وأن دراسة الاختيار تظل ناقصة إذا ركزت على قرار المستخدم وتجاهلت البنية التي صاغت الخيارات المتاحة أمامه.

ويكتسب هذا التحول أهمية إضافية داخل مشروع «القارئ الهجين»، لأن الخوارزمية تمثل المرحلة التي تنتقل فيها التقنية من خدمة ينشطها القارئ عند الحاجة إلى وسيط يستطيع المبادرة بالاقتراح قبل أن يطلب الإنسان شيئًا محددًا. فمحرك البحث يستجيب إلى سؤال، بينما نظام التوصية قد يعرض كتابًا لم يبحث عنه القارئ أصلًا، والمنصة قد تدفع إلى الواجهة مراجعة أو اقتباسًا أو قائمة قراءة لم يطلبها، وهو ما يجعل المبادرة القرائية موزعة جزئيًا بين الإنسان والنظام. ومن هنا سننتقل في هذا الفصل من المكتبة إلى المنصة، ثم إلى أنظمة التوصية ومحركات البحث، قبل تحليل الملف الخوارزمي للقارئ وفقاعات الترشيح، وصولًا إلى السؤال الأوسع المتعلق بسلطة الوسيط وما تقتضيه من شفافية ومساءلة ووعي نقدي.

المبحث الأول: من المكتبة إلى المنصة

ـ التحول في طرق اكتشاف الكتب

كان اكتشاف الكتاب في الثقافة المطبوعة يحدث من خلال شبكة من الوسطاء؛ فقد يعثر القارئ على العمل فوق رف مكتبة، أو يقرأ عنه في ملحق ثقافي، أو يسمع توصية من أستاذ أو صديق، أو يذهب إلى متجر بحثًا عن مؤلف محدد، كما قد تصنع الجائزة الأدبية أو المؤسسة التعليمية أو قائمة المبيعات مسارًا يؤدي به إلى الكتاب. ولم تكن هذه الشبكة محايدة، لأن تنظيم المكتبة والتسويق والنقد والتوزيع كلها تمارس أشكالًا من الاختيار، غير أن القارئ كان يستطيع، في كثير من الحالات، رؤية بعض آثار الوساطة ومعرفة المؤسسة التي تقترح عليه العمل؛ فاسم الناقد ظاهر، وتصنيف المكتبة معروف، وواجهة المتجر المادية محدودة يمكن التجول داخلها وملاحظة ما يحيط بالكتاب.

أما المنصة الرقمية فقد نقلت الاكتشاف إلى بيئة تختلف في طبيعتها عن الرف والفهرس التقليديين، لأنها لا تعرض المواد داخل مساحة ثابتة يستطيع كل الزوار مشاهدتها بالطريقة نفسها، بل تستطيع أن تغير ترتيبها وتوصياتها بحسب الوقت والسجل والموقع ونوع الحساب وأنماط الاستخدام وغيرها من الإشارات التي يعتمد عليها النظام. ومن ثم يصبح «رف الكتب» نفسه ديناميكيًا، ويصبح من الممكن أن يدخل قارئان إلى المنصة ذاتها في اللحظة نفسها فلا يريا البيئة الثقافية نفسها، وهو تحول يغير معنى الفضاء المشترك للاكتشاف.

ولا ينبغي أن نفهم الانتقال من المكتبة إلى المنصة باعتباره اختفاءً للمكتبة أو للوساطة البشرية، لأن المكتبات والمؤسسات الثقافية ما تزال تؤدي أدوارها، كما أن المنصات نفسها تضم مراجعات بشرية وقوائم محررين وتوصيات اجتماعية، وإنما المقصود هو صعود شكل إضافي من الوساطة يستطيع تنظيم هذه العناصر على نطاق ضخم وبسرعة لا تستطيع المؤسسات التقليدية تحقيقها. وتصبح المنصة بهذا المعنى مكتبة وواجهة ومتجرًا

ومجتمعًا ونظام بيانات في الوقت نفسه، وهو تركيب يجعل من الصعب فصل وظيفة الإتاحة عن وظيفة الترتيب وعن المصالح الاقتصادية التي تحدد تصميم البيئة.

وقد تناولت *The Platform Society* المنصات باعتبارها منظومات تكنولوجية واقتصادية واجتماعية تتوسط تفاعلات المستخدمين وتعيد تنظيم قطاعات عامة وثقافية، وهو ما يسمح بفهم اكتشاف الكتاب داخلها بوصفه حدثًا لا يقع خارج منطق المنصة، بل داخل سلسلة من عمليات البيانات والاختيار والاتصال .[1] ومن هنا لا يكفي أن نقول إن المنصة «تحتوي» الكتب، لأنها كذلك تحدد كيف تصبح الكتب قابلة للرؤية، وما المسارات التي تؤدي إليها، وأي مؤشرات اجتماعية أو تجارية تظهر حولها، وبأي ترتيب.

ويؤدي هذا التحول إلى إعادة تعريف مفهوم المصادفة في القراءة. ففي المكتبة المادية قد يذهب القارئ إلى رف بحثًا عن كتاب فيرى بجواره عنوانًا لم يكن يعرفه، فتحدث عملية اكتشاف لا تقوم على سجل شخصي سابق، بينما تستطيع المنصة أن تحول «المصادفة» نفسها إلى اقتراح محسوب مبني على التشابه أو الشعبية أو سلوك المستخدمين. ولا يعني ذلك أن المصادفة تختفي من البيئة الرقمية، فالقارئ يستطيع أن يعثر على أشياء غير متوقعة، لكن جزءًا من الاكتشاف ينتقل من مصادفة المكان إلى احتمال صممته الخوارزمية، وهو ما سيفرض لاحقًا التمييز بين الاكتشاف المخصص والاكتشاف الذي يخرج عمدًا عن منطق التخصيص.

ومن زاوية نظرية التلقي، ينبغي أن تدفعنا هذه النقلة إلى إعادة التفكير في اللحظة التي يبدأ فيها «أفق الانتظار». فقد كان ياوس يربط هذا الأفق بالخبرة الأدبية والتاريخية للجمهور، أما القارئ المعاصر فقد يدخل إلى النص بعد أن شاهد وصفًا وتقييمًا وصورة غلاف وقائمة «كتب قد تعجبك» ومراجعات منتقاة، وهي عناصر يمكن أن تشكل طبقة إضافية من التوقع قبل أن يقرأ السطر الأول. ومن هنا يصبح مفهوم »أفق الانتظار الخوارزمي «

الذي يقترحه هذا الكتاب مفيداً لتسمية تلك الطبقة من الاستعدادات التي تتشكل بفعل ترتيب المنصة وتوصياتها، مع التأكيد أن هذا الأفق لا يحل محل الأفق الثقافي والتاريخي، بل يتراكب معه.

ـ المنصة وسيطًا ثقافيًا

يصبح النظر إلى المنصة بوصفها وسيطًا ثقافيًا ضروريًا عندما ندرك أن الثقافة الرقمية لا تمر عبر البنية التقنية كما يمر الماء عبر أنبوب محايد، لأن التصميم والترتيب والتصنيف والقياس كلها تحدد ما الذي يصبح أكثر حضوراً وما الذي يتراجع. وقد صاغ تارلتون غيليسبي هذه المسألة بصورة مؤثرة حين دعا إلى دراسة الخوارزميات بوصفها عناصر أساسية في البنية المعلوماتية، وخصوصًا حين تتولى أنظمة البحث والتوصية وقواعد البيانات تحديد ما يعتبر «ذا صلة» بالمستخدم [2]. ولا يرى غيليسبي الخوارزميات بوصفها معادلات تقنية منفصلة عن المجتمع، بل يلفت الانتباه إلى الاختيارات البشرية والمؤسساتية التي تدخل في بنائها وإلى الطريقة التي تصبح بها عمليات الترتيب جزءًا من الممارسات الثقافية والمعرفية .[2]

ومن هنا تكون المنصة وسيطًا ثقافيًا لأنها لا تسهل الوصول إلى الثقافة فقط، بل تشارك في **توزيع الانتباه الثقافي**، وتستطيع أن تجعل كتابًا حاضرًا باستمرار في الواجهة بينما يظل آلاف الكتب الأخرى متاحة تقنيًا لكنها ضعيفة الظهور. وهذه النقطة تسمح بالتمييز بين **الإتاحة والقابلية للاكتشاف**؛ فقد يكون النص موجوداً داخل قاعدة البيانات، لكنه لا يتمتع بفرصة حقيقية للوصول إلى القارئ إذا كان ظهوره ضعيفًا ولا يدخل ضمن مسارات البحث أو التوصية أو القوائم. ومن ثم تصبح سلطة المنصة مرتبطة ليس فقط بامتلاك المحتوى أو استضافته، بل بالقدرة على جعل بعض المحتوى قابلًا للاكتشاف بدرجة أكبر من غيره.

ويؤثر هذا في المؤسسات الثقافية نفسها، لأن الناشرين والمؤلفين والقراء قد يبدؤون في تكييف سلوكهم مع المعايير التي تمنح الظهور؛ فالغلاف والعنوان والكلمات المفتاحية والتقييمات والاشتراك والتفاعل يمكن أن

تصبح عناصر في المنافسة على الانتباه، وعندها لا تعود الخوارزمية مجرد مصفاة تمر عبرها الثقافة، بل تصبح توقعاتها جزءاً من البيئة التي يتصرف فيها المنتجون والمستهلكون. وقد وصف غيليسبي هذا التشابك من خلال فكرة أن الأفراد والمؤسسات يتعلمون كيف يجعلون أنفسهم «قابلين للتعرف الخوارزمي»، وهو ما يعني أن سلطة النظام تؤثر في السلوك حتى قبل أن يصدر القرار الحسابي النهائي.[2]

ويكشف هذا المنظور أن انتقال الثقافة من المكتبة إلى المنصة ليس مجرد انتقال من مؤسسة عمومية أو تجارية إلى مؤسسة رقمية، بل انتقال من تنظيم مرئي نسبياً إلى تنظيم تصبح بعض مستوياته غير ظاهرة للمستخدم. فالقارئ يستطيع أن يرى أن كتاباً موضوع في واجهة مكتبة ورقية، وقد يسأل البائع لماذا وضع هناك، أما القائمة الخوارزمية فتبدو في كثير من الأحيان نتيجة طبيعية لعمل النظام ولا تظهر معها بسهولة سلسلة القرارات التي أنتجتها. ومن هنا تبدأ سلطة الوسيط الخوارزمي من النقطة التي تبدو فيها الوساطة وكأنها غائبة.

ـ المبحث الثاني: أنظمة التوصية

ـ منطق الاقتراح

ظهرت أنظمة التوصية بوصفها استجابة تقنية لمشكلة جوهرية في الثقافة الرقمية هي وفرة الخيارات، إذ لا يستطيع المستخدم التعامل يدويًا مع ملايين الكتب والأفلام والأغاني والمقالات، ولذلك تعمل هذه الأنظمة على اقتراح عناصر يُحتمل أن تكون ذات فائدة أو اهتمام بالنسبة إليه. ويعرّف فرانشيسكو ريتشي وليور روكاش وبراخا شابيرا أنظمة التوصية بأنها أدوات وتقنيات برمجية تقدم اقتراحات لعناصر يُرجح أن تهم مستخدمًا معينًا، وتساعده في عمليات اتخاذ القرار داخل بيئات تعاني من فائض المعلومات .[3]

ويعتمد منطق التوصية على طرق متعددة لا ينبغي اختزالها في خوارزمية واحدة؛ فقد يستند الاقتراح إلى تشابه خصائص العناصر، أو إلى اختيارات مستخدمين متقاربين، أو إلى السياق، أو إلى بيانات ضمنية مستخرجة من السلوك، كما تستطيع الأنظمة الحديثة الجمع بين أكثر من طريقة. ولا يحتاج هذا الكتاب إلى الدخول في البناء الرياضي لكل تقنية، لأن اهتمامه ينصب على الأثر القرائي، غير أن التمييز بين أنماط التوصية ضروري لفهم أن عبارة «مقترح لك» تخفي وراءها عمليات مختلفة في تعريف التشابه والملاءمة والتفضيل.

ويكمن التحول الثقافي الأساسي في أن التوصية تنقل القارئ من منطق يبدأ بالسؤال إلى منطق يبدأ بالاقتراح؛ فمحرك البحث يحتاج إلى عبارة يدخلها المستخدم، بينما تقول المنصة: «قد ترغب في قراءة هذا» قبل أن يصوغ حاجة صريحة. وهذا التحول يجعل الخوارزمية تشارك في اقتراح موضوع الرغبة القرائية بدل أن تكتفي بالاستجابة إليها، وهو ما يفرض تعديل فهمنا للمبادرة. فالاختيار النهائي يظل للقارئ، لكنه يحدث بعد أن بادر النظام إلى تشكيل قائمة من الاحتمالات.

وقد حلل بليك هالينان وتيد ستريبهاس هذا التحول من خلال مفهوم «الثقافة الخوارزمية» ودراسة أنظمة التوصية بوصفها عمليات لا تقوم فقط بتوقع التفضيلات، بل تدخل في إعادة تعريف الثقافة من خلال تحويل الذوق والتصنيف والقيمة إلى بيانات قابلة للمعالجة [4]. ومن هنا لا تكون التوصية مجرد مساعدة للمستخدم على العثور على ما يحب، بل جزءًا من نظام يحول «الحب» و«التشابه» و«الذوق» إلى متغيرات يمكن حسابها ومقارنتها، وهو تحول مهم لأن ما يمكن قياسه يصبح أكثر قابلية للدخول في منطق المنصة من الجوانب التي لا تستطيع البيانات الإمساك بها بسهولة .

ولا ينبغي مع ذلك التعامل مع نظام التوصية بوصفه قوة خارجية تفرض اختياراتها على قارئ سلبي، لأن العملية دورية؛ فالمستخدم ينقر ويقرأ ويقيم ويتجاهل، والنظام يستعمل هذه الإشارات لتعديل اقتراحاته، ثم تؤثر الاقتراحات الجديدة في السلوك اللاحق. ولذلك يمكن صياغة الدورة في صورة :**اختيار سابق ← بيانات ← نموذج تفضيل ← توصية ← اختيار جديد ← بيانات جديدة** .وتكمن أهمية هذه الدورة في أنها تجعل الذوق نفسه علاقة تفاعلية؛ فالنظام يتعلم من القارئ، لكنه في الوقت ذاته يعيد إليه مجالًا منظمًا يمكن أن يؤثر في ما سيحبه لاحقًا.

ومن هنا ينبغي أن نتجنب السؤال الثنائي: هل الخوارزمية «تكتشف» ذوق القارئ أم «تصنعه»؟ فالأدق أنها تدخل في علاقة تغذية راجعة يستطيع فيها الاختيار البشري أن يشكل النموذج الخوارزمي، بينما يستطيع النموذج أن يعيد تشكيل مجال الاختيارات الممكنة. ولا تكون هذه العلاقة متساوية تمامًا، لأن المنصة تملك قدرة حسابية ورؤية واسعة لبيانات مجموعات كبيرة، لكن المستخدم يظل قادرًا على تجاهل الاقتراح أو البحث خارجه، وهو ما سيجعل مسألة المقاومة والمصادفة ذات أهمية خاصة لاحقًا.

ـ التخصيص الشخصي للقراءة

يمثل التخصيص الوجه الذي تصبح فيه الوساطة الخوارزمية أكثر التصاقًا بالفرد، لأن المنصة لا تكتفي بترتيب الكتب بحسب الشعبية العامة، بل تستطيع أن تبني اقتراحاتها على ما تعتقد أنه مناسب لهذا المستخدم تحديدًا. ويقوم التخصيص في جوهره على تحويل آثار الاستخدام إلى إشارات يمكن الاستفادة منها في تقدير الاهتمامات، وهو ما يجعل التاريخ القرائي مادة خامًا لإنتاج المستقبل القرائي.

ولا يقتصر التخصيص على التقييم الصريح الذي يقول فيه المستخدم إنه أحب كتابًا أو لم يحبه، لأن الأنظمة تستطيع الاستفادة من بيانات ضمنية مثل النقر والمشاهدة والبحث والشراء والحفظ، وفق ما يتيحه تصميم الخدمة وقواعدها، ولذلك يصبح الفرق بين ما يقوله القارئ عن نفسه وما يستنتجه النظام من سلوكه مهمًا لفهم الملف الخوارزمي. ويبين *Recommender Systems Handbook* أن أنظمة التوصية تتعامل مع أشكال متعددة من التفضيلات والسياقات والتغذية الراجعة من أجل دعم الاقتراح الشخصي [3].

ويحمل التخصيص وعدًا حقيقيًا في مواجهة فائض المعلومات؛ فالقارئ المتخصص في الأدب الرقمي، مثلًا، لا يحتاج إلى رؤية كل الإصدارات الموجودة في قاعدة ضخمة، ويمكن لنظام جيد أن يقلل كلفة البحث ويكشف له أعمالًا ذات صلة باهتمامه. لكن المنفعة نفسها تحتوي على خطر بنيوي، لأن النظام إذا استند دائمًا إلى الماضي فقد يعيد إنتاجه، فيصبح تاريخ القراءة قيدًا على مستقبلها، ويجد القارئ نفسه أمام مزيد مما يشبه ما قرأه من قبل بدل أن يتعرض لمسارات غير متوقعة.

ومن هنا يظهر التوتر بين الملاءمة والتنوع؛ فزيادة دقة التنبؤ بما يحتمل أن يعجب المستخدم قد تقلل أحيانًا من المسافة بين المعروف والجديد، بينما تقوم قيمة القراءة الثقافية في بعض الحالات على مواجهة ما لم يكن القارئ يعرف أنه يحتاج إليه. ولذلك لا ينبغي قياس جودة التوصية فقط

بعدد المرات التي ينقر فيها المستخدم على المقترح، بل ينبغي من منظور ثقافي أن نسأل كذلك عن قدرتها على توسيع أفقه وإدخال التنوع والمفاجأة إلى تجربته.

ويؤثر التخصيص أيضًا في أفق الانتظار، لأن القارئ الذي يرى عبارة مثل «استنادًا إلى قراءاتك السابقة» يدخل إلى العمل وهو يعرف أنه اختير له بسبب تشابه ما، وقد يبدأ في البحث عن هذا التشابه أثناء القراءة. ومن هنا تعمل التوصية بوصفها عتبة تأويلية لا مجرد أداة اكتشاف، لأنها تقدم للنص إطارًا مسبقًا يمكن أن يوجه الانتباه، وهو ما يبرر إدخالها في دراسة التلقي لا تركها حصرًا لعلوم الحاسوب والتسويق.

ـ المبحث الثالث: محركات البحث

ـ ترتيب النتائج

تمثل محركات البحث إحدى أكثر البوابات تأثيرًا في الثقافة الرقمية، لأنها تحول الويب من كتلة يصعب التعامل معها إلى قائمة مرتبة تبدو قابلة للإدارة، وقد كان عمل سيرغي برين ولاري بيج المبكر حول محرك بحث واسع النطاق مثالًا تأسيسيًا على استخدام بنية الروابط التشعبية وغيرها من الإشارات لإنتاج نتائج يُفترض أن تكون أكثر صلة بالاستعلام [5]. ويبين وصفهما الأصلي أن المشكلة لم تكن مجرد العثور على صفحات تحتوي الكلمات نفسها، بل بناء نظام يستطيع ترتيب مجموعات هائلة من المواد وتقديم نتائج أكثر نفعًا للمستخدم .[5]

وتكمن السلطة الأساسية لمحرك البحث في أن القارئ لا يرى «الويب»، بل يرى تمثيلًا مرتبًا للويب، وهذا التمثيل ليس نسخة مصغرة محايدة من كل ما هو موجود، وإنما نتيجة لنظام يحدد الصلة والأهمية وفق مجموعة من العوامل. ومن ثم فإن البحث عملية اختيار مزدوجة؛ يحدد المستخدم الكلمات، بينما يحدد النظام ترتيب المواد التي يرى أنها تستجيب إليها، وبين السؤال والنتيجة تقع طبقة من المعالجة يمكن أن تؤثر في مسار المعرفة.

ويصبح الترتيب مهمًا لأن المستخدم لا يتعامل عمليًا مع جميع النتائج بالدرجة نفسها. فالصدارة تمنح النتيجة فرصة أكبر للرؤية والنقر، ولهذا لا يكون الانتقال من الموضع الأول إلى الموضع العشرين فرقًا مكانيًا فحسب، بل فرقًا في الاحتمال الفعلي للدخول إلى وعي القارئ. وقد أظهرت دراسة ثورستن يواكيمز وزملائه حول بيانات النقر واستخدام تتبع العين أن النقرات توفر إشارات مفيدة عن التفضيل، لكنها متحيزة بالموقع والعرض، أي إن المستخدم لا ينقر فقط لأن النتيجة أفضل، بل لأن ترتيبها يؤثر في ما يراه [6].

وتخلق هذه الحقيقة حلقة مهمة؛ فالترتيب يؤثر في النقر، والنقر يمكن أن يصبح بدوره إشارة تستفيد منها أنظمة التعلم أو التقييم، ولذلك يصبح ما هو ظاهر أكثر قدرة على إنتاج بيانات تؤكد أهميته. ولا يعني هذا أن كل محرك يعمل بالطريقة نفسها أو أن النقر يستخدم دائمًا بالصورة ذاتها، لكن المبدأ العام يكشف أن **الرؤية والسلوك ليسا مستقلين تمامًا**، وأن ترتيب المعلومات يستطيع أن يدخل في دورة تعيد إنتاج بعض أنماط الانتباه.

ومن منظور القارئ الهجين، ينبغي أن تتحول معرفة هذا الترتيب إلى جزء من الكفاية البحثية. فالقارئ الذي يتوقف عند النتيجة الأولى يفوض إلى النظام جزءًا كبيرًا من قرار الاختيار، بينما القارئ الذي يقارن مواضع متعددة ويغير صياغة السؤال ويبحث في قواعد متخصصة يمارس سيطرة أكبر على مسار الوصول. ومن هنا لا تعني الكفاءة في محركات البحث القدرة على «إيجاد شيء» فقط، بل القدرة على إدراك أن القائمة نفسها تفسير خوارزمي للسؤال.

- السلطة المعرفية للصدارة الرقمية

تنبع السلطة المعرفية للصدارة الرقمية من قابلية الترتيب لأن يتحول في وعي المستخدم من ترتيب تقني إلى ترتيب في المصداقية أو الأهمية، بحيث يبدو ما يأتي أولًا أكثر سلطة حتى عندما لا يكون الموضع مرادفًا للحقيقة. وهنا يحدث انتقال دقيق من **ترتيب النتائج إلى ترتيب الثقة**، وهو انتقال لا يصنعه النظام وحده، بل ينتج من الطريقة التي يتعلم بها المستخدمون التعامل مع الواجهة.

وقد حذر غيليسبي من «وعد الموضوعية الخوارزمية»، أي الميل إلى التعامل مع الاختيار الحسابي كما لو كان أقل ذاتية من الاختيار البشري، مع أن تصميم أنظمة الصلة نفسه يتضمن قرارات حول ما ينبغي أن يقاس وكيف ينبغي أن يرتب [2]. كما قدمت صفية أوموجا نوبل في

Algorithms of Oppression نقدًا واسعًا لفكرة أن محركات البحث أرض محايدة لجميع الأفكار والهويات، وأظهرت من خلال دراستها أن نتائج البحث يمكن أن تعكس تحيزات ثقافية واقتصادية واجتماعية وأن «قابلية الاكتشاف» نفسها ليست موزعة بلا آثار قيمية .[11]

ولا يعني الاعتراف بهذه السلطة أن كل نتيجة متقدمة منحازة أو غير موثوقة، كما لا يعني أن البحث الخوارزمي أقل قيمة من الفهرسة التقليدية، بل يعني أن موقع النتيجة لا ينبغي أن يُعامل بوصفه دليلًا معرفيًا كافيًا. وتصبح مهمة القارئ النقدي أن يفصل بين الصدارة الحسابية والصدارة المعرفية، وأن يسأل عن المصدر والمؤلف والمؤسسة والتاريخ والدليل بدل الاكتفاء بالموضع.

وتزداد أهمية هذا التمييز في البحث الأكاديمي، لأن سهولة الوصول إلى نتيجة قد تجعل بعض المواد أكثر حضورًا في الدراسات لا لأنها الأهم نظريًا، بل لأنها الأكثر قابلية للاكتشاف أو المتاحة رقميًا أو المهيأة لمحركات البحث. ومن هنا يمكن أن تنشأ لا مساواة في الحضور المرجعي بين المعرفة التي تتوافر لها بنية رقمية قوية والمعرفة الموجودة في أرشيفات أو لغات أقل قابلية للفهرسة، وهو أمر ذو أهمية خاصة عند دراسة النصوص العربية والمغاربية والتراثية.

وبهذا تتحول مسألة البحث من مهارة تقنية إلى مسألة إبستمولوجية؛ فالمستخدم لا يحتاج فقط إلى معرفة ما إذا وجد معلومة، بل إلى أن يسأل عن المعرفة التي لم تظهر في الصفحة الأولى، وما اللغات والمصادر التي يحتمل أن تكون ضعيفة التمثيل، وما إذا كانت الصدارة ناتجة عن سلطة علمية أو عن توافق مع معايير النظام. ويصبح الانتقال إلى الصفحة الثانية أو قاعدة أخرى أو فهرس متخصص نوعًا من المقاومة البحثية التي تمنع الواجهة الأولى من أن تصبح حدود المعرفة الممكنة.

ـ المبحث الرابع: الملف الخوارزمي للقارئ

ـ جمع البيانات السلوكية

يقترح هذا الكتاب مفهوم »الملف الخوارزمي للقارئ «بوصفه تعبيرًا إجرائيًا عن التمثيل الحسابي المتغير الذي يمكن أن تبنيه المنصات أو أنظمة التوصية اعتمادًا على ما يتوافر لها من بيانات وإشارات حول المستخدم، ولا يُقصد به ملف واحد ثابت موجود بالطريقة ذاتها في جميع الأنظمة، بل مجموعة من التقديرات والتصنيفات والتمثيلات التي تسمح للنظام بالتنبؤ بما قد يكون ذا صلة بالشخص. ومن المهم التشديد على الطبيعة الإجرائية للمفهوم حتى لا نضفي على الأنظمة معرفة كاملة بالقارئ؛ فالملف الخوارزمي لا يعرف الإنسان كما يعرف ذاته أو كما يعرفه شخص آخر، بل يحوله إلى أنماط قابلة للمعالجة ضمن ما تستطيع المنصة قياسه.

ويجد هذا التحول خلفية في مفهوم «التبيين بالبيانات» أو *datafication* الذي ناقشته خوسيه فان ديك، حيث تتحول جوانب متزايدة من النشاط الإنساني إلى بيانات قابلة للجمع والتحليل، ويصاحب ذلك خطاب يمنح هذه البيانات سلطة كبيرة في تمثيل السلوك والمعرفة [8]. ومن هذا المنظور تصبح القراءة، التي بدت طويلًا نشاطًا داخليًا وخاصًا، قابلة جزئيًا للتحول إلى آثار رقمية؛ فالبحث والنقر والتقييم والحفظ والشراء والتفاعل يمكن أن تصبح، بحسب النظام، عناصر في بناء تمثيل للسلوك .[8]

ولا ينبغي مساواة هذا التمثيل بالقارئ نفسه، لأن النظام لا يرى الصمت أو التردد أو الانفعال أو السبب الكامل وراء ترك كتاب أو اختيار آخر، كما أن السلوك الواحد يمكن أن يحمل معاني مختلفة؛ فقد يبحث الشخص عن كتاب لأنه يحبه أو لأنه ينتقده، وقد يفتح مادة لأنه يدرسها لا لأنها تمثل ذوقه، وقد يتوقف عن القراءة لأن النص صعب أو لأن ظرفًا خارجيًا قطعه. ومن هنا يكون الملف الخوارزمي اختزالًا وظيفيًا لا صورة كاملة للذات.

لكن هذا الاختزال يمكن أن يكون فعالًا من منظور التنبؤ حتى عندما يكون ناقصًا من منظور الفهم الإنساني، لأن النظام لا يحتاج إلى معرفة لماذا يحب القارئ نوعًا أدبيًا إذا كان يستطيع اكتشاف نمط يساعده على تقديم توصية تحقق تفاعلًا مرتفعًا. وهنا يظهر فرق جوهري بين تفسير الإنسان والتنبؤ بالسلوك؛ فالمنصة قد تنجح في توقع الاختيار من دون امتلاك نظرية حقيقية عن التجربة الثقافية التي تقف وراءه.

ويعيد هذا التمييزنا إلى قاعدة الكتاب الأساسية التي ظهرت عند الحديث عن الذكاء الاصطناعي: لا تحتاج الآلة إلى أن تفهم القارئ بالطريقة التي يفهم بها الإنسان نفسه لكي تؤثر في ما يراه ويقرأه. ومن هنا تصبح معالجة البيانات جزءًا من بنية التلقي حتى عندما تظل دوافع القارئ الداخلية خارج متناول النظام.

- التنبؤ بالاختيارات

يمثل التنبؤ جوهرًا أساسيًا من وظائف التوصية، لأن النظام يسعى إلى تقدير احتمال اهتمام المستخدم بعنصر لم يتعامل معه بعد اعتمادًا على الإشارات المتاحة. وقد تطورت تقنيات التوصية حول مشكلة تقديم عناصر يحتمل أن تكون مفيدة للمستخدم، سواء بالاعتماد على التشابه بين العناصر أو المستخدمين أو السياق أو التغذية الراجعة الضمنية وغيرها من الأساليب [3].

ويغير التنبؤ طبيعة العلاقة بين القارئ والمنصة، لأن النظام لا ينتظر السلوك فقط بل يحاول استباقه، وهو ما يجعل المستقبل القرائي موضوعًا للحساب. فإذا كان الفهرس التقليدي يقول «هذه الكتب موجودة»، فإن نظام التوصية يقول ضمنيًا «هذه الكتب قد تكون الأقرب إليك»، وبذلك ينتقل الوسيط من تنظيم المخزون إلى بناء احتمالات حول الذات.

ولا تكون هذه الاحتمالات بلا آثار، لأن التنبؤ عندما يتحول إلى توصية يدخل إلى البيئة ويستطيع أن يغير السلوك الذي كان يحاول توقعه. فإذا توقع النظام أن قارئًا يحب نوعًا معينًا وعرضه عليه باستمرار، فقد يزداد

استهلاكه لهذا النوع، فتأتي البيانات الجديدة لتقوي النموذج الأول، وتتشكل حلقة يمكن تسميتها الدورة التنبؤية للذائقة :توقع → عرض → اختيار → بيانات → توقع أقوى. ولا تعني هذه الحلقة أن القارئ يفقد حريته، لكنها تكشف كيف يمكن للتنبؤ أن يصبح جزئيًا منتجًا للشروط التي تجعل نفسه يبدو صحيحًا.

ومن هنا يظهر خطر اختزال القارئ إلى ماضيه، لأن النموذج الجيد تجاريًا قد يكون هو الذي يتنبأ بما سيفعله المستخدم بناءً على ما فعله من قبل، بينما القراءة بوصفها تجربة ثقافية تستطيع أن تقوم على التحول وكسر العادات واكتشاف اهتمام لم يكن موجودًا. ولذلك يحتاج تصميم التوصية، من منظور ثقافي، إلى التوازن بين الاستغلال لما نعرفه عن التفضيلات والاستكشاف الذي يقدم شيئًا جديدًا، كما يحتاج القارئ نفسه إلى إدراك أنه يستطيع كسر النمط الذي يبنيه النظام عنه.

ومن هنا يصبح مفهوم «الملف الخوارزمي» مهمًا كذلك لفهم الهوية القرائية؛ فالقارئ لديه تصور عن نفسه، بينما تبني المنصة تصورًا وظيفيًا عنه، وقد يتفق التصوران أو يختلفان. ويمكن أن يفاجأ الإنسان بتوصية تكشف نمطًا لم ينتبه إليه، كما يمكن أن يشعر أن النظام حبسه داخل هوية قديمة لم تعد تمثله. وهذه المسافة بين الذات التي يرويها القارئ عن نفسه والذات التي تتنبأ بها الخوارزمية ستكون مجالًا أساسيًا للقارئ الميتا خوارزمي الذي يقرأ ليس النصوص فقط، بل الصورة التي يبنيها النظام عنه.

ـ المبحث الخامس: فقاعات الترشيح

ـ تضييق أفق القراءة

ارتبط مفهوم «فقاعة الترشيح» على نطاق واسع بإيلي باريزر الذي استخدمه لوصف بيئة معلوماتية تتشكل من خلال التخصيص، بحيث يمكن للمستخدم أن يجد نفسه محاطًا بصورة متزايدة بما ينسجم مع اهتماماته وسلوكه السابق من دون أن يختار جميع عمليات الاستبعاد التي أدت إلى ذلك [9]. وقد جعل هذا المفهوم مشكلة التخصيص موضوعًا عامًا للنقاش، لأنه نبه إلى أن الراحة التي توفرها الخوارزمية قد تأتي أحيانًا على حساب التنوع والتعرض لغير المتوقع

غير أن البحث الأكاديمي اللاحق يقتضي التعامل مع مفهوم الفقاعة بحذر، لأن الأدلة لا تدعم دائمًا صورة المستخدم المحبوس بصورة كاملة داخل عالم مغلق صنعته الخوارزمية. فقد درس سيث فلاكسمان وشاراد غويل وجاستن راو أنماط استهلاك الأخبار لدى نحو خمسين ألف مستخدم في الولايات المتحدة، ووجدوا صورة مركبة؛ إذ ارتبط البحث ووسائل التواصل بقدر من الفصل الأيديولوجي، لكنهما ارتبطا كذلك بزيادة التعرض لبعض الآراء المخالفة، كما كان الحجم العام لبعض التأثيرات أكثر تواضعًا من التصورات القصوى حول الفقاعات المغلقة [10]. ومن ثم فإن استخدام مفهوم فقاعات الترشيح في هذا الكتاب ينبغي أن يكون بوصفه إمكانًا أو آلية للتضييق لا قانونًا حتميًا لكل تخصيص .

ويكتسب هذا الاحتراز أهمية خاصة عند نقل المفهوم من الأخبار والسياسة إلى القراءة الأدبية والثقافية، لأن طبيعة الاستهلاك مختلفة ولا يمكن افتراض النتائج نفسها دون دراسة. ومع ذلك يظل السؤال صالحًا: هل يمكن لتوصيات الكتب التي تستند بقوة إلى التشابه أن تقلل من تعرض القارئ إلى أجناس ولغات ومدارس وأفكار مختلفة؟ وإذا كان الجواب ممكنًا، فإننا نستطيع الحديث بصورة إجرائية عن فقاعة قراءة أو تضييق خوارزمي لأفق

القراءة، مع إبقاء الحاجة إلى البحث التجريبي مفتوحة بدل تقديمه كحقيقة محسومة.

ويعمل هذا التضييق على أكثر من مستوى؛ فقد يكون موضوعيًا حين يرى القارئ كتبًا من المجال نفسه، أو لغويًا حين تهيمن لغة على الاقتراحات، أو جغرافيًا حين تبقى الأعمال الصادرة عن مراكز نشر معينة أكثر ظهورًا، أو ذوقيًا حين تتكرر الأنماط التي سبق أن حصلت على تقييم إيجابي. كما يمكن أن يحدث تضييق تأويلي عندما تقدم المنصات أو الأنظمة الذكية باستمرار القراءات الأكثر تداولًا، فتقل فرصة الوصول إلى قراءات هامشية أو معارضة.

ومن هنا يمكن توسيع مفهوم الفقاعة من «فقاعة المحتوى» إلى فقاعة التأويل، وهي حالة افتراضية يصبح فيها القارئ معرضًا على نحو متكرر إلى مجموعة محدودة من طرق فهم النصوص، سواء بسبب الشعبية أو الترتيب أو طبيعة البيانات التي تتعلم منها الأنظمة. ولا يعني ذلك أن الخوارزمية تمنع المعاني الأخرى، بل أن تكلفة اكتشافها تصبح أعلى لأنها ليست في المسار الافتراضي.

وتصبح خطورة هذا التضييق أكبر حين لا يكون القارئ واعيًا به، لأن المستخدم الذي يعرف أن القائمة شخصية يستطيع أن يبحث خارجها، أما من يعتقد أن ما يراه يمثل ببساطة «أفضل الكتب» أو «أهم النتائج» فقد يحول تخصيصًا خاصًا إلى حكم عام على الثقافة. ومن هنا فإن الوعي بحدود القائمة شرط أول لمقاومة الفقاعة.

- المصادفة والاكتشاف خارج الاقتراحات

تكتسب المصادفة الثقافية قيمة خاصة في البيئة الخوارزمية لأن القراءة لا تتطور فقط من خلال ما يشبه اهتماماتنا، بل كذلك من خلال ما يصدمها ويغيرها. فجزء من تكوين الذائقة يأتي من الكتاب الذي لم نكن نبحث عنه، أو من الكاتب الذي لا ينتمي إلى الدائرة التي نعرفها، أو من الكتاب

القديم الذي لا يملك مؤشرات التفاعل التي تدفعه إلى واجهة المنصة. ومن هنا لا ينبغي أن يكون معيار جودة البيئة القرائية قدرتها على توقع القارئ فقط، بل قدرتها أيضًا على إتاحة ما يفلت من التوقع.

ولا تعني المصادفة غياب كل تنظيم، لأن المكتبات نفسها تصنف والناشرون يختارون، لكنها تعني وجود مساحات لا تختزل بالكامل في التخصيص الشخصي. ويمكن للمنصات نفسها أن تصمم إمكانات للاكتشاف العشوائي أو للتنوع، كما يستطيع المستخدم أن يبني ممارسات مضادة، كاختيار كتب من قوائم لا تستند إلى تاريخه، أو البحث في مكتبات وفهارس مختلفة، أو قراءة أعمال من لغات وأقاليم ومدارس لا يعرفها.

ومن هنا اقترح الكتاب سابقًا مفهوم »العصيان القرائي« بوصفه ممارسة لا تهدف إلى معاداة الخوارزمية، بل إلى كسر المسار الأكثر توقعًا عندما يحتاج القارئ إلى توسيع أفقه. ويتحقق هذا العصيان حين يقرر المستخدم تجاهل القائمة المخصصة، أو يطلب من النظام أن يقترح نقيض ذوقه، أو يبحث عن أصوات لا تحظى بالانتشار، أو يبدأ من فهرس أبجدي بدل توصية، أو يدخل إلى رف افتراضي أو مادي لا يعرف مسبقًا ما سيجده فيه.

وتساعد هذه الممارسة على إعادة تعريف استقلال القارئ داخل البيئة الخوارزمية. فالاستقلال لا يعني أن يرفض كل توصية، لأن ذلك سيكون إنكارًا لفائدة واضحة يمكن أن توفرها الأنظمة في مواجهة الوفرة، بل يعني أن يعرف أن التوصية اقتراح وليست قدرًا، وأن يمتلك استراتيجيات للخروج منها. ومن هنا يمكن القول إن القارئ المستقل لا يثبت حريته برفض الخوارزمية، بل بقدرته على الانتقال بين استخدام مسارها ومغادرته.

ويصبح الاكتشاف خارج الاقتراحات مهمًا كذلك لحماية القراءة من «التطابق مع الذات»، لأن الثقافة ليست مرآة فقط، بل فضاء لتغيير الإنسان. فإذا كانت الخوارزمية ممتازة في إعادة ما يشبه تاريخنا، فإن القارئ يحتاج إلى آليات تعيده أحيانًا إلى ما لا يشبهه، وهذه المسافة بين المتوقع والمختلف

هي واحدة من الشروط التي تجعل القراءة تجربة لتوسيع الذات بدل أن تصبح مجرد تأكيد رقمي لها.

ـ المبحث السادس: سلطة الوسيط الخوارزمي

ـ *المرئي والمخفي*

تتمثل سلطة الوسيط الخوارزمي في جانب أساسي منها في القدرة على تنظيم العلاقة بين المرئي والمخفي، لأن الخوارزمية لا تحتاج إلى حظر نص لكي تؤثر في فرص قراءته، بل يكفي أحيانًا أن تضعه في موضع ضعيف الظهور أو ألا تدخله في دوائر التوصية. ومن هنا تختلف السلطة الخوارزمية عن الرقابة المباشرة؛ فهي قد تعمل من خلال الترتيب والتخفيض والتكرار والإهمال، وهي عمليات تبدو أقل درامية من الحذف لكنها تستطيع أن تنتج آثارًا ثقافية عميقة على المدى الطويل.

وقد وضع غيليسبي «الإدراج والاستبعاد والتخفيض» ضمن العناصر التي ينبغي دراستها لفهم خوارزميات الصلة، لأن ما لا يظهر أو ما يتراجع داخل الترتيب جزء من عمل النظام بقدر ما يظهر في المقدمة .[2] وتذهب بوخر إلى تحليل القوة الخوارزمية بوصفها علاقة تتجاوز فكرة أن الخوارزمية «تفعل» شيئًا بالمستخدم بصورة خطية، إذ تتشكل هذه القوة من العلاقات بين التصميم والتوقعات والممارسات وردود الفعل التي يعيشها الناس داخل المنصات [7 .]

ويهم مشروع القارئ الهجين أن يضيف إلى مفهوم «النص المقروء» مفهوم النص الممكن رؤيته، لأن تاريخ الأدب نفسه يمكن أن يتأثر بمنطق القابلية للاكتشاف. فإذا بقيت أعمال معينة في دوائر الظهور لأنها تملك بيانات تفاعل قوية، بينما تظل أعمال أخرى خارجها لأنها جديدة أو نادرة أو تنتمي إلى لغات ومؤسسات أقل حضورًا، فإن الخوارزمية تشارك بصورة غير مباشرة في إعادة توزيع الرأسمال الثقافي.

وهنا يظهر البعد السياسي والثقافي للنقد الذي قدمته صفية نوبل لمحركات البحث، إذ تبين دراستها أن الوصول إلى المعلومات وترتيبها يمكن أن يعكس علاقات القوة والتحيزات الموجودة في الثقافة والمؤسسات والاقتصاد، ومن ثم لا ينبغي فصل نظام البحث عن العالم الذي أنتجه .[11] ولا يعني نقل هذه

الفكرة إلى القراءة الأدبية افتراض نوع واحد من التحيز، بل يعني طرح أسئلة عن تمثيل اللغات والثقافات ودور النشر والأنواع الأدبية، وعن الأسباب التي تجعل نصًا مرئيًا والآخر غائبًا.

ومن هنا يمكن تعريف سلطة الإظهار والإخفاء بأنها قدرة الوسيط على إعادة توزيع احتمالات اللقاء بين القارئ والنص دون أن يحتاج إلى التحكم النهائي في قرار القراءة. وهذه السلطة لا تسلب القارئ حريته، لكنها تعيد تشكيل الحقل الذي تمارس فيه تلك الحرية، وهو ما يجعلها موضوعًا مشروعًا للنقد الأدبي والثقافي، لا مسألة تقنية خارج مجال النظرية.

ويترتب على ذلك أن القراءة الميتا خوارزمية، التي سيخصص لها الكتاب فصلًا لاحقًا، تبدأ من سؤال يبدو بسيطًا :ما الذي لا أراه؟ فهذا السؤال ينقل القارئ من التعامل مع الواجهة باعتبارها العالم إلى إدراك أنها تمثيل جزئي للعالم، ويجعله قادرًا على البحث عن المسارات المحذوفة أو الضعيفة الظهور أو غير المخصصة له.

ـ *شفافية الخوارزمية ومساءلتها*

إذا كانت الخوارزمية تشارك في ترتيب ما يراه القارئ، فمن الطبيعي أن تظهر المطالبة بالشفافية بوصفها وسيلة لفهم الوسيط واستعادة جزء من السيطرة عليه. غير أن الشفافية نفسها مفهوم أكثر تعقيدًا مما يبدو، لأن معرفة الشفرة أو إعلان بعض عوامل الترتيب لا يضمنان وحدهما فهم النظام في الواقع، خصوصًا عندما تكون المنصات أنظمة اجتماعية وتقنية ضخمة تتغير باستمرار. وقد ناقش مايك أناني وكيت كروفورد حدود «مثال الشفافية» في مساءلة الأنظمة الخوارزمية، وأكدا أن رؤية النظام لا تعني بالضرورة معرفة كيفية عمله أو امتلاك القدرة على محاسبته، وأن المساءلة تحتاج إلى مقاربات أوسع من مجرد فتح «الصندوق الأسود.[12] «

وتكتسب هذه الملاحظة أهمية كبيرة بالنسبة إلى القارئ، لأنه ليس مطلوبًا منه أن يصبح مبرمجًا قادرًا على تحليل ملايين الأسطر من الشفرة،

كما أن هذا النوع من المعرفة قد لا يكون ممكنًا أصلًا في الأنظمة التجارية المغلقة، ولذلك يجب أن تكون الشفافية التي يحتاج إليها القارئ شفافية وظيفية قابلة للاستعمال .فهو يحتاج إلى معرفة ما إذا كان المحتوى مخصصًا، وما أنواع البيانات التي تؤثر فيه بصورة عامة، وما إذا كان يمكن تعديل التوصيات أو إيقافها، وكيف يمكن رؤية خيارات غير مخصصة، وما الفرق بين نتيجة عضوية وإعلان، وما الحدود التي تعلنها المنصة عن النظام.

ومن هنا لا تعني المساءلة كشف كل سر تقني، بل بناء شروط تسمح للمستخدم والباحث والمؤسسة بفحص آثار النظام. ويمكن أن تشمل المقارنة بين حسابات مختلفة، أو تغيير الأسئلة، أو اختبار ثبات النتائج، أو تحليل ما يظهر وما يغيب، أو الاعتماد على بحوث تدقيق مستقلة، وهي ممارسات تجعل النقد ممكنًا حتى عندما لا تكون البنية الداخلية كاملة الشفافية.

ويظهر هنا مفهوم الوعي الخوارزمي بوصفه حلقة أساسية بين الشفافية المؤسسية وقدرة الفرد على التصرف. فقد بينت أبحاث أودلف-هيرش ونويباوم أن الوعي بالخوارزميات يرتبط ليس بالمعرفة فقط، بل كذلك بالمواقف والسلوك الذي يتخذه المستخدم تجاه المنصات [13]، وهو ما يسمح بتطوير مفهوم الكفاءة الخوارزمية النقدية داخل نظرية القارئ الهجين؛ فالمطلوب ليس معرفة أن خوارزمية موجودة فقط، بل تحويل هذه المعرفة إلى ممارسة مثل المقارنة وتوسيع البحث والتحقق والخروج من التخصيص عندما يكون ذلك ضروريًا .

وتقودنا هذه المسألة إلى تمييز بين شفافية النظام وشفافية القارئ تجاه نفسه .فحتى لو قدمت المنصة معلومات عن طريقة التوصية، يحتاج المستخدم إلى أن يسأل عن سلوكه هو: لماذا أنقر دائمًا على النتائج الأولى؟ لماذا أقبل المقترحات المتشابهة؟ هل أصبحت أتجنب البحث المفتوح لأن التوصية أسهل؟ ما الوظائف التي سلمتها للمنصة دون أن أنتبه؟ ومن هنا تصبح المساءلة عملية مزدوجة تستهدف الوسيط وعادات القارئ في آن واحد.

وتتصل هذه العملية مباشرة بمفهوم السيادة التأويلية الذي طوره الكتاب في الفصول السابقة؛ فالسيادة لا يمكن أن تتحقق إذا كان القارئ لا يعرف البوابة التي يمر عبرها إلى النص، كما لا تتحقق لمجرد معرفة وجودها، بل تحتاج إلى قدرة على تعديل العلاقة معها. ومن هنا يكون القارئ الميتا خوارزمي هو الذي يستطيع أن يقول: أعرف أن هذه القائمة مخصصة، وأستطيع استخدامها لأنها مفيدة، لكنني أستطيع كذلك أن أغادرها وأبني مسارًا آخر.

الخوارزمية ومرحلة ما قبل القراءة

يتيح مجموع المباحث السابقة استخلاص نتيجة نظرية مهمة تتمثل في ضرورة الاعتراف بما يمكن تسميته »**مرحلة ما قبل القراءة الخوارزمية**«، وهي المرحلة التي تسبق المواجهة المباشرة مع النص، لكن تجري فيها عمليات قد تؤثر في اختياره وتوقعه وتأطيره. وتشمل هذه المرحلة نتائج البحث والتوصيات والتقييمات والتصنيفات والملف الشخصي والواجهة والقوائم وغيرها من العناصر التي تعمل بوصفها عتبات رقمية وخوارزمية.

ولا تمثل هذه المرحلة اكتشافًا بأن للكتاب عتبات، فقد عرفت الدراسات الأدبية منذ زمن أهمية الغلاف والعنوان والمقدمة والناشر والنقد، لكن البيئة الخوارزمية تجعل العتبة ديناميكية وشخصية وقابلة لإعادة الترتيب باستمرار .فالعتبة المطبوعة ثابتة نسبيًا لكل القراء، بينما قد تتغير العتبة الرقمية من مستخدم إلى آخر، وبذلك يصبح من الممكن الحديث عن عتبات خوارزمية شخصية تدخل في تكوين استقبال العمل.

ومن هنا ينبغي إعادة بناء دورة التلقي بحيث لا تبدأ بالنص، بل تبدأ من المجال الذي يجعل النص ممكن الوصول. ويمكن تمثيلها في الصيغة التالية :**بيانات وتفضيلات سابقة** ← **ترتيب أو توصية** ← **ظهور النص** ← **تكوين توقع** ← **اختيار القارئ** ← **القراءة** ← **تفاعل جديد** ← **بيانات جديدة** .وتكشف هذه الدورة أن التلقي الخوارزمي ليس حدثًا يحدث مرة واحدة، بل نظام تغذية راجعة يعيد إنتاج شروط القراءة في كل دورة.

وهذا هو الفرق الجوهري بين الوسيط التقليدي والوسيط الخوارزمي؛ فالمكتبي قد يعرف القارئ ويقترح عليه كتاباً، لكن النظام يستطيع القيام بذلك لملايين الأفراد باستمرار ووفق بيانات متراكمة، كما يستطيع تعديل اقتراحه لحظة بلحظة. ولا يجعل الحجم الحسابي الوساطة أكثر «إنسانية» أو أكثر فهماً، لكنه يجعلها أكثر قابلية للاندماج في الحياة اليومية وأقل ظهوراً بوصفها فعل اختيار صادراً عن وسيط.

ومن هنا يكتسب مفهوم **التلقي الخوارزمي** تعريفه الأكثر دقة: إنه عملية استقبال النصوص داخل بيئة تتدخل فيها الخوارزميات في الاختيار والترتيب والإظهار والتوصية والتخصيص، بحيث تصبح شروط وصول النص إلى القارئ جزءاً من البنية التي ينبغي لنظرية القراءة أن تدرسها. ولا يعني المفهوم أن الخوارزمية تحل محل التلقي البشري، بل أن التلقي البشري أصبح في بعض الحالات مؤطراً خوارزمياً قبل أن يبدأ الفهم النصي المباشر.

<u>من بوابة النص إلى بوابة المعنى</u>

تكشف دراسة الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص عن نقطة تحول تمهد للفصول التالية من هذا الكتاب، لأن النظام الذي يقرر بدرجات مختلفة ما يصل إلى القارئ يستطيع أن يتحرك تدريجياً من تنظيم الوصول إلى تنظيم الانتباه ثم إلى التأثير في الذائقة، قبل أن يدخل، مع الذكاء الاصطناعي التوليدي، إلى مجال الشرح والتأويل. ومن هنا لا ينبغي التعامل مع التوصية والبحث والذكاء الاصطناعي بوصفها ظواهر منفصلة، بل مراحل في تاريخ متصل للوساطة الخوارزمية.

في المرحلة الأولى كانت التقنية تساعد على العثور على النص، وفي الثانية بدأت تساعد على اختيار النص، ثم أصبحت قادرة على توقع النص الذي قد يهم القارئ، أما المرحلة التوليدية فتجعلها قادرة على إنتاج كلام حول ما قد يعنيه النص .وهكذا تنتقل الخوارزمية من بوابة النص إلى بوابة المعنى، وهو الانتقال الذي سيجعل الفصول المتعلقة بالذائقة والذكاء الاصطناعي والتأويل ضرورة منطقية في بناء النظرية.

ويظهر في هذا التسلسل أن الخطر لا يتمثل في مرحلة واحدة، بل في تراكم الوساطة؛ فقد يصل القارئ إلى كتاب لأن النظام أوصى به، ثم يرى حوله مراجعات رتبت خوارزمياً، ثم يستخدم محرك البحث الذي يرتب الشروح، ثم يسأل نظاماً توليدياً أن يفسر النص، وعندها تمر تجربته عبر طبقات من الوساطة يمكن أن تكون كل واحدة مفيدة في ذاتها، لكن اجتماعها يحتاج إلى وعي أكبر بكيفية تشكل المسار. ومن هنا يصبح أحد أهداف القارئ الهجين النقدي هو القدرة على تفكيك هذا التراكم ومعرفة أين دخل كل وسيط وما الذي أضافه.

ويمكن تسمية هذه القدرة إدارة الوساطة القرائية، أي معرفة متى يبدأ النظام في تشكيل مجال الاختيار، ومتى يدخل إلى الفهم، ومتى ينبغي الرجوع إلى نص أو مصدر خارج الدائرة. ولا يعني ذلك السعي إلى قراءة «نقية» خالية من الوسائط، لأن مثل هذه القراءة لم توجد تاريخياً، وإنما السعي إلى قراءة تعرف وسائطها بدل أن تنكرها.

خاتمة الفصل السابع

أظهر هذا الفصل أن الخوارزمية أصبحت بوابة أساسية إلى النص في عدد متزايد من البيئات الرقمية، لا بمعنى أنها تمنع القارئ من الوصول إلى الثقافة أو تجرده من اختياراته، بل بمعنى أن الاكتشاف والترتيب والتوصية والتخصيص لم تعد تقع خارج فعل التلقي، وإنما أصبحت جزءًا من الشروط التي تشكل مجال ما يمكن أن يقرأه الفرد. ومن هنا فإن الانتقال من المكتبة إلى المنصة يمثل تحولًا من فضاء تكون فيه الوساطة أكثر ثباتًا ووضوحًا إلى فضاء ديناميكي تستطيع فيه القوائم والواجهات أن تتغير وفق البيانات والسياق، وهو ما يجعل المنصة وسيطًا ثقافيًا يشارك في توزيع الانتباه وليس مخزنًا محايدًا للمحتوى [1.[2]][

وقد بيّن تحليل أنظمة التوصية أن منطق الاقتراح يقوم على مساعدة المستخدم في مواجهة وفرة الخيارات، لكنه يحول في الوقت نفسه التفضيلات إلى بيانات قابلة للتوقع، ويخلق دورة يتفاعل فيها السلوك السابق مع الاقتراحات اللاحقة [3][4]. ومن هنا لا ينبغي النظر إلى الذائقة بوصفها مادة مستقرة تكتشفها الخوارزمية فقط، ولا إلى النظام بوصفه قوة تصنع الذوق من الخارج، بل إلى العلاقة بوصفها حلقة من التغذية الراجعة التي يؤثر فيها القارئ في النموذج ويؤثر النموذج في مجال اختيارات القارئ.

كما كشف تحليل محركات البحث أن ترتيب النتائج ليس إجراءً بريئًا من الناحية المعرفية، لأن الموضع يؤثر في الرؤية والنقر، وتستطيع الصدارة الرقمية أن تتحول في وعي المستخدم إلى مؤشر ضمني على الصدقية أو الأهمية، وهو ما يفرض على القارئ التمييز بين ترتيب النظام والقيمة المعرفية للمصدر [5][6][11]. ومن هنا تصبح الكفاية البحثية أوسع من القدرة على كتابة الكلمات المفتاحية، لأنها تتطلب التعامل مع النتيجة الأولى بوصفها اقتراحًا مرتبًا لا حقيقة أولى.

أما مفهوم «الملف الخوارزمي للقارئ» فقد سمح بإظهار أن القراءة أصبحت قابلة جزئيًا للتحول إلى بيانات، وأن المنصات تستطيع استخدام آثار السلوك لبناء

تمثيلات وظيفية تساعد على التنبؤ بالاختيارات، غير أن هذه التمثيلات لا ينبغي أن تخلط بالذات الإنسانية نفسها، لأنها تلتقط ما يمكن قياسه ولا تستوعب بالضرورة دوافع التجربة أو تعقيدها [8]. ومن هنا يظهر توتر أساسي بين قدرة الخوارزمية على التنبؤ وبين محدودية فهمها للمعنى الإنساني لهذا السلوك.

وقد فرضت فقاعات الترشيح بدورها درجة من الاحتراز النظري؛ ففكرة التضييق الناتج عن التخصيص مفيدة في وصف خطر حقيقي محتمل، لكنها لا ينبغي أن تتحول إلى قانون عام يفترض أن كل مستخدم محاصر داخل فقاعة مغلقة، لأن الدراسات التجريبية قدمت نتائج أكثر تركيبًا تظهر إمكان حدوث العزل والتنوع في الوقت نفسه [9][10]. ومن هنا يستخدم هذا الكتاب مفهوم «فقاعة القراءة» باعتباره فرضية تحليلية تحتاج إلى إثبات داخل الممارسة القرائية، ويقابلها بمفهوم المصادفة الثقافية والعصيان القرائي بوصفهما طريقتين لتوسيع الأفق خارج ما يتنبأ به النظام.

وأخيرًا كشف تحليل سلطة الوسيط أن القوة الخوارزمية لا تعمل بالمنع الصريح وحده، بل عبر الإظهار والإخفاء والترتيب والتكرار والتخفيض، وهو ما يجعل القابلية للاكتشاف نفسها مسألة ثقافية وسياسية تستحق النقد [2][7][11]. كما ظهر أن الشفافية، على أهميتها، ليست حلًا كاملًا، لأن كشف جوانب النظام لا يضمن فهم آثاره أو القدرة على مساءلته، ولذلك تحتاج القراءة النقدية إلى الانتقال من مطلب رؤية الخوارزمية إلى بناء قدرة عملية على فحص مخرجاتها ومقارنتها والخروج من مساراتها [12.][13][

وبذلك يضيف هذا الفصل إلى النموذج النظري للكتاب حلقة كانت نظريات التلقي التقليدية لا تحتاج إلى وضعها في المركز؛ إذ لم يعد المسار يبدأ بـالنص ثم القارئ، بل يمكن أن يبدأ بـبيانات القارئ والخوارزمية والمنصة ثم ظهور النص ثم القراءة، وبعد القراءة تعود البيانات الجديدة إلى النظام لتؤثر في الدورة المقبلة. ويمكن تمثيل البنية كاملة بالصورة التالية :سلوك سابق → بيانات → ملف خوارزمي → بحث أو توصية →

ترتيب وإظهار → اختيار بشري → قراءة → تفاعل → بيانات جديدة، وهي دورة تجعل الخوارزمية طرفًا في شروط التلقي قبل أن تدخل إلى التأويل نفسه.

ومن هنا يمهد هذا الفصل مباشرة للفصل التالي المتعلق باقتصاد الانتباه وصناعة الذائقة الأدبية، لأن الوسيط الذي يحدد ما يظهر لا ينظم الاختيار فقط، بل يدخل إلى المنافسة على وقت القارئ، وتصبح التقييمات والمقاييس والمؤثرون والمنصات جزءًا من نظام جديد لإنتاج القيمة الثقافية. فإذا كان السؤال هنا هو «ما الذي يصل إلى القارئ؟»، فإن السؤال التالي سيكون «ما الذي يجعل القارئ ينتبه إلى نص أكثر من آخر، وكيف تتحول هذه العملية مع الوقت إلى صناعة خوارزمية للذائقة؟.«

المراجع والمصادر والإشارات

[1] van Dijck, José; Poell, Thomas & de Waal, Martijn. *The Platform Society: Public Values in a Connective World*. New York: Oxford University Press, 2018.

يمثل الكتاب مرجعًا أساسيًا لفهم المنصات بوصفها بنى تحتية اجتماعية وثقافية واقتصادية، ويفيد في هذا الفصل في تحليل الانتقال من المكتبة إلى المنصة وفي إدراك أن التنظيم التقني للمحتوى جزء من البيئة الثقافية لا مجرد خدمة خارجية. وتثبت Oxford University Press **صدور الكتاب سنة** 2018 **وتقديمه تحليلًا للمجتمع الذي أصبحت فيه المنصات وسيطًا لمجالات متعددة من الحياة العامة**(OUP Academic) .

[2] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014.

مرجع مركزي في تحليل دور خوارزميات البحث والتوصية والمنصات في تحديد ما يعد ذا صلة وفي عمليات الإدراج والاستبعاد والترتيب، ويؤسس لمساءلة ادعاءات الموضوعية الخوارزمية وللنظر إلى الأنظمة الحسابية بوصفها جزءًا من الممارسات الاجتماعية والمؤسساتية للمعرفة (OUP Academic) .

[3] Ricci, Francesco; Rokach, Lior & Shapira, Bracha (eds.). *Recommender Systems Handbook*. 2nd ed. New York: Springer, 2015. **وانظر خصوصًا**: Ricci, Francesco; Rokach, Lior & Shapira, Bracha, "Recommender Systems: Introduction and Challenges," pp. 1–34.

يقدم المرجع الأساس التقني والمفاهيمي لفهم أنظمة التوصية بوصفها أدوات تقترح عناصر يحتمل أن تكون ذات اهتمام للمستخدم وتساعده على التعامل مع وفرة الخيارات، كما يعرض أشكالًا متعددة للتوصية والتخصيص . (Springer Nature)

[4] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media*

& Society, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.

يمثل مرجعًا مهمًا لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل الطريقة التي يعاد من خلالها تحويل الذوق والتفضيل والمنتجات الثقافية إلى بيانات وعمليات تصنيف وتوصية(Sage Journals) .

[5] Brin, Sergey & Page, Lawrence. "The Anatomy of a Large-Scale Hypertextual Web Search Engine." *Computer Networks and ISDN Systems*, Vol. 30, Issues 1–7, 1998, pp. 107–117. DOI: 10.1016/S0169-7552(98)00110-X.

مرجع تاريخي أساسي في تطور محركات البحث الحديثة، ويعرض المبادئ التي قام عليها نموذج مبكر لمحرك واسع النطاق يستخدم بنية الروابط التشعبية إلى جانب الفهرسة من أجل ترتيب النتائج وتقديم ما يعتبر أكثر صلة بالاستعلام(Google Research) .

[6] Joachims, Thorsten; Granka, Laura; Pan, Bing; Hembrooke, Helene & Gay, Geri. "Accurately Interpreting Clickthrough Data as Implicit Feedback." In *Proceedings of the 28th Annual International ACM SIGIR Conference on Research and Development in Information Retrieval*, 2005, pp. 154–161. DOI: 10.1145/1076034.1076063.

دراسة مؤثرة في العلاقة بين ترتيب نتائج البحث وسلوك النقر، وقد بينت من خلال التجربة وتتبع العين أن النقرات تحمل معلومات عن التفضيل لكنها تتأثر كذلك بتحيزات العرض والموقع، وهو ما يدعم تحليل سلطة الصدارة الرقمية(Google Research) .

[7] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم الكتاب إطارًا نقديًا لفهم القوة الخوارزمية بوصفها علاقة اجتماعية-تقنية لا يمكن اختزالها في الشفرة، ويفيد في تحليل الطريقة التي تجعل بها الخوارزميات بعض الأشياء أكثر ظهورًا وقابلية للإدراك من غيرها، وفي تفسير التفاعل بين الأنظمة وممارسات المستخدمين(OUP Academic) .

[8] van Dijck, José. "Datafication, Dataism and Dataveillance: Big Data between Scientific Paradigm and Ideology." *Surveillance &*

Society, Vol. 12, No. 2, 2014. DOI: 10.24908/ss.v12i2.4776.
مرجع مهم لفهم «التبيين بالبيانات» وتحويل جوانب متزايدة من النشاط الاجتماعي إلى بيانات قابلة للجمع والمعالجة، ويُستفاد منه في هذا الفصل عند بناء مفهوم الملف الخوارزمي للقارئ وتحليل العلاقة بين النشاط الشخصي والمنصات(ojs.library.queensu.ca) .

[9] Pariser, Eli. *The Filter Bubble: What the Internet Is Hiding from You*. New York: Penguin Press, 2011.
صاغ الكتاب مفهوم «فقاعة الترشيح» بوصفه وصفًا لخطر البيئة الشخصية التي يمكن أن تحيط المستخدم بالمحتوى الملائم لتفضيلاته بصورة تقلل تعرضه لما يقع خارجها، ويستفاد منه في هذا الفصل بوصفه مدخلًا نقديًا يحتاج إلى موازنته بالدراسات التجريبية اللاحقة(Penguin Random House) .

[10] Flaxman, Seth; Goel, Sharad & Rao, Justin M. "Filter Bubbles, Echo Chambers, and Online News Consumption." *Public Opinion Quarterly*, Vol. 80, Special Issue 1, 2016, pp. 298–320. DOI: 10.1093/poq/nfw006.
دراسة واسعة لأنماط استهلاك الأخبار عبر الإنترنت قدمت نتائج مركبة بشأن الفصل الأيديولوجي والتعرض إلى وجهات نظر مختلفة، وهي مهمة في هذا الفصل للتحذير من التعامل مع «فقاعة الترشيح» باعتبارها نتيجة حتمية لكل خوارزمية أو كل تخصيص(OUP Academic) .

[11] Noble, Safiya Umoja. *Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism*. New York: New York University Press, 2018.
يمثل الكتاب أحد أهم الأعمال النقدية حول محركات البحث والتحيز وقابلية الاكتشاف، ويبين أن ترتيب المعلومات لا يمكن فصله عن السياقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تنتج فيها الخوارزميات والمنصات .
(NYU Press)

[12] Ananny, Mike & Crawford, Kate. "Seeing without Knowing: Limitations of the Transparency Ideal and Its Application to Algorithmic Accountability." *New Media & Society*, Vol. 20, No. 3,

2018, pp. 973–989. DOI: 10.1177/1461444816676645.
مرجع أساسي في نقد الاعتقاد بأن كشف النظام أو زيادة شفافيته تكفي وحدها لتحقيق الفهم والمساءلة، ويُستفاد منه لتطوير تصور للمحاسبة الخوارزمية يتجاوز مجرد مطلب فتح الصندوق الأسود(Sage Journals) .

[13] Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German. "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035. DOI: 10.1093/jcmc/zmad035.
يفيد المرجع في تأسيس الوعي الخوارزمي بوصفه معرفة مرتبطة كذلك بالمواقف والسلوك، ويشكل أحد الأسس التي يعتمد عليها هذا الكتاب في الانتقال من مجرد معرفة وجود الوساطة إلى بناء مفهوم القارئ الميتا خوارزمي القادر على مساءلتها والتصرف نقديًا تجاهها.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مراجع هذا الفصل في خمس دوائر مترابطة؛ إذ تقدم دراسة مجتمع المنصات عند فان ديك وبول ودي وال، إلى جانب تحليل غيليسبي وبوخر [1][2][7]، الأساس لفهم المنصة والخوارزمية بوصفهما وسيطين ثقافيين قادرين على تنظيم الرؤية والوصول، بينما توفر أعمال ريتشي وروكاش وشابيرا وهالينان وستريبهاس [3][4] الإطار اللازم لفهم أنظمة التوصية والتخصيص وعلاقتها بالذوق والثقافة. وتفسر أعمال برين وبيج ويواكيمز وزملائه [5][6] الأسس التقنية وبعض الآثار السلوكية لترتيب نتائج البحث، في حين يسمح مفهوم التبيين بالبيانات عند فان ديك [8] بتأسيس مفهوم «الملف الخوارزمي للقارئ» الذي يقترحه هذا الكتاب. أما باريزر وفلاكسمان وغويل وراو [9][10] فيتيحون بناء معالجة متوازنة لمشكلة فقاعات الترشيح بين التنبيه النظري والدليل التجريبي، بينما تقدم أعمال نوبل وأناني وكروفورد [11][12] الأساس النقدي لمسائل التحيز والشفافية والمساءلة، بما يمهد للانتقال من القارئ الذي تستخدم الخوارزمية في تنظيم عالمه إلى القارئ الذي يبدأ في قراءة هذه الخوارزمية نفسها بوصفها موضوعًا للنقد.

ومن تقاطع هذه المرجعيات يتأكد المبدأ المركزي الذي يضيفه هذا الفصل إلى نظرية القارئ الهجين :القراءة في البيئة الخوارزمية لا تبدأ دائمًا عندما يفتح القارئ النص، بل قد تبدأ قبل ذلك، في اللحظة التي تقرر فيها أنظمة البحث والتوصية والترتيب أي نصوص ستدخل أصلًا إلى مجال رؤيته؛ ولذلك فإن نقد القراءة المعاصرة ينبغي أن يقرأ البوابة بقدر ما يقرأ ما يمر عبرها.

الفصل الثامن

اقتصاد الانتباه وصناعة الذائقة الأدبية

انتهى الفصل السابق إلى أن الخوارزمية قد أصبحت، في عدد متزايد من البيئات الرقمية، بوابة تسبق اللقاء المباشر بين القارئ والنص، فتشارك في ترتيب ما يظهر واقتراح ما يمكن قراءته وبناء صورة حسابية تقريبية عن التفضيلات السابقة، إن هذه الوساطة لا تعمل داخل فراغ اقتصادي أو ثقافي محايد، وإنما تتحرك في فضاء تتنافس فيه الكتب والمنشورات والمراجعات والفيديوهات والصور والإعلانات والرسائل والإشعارات على مورد محدود لا تستطيع المنصات إنتاجه مهما اتسعت قدراتها الحسابية، هو انتباه الإنسان وزمنه .ومن هنا لا يمكن دراسة القارئ الهجين داخل المنصة من زاوية التوصية وحدها، لأن السؤال لا يتعلق فقط بأي كتاب تقترحه الخوارزمية، بل كذلك بقدرتها على جعل هذا الكتاب أو الفيديو المتعلق به أكثر قدرة على اجتذاب النظر والبقاء في الذاكرة وتوليد تفاعل جديد، بحيث تصبح المنافسة على القراءة جزءًا من منافسة أوسع على الانتباه.

ويفرض هذا التحول إعادة النظر في مفهوم الذائقة الأدبية ذاتها، لأن الذوق لم يكن تاريخيًا خاصية فردية خالصة تنبع من داخل القارئ بمعزل عن محيطه، بل تشكل دائمًا عبر التربية والطبقة والمؤسسات والناقد والمدرسة والجامعة والجائزة والناشر والجماعة الثقافية، وهو ما قدم بيير بورديو تحليله السوسيولوجي الواسع في *التمييز* حين ربط الحكم على الأعمال الثقافية بشروط اجتماعية وتاريخية تنتج أنماط التفضيل والاستبعاد [7]. غير أن البيئة المنصاتية تضيف إلى هذه الوسطاء طبقة جديدة شديدة القوة، لأن الذوق أصبح قابلًا للترجمة جزئيًا إلى أرقام وسلوكيات وتفاعلات، كما أصبح من الممكن أن تعيد الخوارزمية هذه البيانات إلى المستخدم في صورة توصيات وترتيبات وقوائم، فتتشكل علاقة دائرية بين ما نحبه وما نفعله وما تقيسه المنصة وما تعيده إلينا باعتباره أقرب إلى رغباتنا. ومن هنا لا يدعي هذا الفصل أن الخوارزمية «تصنع الذوق» من العدم، بل يقترح أن

الذائقة المعاصرة تتشكل، بدرجات متفاوتة، داخل تفاعل بين التاريخ الثقافي للقارئ والجماعة الرقمية والمؤثر والمقاييس والخوارزمية.

وتنبع أهمية هذا الفصل بالنسبة إلى مشروع «القارئ الهجين» من أن الهجنة لا تتعلق فقط باستخدام أدوات ذكية أثناء تفسير النص، بل تبدأ قبل ذلك في الاقتصاد الذي يحدد أي المواد ستحصل أصلًا على فرصة كافية لدخول مجال الانتباه. فالكتاب الذي لا يظهر لا يستطيع أن يدخل في عملية القراءة، والكتاب الذي يظهر مصحوبًا بملايين المشاهدات والتقييمات لا يدخل إلى القارئ بالشروط نفسها التي يدخل بها عمل مجهول لا تحيط به إشارات اجتماعية ظاهرة، كما أن المراجعة التي تصاغ في مقطع قصير شديد الجاذبية لا تؤدي وظيفة النقد بالطريقة نفسها التي يؤديها مقال مطول في مجلة أدبية. ومن هنا يصبح الانتقال من اقتصاد الكتاب إلى اقتصاد الانتباه حول الكتاب واحدًا من التحولات الأساسية في الثقافة القرائية الجديدة، لأن قيمة العمل ورؤيته وانتشاره أصبحت تتقاطع مع قدرة الخطاب المحيط به على المنافسة داخل منطق المنصة.

المبحث الأول: الانتباه بوصفه موردًا اقتصاديًا

ـ المنافسة على زمن القارئ

تتأسس فكرة اقتصاد الانتباه على مفارقة أصبحت أكثر وضوحًا كلما اتسعت وفرة المعلومات؛ فحين يصبح الوصول إلى النصوص والصور والفيديوهات والكتب أسهل من أي مرحلة تاريخية سابقة، لا تختفي الندرة وإنما تنتقل من جانب العرض إلى جانب الاستقبال، لأن الإنسان يظل محكومًا بعدد محدود من الساعات وبطاقة محدودة على التركيز، ومن ثم يصبح الانتباه المورد النادر الذي تتنافس عليه المواد الوفيرة. وقد صاغ توماس دافنبورت وجون بيك هذه المسألة بصورة مؤثرة في كتابهما

The Attention Economy، حيث جعلا من الانتباه موردًا تنظيميًا واقتصاديًا حاسمًا داخل عالم تفيض فيه المعلومات إلى درجة تصبح فيها المشكلة الأساسية هي القدرة على الحصول على انتباه المتلقي والاحتفاظ به [1]. وتؤكد البيانات البيليوغرافية للكتاب صدوره سنة 2001 عن Harvard Business School Press، مع بناء أطروحته حول ندرة الانتباه في بيئة فائض المعلومات

وقد وسع تيم وو هذا المنظور تاريخيًا في *The Attention Merchants*، فربط صناعة الإعلام والإعلان بتاريخ طويل من تحويل الانتباه البشري إلى مورد يمكن جذبه ثم إعادة بيعه للمعلنين، وهو ما يسمح بفهم المنصات الرقمية لا بوصفها قطيعة كاملة مع وسائل الإعلام السابقة، بل بوصفها مرحلة متقدمة في تاريخ المؤسسات التي تبني نموذجها الاقتصادي على التقاط وقت المستخدم وعودته المستمرة [2]. وتوضح مادة الناشر أن كتاب وو يتتبع تاريخ المساعي التجارية إلى «التقاط» الانتباه وتحويله إلى سلعة داخل صناعات الإعلام والإعلان .

وحين ننتقل بهذه الفكرة إلى القراءة، يظهر أن الكتاب لا ينافس الكتب الأخرى فقط، بل ينافس كل ما يمكن أن يحتل الدقيقة نفسها من زمن

المستخدم؛ فالرواية الطويلة لا تدخل في منافسة مع رواية أخرى فحسب، وإنما مع الرسالة والإشعار والفيديو القصير والبودكاست والمباراة والمنشور والأخبار ومحتوى الترفيه، وهو ما يغير شروط العلاقة بين النص والزمن. وقد كان الكتاب المطبوع يستطيع أن يطلب من القارئ ساعة من التركيز داخل فضاء أقل قدرة على مقاطعته من الداخل، أما القارئ الذي يقرأ على جهاز متصل فإنه يحمل معه إلى الصفحة نفسها منظومة كاملة من المنافسين المحتملين، بحيث يصبح استمرار القراءة قرارًا يتكرر ضمنيًا كلما ظهر بديل أسرع أو أكثر إثارة.

ولا يعني ذلك أن المنصة «تمنع» القراءة الطويلة، كما لا يعني أن كل استعمال رقمي قائم بالضرورة على التشتيت، لأن القارئ يستطيع تصميم بيئته وحماية انتباهه، لكن التحول يكمن في أن تكلفة الانسحاب من النص انخفضت بشدة؛ ففي الكتاب الورقي يحتاج القارئ إلى ترك الصفحة والقيام بفعل آخر، بينما تكفي لمسة واحدة في الجهاز للانتقال إلى مادة مختلفة تمامًا، وهو ما يجعل الاقتصاد القرائي الجديد اقتصادًا للمنافسة المستمرة على قرار البقاء. ومن هنا يمكن أن نقترح مفهوم »اقتصاد الانتباه القرائي «للدلالة على المجال الذي تتنافس فيه الكتب والخطابات المحيطة بها على الوقت المحدود الذي يستطيع القارئ تخصيصه للقراءة، ضمن بيئة تكون فيها إمكانات الانتقال والبدائل المتاحة جزءًا من بنية الوسيط نفسه.

ولا تكون آثار هذا الاقتصاد متساوية بين النصوص، لأن بعض الأعمال يستطيع التكيف بسهولة مع منطق الجاذبية الفورية، بينما تعتمد أعمال أخرى على التراكم والبناء البطيء ولا تكشف قيمتها في أول ثوان أو صفحات، وهو ما قد يخلق لا مساواة بين قابلية العمل للعرض وقيمته عند القراءة العميقة .فالرواية التي يمكن اختزالها في حبكة مثيرة أو انفعال قوي أو عبارة قابلة للاقتباس قد تكون أسهل في التسويق داخل المحتوى القصير من عمل يقوم على تعقيد الأسلوب أو البطء أو الغموض، لكن هذا

الفرق لا يبرهن على تفوق أحد العملين أدبيًا؛ إنه يبرهن فقط على اختلاف قدرتهما على التوافق مع اقتصاد المنصة.

ومن هنا يظهر توتر سيلازم الفصل كله بين القيمة الأدبية وقيمة الانتباه، إذ تستطيع الثانية أن تكون مدخلًا إلى الأولى لكنها ليست مرادفة لها. فقد يجتذب عمل ملايين القراء ثم يكتشف بعضهم داخله قيمة حقيقية، كما يستطيع عمل مهم ألا ينجح في اقتصاد الانتباه أصلًا، ولذلك فإن النقد لا ينبغي أن يرفض الشعبية لمجرد أنها شعبية، ولا أن يحولها في المقابل إلى دليل كافٍ على القيمة؛ فالمشكلة ليست في الرواج ذاته، بل في اللحظة التي تصبح فيها القدرة على اجتذاب الانتباه معيارًا يطغى على جميع المعايير الأخرى.

ـ تصميم المنصات للاحتفاظ بالمستخدم

لا تعمل المنافسة على الانتباه من خلال المحتوى وحده، لأن تصميم الواجهة وآليات التفاعل يستطيعان المشاركة في تشكيل السلوك، وقد أسس ب. ج. فوغ مبكرًا مجال «التكنولوجيا الإقناعية» لدراسة الكيفية التي يمكن من خلالها للحواسيب والمواقع والتطبيقات أن تؤثر في اتجاهات المستخدمين وسلوكهم، معتبرًا أن النظام الحاسوبي قد يعمل في بعض الحالات طرفًا مباشرًا في الإقناع لا مجرد قناة محايدة بين البشر [3]. وقد صدر كتابه *Persuasive Technology: Using Computers to Change What We Think and Do* سنة 2003، متناولًا تصميم التقنيات التفاعلية القادرة على التأثير في السلوك ومناقشًا في الوقت نفسه إشكالاتها الأخلاقية .

وتكتسب هذه الرؤية أهميتها داخل ثقافة المنصات لأن التصميم يمكن أن يقلل مقدار الجهد المطلوب للاستمرار؛ فالتمرير المتصل، والتشغيل المتتابع، والإشعارات، والاقتراحات التالية، وأزرار التفاعل، كلها تجعل الانتقال من مادة إلى أخرى أكثر سلاسة، وهو ما يحول البقاء في المنصة إلى سلسلة من القرارات الصغيرة منخفضة التكلفة. ولا يعني وجود هذه الخصائص أن غرض كل منصة أو كل تصميم واحد، كما لا ينبغي اختزال سلوك المستخدم

في التصميم وحده، لكن من الخطأ كذلك التعامل مع الواجهة كما لو أنها مجرد نافذة لا تحمل تصورًا عن السلوك المرغوب.

وقد بيّن فان ديك وبول ودي وال أن المنصات تقوم على آليات مترابطة من التبيين بالبيانات والسلعنة والاختيار، وأنها تعيد تنظيم التفاعلات الاجتماعية والثقافية داخل بنية لا تنفصل فيها الوظيفة التقنية عن النموذج الاقتصادي [4]. ومن هذا المنظور يصبح الاحتفاظ بالمستخدم ذا قيمة لأنه ينتج تفاعلًا إضافيًا وبيانات إضافية وفرصًا إضافية للعرض، وهي دائرة تجعل الانتباه ليس مجرد شرط لاستهلاك المحتوى، بل مادة تدخل في تشغيل اقتصاد المنصة ذاته .

ويؤثر هذا المنطق في الثقافة الأدبية بصورة غير مباشرة، لأن الكتاب حين يدخل إلى المنصة لا يبقى كيانًا مستقلًا، بل يتحول إلى موضوع لسلسلة من المحتويات القابلة للتفاعل: صورة غلاف، ومقطع فيديو، واقتباس، ورد فعل، ومراجعة، وقائمة، وصوت شائع، وتعليق، وقد يصبح تفاعل الجمهور مع هذه العناصر أكثر قابلية للقياس من فعل القراءة الصامت نفسه. وهنا تظهر مفارقة مركزية :المنصة تستطيع قياس الخطاب حول القراءة بدرجة أكبر بكثير من قدرتها على قياس القراءة الداخلية ذاتها، ولذلك قد يتحول ما يمكن قياسه إلى ما يحصل على الحضور الأكبر في تصورنا عن الثقافة القرائية.

ويؤدي ذلك إلى نشوء ما يمكن تسميته »التنافس بين زمن النص وزمن المنصة«؛ فالنص الطويل يطلب الاستمرار داخله، بينما المنصة تكافئ الحركة بين مواد كثيرة، وليس المطلوب أن نعلن انتصار أحد الزمنين على الآخر، لأن القراء يستطيعون الانتقال بينهما، بل أن ندرك أن القارئ الهجين مطالب بتعلم إدارة هذا التوتر. فالحصول على توصية في عشر ثوان قد يقود إلى قراءة رواية تستغرق عشرة أيام، وبذلك تستطيع السرعة أن تكون بوابة إلى البطء، لكن المشكلة تبدأ عندما يصبح منطق البوابة هو المعيار الذي نحاكم به التجربة كلها.

ـ المبحث الثاني: المقاييس الرقمية

ـ الإعجاب والمشاهدة والمشاركة

دخلت المقاييس الرقمية إلى الثقافة اليومية بطريقة جعلت أرقامًا مثل المشاهدات والإعجابات والمشاركات والمتابعين تبدو عناصر طبيعية في تجربة المحتوى، مع أنها تمثل تحولًا مهمًا في تاريخ الحكم الاجتماعي، لأن استجابة الجمهور التي كانت موزعة ومبعثرة أصبحت قابلة للرؤية والتلخيص في رقم ظاهر. وقد حلل ديفيد بير هذا التحول من خلال مفهوم »قوة المقاييس«، موضحًا أن القياس لا يصف العالم الاجتماعي فقط، بل يمكن أن يشارك في ترتيبه وتشكيل إمكاناته، لأن الأرقام تتحول إلى أدوات للمقارنة والتقييم واتخاذ القرار [5]. ويقدم كتابه *Metric Power* الصادر سنة 2016 تحليلًا للدور المتزايد للمقاييس في تنظيم الحياة والعمل والاستهلاك والثقافة(.

ويظهر أثر هذا التحول بوضوح في الكتاب داخل المنصة، لأن القارئ قد لا يواجه توصية مجردة، بل توصية مصحوبة بمئات الآلاف من الإعجابات أو ملايين المشاهدات أو آلاف التقييمات، وهي إشارات تستطيع أن تؤدي وظيفة «الدليل الاجتماعي» قبل أن يختبر المستخدم العمل بنفسه. ولا يعني ذلك أن الأرقام تجبره على الإعجاب، لكنها تقدم له معلومة عن اهتمام الآخرين، وهذه المعلومة تدخل إلى الحكم الأولي كما يدخل اسم الجائزة أو موقع الكتاب في قائمة المبيعات.

وقد قدم ماثيو سالغانيك وبيتر دودز ودنكان واتس تجربة كلاسيكية على «سوق ثقافي اصطناعي» أظهرت أن اطلاع المشاركين على اختيارات الآخرين زاد عدم المساواة وعدم قابلية التنبؤ في نجاح الأغاني، وأن النجاح لم يكن مجرد انعكاس مباشر للجودة المستقلة عن التأثير الاجتماعي [6]. وينبغي استعمال هذه النتيجة بحذر عند نقلها إلى الكتب والمنصات، لأنها أجريت على موسيقى ضمن بيئة تجريبية محددة، لكنها تقدم دليلًا قويًا

على المبدأ العام القائل إن المعلومة عن شعبية المنتج الثقافي تستطيع أن تؤثر في شعبيته اللاحقة .

ومن هنا تظهر الدائرة التي تجعل المقاييس ليست مرآة فقط، لأن العدد المرتفع قد يجذب انتباهًا جديدًا، والانتباه الجديد ينتج تفاعلات إضافية، فتزداد الأرقام ويزداد معها احتمال مزيد من الظهور، وخصوصًا إذا كانت أنظمة المنصة تستخدم التفاعل ضمن إشارات ترتيب المحتوى. ولا ينبغي افتراض أن هذه الدورة تعمل بالصيغة نفسها في جميع المنصات أو أن عدد الإعجابات يدخل مباشرة في كل خوارزمية، لكن وجود تغذية راجعة بين الرؤية والتفاعل والرؤية الجديدة يمثل احتمالًا بنيويًا في الاقتصاد المنصاتي.

ويترتب على ذلك أن القارئ يواجه، قبل قراءة العمل، طبقة من «المعرفة الاجتماعية» حوله؛ فهو يعرف أن الآخرين شاهدوا المقطع أو أعجبوا بالمراجعة أو قيموا الكتاب، وقد يتحول هذا إلى فضول مشروع أو إلى انحياز مسبق بحسب طريقة الاستخدام. ومن هنا يصبح جزء من كفاية القارئ الهجين هو القدرة على التعامل مع الرقم بوصفه معلومة عن السلوك الجماعي لا حكمًا جماليًا نهائيًا.

- الأرقام بوصفها مؤشرات للقيمة

تبدأ المشكلة حين تنتقل المقاييس من وصف الانتشار إلى تمثيل القيمة، لأن الفرق بين «هذا المحتوى شوهد كثيرًا» و«هذا المحتوى جيد» قد يختفي بسهولة داخل واجهة توحد بين الحضور والنجاح. ويصبح عدد الإعجابات أو التقييم المرتفع أو حجم المتابعة شكلًا من رأس المال المرئي يستطيع أن يمنح صاحبه أو الكتاب قوة أكبر في فضاء التوصية، لكن هذا الرأس المال لا ينبغي أن يُخلط تلقائيًا بالقيمة النقدية أو الأدبية.

وتساعدنا سوسيولوجيا الذوق عند بورديو على وضع هذا التحول في سياق أوسع، لأن الحكم الجمالي لم يكن يومًا منفصلًا عن مؤسسات الاعتراف ورأس

المال الثقافي والمواقع الاجتماعية، غير أن المنصة تعيد ترجمة بعض هذه العلاقات إلى مؤشرات عددية مرئية فورًا [7]. فإذا كانت المؤسسة النقدية التقليدية تمنح الاعتراف عبر المقال والجائزة والمنهج والخبرة، فإن البيئة الرقمية تضيف إلى ذلك اعترافًا قابلًا للحساب: عدد متابعين، ومتوسط تقييم، ومقدار تداول، وسرعة انتشار. وتثبت بيانات *Distinction* الصادر بالإنجليزية سنة 1984 عن Harvard University Press أن مشروع بورديو الأساسي انصب على الشروط الاجتماعية التي تتشكل فيها الأذواق والأحكام الثقافية .

ولا يعني هذا أن المقاييس أقل «حقيقة» من النقد التقليدي، لأن الناقد نفسه ينتمي إلى مؤسسة وشبكة من المصالح والمعايير، لكن الفرق أن الرقم يميل إلى تقديم نفسه في هيئة موضوعية شديدة الاختزال، فيوحي بأن المقارنة أصبحت سهلة؛ فكتاب حصل على 4.6 يبدو أفضل من كتاب حصل على 3.8، مع أن الرقم يخفي اختلاف عدد المقيمين وأسباب تقييمهم وتوقعاتهم وأنواع قراءتهم وسياقاتهم. ومن هنا يمكن تسمية هذا التحول »المؤشرية الرقمية للقيمة«، أي ميل الثقافة المنصاتية إلى استخدام مؤشرات كمية بوصفها علامات سريعة تساعد المستخدم على اتخاذ القرار في بيئة فائضة بالخيارات.

وتؤدي المؤشرات وظيفة مفيدة بالفعل، لأن القارئ لا يستطيع قراءة آلاف المراجعات قبل أن يختار كل كتاب، لكن الخطر يظهر عندما تتحول أداة الاختصار إلى معيار يطغى على غيره، بحيث يصبح العمل المنخفض التفاعل أقل قابلية للاكتشاف بغض النظر عن قيمته المحتملة. وعند هذه النقطة لا يعود الرقم مجرد نتيجة للرواج، بل يمكن أن يصبح جزءًا من آلية إعادة إنتاج الرواج، لأن النجاح السابق يمنح فرصة أكبر للنجاح اللاحق.

ومن هنا يحتاج القارئ الهجين إلى نوع من «المسافة العددية»، لا بمعنى تجاهل الأرقام، بل القدرة على قراءتها في سياقها، والتفريق بين الشعبية والجودة، وبين التفاعل والعمق، وبين ما يستحق الاكتشاف بسبب انتشار واسع

وما يستحق الاكتشاف رغم غياب ذلك الانتشار. وهذه المسافة هي إحدى المقدمات الضرورية للانتقال من قارئ يخضع للمقاييس إلى قارئ قادر على استخدامها دون أن يجعلها بديلاً عن حكمه.

ـ المبحث الثالث: من الناقد إلى المؤثر

ـ تحول سلطة التوصية الثقافية

لم تكن سلطة توصية الكتب يومًا حكرًا مطلقًا على الناقد الأدبي؛ فقد شارك فيها المكتبي والمدرس والصديق والناشر والجائزة ونادي القراءة، غير أن الثقافة المطبوعة منحت الناقد المهني والمؤسسة الصحفية والثقافية موقعًا شديد الحضور في صناعة الشرعية، لأن المراجعة المنشورة في صحيفة أو مجلة معروفة كانت تمر عبر نظام مؤسسي يربط التوصية بالخبرة والاسم والسمعة والتحرير. أما البيئة الرقمية فقد وسعت دائرة الوسطاء وسمحت للقارئ نفسه بأن يتحول إلى منتج للخطاب حول الكتب، ومع انتشار شبكات التواصل ظهرت فئة من صانعي المحتوى تملك سلطة توصية لا تستند بالضرورة إلى الموقع الأكاديمي أو الصحفي، بل إلى الثقة والعلاقة المستمرة مع الجمهور والقدرة على صياغة خطاب ينسجم مع منطق المنصة.

ولا ينبغي فهم هذا التحول بوصفه استبدالًا نهائيًا للناقد بالمؤثر، لأن النقد المهني والجوائز والصحافة والمكتبات ما تزال تؤدي أدوارًا مهمة، لكن خريطة الوساطة الثقافية أصبحت أكثر تعددًا .وقد درست دانييل فولر ودينيل ريهبرغ سيدو ثقافة توصية الكتب المعاصرة من خلال بحوث شملت القراء ومؤثري وسائل التواصل وشبابًا من الجيل الجديد ، وخلصتا إلى إبراز أفعال الاختيار والاتصال والاستجابة بوصفها عناصر أساسية في تجربة القارئ متعدد الوسائط، مع التأكيد على حضور «ثقافة التوصية» واعتماد القراء على أشخاص يثقون بهم [8]. وتثبت بيانات Cambridge University Press أن الدراسة استندت إلى ثلاثة أعوام من البحث بين 2019 و2021، تضمنت مسحًا ومقابلات مع مؤثرين ودراسة نوعية لقراء شباب .

ويغير المؤثر طبيعة السلطة لأنه يمزج الخبرة الثقافية بالشخصية الخاصة والحميمية المتصورة والروتين اليومي، فقد لا يقول للجمهور «هذا العمل مهم وفق معيار جمالي محدد» بقدر ما يقول «هذا الكتاب أثّر فيّ» أو «لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه»، وتتحول التجربة الذاتية نفسها إلى أداة

للتوصية. ولا ينبغي التقليل من قيمة هذا الخطاب لأنه عاطفي أو شخصي، فالتاريخ الأدبي نفسه قام على قراءات شخصية وجماعات تذوق، لكن المهم هو إدراك أن معيار السلطة تغيّر جزئيًا من المعرفة المؤسسية إلى المصداقية العلائقية والقدرة على جذب الانتباه.

ومن هنا لا يكون الانتقال «من الناقد إلى المؤثر» انتقالًا من المعرفة إلى الجهل كما قد توحي بعض التصورات النخبوية، بل انتقالًا من شكل واحد للوساطة إلى أشكال متعددة لها معايير مختلفة في بناء الثقة. فقد يكون بعض المؤثرين شديدي المعرفة بالأدب، وبعض النقاد بعيدين عن جمهور واسع، كما يستطيع القارئ الجمع بين توصية أكاديمية ومحتوى شبكي ورأي صديق، ولذلك فإن الإشكالية ليست في وجود المؤثر بل في فهم نوع السلطة التي يمارسها والاقتصاد الذي يجعل صوته أكثر ظهورًا من غيره.

- المؤثرون وصناعة قوائم القراءة

تتضح سلطة المؤثر بصورة أكبر عندما ينتقل من مراجعة كتاب منفرد إلى بناء قوائم متكررة من المقترحات، لأن القائمة لا تنقل حكمًا على عمل فقط، بل ترسم مجالًا لما يستحق أن يدخل في انتباه الجمهور. وقد تحول صانعو المحتوى المتخصصون في الكتب إلى وسطاء يستطيعون الجمع بين القراءة والتقديم المرئي والعاطفة والتسويق، وهو ما جعلهم جزءًا من دورة النشر نفسها، لا مجرد قراء يتحدثون بعد انتهاء العملية.

وقد بينت المراجعة السردية التي قدمها يروين ديرا لأبحاث BookTok أن الأدبيات الأكاديمية الناشئة حول الظاهرة تركز على ثلاثة محاور أساسية BookTok :بوصفه شكلًا من مراجعة الكتب، وبوصفه أداة لبناء مجتمع قرائي، وبوصفه عاملًا في تشجيع القراءة، وهو ما يوضح أن هذه الظاهرة تقع في التقاطع بين النقد الاجتماعي والترويج والمجتمع والتلقي [9]. وقد نشرت الدراسة في *Literature Compass*، المجلد 21، سنة 2024، بعد مراجعة الدراسات المحكمة التي عالجت الظاهرة منذ 2020 .

كما توضح دراسة غيتا بالينغ وماريان مارتنز عن BookTok وصناعة النشر أن الظاهرة لم تبق داخل المجال الرمزي للتفاعل بين القراء، بل أصبحت ذات آثار في ممارسات الناشرين وبائعي الكتب، وأن بعض العناوين القديمة عادت إلى قوائم الأكثر مبيعًا بفعل تداولها على المنصة، كما أصبحت أقسام «شوهد على BookTok» جزءًا من البيئة المادية لمتاجر الكتب [10]. وقد نشرت الدراسة أولًا إلكترونيًا في نوفمبر 2024 ثم ظهرت في *Convergence*، المجلد 32، العدد 4، في أغسطس 2026، الصفحات 1258–1278 .

وهنا تتقاطع سلطتان كانتا منفصلتين نسبيًا: سلطة القارئ الذي يوصي وسلطة المنصة التي تقرر مدى انتشار توصيته، فلا يكفي أن ينتج المؤثر مراجعة، بل يجب أن تدخل في دائرة من الرؤية والتفاعل تجعلها قابلة للوصول إلى جمهور أوسع. ومن هنا لا يمكن تحليل «قائمة المؤثر» بوصفها اختيارًا فرديًا فقط، لأنها تتشكل كذلك داخل معرفة عملية بما يصلح للعرض، وما يجذب المتابعين، وما يتوافق مع الزمن القصير والصورة والصوت واتجاهات المنصة.

ويتولد من ذلك شكل جديد من الوساطة الثقافية الهجينة يجمع الإنسان والخوارزمية، لأن المؤثر يختار ويتحدث ويعرض تجربته، بينما تحدد المنصة بدرجات متفاوتة اتساع التوزيع، ثم تنتج ردود فعل الجمهور إشارات جديدة تعيد ترتيب الظهور. ومن ثم فإن الناقد التقليدي كان وسيطًا بشريًا ضمن مؤسسة، أما المؤثر داخل المنصة فهو وسيط بشري يعمل داخل وسيط خوارزمي، وهذه الثنائية تجعل سلطة التوصية أكثر تعقيدًا لأنها تجمع الخبرة والعاطفة والتفاعل والمقاييس والترتيب.

ـ المبحث الرابع: ثقافة الكتاب في المنصات الاجتماعية

ـ الفيديو القصير والترويج للكتب

يمثل الفيديو القصير أحد أبرز الأشكال التي كشفت قدرة المنصة على إعادة صياغة الخطاب عن الكتاب، لأن مراجعة العمل التي كانت تحتاج في الصحافة إلى مئات أو آلاف الكلمات يمكن أن تتحول إلى عشرات الثواني من الصورة والصوت والنص المكتوب على الشاشة والانفعال الجسدي، ولا يعني هذا أن المحتوى القصير بديل مكافئ للمراجعة النقدية، بل إنه جنس وسائطي مختلف يعمل وفق اقتصاد آخر في التعبير. فبدل بناء حجة مطولة حول بنية العمل، قد يركز الفيديو على انفعال واحد أو حبكة أو اقتباس أو توقع أو «مزاج» القراءة، ويصبح الهدف الأول في كثير من الأحيان إقناع المستخدم بالتوقف عن التمرير قبل إقناعه بالكتاب.

وقد أظهرت دراسة ناتالي غينييز-كابريرا وكاثرين مانسيلا-أوباندو حول الـ BookTokersأن صانعي محتوى الكتب على TikTok يعملون بوصفهم مؤثرين متخصصين في إنتاج ومشاركة خطاب حول الكتب، وأن الدوافع المرتبطة بالمتعة والتأثير الاجتماعي وبناء المجتمع والشبكات كانت من العناصر البارزة في مقابلاتهم مع عينة من صانعي المحتوى في أمريكا اللاتينية [12]. وتؤكد بيانات مجلة *Comunicar*أن الدراسة المنشورة سنة 2022 اعتمدت مقابلات شبه منظمة مع ثلاثة عشرBookToker ، وربطت الظاهرة بتوليد مجتمعات وشبكات حول القراءة .

ويعني ذلك أن الفيديو القصير لا يقلل الكتاب بالضرورة إلى إعلان، لأن بعض المحتوى يمكن أن يقدم تحليلًا أو سياقًا أو يدفع إلى القراءة، لكنه يُخضع الخطاب الأدبي إلى منطق تكثيف شديد يفرض اختيار العنصر الأكثر قابلية للعرض. وقد يكون هذا العنصر الانفعال، أو مفاجأة الحبكة، أو جمالية الغلاف، أو شخصية محبوبة، أو مجموعة كتب تشترك في سمة سريعة الفهم، وهي استراتيجيات ليست سلبية في ذاتها، لكنها تؤثر في أنواع القيمة التي يمكن ترجمتها بسهولة إلى خطاب منصاتي.

ومن هنا يمكن التمييز بين القابلية الأدبية للقراءة والقابلية المنصاتية للتقديم؛ فبعض الكتب تكون معقدة ومثمرة عند القراءة لكنها عسيرة الاختزال في فيديو، بينما يمكن لأعمال أخرى أن تملك عناصر شديدة القابلية للتحويل إلى صور وانفعالات وعبارات قصيرة. وإذا أصبحت القدرة الثانية شديدة التأثير في الرواج، فإن سوق النشر نفسه قد يبدأ في الاستجابة، لا بمعنى أن الناشرين سيكتبون الكتب وفق خوارزمية واحدة، بل بأن الوعي بأنواع المحتوى القابلة للانتشار يدخل إلى حسابات الغلاف والتسويق والتقديم.

وقد بينت دراسة بالينغ ومارتنز أن الناشرين وبائعي الكتب أصبحوا يتفاعلون بصورة عملية مع BookTok وأن الظاهرة أسهمت في صعود تيارات مثل الـ romantasy وفي إعادة تشكيل بعض دوائر الإنتاج والتسويق والتوزيع [10]. ومن هنا يصبح الفيديو القصير ليس فقط وسيلة تتحدث عن الكتاب بعد نشره، بل عنصراً يمكن أن يعيد التأثير في الدورة التي تنتج الكتب وتعرضها، أي إن الوساطة تتحول من نهاية المسار إلى جزء من شروط بدايته .

ـ القراءة بوصفها ممارسة استعراضية

كانت القراءة تاريخياً قادرة على أن تكون ممارسة عامة أو خاصة، فقد قرئت الكتب في المجالس والصالونات والنوادي كما قرئت في العزلة، غير أن المنصات الاجتماعية قدمت شكلاً مختلفاً من الحضور يجعل صورة القراءة نفسها قابلة للإنتاج والتداول. فالقارئ لا ينشر فقط رأيه في الكتاب، بل قد ينشر رفوفه وطريقته في تنظيم مكتبته وفنجان القهوة المصاحب للقراءة والهوامش والملصقات والصور الذاتية مع الكتب، وبذلك يتحول الفعل من علاقة بالنص فقط إلى عنصر في تقديم الهوية أمام الآخرين.

وقد درست دراسة مايكل ديزواني وبرونوين ريدان وليوني روثرفورد وآيمي شونينز ممارسات الـ selfiesوالـ shelfies على Bookstagram و BookTok، مبينة كيف تتوسط المنشورات المرئية ثقافة القراءة لدى المراهقين

الأستراليين، وكيف ترتبط بعض أشكال المحتوى ببناء هوية القارئ والخبرة والحميمية حول الكتب [11]. وقد نشرت الدراسة في

Learning, Media and Technology **سنة** 2022، **المجلد** 47، **العدد** 3، **الصفحات** 355–372)

ولا ينبغي استعمال وصف «الاستعراضية» هنا بمعنى قدحي يفترض أن إظهار القراءة نقيض للقراءة الحقيقية، لأن عرض الكتب يمكن أن يكون وسيلة لبناء مجتمع، وتبادل التوصيات، والتعبير عن الانتماء، وتحويل القراءة من نشاط يشعر بعض الشباب بالعزلة إلى ممارسة اجتماعية ذات مكانة مرئية. غير أن التحليل النقدي يحتاج في الوقت نفسه إلى ملاحظة أن ما يمكن عرضه ليس مطابقًا لما يحدث داخل القراءة؛ فالصورة تستطيع إظهار الكتاب لكنها لا تستطيع إظهار صعوبة الفهم أو زمن التأمل أو التردد التأويلي، ولذلك يكون الوجه المرئي للقراءة أكثر قابلية للقياس من عمقها غير المرئي.

ومن هنا يمكن تعريف «القراءة الاستعراضية» إجرائيًا بأنها تلك الممارسة التي تصبح فيها آثار القراءة وتمثيلاتها جزءًا مقصودًا من الهوية العامة للقارئ، من دون أن يعني المفهوم الحكم على صدق التجربة أو زيفها. فقد يكون القارئ عميقًا ويعرض تجربته، وقد يعرض شخص كتابًا لم يقرأه كاملًا، ولا تستطيع الصورة وحدها الفصل بين الحالتين؛ والمهم نظريًا هو أن القراءة أصبحت قابلة للدخول في اقتصاد الظهور، وأن هذه القابلية قد تؤثر في طريقة اختيار الكتب وتصويرها والتحدث عنها.

ويظهر هنا تداخل القارئ الاجتماعي والقارئ الهجين الذي جرى تحليله في الفصول السابقة، لأن الشخص يقرأ النص ثم يعيد إنتاج قراءته في شكل محتوى، ويستقبل تفاعل الآخرين، ثم قد تؤثر هذه الاستجابة في اختياراته التالية. وهكذا تدخل الذات القارئة في حلقة من القراءة → التمثيل → التفاعل → الهوية → القراءة التالية، وتصبح الذائقة الشخصية جزءًا من أداء اجتماعي مرئي لا من تجربة داخلية منفردة.

ـ المبحث الخامس: الذائقة الخوارزمية

ـ صناعة التشابه

لا يستخدم هذا الكتاب مفهوم «الذائقة الخوارزمية» للإيحاء بأن الخوارزمية تمتلك ذوقًا بالمعنى الإنساني، كما لا يقصد أن أذواق القراء أصبحت نتائج حتمية للحساب، وإنما يقترحه بوصفه مفهومًا إجرائيًا يصف الذائقة التي تتشكل جزئيًا داخل حلقات متكررة من القياس والتشابه والتوصية والاستجابة .فالقارئ يدخل إلى المنصة بتاريخ ثقافي واجتماعي وذوقي سبق الخوارزمية، لكن النظام يحول جوانب من سلوكه إلى إشارات ويستخدمها لتقديم مواد متقاربة، ثم يستجيب المستخدم لهذه المواد فتنتج بيانات جديدة، وبذلك يصبح الذوق القديم أحد المدخلات التي تشارك في صناعة البيئة التي سيتطور داخلها الذوق الجديد.

ويظل بورديو ضروريًا هنا لتجنب تصور الذوق باعتباره خاصية فردية طبيعية، إذ يبين مشروعه أن الأذواق تتشكل داخل فضاءات اجتماعية وعلاقات من التعليم والطبقة ورأس المال الثقافي [7]؛ غير أن المنصة تضيف إلى هذه الشروط ما يمكن تسميته الوساطة الحسابية للذوق، بحيث تصبح بعض التفضيلات قابلة للتمثيل في أنماط وتوقعات. ولا تحل الخوارزمية محل المجتمع، بل تصبح مؤسسة إضافية تعمل داخل المجتمع وتعيد تنظيم بعض علاماته.

وقد درس هالينان وستريبهاس أنظمة التوصية من منظور «الثقافة الخوارزمية» ، موضحين أن عمليات التوصية لا تكتفي بالتعامل مع تفضيلات مستقلة وموجودة مسبقًا، بل تشارك في تحويل الثقافة والذوق إلى تصنيفات قابلة للمعالجة الحسابية [13]. وهذه النقطة تسمح بالانتقال من سؤال «هل يعرف النظام ما أحبه؟» إلى سؤال أكثر أهمية :ما تعريف التشابه الذي يستخدمه لكي يقرر أن هذا الكتاب يشبه ما أحب؟ فالتشابه ليس خاصية واحدة في العمل؛ قد يكون تشابهًا في النوع أو الجمهور أو السلوك الجماعي

أو الكلمات الوصفية أو أنماط الشراء، ولكل تعريف أثر مختلف في المجال الذي سيظهر أمام القارئ .

وتكمن قوة صناعة التشابه في أنها تقدم راحة معرفية حقيقية، لأن الإنسان يبحث غالبًا عن كتاب قريب من تجربة أحبها، ويمكن للتوصية أن تحقق ذلك بكفاءة، لكن الخطر يبدأ عندما يتحول التشابه من أحد طرق الاكتشاف إلى منطق مهيمن للاكتشاف .فإذا كانت كل رواية تقود إلى روايات تشبهها، وكل كاتب يقود إلى كتاب من البيئة نفسها، فقد يصبح مستقبل القراءة امتدادًا متزايدًا لماضيها، ويقل حضور الاختلاف الذي لا يستطيع النظام بسهولة تبريره انطلاقًا من البيانات السابقة.

ولا ينبغي اعتبار ذلك نتيجة لازمة لكل نظام توصية، لأن تصميمات التوصية تستطيع إدخال التنوع والجدة والمفاجأة، لكن هذا الاحتمال يجعل «التشابه» متغيرًا نقديًا ينبغي للقارئ والمنصة معًا الانتباه إليه. ومن هنا يصبح القارئ الميتا خوارزمي هو الذي لا يسأل فقط «هل أعجبتني التوصية؟» بل «هل تجعلني توصياتي أكثر تشابهًا مع نفسي؟.«

- إعادة إنتاج الرائج

يتقاطع التشابه مع المقاييس حين تدخل الشعبية نفسها في دورة الظهور، إذ تستطيع الأعمال الرائجة أن تستفيد من حضورها السابق في إنتاج حضور جديد، فينشأ أثر تراكمي يمنح ما هو مرئي فرصة أكبر للاستمرار في الرؤية. وقد بينت تجربة سالغانيك ودودز وواتس أن التأثير الاجتماعي قادر على زيادة عدم المساواة في النجاح الثقافي، وأن معرفة اختيارات الآخرين تغير توزيع النتائج حتى حين تظل الجودة مؤثرة جزئيًا [6]. ومن هنا يمكن استخدام هذه النتيجة بوصفها تحذيرًا نظريًا من معادلة الرواج بالقيمة المستقلة، مع الاحتفاظ بالفارق بين السوق التجريبية التي درسوها وبين سوق الكتاب الفعلي .

وتصبح إعادة إنتاج الرائج أكثر تعقيدًا في المنصة لأن النظام قد يجمع بين أكثر من إشارة؛ فهناك الشعبية، والتشابه الشخصي، والتفاعل الحالي، وخصائص المحتوى، وعوامل أخرى تختلف باختلاف المنصة، ولذلك لا ينبغي اختزال الخوارزمية في «ما هو مشهور يأتي أولًا». ومع ذلك فإن نجاح بعض الأعمال في تكوين كتلة كبيرة من التفاعل يمنحها حضورًا ثقافيًا يستطيع أن ينتقل خارج المنصة نفسها، وهو ما ظهر في حالات BookTok التي دفعت عناوين قديمة إلى قوائم المبيعات وأثرت في عرض الكتب داخل المتاجر .[10]

وتكشف مراجعة ديرا للأدبيات أن BookTok أصبح ظاهرة تؤثر في إنتاج الأدب وتوزيعه واستقباله، مع بروز أنماط من الكتب والأنواع والتوصيات بصورة خاصة داخل المجال المنصاتي [9]. ولا يعني ذلك أن المنصة تنتج ذوقًا عالميًا واحدًا، لأن BookTok نفسه يتكون من جماعات فرعية ولغات واتجاهات مختلفة، بل إن ما نسميه «الرائج» متعدد ومتحرك، لكن المهم أن الخوارزمية تمنح بعض موجات الرواج قدرة على الانتقال بسرعة بين قراء لا يرتبطون بالمؤسسات النقدية التقليدية .

ومن هنا يمكن الحديث عن »دورة الرواج الخوارزمية :«يبدأ كتاب بتفاعل أولي، فتزداد قابلية ظهوره، ويجلب الظهور قراء جددًا ينتجون محتوى إضافيًا، فتزداد الإشارات الاجتماعية، وينتقل العمل إلى واجهات البيع والنشر والإعلام، وقد يعود نجاحه الخارجي ليولد محتوى منصاتيًا جديدًا. وفي هذه الدورة يصبح من الصعب تحديد «سبب واحد» للرواج، لأن الإنسان والخوارزمية والمؤثر والسوق والناشر والجمهور يدخلون جميعًا في عملية التغذية الراجعة.

لكن الخطر النظري يظهر حين تتحول هذه الدورة إلى معيارية ذوقية، أي حين يبدأ القارئ في الاعتقاد أن ما يتكرر أمامه هو ببساطة ما تستحق الثقافة أن تقرأه، فيختفي الفرق بين «العمل الذي يراه كثيرًا» و«مجمل الأعمال الممكنة». وهنا يصبح مفهوم الذائقة الخوارزمية مرتبطًا مباشرة بمفهوم «سلطة الإظهار والإخفاء» في الفصل السابق، لأن الذوق لا يتشكل

من الاختيارات التي نقوم بها فقط، بل كذلك من الخيارات التي مُنحت أصلًا فرصة الحضور أمامنا.

وتساعد أعمال تاينا بوخر في فهم هذه العلاقة من خلال تحليل القوة الخوارزمية لا باعتبارها سيطرة مباشرة أحادية، بل بوصفها شبكة من العلاقات والممارسات التي تجعل بعض الظواهر أكثر حضورًا وإحساسًا من غيرها [14]**. ومن هنا فإن الذائقة الخوارزمية ليست «ذوق الآلة» بل الذوق البشري عندما يعيش داخل بيئة مرتبة خوارزميًا ويتفاعل معها باستمرار .**
وتؤكد Oxford University Press **أن مشروع بوخر في** *If...Then* **يدرس القوة والسياسة الخوارزمية بوصفهما علاقات اجتماعية ـ تقنية تتشكل بحسب السياقات والفاعلين المختلفين .**

ـ المبحث السادس: إمكانات المقاومة

ـ *القراءة خارج التوصيات*

لا تعني مقاومة اقتصاد الانتباه العودة إلى عالم سابق على المنصات ولا رفض التوصيات والقياسات، لأن هذه الأدوات تملك فوائد حقيقية في تنظيم الوفرة واكتشاف الأعمال وربط القراء، وإنما تعني الحفاظ على قدرة القارئ على خلق مسارات لا يحددها التخصيص وحده .ومن هنا تصبح القراءة خارج التوصيات ممارسة إيجابية لا سلبية؛ فهي ليست رفضًا لما يقترحه النظام بقدر ما هي إضافة مصادر أخرى إلى بنية الاختيار.

ويمكن أن تتحقق هذه الممارسة عبر العودة إلى الفهرس المفتوح، أو المكتبة المادية، أو الصحافة الثقافية المتخصصة، أو ببليوغرافيا موضوعية، أو توصية من قارئ لا يشترك معنا في الذوق نفسه، أو قائمة تاريخية، أو قراءة منهجية لمؤلف لم يظهر في ملفنا الشخصي، كما يمكن أن تتحقق داخل المنصة نفسها بطلب المختلف أو النادر أو غير المتوقع. ومن هنا يصبح القارئ الهجين قادرًا على الانتقال بين التخصيص المقيد بالذات والاكتشاف الموجه إلى الخارج.

ولا يعني ذلك أن الاختيار غير الخوارزمي خال من التحيز، لأن الناقد والمكتبي والصديق والفهرس جميعهم يملكون معاييرهم وحدودهم، لكن التعدد بين الوسطاء يقلل احتمال أن يحتكر نظام واحد مجال الظهور. ومن هنا تكون المقاومة في جوهرها تنويعًا لمصادر الوساطة، بحيث لا يصبح ترتيب واحد أو مؤثر واحد أو منصة واحدة هو الخريطة الكاملة للعالم الأدبي.

ويصبح هذا المبدأ أكثر أهمية بالنسبة إلى الباحث والقارئ المتخصص، لأن الاقتصار على المواد الأكثر قابلية للظهور قد ينتج معرفة غير متوازنة عن المجال، خصوصًا في اللغات والثقافات التي لا تتمتع بالحضور الرقمي نفسه.

ومن هنا يكون البحث خارج التوصية دفاعًا عن السيادة الثقافية للقارئ، أي حقه في بناء مدونته القرائية وفق سؤال معرفي لا وفق ملف سلوكي فقط.

وقد أظهرت دراسة فولر وريهبرغ سيدو أن القراء المعاصرين لا يعتمدون على مصدر واحد في اختيار الكتب، بل يتحركون داخل ثقافة توصية متعددة القنوات تجمع الإنترنت والعلاقات الاجتماعية والمؤثرين والوسائط القديمة والجديدة [8]**، وهي نتيجة تتيح النظر إلى التعدد نفسه بوصفه موردًا للمقاومة؛ فكلما كان القارئ قادرًا على عبور أكثر من دائرة، قلت احتمالات أن تتحول دائرة واحدة إلى أفقه الكامل .**

ـ استعادة التنوع والمصادفة

إذا كان التخصيص يقوم على القدرة على التنبؤ، فإن المصادفة تمثل المجال الذي يفشل فيه الماضي في تحديد المستقبل بالكامل، ولذلك لا ينبغي النظر إليها بوصفها عيبًا في نظام التوصية، بل يمكن اعتبارها قيمة معرفية وثقافية. وقد أدت أبحاث أنظمة التوصية إلى الانتقال تدريجيًا من التركيز على الدقة وحدها إلى مقاييس إضافية مثل التنوع والجدة والمصادفة والتغطية، وهو ما عرضه ماريوس كامينسكاس وديريك بريدج في دراستهما الشاملة لأهداف التوصية «ما وراء الدقة»، حيث أكدا أن جودة التوصية لا تختزل في مطابقة التفضيلات السابقة، بل يمكن أن تشمل تقديم عناصر متنوعة وجديدة وغير متوقعة [15]**. وقد نشرت الدراسة في** *ACM Transactions on Interactive Intelligent Systems*، **المجلد** 7، **العدد** 1، **سنة** 2016 .

ويقدم هذا الاتجاه التقني نقطة التقاء مثيرة مع النظرية الأدبية؛ فإذا كانت أنظمة التوصية نفسها تستطيع الاعتراف بأن التشابه ليس القيمة الوحيدة، فإن الدفاع عن التنوع لا يحتاج إلى رفض الخوارزمية بل يمكن أن يدخل في معايير تصميمها .ويمكن لنظام ثقافي أكثر مسؤولية أن يوازن بين «كتاب قريب من ذوقك» و«كتاب يختلف عنه لكنه قد يفتح مجالًا

جديدًا»، وبين الأكثر رواجًا والطرف الطويل من الإنتاج الذي لا يحصل على القدر نفسه من الانتباه.

أما من جهة القارئ، فإن استعادة المصادفة تحتاج إلى ما يمكن تسميته ممارسات الانحراف المقصود، كأن يقرأ من رف لا يعرفه، أو يختار كتابًا وفق معيار زمني أو جغرافي أو لغوي لا وفق التشابه، أو يدخل مكتبة من دون قائمة شراء نهائية، أو يقرر قراءة كاتب لم يظهر في دوائره الرقمية. وليست هذه الممارسات رومانسية مضادة للتقنية، بل وسائل لحماية عنصر أساسي في الثقافة هو القدرة على لقاء ما لم نعرف مسبقًا أننا نحتاج إليه.

ويتصل التنوع كذلك بالزمن، لأن الرائج يعمل غالبًا داخل دورات سريعة، بينما تحتاج بعض الأعمال إلى سنوات أو عقود حتى تجد جمهورها، ولذلك فإن مقاومة اقتصاد الانتباه تعني أيضًا إبطاء زمن الحكم .فالعمل الذي لم ينتشر في أسبوع ليس بالضرورة فاشلًا، والكتاب القديم الذي لا يملك موجة تفاعل حالية لم يفقد قيمته، ومن هنا يصبح التاريخ الأدبي نفسه أداة مقاومة في وجه حاضر يبالغ في مركزية «ما يحدث الآن.«

ويحتاج القارئ الهجين النقدي، بناءً على ذلك، إلى الجمع بين أربع حركات: الاستفادة من التوصية من دون الانحصار فيها، وقراءة الأرقام من دون تحويلها إلى قيمة مطلقة، والاستماع إلى المؤثر من دون إلغاء الناقد أو المكتبي أو الذات، والدخول في ثقافة المنصة مع الاحتفاظ بمساحات لا تخضع لإيقاعها. وعند هذه النقطة لا تعود المقاومة موقفًا دفاعيًا، بل تصبح قدرة على توسيع البيئة القرائية بحيث تستخدم الخوارزمية موردًا من موارد الاختيار بدل أن تتحول إلى حدوده.

من اقتصاد الانتباه إلى اقتصاد الذائقة

تكشف المباحث السابقة أن اقتصاد الانتباه وصناعة الذائقة ليسا عمليتين منفصلتين، لأن ما يحصل على الانتباه بصورة متكررة يملك فرصة أكبر للدخول إلى الذاكرة والتداول والتقييم، وما يدخل إلى التفاعل ينتج بيانات

يمكن أن تتحول إلى توصيات جديدة، ولذلك تتشكل حلقة تنتقل فيها القيمة من الرؤية إلى القياس ثم من القياس إلى مزيد من الرؤية. ويمكن تمثيل هذه الحلقة في الصيغة التالية :ظهور → انتباه → تفاعل → مقياس → ترتيب → ظهور إضافي، وإذا دخل اختيار الكتاب في هذه الدورة تحولت إلى ظهور كتاب → اهتمام → قراءة أو شراء أو مشاركة → بيانات → توصيات جديدة → قراء جدد.

ولا تعمل هذه الدورة وحدها على صناعة الذوق، لأن القارئ يحمل تاريخًا وطبقة ولغة وتعليمًا وذكريات وجماعات قراءة وتفضيلات واعية وغير واعية، لكن الخوارزمية تستطيع أن تصبح واحدة من المؤسسات التي تعمل على تنظيم هذا التاريخ وإعادة عرضه عليه. ومن هنا تكون «الذائقة الخوارزمية» مفهومًا للعلاقة لا للسبب الوحيد؛ إنها ليست ذوقًا تخلقه الآلة، بل ذائقة بشرية تدخل في سلسلة من التغذية الراجعة مع نظام يتعلم من آثارها ثم يعيد إليها نسخة مرتبة من نفسها.

ويظهر كذلك أن انتقال السلطة من الناقد إلى المؤثر ليس كاملاً ولا خطيًا، بل إن الفضاء المعاصر يقوم على تراكب الوسطاء؛ فالكتاب قد يفوز بجائزة، ثم يراجعه ناقد، ثم يتبناه مؤثر، ثم تلتقط المنصة موجة التفاعل، ثم تبني المكتبة أو دار النشر حملة جديدة حول نجاحه المنصاتي. ومن هنا تتغير دائرة الشرعية الأدبية من خط تسلسلي إلى شبكة تتبادل داخلها المؤسسات التقليدية والفاعلون الرقميون والخوارزميات التأثير.

وتؤكد حالة BookTok هذه الطبيعة الشبكية؛ فالمراجعة القصيرة قد تبدأ من قارئ فرد ثم تصل إلى جمهور واسع، وتنتج مبيعات، فتستجيب دار النشر بإعادة طباعة أو تغليف أو ترويج، وتستجيب المكتبة بواجهة مخصصة، ثم تعود هذه الاستجابات إلى المنصة بوصفها أدلة جديدة على الرواج [9][10]. ومن ثم فإن المنصة لا تقع «خارج» صناعة الكتاب، بل أصبحت في بعض الحالات جزءًا من الدورة التي تنتج فيها القيمة وتوزع وتعاد إلى الجمهور .

ومن هنا يمكن لهذا الكتاب أن يقترح تمييزًا بين الذائقة الخوارزمية التابعة والذائقة الخوارزمية النقدية؛ ففي الأولى يترك القارئ تاريخ سلوكه والتوصيات والمقاييس تحدد معظم مجال اختياره من دون مساءلة، بينما يستخدم الثانية هذه الأدوات لكنه يقارن بينها ويكسر التشابه ويبحث عن الغائب ويعرف أن الرائج ليس مرادفًا للمهم. ولا يشير هذا التقابل إلى شخصين مختلفين بالضرورة، لأن القارئ نفسه يمكن أن يكون تابعًا في موقف ونقديًا في موقف آخر، وإنما يصف درجة وعيه بالبيئة التي تتشكل فيها اختياراته.

خاتمة الفصل الثامن

أظهر هذا الفصل أن القراءة داخل المنصات لا يمكن فهمها بعيداً عن اقتصاد الانتباه، لأن وفرة المحتوى جعلت الزمن والتركيز البشريين موردين تتنافس عليهما النصوص والمنشورات والإعلانات والفيديوهات والرسائل، وأصبح تصميم البيئة الرقمية قادراً على تقليل تكلفة الانتقال بين المواد وجعل الاستمرار في التفاعل جزءاً من منطق المنصة [1][2][3][4]. ومن هنا لم تعد المسألة مقتصرة على قدرة القارئ على الوصول إلى الكتب، بل أصبحت مرتبطة بقدرة الكتاب والخطاب المحيط به على انتزاع مساحة من الانتباه داخل فضاء شديد التنافس.

وقد كشف تحليل المقاييس الرقمية أن الإعجابات والمشاهدات والمشاركات لا تعمل بوصفها أوصافاً محايدة للرواج، لأنها تستطيع أن تدخل في آليات التأثير الاجتماعي والتقييم والظهور، ولذلك لا يمكن مساواة الرقم بالقيمة الجمالية حتى عندما يكون مفيداً في وصف انتشار العمل [5][6]. وتزداد أهمية هذا التمييز في الثقافة الأدبية لأن القيمة لا تتشكل في لحظة واحدة ولا تستطيع جميع خصائص العمل أن تتحول إلى مؤشرات كمية، ومن ثم يصبح القارئ الهجين محتاجاً إلى الاحتفاظ بمسافة نقدية تفصل الشعبية عن الشرعية النقدية وتفصل التفاعل عن العمق.

كما بين الفصل أن سلطة التوصية الثقافية لم تنتقل ببساطة من الناقد إلى المؤثر، بل أصبحت موزعة بين شبكة من النقاد والقراء والمؤثرين والمنصات والناشرين والمكتبات، وأن ثقافة التوصية المعاصرة تجعل القارئ نفسه منتجاً للخطاب الذي يستطيع أن يؤثر في قراءات الآخرين [8]. وقد قدمت ظاهرة BookTok مثالاً واضحاً على هذه النقلة، لأنها تجمع مراجعة الكتاب وبناء المجتمع وتشجيع القراءة والتسويق في فضاء واحد ، كما أصبحت ذات أثر موثق في طرق عرض الكتب وبعض ممارسات صناعة النشر
[9][10][11].[12][

وأدى ذلك إلى ظهور صورة جديدة للقراءة بوصفها ممارسة مرئية، حيث تصبح الهوية القرائية والرفوف والتعليقات والانفعالات والمقاطع جزءًا من الطريقة التي يتشكل بها حضور الكتاب، وهو تحول لا ينبغي اختزاله في اتهام القراءة الرقمية بالسطحية، لأنه يستطيع أن يخلق مجتمعات وشغفًا حقيقيًا بالكتب، لكنه يحتاج إلى وعي بالفارق بين تمثيل القراءة وممارستها الداخلية، لأن ما يظهر على المنصة ليس كل ما يحدث داخل القارئ.

أما مفهوم «الذائقة الخوارزمية» فقد سمح بجمع هذه التحولات داخل صيغة واحدة تقوم على التغذية الراجعة بين الذوق والبيانات والتوصية؛ فالقارئ يحمل إلى المنصة تفضيلات تشكلت اجتماعيًا وثقافيًا، وتحول المنصة بعض آثارها إلى بيانات، ثم تقترح مواد مشابهة أو رائجة، فيستجيب القارئ وتنتج إشارات جديدة، وبذلك تصبح الخوارزمية طرفًا في البيئة التي يتطور داخلها الذوق من دون أن تكون صاحبة الذوق أو مصدره الوحيد [7][13][14]. ومن هنا تكون صناعة التشابه وإعادة إنتاج الرائج احتمالات ينبغي نقدها، لا قوانين محتومة لكل نظام توصية.

وقد انتهى الفصل إلى أن إمكان المقاومة لا يكمن في الانفصال الكامل عن هذه البيئة، بل في بناء قارئ قادر على تنويع وسائطه ومصادر توصيته، والخروج الدوري من الملف الشخصي، والبحث في المناطق الأقل ظهورًا، واستعادة المصادفة والتنوع بوصفهما قيمتين معرفيتين، وهي قيم بدأت أدبيات أنظمة التوصية نفسها تعترف بأهميتهما إلى جانب الدقة [15]. وعند هذه النقطة يصبح القارئ الهجين النقدي قادرًا على تحويل الخوارزمية من قدر ثقافي إلى أداة يمكن استخدامها ومساءلتها ومغادرتها.

ويمكن، بناء على ما سبق، صياغة النتيجة النظرية المركزية لهذا الفصل على النحو الآتي :الذائقة الأدبية في البيئة المنصاتية لا تنتجها الخوارزمية وحدها ولا يصنعها القارئ في عزلة عنها، بل تتشكل داخل شبكة من التاريخ الثقافي والوساطة البشرية والمقاييس والتوصيات وتصميمات الانتباه؛ ولذلك فإن استقلال القارئ لا يتحقق برفض هذه

الشبكة، وإنما بامتلاك القدرة على رؤية آلياتها وتوسيع مجال الاختيار خارج ما تتنبأ به عنه.

ويمهد هذا الاستنتاج مباشرة للفصل التاسع حول القارئ المنتج: من التلقي إلى المشاركة، لأن اقتصاد الانتباه لا يحول ما يقرأه الفرد فقط، بل يحول ما يفعله بعد القراءة، إذ يصبح التعليق والمراجعة والحاشية وإعادة كتابة النص ومشاركته جزءًا من الدورة التي تدخل مرة أخرى إلى المنصة وتؤثر في قراء آخرين. فإذا كان الفصل الحالي قد درس انتقال الذائقة من المجال الفردي إلى البيئة الخوارزمية، فإن الفصل المقبل سيدرس الانتقال المقابل من التلقي إلى الإنتاج، حيث يصبح القارئ نفسه مصدرًا للبيانات والخطابات والمعاني التي تعود إلى الشبكة.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Davenport, Thomas H. & Beck, John C. *The Attention Economy: Understanding the New Currency of Business*. Boston: Harvard Business School Press, 2001.
مرجع تأسيسي في مفهوم اقتصاد الانتباه، ويُستفاد منه في هذا الفصل لفهم الانتقال من ندرة المعلومات إلى ندرة القدرة البشرية على التركيز داخل فضاء شديد الوفرة. وتثبت البيانات البيبليوغرافية صدور الكتاب عن Harvard Business School Press سنة 2001 (Google Books) .

[2] Wu, Tim. *The Attention Merchants: The Epic Scramble to Get Inside Our Heads*. New York: Alfred A. Knopf, 2016.
يقدم تاريخًا للصناعات والمؤسسات التي بنت نماذجها على جذب الانتباه وإعادة تسويقه، ويُستفاد منه في وضع اقتصاد المنصات ضمن تاريخ أوسع من تسليع الانتباه(Penguin Random House) .

[3] Fogg, B. J. *Persuasive Technology: Using Computers to Change What We Think and Do*. San Francisco: Morgan Kaufmann, 2003.
مرجع كلاسيكي في دراسة الحواسيب والتقنيات بوصفها قادرة على التأثير في السلوك والاتجاهات، ويُستفاد منه في تحليل العلاقة بين تصميم الواجهة والاحتفاظ بالمستخدم(ScienceDirect) .

[4] van Dijck, José; Poell, Thomas & de Waal, Martijn. *The Platform Society: Public Values in a Connective World*. New York: Oxford University Press, 2018.
مرجع أساسي في تحليل آليات المنصات والتبيين بالبيانات والاختيار والسلعنة، ويفيد في فهم اقتصاد الانتباه بوصفه جزءًا من بنية منصاتية أوسع (OUP Academic) .

[5] Beer, David. *Metric Power*. London: Palgrave Macmillan, 2016.
يقدم مفهوم «قوة المقاييس» لتحليل أثر القياس والتصنيف والأرقام في ترتيب الحياة الاجتماعية، ويُستفاد منه في دراسة الإعجابات والمشاهدات والتقييمات بوصفها مؤشرات تستطيع أن تتجاوز الوصف إلى التأثير .
(Springer Nature)

[6] Salganik, Matthew J.; Dodds, Peter Sheridan & Watts, Duncan J. “Experimental Study of Inequality and Unpredictability in an Artificial Cultural Market.” *Science*, Vol. 311, No. 5762, 2006, pp. 854–856. DOI: 10.1126/science.1121066.

دراسة تجريبية مؤثرة في أثر المعلومات الاجتماعية على نجاح المنتجات الثقافية، وقد أظهرت أن زيادة التأثير الاجتماعي رفعت عدم المساواة وعدم قابلية التنبؤ داخل السوق التجريبية(PubMed) .

[7] Bourdieu, Pierre. *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*. Translated by Richard Nice. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984.

يمثل مرجعًا تأسيسيًا في سوسيولوجيا الذوق والحكم الثقافي، ويُستفاد منه في هذا الفصل لتجنب اختزال الذائقة في تفضيل فردي مستقل عن البنى الاجتماعية ورأس المال الثقافي(Google Books) .

[8] Fuller, Danielle & Rehberg Sedo, DeNel. *Reading Bestsellers: Recommendation Culture and the Multimodal Reader*. Cambridge: Cambridge University Press, 2023. DOI: 10.1017/9781108891042.

دراسة مهمة في ثقافة توصية الكتب والقراءة متعددة الوسائط، استندت إلى مسح للقراء ومقابلات مع مؤثري وسائل التواصل ودراسة نوعية لقراء شباب، وتفيد في تحليل تحول سلطة التوصية واختيار الكتب داخل البيئة المعاصرة(Cambridge) .

[9] Dera, Jeroen. “BookTok: A Narrative Review of Current Literature and Directions for Future Research.” *Literature Compass*, Vol. 21, Issues 10–12, 2024, e70012. DOI: 10.1111/lic3.70012.

مراجعة أكاديمية لأبحاث BookTok **تميز بين الظاهرة بوصفها شكلًا لمراجعة الكتب، ومجالًا لبناء الجماعات القرائية، وأداة لتشجيع القراءة، وتوفر أساسًا حديثًا لدراسة موقع** BookTok **في الإنتاج والتوزيع والتلقي** . (Compass Hub)

[10] Balling, Gitte & Martens, Marianne. “BookTok Helped Us Sell It: How TikTok Disrupts Publishing and Fuels the #Romantasy Boom.” *Convergence: The International Journal of Research into*

New Media Technologies, Vol. 32, No. 4, 2026, pp. 1258–1278. DOI: 10.1177/13548565241301271.
تبحث الدراسة، بالاعتماد على مقابلات مع ناشرين وبائعي كتب وتحليل محتوى وملاحظات ميدانية، أثر BookTok **في دورة إنتاج الكتب وتسويقها وتوزيعها، وقد نشرت إلكترونيًا أولًا في نوفمبر** 2024 **ثم ضمن عدد أغسطس** 2026(Sage Journals) .

[11] Dezuanni, Michael; Reddan, Bronwyn; Rutherford, Leonie & Schoonens, Amy. "Selfies and Shelfies on #Bookstagram and #BookTok – Social Media and the Mediation of Australian Teen Reading." *Learning, Media and Technology*, Vol. 47, No. 3, 2022, pp. 355–372. DOI: 10.1080/17439884.2022.2068575.
تساعد الدراسة على تحليل التمثيلات البصرية للقراءة وبناء هوية القارئ داخل المنصات، وخصوصًا علاقة الصور الذاتية وصور الرفوف بالوساطة الثقافية للقراءة(Taylor & Francis Online) .

[12] Guiñez-Cabrera, Nataly & Mansilla-Obando, Katherine. "Booktokers: Generating and Sharing Book Content on TikTok." *Comunicar*, Vol. 30, No. 71, 2022, pp. 119–130. DOI: 10.3916/C71-2022-09.
دراسة نوعية لصانعي محتوى الكتب على TikTok **، تستند إلى مقابلات شبه منظمة وتبرز أبعاد المتعة والتأثير الاجتماعي وبناء المجتمع والشبكات في إنتاج المحتوى القرائي ومشاركته**(DOI) .

[13] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.
مرجع أساسي لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل تحويل التفضيلات والذوق إلى مواد قابلة للحوسبة والتوصية، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم «الذائقة الخوارزمية(Sage Journals) ».

[14] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم الكتاب تحليلًا للقوة الخوارزمية بوصفها علاقة اجتماعية ـ تقنية، ويفيد في تفسير أثر الترتيب والظهور والتخصيص من دون الوقوع في تصور حتمي يجعل الخوارزمية صاحبة سلطة مطلقة(OUP Academic) .

[15] Kaminskas, Marius & Bridge, Derek. “Diversity, Serendipity, Novelty, and Coverage: A Survey and Empirical Analysis of Beyond-Accuracy Objectives in Recommender Systems.” *ACM Transactions on Interactive Intelligent Systems*, Vol. 7, No. 1, 2016, Article 2. DOI: 10.1145/2926720.

مرجع مهم في الانتقال من تقييم أنظمة التوصية وفق الدقة فقط إلى الاهتمام بالتنوع والجدة والمصادفة والتغطية، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم المقاومة القرائية واستعادة الاكتشاف خارج التشابه (UCC Discover Research) .

خلاصة مرجعية للفصل

تتوزع المرجعيات التي بني عليها الفصل على خمسة محاور متداخلة؛ إذ يقدم دافنبورت وبيك وو وفوغ وفان ديك وبول ودي وال [1–4] الأساس لفهم الانتباه بوصفه موردًا نادرًا يدخل في نماذج اقتصادية وتصميمات تقنية تسعى إلى التأثير في سلوك المستخدم، بينما يسمح بير وسالغانيك ودودز وواتس [5–6] بتحليل تحول الأرقام والتفاعل الاجتماعي من أوصاف للرواج إلى عناصر تستطيع أن تشارك في إنتاجه. ويقدم بورديو [7] الخلفية السوسيولوجية الضرورية لفهم الذائقة بوصفها بناءً اجتماعيًا لا خاصية فردية خالصة، بينما توضح دراسات فولر وريهبرغ سيدو وديرا وبالينغ ومارتنز وديزواني وزملائه وغينييز-كابريرا ومانسيلا-أوباندو [8–12] التحولات الجارية في ثقافات توصية الكتب ودور المؤثرين و BookTokوالتمثيل البصري للقراءة. أما هالينان وستريبهاس وبوخر [13–14] فيتيحان نقل سؤال الذوق إلى البيئة الخوارزمية وفهم التخصيص والرؤية باعتبارهما جزءًا من علاقات القوة، في حين يقدم كامينسكاس وبريدج [15] أساسًا تقنيًا ونظريًا لفكرة أن التوصية الجيدة لا ينبغي أن تقاس بالتشابه والدقة وحدهما، بل بالتنوع والجدة والمصادفة أيضًا.

ومن تقاطع هذه المحاور يتأسس المفهوم الذي يقترحه هذا الفصل، وهو أن الذائقة الخوارزمية ليست ذوقًا تنتجه الآلة بدل الإنسان، وإنما ذائقة بشرية تتشكل داخل حلقة يتقاطع فيها تاريخ القارئ الثقافي مع المقاييس والتوصيات والمؤثرين وترتيب المنصة، بحيث يصبح الوعي بهذه الحلقة شرطًا جديدًا من شروط الحرية القرائية.

الفصل التاسع

القارئ المنتج: من التلقي إلى المشاركة

ينقل هذا الفصل مسار البحث من دراسة القارئ الذي تتدخل المنصة والخوارزمية في شروط وصوله إلى النص وفي تشكيل مجال انتباهه وذائقته، إلى دراسة قارئ لم يعد أثره ينتهي بانتهاء عملية التلقي، لأن البيئة الرقمية أتاحت له أن يحول قراءته إلى تعليق وهامش وتقييم ومراجعة واقتباس وصورة وفيديو ونص مشتق، ثم أن يعيد هذه المنتجات إلى الشبكة بحيث تصبح جزءًا من البيئة التي سيقرأ داخلها الآخرون، وهو تحول يجعل التلقي مرحلة في دورة ثقافية أوسع بدل أن يكون نقطة النهاية في مسار يبدأ بالمؤلف وينتهي بالقارئ. وإذا كانت نظريات التلقي قد أعادت الاعتبار إلى القارئ من خلال الكشف عن دوره في تحقيق إمكانات النص وبناء المعنى وملء فراغاته وربطه بأفق انتظار وجماعة تأويلية، فإن الثقافة الرقمية توسع هذا الدور عندما تمنح الاستجابة الفردية قابلية فورية للتسجيل والنشر والتداول وإعادة الاستخدام، فيصبح ما كان يحدث في ذهن القارئ أو في هامش كتابه الخاص قادرًا على التحول إلى نص مواز يدخل بدوره في تلقي العمل ويؤثر في صورته العامة.

ولا يعني مفهوم «القارئ المنتج» الذي يستخدمه هذا الفصل أن القراءة التقليدية كانت استقبالًا سلبيًا خالصًا، فقد أوضحت الفصول السابقة، اعتمادًا على إيزر وإيكو وفيش ونظريات التلقي، أن القارئ شارك دائمًا في بناء المعنى، كما أن تاريخ القراءة عرف التعليق والتلخيص والاقتباس وإعادة السرد والشرح قبل ظهور الإنترنت بزمن طويل، وإنما يكمن الجديد في أن البيئة الشبكية جعلت هذه الأفعال أكثر ظهورًا واتصالًا وتداولًا وقابلية للقياس والتجميع، حتى أصبح بإمكان تعليق فردي أن يدخل في نقاش جماعي، ومراجعة هاوية أن تصل إلى آلاف القراء، واقتباس مقتطع من رواية أن يتحول إلى صورة أو فيديو أو ميم يتداول بصورة أوسع من المقطع الأصلي. وقد بينت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن بيئات مثل Goodreads

و Wattpadوغيرها تجمع أنشطة لم تكن تجتمع سابقًا بسهولة في فضاء واحد، من مراجعة الكتب والتعليق داخل النص والنقاش والكتابة الإبداعية ومشاركة الخبرة القرائية، وهو ما يجعل الكتابة حول القراءة جزءًا بنيويًا من الثقافة الأدبية الرقمية [1 .[2]]

ومن هنا تصبح العلاقة بين القراءة والإنتاج أكثر تعقيدًا من الثنائية التقليدية التي تفصل الكاتب عن القارئ؛ فالمؤلف ينتج النص الأول، لكن القراء ينتجون حوله طبقات من الخطاب والتفسير وإعادة الصياغة والتمثيل البصري والسرد المشتق، ويمكن لهذه الطبقات أن تعود فتؤثر في استقبال النص الأصلي وفي شهرته وفي الطريقة التي يدخل بها قراء جدد إليه. ويقترب هذا التحول من مفهوم «ثقافة المشاركة» عند هنري جنكينز، الذي أبرز انتقال الجمهور من موقع المستهلك الذي يكتفي باستقبال المنتجات الإعلامية إلى موقع فاعل يشارك في التداول وإعادة الكتابة وبناء المجتمعات، كما يقترب من مفهوم «الإنتاج ـ الاستخدام» عند أكسل برونز الذي وصف البيئات الرقمية التي تضعف فيها الحدود الصارمة بين المنتج والمستخدم، فيصبح الاستهلاك نفسه مدخلًا إلى أشكال من الإنتاج المستمر [4 .[5]]

غير أن الانتقال من التلقي إلى المشاركة لا يعني إلغاء الفروق بين إنتاج العمل الأدبي الأصلي وإنتاج الخطاب القرائي حوله، لأن المؤلف الذي يكتب الرواية لا يؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها القارئ الذي يراجعها أو يقتبس منها أو يصنع فيديو حولها، كما لا يجوز أن يتحول اتساع المشاركة إلى ذريعة لمحو حقوق النص وحدوده أو الخلط بين التأويل والملكية. ولهذا سيستخدم هذا الفصل عبارة »القارئ بوصفه مؤلفًا ثانيًا «بمعنى تأويلي وإجرائي محدود، أي بوصفه منتجًا للمعنى وللنصوص الموازية والمشتقة التي تنشأ من فعل القراءة، لا بوصفه مؤلفًا ثانيًا للعمل الأصلي من الناحية القانونية أو التاريخية. ويصبح السؤال الذي يقود الفصل هو: ماذا يحدث لنظرية القارئ عندما لا يبقى التأويل داخل الذهن أو الهامش الخاص، بل

يتحول إلى مادة منشورة تشارك في تشكيل النص كما يراه المجتمع القرائي؟

ـ المبحث الأول: القراءة الاجتماعية

ـ المجتمعات الرقمية للقراء

لم تنشأ القراءة الاجتماعية مع المنصات الرقمية، لأن تاريخ الكتاب عرف المجالس والصالونات والنوادي والجماعات الدينية والجامعية وحلقات الدرس والمراسلات بين القراء، كما أن تداول الكتب كان دائمًا مصحوبًا بدرجات متفاوتة من الحوار حولها، غير أن البيئة الرقمية غيرت شروط هذا الاجتماع من حيث المدى والسرعة والاستمرارية وإمكان حفظ آثار التفاعل، بحيث أصبح القارئ قادرًا على الدخول إلى مجتمع أدبي لا يشترك أفراده في المكان نفسه ولا التوقيت نفسه ولا حتى اللغة نفسها أحيانًا، بينما تبقى تعليقاتهم وتقييماتهم ونقاشاتهم متاحة للعودة إليها بعد انتهاء لحظة الحوار. وقد اقترح سيموني ريبورا وبيتر بوت وفيديريكو بيانزولا وزملاؤهم مفهوم «القراءة الاجتماعية الرقمية» لوصف الخبرات القرائية المشتركة التي تستخدم الوسائط والتقنيات الرقمية في القراءة أو في تبادل الخبرات الناتجة عنها، وأظهروا أن هذه البيئات تشمل المراجعات والتعليقات داخل النص والنقاشات والكتابة السردية ومقاطع الفيديو وغيرها من الممارسات التي تجعل التفاعل الاجتماعي حول الأدب قابلًا للملاحظة والدراسة) .[1]

ويطور بيانزولا هذه الفكرة في *Digital Social Reading* من خلال التعامل مع القراءة الاجتماعية الرقمية لا بوصفها ملحقًا ترفيهيًا بالقراءة «الحقيقية»، بل بوصفها منظومة واسعة من الممارسات التي تستطيع أن تنمي الرغبة في القراءة وأن تغير السياق الذي تحدث داخله التجربة الأدبية، مستندًا إلى حالات من Wattpad و AO3و Goodreadsعلى نطاق دولي [2]. ويهم مشروع القارئ الهجين في هذه المقاربة أن القارئ الاجتماعي لا يتلقى النص وحده ثم يغادره إلى المجتمع بعد اكتمال فهمه، بل يستطيع أن يدخل إلى العمل محاطًا بآثار القراء الآخرين، وأن يتوقف أثناء القراءة لكي يشارك رأيًا، ثم يتلقى ردًا يعيده إلى المقطع نفسه بتأويل مختلف، وبذلك تصبح الجماعة جزءًا من الزمن الداخلي للقراءة لا مجرد فضاء خارجي لاحق عليها .

وتغير هذه المجتمعات مفهوم «الجماعة التأويلية» الذي ناقشه ستانلي فيش، لأن الجماعة التي كانت في النظرية تشير إلى الأطر الثقافية والمؤسساتية والاستراتيجيات المشتركة التي تجعل بعض التأويلات ممكنة ومفهومة، تصبح في البيئة الرقمية قابلة للرؤية المباشرة من خلال التعليقات والمراجعات والردود والسجالات [13]. ولا يعني ذلك أن المجتمع الرقمي يكشف «الجماعة التأويلية» كاملة، لأن المستخدمين غير المعلقين يظلون غير مرئيين، كما أن الخوارزمية قد ترفع بعض الآراء وتخفض غيرها، لكن البيئة الجديدة تجعل أثر الجماعة أكثر تجسداً حول النص، فيستطيع الباحث أن يلاحظ كيف تتكرر بعض المفاهيم، وكيف تتحول قراءة فردية إلى اتجاه جماعي، وكيف تتشكل معايير ضمنية لما يعد تأويلًا مقبولًا أو مبالغًا فيه.

ومن هنا يمكن الحديث عن »**الجماعة التأويلية المتصلة** «بوصفها تطويراً إجرائيًا لمفهوم الجماعة فيش، إذ لا يشير المصطلح إلى نظرية مستقلة قائمة في الأدبيات السابقة، وإنما إلى الحالة التي تصبح فيها استراتيجيات القراءة وآثارها متداولة داخل شبكة تستطيع حفظها وربط أصحابها وإعادة ترتيبها. وتختلف هذه الجماعة عن نادي الكتاب التقليدي في أن النصوص الناتجة عنها تبقى متاحة وتتحول إلى بيانات ومؤشرات، وقد يدخل القارئ الجديد إلى المجتمع بعد سنوات فيقرأ نقاشًا قديمًا كما لو كان جزءًا من الحاضر، وهو ما يجعل الذاكرة الجماعية للقراءة أكثر امتداداً.

كما تغير المجتمعات الرقمية علاقة القارئ بالسلطة الثقافية، لأن الفرد لم يعد في حاجة إلى انتظار المؤسسة النقدية لكي يكتب رأيًا عامًا في كتاب، وهو ما يوسع المشاركة ويتيح أصواتًا لم تكن تجد بسهولة منفذاً إلى الصحافة أو الجامعة، لكنه ينتج في الوقت نفسه تفاوتات جديدة مرتبطة بالمتابعة والانتشار والخوارزمية. فإمكان الكلام متاح نظريًا لعدد كبير من المستخدمين، لكن القدرة على الوصول إلى جمهور واسع ليست موزعة بالتساوي، ولذلك لا ينبغي مساواة ديمقراطية النشر بديمقراطية الظهور. وقد يكون تعليق قارئ متخصص أكثر عمقًا من محتوى شديد

الرواج، بينما تمنح البنية المنصاتية الأخير حضورًا أكبر، وهو ما يعيد إنتاج السؤال الذي طرحه الفصل السابق حول اقتصاد الانتباه داخل المجال النقدي نفسه.

- القراءة المشتركة

تشير القراءة المشتركة إلى أن فعل التلقي يمكن أن يصبح مسارًا يتقاسمه عدد من الأفراد لا في النتيجة فقط، بل في زمن القراءة ذاته، كما يحدث في مجموعات القراءة المتزامنة، وال buddy reads**، والتعليقات المرافقة للفصول، والقراءة التسلسلية داخل منصات النشر، حيث يتقدم القارئ في العمل وهو يرى ردود أفعال من وصلوا إلى النقطة نفسها أو من سبقوه إليها. ولا تلغي هذه الممارسة التجربة الفردية، لكنها تجعلها محاطة باستجابات تستطيع أن تغير ما يلتفت إليه القارئ وما يتوقعه من الفصول التالية.**

وتتيح البيئة الرقمية شكلًا خاصًا من التزامن غير المتزامن، إذ يمكن لعشرات القراء أن يعيشوا تجربة مشتركة رغم دخولهم إلى النص في أوقات مختلفة، لأن التعليقات تبقى مرتبطة بمواضع محددة أو فصول معينة، بحيث يواجه القارئ آثار الاستجابة كما لو أن الجماعة ما تزال حاضرة معه. وهذا التحول مهم نظريًا، لأن النص لم يعد يربط القراء بعضهم ببعض فقط من خلال امتلاكهم نسخة منه، بل أصبحت البنية الرقمية قادرة على ربط الاستجابة بموقعها داخل العمل، فيتحول المقطع إلى مركز محادثة.

وقد لفتت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية إلى أن التفاعل الاجتماعي حول الكتب يمكن أن يدعم الانخراط والاهتمام بالقراءة، مع ضرورة تجنب التعميم بأن المشاركة الاجتماعية تحسن الفهم دائمًا وفي جميع الظروف، لأن النتيجة تتأثر بطبيعة المجتمع والنص ونوع التفاعل [2]**. وتكمن القيمة النظرية الأهم في أن القراءة المشتركة تجعل بناء المعنى قابلًا لأن يحدث عبر تداول الفرضيات؛ فقد يقترح قارئ تفسيرًا، ويعترض آخر عليه، ويضيف ثالث سياقًا تاريخيًا، ثم يعود الأول إلى النص ويغير موقفه، وبذلك**

يصبح المعنى نتيجة حركة بين النص وعقول متعددة وليس بين نص وقارئ منفرد فقط(

غير أن المشاركة تستطيع كذلك أن تقلل استقلال القراءة إذا دخل القارئ إلى النص بعد أن تشكل إجماع قوي حول شخصية أو نهاية أو قيمة جمالية، لأن الرأي الجماعي قد يعمل بوصفه إطارًا سابقًا يصعب الانفصال عنه. ومن هنا تظهر مفارقة القراءة المشتركة: فهي توسع إمكانات التأويل من خلال تعدد القراء، لكنها تستطيع أن تنتج ضغطًا تأويليًا جماعيًا يجعل بعض القراءات أقل قابلية للظهور، وهو ما يفرض على القارئ الهجين أن يستفيد من الجماعة من دون أن يحولها إلى بديل عن قراءته الأولى.

ويصبح هذا التوتر أكثر وضوحًا عندما تكون الجماعة مؤطرة بخوارزمية تحدد التعليقات الأبرز أو المراجعات الأكثر فائدة أو المواد الأكثر تداولًا، لأن القراءة المشتركة لا تكون عندها مشاركة بين جميع القراء بالتساوي، بل مشاركة عبر واجهة تنتقي آثارهم وتعيد ترتيبها. وهكذا تجتمع في اللحظة نفسها ثلاثة مستويات من الفاعلية: النص الذي يفتح إمكانات، والقارئ الذي يبني موقفه، والجماعة التي تقدم قراءات بديلة، والمنصة التي تنظم أي هذه القراءات سيصل إليه أولًا، وهو النموذج الذي يجعل القارئ الهجين فاعلًا داخل نظام اجتماعي ـ تقني أكثر تركيبًا من النموذج الثنائي القديم.

ـ المبحث الثاني: التعليق والهامش الرقمي

ـ تحولات الهامش

احتل الهامش موقعًا فريدًا في تاريخ القراءة لأنه يمثل المنطقة التي تتحول فيها القراءة إلى كتابة دون أن تغادر النص تمامًا، ففي اللحظة التي يضع فيها القارئ خطًا تحت عبارة أو يكتب اعتراضًا أو سؤالًا أو إحالة بجوارها، يصبح أثر التلقي ماديًا وقابلًا للعودة، وينتقل جزء من العملية التي كانت تحدث في الذاكرة إلى سطح الكتاب. وقد حلل ريمي كالير وأنتيرو غارسيا التعليق بوصفه جنسًا يجمع القراءة والتفكير والكتابة والاتصال، مبينين أن الحاشية يمكن أن تقدم معلومة أو تعليقًا أو تفتح محادثة أو تعبر عن علاقات قوة أو تساعد في التعلم [3]. ويكتسب هذا المنظور أهمية خاصة لأنه يرفض اعتبار الهامش نشاطًا ثانويًا خارج النص، ويجعله موقعًا يحدث فيه التفاعل بين القراءة والكتابة بصورة مباشرة .

وكان الهامش الورقي، في معظم الحالات، مرتبطًا بنسخة مادية محددة، فلا يراه إلا من يصل إلى الكتاب نفسه، وقد يستطيع باحث بعد قرون دراسة حواشي قارئ قديم لاستعادة شيء من تاريخ تلقي النص، بينما تغير الهامش الرقمي من حيث النطاق والزمن؛ فالتعليق يمكن أن يُكتب بجوار الجملة ويظهر في اللحظة نفسها لقراء في أماكن مختلفة، ويمكن الرد عليه وإعادة كتابته وربطه بمصدر خارجي، وهو ما يحول الهامش من ذاكرة شخصية إلى فضاء اجتماعي مصغر.

ولا يعني ذلك أن الهامش الرقمي أكثر أهمية في ذاته من الهامش الورقي، لأن الخصوصية والبطء والارتباط بالجسد المادي للكتاب تمنح الحاشية التقليدية خصائص لا تملكها المنصة، لكن الفرق يتعلق بالقابلية للتداول. ففي الكتاب الورقي تظل الحاشية غالبًا تابعة لتاريخ نسخة واحدة، بينما يمكن في النص الرقمي أن تتحول إلى عنصر من عناصر الواجهة وأن تصبح جزءًا من تجربة آلاف المستخدمين. ومن هنا لا يعود القارئ يكتب إلى

«ذاته المستقبلية» فقط، بل قد يكتب إلى جمهور مجهول لا يعرف متى سيصل إلى النص.

وتتيح هذه النقلة النظر إلى الهامش باعتباره حلقة مبكرة في تحول القارئ إلى منتج، لأن التعليق يبدأ باستجابة صغيرة لكنه يستطيع أن يحمل تأويلًا كاملًا أو اعتراضًا أو معلومة تغير قراءة الآخرين. وقد ذهب كالير وغارسيا إلى أن التعليق يمكن أن يثير المحادثة وأن يصبح كتابة عامة تناقش وتعدل بصورة تكرارية بين عدد من المشاركين [3]، وهو ما يجعل الهامش الرقمي أقل شبهًا بالملاحظة الشخصية وأكثر شبهًا ببنية حوارية تنمو حول النص.

ومن هنا يمكن الحديث عن تحول من الهامش بوصفه أثرًا إلى الهامش بوصفه حدثًا؛ ففي الحالة الأولى يسجل القارئ ما حدث له أثناء القراءة، بينما يصبح في الثانية عنصرًا يطلق سلسلة جديدة من القراءات والردود، وقد يعود الكاتب الأصلي نفسه للمشاركة فيها في بعض المنصات. وهذا التحول يجعل الحدود بين المتن والهامش أكثر مرونة، لأن بعض الحواشي قد تكتسب شهرة وتأثيرًا يفوق المقاطع التي علقت عليها، فيتحول النص المرافق إلى مركز مؤقت للانتباه.

ـ التعليقات بوصفها نصوصًا موازية

يستخدم هذا الكتاب مفهوم »**النص الموازي القرائي** «للإشارة إلى مجموع الخطابات التي ينتجها القراء حول العمل وتظل مرتبطة به من غير أن تصبح جزءًا أصليًا منه، مثل التعليقات والمراجعات والحواشي والفيديوهات التفسيرية، وهو استعمال إجرائي يستفيد من التقاليد التي درست العتبات والنصوص المحيطة دون أن يساوي بينها وبين تعليقات المنصات الحديثة. وتنبع أهمية هذا المفهوم من أن القارئ المعاصر قد لا يلتقي النص منفردًا، بل يلتقيه ومعه كتلة من الخطابات التي يمكن أن تسبق القراءة أو ترافقها أو تعيد تشكيل ذكراها بعد انتهائها.

وتستطيع التعليقات أن تؤدي وظائف متعارضة؛ فقد تقدم معلومة تساعد القارئ على فهم مرجع، وقد تنبهه إلى تفصيل لم ينتبه إليه، كما تستطيع أن تكشف أحداثًا لاحقة فتفسد أثر البناء السردي، أو تقدم تأويلًا جاهزًا يغلق مساحة السؤال. ومن هنا فإن وجود النص الموازي لا يمثل توسعًا إيجابيًا تلقائيًا، بل يغير توقيت وصول المعرفة؛ فالمعلومة التي كان المؤلف يؤجلها إلى الفصل العاشر قد يكشفها تعليق في الفصل الأول، والتفسير الذي كان القارئ سيبنيه بعد مئة صفحة قد يواجهه قبل أن يملك الأدلة التي قادت إليه.

ويصبح التعليق، في هذه الحالات، طرفًا في إدارة التوقع، ولذلك يستطيع أن يدخل في «أفق الانتظار الخوارزمي والاجتماعي» الذي طوره الكتاب سابقًا؛ فالقارئ لا يأتي إلى المقطع فقط بمخزونه الثقافي، بل بما شاهده من ردود الآخرين، وقد تصبح بعض هذه الردود شديدة الحضور بسبب ترتيب المنصة. وهكذا يتقاطع الهامش مع الخوارزمية، ويصبح النص الموازي نفسه خاضعًا لسلطة الظهور والإخفاء.

كما تثير التعليقات مسألة السلطة؛ فقد بين كالير وغارسيا أن الحاشية ليست بريئة من علاقات القوة، لأنها تستطيع أن ترفع صوتًا مضادًا كما تستطيع إسكات أصوات أو فرض إطار معين للقراءة [3]. ويظهر ذلك بوضوح في المجتمعات الرقمية حيث يمكن لجماعة كبيرة أن تحاصر تفسيرًا مخالفًا بالسخرية أو التقييم السلبي، بينما قد تسمح البيئة نفسها لقراءة مهمشة تاريخيًا بأن تجد فضاء لم يكن متاحًا داخل النقد المؤسسي. ولذلك ينبغي التعامل مع النصوص الموازية بوصفها فضاء ديمقراطيًا ومتنازعًا في الوقت نفسه، فهي توسع حق الكلام ولا تضمن عدالة توزيعه) .

وتنبع من ذلك كفاية جديدة للقارئ الهجين هي إدارة المحيط النصي، أي قدرته على اختيار اللحظة التي يقرأ فيها التعليقات، والتمييز بين ما يحتاج إليه لفهم النص وما قد يختطف قراءته الأولى، والقدرة على العودة إلى المتن بعد المرور بالهامش. ولا يقل هذا القرار أهمية عن إدارة الروابط والتوصيات،

لأن النص الموازي يستطيع أن يصبح أداة معرفية أو مصدر تشتيت أو سلطة تأويلية بحسب موقعه من الدورة القرائية.

ـ المبحث الثالث: مراجعات القراء

ـ ديمقراطية النقد

تمثل مراجعات القراء واحدة من أكثر مظاهر تحول السلطة النقدية وضوحًا، لأن إمكان نشر حكم على كتاب لم يعد مرتبطًا بالوصول إلى صحيفة أو مجلة أو مؤسسة أكاديمية، بل يستطيع أي مستخدم تقريبًا أن يسجل تقييمًا أو مراجعة وأن يجعلها جزءًا من الملف العام للعمل، وهو ما نقل جانبًا من النقد من فضاءات نخبوية محدودة إلى مجال مفتوح نسبيًا يشترك فيه قراء ذوو مستويات مختلفة من الخبرة والتخصص. وقد جعلت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية المراجعات إحدى الممارسات المركزية التي تتيح دراسة الاستقبال المعاصر على نطاق لم يكن متاحًا من قبل [1 .[2]]

ولا ينبغي فهم «ديمقراطية النقد» هنا بوصفها حكمًا بأن كل مراجعة مساوية لكل مراجعة في القيمة، بل بوصفها ديمقراطية في حق المشاركة والنشر؛ فالتحول الأساسي هو أن البوابة المؤسسية التي كانت تقرر من يملك حق الكلام ضعفت، وأصبح المجال مفتوحًا لخبرات قارئ عادي أو مراهق أو قارئ متخصص لا يعمل ناقدًا محترفًا، وهو ما يمكن أن يوسع معرفتنا بتلقي الكتب لأنه يكشف استجابات كانت تختفي خارج الأرشيف النقدي الرسمي. وقد أصبح هذا الكم من المراجعات مادة للعلوم الإنسانية الرقمية ولدراسات التلقي الحسابية التي تحلل أنماط الاستجابة الجماعية على نطاق واسع.[1]

وتكمن قيمة مراجعات القراء كذلك في أنها تكشف وظائف للكتاب قد لا يهتم بها النقد الأكاديمي بالدرجة نفسها، إذ يكتب القارئ عن أثر العمل في حياته وعن سرعة قراءته وعن علاقته بالشخصيات وعن غضبه أو تعاطفه أو شعوره بأن الكتاب مثله أو لم يمثله، وهي معطيات لا يمكن اختزالها في «جودة النقد»، لأنها تكشف جانبًا من التاريخ الاجتماعي والعاطفي للتلقي. ومن هنا ينبغي ألا تقاس مراجعة المستخدم فقط بمقدار اقترابها من المقال الأكاديمي، لأنها تنتمي إلى جنس مختلف له أغراضه وأعرافه.

كما أن مجموع المراجعات يستطيع أن يصنع ما يشبه الأرشيف الجماعي للاستقبال؛ فعوض أن يحتاج مؤرخ القراءة إلى البحث عن رسائل خاصة ونسخ هامشية متفرقة، يمكنه أن يجد آلاف الاستجابات محفوظة زمنيًا وقابلة للتحليل، مع ضرورة تذكر أن هذا الأرشيف منحاز إلى من يملكون حسابات ويختارون الكتابة وإلى ما تسمح المنصة بحفظه. ومن ثم فإن وفرة البيانات لا تعني تمثيل جميع القراء، لكنها تغير جذريًا إمكان دراسة العلاقة بين النص والجمهور.

ويعيد هذا التحول كذلك تشكيل العلاقة بين الناقد والقارئ، لأن الناقد المهني لم يعد يتكلم إلى جمهور صامت، بل يمكن أن تدخل مراجعته في حوار مباشر مع تعليقات القراء، وقد يناقش المستخدمون تقييمه ويقدمون أدلة مضادة، وهو ما لا يلغي الخبرة لكنه يجعلها قابلة للمساءلة من أسفل بصورة أكثر سرعة. ومن هنا يصبح المشهد النقدي شبكة من السلطات المتجاورة بدل هرم واحد يبدأ بالمؤسسة وينتهي بالمتلقي.

ـ أزمة المعايير الجمالية

يفتح اتساع المشاركة سؤالًا صعبًا حول المعايير، لأن تحويل كل قارئ إلى ناقد محتمل يجعل أحكامًا شديدة الاختلاف تتجاور في المساحة نفسها، وقد تمنح المنصة للمراجعة العاطفية المختصرة مكانًا يفوق دراسة تحليلية طويلة إذا حظيت الأولى بتفاعل أكبر. ولا تعني هذه الظاهرة أن النقد الجماهيري يفتقر بالضرورة إلى القيمة، بل تكشف أن معايير الظهور ومعايير الجودة النقدية ليست متطابقة، وأن المنصة تستطيع ترتيب الخطاب النقدي بحسب التفاعل أو «الفائدة» التي يمنحها المستخدمون، لا بحسب معايير الأدب والنظرية.

ويفيدنا بورديو هنا لأن الحكم على الفن لم يكن قبل المنصات معيارًا كونيًا نقيًا خارج المجتمع، بل ارتبط بمؤسسات التعليم والطبقة ورأس المال الثقافي وتاريخ الحقول الفنية [6]، ولذلك لا ينبغي بناء مقارنة ساذجة بين «ناقد موضوعي قديم» و«قارئ ذاتي جديد»، غير أن البيئة الرقمية تضيف

درجة أعلى من التعدد تجعل أزمة المعايير أكثر ظهورًا. فالقارئ قد يمنح رواية نجمة واحدة لأن النهاية أحزنته، بينما يقيمها آخر بخمس نجوم للأمر نفسه، وناقد ثالث قد يرى أن معيار الحب والكراهية لا يكفي أصلًا للحكم على البناء الأدبي.

ومن هنا ينبغي التمييز بين التقييم الاستهلاكي والحكم النقدي، مع الاعتراف بإمكان تداخلهما؛ فالأول يجيب غالبًا عن سؤال «هل أعجبتني التجربة؟»، بينما يحاول الثاني أن يجيب عن أسئلة تتعلق بالبنية واللغة والسياق والابتكار والتقاليد التي يدخل فيها العمل، ولا يمنع ذلك أن تكون مراجعة قارئ عادي عميقة أو أن يكون مقال ناقد ضعيفًا، وإنما يوفر لنا تمييزًا وظيفيًا بين نوعين من الخطاب لا ينبغي الخلط بينهما لمجرد ظهورهما في الصفحة نفسها.

ويصبح نظام النجوم مثالًا مكثفًا لهذه الأزمة، لأنه يحول تجربة مركبة إلى رقم يمكن جمعه في متوسط، فيبدو أن الكتاب الذي حصل على 4.5 يملك «قيمة» أكبر من الذي حصل على 3.9، مع أن الرقم يجمع أحكامًا ذات أسباب مختلفة ولا يميز بين كفاءة المقيمين ولا بين ما كانوا يبحثون عنه في العمل. ومن هنا تعود الإشكالية التي ناقشها الفصل الثامن حول المقاييس الرقمية، لكن في مستوى أدق :التقييم العددي لا يصف النص فقط، بل يصف علاقة مجموعة محددة من القراء به، ولذلك لا ينبغي تحويله إلى خاصية جوهرية للعمل.

وتتضاعف أزمة المعايير عندما تدخل مراجعات القراء في التوصية، لأن التقييم لا يبقى رأيًا معزولًا بل يمكن أن يصبح إشارة تستخدمها المنصة في ترتيب الكتب أو عرضها، وعندها يساهم الحكم الفردي في بناء شروط وصول الآخرين إلى النص. ومن هنا تتحول المراجعة من فعل تفسيري إلى فعل بنيوي في النظام الثقافي، لأن مجموع أحكام القراء يمكن أن يؤثر في القابلية للاكتشاف، وهو ما يجعل مسؤولية المراجعة أكبر مما كانت عليه حين كانت مجرد رأي خاص.

ولا ينبغي أن يكون الرد على هذه الأزمة بإعادة احتكار النقد من طرف الخبراء، بل ببناء ثقافة تمييز بين أنواع الحكم، بحيث يعرف القارئ أن الانفعال مشروع لكنه ليس المعيار الوحيد، وأن التقييم العددي مفيد لكنه لا يغني عن الحجة، وأن الشعبية لا تساوي القيمة، وأن الخبرة النقدية تظل مهمة حتى داخل الفضاء الديمقراطي. وبهذا المعنى يصبح القارئ المنتج الجيد ليس من يملك حق الكلام فقط، بل من يدرك طبيعة الكلام الذي ينتجه وآثاره في الآخرين.

ـ المبحث الرابع: إعادة إنتاج النص

ـ الاقتباس والاختصار

تبدأ إعادة إنتاج النص من أكثر الممارسات القرائية قدمًا، أي الاقتباس، لأن اختيار جملة من عمل ونقلها إلى سياق آخر يمثل فعلًا يخرج الوحدة من بنيتها الأصلية ويمنحها حياة جديدة، وقد كانت المختارات والدفاتر الشخصية والمراسلات والمقالات النقدية أدوات تاريخية لهذا النقل، غير أن البيئة الرقمية جعلت الاقتباس أسرع وأكثر قابلية للانتشار، كما جعلت السياق الجديد مرئيًا أمام جمهور واسع. وعندما يشارك القارئ جملة على منصة اجتماعية، فإنه لا ينقلها فقط، بل يختارها من بين آلاف الجمل ويقدمها بوصفها ما يستحق أن يمثل الكتاب في تلك اللحظة، وهو ما يجعل الاقتباس شكلًا من أشكال التأليف الانتقائي حتى مع بقاء الكلمات للمؤلف الأصلي.

وتزداد هذه الوظيفة وضوحًا في الاختصار والتلخيص، لأن القارئ الذي يكتب ملخصًا لا ينقل جميع عناصر النص، بل يحدد ما يعده مركزيًا ويعيد ترتيب العلاقات بينها بلغة جديدة. ومن هنا يكون الملخص أثرًا على القراءة بقدر ما هو وصف للكتاب؛ فهو يكشف ما رآه القارئ مهمًا وما حذفه، وقد يختلف ملخصان للعمل نفسه اختلافًا يكشف اختلاف التأويل. ويصبح التلخيص الرقمي المنشور نوعًا من النص البديل المؤقت الذي قد يستخدمه آخرون لاتخاذ قرار القراءة أو لتذكر الكتاب أو، في الحالات الأكثر إشكالًا، بدل قراءته.

ومع دخول الذكاء الاصطناعي التوليدي، تصبح إعادة الإنتاج نفسها هجينة؛ فقد يختار القارئ المقاطع ويطلب من النظام إعادة تنظيمها أو اختصارها أو تحويلها إلى نقاط أو لغة أبسط، ثم ينشر الناتج بعد تعديله، وعندها يصعب فهم المنتج النهائي من خلال ثنائية مؤلف/قارئ فقط، لأن سلسلة إنتاجه قد تضم النص الأصلي والقارئ والنظام التوليدي والمنصة. وهنا يعود المبدأ الذي تأسس في الفصول السابقة: ينبغي تتبع توزيع الوظائف لا محو الفروق بين الفاعلين.

ويظهر الخطر عندما تنفصل النسخة المختصرة عن أصلها إلى درجة تبدأ معها في تمثيله بصورة اختزالية، وخصوصًا في الأدب الذي لا يمكن اختصار قيمته إلى الأحداث أو الأفكار. فالقصيدة ليست مجموعة معلومات يمكن ضغطها دون خسارة، والرواية لا تساوي حبكتها، والنص الفلسفي لا يساوي قائمة نتائجه، ولذلك ينبغي أن يُفهم الاختصار باعتباره أداة لإعادة الدخول إلى النص أو تقديمه، لا نسخة مكافئة له. ومن هنا يمكن صياغة قاعدة للقارئ المنتج مفادها أن كل إعادة إنتاج للنص ينبغي أن تعلن ضمنيًا أو صراحة أنها منظور إلى العمل لا العمل نفسه.

ـ الصورة والفيديو والميم

تتجاوز إعادة الإنتاج اللغة عندما يتحول النص إلى صورة أو فيديو أو ميم أو تصميم بصري، إذ يصبح القارئ منتجًا لترجمة بين أنظمة سيميائية مختلفة، فيختار عنصرًا من العمل ويمنحه شكلًا بصريًا أو صوتيًا يمكن أن يغير دلالته وطريقة تلقيه. وقد أصبح هذا النمط مركزيًا في الثقافة الرقمية، حيث تستطيع رواية طويلة أن تظهر في فيديو مدته ثوان، أو تتحول شخصية إلى ميم، أو يصبح اقتباس جزءًا من تصميم يربطه بصورة لا وجود لها في النص الأصلي.

ويتيح مفهوم «الثقافة التشاركية» عند جنكينز فهم هذه الممارسات بوصفها جزءًا من نشاط جمهور لا يكتفي بالاستهلاك بل يعيد استعمال المواد الثقافية ويمنحها أشكالًا جديدة [4][10]. ففي *Textual Poachers* درس جنكينز جماعات المعجبين بوصفها جماعات نشطة تعيد كتابة النصوص وتوسيع عوالمها وتكوين أعمال مشتقة، بينما أظهر لاحقًا في *Convergence Culture* كيف أصبحت المشاركة والتداول عبر الوسائط جزءًا أساسيًا من الثقافة الإعلامية [4 .[10]]

ويقدم أكسل برونز مفهوم «الإنتاج ـ الاستخدام» إطارًا آخر لفهم القارئ الذي يتحول أثناء استهلاك المحتوى إلى منتج وموزع له، بحيث لا يبقى الخط الفاصل بين الإنتاج والاستهلاك ثابتًا في البيئات التشاركية [5].

ويصلح هذا المفهوم للقراءة الرقمية لأن المستخدم قد يقرأ اقتباسًا ويعيد تصميمه، أو يشاهد مراجعة فينتج ردًا عليها، أو يأخذ ميمًا ويغيره، فتدخل المواد في سلسلة من إعادة الاستخدام لا تنتهي عند نسخة واحدة مستقرة .

غير أن الميم والفيديو القصير يكشفان بوضوح مشكلة نزع السياق؛ فلكي تصبح المادة قابلة للتداول السريع، غالبًا ما تختزل إلى عنصر واحد ينجح خارج بنيته الأصلية، وقد يكون هذا الاختزال ساخرًا أو نقديًا أو إبداعيًا، لكنه يستطيع كذلك أن يصنع صورة عن العمل لا يجد القارئ فيها ما توقعه بعد فتح الكتاب. ومن هنا تصبح إعادة الإنتاج جزءًا من أفق الانتظار، فقد يدخل القارئ إلى رواية لأنه رأى شخصية في عشرات المقاطع المصورة، ثم يقرأها من خلال الصورة التي صنعها المجتمع حولها.

وتستطيع إعادة الإنتاج في المقابل أن توسع حياة الأعمال الأدبية، لأن الميم أو الفيديو أو الرسم قد يعيد نصًا قديمًا إلى التداول، ويخلق مسارًا جديدًا لجمهور لم يكن سيصل إليه من خلال النقد التقليدي. وهنا لا ينبغي أن يقتصر السؤال النقدي على «هل شوهت المنصة النص؟»، بل ينبغي أن نسأل كذلك: ما الذي كشفه التحويل؟ وما الذي أخفاه؟ وما الجمهور الجديد الذي صنعه؟ وكيف تغير معنى العمل عندما انتقل من لغة إلى وسيط آخر؟ وبهذه الأسئلة تصبح إعادة الإنتاج موضوعًا مشروعًا للدراسات الأدبية بدل التعامل معها بوصفها ضوضاء حول الأدب.

ـ المبحث الخامس: القراءة عبر الوسائط

ـ *الرواية والفيلم والكتاب الصوتي*

تتغير القراءة جذريًا عندما لا يبقى العمل مرتبطًا بوسيط واحد، لأن الرواية التي تنتقل إلى فيلم لا تعيد إنتاج كلماتها في صورة مرئية فقط، بل تخضع لعملية تحويل تغير طرق السرد والزمن والمنظور والجسد والصوت، وهو ما جعل ليندا هاتشون في *A Theory of Adaptation* **تؤكد أن الاقتباس الفني ينبغي ألا يقاس بمنطق «الوفاء» البسيط للأصل، بل بوصفه إعادة ترميز وإبداع يحدثان داخل وسيط جديد له إمكاناته وحدوده [7]. وتسمح هذه المقاربة بفهم القارئ الذي ينتقل بين الرواية والفيلم لا بوصفه شخصًا يقارن الأصل بالنسخة فقط، بل بوصفه متلقيًا يبني معنى العمل عبر اختلافات الوسائط ذاتها .**

فعندما يشاهد القارئ فيلمًا مقتبسًا من رواية سبق أن قرأها، تدخل الصورة والصوت وأداء الممثلين والموسيقى إلى ذاكرته القرائية، وقد يصبح من الصعب بعد ذلك استعادة الشخصية بعيدًا عن الوجه الذي منحها إياه الفيلم، والعكس صحيح عندما يشاهد العمل أولًا ثم يقرأ النص، لأن الصورة السابقة قد تعمل بوصفها إطارًا يتدخل في التخيل. ومن هنا تكشف القراءة عبر الوسائط أن المعنى لا ينتقل من وسيط إلى آخر من دون أثر، بل يعاد تشكيله داخل كل تجربة.

ويقدم الكتاب الصوتي مثالًا مختلفًا لأن النص اللفظي يمكن أن يبقى قريبًا من الأصل المكتوب، لكن الوسيط يضيف الصوت والأداء والسرعة والنبر، كما يغير الظروف المكانية والجسدية التي يمكن أن يحدث فيها التلقي. وقد عالجت إيبن هاف وبيرغيت ستوغارد بيدرسن الكتاب الصوتي الرقمي بوصفه شكلًا من إعادة وساطة الأدب وتجربة قراءة قائمة على الاستماع، رافضتين النظر إليه باعتباره قراءة من الدرجة الثانية أو مجرد تعويض لمن لا يستطيع القراءة البصرية [8]. وتوضح دراستهما أن الأداء الصوتي وإمكانات

الوسيط الرقمي يخلقان تجربة يمكن دراستها من منظور الأدب والوسائط والصوت والحياة اليومية معًا .

ولا يعني ذلك أن الاستماع والقراءة البصرية متطابقان، فالكتاب الصوتي ينظم زمن التلقي بواسطة صوت يؤدي النص، ويجعل العودة إلى جملة سابقة مختلفة عن حركة العين إلى أعلى الصفحة، كما أن النبرة تستطيع أن تقترح تفسيرًا للجملة قبل أن يبنيه المستمع بنفسه. ومن هنا يمثل الصوت وسيطًا تأويليًا لأن أداء السخرية أو الغضب أو التردد يضيق أو يوسع بعض إمكانات الفهم، وهو ما يجعل المقارنة بين النص المكتوب والمسموع جزءًا مثمرًا من نظرية القارئ الهجين.

وقد دفعت التحولات الوسائطية المعاصرة دراسات القراءة إلى مراجعة تعريف القراءة نفسه، كما يظهر في *The Digital Reading Condition* الذي يجمع بحوثًا حول القراءة الرقمية والمسموعة والمتعددة الحواس والعابرة للوسائط، ويدعو إلى تجاوز التصورات المنحازة إلى المطبوع باعتباره المعيار الوحيد للفعل القرائي [16]. ولا يعني توسيع المفهوم أن مشاهدة كل فيلم «قراءة» بالمعنى نفسه، بل أن النشاط التأويلي الذي يقوم به الفرد عبر الوسائط المختلفة يحتاج إلى لغة أكثر مرونة من الفصل الصارم بين القارئ والمشاهد والمستمع .

ومن هنا يمكن للقارئ الهجين أن يبني فهمًا لعمل واحد عبر أكثر من وسيط، فيقرأ الرواية ويستمع إلى نسخة صوتية ويشاهد اقتباسها السينمائي ويقرأ التعليقات حولها، ثم يعيد تقييم ما ظنه معنى ثابتًا حين يرى ما غيره كل وسيط. ويصبح هذا الانتقال نفسه فعلًا نقديًا إذا استطاع القارئ أن يميز ما يعود إلى العمل وما يعود إلى الأداء أو الإخراج أو الوسيط، بدل أن يدمج جميع الطبقات في ذاكرة واحدة بلا تمييز.

ـ السرد العابر للوسائط

يختلف السرد العابر للوسائط عن الاقتباس في أن القصة لا تنتقل فقط من وسيط إلى آخر في صورة جديدة، بل يتوزع عالمها السردي بين وسائط مختلفة بحيث تضيف كل واحدة جزءًا يمكن أن يوسع التجربة، وهو المفهوم الذي ارتبط بقوة بأعمال هنري جنكينز حول ثقافة التقارب [4]، ثم طوّره كارلوس ألبرتو سكولاري من منظور السيميائيات والسرديات حين درس العوالم التي تتوزع بين التلفزيون والقصص المصورة والألعاب والويب وغيرها من القنوات [9]. وتبين دراسة سكولاري أن السرد العابر للوسائط يبني عالمًا روائيًا عبر نصوص ووسائط مختلفة، وأن هذا التوزيع يفترض أنماطًا جديدة من المستهلكين الضمنيين القادرين على الحركة بين اللغات والمنصات) .[9]

ويتغير دور القارئ هنا لأن فهم العالم السردي قد يحتاج إلى نشاط تجميعي؛ فهو لا يتتبع نصًا واحدًا من البداية إلى النهاية، بل يجمع شظايا ومعلومات موزعة على أعمال مختلفة، وقد تصبح الجماعة ضرورية لمقارنة ما اكتشفه كل فرد. وفي هذه الحالة يقترب القارئ من الباحث الذي يعيد بناء العالم من أجزاء، وهو ما يجعل القراءة فعلًا شبكيًا وتشاركيًا بامتياز.

لكن السرد العابر للوسائط لا يعني أن جميع أفراد الجمهور يتابعون جميع الوسائط، وقد أظهرت دراسات التلقي أن المنتجين قد يتخيلون أحيانًا جمهورًا شديد الرغبة في استكشاف الامتدادات بينما يكتفي عدد من المتلقين بالنص أو المسلسل الرئيسي [9]. ولذلك ينبغي ألا نجعل «القارئ العابر للوسائط» نموذجًا إلزاميًا للقارئ المعاصر، بل نمطًا متقدمًا من المشاركة يتطلب وقتًا وكفايات ورغبة في التنقل بين أنظمة مختلفة.

ويصبح هذا القارئ أكثر إنتاجية عندما لا يكتفي بجمع عناصر العالم الرسمي، بل يشارك في توسيعه عبر الكتابة والرسم والنقاش وأدب المعجبين، وهو ما يربط السرد العابر للوسائط بثقافة المشاركة. وقد أشار سكولاري إلى أن جمهور المعجبين يستطيع أن يشارك في توسيع العالم

السردي عبر خلق مواقف وشخصيات جديدة، وهو ما يكشف أن الحد بين «تلقي العالم» و«إنتاج امتداد له» يصبح أكثر مرونة) .[9]

ومن هنا تظهر إحدى أكثر صور القارئ المنتج وضوحًا، لأن الفرد لا يشرح النص فقط بل يضيف إليه من خارج المؤسسة الرسمية، غير أن هذا الإنتاج يبقى مرتبطًا بعلاقة مع النص الأصلي لا ينبغي محوها؛ فكتابة قصة معجبين داخل عالم روائي ليست تأليفًا للعمل الأصلي، بل بناء نص جديد يعتمد على ذاكرة ذلك العالم ويعيد استخدام بعض عناصره. ومن ثم يجب الحفاظ على الفرق بين توسيع العالم وامتلاك العالم، وهو الفرق الذي سيصبح ضروريًا في صياغة مفهوم «المؤلف الثاني.«

ـ المبحث السادس: القارئ بوصفه مؤلفًا ثانيًا

ـ إعادة بناء المعنى

إذا كان مفهوم القارئ المنتج يصف انتقال الاستجابة إلى فضاء النشر والمشاركة، فإن عبارة «المؤلف الثاني» تحتاج إلى أكبر قدر من الدقة، لأنها قد توحي بأن القارئ يعيد كتابة العمل الأصلي أو يتساوى مع مؤلفه التاريخي، وهو ما لا يقصده هذا البحث. إن المؤلف الثاني هنا مؤلف للقراءة لا مؤلف للنص الأصلي؛ فهو يبني نصًا تأويليًا ثانيًا من خلال اختيار العلاقات والرموز والسياقات التي تجعل العمل ذا معنى بالنسبة إليه، ثم قد يمنح هذا البناء شكلًا لغويًا أو بصريًا منشورًا يجعل قراءته قابلة لأن تقرأ بدورها.

وقد أسس وولفغانغ إيزر لهذا الدور حين جعل فعل القراءة تحقيقًا ديناميًا لإمكانات العمل، حيث يربط القارئ بين الأجزاء ويملأ مناطق عدم التحديد ويعيد تنظيم توقعاته أثناء التقدم في النص [12]، بينما منح أمبرتو إيكو القارئ دورًا تعاونيًا في تفعيل استراتيجية النص مع الاحتفاظ بحدود تمنع التأويل من التحول إلى حرية اعتباطية [11]. ومن هنا فإن القول بأن القارئ «يعيد بناء المعنى» لا يعني أن المعنى ملك مطلق له، بل أن العمل يحتاج إلى فعل تأويلي لكي يتحول من بنية لغوية إلى تجربة ذات دلالة .

وتضيف البيئة الرقمية إلى هذه الفاعلية القديمة خاصية جديدة هي قابلية التشييء والنشر؛ فالتأويل الذي كان يحدث ثم يختفي أو يبقى في ذاكرة القارئ يمكن أن يصبح مراجعة محفوظة أو خريطة شخصيات أو فيديو أو تعليقًا أو نصًا مشتقًا، وبذلك يتحول إنتاج المعنى إلى إنتاج مادة ثقافية جديدة. وهنا يصبح وصف «التأليف الثاني» أكثر قابلية للفهم، لأن القراءة لا تكتفي بتحقيق النص داخل الوعي، بل تنتج أثرًا نصيًا يدخل إلى المجال العام.

لكن هذا التأليف الثاني يظل مقيدًا بأصل يقاومه؛ فإذا ادعى القارئ أن شخصية تظهر في فصل لا وجود لها فيه، أو نسب إلى النص فكرة لا تجد

سندًا، فإن مجرد قدرته على نشر التأويل لا يجعله مشروعًا نقديًا، ولذلك يستمر مبدأ إيكو حول حقوق النص وحدود التأويل في العمل داخل البيئة الرقمية. ويمكن صياغة ذلك في قاعدة المشروع :**القارئ يملك حرية إنتاج قراءته، لكنه لا يملك حرية إعادة اختراع الدليل الذي تستند إليه.**

وتصبح المسألة أكثر أهمية مع الذكاء الاصطناعي، لأن القارئ يستطيع أن ينتج عشرات التفسيرات في وقت قصير بمساعدة نظام توليدي، وهو ما يزيد كمية الخطاب حول النص دون أن يضمن جودته. ومن هنا لا تقاس «مؤلفية القارئ الثانية» بعدد النصوص التي يستطيع إنتاجها، بل بقدرته على بناء قراءة يمكن الدفاع عنها نصيًا وسياقيًا، وعلى التمييز بين مساهمته ومساهمة النظام إذا كانت عملية الإنتاج هجينة.

ومن هذه الزاوية يصبح القارئ المنتج امتدادًا للقارئ الهجين لا نقيضًا له؛ ففي الفصول السابقة كانت الأدوات تدخل في عملية فهمه، أما هنا فإن نتائج هذا الفهم تعود إلى البيئة وتصبح مدخلات جديدة لقراء آخرين وللخوارزميات، فتتشكل دورة يمكن تمثيلها على النحو التالي :**نص** → **قراءة** → **تأويل** → **إنتاج قرائي** → **نشر** → **تفاعل اجتماعي** → **بيانات وترتيب** → **قارئ جديد** → **قراءة جديدة** .وهكذا لم يعد القارئ نهاية السلسلة، بل نقطة عبور تعيد إطلاقها.

ـ الحدود بين القراءة والكتابة

أضعفت الثقافة الرقمية الحدود العملية بين القراءة والكتابة لأن الأدوات نفسها التي تعرض النص تمنح المستخدم في الغالب إمكان التعليق والنسخ والرد والنشر، ولذلك يستطيع القارئ أن ينتقل من الاستقبال إلى الإنتاج من دون مغادرة الواجهة. وقد وصف أكسل برونز هذا التحول في الثقافة التشاركية من خلال مفهوم *produsage* الذي يجمع الإنتاج والاستخدام، ويؤكد أن المستخدمين في بيئات عديدة يشاركون في التوسيع المستمر للمعرفة والمحتوى بدل الفصل الصارم بين المنتج والمستهلك [5]. ويصلح

هذا التصور للقراءة ما دمنا نستخدمه بحذر، لأن القارئ يشارك في إنتاج الخطاب الثقافي حول العمل بدرجة أكبر مما يشارك في إنتاج العمل ذاته .

وقد رأى جنكينز منذ دراساته المبكرة لجماعات المعجبين أن الجمهور يستطيع أن يكون نشطًا وخلاقًا ونقديًا واجتماعيًا، وأن إعادة استعمال النصوص وإنتاج أعمال مشتقة ليست هامشًا على الثقافة الجماهيرية بل طريقة أساسية من طرق تملكها وإعادة التفاوض معها [10]. ومع الثقافة الرقمية أصبحت هذه الممارسات أسهل في النشر وأسرع في الوصول، لكن المبدأ الأساسي بقي قائمًا: القراءة تستطيع أن تصبح مادة للكتابة، والكتابة الجديدة تصبح بدورها موضوعًا لقراءات جديدة .

ولا يعني تراجع الحدود اختفاءها، لأن التمييز بين القراءة والكتابة يظل ضروريًا لأسباب نظرية وأخلاقية وقانونية؛ فالقارئ يستطيع إعادة سرد نهاية رواية بلغته، لكنه لا يصبح بذلك صاحب الرواية، ويستطيع إنتاج عمل معجبين مستلهم منها، لكنه يبقى عملًا مشتقًا له علاقة بأصل سابق، كما يستطيع نقد نص أو تفكيكه أو تحويله إلى ميم، لكن إنتاجه الجديد لا يمحو تاريخ النص الأول. ومن هنا لا ينبغي لمفهوم «القارئ المؤلف» أن يتحول إلى شعار عن موت جميع الفروق، بل أن يستخدم لوصف المنطقة الانتقالية التي يصبح فيها فعل القراءة مولدًا للكتابة.

ويظهر هذا الحد بوضوح في مفهوم التكيف عند هاتشون، التي ترى أن الانتقال بين الوسائط عملية إبداعية لا مجرد نسخ، لكنها تظل مرتبطة بنص سابق يتيح للجمهور رؤية العلاقة بين الأصل والتحويل [7]. ويمكن توسيع هذا المبدأ ليشمل القارئ المنتج؛ فكلما ابتعد المنتج الجديد عن مجرد التعليق وأصبح عملًا إبداعيًا قائمًا بذاته، اقتربنا من مجال التأليف الحقيقي، لكن العلاقة بالنص الأول لا تختفي بمجرد قوة التحويل .

وتزداد الحدود تعقيدًا في عصر الذكاء الاصطناعي لأن القارئ قد يطلب من النظام إعادة كتابة مشهد من منظور شخصية أخرى أو إنتاج نهاية بديلة أو تحويل رواية إلى سيناريو مختصر، وعندها تدخل ثلاثة مستويات من الإنتاج:

مؤلف الأصل، والقارئ الذي يحدد المهمة ويختار المخرج، والنظام الذي يولد اللغة. ولا تسمح هذه البنية البسيطة بإعلان أن الجميع «مؤلفون» بالمعنى نفسه، بل تؤكد أهمية المفهوم الذي أسسه الكتاب سابقًا وهو التكامل المعرفي غير المتماثل، حيث تختلف الأدوار رغم اشتراكها في إنتاج الناتج النهائي.

ومن هنا يمكن وضع حد نظري بين ثلاث حالات :القراءة المنتجة التي تنتج تفسيرًا أو مراجعة أو تعليقًا حول العمل، والكتابة المشتقة التي تستخدم عناصر العمل في نص جديد، والتأليف المستقل الذي ينتج عملًا له بنية ومشروع خاصان حتى عندما يحمل آثار قراءات سابقة. ولا تفصل بين هذه المستويات جدران مطلقة، لكن التمييز بينها يمنع مفهوم القارئ المنتج من ابتلاع مفهوم المؤلف نفسه.

من القارئ المتلقي إلى القارئ المنتج

تسمح المباحث السابقة بإعادة بناء تاريخ القارئ من زاوية إضافية؛ فالقارئ الذي ظهر في النظريات التقليدية متلقيًا للرسالة تحول مع نظريات التلقي إلى شريك في بناء المعنى، ثم أصبح مع الشبكة قارئًا اجتماعيًا يشارك خبرته، ومع المنصات قارئًا قابلًا لأن يترك آثارًا رقمية حول النص، ومع الذكاء الاصطناعي قارئًا قادرًا على إنتاج نصوص موازية ومقارنات وتأويلات بمساعدة نظام توليدي. ومن هنا لا يكون الانتقال من التلقي إلى الإنتاج قفزة واحدة، بل تراكبًا بين مستويات تتزايد فيها قابلية الاستجابة لأن تصبح مادة ثقافية.

ويمكن تمثيل هذا المسار في الصيغة التالية :متلقٍ → مفسر → معلق → مراجع → مشارك → معيد إنتاج → قارئ ـ مؤلف للنص الموازي، مع ضرورة فهم السهم بوصفه علاقة إمكان لا سلمًا حتميًا، لأن قارئًا يستطيع أن يقرأ بصمت ولا ينتج أي أثر رقمي، كما يستطيع شخص أن يكتب مراجعات كثيفة دون الدخول في إنتاج إبداعي مشتق.

وتظهر القيمة النظرية لهذا التدرج عندما نربطه بمفهوم القارئ الهجين، لأن الإنتاج نفسه يمكن أن يكون بدرجات مختلفة من الهجنة؛ فقد يكتب الإنسان المراجعة كاملة، أو يستخدم محررًا لغويًا، أو يطلب ترجمة، أو يستعين بنظام لتلخيص ملاحظاته، أو يدخل في حوار توليدي قبل كتابة موقفه النهائي. ومن هنا يصبح السؤال المتعلق بمصدر النص الموازي مهمًا: ما الذي كتبه القارئ؟ ما الذي اقترحته الأداة؟ وما الذي اختاره الإنسان وراجعه؟ وكلما ازدادت مشاركة النظام أصبح الإفصاح والوعي بتوزيع الوظائف جزءًا من المسؤولية.

كما أن المنتج القرائي يعود إلى النظام الخوارزمي بوصفه بيانات؛ فالمراجعة والتقييم والتعليق والاقتباس والمشاركة لا تؤثر في البشر فقط، بل تستطيع أن تصبح إشارات تدخل في الترتيب والتوصية، وهكذا يتضح أن القارئ المنتج هو في الوقت نفسه **منتج للمعنى ومنتج للبيانات** .وهذه الثنائية شديدة الأهمية لأن المستخدم قد يقصد كتابة رأي إلى القراء، بينما تستخدم المنصة رأيه كذلك لتعديل صورة الكتاب وصورة المستخدم وتوصيات المستقبل.

ومن هنا تتشكل دورة أكثر شمولًا من النموذج التقليدي للمؤلف والنص والقارئ :**المؤلف** ← **النص** ← **المنصة** ← **القارئ** ← **الاستجابة** ← **النص الموازي** ← **الجماعة** ← **البيانات** ← **الخوارزمية** ← **قارئ آخر**، وهي دورة لا تلغي المؤلف ولا النص، لكنها تبيّن أن الحياة الثقافية للعمل بعد النشر أصبحت شبكة من عمليات إعادة الإنتاج البشري والخوارزمي.

القارئ المنتج والمسؤولية التأويلية

يزيد الانتقال إلى الإنتاج من مسؤولية القارئ لأن تأويله لم يعد شأنًا خاصًا عندما ينشره، فقد يوجه قراءة الآخرين أو ينقل معلومة خاطئة أو يختزل النص أو يكشف أحداثه أو ينسب إليه معنى غير مسند ، كما يستطيع في المقابل أن يفتح بابًا لقراءة جديدة أو يصحح خطأً شائعًا أو يقدم سياقًا ثقافيًا غائبًا. ومن هنا تتوسع «المسؤولية التأويلية» التي تأسست في الفصول السابقة

من مسؤولية الإنسان عن ما يعتقده إلى مسؤوليته عن الأثر الذي يعيد إدخاله إلى المجال القرائي.

ولا تعني المسؤولية فرض رقابة على القراء أو جعل كل تعليق مقالة علمية، لأن قيمة الثقافة التشاركية تكمن في تعدد المستويات والأصوات، وإنما تعني وعي المستخدم بالفرق بين الانطباع والمعلومة، وبين الرأي والدليل، وبين الاقتباس والنص الكامل، وبين التفسير والحقيقة. فالقارئ يستطيع أن يقول «قرأت النهاية بهذه الطريقة» بحرية أكبر من قوله «المؤلف يصرح بأن...» إذا لم يكن هناك تصريح، وهنا تصبح اللغة نفسها أداة لضبط درجة اليقين.

ويتطلب الإنتاج المسؤول كذلك احترام السياق، لأن النص الذي يُقتطع من العمل قد يغير معناه عند إعادة نشره، والميم الذي يستخدم جملة ساخرة بوصفها تصريحًا جادًا قد يصنع تمثيلًا مضللًا، وهو ما يجعل القارئ المنتج مطالبًا بوعي بأخلاق الاقتطاع، أي إدراك أن الاختيار من النص فعل تأويلي يملك آثارًا في صورته العامة.

ومع الذكاء الاصطناعي ينبغي إضافة مسؤولية التحقق، لأن النظام يستطيع توليد ملخص أو اقتباس أو تحليل يبدو صالحًا للنشر رغم احتوائه خطأ أو نسبة غير دقيقة، ولذلك لا ينبغي للقارئ المنتج أن يتحول إلى ناقل آلي للمخرجات. ويعود هنا مبدأ «بقاء الإنسان في دائرة التأويل» بصورة أشد: كلما كان الخطاب المنشور يحمل اسم القارئ أو مسؤوليته، وجب أن يمر عبر تحقق بشري يتناسب مع طبيعة الادعاء.

خاتمة الفصل التاسع

أظهر هذا الفصل أن القارئ في البيئة الرقمية لم يعد يمثل النقطة النهائية في دورة التواصل الأدبي، لأن القراءة أصبحت قادرة على إنتاج آثار قابلة للنشر والاستمرار والتفاعل، بدءًا من الملاحظة القصيرة في هامش رقمي وانتهاءً بالنصوص المشتقة والعوالم السردية التي يشارك الجمهور في توسيعها. وقد بينت دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن المنصات تجمع القراءة بالمراجعة والتعليق والنقاش والكتابة، وهو ما يجعل التفاعل حول النص جزءًا من الظاهرة الأدبية المعاصرة لا مجرد ضجيج خارجي عنها [1][2][

وكشفت القراءة الاجتماعية أن الجماعة لم تعد خلفية ثقافية مجردة، بل أصبحت حاضرة في واجهة النص من خلال الردود والمراجعات والمناقشات، وأن هذا الحضور يستطيع أن يوسع التأويل كما يستطيع أن ينتج ضغطًا نحو المعاني الأكثر انتشارًا، وخصوصًا عندما تدخل الخوارزمية في ترتيب أصوات الجماعة. ومن هنا اقترح الفصل مفهوم «الجماعة التأويلية المتصلة» لوصف هذا التداخل بين الاستقبال الاجتماعي والبنية التقنية، مع المحافظة على التمييز بين الاقتراح المفاهيمي الجديد وبين مفهوم الجماعة التأويلية الأصلي عند فيش.

كما بين تحليل الهامش الرقمي أن التعليق يمثل أحد أكثر المواضع وضوحًا في اتصال القراءة بالكتابة، إذ يتحول أثر التلقي من ملاحظة خاصة إلى نص قابل للنشر والحوار وإعادة الكتابة، وهو ما يبرر النظر إليه بوصفه جزءًا من «النص الموازي القرائي» الذي يحيط بالعمل ويشارك في تشكيل تلقيه [3]. ولم يعد الهامش مجرد مساحة على طرف الصفحة، بل أصبح أحيانًا فضاء اجتماعيًا يستطيع أن ينافس المتن على الانتباه، وهو تحول يفرض على القارئ تعلم إدارة توقيت الدخول إلى التعليقات حتى لا تتحول المساعدة الاجتماعية إلى استباق لتأويله.

وقد أظهر مبحث مراجعات القراء أن اتساع الحق في نشر الأحكام يمثل شكلًا من ديمقراطية المشاركة النقدية، لأنه يجعل الاستجابة الأدبية

أقل احتكاراً من المؤسسات، لكنه لا يلغي الحاجة إلى المعايير، بل يجعل التمييز بين الانطباع والحكم الجمالي والحجة النقدية أكثر ضرورة. فالعدد الكبير من المراجعات يوسع أرشيف التلقي ويكشف خبرات كانت غير مرئية، لكنه لا يحول متوسط التقييم إلى حقيقة أدبية، ومن هنا يكون التحدي في الجمع بين تعدد الأصوات وعدم تسوية جميع أنواع الحجة في مستوى واحد.

وأبانت إعادة إنتاج النص أن الاقتباس والاختصار والصورة والفيديو والميم ليست عمليات خارج القراءة، بل أشكال من تحويلها إلى مادة جديدة، وأن الثقافة التشاركية التي وصفها جنكينز ومفهوم الإنتاج ـ الاستخدام عند برونز يتيحان فهم هذا القارئ الذي يستهلك ويعيد الإنتاج في الوقت نفسه [4][5][10]. غير أن هذه القدرة تفرض الحفاظ على السياق والتمييز بين العمل الأصلي والخطاب المشتق، لأن انتشار النسخة المعاد إنتاجها لا يمنحها حق أن تحل محل النص الذي انطلقت منه.

كما أظهر الانتقال بين الرواية والفيلم والكتاب الصوتي والسرد العابر للوسائط أن القارئ المعاصر يمكن أن يبني معرفته بالعمل عبر نظم سيميائية متعددة، وأن كل وسيط لا ينقل النص فقط بل يعيد تشكيل بعض شروط تلقيه [7][8][9][16]. ويصبح القارئ في السرد العابر للوسائط جامعاً للأجزاء ومقارناً بينها، وقد يتحول إلى مشارك في توسيع العالم السردي نفسه، وهو ما يضعه في المنطقة الأكثر قرباً من الإنتاج الإبداعي.

أما عبارة «القارئ بوصفه مؤلفاً ثانياً» فقد جرى ضبطها بحيث لا تعني إلغاء المؤلف التاريخي أو نسبة العمل إلى القارئ، بل تشير إلى أن كل قراءة نشطة تعيد بناء شبكة من المعاني، وأن البيئة الرقمية تمنح هذا البناء القدرة على التحول إلى نص مواز يمكن أن يقرأه الآخرون. ومن هنا يكون القارئ مؤلفاً لقراءته، لا مؤلفاً ثانياً للعمل الأصلي، وتظل حرية التأويل مقيدة بإمكان الدفاع عن المعنى من خلال النص والسياق [11.[12]][

وتقود هذه النتيجة إلى تحول أوسع في نموذج التواصل الأدبي؛ فالصيغة القديمة مؤلف → نص → قارئ لم تعد كافية لوصف البيئة المشاركة، والصيغة الأكثر ملاءمة تصبح :مؤلف → نص → قارئ → تأويل → إنتاج قرائي → جماعة رقمية → خوارزمية → قارئ جديد، بحيث تعود آثار القراءة إلى النظام وتتحول إلى شروط لقراءات لاحقة. وهكذا لا يكون القارئ متلقيًا في نهاية الطريق، بل حلقة منتجة داخل دورة المعنى.

ومن هنا يمكن صياغة النتيجة النظرية المركزية لهذا الفصل على النحو الآتي :القارئ المنتج هو قارئ تتحول استجابته للنص من فعل داخلي أو خاص إلى خطاب قابل للتسجيل والمشاركة وإعادة التداول، بحيث يصبح مشاركًا في إنتاج المعنى وفي بناء البيئة الاجتماعية والخوارزمية التي يستقبل داخلها الآخرون العمل، من دون أن يلغي ذلك الحدود بين التأويل والتأليف أو بين المشاركة وملكية النص.

وبهذا ينتهي الباب المخصص للقراءة في البيئة الخوارزمية وقد انتقل القارئ فيه من شخص تصل إليه النصوص عبر الخوارزمية، إلى شخص تتشكل ذائقته داخل اقتصاد الانتباه، ثم إلى فاعل يعيد هو نفسه إنتاج الخطاب والبيانات التي تغذي البيئة الرقمية، وهو ما يمهد للباب التالي الذي ينتقل إلى مستوى أكثر عمقًا من الهجنة، حيث يدخل الذكاء الاصطناعي مباشرة إلى فعل الفهم والحوار والتأويل، بدءًا من الفصل العاشر حول الذكاء الاصطناعي مساعدًا للقارئ.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Rebora, Simone; Boot, Peter; Pianzola, Federico; Gasser, Brigitte; Herrmann, J. Berenike; Kraxenberger, Maria; Kuijpers, Moniek M.; Lauer, Gerhard; Lendvai, Piroska; Messerli, Thomas C. & Sorrentino, Pasqualina. "Digital Humanities and Digital Social Reading." *Digital Scholarship in the Humanities*, Vol. 36, Supplement 2, 2021, pp. ii230–ii250. DOI: 10.1093/llc/fqab020.

مرجع أساسي في تأصيل مفهوم القراءة الاجتماعية الرقمية، ويعرض أنماطًا تشمل المراجعات والتعليقات داخل النص والمناقشات والكتابة المرتبطة بالقراءة، كما يبين إمكان الإفادة من هذه الممارسات في دراسة التلقي الأدبي(OUP Academic) .

[2] Pianzola, Federico. *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.

يقدم أول معالجة تركيبية واسعة لممارسات القراءة الاجتماعية الرقمية عبر منصات متعددة، ويحلل تغير سياق القراءة ومواقف القراء وبناء المجتمعات الرقمية، مستفيدًا من حالات مثل Wattpad **و** AO3**و** Goodreads. (MIT Press)

[3] Kalir, Remi H. & Garcia, Antero. *Annotation*. Cambridge, MA: MIT Press, 2021.

يعالج التعليق بوصفه جنسًا يجمع القراءة والتفكير والكتابة والاتصال، ويبين وظائفه في تقديم المعلومات والتعليق وإطلاق المحادثة والتعبير عن القوة ودعم التعلم، وهو ما يشكل أساسًا لتحليل الهامش الرقمي في هذا الفصل(MIT Press) .

[4] Jenkins, Henry. *Convergence Culture: Where Old and New Media Collide*. New York: New York University Press, 2006.

مرجع أساسي في ثقافة التقارب والمشاركة، ويفيد في فهم تحول الجمهور من مجرد استهلاك المحتوى إلى المشاركة في تداوله وإعادة تشكيله، كما يقدم أساسًا لدراسة السرد العابر للوسائط(NYU Press) .

[5] **Bruns, Axel.** *Blogs, Wikipedia, Second Life, and Beyond: From Production to Produsage*. New York: Peter Lang, 2008.
يؤسس مفهوم *produsage* لوصف البيئات التي تتراجع فيها الحدود الصارمة بين المنتج والمستخدم وتتحول المشاركة إلى عملية مستمرة في إنتاج المعرفة والمحتوى، ويستفاد منه في بناء مفهوم القارئ المنتج(Peter Lang) .

[6] **Bourdieu, Pierre.** *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*. Translated by Richard Nice. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984.
يُستفاد منه في تحليل الحكم الجمالي والمعايير الثقافية بوصفها متشكلة داخل سياقات اجتماعية ومؤسساتية، وفي تجنب المقابلة المبسطة بين نقد مهني «موضوعي» ومراجعات جماهيرية «ذاتية.»

[7] **Hutcheon, Linda, with Siobhan O'Flynn.** *A Theory of Adaptation*. 2nd ed. London/New York: Routledge, 2013.
مرجع أساسي في دراسة الاقتباس وإعادة الترميز بين الوسائط، ويؤكد أن التكيف عملية إبداعية لها شروطها وطرائق انخراط مختلفة، ولا ينبغي اختزالها في معيار الوفاء الحرفي للنص السابق(Routledge) .

[8] **Have, Iben & Stougaard Pedersen, Birgitte.** *Digital Audiobooks: New Media, Users, and Experiences*. London/New York: Routledge, 2016.
يدرس الكتاب الصوتي الرقمي بوصفه إعادة وساطة للأدب وتجربة قراءة قائمة على الاستماع، ويحلل أثر الصوت والأداء والوسيط المحمول في طبيعة التجربة القرائية(Routledge) .

[9] **Scolari, Carlos Alberto.** "Transmedia Storytelling: Implicit Consumers, Narrative Worlds, and Branding in Contemporary Media Production." *International Journal of Communication*, Vol. 3, 2009, pp. 586–606.
يقدم معالجة سيميائية وسردية للسرد العابر للوسائط والعوالم التي تتوزع بين منصات وأشكال تعبيرية مختلفة، كما يناقش أدوار الجمهور في التعامل مع هذه العوالم وتوسيعها(International Journal of Communication) .

[10] Jenkins, Henry. *Textual Poachers: Television Fans and Participatory Culture*. New York/London: Routledge, 1992.
يمثل أحد الأعمال المؤسسة لدراسة الجمهور النشط وثقافات المعجبين وإعادة تملك النصوص وإنتاج أعمال مشتقة، ويشكل خلفية مهمة لفهم القارئ الذي ينتقل من التلقي إلى الإنتاج.

[11] Eco, Umberto. *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts*. Bloomington: Indiana University Press, 1979.
مرجع أساسي في مفهوم التعاون التأويلي والقارئ النموذجي والعلاقة بين انفتاح النص واستراتيجية القراءة، ويُستفاد منه في ضبط مفهوم القارئ بوصفه منتجًا للمعنى دون تحويل التأويل إلى حرية غير محدودة (Indiana University Press) .

[12] Iser, Wolfgang. *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.
يشكل الأساس النظري لفهم القراءة بوصفها فعلًا يحقق إمكانات النص عبر الربط بين أجزائه وملء مناطق عدم التحديد ، ويُستفاد منه في تأصيل فكرة أن إنتاج القارئ للمعنى يسبق تاريخيًا ظهوره كمنتج رقمي.

[13] Fish, Stanley. *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980.
مرجع تأسيسي لمفهوم الجماعات التأويلية وللدور الذي تؤديه الاستراتيجيات المشتركة في تحديد ما يصبح قابلًا للفهم والتأويل داخل جماعة معينة.

[14] Jenkins, Henry. *Fans, Bloggers, and Gamers: Exploring Participatory Culture*. New York: New York University Press, 2006.
يجمع عددًا من الدراسات حول الجمهور النشط والثقافة التشاركية ويؤكد أن المعجبين والمستخدمين يستطيعون أن يكونوا فاعلين خلاقين ونقديين واجتماعيين لا مجرد مستهلكين للمنتجات الثقافية(NYU Press) .

[15] Bruns, Axel. "Produsage" as developed in *Blogs, Wikipedia, Second Life, and Beyond: From Production to Produsage*. New York: Peter Lang, 2008.

تستعاد الإحالة هنا من المرجع [5] **للتأكيد الاصطلاحي على مفهوم الإنتاج ـ الاستخدام ، وقد أبقيت داخل الرقم** [5] **في المتن تجنبًا لازدواج الإحالة، ولذلك لا تمثل مصدرًا مستقلاً بل إشارة مفهومية إلى المرجع نفسه.**

[16] Engberg, Maria; Have, Iben & Stougaard Pedersen, Birgitte (eds.). *The Digital Reading Condition*. London/New York: Routledge, 2023.

يقدم الكتاب مقاربة بينية للقراءة في البيئة الرقمية والمتعددة الحواس والعابرة للوسائط، ويضم دراسات في الكتب الصوتية والواجهات الرقمية والقراءة عبر وسائط مختلفة، وهو ما يدعم توسيع مفهوم القراءة خارج النموذج المطبوعي وحده(Routledge) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم المراجع السابقة في أربع دوائر نظرية مترابطة؛ إذ توفر أعمال ريبورا وزملائه وبيانزولا وكالير وغارسيا [1–3] الأساس المباشر لدراسة القراءة الاجتماعية الرقمية والتعليقات والحواشي بوصفها ممارسات تجمع التلقي والكتابة والتواصل، بينما تسمح أعمال جنكينز وبرونز [4][5][10][14] بفهم انتقال الجمهور من الاستهلاك إلى المشاركة وإعادة إنتاج المحتوى وتراجع الحدود الصارمة بين المستخدم والمنتج. وتقدم أعمال هاتشون وهاف وستوغارد بيدرسن وسكولاري ومجلد *The Digital Reading Condition* [7–9][16]الإطار اللازم لتحليل القراءة والاقتباس والسرد عبر الوسائط المختلفة، في حين تعيد أعمال إيكو وإيزر وفيش وبورديو [6][11–13] ربط هذه التحولات المعاصرة بأسئلة نظرية أقدم حول إنتاج المعنى والجماعة التأويلية والذوق وحدود التأويل.

ومن تقاطع هذه المسارات يتأسس المفهوم المركزي لهذا الفصل :القارئ المنتج ليس قارئًا ألغى المسافة بين القراءة والتأليف، بل قارئًا أصبحت استجابته قادرة على اتخاذ شكل نصي أو بصري أو سمعي قابل للنشر والتداول، بحيث يتحول من نقطة نهائية في مسار العمل إلى حلقة فاعلة تعيد إنتاج المعنى والخطاب والبيانات وتؤثر بدورها في شروط قراءة الآخرين.

الفصل العاشر

الذكاء الاصطناعي مساعدًا للقارئ

إذا كانت الفصول السابقة قد تتبعت انتقال القارئ من الكتاب إلى الشاشة، ومن الصفحة إلى الشبكة، ثم من الشبكة إلى البيئة الخوارزمية التي تتدخل في اكتشاف النصوص وترتيبها وصناعة الانتباه حولها، فإن هذا الفصل يمثل انتقالًا نظريًا أكثر حساسية، لأن الذكاء الاصطناعي لم يعد يقف عند بوابة النص ليقرر ما الذي يظهر للقارئ أو يختفي، بل أصبح قادرًا على الدخول إلى داخل العملية القرائية نفسها، فيلخص ويترجم ويشرح ويبسط ويستعيد السياقات ويقارن بين الأعمال والمؤلفين ويقترح صلات لم يكن القارئ قد انتبه إليها، وهو ما يجعل الوساطة التقنية تتحول من وساطة في الوصول إلى النص إلى وساطة في التعامل المعرفي معه .وعند هذه النقطة يصبح السؤال الذي طرحه الكتاب منذ مقدمته أكثر إلحاحًا: متى تظل الآلة أداة توسع قدرات القارئ، ومتى تبدأ في أداء الوظائف التي كان ينبغي أن يمارسها بنفسه لكي تتكون القراءة باعتبارها خبرة معرفية وتأويلية، لا باعتبارها مجرد طريق مختصر إلى نتيجة يمكن الحصول عليها دون المرور بالنص؟

ولا يستعمل هذا الفصل عبارة «الذكاء الاصطناعي مساعدًا للقارئ» بمعنى أن النظام يمتلك تجربة قراءة بشرية أو وعيًا بالعمل الأدبي أو يعيش ما يعيشه الإنسان من دهشة وغموض وتعاطف وذاكرة، وإنما يستخدمها بالمعنى الوظيفي الذي تأسس في الفصول السابقة، أي إن النظام يستطيع تنفيذ مجموعة من العمليات اللغوية والمعرفية التي تدخل في البيئة التي يقرأ الإنسان داخلها، وتستطيع مخرجاته أن تؤثر في فهم القارئ حتى وإن ظل الاختلاف بين المعالجة الآلية والتجربة الإنسانية قائمًا. ومن هنا ينبغي أن يبقى التمييز واضحًا بين القارئ البشري بوصفه الفاعل التأويلي المسؤول والنظام الذكي بوصفه فاعلًا وسيطيًا وظيفيًا يستطيع أن يقدم موارد أو

اقتراحات أو تحويلات، لكنه لا يتحمل المسؤولية الثقافية والأخلاقية التي يتحملها من يعتمدها ويجعلها جزءًا من حكمه.

وقد سبق للكتاب أن اقترح مفهوم «القراءة المعززة» للدلالة على القراءة التي تستفيد من أدوات تقنية توسع إمكانات الوصول والفهم والاسترجاع والترجمة والمقارنة دون أن تتحول بالضرورة إلى شراكة تأويلية عميقة، ويأتي هذا الفصل لكي يفصل الوظائف الأساسية لهذا التعزيز ويختبر حدودها. فالتلخيص يقلل حجم النص ويمنح القارئ تمثيلًا مضغوطًا له، والترجمة تعبر بالحجة أو السرد من لغة إلى أخرى، والتبسيط يعيد صياغة المادة بما يجعلها أكثر ملاءمة لمستوى أو حاجة محددة، والاستعادة السياقية تستدعي ما يحيط بالنص من معلومات تاريخية وثقافية، والقراءة المقارنة تستفيد من القدرة الحسابية على جمع نصوص متعددة والبحث في علاقاتها. غير أن كل وظيفة من هذه الوظائف تحتوي مفارقتها الداخلية؛ فالأداة التي توسع الوصول تستطيع أن تختزل، والتي تشرح تستطيع أن تغلق الغموض، والتي تستعيد السياق تستطيع أن تخترع معلومة، والتي تقارن تستطيع أن توهم بعلاقة لا يثبتها التاريخ، ولذلك فإن قيمة المساعدة لا يمكن أن تقاس بسرعة المخرج أو طلاقته وحدهما، بل بقدرته على إعادة القارئ إلى النص في وضع معرفي أفضل.

ومن هنا ينطلق الفصل من مبدأ أساسي سيكون حاضرًا في جميع مباحثه، وهو أن المساعدة الاصطناعية تصبح أكثر قيمة كلما أدت وظيفة ترفع قدرة الإنسان على القراءة بنفسه، وتصبح أكثر إشكالًا كلما تحولت إلى طريقة منتظمة لإعفائه من الوظيفة التي كان ينبغي أن يمارسها. وبذلك لا يكون السؤال: «هل يستطيع الذكاء الاصطناعي تلخيص هذا الكتاب أو شرحه أو ترجمته؟»، بل: «ما الذي يحدث للقارئ وللنص عندما يقوم بذلك، وما مقدار ما يُحفظ من المعنى وما مقدار ما يُفقد، وما الوظيفة التي انتقلت من الإنسان إلى النظام؟.«

ـ المبحث الأول: التلخيص الآلي

ـ *اختزال النصوص الطويلة*

يشكل التلخيص واحدة من أقدم الوظائف المعرفية المرتبطة بالقراءة، لأن القارئ حين ينتهي من كتاب أو فصل ويحاول إعادة صياغة ما فهمه في كلمات أقل فإنه لا يقلص الحجم فقط، بل يحدد ما يراه مركزيًا ويستبعد ما يراه ثانويًا ويعيد ترتيب العلاقات التي تربط الأفكار بعضها ببعض، وهو ما يجعل التلخيص في أصله فعلًا من أفعال الفهم لا مجرد تقنية للضغط اللغوي. وقد أصبح التلخيص الآلي مجالًا راسخًا في معالجة اللغة الطبيعية، وميزت أدبياته تقليديًا بين طرائق تستخرج وحدات من النص الأصلي وطرائق تولد صياغة مختصرة جديدة، مع اهتمام مستمر بمشكلات اختيار المحتوى والتماسك وعدم التكرار والحفاظ على المعلومات المهمة [1]. ومن هنا فإن ما يقدمه الذكاء الاصطناعي المعاصر للقارئ ليس وظيفة ظهرت من فراغ، بل امتداد لتاريخ من تقنيات التلخيص ازداد تطورًا مع النماذج العصبية والتوليدية.

وتبدو فائدة هذه الوظيفة بديهية في عصر الوفرة، لأن القارئ الذي يواجه تقريرًا من مئات الصفحات أو فصلًا طويلًا أو مجموعة من الوثائق يستطيع أن يحصل على تصور أولي يساعده على تحديد ما يحتاج إلى قراءته بعمق، كما يستطيع الباحث الذي سبق أن قرأ مادة واسعة أن يستخدم الملخص بوصفه أداة لاستعادة بنيتها العامة. ومن هنا يمكن للتلخيص أن يؤدي ثلاث وظائف مختلفة ينبغي التمييز بينها :وظيفة استكشافية تساعد على اتخاذ قرار القراءة، ووظيفة تنظيمية تقدم خريطة أولية للعمل، ووظيفة استذكارية تعيد إلى القارئ ما سبق أن قرأه، وتختلف القيمة المعرفية للتلخيص بحسب الموقع الذي يحتله داخل هذه الدورة.

فإذا استعمل الملخص قبل قراءة نص بحثي طويل من أجل تحديد الفصول ذات الصلة بالسؤال، فإنه يعمل بوصفه أداة لاقتصاد الانتباه، وإذا استخدم بعد القراءة لمقارنة ما استخلصه القارئ بما اعتبره النظام أساسيًا، فإنه يستطيع أن

يتحول إلى أداة ميتامعرفية تكشف اختلاف الأولويات، أما إذا استخدم دائمًا بدل النص ثم عومل الناتج بوصفه معرفة مكافئة للأصل، فإننا ننتقل من التعزيز إلى القراءة المستبدلة التي سبقت الإشارة إليها. ومن هنا لا يمكن الحكم على التلخيص الآلي خارج موقعه داخل المسار؛ فالملخص نفسه يمكن أن يكون معززًا في سياق ومُفقِرًا في سياق آخر.

ويظهر الفرق بوضوح بين النصوص المعلوماتية والنصوص الأدبية، لأن المقال العلمي أو التقرير الإداري قد يسمح بدرجة أعلى من الاختزال عندما يكون الهدف استخراج المقدمات والنتائج، بينما تتصل القيمة في الأدب باللغة والإيقاع والتكرار والغموض وترتيب الكشف والمنظور السردي، وهي عناصر قد تختفي إذا حُوِّلت الرواية إلى حبكة أو القصيدة إلى «فكرة». فالملخص الذي يقول إن رواية ما تتناول عزلة الفرد في المدينة يمكن أن يكون صحيحًا في المستوى الموضوعي، لكنه لا ينقل الطريقة التي تجعل اللغة القارئ يعيش تلك العزلة داخل الزمن السردي، ولذلك يكون الاختزال هنا تحويلًا من تجربة جمالية إلى معرفة عن التجربة.

ومن هذا المنظور يمكن اقتراح التمييز بين التلخيص المعلوماتي والتلخيص القرائي؛ فالأول يسعى إلى تقليل المادة مع الحفاظ على أهم المعلومات، أما الثاني فينبغي أن يظل واعيًا بأنه يقدم خريطة إلى النص لا بديلًا عنه، وأن يحدد للقارئ ما الذي حُذف من طبقات الأسلوب والبناء والغموض. ويمكن للمساعد الذكي أن يصبح أكثر فائدة إذا لم يكتف بعبارة «هذا هو ملخص النص»، بل استطاع أن يبين كذلك أن الملخص لا يحتفظ مثلًا بالبنية الزمنية أو النبرة أو التطور التدريجي للاستعارة، وبذلك تتحول الأداة من آلة اختصار إلى وسيط يكشف حدود الاختصار نفسه.

- التلخيص بين الخدمة وتشويه المعنى

تتجاوز مشكلة التلخيص مسألة ما يُحذف إلى مسألة ما قد يُضاف، لأن التلخيص التوليدي لا يعيد دائمًا تركيب النص بصورة مطابقة تمامًا، وقد أظهرت بحوث في التلخيص التجريدي العصبي أن الأنظمة تستطيع توليد

معلومات غير مسندة إلى الوثيقة الأصلية. ففي دراسة واسعة لجوشوا ماينيز وشاشي نارايان وبرند بونيت وريان ماكدونالد وُجد أن عدداً من أنظمة التلخيص التجريدي المدروسة أنتج محتوى غير وفيّ للمصدر، وهو ما جعل «الوفاء للنص» و«الواقعية» مشكلتين مستقلتين عن جودة الصياغة اللغوية أو تشابه الملخص مع نماذج مرجعية [2]. كما أظهرت أبحاث تقييم التلخيص أن المقاييس الآلية التقليدية لا تكفي دائماً لالتقاط جميع أبعاد الجودة التي يهتم بها البشر، مثل الاتساق والملاءمة والطلاقة والاتساق الواقعي.[3]

وتكتسب هذه المشكلة أهمية خاصة بالنسبة إلى القارئ، لأن الملخص يقدم نفسه عادة في صيغة شديدة الثقة والاتساق، وقد يمر الخطأ داخله من دون أن يثير الشك الذي يثيره النص الركيك، وبذلك يصبح خطر الخطأ المقنع أكبر من خطر الخطأ الظاهر. وإذا كان المستخدم يعرف العمل الأصلي، يستطيع أن يكتشف الإضافة أو التحريف، أما إذا كان الملخص هو مدخله الوحيد إلى الكتاب، فقد تتحول المعلومة غير المسندة إلى جزء من صورته عن النص من دون أن يمتلك وسيلة داخلية لكشفها.

وهنا يظهر الفرق بين تلخيص وثيقة واقعية وتلخيص نص أدبي؛ ففي الأول يمكن أن يتمثل التشويه في نسبة رقم أو حدث أو علاقة سببية غير موجودة، بينما يستطيع التشويه الأدبي أن يحدث حتى عندما تكون الوقائع كلها صحيحة، لأن تغيير درجة الأهمية أو حذف تردد الراوي أو تحويل الرمز إلى معنى واحد يمكن أن يغير بنية العمل من دون إدخال «خطأ واقعي» واضح. ومن ثم فإن مفهوم الوفاء في الأدب أوسع من مطابقة المعلومات، لأنه يتصل كذلك بالحفاظ على تعدد الدلالة وعلى المسافة بين ما يقوله النص وما يستنتجه القارئ.

ويصبح من المفيد هنا الحديث عن خسارة التلخيص، أي مقدار ما يختفي من خصائص العمل حين يحول إلى تمثيل مختصر، وهي خسارة لا يمكن التخلص منها بالكامل لأن التلخيص بطبيعته انتقاء، لكن يمكن إدارتها بوعي. فإذا كان الهدف استعادة الحبكة فلا مشكلة في حذف كثير من التفاصيل،

وإذا كان الهدف دراسة الأسلوب فإن الملخص غير مناسب أصلًا، وإذا كان الهدف فهم حجة فلسفية ينبغي التأكد من أن العلاقات المنطقية لم تتحول إلى قائمة أفكار منفصلة. ومن هنا تكون المساعدة الجيدة هي التي تضبط التلخيص بحسب المهمة بدل أن تقدم نوعًا واحدًا من الاختزال لكل النصوص.

ويتصل ذلك مباشرة بفكرة «اقتصاد التدخل الآلي» التي طرحت في الفصل الثالث؛ فالقارئ لا ينبغي أن يسأل فقط عما تستطيع الآلة اختصاره، بل عن الوظيفة التي يريد الاحتفاظ بها لنفسه. فإذا كان الطالب يتعلم استخراج الفكرة المركزية، فإن إعطاء الملخص قبل محاولته قد يحرم التدريب من جوهره، وإذا كان الباحث يريد فرز خمسين وثيقة أوليًا فقد يكون التلخيص الآلي مناسبًا تمامًا، ومن ثم فإن التقييم لا يقع على التكنولوجيا وحدها بل على العلاقة بين الأداة والغاية التعليمية أو البحثية.

ويمكن صياغة قاعدة هذا المبحث على النحو الآتي :**الملخص الآلي صالح بوصفه خريطة أو أداة استرجاع أو فرضية عن مركز النص، لكنه يصبح خطرًا حين يتحول من تمثيل انتقائي للعمل إلى بديل معرفي يدعي أنه العمل نفسه** .ومن هذه القاعدة ينتقل السؤال إلى وظيفة أخرى أكثر تعقيدًا، لأن الترجمة لا تختصر النص فقط بل تعيد بناءه في نظام لغوي وثقافي جديد.

ـ المبحث الثاني: الترجمة الآلية

ـ *توسيع المجال اللغوي للقارئ*

تمثل الترجمة الآلية واحدة من أكثر التقنيات قدرة على توسيع المجال الفعلي للقراءة، لأن اللغة كانت تاريخيًا من الحدود الأساسية التي تحدد ما يستطيع الفرد الوصول إليه مباشرة، وكان تجاوز هذه الحدود يحتاج إلى تعلم لغة أخرى أو انتظار ترجمة بشرية قد لا تتوافر لكل كتاب أو مقال، بينما تستطيع الأنظمة المعاصرة أن تقدم في لحظات تمثيلًا بلغته لمادة لم يكن يستطيع قراءتها من قبل. وقد تطورت الترجمة الآلية العصبية بصورة كبيرة مع النماذج التي تتعلم تمثيلات للسلسلة اللغوية وتربط بين أجزاء النص المصدر والهدف، وكانت أعمال باهدانو وتشو وبنغيو حول آلية الانتباه من المحطات المؤثرة في هذا التحول.[4]

ولا تعني هذه القدرة أن القارئ أصبح متقنًا للغات التي يعبر إليها أو منها النظام، لكنها تمنحه وصولًا وسيطًا إلى فضاءات لغوية أوسع، وهو فرق جوهري؛ فالقارئ الذي لا يعرف اليابانية قد يحصل على تصور عن مقال ياباني ويقارنه بمادة فرنسية وعربية، ويمكن للباحث أن يوسع مرحلة الاكتشاف الأولي للمصادر بدل البقاء داخل اللغة التي يتقنها. وقد ناقش لين باوكر وخايرو بويتـراغو سيرو أهمية «محو الأمية في الترجمة الآلية»، أي قدرة المستخدمين، وخصوصًا في السياقات البحثية، على فهم ما تستطيع التقنية تقديمه وما حدودها وكيف ينبغي استخدامها بدل التعامل معها بوصفها بديلًا شفافًا عن المعرفة اللغوية.[5]

ومن هنا يمكن للترجمة الآلية أن توسع ما نسميه »**الأفق اللغوي للقارئ**«، أي مجموعة النصوص التي يستطيع دخولها على الأقل في مستوى الاستكشاف والفهم الأولي، وهي فائدة شديدة الأهمية بالنسبة إلى الثقافات التي تنتج المعرفة في لغات متعددة وبالنسبة إلى الباحث الذي يحتاج إلى مقارنة تقاليد لم تكن جميعها متاحة بلغته. كما تستطيع الترجمة أن تقلل من هيمنة

بعض اللغات الوسيطة، لأن القارئ يمكنه، في بعض الحالات، الانتقال مباشرة من لغة المصدر إلى لغته بدل انتظار ترجمة تمر عبر لغة ثالثة.

غير أن اتساع المجال لا ينبغي أن يُخلط بامتلاك اللغة؛ فالترجمة الآلية تمنح القارئ نصًا وسيطًا لا النص المصدر نفسه، وكلما كان سؤال البحث متعلقًا بالتفاصيل الدقيقة للنبرة والمجاز والإيقاع والتعدد الدلالي ازدادت الحاجة إلى معرفة الأصل أو العودة إلى مترجم متخصص. ويمكن، لذلك، تصور درجات لاستخدام الترجمة: ترجمة للاكتشاف، وترجمة للفهم العام، وترجمة للمقارنة الأولية، وترجمة دقيقة تحتاج إلى مراجعة بشرية، ولا ينبغي أن تعامل هذه الدرجات كلها كما لو كانت تؤدي الوظيفة نفسها.

وتزداد أهمية هذا التمييز في الأدب، لأن القارئ قد يكون قادرًا بترجمة آلية على متابعة حبكة رواية أجنبية بينما يفقد جزءًا كبيرًا من اللعبة الأسلوبية التي تشكل قيمتها، وقد يفهم المعنى المرجعي لقصيدة دون أن يحصل على إيقاعها أو تعدد طبقاتها. ومن هنا لا تكون الترجمة جسرًا شفافًا يعبر فوقه النص بلا تغير، بل وسيطًا يعيد تشكيله، وهو ما يجعل القارئ الهجين مطالبًا بالوعي بأنه لا يقرأ الأصل بل قراءة لغوية وسيطة للأصل.

ـ خسائر المعنى والأسلوب

تكشف الترجمة الأدبية بصورة خاصة حدود التصور الذي يجعل نجاح الترجمة مرادفًا لصحة المعنى المباشر، لأن اللغة لا تحمل المعلومات فقط بل تحمل الأسلوب والصوت والإيقاع والتاريخ الاجتماعي للكلمة والاختلافات الدقيقة بين المستويات والتراكيب. وقد أظهرت دراسة إيفا فانماسنهوف وديميتار شتيريونوف وآندي واي أن أنظمة الترجمة الآلية التي فحصوها أظهرت فقدانًا في الغنى المعجمي مقارنة بالنصوص البشرية، مع ميل إلى تعزيز الأنماط الأكثر تكرارًا على حساب تنوع أقل شيوعًا [6]. ولا تبرهن هذه النتيجة وحدها على أن كل ترجمة آلية لكل نص أدبي أفقر أسلوبيًا، لكنها تكشف مشكلة بنيوية ينبغي أخذها في الاعتبار عندما يكون التنوع اللغوي نفسه جزءًا من معنى النص.

فالكلمة الأدبية قد لا تؤدي وظيفة إحالية فقط، وقد يكون تكرارها مقصودًا أو انحرافها عن الاستعمال المألوف جزءًا من بناء الصوت، كما يمكن للجملة الطويلة أو الغامضة أن تكون خيارًا جماليًا لا «تعقيدًا» ينبغي للنظام أن يحله. وإذا أعادت الترجمة تنظيم العبارة على نحو أكثر اعتيادًا أو اختارت المقابل الأكثر شيوعًا، فقد تنتج نصًا مفهومًا ودقيقًا في المعنى العام، لكنه يختلف في درجة الغرابة الأسلوبية التي أرادها الأصل.

ويزداد الأمر حساسية في النصوص العربية بسبب تعدد المستويات اللغوية والتداخل بين الفصحى والتراث واللهجات والأمثال والإحالات القرآنية والشعرية والتاريخية، وهي عناصر لا يمكن ضمان استعادتها بمجرد العثور على مقابل معجمي. وإذا وردت عبارة تستدعي مثلًا قديمًا أو بيت شعر دون تصريح، فإن الترجمة الحرفية قد تنقل الكلمات وتفقد الإحالة، بينما قد يؤدي «شرحها» داخل الترجمة إلى تغيير طريقة حضورها في الأصل، وبذلك يواجه النظام مشكلة لا تتعلق فقط بما تعنيه العبارة بل بكيفية وجود معناها داخل ثقافة معينة.

ومن هنا ينبغي للقارئ الهجين أن يميز بين «الترجمة من أجل الوصول» و«الترجمة من أجل الحكم النقدي». ففي المستوى الأول يمكن للترجمة الآلية أن تكون أداة هائلة الفائدة، أما في المستوى الثاني فإن القارئ يحتاج إلى مقارنة الأصل بترجمات أخرى أو الاستعانة بمعرفة لغوية متخصصة، خصوصًا إذا كان استنتاجه يتعلق بالأسلوب أو بمصطلح فلسفي أو بتناص ثقافي. ويصبح من الخطأ مثلًا مقارنة «أسلوب» كاتبين ينتميان إلى لغتين مختلفتين اعتمادًا على ترجمتين آليتين فقط، لأن جزءًا مما سيقارنه الباحث قد يكون أسلوب النظام لا أسلوب المؤلفين.

ويتيح هذا التمييز إعادة صياغة وظيفة الترجمة داخل نظرية القارئ الهجين؛ فبدل القول إن الذكاء الاصطناعي «يلغي حاجز اللغة»، يكون الأدق أنه يخفض كلفة عبوره الأولي، بينما يبقى العمق مرتبطًا بدرجة حساسية المهمة. ومن هنا يصبح اتساع المجال اللغوي مكسبًا حقيقيًا لا

ينبغي إنكاره، لكنه لا يلغي أهمية تعلم اللغات أو المترجم أو النقد المقارن، بل قد يزيد الحاجة إليها لأن القارئ أصبح قادرًا على الوصول إلى مواد أكثر مما يستطيع التحقق من تفاصيلها بنفسه.

ـ المبحث الثالث: الشرح والتبسيط

ـ تفسير المفاهيم

يختلف الشرح عن التلخيص في أن هدفه لا يتمثل في تقليل حجم النص، بل في إزالة عائق يمنع الفهم، وقد يكون العائق مصطلحًا فلسفيًا أو مفهومًا علميًا أو بنية نحوية أو إشارة ضمنية أو حجة تحتاج إلى تفكيك. وكانت المعاجم والشروح المدرسية والحواشي والموسوعات تؤدي هذه الوظيفة منذ زمن طويل، لكن المساعد التوليدي يغيرها لأنه يسمح للقارئ بطرح سؤال مباشر ومتابعته بأسئلة إضافية، فيستطيع أن يقول إن الشرح ما يزال صعبًا أو يطلب مثالًا أو مقارنة أو إعادة صياغة، وبذلك تنتقل وظيفة الشرح من مرجع ثابت إلى حوار قابل للتكيف.

ولا توجد «بساطة» واحدة صالحة لجميع القراء، وهو ما أبرزته أبحاث تبسيط النصوص التي تعاملت مع التبسيط بوصفه إعادة صياغة تقلل التعقيد اللغوي مع محاولة الحفاظ على المحتوى، مع مراعاة الجوانب المعجمية والنحوية والخطابية [7]. وقد أظهرت أبحاث أحدث في النماذج اللغوية أن بعض الأنظمة تستطيع أداء عمليات متنوعة في تبسيط الجمل، كما أن التحكم في مستوى الصعوبة المستهدف يظل مسألة مستقلة تحتاج إلى تصميم وتقييم، لأن ما يلائم قارئًا لا يلائم بالضرورة قارئًا آخر [8.[9][

وتكمن قيمة الذكاء الاصطناعي هنا في قدرته على التدرج في الشرح، إذ يمكن لقارئ مبتدئ أن يطلب تعريفًا مبسطًا لمفهوم «التناص»، ثم يطلب مثالًا، ثم ينتقل إلى الفرق بين التناص عند كريستيفا وعلاقات التعالي النصي عند جينيت، بينما يستطيع الباحث المتخصص أن يطلب تحديدًا أكثر تعقيدًا. وهذه المرونة تجعل المساعد قادرًا على بناء ما يمكن تسميته »سُلّم الفهم«، حيث ينتقل القارئ من صياغة أولية قريبة من معرفته إلى مستوى أكثر تخصصًا بدل أن يواجه تعريفًا واحدًا ثابتًا.

غير أن سهولة الشرح تحتوي خطرًا يشبه ما ظهر في التلخيص؛ فالمفهوم المعقد قد يبدو بسيطًا بعد إعادة صياغته، لكن التبسيط قد يكون قد حذف الحدود التي جعلته دقيقًا أصلًا. فإذا اختزل مفهوم فلسفي في عبارة سهلة للحفظ، يمكن أن يحصل القارئ على وهم الفهم، ويصبح قادرًا على إعادة الجملة من دون أن يعرف الخلاف النظري الذي جعل المصطلح ضروريًا. ومن هنا ينبغي التمييز بين تبسيط اللغة وتبسيط الفكرة؛ فالأول قد يجعل العرض أوضح من دون فقدان التعقيد النظري، أما الثاني فقد يحذف التعقيد الذي يشكل جوهر الفكرة.

ويكون الاستخدام الأكثر نضجًا هو الذي يجعل النظام يشرح ثم يعيد القارئ إلى النص الأصلي؛ فيقرأ التعريف المبسط، ثم يعود إلى الفقرة الصعبة ويختبر هل أصبح قادرًا على فهمها بنفسه. فإذا تحقق ذلك كان الشرح قد أدى وظيفة معززة، أما إذا أصبح القارئ يعتمد على الشرح بدل أن يعود إلى الأصل فقد بدأ الوسيط في بناء طبقة بديلة عن النص، وهي المشكلة نفسها التي ظهرت في التلخيص ولكن بصورة أكثر خفاء لأن القارئ يشعر هنا أنه «يفهم» لا أنه يختصر.

- تكييف النص مع مستوى القارئ

يمثل تكييف الشرح مع مستوى القارئ واحدة من الوظائف التي تمنح الذكاء الاصطناعي إمكانًا تربويًا واضحًا، لأن النظام يستطيع، من حيث المبدأ، تقديم المادة في مستويات مختلفة من التعقيد، وقد بحثت أعمال حديثة إمكان التحكم في تبسيط النص وفق المستوى الدراسي المستهدف بدل إنتاج نسخة واحدة مبسطة للجميع [9]. كما أظهرت دراسات قياس أداء النماذج اللغوية الكبيرة في تبسيط الجمل أن بعض النماذج غير المتخصصة في المهمة تستطيع الوصول إلى مستويات تنافس أنظمة مخصصة في بعض مجموعات الاختبار، مع استمرار الحاجة إلى تقييم جودة التبسيط والحفاظ على المعنى.[8]

ومن هنا يمكن للمساعد القرائي أن يعمل بوصفه وسيطًا تربويًا متدرجًا، فيشرح مقطعًا لطالب في المرحلة الثانوية بطريقة، ولطالب جامعي بطريقة أخرى، وللقارئ المتخصص بطريقة ثالثة، كما يمكنه أن يقدم أمثلة من مجال يختاره المستخدم. وتكمن قوة هذا التكيف في أنه يقلل المسافة بين النص وكفاية القارئ من دون الحاجة إلى تغيير النص الأصلي، أي إن العمل يظل كما هو بينما ينشأ حوله جهاز شرح شخصي قابل للتعديل.

لكن هذا التخصيص يثير سؤالًا تربويًا مهمًا: هل ينبغي دائمًا جعل النص ملائمًا لمستوى القارئ، أم أن جزءًا من التعلم يقوم على رفع مستوى القارئ حتى يواجه النص كما هو؟ إن التبسيط المفرط قد يحمي المستخدم من الصعوبة إلى درجة تمنع تكوين الكفاية التي تسمح له بتجاوزها مستقبلاً، ولذلك لا ينبغي أن يكون هدف المساعدة بناء بيئة خالية من الاحتكاك، بل تقليل الاحتكاك الذي يمنع التعلم مع الحفاظ على الاحتكاك الذي ينتجه.

ويمكن توضيح ذلك من خلال نص فلسفي معقد؛ فمن المفيد شرح المصطلحات التي تمنع القارئ من دخول الحجة، لكن إعادة كتابة الكتاب كله في لغة سهلة قد تلغي الأسلوب الجدلي الذي ينبغي له أن يتعلم متابعته. ومن هنا يصبح التكييف الأكثر فاعلية هو الذي يعمل مؤقتًا، فيقدم «دعامة» ثم يقللها تدريجيًا، بحيث ينتقل القارئ من الشرح الكامل إلى التلميح ثم إلى التعامل المستقل مع النص.

ويتيح هذا التصور إدخال مفهوم »**التعزيز المتناقص** «داخل نظرية القارئ الهجين، والمقصود به أن نجاح الأداة لا يقاس بمدى استمرار اعتماد المستخدم عليها، بل بقدرتها في بعض السياقات التعليمية على جعل الحاجة إليها أقل مع ارتفاع كفاية القارئ. فالمترجم أو الشارح أو المساعد الذي يبقى ضروريًا لكل سطر قد يكون مفيدًا للوصول لكنه لا يبني استقلالًا، بينما الأداة التي تساعد القارئ على اكتساب مفردات واستراتيجيات جديدة ثم

تسمح له بالاعتماد على نفسه تمارس دورًا أقرب إلى التعزيز المعرفي الحقيقي.

ـ المبحث الرابع: الاستعادة السياقية

ـ الخلفية التاريخية

لا يقرأ الإنسان النصوص في فراغ تاريخي، لأن كثيرًا من الأعمال تفترض معرفة بأحداث ومؤسسات وشخصيات وصراعات كانت واضحة لجمهورها الأول وقد تصبح غريبة عن القارئ اللاحق، ولذلك كانت الشروح التاريخية والمقدمات والهوامش جزءًا أساسيًا من صناعة القراءة. ويضيف الذكاء الاصطناعي إلى هذه الوظيفة إمكان أن يطلب القارئ السياق في اللحظة نفسها التي يحتاج إليه فيها، فيسأل عن حرب أو تيار فكري أو نظام سياسي أو مفهوم ديني ثم يعود إلى الفقرة، وهو ما يحول الاستعادة السياقية من رحلة خارجية قد تقطع القراءة طويلًا إلى تدخل سريع يمكن دمجه في مسارها.

وتصبح هذه الوظيفة أكثر قوة حين ترتبط الأنظمة بآليات استرجاع من مصادر خارجية بدل الاعتماد على المعرفة المخزنة في النموذج وحده، وقد شكلت نماذج «التوليد المعزز بالاسترجاع» مثالًا مهمًا على الجمع بين نموذج توليدي وذاكرة خارجية يسترجع منها مقاطع ذات صلة قبل بناء الإجابة [10]. وقد بينت أعمال لويس وزملائه أن الجمع بين الاسترجاع والتوليد يمكن أن يحسن أداء عدد من المهام كثيفة المعرفة ويمنح النظام موارد معرفية خارج معلمات النموذج، مع استمرار تحديات تتعلق بصحة ما استرجع وكيف يستخدمه.

وتفيد هذه البنية القارئ لأنها تسمح، نظريًا، بربط الشرح بمصادر يمكن الرجوع إليها، وهو فرق حاسم بين جواب يطلب من المستخدم أن يثق في الصياغة وحدها وجواب يتيح له رؤية أساسه. غير أن وجود الاسترجاع لا يضمن الصحة تلقائيًا، لأن النظام يمكن أن يستعيد مقطعًا غير ذي صلة أو يسيء تركيبه أو يقدم استنتاجًا يتجاوز المصدر، ولذلك تظل العودة إلى المرجع ضرورية في المهمات البحثية.

وتظهر قيمة الاستعادة السياقية بصورة خاصة في قراءة الأدب التاريخي أو النصوص القديمة؛ فالإشارة إلى مؤسسة أو عادة أو حدث يمكن أن تبدو تفصيلًا غامضًا للقارئ المعاصر بينما كانت تحمل دلالة قوية في زمن النص، واستعادة هذه الخلفية تستطيع أن تغير التأويل جذريًا. غير أن الخطر يتمثل في إغراق النص بالسياق، لأن القارئ قد يبدأ في تفسير كل تفصيل من خلال معلومات خارجية حتى يفقد قدرة العمل على بناء عالمه الداخلي، ولذلك ينبغي أن يظل السياق أداة لفهم ما يحتاج إليه النص لا بديلًا عن الإنصات إلى بنيته.

ومن هنا يمكن تعريف الاستعادة السياقية الجيدة بأنها انتقال مؤقت من النص إلى الخارج ثم عودة محسوبة إليه :**إشارة غامضة** → **سؤال سياقي** → **استرجاع معلومة موثقة** → **عودة إلى المقطع** → **إعادة قراءة** .وتصبح القيمة الحقيقية للأداة في الحلقة الأخيرة، لأن المعلومة الخارجية لا تتحول إلى معرفة أدبية ما لم تعد لتغير قراءة العلامة داخل موقعها.

ـ الإحالات الثقافية والأدبية

تزداد صعوبة الاستعادة عندما لا تكون الإحالة تاريخًا يمكن التحقق منه بسهولة، بل أثرًا ثقافيًا أو أدبيًا موزعًا بين نصوص وتقاليد، فقد يستدعي العمل قصة دينية أو أسطورة أو بيت شعر أو رواية سابقة من دون ذكرها صراحة، ويصبح فهم هذا التناص مرتبطًا بذاكرة ثقافية قد لا تكون متاحة لكل قارئ. وقد جعل جيرار جينيت العلاقات بين النصوص موضوعًا منهجيًا واسعًا في *Palimpsests*، حيث درس أنماط حضور نص سابق داخل نص لاحق وما ينتج من تحويل ومحاكاة وتعليق وتفاعل.[11]

ويستطيع الذكاء الاصطناعي أن يساعد القارئ في هذا المجال عن طريق اقتراح مراجع محتملة وإظهار التشابهات اللفظية أو الموضوعية، وهو ما يوسع قدرته على اختبار علاقات لم يكن يستطيع استحضارها من ذاكرته وحدها، غير أن هذه الوظيفة تقع على الحد بين الاكتشاف والتوهم؛ فمجرد تشابه عبارتين لا يثبت وجود تناص مقصود، كما أن وجود فكرة مشتركة بين

نصين لا يعني أن أحدهما استمدها من الآخر. ومن هنا لا ينبغي أن يتحول النظام إلى «آلة إثبات للتناص»، بل إلى أداة لتوليد فرضيات تحتاج إلى تاريخ نصي ودليل لغوي وسياق تداول.

وتظهر هذه المشكلة بصورة واضحة عندما يعلن النظام بثقة أن مقطعًا «يشير إلى» نص آخر، بينما تكون العلاقة مجرد تشابه عام، ولهذا ينبغي أن يتعلم القارئ التمييز بين **التناص المثبت** الذي تدعمه إحالة أو أثر تاريخي أو علاقة نصية قوية، و**التناص المحتمل** الذي يمكن اقتراحه بوصفه فرضية، و**التشابه الموضوعي** الذي لا يحتاج إلى علاقة تاريخية مباشرة. وتساعد هذه الدرجات على منع الاستخدام التوليدي من تحويل شبكة الأدب كلها إلى سلسلة من الاقتباسات المتخيلة.

ويكتسب الأمر حساسية أكبر في الثقافة العربية، حيث يمكن لعبارة واحدة أن تستدعي القرآن أو الحديث أو الشعر القديم أو المثل الشعبي أو خطابًا صوفيًا أو سياسيًا، وقد لا يكون التداخل ظاهرًا لمن لا يمتلك الذاكرة الثقافية ذاتها. وهنا يستطيع النظام أن يعمل بوصفه ذاكرة ثقافية مساعدة، لكنه يجب أن يعرض الإحالة بوصفها قابلة للتحقق وأن يميز بين ما هو نصي مباشر وما هو استنتاج.

ومن ثم فإن الاستعادة السياقية لا تصبح شكلًا من أشكال القراءة الهجينة الناضجة إلا إذا ظل القارئ قادرًا على العودة من «ما يقوله النظام عن السياق» إلى المصدر التاريخي أو الأدبي نفسه، لأن القيمة لا تكمن في كثرة الإحالات، بل في دقتها وصلتها بالنص. وتعيد هذه القاعدة إنتاج المبدأ الذي يحكم الفصل كله :المساعدة التي تعود بالقارئ إلى الأصل تعزز القراءة، والمساعدة التي تجعل كلام الوسيط بديلًا دائمًا عن الأصل تضعفها.

ـ المبحث الخامس: القراءة المقارنة

ـ مقارنة النصوص والمؤلفين

تحتاج القراءة المقارنة تقليدياً إلى ذاكرة واسعة وقدرة على التنقل بين عدد من النصوص والاحتفاظ ببنياتها ومفاهيمها، ولذلك تمثل واحدة من المجالات التي تستطيع الأدوات الحاسوبية أن تقدم فيها عونًا كبيرًا، سواء عن طريق البحث عن أنماط متكررة أو جمع مقاطع ذات صلة أو مقارنة المفردات أو بناء قوائم من السمات التي يمكن للقارئ أن يفحصها. وقد مثل مفهوم «القراءة البعيدة» عند فرانكو موريتي أحد التحولات المهمة في الدراسات الأدبية الرقمية، لأنه اقترح استخدام البيانات والأنماط الكمية لدراسة مجموعات نصية أكبر من قدرة القراءة القريبة الفردية على الاستيعاب، مع الإبقاء على الجدل مفتوحًا حول العلاقة بين النمط الكمي والتفسير الأدبي.[12]

ولا يعني إدخال الذكاء الاصطناعي أن القراءة المقارنة تتحول إلى إحصاء أو أن النظام يستطيع إصدار الحكم النقدي النهائي، وإنما يمنح القارئ قدرة على إدارة كمية أكبر من المواد في المرحلة الاستكشافية؛ فيستطيع أن يطلب تحديد مواضع تتكرر فيها صورة معينة، أو تنظيم أوجه الاختلاف بين مفهومين، أو بناء قائمة أولية لمقارنة شخصيتين، ثم يعود إلى النصوص لكي يفحص صحة الاختيار ويضيف ما غاب. ومن هنا يكون الذكاء الاصطناعي مفيدًا بوصفه مساعدًا في هندسة المقارنة، أي في تنظيم المجال قبل أن يبدأ الحكم.

وتظهر أهمية هذا الدور عندما يكون الفرق بين النصوص واسعًا من حيث الحجم أو اللغة أو التاريخ، لأن القارئ يستطيع استخدام الترجمة والاسترجاع والمقارنة معًا، غير أن تراكب هذه الوسائط يضاعف المخاطر؛ فإذا كانت إحدى المواد مترجمة آلياً والأخرى ملخصة والثالثة معروضة في الأصل، فإن المقارنة لا تجري بين نصوص متكافئة في درجة الوساطة، وقد ينتج عنها استنتاج يخلط خصائص العمل بخصائص الأداة. ومن هنا ينبغي للقارئ الهجين

أن يمتلك ما يمكن تسميته »وعي التماثل المقارن«، أي معرفة ما إذا كانت المواد التي يقارنها قد تعرضت للنوع نفسه من التحويل أم لا.

فلا يصح، مثلًا، أن نستنتج أن كاتبًا أكثر إيجازًا من آخر إذا كانت إحدى الروايتين مقروءة في ملخص، أو أن لغة شاعر أقل تنوعًا اعتمادًا على ترجمة آلية، كما لا يمكن مقارنة الموقف الفكري لمؤلفين اعتمادًا على إجابتين توليديتين دون العودة إلى أعمالهما. ومن هنا لا ينبغي أن ترفع سرعة المقارنة سقف الثقة، بل العكس؛ كلما استطاعت الآلة تجميع عدد أكبر من العلاقات في وقت أقصر ازدادت الحاجة إلى تدقيق مستوى الدليل الذي تقوم عليه كل علاقة.

ويستطيع المساعد، في أفضل استعمالاته، أن يجعل المقارنة أكثر خصوبة حين يقدم البدائل بدل الحكم النهائي؛ فيقول للقارئ إن النصين يمكن مقارنتهما من زاوية الزمن أو الراوي أو الجسد أو الذاكرة أو المكان، ثم يترك له اختيار أي محور أكثر إنتاجية. وعندها يتحول النظام من «ناقد آلي» إلى مولد لمسارات بحثية، وهي وظيفة تتوافق مع مفهوم الشريك المعرفي الوظيفي لأن المبادرة التفسيرية النهائية تبقى للقارئ.

- استكشاف التناص

يحتل التناص منطقة أكثر تعقيدًا من المقارنة العامة، لأن اكتشاف العلاقة بين نصوص متباعدة يمكن أن يحتاج إلى ذاكرة لا يمتلكها الفرد، وهنا تستطيع أدوات البحث والنماذج اللغوية أن تزيد الاحتمالات المتاحة أمامه. ويمكن للنظام أن يقترح أن بناء مشهد معين يذكّر بمشهد في عمل سابق، أو أن استعارة ما تنتمي إلى تقليد شعري أوسع، أو أن بنية سردية تشترك في سمات مع نموذج معروف، ثم يعيد القارئ هذه الاقتراحات إلى النصوص والأرشيفات.

وتتوافق هذه الوظيفة مع ما قدمه جينيت عن العلاقات النصية [11]، لكنها تغير حجم المجال الذي يستطيع القارئ فحصه؛ فبدل الاعتماد بالكامل على

ذاكرته القرائية يمكنه الاستفادة من ذاكرة خارجية أوسع، وهو ما يجعل التناص مجالًا واضحًا لـ**الذات القارئة الموزعة** التي عالجها الفصل السادس. غير أن اتساع الذاكرة لا يعني صحة العلاقة، لأن النظام يمكن أن يولد اتصالًا مقنعًا بين نصين لم توجد بينهما علاقة تاريخية، أو يمكن أن يبالغ في أهمية استعارة شائعة ويعاملها كإحالة خاصة.

ومن هنا ينبغي أن تمر فرضية التناص التي يولدها النظام بسلسلة تحقق يمكن تمثيلها في أربع مراحل :**رصد تشابه ← تحديد طبيعة التشابه ← البحث عن إمكان العلاقة التاريخية أو النصية ← فحص القيمة التأويلية للعلاقة داخل العمل** .وإذا فشلت المرحلة الثالثة لا يعني ذلك أن المقارنة عديمة القيمة، فقد يظل التشابه مثيرًا من منظور الأدب المقارن، لكنه لا ينبغي أن يقدم بوصفه تأثيرًا أو اقتباسًا أو تناصًا مباشرًا.

ويصبح الذكاء الاصطناعي في هذا المجال أداة مفيدة أيضًا لاكتشاف **التناص المضاد**؛ أي المواضع التي يبدو فيها نص لاحق كأنه يعيد كتابة بنية سابقة مع قلب قيمها أو تحويرها، وهي العلاقات التي درسها جينيت ضمن التحويلات المختلفة للنصوص [11]. غير أن قدرة النظام على اقتراح هذه الأنماط لا تجعله قادرًا على تحديد نية الكاتب، ولذلك ينبغي الحفاظ على الفرق بين «العلاقة التي يمكن قراءتها» و«العلاقة التي نعرف تاريخيًا أن المؤلف قصدها.«

ومن هذا المنظور يمكن أن تصبح القراءة المقارنة بالذكاء الاصطناعي أكثر إبداعًا من البحث التقليدي إذا استخدمت لتوسيع الاحتمال لا لإغلاقه، لأنها تسمح للقارئ بأن يجرب فرضيات كثيرة ثم يعود إلى الأدلة، لكن نجاحها يعتمد على مبدأ العودة الذي يلازم هذا الكتاب: كلما أبعدتنا الأداة عن النصوص في مرحلة الاستكشاف، وجب أن تكون العودة إليها أدق في مرحلة الإثبات.

ـ المبحث السادس: حدود المساعدة الاصطناعية

ـ *الدقة والموثوقية*

تصل جميع وظائف المساعدة السابقة إلى حد مشترك يتمثل في أن المخرج اللغوي المتماسك لا ينبغي أن يُعامل بوصفه ضمانًا للصحة، لأن أنظمة التوليد تستطيع إنتاج إجابات تبدو معقولة وهي غير صحيحة أو غير مسندة أو تعيد إنتاج معلومات شائعة لكنها خاطئة. وقد أظهرت دراسة *TruthfulQA* أن النماذج التي اختبرها الباحثون في ذلك الوقت استطاعت أن تنتج إجابات تعكس مفاهيم بشرية خاطئة موجودة في البيانات، وهو ما يؤكد أن الطلاقة والقدرة على الإجابة لا تساويان «الحقيقة» تلقائيًا [13]. كما نبهت أعمال نقدية حول النماذج اللغوية الكبيرة إلى مخاطر البيانات والتحيز وإسناد قدرات دلالية وإنسانية إلى أنظمة تعمل من خلال تعلم أنماط لغوية واسعة.[14]

ولا ينبغي تحويل هذه الملاحظات إلى حكم ثابت على جميع الأنظمة في جميع الأزمنة، لأن النماذج والتقنيات تتغير بسرعة، كما أن إضافة الاسترجاع والمصادر وآليات التحقق يمكن أن تحسن الأداء في بعض المهام [10]، لكن المبدأ المنهجي يظل صالحًا :**لا يمكن للقارئ أن يستنتج موثوقية الجواب من جودة صياغته وحدها** .وهذا المبدأ أكثر أهمية في العلوم الإنسانية لأن كثيرًا من الأسئلة لا تملك إجابة واحدة يمكن مقارنتها بقاعدة حقائق، بل تجمع بين معلومة قابلة للتحقق وتفسير يحتاج إلى حجة.

ويجب، لذلك، تفكيك مخرجات المساعد إلى أنواع مختلفة؛ فهناك ادعاء واقعي مثل تاريخ نشر كتاب أو اسم مترجم، وهذا يحتاج إلى مصدر، وهناك تلخيص يحتاج إلى مقارنة بالأصل، وهناك تفسير يحتاج إلى دليل نصي، وهناك فرضية مقارنة تحتاج إلى تبرير، وهناك اقتراح قرائي لا يدعي الحقيقة بالطريقة نفسها. وكلما خلط القارئ هذه الأنواع ازداد احتمال أن

يمنح النظام سلطة لا يستحقها؛ فالمعلومة الخاطئة لا تصبح تأويلًا مشروعًا، والتأويل المختلف لا يصبح «هلوسة» لمجرد أنه ليس الوحيد.

ومن هنا يمكن اقتراح مفهوم »درجة التحقق«، أي أن مقدار التدقيق ينبغي أن يتناسب مع طبيعة المخرج وآثاره. فإذا كان القارئ يسأل عن معنى أولي لكلمة مألوفة، قد يكفي تحقق بسيط، أما إذا كان سيبني حجة أكاديمية على تاريخ أو اقتباس أو نسبة نظرية، فإن العودة إلى المصدر الأولي تصبح واجبة. وبذلك لا يكون التحقق إجراءً واحدًا ثابتًا، بل سياسة قرائية تتغير بحسب المخاطر المعرفية.

ويظهر الحد الآخر للمساعدة في توحيد الأسلوب التفسيري؛ فالنظام التوليدي قد يميل إلى تقديم جواب منظم ومتوازن ومباشر، وهي ميزة في الشرح لكنها يمكن أن تصبح مشكلة أمام نصوص تقاوم التنظيم وتتعمد التوتر أو الغموض، لأن إعادة صياغتها في لغة سلسة قد تخفي ما يجعلها أدبًا. ومن هنا لا يكون «تحسين الوضوح» قيمة مطلقة، بل يجب أن يخضع لنوع النص والهدف من القراءة.

وتشمل الحدود كذلك التحيز الثقافي واللغوي، لأن قدرات الأنظمة لا تتوزع بالضرورة بالطريقة نفسها على جميع اللغات والتقاليد، وقد تكون المصادر المتاحة رقمياً أكثر كثافة في بعض البيئات من غيرها. ومن ثم فإن القارئ الذي يدرس الأدب العربي أو ثقافة محلية أو أرشيفًا محدود الرقمنة يحتاج إلى مستوى إضافي من الحذر تجاه الإجابات التي تبدو عالمية وهي قد تكون مبنية على تمثيل غير متوازن.

ـ *ضرورة التحقق البشري*

لا ينبغي فهم «التحقق البشري» باعتباره مرحلة أخيرة شكلية يأتي فيها القارئ بعد أن أنجز النظام كل شيء ليضغط ختم الموافقة، بل ينبغي أن يكون التحقق عملية مدمجة في سير القراءة تبدأ من صياغة السؤال وتمتد إلى اختيار المصدر ومقارنة المخرج بالنص. فالقارئ الذي يعرف منذ البداية

أن النظام يقدم اقتراحًا لا حكمًا نهائيًا سيطرح سؤالًا مختلفًا عن الشخص الذي يطلب «الإجابة الصحيحة»، وسيتعامل مع المخرج بوصفه مادة للفحص لا نتيجة ينبغي نقلها.

ويمكن بناء بروتوكول عملي للمساعدة الاصطناعية يقوم على سبع مراحل مترابطة :**قراءة بشرية أولية كلما أمكن → تحديد موضع الحاجة إلى المساعدة → صياغة سؤال محدد → الحصول على المخرج → تحديد نوع الادعاءات داخله → العودة إلى النص أو المصدر للتحقق → دمج المقبول أو رفضه داخل القراءة النهائية** .ولا يعني ترتيب هذه المراحل أن القراءة يجب أن تكون ميكانيكية، بل يوفر إطارًا يمنع الأداة من الاختفاء داخل الفهم كما لو أن الأفكار التي قدمتها نشأت تلقائيًا في ذهن القارئ.

ويصبح التحقق أكثر أهمية في الممارسة الأكاديمية، لأن المسؤولية عن المرجع والاقتباس والحجة لا تنتقل إلى النظام، ولذلك ينبغي للباحث أن يعود إلى العمل الأصلي بدل الاستشهاد بمعلومة لم يقرأ مصدرها. وقد سبقت الإشارة في الفصل السادس إلى أن **الذات القارئة قد تكون موزعة وظيفيًا لكنها غير موزعة أخلاقيًا**، وينطبق ذلك هنا بصورة مباشرة؛ فالآلة تستطيع أن تسترجع أو تلخص أو تترجم، لكن من يضع النتيجة في بحث أو مقال هو المسؤول عن دقتها.

ولا يعني الاحتفاظ بالتحقق البشري العودة إلى نموذج يرفض كل شكل من أشكال التفويض، لأن القارئ يستطيع أن يترك للنظام مهام واسعة من التنظيم والبحث والاسترجاع إذا كان يعرف كيف يراجعها، بل إن القيمة الأساسية للذكاء الاصطناعي قد تكمن في تحرير وقت الإنسان من بعض الأعمال الروتينية لكي يوجهه إلى الحكم والتحليل. غير أن هذا التقسيم الناجح يفترض معرفة واضحة بما تستطيع الآلة فعله وما ينبغي ألا يُفوَّض إليها كاملًا، وهو ما يجعل الثقافة في الذكاء الاصطناعي جزءًا من كفاية القارئ الهجين، لا بمعنى معرفة تفاصيل البرمجة، بل بمعنى فهم طبيعة المخرجات وحدودها وأشكال التحقق المناسبة لها.

ومن هنا يعود الفصل إلى مفهوم «السيادة التأويلية» بوصفه المبدأ الذي يضبط المساعدة كلها؛ فالإنسان يستطيع أن يستخدم نظامًا في الترجمة والتلخيص والشرح والمقارنة، لكن ينبغي أن يحتفظ بالقدرة على السؤال: هل هذا التلخيص وفيّ لما قرأت؟ هل الترجمة حذفت نبرة؟ هل الشرح جعل الفكرة أبسط مما ينبغي؟ هل السياق موثق؟ هل المقارنة تقوم على دليل أم على تشابه لغوي؟ هل التناص مثبت أم محتمل؟ وبذلك لا تكون السيادة رفضًا للمساعدة بل ممارسة مستمرة للمساءلة أثناء استخدامها.

ويمكن تلخيص الفرق بين القارئ الذي يستعمل الذكاء الاصطناعي بوصفه مساعدًا والقارئ الذي يحوله إلى بديل في صيغة بسيطة من حيث البناء وعميقة من حيث النتائج: الأول يستخدم المخرج ليعود إلى النص، والثاني يستخدم المخرج لكي لا يعود إليه. ففي الحالة الأولى توسع الآلة القراءة، وفي الثانية تبدأ في استبدالها؛ وفي الحالة الأولى يزداد عدد الأسئلة، بينما تميل الثانية إلى إنهائها؛ وفي الأولى يحتفظ القارئ بحق الاعتراض، بينما يتحول في الثانية إلى متلق لقراءة أنتجها النظام. وهذا الفرق سيكون الأساس الذي ينتقل منه الفصل التالي إلى السؤال الأكثر تعقيدًا: ماذا يحدث عندما لا تكتفي الآلة بمساعدة القارئ في وظائف منفصلة، بل تدخل معه في حوار تأويلي متكرر؟

من الأداة المساعدة إلى الوساطة المعرفية الذكية

تكشف الوظائف الست التي تناولها الفصل أن الذكاء الاصطناعي يعيد تنظيم علاقة القارئ بالأدوات بصورة تتجاوز تاريخ الأدوات الرقمية السابقة، لأن القاموس كان يقدم تعريفًا، ومحرك البحث يقدم قائمة، وبرنامج الترجمة يقدم نقلًا، بينما يستطيع المساعد التوليدي أن يجمع هذه الوظائف داخل حوار واحد ويعيد تركيبها بحسب السؤال. ويمكن للقارئ أن يطلب تلخيص فصل ثم شرح مفهوم داخله ثم ترجمة مقطع منه ثم استعادة خلفيته التاريخية ثم مقارنته بنص آخر، من دون مغادرة الواجهة نفسها، وهو ما يجعل النظام قادرًا على أن يصبح مركزًا للوساطة المعرفية لا مجرد أداة منفردة.

ويفسر هذا التجميع سبب الحاجة إلى مفهوم «الوساطة المعرفية الذكية» الذي اقترحته المقدمة العامة، إذ يمكن تعريفها الآن بصورة أكثر دقة بأنها مجموعة العمليات التي يتدخل من خلالها نظام ذكاء اصطناعي بين القارئ والنص عبر الاسترجاع والتنظيم والتلخيص والترجمة والشرح والتبسيط والمقارنة والتوليد، بحيث يؤثر ليس فقط في مقدار المعلومات المتاحة بل في الشكل الذي تصل به إلى المستخدم. ويكمن الفرق بين هذه الوساطة والوسائط السابقة في أن النظام لا يعرض دائمًا مادة جاهزة، بل يمكنه إعادة تركيبها في خطاب مخصص للسؤال.

ويمكن ترتيب مستويات المساعدة التي درسها الفصل وفق درجة اقترابها من قلب التأويل؛ ففي المستوى الأول نجد المساعدة الوصولية التي تترجم أو تستعيد، ثم المساعدة التنظيمية التي تلخص وترتب، ثم المساعدة التفسيرية التي تشرح وتبسط، وبعدها المساعدة السياقية التي تربط النص بخلفيات خارجية، ثم المساعدة المقارنة التي تقترح علاقات بين أعمال متعددة، وعند الحد الأخير تبدأ المساعدة التأويلية التي لا تكتفي بتقديم الموارد بل تقترح ما يمكن أن يعنيه النص. وكلما انتقلنا من المستوى الأول إلى الأخير ازدادت حاجة القارئ إلى فحص ما تنتجه الآلة.

ويظهر هنا مفهوم تراكم الوساطة الذي أسسه الكتاب في الفصل السابع، لأن النص الواحد قد يمر على القارئ عبر أكثر من تحويل؛ فقد يصل إليه بتوصية خوارزمية، ويقرأه في ترجمة آلية، ثم يطلب تلخيصه، ثم يسأل عن سياقه، ثم يقارن النظام بينه وبين نص آخر. وكل تحويل من هذه التحويلات قد يكون مفيدًا، لكن تراكمها يعني أن ما يصل إلى القارئ في النهاية أصبح بعيدًا عدة طبقات عن الأصل، ولذلك يصبح من الضروري الاحتفاظ بما يمكن تسميته سجل الوساطة، أي معرفة أي جزء من الفهم جاء من النص، وأي جزء جاء من ترجمة، وأي جزء من شرح أو توليد.

وتتصل هذه الفكرة مباشرة بالذات القارئة الموزعة؛ فالقارئ الهجين لا يفقد ذاته حين يستخدم هذه الأدوات، لكنه يحتاج إلى قدرة أعلى على تتبع

مصادر معرفته، لأن البيئة التي توسع الذاكرة واللغة والمقارنة تزيد كذلك من احتمال أن يختلط عليه ما قرأه بما لخصه النظام وما استنتجه هو. ومن هنا فإن ازدياد القدرة التقنية يفرض زيادة في **الوعي الميتامعرفي**، لا نقصانه.

المساعدة الاصطناعية والقراءة العميقة

ينبغي كذلك إعادة وصل هذا الفصل بما انتهى إليه الفصل الثالث حول القراءة العميقة، لأن التلخيص والشرح والتبسيط والاسترجاع السريع يمكن أن تقلل الاحتكاك الذي يحتاج إليه القارئ، لكن يمكنها في المقابل أن تحرره من عوائق هامشية لكي يوجه انتباهه إلى مستويات أعمق. ومن هنا لا يمكن القول إن الذكاء الاصطناعي يقتل القراءة العميقة أو يضمنها، لأن الأثر يعتمد على **موضع التدخل**.

فإذا قضى قارئ ساعتين في البحث عن معنى مصطلح تاريخي كان يمكن العثور عليه خلال دقيقة، فإن المساعدة يمكن أن تحرر وقتًا للعودة إلى النص، أما إذا استخدم النظام ليخبره مباشرة بما «تعنيه» كل فقرة صعبة، فقد يخسر جزءًا من العمل التأويلي الذي يصنع القراءة العميقة. ولذلك تكون العلاقة المثلى هي التي توزع الجهد بصورة غير متساوية: تترك للآلة ما تجيده من الاسترجاع السريع والمعالجة الواسعة، وتحتفظ للإنسان بالعمليات التي ترتبط بالحكم والتأمل والشك وبناء العلاقة الشخصية بالنص.

ويتيح ذلك إعادة صياغة مفهوم «الاحتكاك المعرفي» الذي اقترحه الكتاب؛ فالمشكلة ليست في وجود الصعوبة ولا في إزالتها، بل في تحديد نوعها. وهناك صعوبة عقيمة تمنع الوصول من دون أن تضيف شيئًا إلى الفهم، مثل عدم معرفة تاريخ ضروري يمكن التحقق منه، وهناك صعوبة منتجة تشكل جزءًا من عمل القراءة، مثل التردد بين تأويلين أو محاولة تتبع حجة مركبة. ويكون القارئ الهجين الكفء هو الذي يستخدم الذكاء الاصطناعي لتقليل النوع الأول من دون القضاء على الثاني.

ومن هنا لا ينبغي أن يكون شعار القراءة المعززة «أسرع دائمًا» ، بل »السرعة حيث لا يخسر الفهم ، والبطء حيث يتكون المعنى .«وهذه القاعدة تجعل التقنية خادمة لإيقاع القراءة بدل أن تجعل القارئ خاضعًا لإيقاع التقنية.

خاتمة الفصل العاشر

أظهر هذا الفصل أن دخول الذكاء الاصطناعي إلى القراءة لا يبدأ من التأويل التوليدي مباشرة، بل من مجموعة واسعة من الوظائف المساعدة التي كانت موجودة تاريخيًا في أشكال بشرية وتقنية مختلفة، غير أن الأنظمة المعاصرة جمعتها داخل وسيط واحد قادر على التكيف مع سؤال القارئ، وهو ما حولها من أدوات متفرقة إلى بنية من الوساطة المعرفية الذكية .وقد بيّن التلخيص أن اختزال النص يمكن أن يكون أداة فعالة للاستكشاف والتنظيم والاسترجاع، لكنه يظل فعلًا انتقائيًا معرضًا لخسارة المعنى أو لإنتاج محتوى غير وفيّ للمصدر، وهو ما تؤكده دراسات التلخيص التجريدي وتقييمه [1][2.][3][

وأظهرت الترجمة الآلية أنها توسع المجال اللغوي للقارئ وتخفض كلفة الوصول الأولي إلى نصوص من لغات لا يتقنها، لكنها لا تلغي الوساطة اللغوية ولا تجعل النص الهدف مكافئًا للأصل في جميع المستويات، وخصوصًا حين تكون القيمة مرتبطة بالغنى المعجمي والأسلوب والنبرة والإحالات الثقافية [4][5][6]. ومن هنا يصبح «الأفق اللغوي الموسع» مكسبًا للقارئ الهجين، بشرط أن يميز بين استعمال الترجمة للاستكشاف وبين اعتمادها أساسًا نهائيًا لحكم نقدي دقيق.

كما أظهر الشرح والتبسيط أن المساعد يستطيع تكييف المعرفة مع مستويات مختلفة من القراء، وأن أبحاث تبسيط النص تؤكد أهمية مراعاة الجمهور والحفاظ على المحتوى أثناء تقليل التعقيد [7][8][9]. غير أن التكيف لا ينبغي أن يتحول إلى تسطيح دائم، لأن الهدف من المساعدة التعليمية ليس إبقاء النص في مستوى القارئ إلى الأبد، بل مساعدته على رفع كفايته حتى يصبح قادرًا على الاقتراب من النص بشروطه الأصلية، ومن هنا اقترح الفصل مفهوم «التعزيز المتناقص» بوصفه نموذجًا للمساعدة التي تنجح حين تقل الحاجة إليها مع التعلم.

وكشفت الاستعادة السياقية أن الأنظمة المرتبطة بمصادر خارجية تستطيع أن توسع ذاكرة القارئ التاريخية والثقافية، وأن تقنيات الاسترجاع المعزز بالتوليد تقدم نموذجًا مهمًا للجمع بين إنتاج اللغة والوصول إلى ذاكرة غير معلمية خارجية [10]، غير أن وجود الاسترجاع لا يلغي الحاجة إلى فحص المصدر ولا يضمن أن العلاقة بين المقطع المسترجع والجواب صحيحة دائمًا. كما أن استعادة التناص والإحالات الأدبية تظل مجالًا للفرضية قبل الإثبات، لأن التشابه الآلي لا يكفي لإقامة علاقة تاريخية بين نصين.[11]

أما القراءة المقارنة فقد بينت أن القدرة الحاسوبية تتيح للقارئ تنظيم مجموعات نصية أوسع واستكشاف أنماط وعلاقات لم تكن ذاكرته الفردية قادرة على إدارتها بسهولة، وهو ما يتقاطع مع التحول الذي مثلته القراءة البعيدة في الدراسات الأدبية الرقمية [12]، لكن المقارنة المعززة تحتاج إلى وعي بدرجة الوساطة التي تعرضت لها المواد، وإلى تمييز مستمر بين اقتراح العلاقة وإثباتها. ومن هنا لا تحل الآلة محل الأدب المقارن، بل تستطيع أن تزيد عدد المسارات التي يختبرها القارئ داخله.

وأخيرًا أكد تحليل حدود المساعدة أن الطلاقة اللغوية لا تمثل ضمانًا للموثوقية، وأن النماذج اللغوية تستطيع أن تنتج معلومات خاطئة أو غير مسندة أو تعكس أنماطًا موجودة في بياناتها [13][14]، ولذلك لا يمكن تصور القارئ الهجين من دون مبدأ التحقق البشري. ويصبح هذا التحقق أكثر من مراجعة للوقائع، لأنه يشمل اختبار التلخيص في الأصل، والترجمة في اللغة أو المرجع، والشرح في النظرية، والسياق في المصدر، والتناص في النصوص، والتأويل في الأدلة التي تسمح بالدفاع عنه.

ومن مجموع هذه النتائج يمكن صياغة المبدأ المركزي للفصل على النحو التالي :تكون المساعدة الاصطناعية معززة للقراءة عندما توسع قدرة القارئ على الوصول إلى النص وفهمه ومقارنته ثم تعيده إليه بقدرة أكبر على الحكم، وتتحول إلى استبدال للقراءة عندما تصبح مخرجات النظام هي

المجال النهائي الذي يتعامل معه الإنسان فلا يعود إلى النص ولا يمارس الوظائف التي يتكون من خلالها فهمه الخاص.

ويعني ذلك أن القيمة الحقيقية للذكاء الاصطناعي في هذا المستوى لا تقاس بقدرته على القراءة «نيابة عنا»، بل بقدرته على جعلنا نقرأ أكثر اتساعًا ودقة ووعيًا من دون فقدان الاستقلال. ويمكن اختزال دورة المساعدة الناضجة في الصيغة التالية:

النص ← القراءة البشرية الأولية ← تحديد العائق ← تدخل الأداة ← فحص المخرج ← العودة إلى النص ← إعادة بناء الفهم.

أما حين تتحول الدورة إلى:

النص ← الأداة ← المخرج ← القارئ

فإننا نقترب من الاستبدال، لأن الإنسان يتلقى تمثيلًا للعمل قبل أن يبني علاقته المباشرة به. ومن هنا يمهد هذا الفصل للفصل الحادي عشر، حيث ستصبح العلاقة أكثر تعقيدًا مع الانتقال من الذكاء الاصطناعي بوصفه مساعدًا يؤدي وظائف منفصلة إلى **القراءة الحوارية والتأويل التوليدي**، أي إلى المرحلة التي يسأل فيها القارئ النظام ويعترض عليه ويطلب بدائل ويعيد صياغة السؤال، فتتحول الوساطة من خدمة معرفية إلى حوار يمكن أن يشارك وظيفيًا في بناء المعنى نفسه.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Nenkova, Ani & McKeown, Kathleen. "Automatic Summarization." *Foundations and Trends in Information Retrieval*, Vol. 5, Nos. 2–3, 2011, pp. 103–233. DOI: 10.1561/1500000015.
مرجع تأسيسي واسع في التلخيص الآلي ومشكلاته وطرائقه وأهدافه، ويُستفاد منه في هذا الفصل للتمييز بين عمليات اختيار المحتوى والاختزال وإعادة بناء النص المختصر(Emerald Publishing) .

[2] Maynez, Joshua; Narayan, Shashi; Bohnet, Bernd & McDonald, Ryan. "On Faithfulness and Factuality in Abstractive Summarization." In *Proceedings of the 58th Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics*, 2020, pp. 1906–1919. DOI: 10.18653/v1/2020.acl-main.173.
دراسة مهمة في مشكلة الوفاء والواقعية في التلخيص التجريدي، وقد أظهرت في الأنظمة التي درستها وجود محتوى مولد غير مسند إلى الوثائق الأصلية، وهو ما يجعل التحقق من الملخص ضرورة مستقلة عن طلاقته اللغوية(ACL Anthology) .

[3] Fabbri, Alexander R.; Kryściński, Wojciech; McCann, Bryan; Xiong, Caiming; Socher, Richard & Radev, Dragomir. "SummEval: Re-evaluating Summarization Evaluation." *Transactions of the Association for Computational Linguistics*, Vol. 9, 2021.
يُستفاد منه في إبراز تعدد أبعاد تقييم التلخيص والحاجة إلى الجمع بين المقاييس الآلية والأحكام البشرية عند تقييم الجودة والاتساق والملاءمة والوفاء(MIT Press Direct) .

[4] Bahdanau, Dzmitry; Cho, Kyunghyun & Bengio, Yoshua. "Neural Machine Translation by Jointly Learning to Align and Translate." *International Conference on Learning Representations (ICLR)*, 2015.
من الأعمال المؤثرة في تطور الترجمة العصبية وآليات المحاذاة والانتباه، ويُستفاد منه في وضع الترجمة الآلية المعاصرة داخل تاريخ التحول من الأنظمة الإحصائية إلى النماذج العصبية(arXiv) .

[5] Bowker, Lynne & Buitrago Ciro, Jairo. *Machine Translation and Global Research: Towards Improved Machine Translation Literacy in the Scholarly Community*. Bingley: Emerald Publishing, 2019.

مرجع مهم لفكرة «محو الأمية في الترجمة الآلية»، ويؤكد ضرورة فهم إمكانات هذه التقنيات وحدودها في السياقات البحثية بدل استخدامها باعتبارها وسيطًا شفافًا لا يحتاج إلى نقد(Emerald Publishing) .

[6] Vanmassenhove, Eva; Shterionov, Dimitar & Way, Andy. "Lost in Translation: Loss and Decay of Linguistic Richness in Machine Translation." In *Proceedings of Machine Translation Summit XVII: Research Track*, Dublin, 2019, pp. 222–232.

تبحث الدراسة في خسارة بعض الغنى المعجمي داخل مخرجات الترجمة الآلية مقارنة بالترجمة والنصوص البشرية، وتفيد في مناقشة حدود استخدام الترجمة الآلية في القراءة الأسلوبية والأدبية(ACL Anthology) .

[7] Siddharthan, Advaith. "A Survey of Research on Text Simplification." *ITL – International Journal of Applied Linguistics*, Vol. 165, No. 2, 2014, pp. 259–298.

مرجع أساسي في تاريخ تبسيط النصوص ومشكلاته المعجمية والنحوية والخطابية، ويُستفاد منه في تمييز تبسيط اللغة عن اختزال مضمون النص . (Oro)

[8] Kew, Tannon; Chi, Alison; Vásquez-Rodríguez, Laura; Agrawal, Sweta; Aumiller, Dennis; Alva-Manchego, Fernando & Shardlow, Matthew. "BLESS: Benchmarking Large Language Models on Sentence Simplification." In *Proceedings of the 2023 Conference on Empirical Methods in Natural Language Processing*, Singapore, 2023, pp. 13291–13309. DOI: 10.18653/v1/2023.emnlp-main.821.

تقيم الدراسة أداء عدد كبير من النماذج اللغوية في تبسيط الجمل، وتبين أن النماذج الحديثة تستطيع تنفيذ نطاق متنوع من عمليات التبسيط مع استمرار الحاجة إلى تقييم جودة المخرجات والحفاظ على المحتوى(ACL Anthology) .

[9] Agrawal, Sweta & Carpuat, Marine. "Controlling Pre-trained Language Models for Grade-Specific Text Simplification." In *Proceedings of the 2023 Conference on Empirical Methods in Natural Language Processing*, Singapore, 2023, pp. 12807–12819. DOI: 10.18653/v1/2023.emnlp-main.790.

تفيد الدراسة في تحليل إمكان تكييف تبسيط النص مع المستوى المستهدف للقارئ، وتؤكد أن درجة البساطة المطلوبة ليست واحدة لجميع المستخدمين أو جميع النصوص(ACL Anthology) .

[10] Lewis, Patrick; Perez, Ethan; Piktus, Aleksandra; Petroni, Fabio; Karpukhin, Vladimir; Goyal, Naman; Küttler, Heinrich; Lewis, Mike; Yih, Wen-tau; Rocktäschel, Tim; Riedel, Sebastian & Kiela, Douwe. "Retrieval-Augmented Generation for Knowledge-Intensive NLP Tasks." In *Advances in Neural Information Processing Systems*, Vol. 33, 2020, pp. 9459–9474.

يقدم العمل نموذج التوليد المعزز بالاسترجاع الذي يجمع بين النموذج التوليدي وذاكرة خارجية قابلة للاسترجاع، ويُستفاد منه في تحليل الاستعادة السياقية وفي التمييز بين المعرفة المخزنة داخل النموذج والمعلومات التي تسترجع من مصادر خارجية(NeurIPS Proceedings) .

[11] Genette, Gérard. *Palimpsests: Literature in the Second Degree*. Translated by Channa Newman & Claude Doubinsky. Lincoln: University of Nebraska Press, 1997.

مرجع مركزي في دراسة العلاقات التي تقيمها النصوص مع نصوص سابقة، ويُستفاد منه في ضبط مفهوم التناص والعلاقات النصية ومنع اختزال التشابه الآلي في ادعاء وجود تأثير تاريخي مباشر(University of Nebraska Press) .

[12] Moretti, Franco. *Distant Reading*. London/New York: Verso, 2013.

يمثل أحد المراجع الأساسية في التحول نحو التحليل الأدبي واسع النطاق والبحث عن الأنماط عبر مجموعات نصية كبيرة، ويُستفاد منه في مناقشة قدرة الأدوات الحسابية والذكية على توسيع مجال القراءة المقارنة دون إلغاء ضرورة العودة إلى النصوص(Verso) .

[13] Lin, Stephanie; Hilton, Jacob & Evans, Owain. "TruthfulQA: Measuring How Models Mimic Human Falsehoods." In *Proceedings of the 60th Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics*, Vol. 1, Dublin, 2022, pp. 3214–3252. DOI: 10.18653/v1/2022.acl-long.229.

تقدم الدراسة معيارًا لاختبار صدق إجابات النماذج اللغوية، وقد أظهرت على النماذج التي فحصتها أن القدرة على إنتاج إجابات لغوية مقنعة لا تضمن تجنب المعلومات والمعتقدات الخاطئة، وهو ما يدعم ضرورة التحقق البشري .
(ACL Anthology)

[14] Bender, Emily M.; Gebru, Timnit; McMillan-Major, Angelina & Shmitchell, Shmargaret. "On the Dangers of Stochastic Parrots: Can Language Models Be Too Big?" In *Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (FAccT '21)*, 2021.

مرجع نقدي في دراسة النماذج اللغوية الكبيرة ومشكلاتها المتعلقة بالبيانات والتحيز والمخاطر الناتجة عن التعامل مع الطلاقة اللغوية كما لو كانت دليلًا كافيًا على الفهم والموثوقية.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في خمس دوائر وظيفية تتطابق مع بنية المساعدة الاصطناعية نفسها؛ إذ توفر أعمال نينكوفا وماكيون ومايني وزملائه وفابري وزملائه [1–3] الأساس العلمي لدراسة التلخيص ومشكلة الوفاء للنص، بينما تسمح أعمال باهدانو وتشو وبنغيو وباوكر وبويتراغو سيرو وفانماسنهوف وزملائها [4–6] بفهم الترجمة الآلية بوصفها أداة توسع المجال اللغوي للقارئ مع الاحتفاظ بأسئلة الخسارة الأسلوبية والوعي بحدود الوسيط. وتقدم أعمال سيدهارثان وكيو وزملائه وأغراوال وكاربوات [7–9] الإطار اللازم لدراسة الشرح والتبسيط والتكيف مع مستويات مختلفة من القراء، بينما يقدم لويس وزملاؤه [10] نموذجًا مهمًا لفهم الاستعادة المعرفية القائمة على الجمع بين التوليد والمصادر الخارجية، وتساعد أعمال جينيت وموريتي [11–12] على إبقاء القراءة المقارنة واستكشاف العلاقات النصية مرتبطين بالتقاليد الأدبية والنقدية الأوسع، في حين تكشف دراسات صدق النماذج ونقدها [13–14] الحدود التي تجعل التحقق البشري جزءًا غير قابل للإلغاء من القراءة الهجينة.

ومن تقاطع هذه المرجعيات تتضح مكانة الذكاء الاصطناعي في هذا المستوى من مشروع الكتاب: فهو ليس قارئًا بديلًا ولا مرجعًا نهائيًا للمعنى، وإنما بنية مساعدة تستطيع اختصار المسافة إلى النص وتوسيع اللغة والسياق والمقارنة، شريطة أن يظل الإنسان قادرًا على رؤية المسافة بين النص ومخرجات الأداة، وأن يحتفظ بحق العودة والتحقق والرفض .وبذلك يصبح الفصل العاشر حلقة انتقال بين القراءة المعززة والقراءة التوليدية؛ ففي الأولى تساعد الآلة القارئ على أداء وظائف حول النص، أما في الثانية التي سيعالجها الفصل التالي فسوف تدخل في حوار متكرر حول المعنى ذاته، وهو ما يفتح السؤال الأكثر حساسية في نظرية القارئ الهجين :متى يتحول المساعد من أداة لتوسيع القراءة إلى شريك وظيفي في إنتاج التأويل؟

الفصل الحادي عشر

القراءة الحوارية والتأويل التوليدي

يمثل الانتقال من الذكاء الاصطناعي بوصفه أداة للتلخيص والترجمة والشرح والاستعادة السياقية، كما عولج في الفصل السابق، إلى الذكاء الاصطناعي بوصفه طرفًا يدخل في حوار متكرر مع القارئ حول النص، تحولًا نوعيًا في بنية القراءة الهجينة، لأن الوسيط لم يعد يؤدي وظيفة محددة ثم ينسحب من المشهد، وإنما أصبح قادرًا على الاستجابة لسؤال أول، ثم تعديل إجابته استنادًا إلى اعتراض القارئ، ثم اقتراح مسارات أخرى للفهم، بما يجعل عملية القراءة قابلة لأن تتخذ شكل سلسلة من الأسئلة والأجوبة والمراجعات والعودات إلى النص. ولا يعني ذلك أن القراءة الصامتة تختفي أو أن الحوار مع الآلة يصبح الصورة النموذجية لكل قراءة، وإنما يعني أن البيئة التوليدية أضافت إلى تاريخ التلقي نمطًا لم يكن متاحًا بهذه السرعة والمرونة من قبل، حيث يستطيع القارئ أن يختبر فهمه بصورة فورية أمام نظام قادر على إنتاج إجابات مختلفة تبعًا لطريقة السؤال والسياق المقدم له، وهو ما يحول السؤال ذاته من مجرد وسيلة للحصول على معلومة إلى جزء من الفعل القرائي ومن هندسة التأويل.

ويتصل هذا التحول بتاريخ أعمق في النظرية التأويلية، لأن الفهم لم يكن في الفلسفات الحوارية مجرد استقبال لمعنى مكتمل، بل عملية تتشكل عبر سؤال يفتح موضوعًا وإجابة تعيد تنظيمه، وقد جعل هانس-غيورغ غادامير بنية السؤال والجواب جزءًا أساسيًا من الخبرة التأويلية، حيث لا يفهم النص من خلال إسقاط جواب جاهز عليه، بل من خلال استعادة السؤال الذي يجيب عنه وفتح حوار بين أفق القارئ وأفق النص [1]. كما أن تصور ميخائيل باختين للحوارية والتعدد الصوتي يتيح النظر إلى المعنى بوصفه متشكلًا في علاقة بين أصوات لا تنغلق في خطاب أحادي [2]، بينما أكدت نظريات التلقي عند إيزر وإيكو أن النص يحتاج إلى نشاط القارئ لكي تتحقق إمكاناته، مع بقاء هذا النشاط مشروطًا بالبنية النصية وحدود التأويل

[3][4]. ولا تعني الاستفادة من هذه المرجعيات أن النظام التوليدي يدخل الحوار بالصفة الوجودية نفسها التي يدخل بها الإنسان، لأن الحوار البشري يتصل بالتجربة والذاكرة والقصد والمسؤولية، بينما يولد النظام استجابات من خلال معالجة أنماط لغوية وسياقات ومدخلات، لكن هذه المرجعيات تسمح لنا بفهم السبب الذي يجعل بنية السؤال والجواب ذات أهمية جديدة في القراءة المعاصرة.

ومن هنا يقترح هذا الفصل مفهوم »القراءة الحوارية المعززة «للدلالة على ممارسة يقرأ فيها الإنسان نصًا، ثم يحول بعض مشكلات القراءة إلى أسئلة موجهة إلى نظام توليدي، ويتعامل مع الإجابات بوصفها فرضيات أو شروحًا أو مقارنات قابلة للمراجعة، ثم يعود منها إلى النص لكي يختبر ما إذا كانت تساعد على إعادة بناء فهمه. ولا يكون الحوار ناجحًا لمجرد استمرار تبادل الرسائل، لأن المحادثة تستطيع أن تتحول بسهولة إلى سلسلة من الأجوبة التي تبعد القارئ تدريجيًا عن الأصل، وإنما تتحدد قيمتها بقدرتها على إنشاء حركة متكررة بين النص والسؤال والمخرج والعودة إلى النص .وفي هذا الإطار لا تصبح الآلة قارئًا ثانيًا مكافئًا للإنسان، بل ما اقترح الكتاب تسميته »شريكًا تأويليًا وظيفيًا«، أي عنصرًا يستطيع أن يولد احتمالات ويستدعي مقارنات ويعيد تنظيم مادة، في حين يحتفظ القارئ البشري بالمسؤولية عن تحديد السؤال وتقييم الجواب واتخاذ الموقف النهائي.

المبحث الأول: من القراءة الصامتة إلى الحوار

ـ السؤال بوصفه أداة قراءة

لا تبدأ القراءة العميقة دائمًا من امتلاك جواب، بل تبدأ في كثير من الأحيان من القدرة على اكتشاف موضع السؤال داخل النص، لأن القارئ الذي لا يشعر بالمشكلة لا يحتاج إلى التأويل، بينما تظهر القراءة النشطة عندما يتوقف أمام تناقض أو غموض أو فجوة أو استعارة أو تحول في المنظور ويبدأ في صياغة ما الذي يريد معرفته. ومن هنا يكون السؤال فعلًا تأويليًا قبل أن يكون طلبًا للمعلومة، لأنه يحدد ما الذي أصبح مرئيًا داخل النص وما العلاقة التي يريد القارئ اختبارها، وقد جعل غادامير السؤال عنصرًا جوهريًا في منطق الخبرة التأويلية، إذ إن السؤال الحقيقي يفتح إمكانات للجواب بدل أن يختزلها مسبقًا، كما أن فهم النص يفترض القدرة على تحديد ما الذي يضعه موضع سؤال بالنسبة إلى حاضر القارئ [1]. وتتيح هذه الخلفية النظر إلى المحفز الذي يكتبه المستخدم أمام نظام توليدي لا بوصفه أمرًا تقنيًا فقط، بل بوصفه أثرًا لما فهمه وما لم يفهمه وما اختار أن يجعله موضوعًا للحوار.

وتكشف هذه النقطة أن جودة القراءة الحوارية تبدأ قبل وصول جواب الآلة، لأن القارئ الذي يسأل سؤالًا فقيرًا غالبًا ما يضيق منذ البداية مجال الاحتمالات التي سيحصل عليها، بينما يستطيع السؤال الذي يحدد المشكلة ويترك أكثر من مسار مفتوح أن ينتج مادة أغنى للمقارنة. فإذا سأل القارئ: «ما معنى هذه القصيدة؟» فهو يفترض ضمنيًا أن هناك معنى يمكن تلخيصه في جواب واحد، أما إذا سأل: «ما الفرضيات الممكنة لفهم صورة البحر في القصيدة، وما الأدلة النصية التي تدعم كل فرضية وما الذي يضعفها؟» فإنه يحول النظام من منتج لإجابة مغلقة إلى أداة لتوليد فضاء من الاحتمالات، وهو اختلاف لا يتعلق بالمهارة التقنية وحدها بل بنظرية ضمنية للقراءة؛ فالسؤال الأول يميل إلى تصور المعنى بوصفه شيئًا جاهزًا ينبغي استخراجه، بينما يعامل الثاني المعنى بوصفه بناءً يحتاج إلى أدلة ومقارنة.

ومن هنا يمكن اقتراح مفهوم »السؤال القرائي المعزز«، والمقصود به السؤال الذي ينشأ من قراءة بشرية أولية ويُصاغ بطريقة تجعل النظام يساعد على توسيع المشكلة بدل أن يستبدلها بجواب جاهز. وهذا السؤال يختلف عن الطلب المعلوماتي البسيط؛ فحين يسأل المستخدم عن تاريخ نشر رواية فهو يستدعي معلومة، أما حين يسأل عن أثر الراوي غير الموثوق في بناء التعاطف فهو يدخل إلى مجال التأويل، ولذلك ينبغي أن تتغير طريقة صياغة السؤال تبعًا لنوع المهمة. ويكون القارئ الهجين أكثر كفاءة عندما يعرف الفرق بين سؤال يريد حقيقة قابلة للتحقق، وسؤال يريد شرحًا، وسؤال يريد فرضية تأويلية، وسؤال يريد اعتراضًا على قراءته الخاصة، لأن خلط هذه الأنواع يجعل الجواب أكثر قابلية لأن يمنح سلطة معرفية لا تناسب طبيعته.

ويصبح السؤال كذلك وسيلة لممارسة الميتامعرفة، لأن القارئ حين يضطر إلى صياغة ما لم يفهمه يكشف حدود فهمه أمام نفسه، وهو ما يجعل الحوار أداة للتفكير حتى قبل النظر إلى إجابة النظام. وقد بينت بحوث المحفزات أن أداء النماذج اللغوية يتأثر بصورة ملحوظة بالطريقة التي تصاغ بها المهمة وبنوع التعليمات والسياق والأمثلة المقدمة [5]، كما أظهرت دراسات التفاعل مع غير المتخصصين أن كتابة محفزات فعالة ليست عملية بديهية دائمًا، وأن المستخدمين قد يتوقعون من النظام أن يفهم تعليماتهم كما يفهمها إنسان آخر ثم يواجهون نتائج مختلفة بسبب حساسية الصياغة والسياق [6]. ومن هنا يصبح تعلم السؤال جزءًا من كفاية القارئ، لا لأن الهدف تحويل الأدب إلى «هندسة أوامر»، بل لأن الوسيط الجديد يجعل اللغة التي نستخدمها لمساءلة النص جزءًا من البنية التقنية للجواب نفسه .

وتتصل هذه الفكرة بما سبق في الفصل الثالث عن القراءة العميقة؛ فالسؤال الجيد يبطئ الاندفاع نحو الجواب، لأنه يطلب من القارئ أن يعين المشكلة قبل تفويضها. ومن هنا يمكن أن يكون الذكاء الاصطناعي أداة لإعادة الاعتبار إلى السؤال إذا استخدم بصورة نقدية، كما يستطيع أن يدمر زمن السؤال إذا تحول إلى نظام نلجأ إليه فور ظهور كل غموض، ولذلك يكون

الفرق بين الاستخدامين في المسافة التي نسمح فيها للسؤال بأن يعمل داخلنا قبل أن نطلب من الآلة أن تعمل عليه.

- الآلة بوصفها محاورًا معرفيًا

تختلف الآلة المحاورة عن المعجم ومحرك البحث والنص المرجعي في أنها تستطيع الحفاظ على سياق حوار سابق بدرجات متفاوتة والاستجابة إلى سؤال لاحق انطلاقًا مما جاء قبله، وهو ما يجعل القارئ قادرًا على الاعتراض والتوضيح وطلب البديل وإعادة الصياغة بدل الاكتفاء بقبول نتيجة واحدة. وقد أظهرت الدراسات في النظم الحوارية القائمة على النماذج اللغوية أن هذه النظم تستطيع الدخول في حوارات متعددة الأدوار تشمل التوضيح والتوجيه والاستجابة إلى أهداف مختلفة، مع استمرار تحديات تتعلق بدرجة التحكم والموثوقية والتوافق بين الهدف البشري واستجابة النظام [7]. ومن هنا يصبح الحوار وظيفة مركبة لا يمكن اختزالها في «سؤال وجواب»، لأنه يبني سياقًا تتراكم داخله الافتراضات وقد تؤثر الإجابة الأولى في جميع الأسئلة التالية .

ولا ينبغي أن تقود طبيعة الواجهة الحوارية إلى أنسنة النظام بصورة غير نقدية؛ فاستعمال اللغة الطبيعية والضمير والأسلوب التفاعلي يجعل الآلة تبدو قريبة من محاور بشري، لكن هذا التشابه الوظيفي لا يبرر افتراض أنها تعيش معنى النص أو تتذكره كما يتذكره الإنسان أو تكون لها مصلحة وجودية في تفسيره. ولهذا يستخدم الكتاب عبارة »المحاور المعرفي الوظيفي «للدلالة على نظام يستطيع أن يشارك في تنظيم الحوار وإنتاج مخرجات تؤثر في مسار التفكير، من دون أن يُنسب إليه الوعي التأويلي الذي يتأسس عند الإنسان على التجربة الجسدية والتاريخ الشخصي والذاكرة الثقافية والمسؤولية الأخلاقية.

ويتحول هذا المحاور إلى جزء فعلي من القراءة عندما لا يسأل القارئ سؤالًا منفردًا ثم يغادر، بل يجعل المخرج الأول أساسًا لسؤال ثان، فيقول مثلًا إن التفسير أغفل عنصرًا في النص أو يطلب اعتراضًا أو مقارنة أو إعادة النظر في

فرضية، وعندها تظهر بنية **التغذية الراجعة التأويلية** :يقرأ الإنسان، فيسأل، فيولد النظام اقتراحاً، فيقارن الإنسان الاقتراح بالنص، فيعدل السؤال، فيأتي مخرج جديد، وهكذا. ولا يعني تكرار الدورة أن المعنى يصبح أكثر صحة كلما طال الحوار، لأن النظام قد يكرر خطأً سابقًا أو يتكيف مع افتراض المستخدم الخاطئ، لكن الحوار يمنح القارئ فرصة أكبر لكشف الافتراضات وتغييرها إذا كان يحتفظ بموقع نقدي.

ومن هنا يظهر الفرق بين **المحاورة والاستشارة**؛ ففي الاستشارة يسأل القارئ عن جواب ثم يعود إلى عمله، أما المحاورة فتتضمن بناءً متدرجًا للسؤال نفسه، وهو ما يجعلها أقرب إلى مختبر تأويلي يستطيع القارئ أن يجرب داخله فرضيات قبل أن يعود إلى النص. لكن نجاح هذا المختبر يتطلب ألا تصبح الآلة هي التي تحدد جميع الأسئلة، لأن النظام يستطيع اقتراح مسارات، إلا أن القارئ إذا اتبع كل مسار من دون غاية خاصة فقد تتحول القراءة إلى استجابة لجدول أعمال توليدي لا إلى تحقيق لسؤاله هو. ومن هنا يكون الشرط الأول للمحاورة المعرفية هو **بقاء المبادرة التأويلية قابلة للاستعادة من طرف الإنسان**.

ويتقاطع هذا التمييز مع ما سماه سوندار «الفاعلية الآلية»، أي اتساع قدرة الأنظمة على أداء وظائف تبدو أكثر مبادرة وتخصيصاً واستجابة، بما يغير العلاقة النفسية والاجتماعية للمستخدم مع الأداة [15]. وتفيد هذه الخلفية في فهم سبب شعور القارئ أحيانًا بأنه أمام «طرف» في الحوار، لكن نظرية القارئ الهجين تحتاج إلى إضافة قيد أساسي: الفاعلية الوظيفية لا تعني فاعلية وجودية أو مسؤولية أخلاقية مماثلة للإنسان، ولذلك يمكن للنظام أن يؤثر في التأويل من دون أن يكون صاحب التأويل بالمعنى الذي يكون فيه القارئ صاحب موقفه.

ـ المبحث الثاني: هندسة السؤال القرائي

ـ صياغة المحفزات

أصبحت «هندسة المحفزات» واحدة من المصطلحات المركزية في التعامل مع النماذج اللغوية، ويشير المصطلح في مستواه العام إلى تصميم التعليمات والسياقات والأمثلة التي توجه النظام نحو نوع معين من المخرجات، وقد قدمت الأدبيات الحديثة مسوحًا واسعة لطرائق المحفزات ودورها في إظهار قدرات مختلفة للنماذج وفي تنظيم مهام الاستدلال والتوليد [5]. غير أن نقل هذا المفهوم إلى مجال القراءة يحتاج إلى تعديل، لأن الهدف هنا ليس فقط تعظيم «أداء» النموذج وفق معيار آلي، بل بناء سؤال يحترم طبيعة النص الأدبي والنقدي ويمنع النظام من التحول إلى مصدر لإغلاق المعنى .

ولهذا يمكن التفكير في هندسة السؤال القرائي على ثلاثة مستويات مترابطة؛ يتعلق الأول **بتحديد المهمة**، بحيث يعرف القارئ ما إذا كان يريد شرحًا أم مقارنة أم توليد فرضيات أم نقدًا لقراءة سبق أن بناها، ويتعلق الثاني **بتحديد مادة الحكم**، كأن يطلب الاعتماد على مقاطع بعينها أو على سياق تاريخي محدد، بينما يتعلق الثالث **بصياغة درجة الانفتاح**، أي تقرير ما إذا كان السؤال يطلب جوابًا واحدًا أم مجموعة احتمالات. ولا تكون هذه المستويات مسائل تقنية منفصلة عن القراءة، لأن كل واحد منها يحمل افتراضًا حول طبيعة المعرفة؛ فالسؤال الذي يطلب «خلاصة نهائية» يختلف إبستمولوجيًا عن السؤال الذي يطلب «قراءتين متعارضتين.«

ويصبح السياق الذي يقدمه القارئ جزءًا أساسيًا من هندسة السؤال، لأن النظام لا يعرف دائمًا الطبعة التي يعتمد عليها المستخدم أو المقطع الذي يعنيه أو الخلفية التي يريد استبعادها، وقد يؤدي غياب هذه المعلومات إلى جواب عام يبدو دقيقًا لكنه لا يشتبك فعليًا مع النص المحدد. ومن هنا ينبغي أن يكتسب القارئ مهارة **تضييق مجال الادعاء**؛ فإذا كان يسأل عن صورة معينة في رواية، فالأفضل أن يقدم المقطع أو يحدد الفصل بدل أن

يسأل عن «رمزية الرواية كلها»، لأن اتساع السؤال يزيد احتمال أن يملأ النظام الفراغ بمعرفة عامة أو افتراضات لا تنتمي إلى النص.

وقد أظهرت دراسة زامفيرسكو-بيريرا وزملائه أن المستخدمين غير المتخصصين يواجهون صعوبات في تصميم المحفزات، منها الميل إلى بناء توقعات مستمدة من التعليمات البشرية العادية وإلى تعديل الصياغة بصورة غير منهجية، كما أبرزت حساسية الاستجابة للتفاصيل والسياق [6]. ولا ينبغي أن نستخلص من ذلك أن القارئ يحتاج إلى لغة برمجية مقنعة لكي يقرأ الأدب، بل أن الحوار مع النماذج يتطلب كفاية في التعبير عن الغرض والحدود، وهي كفاية يمكن إدماجها في الجهاز المفاهيمي للكتاب تحت اسم «الكفاية الحوارية الخوارزمية .«

وتتجاوز هذه الكفاية مجرد كتابة سؤال «أفضل»، لأنها تشمل القدرة على تحويل الحوار إلى سلسلة اختبار؛ فيطلب القارئ أولًا تفسيرًا، ثم يطلب من النظام أن يذكر ما يضعف تفسيره، ثم أن يقدم قراءة مضادة، ثم أن يحدد الأدلة النصية التي يحتاج إليها الحسم. وعندها يصبح المحفز جزءًا من منهج نقدي مصغر، إذ يفرض على الجواب أن يعرض بدائل وحدودًا بدل أن يقدم نفسه بوصفه الحقيقة النهائية. ومن هنا يقترح هذا الفصل مبدأ عمليًا : كلما اقترب السؤال من مجال التأويل، ينبغي أن تزداد فيه المطالبة بالبدائل والأدلة والاعتراضات، لا باليقين والاختصار.

ـ أثر السؤال في طبيعة الجواب

تختلف الأنظمة التوليدية عن الكتب المرجعية في أن صياغة السؤال تدخل بصورة مباشرة في إنتاج المخرج، وهو ما يعني أن القارئ لا يستخرج جوابًا ثابتًا من قاعدة بيانات، بل يشارك، من خلال المحفز، في تشكيل الشكل الذي سيظهر به الجواب. وقد أكدت أبحاث المحفزات أن النماذج يمكن أن تستجيب بصورة مختلفة باختلاف التعليمات والأمثلة وأنماط الطلب، وأن تصميم المحفز عنصر مؤثر في أداء مجموعة من مهام الاستدلال [5]، وهو ما يجعل العلاقة بين السؤال والجواب أكثر قوة مما كانت عليه في

محرك البحث التقليدي الذي يستطيع إعادة نتائج مختلفة، لكنه لا يولد عادة خطابًا كاملًا وفق زاوية يحددها المستخدم .

وتكتسب هذه الحساسية أهمية نظرية في الأدب، لأن السؤال لا يوجه النظام فقط بل يستطيع أن يحمل تحيز القارئ إلى داخل الجواب. فإذا سأل المستخدم: «لماذا تمثل الشخصية نموذجًا للاستلاب؟» فقد ضمن مسبقًا أنها تمثل الاستلاب وطلب من النظام تبرير الفرضية، بينما يكون السؤال الأكثر نقدية: «هل يمكن قراءة الشخصية من منظور الاستلاب، وما الأدلة التي تؤيد ذلك وما النصوص التي تقاومه؟». وفي الحالة الأولى يصبح المحفز آلة لإنتاج **تأكيد**، وفي الثانية يصبح أداة لاختبار الفرضية، وهو فرق يمس مباشرة المسؤولية التأويلية للقارئ.

ومن هنا يمكن الحديث عن »**التحيز التأويلي للمحفز**«، أي الميل الذي يدخل إلى المخرج بسبب الطريقة التي صيغ بها السؤال، وهو مفهوم لا يعني أن كل سؤال يمكن أن يكون محايدًا، لأن القراءة نفسها تبدأ من منظور، بل يعني ضرورة أن يعرف القارئ أن ما يراه في الجواب قد يكون جزئيًا انعكاسًا للبنية التي فرضها عليه. وهذا الإدراك يسمح له بأن يغير السؤال عمدًا لكي يختبر مدى استقرار القراءة؛ فيطرح الصياغة نفسها من منظور مختلف، أو يطلب من النظام نقد افتراضه السابق، أو يطلب الأدلة المضادة.

ويصبح هذا الاختبار مهمًا لأن النماذج اللغوية مصممة على إنتاج إجابات متماسكة تبعًا للسياق، وقد تكون قادرة على الدفاع بلاغيًا عن فرضيات مختلفة بل ومتعارضة، ولذلك لا يكفي أن يحصل القارئ على تفسير قوي الصياغة لكي يعده أقرب إلى النص. وهنا يعود دور إيكو في التمييز بين انفتاح التأويل وحدوده [4]؛ فالقدرة على توليد معنى لا تعني مشروعيته، ومهما تعددت الاحتمالات يظل النص والسياق مصدرين لتقييد ما يمكن الدفاع عنه. وتؤكد هذه النقطة أن الذكاء الاصطناعي يوسع فضاء الممكنات التأويلية، لكنه لا يلغي الحاجة إلى معايير الفصل بينها.

ومن هذه الزاوية يمكن تعريف هندسة السؤال القرائي بأنها ليست فن الحصول على الجواب الذي نريده، بل فن بناء ظروف تجعل الجواب قابلًا للنقد .فالسؤال الجيد لا يهدف إلى إرضاء القارئ بتأكيد قراءته، بل يتيح له أن يرى ما لم يره، وأن يعرف درجة اليقين، وأن يفرق بين معلومة وفرضية. ومن هنا يمكن أن تتضمن الكفاية الحوارية القدرة على طلب ثلاثة أنواع من المخرجات معًا: ما يدعم القراءة، وما يعارضها، وما يحتاج إلى تحقق مستقل، وبذلك يتحول الحوار من أداة للإقناع إلى أداة للاختبار.

ـ المبحث الثالث: التأويل التوليدي

ـ توليد القراءات الممكنة

يقترح هذا الكتاب استعمال مصطلح »التأويل التوليدي «للدلالة على العملية التي يستخدم فيها القارئ نظامًا لغويًا توليديًا لإنتاج فرضيات أو مسارات تفسيرية حول نص، بحيث لا تعامل هذه المخرجات بوصفها تأويلات مكتملة ذات سلطة مستقلة، وإنما مواد تدخل في عملية تأويل بشرية أوسع. ويأتي وصف التأويل بالتوليدي من طبيعة المخرج الذي لا يُسترجع عادة في صورة نص نقدي سابق مطابق للسؤال، بل يُركب لحظة الاستجابة من أنماط ومواد وسياقات تعلمها النظام، وهو ما يميز هذه الممارسة عن الرجوع إلى قاموس أو مقال نقدي معروف المصدر.

وتبدو الفائدة الأساسية لهذا النمط في زيادة عدد الاحتمالات التي يستطيع القارئ اختبارها؛ فقد يقرأ قصيدة من منظور الزمن ثم يطلب من النظام اقتراح منظور مكاني أو نفسي أو سيميائي أو تاريخي، فيكتشف أن عنصرًا كان يمر عليه بوصفه تفصيلًا يمكن أن يدخل في بناء مختلف. ولا تعني هذه القدرة أن النظام «اكتشف» المعنى الحقيقي، بل إنه ولد خطابًا يساعد الإنسان على تغيير زاوية النظر، وهو ما يجعل الوظيفة الأقرب إليه هي وظيفة موسع مجال البحث التأويلي.

وتستفيد هذه الممارسة من التصور الحواري للمعنى عند باختين، لا لأن النظام يمثل صوتًا بشريًا جديدًا داخل الحوار، بل لأن تعدد المواقف واللغات النقدية يمكن أن يكشف محدودية القراءة الأحادية [2]. كما تتوافق مع إيزر في أن النص يحتوي على مناطق من عدم التحديد تحتاج إلى نشاط القارئ [3]، لكن دخول النظام التوليدي يضيف سؤالًا لم يكن حاضرًا في نظريته: ماذا يحدث للفراغ النصي عندما يستطيع القارئ أن يستدعي في ثوان عدة اقتراحات لملئه؟ هنا قد يصبح النظام معززًا للخيال إذا وسع الإمكانات، كما يستطيع أن يصبح بديلًا عنه إذا جعل القارئ يختار من قائمة جاهزة بدل بناء فرضيته.

ومن هنا ينبغي التمييز بين التوليد الاستكشافي والتوليد الاستبدالي؛ فالأول يأتي بعد قراءة أولية ويهدف إلى اختبار حدودها، بينما يأتي الثاني بدل القراءة ويطلب من النظام أن ينتج «تفسير النص» قبل أن يدخل القارئ في مقاومته وغموضه. وفي الحالة الأولى يظل المخرج مادة للحوار، أما في الثانية فيصبح مرشحًا لأن يتحول إلى أفق انتظار يحدد مسبقًا ما سيبحث عنه القارئ في العمل.

ويستدعي هذا التمييز العودة إلى غادامير، لأن التأويل لديه لا ينطلق من ذات خارج التاريخ تستطيع التحكم في المعنى بصورة مطلقة، بل من لقاء تتغير فيه أسئلة القارئ أمام الموضوع [1]. ويستطيع الحوار التوليدي أن يحاكي وظيفيًا جزءًا من هذا التحول حين يقدم للقارئ منظورًا لم يكن يملكه، لكنه لا يشارك في الخبرة التاريخية بالطريقة نفسها، ولذلك يكون الأدق أن نقول إن النظام يوسع مواد التأويل لا أنه يعيش الحركة التأويلية الإنسانية بكامل أبعادها.

ومن هنا يصل الكتاب إلى تعريف إجرائي :**التأويل التوليدي هو استخدام مخرجات نظام لغوي توليدي لإنتاج أو توسيع أو نقد فرضيات حول معنى النص، على أن تخضع هذه المخرجات لاختبار بشري ونصي وسياقي قبل إدماجها في التأويل النهائي** .وتضع هذه الصيغة التوليد في موقع بين السؤال والحكم، فلا تلغيه ولا تمنحه السلطة الأخيرة.

- تعدد الزوايا النقدية

تتمثل إحدى القدرات المغرية للأنظمة التوليدية في إمكان إعادة صياغة السؤال نفسه ضمن عدد من الأطر النقدية، فيستطيع القارئ أن يطلب مثلًا قراءة سردية ثم تحليلًا من منظور النوع الاجتماعي أو الذاكرة أو الدراسات ما بعد الاستعمارية أو السيميائيات، وهو ما يحول النظام إلى أداة سريعة لمحاكاة **تعدد المداخل** .غير أن هذه السرعة تستدعي حذرًا منهجيًا، لأن استخدام اسم مدرسة نقدية في محفز لا يضمن أن المخرج سيحترم جهازها

المفاهيمي بدقة، وقد يتحول المنهج إلى مجموعة كلمات مفتاحية يعاد إسقاطها على النص.

ومن هنا لا ينبغي للقارئ المتخصص أن يسأل فقط ما إذا كان الجواب «يبدو» بنيويًا أو تفكيكيًا، بل هل يستخدم المفاهيم كما صيغت داخل مرجعياتها، وهل يميز بين المفاهيم المتقاربة، وهل يحمّل النص ما يحتمل فعلاً. وتصبح المعرفة السابقة بالنظرية شرطًا للانتفاع من سرعة التوليد، وهو ما يعيد إحدى مفارقات القارئ الهجين التي سبقت صياغتها :**أفضل استخدام للذكاء الاصطناعي يحتاج إلى قارئ يعرف ما يكفي لكي لا يصدقه دائمًا**.

وتظهر الفائدة الحقيقية عندما لا يطلب القارئ من النظام تطبيق مدرسة واحدة بوصفها قالبًا، بل يستخدمه في **المقارنة بين آثار المداخل**؛ فيسأل ما الذي يصبح مرئيًا إذا قرأنا الرواية من زاوية الذاكرة، وما الذي يختفي، ثم يقارن ذلك بقراءة تنظر إلى المكان أو البنية السردية. وعندها يتحول التعدد من استعراض أسماء النظريات إلى وعي بأن كل إطار نقدي يفتح شيئًا ويهمش شيئًا آخر، وهي كفاية أساسية في التفكير النقدي.

ويقترب هذا الاستخدام من مفهوم «التأويل من الدرجة الثانية» الذي يقترحه الكتاب للإشارة إلى القراءة التي لا تكتفي بتفسير النص، بل تقارن كذلك بين طرائق تفسيره وتسأل عن الافتراضات التي ينتج منها كل منظور. فالذكاء الاصطناعي يمكن أن يساعد القارئ على توليد قراءات من الدرجة الأولى، لكن القيمة الأكثر تقدمًا تظهر عندما يستخدمه القارئ لمقارنة هذه القراءات وتحليل ما تفترضه، ثم يوجه النقد إلى النظام نفسه: لماذا اختار هذه المفاهيم؟ وما الذي أهمله؟ وهل أعاد إنتاج التفسير الأكثر شيوعًا في بياناته؟

ومن هنا تبدأ حدود الفصل الحادي عشر في الاتصال بفصل القراءة الميتا خوارزمية الذي سيأتي لاحقًا، لأن التأويل التوليدي لا يصبح نقديًا بمجرد تعدده، بل حين يستطيع القارئ أن يجعل التوليد ذاته موضوعًا للتفسير .

ويصبح السؤال عندئذ مزدوجًا: ماذا يمكن أن يعني النص؟ ولماذا اقترح النظام هذه المعاني تحديدًا؟

ـ المبحث الرابع: القراءة المقارنة المعززة

ـ *المقارنة بين المدارس الأدبية*

سبق للفصل العاشر أن تناول القراءة المقارنة بوصفها مجالًا يستطيع فيه الذكاء الاصطناعي المساعدة في تنظيم مواد واسعة واستكشاف العلاقات، غير أن المستوى الحواري يضيف قدرة مختلفة، إذ يمكن للقارئ أن لا يكتفي بطلب مقارنة جاهزة، بل أن يبنيها تدريجيًا من خلال اختبار أوجه التشابه والاختلاف واعتراضه على التصنيفات وتعديل المعايير. ومن هنا تتحول المقارنة من جدول يقدمه النظام إلى حوار حول معيار المقارنة نفسه.

فإذا أراد القارئ مقارنة الرومانسية والواقعية مثلًا، يمكن للنظام أن ينتج قائمة عامة من السمات، لكن القراءة المقارنة المعززة تصبح أكثر عمقًا عندما يسأل القارئ: هل هذه الفروق صالحة في جميع الآداب الوطنية؟ وما الأمثلة التي تضعفها؟ وكيف تغيرت الواقعية بين فرنسا وروسيا والعالم العربي؟ وعندها يتحول النموذج من منتج لتصنيف مدرسي إلى أداة تستطيع أن توسع بنية السؤال، مع بقاء الحاجة إلى العودة إلى الدراسات التاريخية والنصوص الأصلية.

ويستطيع الحوار أن يساعد كذلك في الكشف عن التصنيفات المفرطة في التعميم التي تنتج من تحويل تاريخ أدبي معقد إلى جدول سمات، لأن القارئ يمكنه أن يطلب حالات حدودية وكتابًا لا ينسجمون تمامًا مع المدرسة أو مراحل انتقالية، وبذلك تصبح الآلة مفيدة عندما تستخدم ضد ميلها الخاص إلى التبسيط. ويكون القارئ الهجين هنا منتجًا لما يمكن تسميته »الاحتكاك النقدي الموجه«، إذ لا يقبل الصياغة السلسة بل يدفع النظام إلى إظهار الاستثناءات والتناقضات.

كما يمكن للقراءة الحوارية أن توسع المقارنة إلى مدونات أكبر، وهو ما يتقاطع مع مشروع القراءة البعيدة عند موريتي الذي دعا إلى دراسة الأنماط عبر مجموعات نصية تتجاوز قدرة القراءة الفردية القريبة [9]. غير أن

النماذج التوليدية لا ينبغي أن تعالج بوصفها بديلًا عن أدوات القياس أو البيانات الموثقة، لأن جوابها المقارن قد يعتمد على معرفة عامة أو أنماط غير قابلة للتحقق مباشرة. ومن هنا يكون الحوار مفيدًا في اقتراح فرضية مقارنة، بينما يحتاج إثبات النمط على مستوى مدونة واسعة إلى منهج وبيانات وأدوات تناسب السؤال.

وتظهر مرة أخرى أهمية التمييز بين «المقارنة المولدة» و«المقارنة المبرهنة»، لأن الأولى تستطيع أن تفتح البحث، لكن الثانية تحتاج إلى العودة إلى النصوص والمرجعيات التاريخية. ولا يكون ذلك تقليلًا من شأن النظام، بل تحديدًا لوظيفته داخل سلسلة البحث، بحيث يعمل في المرحلة الاستكشافية والتوليدية بقوة، بينما يحتفظ الباحث بالمرحلة التوثيقية والتأويلية النهائية.

- الربط بين النصوص والثقافات

تزداد القراءة المقارنة تعقيدًا عندما تنتقل من نصوص داخل تقليد واحد إلى نصوص وثقافات ولغات مختلفة، لأن التشابه بين الأعمال قد يكون نتيجة تأثير تاريخي أو تشابه بنيوي مستقل أو ترجمة أو وسيط مشترك أو مجرد إسقاط من القارئ، ولذلك لا يكفي أن يستطيع النظام توليد قائمة من أوجه التقارب لكي تصبح المقارنة مشروعة. وقد شكل جينيت إطارًا مهمًا لدراسة العلاقات بين النصوص والأنماط المختلفة لتحويل نص سابق أو استدعائه [8]، غير أن الذكاء الاصطناعي يوسع الآن عدد العلاقات التي يمكن اقتراحها في وقت قصير، وهو ما يزيد قوة الاكتشاف ومخاطر التسرع معًا .

ويمكن للنظام أن يؤدي وظيفة مهمة في القراءة العابرة للثقافات حين يساعد على استعادة سياقات أو ترجمات أو مفاهيم متقاربة، لكنه لا ينبغي أن يجعل الاختلاف الثقافي مجرد مشكلة تعادل لغوي يمكن حلها بسهولة. فمفهوم مثل «الشرف» أو» المنفى» أو «القبيلة» أو «المدينة» قد يحمل تاريخًا مختلفًا في تقليدين أدبيين، وإذا قورن على مستوى الكلمة وحدها يمكن أن

يوحي بالتطابق حيث توجد اختلافات تاريخية عميقة، ولذلك يحتاج القارئ إلى أن يجعل السياق جزءًا من الحوار بدل أن يطلب التشابه المجرد.

ومن هنا يمكن صياغة سؤال مركزي للقراءة المقارنة الهجينة :هل يربط النظام النصوص لأن بينها علاقة ثقافية وتاريخية ذات معنى، أم لأنه يتعرف إلى تشابه لغوي أو موضوعي عام؟ وتصبح هذه المسافة بين التشابه والعلاقة واحدة من أهم مناطق التحقق. فإذا اقترح النظام صلة بين شاعر عربي وشاعر لاتيني، يمكن للقارئ أن يسأله عن طبيعة الصلة، ثم عن إمكانية التأثير التاريخي، ثم عن المصادر التي تسمح بإثباته، فإذا غاب الدليل بقيت المقارنة صالحة بوصفها قراءة موازية محتملة لا بوصفها تاريخ تأثير.

وتحمل القراءة العابرة للثقافات خطرًا إضافيًا هو ميل الأنظمة إلى نقل نماذج تفسير تكونت في تقاليد معرفية أكثر تمثيلًا إلى نصوص من ثقافات أخرى، وهو ما سبق للكتاب أن طرحه ضمن سؤال اللغة والتمثيل. ولذلك يصبح القارئ العربي، مثلًا، مطالبًا بالانتباه إلى أن تفسير إشارة تراثية قد يُعاد داخل إطار غربي مألوف إذا كانت بيانات النظام أقوى في ذلك الإطار، ومن هنا ينبغي أن يكون الحوار وسيلة للكشف عن هذا الميل، فيطلب القارئ مثلًا: ما القراءة التي تنطلق من المرجعيات المحلية؟ وما المصطلحات التي قد لا يكون لها مقابل دقيق؟ وما الذي يتغير إذا أعطينا الأولوية للسياق التاريخي العربي؟

ويصبح الذكاء الاصطناعي في هذا الاستخدام أداة لإظهار التحيز بقدر ما هو أداة لتجاوز الحواجز، لأن القارئ يستطيع اختبار كيف تتغير الإجابة حين يغير المرجعية والسياق، وهي ممارسة تمهد مباشرة للوعي الميتا خوارزمي. ومن ثم لا تكون القراءة المقارنة المعززة مشروعًا لإزالة الفروق بين الثقافات، بل وسيلة لتوسيع إمكان المقارنة مع زيادة حساسية القارئ للفروق التي لا ينبغي للترجمة أو التشابه الحسابي أن يمحياها.

ـ المبحث الخامس: إنتاج الهوامش الاصطناعية

ـ الشروح الآلية المصاحبة للنص

احتلت الحاشية عبر تاريخ الكتابة موقعًا وسيطًا بين المتن والقارئ، إذ تقدم تعريفًا أو مرجعًا أو تعليقًا أو تفسيرًا يساعد على عبور المسافة بين زمن النص ومعرفة المتلقي، وقد أوضح ريمي كالير وأنتيرو غارسيا أن التعليق يمثل جنسًا يجمع القراءة والتفكير والكتابة والاتصال، وأنه يستطيع أن يقدم معلومات أو يثير نقاشًا أو يساعد في التعلم [10]. وتضيف الأنظمة التوليدية إلى هذا التاريخ إمكان إنتاج حاشية حسب الطلب بدل الاكتفاء بحاشية ثابتة كتبها محرر أو شارح قبل معرفة قارئ بعينه .

فالقارئ الذي يواجه اسمًا أو استعارة أو مفهومًا يستطيع أن يطلب شرحًا فيظهر له هامش فوري، ثم يطلب أن يكون الشرح أقصر أو أكثر تخصصًا أو أن يقتصر على الخلفية التاريخية، وبذلك تتحول الحاشية من نص ثابت إلى خدمة تفسيرية قابلة للتخصيص .وهذه المرونة تحمل قيمة كبيرة، خصوصًا في النصوص التراثية أو الفلسفية أو متعددة الإحالات، لأنها تسمح بأن يتكيف الهامش مع مقدار المعرفة التي يحتاج إليها المستخدم بدل أن يحمل جميع القراء الشرح نفسه.

ومن هنا يقترح الكتاب مصطلح »**الهامش الاصطناعي** «للدلالة على النص الشارح الذي يولده نظام ذكاء اصطناعي استجابة إلى موضع محدد من القراءة، مع ضرورة عدم مساواته بالهامش العلمي المحقق الذي يكتبه باحث بعد العودة إلى المصادر، لأن الأول مخرج ديناميكي احتمالي يحتاج إلى تحقق بينما يكون الثاني مسؤولية مؤلف أو محرر معروف. وتكتسب هذه التسمية أهميتها لأنها تجعل الوساطة مرئية؛ فحين نسمي المخرج «هامشًا اصطناعيًا» نتذكر أنه طبقة بيننا وبين النص لا جزء من النص نفسه.

وتتعدد وظائف هذا الهامش؛ فقد يكون **تعريفيًا** يشرح كلمة أو مفهومًا، أو **تاريخيًا** يقدم خلفية، أو **تناصيًا** يقترح علاقة بنص آخر، أو **لغويًا** يشرح

تركيبًا، أو نقديًا يعرض أكثر من قراءة. وكلما انتقلنا من الوظائف التعريفية إلى التأويلية ازدادت ضرورة تمييز درجة اليقين، لأن القول إن حدثًا وقع سنة محددة يختلف عن القول إن صورة معينة «ترمز» إلى شيء.

ويظهر هنا خطر ما يمكن تسميته »**تضخم الهامش**«، إذ يستطيع القارئ أن يولد شرحًا لكل فقرة حتى يصبح الخطاب المرافق أطول من العمل نفسه، وعندها لا يعود الهامش مساعدًا بل يبدأ في إعادة هندسة تجربة القراءة بحيث يمر القارئ دائمًا عبر تفسير جاهز. ومن هنا ينبغي أن تكون كفاية القارئ الهجين قادرة على إدارة مقدار الحاشية، لأن إمكان الحصول على شرح دائم لا يعني أن الشرح الدائم مرغوب.

- الحاشية الدينامية

تختلف الحاشية الدينامية عن الحاشية الاصطناعية المنفردة في أنها تتغير مع تقدم الحوار ومع ما يعرفه النظام عن سؤال القارئ داخل الجلسة، بحيث يمكن للهامش أن يصبح متدرجًا ومترابطًا؛ فإذا شرح النظام مفهومًا في الفصل الأول، يمكن للقارئ أن يعود إليه في الفصل الرابع ويطلب مقارنة استعماله، أو يطلب تحديث الشرح بعدما ظهرت معلومات جديدة في النص. ومن هنا لا يعود الهامش «ملاحظة على موضع» فقط، بل يصبح ذاكرة مصاحبة لمسار القراءة.

وتحمل هذه الدينامية إمكانًا تعليميًا كبيرًا، لأن الحاشية يمكن أن تبدأ بشرح مبسط ثم تزداد تعقيدًا مع ارتفاع كفاية القارئ، كما يمكن أن تذكره بأسئلة طرحها سابقًا أو تربط بين مواضع بعيدة. وهذا يتقاطع مع مفهوم الذات القارئة الموزعة، لأن جزءًا من تاريخ القراءة ينتقل إلى النظام الذي يساعد على استرجاعه، غير أن ذلك يثير كذلك مسألة الاعتماد والخصوصية ودقة الذاكرة، وهي قضايا سيعالج الفصل التالي جانبًا من مخاطرها.

ومن منظور التأويل، يمكن للحاشية الدينامية أن تعمل بوصفها سجلًا لتغير القراءة؛ فيكتب القارئ فرضيته الأولى أو يولدها مع النظام، ثم يعود لاحقًا ليرى ما الذي تغير بعد تقدم النص، وبذلك يصبح الهامش أداة لمقارنة الذات القارئة بنفسها عبر الزمن. وهذه الوظيفة مهمة لأنها تقاوم الميل إلى إعادة كتابة تاريخ فهمنا بعد معرفة النهاية؛ فبدل أن نظن أننا «كنا نعرف دائمًا»، يستطيع السجل أن يظهر كيف تبدلت توقعاتنا.

لكن الحاشية الدينامية تستطيع كذلك أن تنتج تحيز الاستمرارية إذا ظلت جميع إجاباتها مبنية على الفرضية الأولى، لأن النظام قد يحافظ على سياق سابق ويعيد إنتاجه، فيصبح الخطأ الأول إطارًا للحوار كله. ومن هنا يحتاج القارئ إلى القدرة على «إعادة ضبط الهامش»، أي أن يطلب قراءة جديدة دون افتراض بعض النتائج السابقة أو أن يقارن جلسة بأخرى، وهي ممارسة تعادل في البحث التقليدي محاولة اختبار الفرضية من جديد خارج شروطها الأولى.

وتصبح الحاشية الأكثر قيمة، لذلك، ليست التي تتذكر كل شيء فقط، بل التي تسمح للقارئ بتحديد ما ينبغي أن يستمر وما ينبغي تعليقه، وهي مسألة تتجاوز التقنية إلى فلسفة القراءة؛ فالمعرفة تحتاج إلى الذاكرة لكنها تحتاج كذلك إلى القدرة على مراجعة الذاكرة. ومن هنا تكون الحاشية الدينامية أداة جيدة عندما تساعد على رؤية تحول الفهم، لا عندما تجعل الفهم السابق قدرًا يلاحق جميع القراءات التالية.

ـ المبحث السادس: من التفسير إلى التأويل المشترك

ـ حدود مساهمة الإنسان

تبلغ القراءة الحوارية أقصى تعقيدها حين لا يعود السؤال عن استخدام الآلة في وظيفة محددة، بل عن إمكان وصف ما يحدث بأنه »**تأويل مشترك** .« وتحتاج هذه العبارة إلى ضبط شديد حتى لا توحي بأن الإنسان والنظام يملكان التجربة التأويلية نفسها أو أنهما شريكان متساويان في إنتاج المعنى، ولذلك يقترح هذا الكتاب استعمالها بمعنى وظيفي محدود: التأويل المشترك هو مسار تتداخل فيه قراءة بشرية مع مخرجات توليدية متكررة، بحيث تؤثر اقتراحات النظام في الفرضيات التي يختبرها الإنسان، بينما يحدد الإنسان الأسئلة ويقبل ويعترض ويعيد الدمج، فينشأ الناتج النهائي من سلسلة تفاعلات لا من عقل منفرد يعمل في عزلة.

وفي هذه السلسلة يبقى الإنسان صاحب وظائف لا يمكن توزيعها على الآلة بالمعنى نفسه، أولها **تحديد الغاية**، لأن القارئ هو الذي يقرر لماذا يقرأ وما الذي يعنيه له السؤال، وثانيها **التجربة المعيشة** التي تجعل نصًا عن الموت أو الحب أو المنفى أو الفقد يتصل بذاكرة وموقع وجودي لا يمتلكهما النظام، وثالثها **الحكم القيمي والأخلاقي** الذي لا يمكن تحويل مسؤوليته إلى مخرج تقني، ورابعها **التحقق** الذي يقرر ما إذا كان الاقتراح مقبولًا نصيًا وتاريخيًا.

ومن هنا لا ينبغي أن يؤدي الاعتراف بالتوزيع المعرفي إلى توزيع المسؤولية، وهي القاعدة التي أسسها الفصل السادس حين وصف الذات القارئة بأنها موزعة وظيفيًا لكنها غير موزعة أخلاقيًا. فإذا اختار القارئ تفسيرًا من بين مقترحات الآلة ونشره باسمه، تظل مسؤوليته قائمة عن الاستدلال الذي تبناه، لأن النظام لم يجبره على قبوله، ولا يستطيع أن يتحمل مكانه موقعًا اجتماعيًا أو أكاديميًا.

لكن مساهمة الإنسان ليست ثابتة تلقائيًا لمجرد أنه «إنسان»، لأن القارئ يستطيع أن يتنازل عمليًا عن دوره إذا جعل النظام يقرأ ويسأل ويجيب ويلخص

ثم اكتفى باختيار الصياغة النهائية، ولذلك ينبغي أن تقاس مساهمته بما يفعله فعليًا داخل الحلقة. ومن هنا يقترح الكتاب مفهوم »السيادة التأويلية التشغيلية«، أي أن احتفاظ الإنسان بالموقع المركزي لا يكون شعارًا فلسفيًا بل يظهر في سلوكه: هل قرأ النص؟ هل بنى فرضية؟ هل اعترض؟ هل تحقق؟ هل يستطيع الدفاع عن النتيجة من دون الاستناد إلى «قال النظام»؟

وتصبح هذه السيادة أكثر قوة عندما يستخدم القارئ الآلة في دور الخصم التأويلي لا في دور المؤيد فقط، فيطلب منها أن تبحث عن ثغرات قراءته أو تقدم تفسيرًا مضادًا، لأن هذه الممارسة تحافظ على النشاط البشري وتستخدم القدرة التوليدية لإنشاء مقاومة معرفية. وهنا يكون النظام مفيدًا لا لأنه يختصر التفكير، بل لأنه يزيد «الاحتكاك النقدي» الذي يحتاج إليه.

ـ حدود مساهمة الآلة

يمكن للآلة أن تسهم في التأويل المشترك، وفق هذا التصور، في وظائف محددة تشمل استدعاء معلومات، وتنظيم مقارنات، واقتراح فرضيات، وإعادة صياغة السؤال، وتوليد اعتراضات، وربط عناصر متباعدة، وهي وظائف حقيقية في أثرها حتى إذا لم تتضمن تجربة بشرية للمعنى. ومن هنا لا ينبغي التقليل من دورها بحجة أنها «لا تفهم مثلنا»، لأن المهم في تحليل النظام الهجين هو ما الذي تستطيع مخرجاتها أن تفعله داخل فعل القارئ، لكن لا ينبغي كذلك القفز من الأثر الوظيفي إلى المساواة الوجودية.

ويظهر الحد الأول في الموثوقية، لأن النظم التوليدية تستطيع إنتاج محتوى غير صحيح أو غير مسند، وقد قدم جي وزملاؤه مسحًا واسعًا لظاهرة الهلوسة في توليد اللغة الطبيعية، موضحين أن الطلاقة يمكن أن تترافق مع معلومات مختلقة أو غير متسقة مع المصدر [11]. كما حذرت بندر وجبرو وزميلاتهما من إسقاط الفهم والقصد البشريين بسهولة على أنظمة لغوية تعلمت أنماطًا من بيانات واسعة [12]. ومن هنا ينبغي ألا تمنح الآلة سلطة توثيقية لمجرد قدرتها على إنتاج تفسير مقنع الصياغة .

ويتمثل الحد الثاني في غياب التجربة المعيشة؛ فالنظام يستطيع أن ينتج خطابًا عن الحزن لكنه لا يحزن، وأن يقارن تمثيلات المنفى لكنه لا يكون منفيًا، ولذلك لا يمكن مساواة التوليد النصي بالتجربة التي تدخل في تأويل الإنسان. ولا يعني ذلك أن التأويل الصحيح يحتاج دائمًا إلى أن يعيش القارئ تجربة المؤلف، بل أن الخبرة الجسدية والتاريخية أحد الموارد التي يدخل بها الإنسان إلى القراءة ولا ينبغي محوها تحت عبارة شراكة متساوية.

أما الحد الثالث فيتمثل في تبعية الجواب للسؤال والسياق؛ فالنظام يستطيع تقديم قراءات متعارضة إذا تغير المحفز، وهو ما يجعل مساهمته أقرب إلى إنتاج احتمالات مشروطة من إصدار حكم ذاتي مستقر. وقد أظهرت أبحاث المحفزات وحساسية المستخدمين لصياغتها أن مخرجات الأنظمة تتأثر بطريقة التوجيه [5][6]**، ولذلك ينبغي أن يظل القارئ واعيًا بأن «رأي النظام» ليس موقفًا مستقلًا قائمًا بذاته، بل استجابة ولدت داخل شروط لغوية حددها جزئيًا المستخدم .**

ويتمثل الحد الرابع في عدم القدرة الذاتية على تحمل المسؤولية التأويلية؛ فحتى عندما يقدم النظام أفضل اقتراح، لا يستطيع أن يكون مسؤولًا أكاديميًا أو أخلاقيًا عن استخدامه، ومن هنا تظل الآلة «فاعلًا وسيطًا خوارزميًا» بينما يبقى الإنسان «فاعلًا تأويليًا مسؤولًا». وهذه الثنائية لا تعني أن الطرف التقني بلا تأثير، بل تمنع الخلط بين قوة التأثير وموقع المسؤولية.

ويتيح هذا التحديد بناء نموذج للتأويل المشترك يقوم على التكامل المعرفي غير المتماثل :يملك النظام اتساعًا وسرعة في التوليد والاسترجاع والمقارنة، ويملك الإنسان الخبرة والقصد والحكم والمسؤولية، ولا تكون أفضل علاقة بينهما في محاولة جعل كل طرف شبيهًا بالآخر، بل في توزيع الوظائف بما يستثمر الاختلاف ويحافظ على السيادة التأويلية.

من القراءة الحوارية إلى المعنى الهجين

تكشف المباحث السابقة أن الحوار مع الذكاء الاصطناعي لا يضيف «صوتًا» آخر إلى القراءة فحسب، بل يعيد تنظيم العلاقة بين السؤال والجواب والتفسير، لأن القارئ يستطيع أن يختبر فرضية ثم يحصل على بدائل ثم يعود إلى النص، وبذلك يصبح المعنى النهائي نتاج مسار متعدد الطبقات. ومن هنا يقترح هذا الكتاب مفهوم »**المعنى الهجين**«، لا للدلالة على معنى تنتجه الآلة والإنسان بنسبة متساوية، بل على معنى بشري نهائي دخلت في مسار بنائه موارد واقتراحات توليدية غير بشرية، بحيث لا يمكن فهم طريقة الوصول إليه إذا تجاهلنا الوسيط الذي شارك في إنتاج بعض الفرضيات.

ولا يظهر المعنى الهجين بمجرد استخدام الذكاء الاصطناعي؛ فإذا طلب القارئ معنى كلمة ثم تابع القراءة، فقد استخدم أداة معززة من دون أن يتغير بناء التأويل بعمق، أما إذا أجرى حوارًا طويلًا غير من خلاله فرضيته حول النص، فإن المخرج التقني أصبح جزءًا من الجينالوجيا التي أدت إلى المعنى. ومن هنا يمكن الحديث عن درجات **لهجنة المعنى** تتناسب مع عمق دخول النظام في العمليات التفسيرية.

ويصبح من الضروري، خصوصًا في البحث الأكاديمي، أن يستطيع القارئ إعادة بناء هذه الجينالوجيا، فيعرف ما الذي جاء من قراءته الأولى، وما الذي اقترحه النظام، وما الذي وجده في مرجع خارجي، وما الذي رفضه، لأن غياب هذا التمييز يمكن أن يؤدي إلى فقدان الوعي بمصدر الأفكار. وهذه القدرة هي شكل من الشفافية التأويلية الذاتية التي ينبغي أن تصاحب الذات القارئة الموزعة.

ويمكن تمثيل دورة المعنى الهجين في الصيغة التالية:

النص ← قراءة بشرية أولية ← سؤال قرائي ← اقتراح توليدي ← اعتراض أو مقارنة ← عودة إلى النص ← تحقق سياقي ← إعادة صياغة السؤال ← اقتراح جديد ← حكم بشري ← معنى هجين.

ولا يعني وجود النظام في هذه السلسلة أن جميع مراحلها يجب أن تحدث دائمًا، وإنما يقدم النموذج طريقة لتحليل الموضع الذي تدخل فيه التقنية. وإذا غابت القراءة البشرية الأولية والعودة إلى النص والتحقق، يمكن أن تنقلب الدورة إلى:

النص ← سؤال مباشر إلى الآلة ← جواب ← تبنٍّ بشري

وهي الصورة التي يصفها الكتاب بوصفها تلقينًا خوارزميًا أكثر منها تأويلًا هجينًا، لأن النظام ينتج الإطار ويقبل الإنسان النتيجة دون المرور بالاحتكاك النصي الضروري.

ومن هنا يمكن وضع الفرق بين التأويل الهجين النقدي والتلقين الخوارزمي في طبيعة الحركة لا في وجود الأداة؛ ففي الأول تتحرك القراءة ذهابًا وإيابًا بين الإنسان والنظام والنص، بينما تسير في الثاني في اتجاه واحد من النظام إلى المستخدم. ويصبح تعدد الحركة علامة على بقاء الفاعلية البشرية.

القراءة الحوارية وإعادة تعريف «الشريك التأويلي«

يسمح هذا الفصل بتحديد أدق لعبارة «الشريك التأويلي الوظيفي» التي استخدمت في الفصول السابقة. فالشراكة لا تعني أن النظام يملك ذاتًا قارئة، وإنما تعني أن مخرجاته تستطيع أن تغير الاتجاه الذي يسلكه التأويل، وأن القارئ يستطيع بدوره تغيير المخرج عبر السؤال والسياق، وهو ما ينتج علاقة تكرارية من التأثير المتبادل على مستوى الوظائف. ويكون هذا التأثير كافيًا لكي يصبح النظام عنصرًا داخل نموذج القراءة، لكنه غير كاف لمساواته بالشريك الإنساني.

وتصبح الشراكة أكثر نضجًا عندما يعمل النظام بوصفه مولدًا للاختلاف لا آلة لتأكيد ما يعتقده القارئ؛ فالقارئ يستطيع أن يطلب منه إظهار ثغرات تفسيره أو بناء قراءة تناقضه أو اقتراح أدلة لم ينتبه إليها، وبذلك يصبح الحوار وسيلة لمقاومة الانغلاق بدل تعزيزه. وهذه الوظيفة تلتقي مع الحوارية عند باختين من زاوية أن المعنى يزداد غنى عندما لا يختزل في صوت واحد [2]، مع الاحتفاظ بالفارق الجوهري بين الصوت الإنساني التاريخي والمخرج الحسابي.

ويظهر، في المقابل، خطر المسايرة التوليدية حين يميل النظام إلى اتباع افتراضات المستخدم وتطويرها بدل مقاومتها، ولذلك يحتاج القارئ إلى أن يصمم الحوار بحيث يطلب الاعتراض ولا يكتفي بالتأييد. ومن هنا يمكن القول إن هندسة السؤال القرائي ليست مجرد وسيلة لتحسين جودة الجواب، بل وسيلة لبناء مسافة نقدية داخل الحوار.

ويؤدي ذلك إلى إعادة صياغة مفهوم الكفاية الحوارية الخوارزمية في أربعة أبعاد مترابطة: القدرة على طرح السؤال، والقدرة على تغيير السؤال، والقدرة على الاعتراض على الجواب، والقدرة على إنهاء الحوار والعودة إلى النص. ويعد البعد الرابع بالغ الأهمية، لأن المحادثة تستطيع نظريًا أن تستمر بلا نهاية، بينما تحتاج القراءة في لحظة ما إلى أن تتوقف عن طلب الاقتراحات لكي يبني القارئ موقفه.

ومن هنا يصبح الانسحاب من الحوار كفاية لا تقل أهمية عن الدخول إليه؛ فالقارئ الذي لا يستطيع التوقف عن استدعاء إجابات جديدة قد يتحول من قارئ إلى مدير لسلسلة توليد، بينما يحتاج التأويل إلى لحظة يتحمل فيها الإنسان وحده مسؤولية الحكم.

خاتمة الفصل الحادي عشر

أظهر هذا الفصل أن الذكاء الاصطناعي التوليدي يضيف إلى تاريخ القراءة إمكانًا جديدًا لا يتمثل في الحصول على المعلومة أو الشرح فقط، بل في تحويل بعض مراحل القراءة إلى حوار يتغير داخله السؤال والجواب بصورة متكررة، وهو ما يجعل «القراءة الحوارية» نمطًا مميزًا من أنماط القارئ الهجين. وقد سمحت التأويلية الفلسفية عند غادامير بإبراز المكانة المركزية للسؤال والحوار في الفهم [1]، بينما قدمت حوارية باختين خلفية لفهم قيمة تعدد الأصوات والمواقف [2]، وأعادت نظريات إيزر وإيكو تثبيت حقيقة أن القارئ فاعل في إنتاج المعنى لكن نشاطه يظل في علاقة مع النص وحدوده [3 .][4][

وقد كشف تحليل هندسة السؤال القرائي أن المحفز ليس مجرد أمر تقني محايد، بل يحمل افتراضات القارئ ويحدد جانبًا من المجال الذي سيولد فيه النظام جوابه، وأن أبحاث المحفزات تثبت حساسية أداء النماذج لأنواع التعليمات وصياغتها وسياقاتها، كما تبين أن المستخدمين غير المتخصصين قد يجدون صعوبة في بناء استراتيجيات مستقرة للتوجيه [5][6]. ومن هنا أصبح «السؤال القرائي المعزز» جزءًا من كفاية القراءة، لأنه يسمح بتحويل الحوار من طلب إجابة إلى اختبار فرضيات .

وأدى ذلك إلى تأسيس مفهوم «التأويل التوليدي» بوصفه ممارسة تستخدم فيها مخرجات النظام لتوسيع أو نقد الاحتمالات التأويلية قبل إخضاعها للفحص البشري والنصي والسياقي، مع التمييز بين التوليد الاستكشافي الذي يأتي داخل قراءة بشرية قائمة والتوليد الاستبدالي الذي يحل محلها. وقد ظهر أن القيمة الأساسية للنظام لا تكمن في إنتاج «المعنى الصحيح»، بل في قدرته على توسيع مجال الفرضيات، وهو ما يجعل تعدد الزوايا النقدية مفيدًا بشرط ألا تتحول المدارس النظرية إلى قوالب لغوية تطبق آليًا من دون فهم لمفاهيمها.

كما أوضح الفصل أن القراءة المقارنة المعززة تستطيع أن تستفيد من السرعة والاتساع الحسابيين في تنظيم العلاقات بين المدارس والنصوص والثقافات، لكنها تحتاج إلى التفريق بين التشابه والعلاقة التاريخية، وبين المقارنة المولدة والمقارنة المثبتة، وهو ما يعيد أهمية التناص والعلاقات النصية عند جينيت [8]، وإمكان توسيع نطاق المقارنة الذي ارتبط بمشروع القراءة البعيدة [9]. ولا تصبح المقارنة العابرة للثقافات أكثر دقة بمجرد إدخال عدد أكبر من المواد، بل تحتاج إلى حساسية أعلى للسياق وللتفاوت بين تمثيل اللغات والثقافات.

وأظهر مبحث الهوامش الاصطناعية أن الحاشية، التي كانت تاريخيًا مساحة بين القراءة والكتابة، تستطيع في البيئة التوليدية أن تصبح دينامية ومخصصة، فتشرح وتستدعي وتربط وتتغير مع تطور القراءة، وهي وظيفة تتقاطع مع تصور كالير وغارسيا للتعليق بوصفه ممارسة تجمع القراءة والتفكير والاتصال [10]. غير أن مرونة الهامش التوليدي تخلق مخاطر تضخمه وتحوله إلى طبقة تفسيرية تحجب المتن، ولذلك أصبح من الضروري أن يتعلم القارئ إدارة مقدار المساعدة وتوقيتها .

أما الانتقال من التفسير إلى «التأويل المشترك» فقد فرض تحديدًا أكثر دقة للعلاقة بين الإنسان والآلة، إذ خلص الفصل إلى أن المشاركة ممكنة وظيفيًا من خلال توليد الفرضيات وتنظيم المقارنات واستدعاء السياقات وإنتاج الاعتراضات، لكنها لا تعني مشاركة وجودية مساوية للإنسان، لأن النظام لا يمتلك تجربة معيشة ولا يتحمل مسؤولية أخلاقية عن الحكم، كما أن مخرجاته تظل معرضة للهلوسة وعدم الاتساق مع المصادر [11][12]. ومن هنا يبقى الإنسان الفاعل التأويلي المسؤول، بينما تؤدي الآلة دور الفاعل الوسيطي الخوارزمي .

وتقود هذه الحدود إلى النموذج الذي يقترحه الكتاب تحت اسم »التكامل المعرفي غير المتماثل«؛ فالإنسان والآلة يستطيعان أن يساهما في العملية نفسها من دون أن يساهما بالطريقة نفسها أو يتحملا المسؤولية نفسها، وتكون

قوة العلاقة في اختلاف القدرات لا في إلغائها. يستطيع النظام توليد عشرة احتمالات بسرعة، لكن القارئ هو الذي يختبرها داخل النص؛ يستطيع استرجاع سياقات واسعة، لكن الإنسان هو الذي يقرر صلاحيتها؛ يستطيع محاكاة خطاب نقدي، لكن القارئ هو الذي ينبغي أن يعرف المدرسة والمفهوم بما يسمح له بتقييم الاستخدام.

ومن مجموع هذه العناصر يمكن صياغة التعريف المركزي لهذا الفصل على النحو الآتي :القراءة الحوارية الهجينة هي ممارسة يتفاعل فيها القارئ البشري مع نظام توليدي عبر سلسلة من الأسئلة والإجابات والمراجعات بهدف توسيع الفهم أو اختبار الفرضيات، على أن يظل النص مرجعًا للتحقق، والسياق إطارًا للمراجعة، والإنسان صاحب المسؤولية عن الحكم التأويلي النهائي.

ويمكن تمثيل بنيتها بالصيغة التي ستظل حاضرة في الفصول اللاحقة:

الآلة تقترح، والقارئ يختبر، والنص يحكم، والسياق يراجع.

أما «التأويل المشترك» الذي ينتج عنها فلا ينبغي تصوره علاقة مناصفة، بل عملية يمكن وصفها بصورة أدق على النحو الآتي:

اقتراح خوارزمي ← فحص بشري ← تحقق نصي ← مراجعة سياقية ← تأويل بشري موسع.

وعند هذه النقطة تكتمل النقلة من الذكاء الاصطناعي مساعدًا للقارئ إلى الذكاء الاصطناعي شريكًا وظيفيًا في بعض مراحل التأويل، لكن هذه النقلة تكشف في الوقت نفسه مستوى جديدًا من المخاطر؛ فكلما اقترب النظام من إنتاج المعنى ازدادت آثار الهلوسة والتحيز والاعتماد المعرفي وتوحيد القراءة والخصوصية، وهو ما يجعل الفصل التالي، »مخاطر القراءة بالذكاء الاصطناعي وأخلاقياتها«، امتدادًا ضروريًا لهذا الفصل، لأن السؤال لم يعد فقط عما تستطيع الآلة إضافته إلى القراءة، بل عما يمكن أن يفقده القارئ عندما تصبح هذه الإضافة جزءًا دائمًا من طريقته في فهم النصوص.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Gadamer, Hans-Georg.** *Truth and Method*. Revised 2nd ed. Translated by Joel Weinsheimer and Donald G. Marshall. London/New York: Bloomsbury Academic, 2013.

يمثل مرجعًا مؤسسًا في التأويلية الفلسفية، ويُستفاد منه في هذا الفصل خصوصًا في النظر إلى الفهم من خلال بنية السؤال والجواب والحوار التاريخي بين القارئ وموضوع التأويل، مع التأكيد أن نقل هذا المنظور إلى التفاعل مع الذكاء الاصطناعي يتم بصورة إجرائية لا عبر مساواة النظام بمحاور بشري. وتثبت بيانات Bloomsbury **و** WorldCat**الطبعة الإنجليزية المنقحة وترجمتها**(Bloomsbury Publishing) .

[2] **Bakhtin, M. M.** *The Dialogic Imagination: Four Essays*. Edited by Michael Holquist. Translated by Caryl Emerson and Michael Holquist. Austin: University of Texas Press, 1981/1982.

يقدم المرجع الأساس النظري للحوارية والتعدد الصوتي وعلاقات الخطابات بعضها ببعض، ويُستفاد منه في هذا الفصل في بناء فكرة تعدد الزوايا التأويلية دون الادعاء بأن المخرج الآلي صوت بشري بالمعنى الباختيني نفسه. وتورد University of Texas Press **النسخة الإنجليزية المطبوعة ابتداءً من يناير** 1982(University of Texas Press) .

[3] **Iser, Wolfgang.** *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.

مرجع أساسي في فهم القراءة بوصفها نشاطًا يحقق إمكانات النص ويبني العلاقات بين أجزائه، ويُستفاد منه في هذا الفصل لبيان أن التأويل التوليدي يدخل إلى مجال كان يقوم أصلًا على فاعلية القارئ وملء مناطق عدم التحديد، لا ليؤسس فاعلية القارئ من الصفر. وتثبت البيانات الببليوغرافية إصدار 1978**، مع طبعة ورقية لاحقة سنة** 1980(Google Books) .

[4] **Eco, Umberto.** *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts*. Bloomington: Indiana University Press, 1979.

يُستفاد منه في الحفاظ على التوازن بين انفتاح النص وتعاون القارئ وبين

الحدود التي تجعل بعض التأويلات أكثر قابلية للدفاع عنها من غيرها، وهو مبدأ أساسي عند تقييم القراءات التي تستطيع الأنظمة التوليدية إنتاجها بأعداد كبيرة(Indiana University Press) .

[5] Qiao, Shuofei; Ou, Yixin; Zhang, Ningyu; Chen, Xiang; Yao, Yunzhi; Deng, Shumin; Tan, Chuanqi; Huang, Fei & Chen, Huajun. "Reasoning with Language Model Prompting: A Survey." In *Proceedings of the 61st Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics*, 2023, pp. 5368–5393. DOI: 10.18653/v1/2023.acl-long.294.

يقدم مسحًا لأبحاث استخدام المحفزات في مهام الاستدلال بالنماذج اللغوية، ويُستفاد منه في بيان الدور الذي تؤديه صياغة التعليمات والسياق في نوع المخرجات، مع عدم نقل مفهوم «الاستدلال» الحاسوبي مباشرة إلى التأويل الإنساني(ACL Anthology) .

[6] Zamfirescu-Pereira, J. D.; Wong, Richmond Y.; Hartmann, Bjoern & Yang, Qian. "Why Johnny Can't Prompt: How Non-AI Experts Try (and Fail) to Design LLM Prompts." In *Proceedings of the 2023 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems (CHI '23)*, 2023, Article 437, pp. 1–21. DOI: 10.1145/3544548.3581388.

دراسة مهمة في صعوبات تصميم المحفزات لدى غير المتخصصين، وتستفاد منها في تأسيس مفهوم «الكفاية الحوارية الخوارزمية» وفي التأكيد أن استخدام اللغة الطبيعية لا يجعل توجيه النماذج عملية بديهية خالية من الحساسية للصياغة والسياق(ResearchGate) .

[7] Deng, Yang; Liao, Lizi; Chen, Liang; Wang, Hongru; Lei, Wenqiang & Chua, Tat-Seng. "Prompting and Evaluating Large Language Models for Proactive Dialogues: Clarification, Target-guided, and Non-collaboration." In *Findings of the Association for Computational Linguistics: EMNLP 2023*, pp. 10602–10621.

يفيد المرجع في فهم النظم اللغوية الكبيرة بوصفها قادرة على المشاركة في أنماط حوارية تتجاوز الرد المنفرد، بما في ذلك التوضيح والحوار الموجه

نحو هدف، مع بقاء تقييم جودة الحوار وحدوده موضوعًا بحثيًا مستقلًا .
(ACL Anthology)

[8] Genette, Gérard. *Palimpsests: Literature in the Second Degree*. Translated by Channa Newman and Claude Doubinsky. Lincoln: University of Nebraska Press, 1997.
مرجع مركزي في تحليل العلاقات بين النصوص والتحويل والمحاكاة والتعليق والإحالة، ويُستفاد منه في ضبط القراءة المقارنة المعززة ومنع الانتقال الآلي من التشابه الذي يولده النظام إلى ادعاء وجود تناص أو تأثير تاريخي مثبت(University of Nebraska Press) .

[9] Moretti, Franco. *Distant Reading*. London/New York: Verso, 2013.
يُستفاد منه في مناقشة توسيع مجال المقارنة الأدبية إلى مدونات كبيرة وأنماط لا يمكن للقارئ الفردي متابعتها كاملة بالقراءة القريبة، مع التأكيد أن التوليد الحواري لا يساوي في ذاته منهج القراءة البعيدة القائم على مدونات وأدوات وإجراءات بحثية واضحة.

[10] Kalir, Remi H. & Garcia, Antero. *Annotation*. Cambridge, MA: MIT Press, 2021.
يقدم التعليق بوصفه ممارسة تجمع القراءة والتفكير والكتابة والاتصال، ويشكل الأساس الذي ينطلق منه هذا الفصل في تطوير مفهومي «الهامش الاصطناعي» و«الحاشية الدينامية» بوصفهما امتدادين توليديين للحاشية الرقمية(MIT Press) .

[11] Ji, Ziwei; Lee, Nayeon; Frieske, Rita; Yu, Tiezheng; Su, Dan; Xu, Yan; Ishii, Etsuko; Bang, Ye Jin; Madotto, Andrea & Fung, Pascale. “Survey of Hallucination in Natural Language Generation.” *ACM Computing Surveys*, Vol. 55, No. 12, 2023, Article 248, pp. 1–38. DOI: 10.1145/3571730.
مرجع شامل لظاهرة الهلوسة في توليد اللغة الطبيعية ومشكلات الاتساق والوفاء والواقعية، ويُستفاد منه في تحديد الحدود المعرفية لمساهمة النظام في التأويل والهوامش والاستعادة السياقية(doi.org) .

[12] Bender, Emily M.; Gebru, Timnit; McMillan-Major, Angelina & Shmitchell, Shmargaret. "On the Dangers of Stochastic Parrots: Can Language Models Be Too Big?" In *Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (FAccT '21)*, 2021.

مرجع نقدي في مشكلات النماذج اللغوية الكبيرة وبياناتها وتحميل طلاقتها أكثر مما تسمح به طبيعتها التقنية، ويُستفاد منه في الحفاظ على التمييز بين إنتاج خطاب عن المعنى وبين امتلاك تجربة بشرية للمعنى.

[13] Lewis, Patrick; Perez, Ethan; Piktus, Aleksandra; Petroni, Fabio; Karpukhin, Vladimir; Goyal, Naman; Küttler, Heinrich; Lewis, Mike; Yih, Wen-tau; Rocktäschel, Tim; Riedel, Sebastian & Kiela, Douwe. "Retrieval-Augmented Generation for Knowledge-Intensive NLP Tasks." In *Advances in Neural Information Processing Systems*, Vol. 33, 2020, pp. 9459–9474.

يُستفاد منه في فهم إمكان ربط المخرجات التوليدية بذاكرة خارجية قابلة للاسترجاع، وهو ما يهم القراءة الحوارية عند طلب السياقات والمصادر، مع بقاء ضرورة التحقق من العلاقة بين ما استرجع وما صيغ في الجواب.

[14] Long, Duri & Magerko, Brian. "What Is AI Literacy? Competencies and Design Considerations." In *Proceedings of the 2020 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems*, 2020, pp. 1–16. DOI: 10.1145/3313831.3376727.

يساعد المرجع في وضع «الكفاية الحوارية الخوارزمية» ضمن إطار أوسع لمحو الأمية في الذكاء الاصطناعي، حيث يحتاج المستخدم إلى فهم إمكانات الأنظمة وحدودها والتفاعل معها وتقييم مخرجاتها نقديًا.

[15] Sundar, S. Shyam. "Rise of Machine Agency: A Framework for Studying the Psychology of Human–AI Interaction (HAII)." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 25, No. 1, 2020, pp. 74–88. DOI: 10.1093/jcmc/zmz026.

يفيد في تحليل اتساع «الفاعلية الآلية» في التفاعل البشري ـ الآلي، ويُستفاد منه في هذا الفصل لتفسير انتقال النظام من أداة تستجيب إلى محاور وظيفي

يشارك في توجيه مسار التفاعل، مع الاحتفاظ بالفارق بين هذه الفاعلية الوظيفية والفاعلية الإنسانية.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل داخل أربعة مستويات مترابطة؛ إذ توفر أعمال غادامير وباختين وإيزر وإيكو [1–4] الأساس التأويلي والأدبي لفهم السؤال والحوار وتعدد الأصوات ودور القارئ وحدود التأويل، بينما تقدم دراسات المحفزات والتفاعل الحواري عند تشياو وزملائه وزامفيرسكو-بيريرا وزملائه ودينغ وزملائه [5–7] الأساس التقني والتفاعلي لفهم العلاقة بين صياغة السؤال وطبيعة المخرج ولتحديد ما يحتاج إليه القارئ من كفاية في إدارة الحوار مع الأنظمة اللغوية. وتتيح أعمال جينيت وموريتي وكالير وغارسيا [8–10] نقل هذا الحوار إلى المقارنة والتناص والهوامش والحواشي الدينامية، في حين تضع أعمال جي وزملائه وبندر وزميلاتها ولويس وزملائه ولونغ وماغيركو وسوندار [11–15] الحدود المتعلقة بالهلوسة والاسترجاع ومحو الأمية في الذكاء الاصطناعي والفاعلية الآلية.

ومن تقاطع هذه المرجعيات لا يستخلص الكتاب أن الذكاء الاصطناعي أصبح «قارئًا» بالمعنى الإنساني، بل يؤسس تصورًا أكثر دقة يمكن تلخيصه في أن النظام التوليدي يستطيع أن يصبح شريكًا تأويليًا وظيفيًا عندما تدخل اقتراحاته في دورة القراءة ويخضعها الإنسان للفحص والعودة إلى النص، لكن هذه المشاركة تظل غير متماثلة لأن الآلة تولد الاحتمالات بينما يحتفظ القارئ بالتجربة والحكم والمسؤولية .وبذلك يصبح الفصل الحادي عشر حلقة مركزية في الانتقال من القراءة المعززة إلى نظرية التلقي الهجين، لأنه يبين أن السؤال لم يعد فقط وسيلة يتوجه بها القارئ إلى النص، بل أصبح كذلك أداة يوجه بها وسيطًا توليديًا يمكن أن يعيد إليه النص في صور متعددة، وهو ما يجعل إحدى أهم كفايات القارئ المعاصر القدرة على ألا يكتفي بقراءة الجواب، بل أن يقرأ أيضًا السؤال الذي صنعه، والآلة التي ولدته، والافتراضات التي تحكم العلاقة بينهما.

الفصل الثاني عشر

مخاطر القراءة بالذكاء الاصطناعي وأخلاقياتها

إذا كان الفصلان السابقان قد أظهرا الإمكانات التي يفتحها الذكاء الاصطناعي أمام القارئ، من التلخيص والترجمة والشرح والاستعادة السياقية إلى الحوار التوليدي وإنتاج الفرضيات التأويلية والهوامش الدينامية، فإن اكتمال نظرية القارئ الهجين يقتضي الانتقال من سؤال القدرة إلى سؤال المسؤولية، لأن الأداة التي تستطيع أن توسع مجال القراءة تستطيع، في الوقت نفسه، أن تغير شروط الثقة والاعتماد والخصوصية والاستقلال التي تقوم عليها التجربة القرائية. ولا يتعلق الأمر هنا ببناء خطاب تخويفي يضع التقنية في مواجهة الثقافة أو الإنسان في مواجهة الآلة، كما لا يتعلق بالدفاع عن وهم قراءة سابقة كانت نقية من كل وساطة، فقد أوضحت الفصول السابقة أن الكتاب نفسه وسيط، وأن الناقد والمترجم والمكتبة والمنصة ومحرك البحث جميعًا شاركوا تاريخيًا في تشكيل الوصول إلى النص وفهمه، وإنما تكمن خصوصية الذكاء الاصطناعي التوليدي في أنه يجمع داخل واجهة واحدة وظائف متعددة كان القارئ يوزعها سابقًا على مؤسسات ومراجع وأشخاص مختلفين، ثم يقدم مخرجاته في لغة حوارية مباشرة قد تجعل الوساطة أقل ظهورًا كلما أصبحت أكثر قربًا من صوت القارئ وأسئلته.

ومن هنا تصبح أخلاقيات القراءة بالذكاء الاصطناعي جزءًا من نظرية القراءة نفسها، لا مبحثًا خارجيًا يضاف إليها بعد اكتمال التحليل، لأن كل قرار بشأن ما نصدقه، وما نفوضه إلى النظام، وما نسمح له بجمعه عن سلوكنا، وما نعتبره تفسيرًا مشروعًا، يعيد تحديد صورة القارئ الذي يدافع عنه هذا الكتاب. فإذا كانت القراءة الهجينة تقوم على توزيع بعض الوظائف المعرفية بين الإنسان والوسيط، فإن الأخلاق تبدأ من السؤال عن كيفية توزيع هذه الوظائف، ومن يملك سلطة مراجعتها، ومن يتحمل مسؤولية نتائجها، وأي وظائف ينبغي أن تظل تحت سيطرة بشرية أقوى كلما

اقتربت من الحكم والتأويل .ولهذا لا يمكن التعامل مع الأخلاق بوصفها مجموعة محظورات جامدة، بل باعتبارها مبادئ لإدارة العلاقة بين توسع القدرة التقنية والحفاظ على استقلال القارئ.

وتنبع المخاطر الأساسية من مفارقة تتكرر في جميع مباحث هذا الفصل: الميزة التي تجعل الذكاء الاصطناعي مفيداً تستطيع أن تصبح، إذا غابت المراجعة، مصدراً للمشكلة نفسها؛ فالطلاقة التي تجعل الشرح سهلًا تستطيع أن تخفي المعلومة المختلقة، والسرعة التي تقلل العبء تستطيع أن تشجع التفويض المفرط، والقدرة على التعلم من بيانات واسعة تستطيع أن تعيد إنتاج تحيزاتها، والتخصيص يستطيع أن يتحول إلى تضييق للمجال، والاستجابة السريعة إلى أسئلة القارئ تستطيع أن تنتج أجوبة متشابهة تعيد تشكيل الاختلاف التأويلي، بينما تسمح البيئة الرقمية بتقديم خدمات أكثر ملاءمة في الوقت الذي تجعل فيه آثار القراءة قابلة للجمع والتحليل بدرجة لم تعرفها القراءة الورقية.

ومن هنا سيستخدم الفصل مفهوم »أخلاقيات القراءة المعززة «للدلالة على منظومة من المبادئ التي تضبط استخدام الأدوات التوليدية أثناء القراءة، بحيث تحافظ على أربعة شروط مترابطة: الموثوقية بقدر ما تسمح به طبيعة المهمة، ووعي القارئ بحدود الوسيط، وحماية استقلاله وخصوصيته، واستمرار المسؤولية البشرية عن الحكم النهائي. ولا تعني هذه الأخلاقيات أن كل قارئ مطالب بأن يصبح خبيراً في علوم الحاسوب، وإنما أن القارئ المعاصر يحتاج إلى ثقافة جديدة تجعله قادراً على استعمال النظام من دون أن يخلط بين المساعدة والسلطة، وبين السهولة والحقيقة، وبين التخصيص والمعرفة، وبين التوليد والتأويل الإنساني.

ـ المبحث الأول: الهلوسة المعرفية

ـ المعلومة المختلقة

يُستعمل مصطلح «الهلوسة» في أدبيات توليد اللغة الطبيعية للإشارة إلى الحالات التي ينتج فيها النظام محتوى غير صحيح أو غير مدعوم بالمصدر أو غير متسق مع المادة التي يفترض أن يستند إليها، وقد قدم جي وزملاؤه مسحًا واسعًا لهذه الظاهرة مبينين أن ارتفاع الطلاقة والاتساق اللغوي في أنظمة التوليد يمكن أن يترافق مع إنتاج معلومات مختلقة أو غير وفية للمصدر، وهو ما يجعل الواقعية والوفاء تحديين مستقلين عن سلامة اللغة [1]. ويقترح هذا الكتاب توسيع الاستخدام، بصورة إجرائية ومحددة، إلى مفهوم »**الهلوسة المعرفية في القراءة** «للدلالة على اللحظة التي تدخل فيها المعلومة المختلقة أو العلاقة غير المسندة التي يولدها النظام إلى بناء القارئ لفهم النص، فلا تبقى خطأ تقنيًا في المخرج، بل تتحول إلى عنصر داخل معرفة الإنسان بالعمل.

وتكمن خطورة هذا الانتقال في أن القراءة بطبيعتها عملية تراكمية؛ فإذا أخطأ النظام في تاريخ نشر كتاب أو نسب قولًا إلى شخصية لم تقله، يمكن تصحيح الخطأ إذا اكتشف في موضعه، أما إذا أصبح هذا الخطأ مقدمة لتفسير لاحق، فقد تتسع آثاره عبر سلسلة من الاستنتاجات. فإذا نسب النظام إلى الكاتب انتماءً فكريًا غير صحيح ثم بنى عليه تفسيرًا للشخصيات، فلن يبقى الخطأ في المعلومة البيوغرافية وحدها، بل سينتقل إلى القراءة النقدية كلها، وهنا تتحول الهلوسة من خطأ واقعي إلى انحراف تأويلي متسلسل.

وقد أظهرت دراسة *TruthfulQA*، التي اختبرت نماذج لغوية على أسئلة صممت بحيث تغري بإعادة إنتاج اعتقادات بشرية خاطئة شائعة، أن النماذج التي دُرست استطاعت أن تولد أجوبة غير صحيحة تعكس مفاهيم متداولة في النصوص البشرية، وهو ما يوضح أن المشكلة لا تنشأ دائمًا من «اختراع» عشوائي، بل يمكن أن تنتج كذلك من إعادة توليد خطأ ثقافي واسع

الانتشار [2]. ولا ينبغي تعميم نتائج هذه الدراسة التاريخية على جميع النماذج الحالية، لأن الأنظمة تتغير بسرعة، لكنها تبقى ذات قيمة منهجية لأنها تكشف مبدأ أساسيًا :وفرة البيانات لا تعني أن المعرفة المستخلصة منها خالية من أخطاء البشر الذين أنتجوها .

ويظهر هذا الخطر بصورة أكثر تعقيدًا في القراءة الأدبية لأن بعض الادعاءات لا تقع بسهولة تحت ثنائية صحيح/خطأ، فإذا قال النظام إن صورة النافذة في رواية ما «ترمز إلى الحرية»، فإننا لا نواجه معلومة يمكن التحقق منها كما نتحقق من تاريخ أو اسم، وإنما اقتراحًا تأويليًا يحتاج إلى أدلة نصية. وهنا يجب التمييز بين الهلوسة الواقعية والتأويل الضعيف؛ فالأولى تنسب إلى النص أو التاريخ شيئًا غير موجود، أما الثاني فقد يكون احتمالًا ممكنًا لكنه غير مقنع أو غير كافٍ من حيث الدليل. ويعد هذا التمييز ضروريًا حتى لا يسمى كل اختلاف تأويلي «هلوسة»، لأن الأدب يقوم أصلًا على التعدد، لكن التعدد لا يبرر اختراع الاقتباسات أو الأحداث أو المصادر.

وتزداد المشكلة حين يولد النظام إحالة تبدو ببليوغرافية دقيقة، أو يقدم اقتباسًا بصياغة منسجمة مع أسلوب المؤلف، لأن القارئ قد يثق في التفاصيل الشكلية التي تشبه المرجع الصحيح، ولذلك ينبغي في البحث الأكاديمي اعتبار الإحالة المولدة غير المتحقق منها مجرد اقتراح للبحث لا مصدرًا صالحًا للاعتماد .ويمكن صياغة قاعدة صارمة في هذا المستوى: كل ما ينسبه النظام إلى نص أو مؤلف أو دراسة أو تاريخ ينبغي أن يعامل بصفته ادعاءً يحتاج إلى مصدر مستقل إذا كان سيؤدي وظيفة إثباتية.

ويتصل ذلك مباشرة بمبدأ العودة إلى النص الذي تأسس في الفصول السابقة؛ فإذا قال النظام إن شخصية تكرر عبارة معينة، يجب العودة إلى العمل، وإذا اقترح علاقة تناصية ينبغي البحث عن النص السابق، وإذا نسب مفهومًا إلى ناقد وجب الرجوع إلى المرجع النقدي. ومن هنا لا يكون العلاج الأخلاقي للهلوسة في مطالبة القارئ بأن يشك في كل شيء بصورة تعطل القراءة، وإنما في بناء نظام متدرج للثقة تتناسب فيه قوة التحقق مع أهمية الادعاء،

بحيث لا تعامل المعلومة الثانوية العابرة بالطريقة نفسها التي يعامل بها اقتباس ستبنى عليه حجة أكاديمية.

ـ سلطة الجواب الواثق

لا تتحدد مشكلة المعلومة المختلقة بمحتواها فقط، بل بالطريقة التي تصل بها إلى القارئ، لأن الأنظمة التوليدية تستطيع أن تقدم الخطأ في لغة منظمة وخالية من التردد، فتبدو الصياغة أحيانًا أكثر يقينًا من درجة المعرفة التي تستحقها. ومن هنا يمكن الحديث عن «**سلطة الجواب الواثق**»، وهي سلطة بلاغية تنشأ عندما يقرأ الإنسان نصًا متماسكًا، مرتبًا، مباشرًا، فيستعير من جودة العرض حكمًا ضمنيًا على جودة المعرفة، مع أن الصفتين غير متلازمتين بالضرورة.

وقد نبهت بندر وجبرو وماكميلان-ماجور وشميتشل إلى مخاطر إسقاط الفهم والمعنى على النماذج اللغوية انطلاقًا من قدرتها على إنتاج لغة مقنعة، وإلى أن البيانات التي تتعلم منها هذه النماذج تحمل معها علاقات القوة والتحيز ومشكلات التمثيل [3]. ولا يعني هذا النقد أن المخرجات عديمة القيمة أو أن النظام لا يستطيع تقديم معلومات صحيحة، بل يحذر من **الانتقال غير المبرر من الطلاقة إلى السلطة المعرفية**، وهو الانتقال الذي يصبح أكثر خطورة داخل واجهة حوارية تستجيب مباشرة إلى القارئ بلغة تبدو شخصية ومتجاوبة .

ويزداد أثر الثقة حين يكون القارئ قليل المعرفة بالموضوع، لأن نقص المعرفة الذي دفعه إلى السؤال هو نفسه ما يجعله أقل قدرة على التحقق من الجواب، فتظهر مفارقة معرفية مهمة :**كلما كان الإنسان أكثر حاجة إلى المساعدة، كان في بعض الحالات أقل قدرة على تقييمها** .وإذا كان الخبير يستطيع ملاحظة أن تفسيرًا ما يخلط بين مفهومين، فقد يتلقى المبتدئ الصياغة نفسها باعتبارها درسًا، وهو ما يجعل المسؤولية لا تقع على القارئ وحده، بل تفتح كذلك سؤالًا عن تصميم الأنظمة وطريقة التعبير عن عدم اليقين ووضوح المصادر والحدود.

ومن هنا ينبغي للقارئ الهجين أن يتعلم فصل ثلاثة أبعاد قد تظهر مجتمعة في الجواب لكنها ليست واحدة :**ثقة الأسلوب، وثقة النظام الضمنية، وقوة الدليل** .فقد تكون الجملة قاطعة في لغتها بينما دليلها ضعيف، وقد يقدم النظام جوابًا مترددًا عن حقيقة صحيحة، ولذلك لا ينبغي أن تصبح النبرة معيارًا للحقيقة. ويكون التحول النقدي الأساسي عندما ينتقل القارئ من سؤال «هل يبدو هذا الجواب مقنعًا؟» إلى سؤال «ما الذي يسمح لي بالتحقق منه؟.«

وتظهر سلطة الجواب الواثق كذلك في التأويل؛ فحين يقول النظام «يرمز البحر هنا إلى الحرية»، قد تبدو العبارة مكتملة، بينما يكون الجواب الأكثر أمانة أدبيًا: «يمكن قراءة البحر بوصفه رمزًا للحرية إذا دعمت ذلك عناصر معينة في النص، لكن يمكن كذلك أن يؤدي وظائف أخرى». ومن هنا لا يتعلق البعد الأخلاقي بالدقة الواقعية وحدها، بل بدرجة **التناسب بين يقين الصياغة وطبيعة المعرفة**؛ فالتأويل ينبغي أن يحتفظ بمساحة الاحتمال حين يكون النص مفتوحًا، والواقعة ينبغي أن تستند إلى مصدر حين تكون قابلة للتحقق.

وهكذا يصبح أحد مبادئ القراءة المعززة هو مقاومة «هيبة الصياغة»؛ أي ألا يمنح القارئ الخطاب المنظم سلطة لمجرد أنه أسرع وأكثر تماسكًا من عملية بحثه الشخصية، وهو ما يمهد للمخاطرة الثانية، لأن الثقة المتكررة في هذه السلطة تستطيع مع الوقت أن تتحول من قبول جواب واحد إلى إعادة تنظيم الطريقة التي يوزع بها القارئ مجهوده المعرفي كله.

ـ المبحث الثاني: الاعتماد المعرفي

ـ تراجع المجهود التأويلي

سبق للفصل السادس أن ميز بين توزيع الوظائف المعرفية والتفويض المعرفي، وأن أوضح، اعتمادًا على ريسكو وغيلبرت، أن الإنسان يستخدم أدوات خارجية لتقليل العبء الداخلي وأن هذا «التفريغ المعرفي» ظاهرة طبيعية لا تحمل قيمة سلبية في ذاتها [4]. ومن ثم لا ينبغي النظر إلى كل استعمال للذكاء الاصطناعي على أنه تراجع في التفكير، لأن تفويض وظيفة روتينية قد يحرر قدرات القارئ لمهمة أكثر أهمية، كما أن الباحث الذي يستخدم نظامًا لاسترجاع موضع معروف لا يصبح أقل استقلالًا لمجرد أنه لم يحفظ رقم الصفحة في ذاكرته. وتكمن المشكلة في نوع الوظيفة المفوضة وموقعها من غاية القراءة، لا في مجرد وجود التفويض .

فإذا كانت المهمة الأساسية للقارئ هي مقارنة خمسين وثيقة من أجل تحديد المواد التي تستحق دراسة معمقة، يمكن للتلخيص الأولي أن يكون عقلانيًا ، أما إذا كانت الغاية تدريب الطالب على استخراج البنية الحجاجية ثم قدم النظام هذه البنية كاملة قبل أن يحاول، فإن ما تم تفويضه ليس عملًا جانبيًا بل المهارة نفسها التي يراد بناؤها. ومن هنا يعود مفهوم »عتبة التفويض «الذي اقترحته الفصول السابقة، وهي النقطة التي تنتقل عندها التقنية من تخفيف العبء المحيط بالمهمة إلى أداء جوهرها بدل الإنسان.

وتتضح هذه العتبة بصورة أكثر حساسية في التأويل الأدبي، لأن جانبًا من قيمة القراءة يكمن في الجهد الذي يبذله القارئ لتتبع العلاقات والتردد بين الاحتمالات والعودة إلى المقاطع السابقة وتعديل أفقه، ولذلك لا يكون اختصار هذا الجهد دائمًا مكسبًا. فإذا طلب المستخدم تفسير كل استعارة بمجرد أن تواجهه، فقد يحصل على أجوبة كثيرة لكنه قد يخسر تدريجيًا الزمن اللازم لنشوء السؤال الشخصي، وهو الزمن الذي تتكون داخله القدرة على بناء الفرضية لا على اختيارها من قائمة جاهزة.

وقد قدمت دراسة منشورة في مؤتمر CHI سنة 2025، اعتمدت على 319 من العاملين في أعمال معرفية و936 مثالًا لاستخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي، نتائج تشير إلى أن ارتفاع الثقة في قدرة الذكاء الاصطناعي على إنجاز المهمة ارتبط بانخفاض الجهد المبلغ عنه في التفكير النقدي، بينما ارتبط ارتفاع ثقة المستخدم في قدرته الذاتية بزيادة التفكير النقدي، كما لاحظ الباحثون انتقالًا في طبيعة الجهد من جمع المعلومات وحل المشكلة إلى التحقق من المخرجات ودمجها والإشراف عليها [5]. ولا تثبت هذه الدراسة أن استخدام الذكاء الاصطناعي يؤدي حتمًا إلى ضمور معرفي طويل الأمد، لأنها تعتمد على تقارير المشاركين عن أعمالهم وفي سياق محدد، لكنها تقدم دليلًا حديثًا على أن توزيع الجهد يتغير بالفعل حين تدخل الأنظمة التوليدية إلى العمل المعرفي .

ويصلح هذا الاستنتاج للقراءة إذا استخدم بحذر، لأن القارئ الهجين قد يبذل جهدًا أقل في استرجاع المعلومات لكنه يبذل جهدًا أكبر في تقييمها، وقد يكتب تلخيصًا أقل لكنه يقارن أكثر، ولذلك لا ينبغي أن نقيس الاستقلال بعدد العمليات التي يؤديها الإنسان بنفسه. غير أن المشكلة تظهر عندما ينخفض **المجهود التأويلي النوعي نفسه**، أي حين يتوقف القارئ عن صياغة الفرضية والاعتراض واختبار الدليل لأنه تعلم أن السؤال المباشر يقدم له جوابًا مقبول الشكل بسرعة أكبر.

ومن هنا لا يمكن حل مسألة الاعتماد بشعار «لا تستخدم الذكاء الاصطناعي كثيرًا»، لأن الكثرة معيار ضعيف؛ فقد يستخدم الباحث النظام عشرات المرات في الاسترجاع ويبقى حكمه مستقلًا، بينما يستطيع طالب أن يعتمد عليه مرة واحدة في الوظيفة المركزية للمهمة. ويكون المعيار الأدق :**هل يظل القارئ قادرًا على القيام بالعمليات التي تمنحه أهلية الحكم على المخرج؟** فإذا كانت الإجابة سلبية، فإن التعزيز بدأ يقوض الأساس الذي يسمح بتقييم التعزيز نفسه.

ـ خطر الكسل الذهني

ينبغي استعمال عبارة «الكسل الذهني» بحذر حتى لا تتحول إلى حكم أخلاقي على المستخدم أو إلى حنين إلى أشكال عمل أكثر مشقة لمجرد أنها أبطأ، ولذلك يقترح هذا الكتاب فهمها بوصفها انخفاضًا مكتسبًا في الميل إلى ممارسة جهد معرفي كان ذا قيمة للمهمة لأن الأداة جعلت تجاوزه ممكنًا بصورة دائمة .فالمشكلة ليست أن الإنسان يبحث عن الكفاءة، لأن الحضارة التقنية كلها تقوم جزئيًا على تخفيف الأعمال، وإنما أن بعض أشكال الاحتكاك ليست نفايات معرفية بل شروطًا لاكتساب المهارة.

ويظهر هذا في الفرق بين استخدام القاموس لفهم كلمة وبين مطالبة النظام بإعادة كتابة كل فقرة صعبة؛ فالأول يزيل حاجزًا محدودًا، أما الثاني قد يجعل القارئ لا يتدرب على مواجهة التركيبات المعقدة، كما يظهر في الفرق بين طلب قائمة مراجع وبين طلب بناء الموقف النقدي كاملًا. ومن هنا تكون المخاطرة الأساسية تآكل الكفاية بسبب قلة استخدامها، لا بسبب وجود الأداة ذاته.

وقد تناولت أدبيات «تحيز الأتمتة» تاريخيًا ميل البشر إلى الاعتماد المفرط على أنظمة مؤتمتة في بعض ظروف اتخاذ القرار، بينما يقدم تحليل حديث لبحوث التعاون بين الإنسان والذكاء الاصطناعي مراجعة لـ35 دراسة محكمة نشرت بين 2015 و2025، ويبين أن الاعتماد الزائد يتأثر بعوامل متعددة، منها الثقة في النظام، ومستوى الخبرة، والعبء المعرفي، وطبيعة المهمة، ومدى قابلية الشرح للفهم [6]. وهذه النتائج مهمة لأنها تمنع اختزال الاعتماد في صفة شخصية مثل «الكسل»؛ فالاعتماد المفرط نتاج علاقة بين المستخدم والمهمة وتصميم النظام ودرجة الثقة، ولذلك ينبغي أن تعالج أخلاقياته في مستوى الفرد والتصميم معًا .

ويمكن في القراءة التمييز بين راحة منتجة وراحة استبدالية؛ فالراحة المنتجة تزيل عبئًا لا يشكل جزءًا مركزيًا من الهدف وتسمح للقارئ بالتفرغ للفهم، بينما الراحة الاستبدالية تزيل الصعوبة التي كان اجتيازها هو ما

يصنع الكفاية. فإذا كان النظام يترجم مصطلحًا لكي يستطيع القارئ متابعة حجة، فهو يخفف عائقًا، أما إذا أنتج الحجة والاعتراض عليها والخلاصة وأعفى المستخدم من تتبع أي منها، فقد نقل مركز النشاط من القراءة إلى استهلاك المخرج.

ومن هنا يقترح الكتاب مبدأ »**الحد الأدنى من الاحتكاك المنتج**«، أي أن القراءة المعززة ينبغي أن تحتفظ بقدر من الصعوبة يسمح للقارئ بأن يمارس الذاكرة والمقارنة والتفسير والشك. ولا يمكن تحديد هذا القدر خارج السياق؛ فالقارئ المبتدئ يحتاج إلى دعم أكبر، والمتخصص يستطيع تحمل صعوبة أعلى، لكن الهدف لا ينبغي أن يكون إزالة كل مقاومة من النص، لأن الأدب والفلسفة والفكر لا يصبحان بالضرورة أفضل كلما تحولا إلى إجابة سلسة.

ويصبح اختبار الاعتماد بسيطًا في صيغته وإن كان معقدًا في ممارسته :هل أستطيع تفسير النتيجة التي قبلتها؟ وهل أستطيع الاعتراض عليها؟ وهل أستطيع، إذا لزم الأمر، العودة إلى النص وبناء موقف من دون وجود الأداة؟ فإذا بقيت هذه القدرات حاضرة كان التفويض جزءًا من الهجنة الناضجة، أما إذا أصبحت الإجابة التوليدية الشرط الضروري لكل فهم، فإننا نقترب مما يمكن تسميته »**التبعية التأويلية**«، أي انتقال القارئ من الاستعانة بالنظام إلى عدم القدرة على بناء معنى دونه.

ـ المبحث الثالث: التحيز الخوارزمي

ـ تحيز البيانات

لا ينبغي فهم التحيز الخوارزمي بوصفه خطأ يمكن عزله دائمًا داخل سطر من الشفرة، لأن النظم اللغوية تتكون في علاقة مع مجموعات بيانات ضخمة وممارسات اختيار وتصنيف وأهداف تصميم، وتستطيع أن تعكس داخل مخرجاتها التفاوتات والصور النمطية وعلاقات القوة الموجودة في المواد التي تعلمت منها. وقد قدم بلودجيت وباروكاس وداومي ووالاش مراجعة نقدية لـ146 بحثًا حول «التحيز» في معالجة اللغة الطبيعية، وخلصوا إلى أن مفهوم التحيز ذاته يحتاج إلى تحديد معياري واضح يجيب عن أسئلة: ما السلوك الضار، ولمن يسبب الضرر، ولماذا، بدل التعامل معه بوصفه رقمًا تقنيًا يمكن قياسه من دون إطار اجتماعي [7]. وتكمن أهمية هذه المقاربة في أن القارئ الهجين لا يحتاج فقط إلى معرفة أن «البيانات قد تكون متحيزة»، بل إلى السؤال عن من تمثله البيانات، وأي لغات وخطابات ومؤسسات أكثر حضورًا فيها، وما الآثار التي تنتج من هذا التفاوت .

كما بين شينغ وتشانغ وناتاراجان وبنغ أن أنظمة توليد اللغة تستطيع إعادة إنتاج تحيزات اجتماعية ضارة، وأن مصادر هذه المشكلات لا تتعلق بالبيانات وحدها بل يمكن أن تتداخل معها تقنيات التوليد والاختيار نفسها [8]. ولا يعني ذلك أن كل جواب يحمل تحيزًا ظاهرًا، وإنما أن اللغة التي يقدم بها النظام تفسيرًا ثقافيًا لا تولد خارج التاريخ الاجتماعي للنصوص التي تعلم منها .

وتكتسب هذه القضية خصوصية داخل مشروع القارئ الهجين لأن الخطر لا يتعلق فقط بتمييز مباشر ضد فئة اجتماعية، بل كذلك بتفاوت الحضور المعرفي بين اللغات والتقاليد .فلو كانت بعض المدارس النقدية والآداب الوطنية والمصادر الإنجليزية ممثلة بصورة أوسع من مصادر بلغات أخرى، فقد يميل النظام، عند تفسير نص عربي أو إفريقي أو آسيوي، إلى استدعاء أطر

أكثر توافرًا في مواده، ليس لأنها بالضرورة الأقدر على فهم النص، بل لأنها أقرب إلى بنيته المعرفية المتاحة.

ومن هنا يمكن أن يظهر نوع من »الاستعمار التأويلي الناعم «إذا جرى استخدام المصطلح بحذر، والمقصود به ليس وجود مشروع واع لفرض قراءة ثقافية بعينها، وإنما احتمال أن تتحول التفاوتات في تمثيل المعرفة إلى أفضلية تلقائية لبعض الأطر والمرجعيات داخل الإجابات المولدة. وقد يقرأ القارئ نصًا مغربيًا مثلًا فيحصل باستمرار على مقارنات بنظريات وأعمال عالمية شديدة الحضور، بينما تبقى إحالات محلية أو مغاربية أقل ظهورًا، وعندها لا يكون الخطأ بالضرورة في كل مقارنة منفردة، بل في التركيب المتكرر لما يصبح مرئيًا وما يظل غائبًا.

ولا يمكن معالجة ذلك بالمطالبة بأن يصبح النظام «بلا تحيز»، لأن اختيار البيانات والتصنيف والمفاهيم يحمل دائمًا افتراضات، بل ينبغي الانتقال إلى سؤال أكثر واقعية: هل يستطيع القارئ كشف التحيز المحتمل ومقارنته بمرجعيات أخرى؟ ومن هنا تصبح الكفاية الثقافية والخوارزمية متداخلتين؛ فكلما كان القارئ أكثر معرفة بتاريخ النص وبيئته، استطاع أن يرى ما أهمله النظام، وهو ما يؤكد مرة أخرى أن المعرفة البشرية لا تصبح أقل أهمية مع قوة الأداة، بل تصبح شرطًا للحماية من تضييقها.

ـ تحيز التفسير

إذا كان تحيز البيانات يتعلق بالمواد التي تتعلم منها الأنظمة، فإن تحيز التفسير يشير إلى الطريقة التي يمكن أن تتحول بها هذه التفاوتات إلى تفضيل متكرر لبعض زوايا القراءة أو أنواع العلاقات أو المصطلحات. ولا يُستخدم هذا المفهوم هنا بوصفه مصطلحًا تقنيًا راسخًا، بل اقتراحًا إجرائيًا داخل نظرية القارئ الهجين، لأن التأويل الأدبي لا يمكن قياس تحيزه بالطريقة نفسها التي تقاس بها قرارات التصنيف، ومع ذلك يمكن ملاحظة أن النظام قد يعيد إنتاج صيغ تأويلية مألوفة أو يفضل التفسيرات الأكثر شيوعًا في الخطاب المتاح له.

فإذا طلب آلاف القراء تفسير رمز أدبي واحد، قد يحصلون على اختلافات في الصياغة مع بقاء مجموعة صغيرة من العلاقات الدلالية المتكررة، وهو ما لا يكون خطأ في ذاته إذا كانت هذه العلاقات قوية في التقليد النقدي، لكنه يصبح إشكالياً عندما تبدو القراءة الشائعة كأنها الإمكان الوحيد. ومن هنا يتصل تحيز التفسير بسلطة الجواب الواثق؛ فالخوارزمية لا تحتاج إلى منع قراءة بديلة، بل يكفي أن تقدم القراءة الأكثر احتمالًا أولًا وبأكبر قدر من التماسك حتى تصبح إطارًا ينطلق منه القارئ.

ويزداد هذا الأثر عندما تكون صياغة السؤال نفسها موجهة، كما ظهر في الفصل الحادي عشر، لأن النظام قد يبني جوابًا يؤكد فرضية المستخدم بدل اختبارها، فتتداخل تحيزات البيانات وتحيزات المحفز وتوقعات القارئ في حلقة واحدة. ولذلك لا يمكن إسناد كل انحراف تأويلي إلى «تحيز الآلة» وحدها؛ فقد يكون القارئ هو الذي فرض الإطار، والنظام هو الذي وسعه، ثم عاد الجواب ليقوي الإطار الأول. وهكذا يتشكل ما يمكن تسميته »حلقة التأكيد التوليدي :«افتراض بشري → سؤال موجه → جواب مؤيد → ثقة أكبر في الافتراض.

وتكون مقاومة هذه الحلقة عبر هندسة سؤال مضادة، بحيث يطلب القارئ من النظام تفسيرًا منافسًا أو يعرض عليه نصًا يقاوم فرضيته أو يطلب تحديد ما لا يستطيع الجواب تفسيره. ومن هنا يصبح «التأويل المضاد» جزءًا من أخلاقيات القراءة، لأن القارئ لا يكتفي باستعمال النظام لإنتاج ما يريد أن يسمعه، بل يستخدمه لاختبار حدود ما يعتقده.

ويصبح التحيز أكثر حساسية في النصوص التي ترتبط بالهوية والتاريخ والدين والاستعمار واللغة، لأن التفسير قد يحمل افتراضات ثقافية تبدو عامة بينما هي ناتجة عن تقليد بعينه، ولذلك ينبغي للقارئ أن يسأل عن المصدر النظري للمفاهيم وأن يقارن بين تفسير ينطلق من المرجعية المحلية وآخر ينطلق من نظرية خارجية. وليس الهدف إقامة جدران بين الثقافات، بل منع المقارنة من التحول إلى إلغاء للاختلاف بواسطة قاموس نظري واحد.

ومن هنا لا تتمثل العدالة التأويلية في إنتاج جميع القراءات الممكنة بالتساوي، وهو أمر مستحيل، بل في الإقرار بأن الجواب خاضع لمنظور، وإتاحة مساحة معقولة للبدائل، وعدم تحويل الأكثر تكرارًا في البيانات إلى حقيقة عن النص. وعند هذه النقطة يلتقي نقد التحيز بمشكلة توحيد القراءة التي يعالجها المبحث التالي.

ـ المبحث الرابع: توحيد القراءة

ـ الإجابات النمطية

يكمن أحد المخاطر الأقل ظهوراً للذكاء الاصطناعي في القراءة في أنه قد ينتج أجوبة صحيحة في مستوى عام، متماسكة ونافعة، لكنها متشابهة إلى حد يجعل عدداً كبيراً من القراء يصلون إلى الصيغ نفسها والأسئلة نفسها، فيتحول التوسع الفردي في المساعدة إلى تضييق جماعي في التنوع. ولا توجد حتى الآن قاعدة تجريبية كافية تسمح بالقول إن استخدام الذكاء الاصطناعي في القراءة يؤدي حتماً إلى توحيد التأويل، ولذلك يقدم هذا الكتاب »توحيد القراءة« بوصفه فرضية نقدية تحتاج إلى دراسة تجريبية مستقلة، لا حقيقة مقررة، غير أن بحوثاً مجاورة في الإنتاج الإبداعي تقدم أسباباً جدية لأخذ الاحتمال بجدية.

فقد أظهرت تجربة أنيل دوشي وأوليفر هاوزر حول استخدام أفكار مولدة بالذكاء الاصطناعي في كتابة قصص قصيرة أن المساعدة التوليدية حسنت تقييم الإبداع وجودة الكتابة لدى بعض الأفراد، وخصوصاً الأقل إبداعاً في خط الأساس، لكنها جعلت القصص الناتجة أكثر تشابهاً بعضها مع بعض مقارنة بقصص المجموعة التي لم تستخدم الأفكار التوليدية [9]. وهذه الدراسة تتعلق بالكتابة لا بالقراءة، ولذلك لا يجوز نقل نتائجها مباشرة إلى التأويل الأدبي، لكنها تكشف مفارقة ذات صلة مباشرة بنظرية القارئ الهجين :قد يرتفع أداء الفرد في المهمة بينما ينخفض تنوع الناتج على مستوى الجماعة .

وإذا نقلنا هذه المفارقة إلى القراءة على سبيل الفرضية، يمكن تخيل أن المساعد التوليدي يجعل كل قارئ قادراً على الوصول إلى تفسير أكثر تنظيماً واتساعاً من تفسيره الأولي، بينما يؤدي الاعتماد الواسع على أنماط توليد متقاربة إلى تقليل الاختلاف بين القراءات المنشورة. فقد تتكرر صيغ مثل «يمكن فهم النص من منظور الهوية والذاكرة والسلطة» ، وتصبح اللغة النقدية أكثر انتظاماً ، لكن الانتظام لا يساوي دائماً العمق، وقد تخسر

القراءة بعض انحرافاتها الفردية التي جاءت تاريخيًا من سوء الفهم الخلاق أو التجربة الشخصية أو المعرفة المحلية غير المهيمنة.

ولا تعني «الإجابة النمطية» بالضرورة إجابة سيئة، فقد تكون واضحة ومفيدة لتعليم الأساسيات، وإنما يصبح النمط مشكلة حين يتحول إلى سقف لا نقطة انطلاق. فتعريف القارئ بمفهوم «الراوي غير الموثوق» أمر مفيد، لكن إذا تحول كل تحليل للرواية إلى البحث عن مجموعة متوقعة من المصطلحات التي يقدمها النظام، فإن اللغة النقدية قد تصبح أكثر انتظامًا وأقل قدرة على الإنصات إلى خصوصية العمل.

ومن هنا يمكن التمييز بين المعيارية التعليمية والتنميط التأويلي؛ فالأولى تمنح القارئ أدوات مشتركة تمكّنه من الحوار مع الآخرين، بينما الثاني يجعل الأداة المشتركة تنتج النتائج نفسها باستمرار. ولا تستطيع الثقافة النقدية الاستغناء عن المفاهيم المشتركة، لكنها تحتاج كذلك إلى قارئ قادر على استخدامها ثم تجاوزها عندما لا تكفي.

- خطر إضعاف التفرد التأويلي

لا يعني التفرد التأويلي أن كل قارئ يجب أن ينتج معنى لم يسبق إليه أحد، ولا أن الأصالة قيمة مطلقة تتقدم على الدقة، بل يشير إلى أن القراءة تتشكل من موقع خاص في اللغة والذاكرة والتجربة والثقافة، وأن هذا الموقع يمنح النص أحيانًا أسئلة لا تنتج من المناهج الجاهزة. فالقارئ الذي نشأ في بيئة ريفية قد يرى في وصف الأرض ما لا يراه قارئ آخر، والمهاجر قد يقرأ الحدود بطريقة مختلفة، والباحث الذي يعرف تقليدًا شعريًا محليًا قد يستعيد إحالة لا تظهر لمن لم يقرأ ذلك التقليد، وهذه الاختلافات ليست عيوبًا ينبغي للآلة أن توحدها، بل جزء من ثراء الاستقبال.

ويظهر الخطر عندما يدخل النظام قبل تشكل القراءة الأولى فيمنح القارئ شبكة جاهزة من المفاهيم، لأن التأويل اللاحق قد يصبح تعديلًا على الإطار المولد بدل أن ينشأ من احتكاك الإنسان بالنص. ولهذا دافع الكتاب في

الفصل الحادي عشر عن قيمة القراءة البشرية الأولية كلما كان ذلك ممكنًا، لا بوصفها طقسًا يحظر المساعدة، بل كمساحة تحفظ للقارئ فرصة أن يكتشف سؤالًا لم يقترحه النظام.

ومن هنا يمكن فهم التفرد التأويلي بوصفه شكلًا من التنوع المعرفي الذي ينبغي حمايته، لأن الثقافة لا تتقدم فقط حين تنتشر أفضل الإجابات الموجودة، بل كذلك حين تظهر أسئلة جديدة تغير ما نعده مشكلة أصلًا. وقد يكون النظام قويًا في تركيب ما هو موجود، لكن التجربة الإنسانية تستطيع أن تمنح النص سؤالًا مصدره حياة القارئ لا الاحتمال الإحصائي الأكثر توقعًا.

ولا يعني ذلك أن الذكاء الاصطناعي نقيض الأصالة، إذ يستطيع أن يساعد القارئ على الخروج من قراءته الأولى إذا طلب منه بناء اعتراضات أو وجهات نظر بعيدة عن الإطار المعتاد، ولذلك يعتمد أثره على طريقة الاستخدام. فالآلة تستطيع أن تكون أداة للتنميط إذا استخدمت للحصول على جواب نموذجي، أو أداة لكسر التنميط إذا استخدمت لإنتاج بدائل ثم رفض المألوف منها والبحث عما لم يقترح بعد.

ومن هنا يصبح أحد الاختبارات الأخلاقية للقراءة المعززة السؤال التالي: هل يجعلني الحوار مع النظام أكثر قدرة على صياغة قراءتي الخاصة، أم يجعلني أكثر قدرة على إعادة إنتاج صياغة معيارية تبدو جيدة؟ ولا يمكن الإجابة عن السؤال من مظهر النص النهائي وحده، لأن اللغة المصقولة قد تخفي تبعية فكرية، بينما قد تحمل صياغة أقل أناقة موقفًا أكثر استقلالًا.

ويترتب على ذلك أن حماية التفرد التأويلي لا تتطلب رفض الاقتراحات الآلية، بل تأخير سلطتها وتعددها ومقاومتها؛ أي أن يقرأ الإنسان، ثم يسأل، ثم يطلب أكثر من احتمال، ثم يعود إلى ما يميزه هو من معرفة وتجربة، بحيث تدخل الآلة بوصفها طرفًا يوسع المجال لا معيارًا يقيس القارئ نفسه عليه.

ـ المبحث الخامس: الخصوصية والبيانات

ـ *القارئ بوصفه مصدرًا للبيانات*

كان فعل القراءة الورقية، في صور كثيرة منه، قابلًا لأن يبقى شديد الخصوصية؛ فالمكتبة أو البائع قد يعرفان أن شخصًا اقتنى كتابًا، لكن الصفحة نفسها لم تكن ترسل عادة معلومات عن زمن البقاء عليها أو المواضع التي عاد إليها أو الكلمات التي بحث عنها أو التعليقات التي كتبها. أما البيئة الرقمية فقد جعلت جوانب من السلوك القرائي قابلة للتحول إلى بيانات، وقد درس كليفورد لينش صعود «تحليلات القراءة» وما يترتب عليها من تحول في خصوصية القارئ، مبينًا أن البيئات الرقمية تستطيع، بحسب التصميم والخدمة، جمع معلومات حول ما يقرأه الأفراد وكيف يكتشفون المواد وكيف يتفاعلون معها، وأن هذه البيانات تخلق فئات جديدة من المستفيدين المحتملين منها .[10]

ويمثل هذا التحول نقلة عميقة في مفهوم القارئ داخل الاقتصاد الرقمي، لأن الفرد لا يعود فقط مستهلكًا للمحتوى، بل يصبح أثناء القراءة منتجًا لآثار سلوكية يمكن أن تدخل في التحليل والتخصيص والتوصية. وقد سبق للفصل السابع أن ناقش «الملف الخوارزمي للقارئ»، لكن الذكاء الاصطناعي الحواري يزيد مستوى الحميمية الممكنة لهذه البيانات، لأن المستخدم لا يكشف فقط ما قرأ، بل قد يكشف ما لم يفهمه، وما يشك فيه، وما هي اهتماماته البحثية، وما المقطع الذي أثر فيه، وما القراءة التي يريد الدفاع عنها.

وتتميز بيانات القراءة عن كثير من بيانات الاستخدام بأنها تستطيع أن تكشف جوانب فكرية وثقافية دقيقة، فاختيار كتاب عن مرض أو عقيدة أو صراع سياسي أو مشكلة شخصية لا يثبت في ذاته هوية القارئ أو حالته، لكنه يمكن، عند دمجه بسلوكيات أخرى، أن يسمح باستنتاجات أكثر حساسية. ولذلك لا ينبغي أن يعامل تاريخ القراءة كما لو كان مجموعة نقرات بلا معنى، لأن الكتاب الذي نقرأه قد يكون مرتبطًا بما نبحث عنه

لأنفسنا أو لغيرنا أو لمشروع أكاديمي، ولا يستطيع النظام دائمًا معرفة الفرق.

وقد بينت دراسات أحدث لأخلاقيات تتبع القراءة الرقمية أن البيانات الممكن جمعها قد تشمل سرعة القراءة والوقت الذي يقضيه الفرد في المادة واختيارات الكتب والاهتمامات، وأن دمج هذه الإشارات مع بيانات أخرى يمكن أن ينتج صورة شديدة التفصيل عن أنماط الحياة والاهتمامات [10]. كما بينت تطبيقات تحليل الكتب الرقمية تقنيًا أن أنظمة التحليل تستطيع قياس أنماط التمرير والتنقل والوصول والتفاعل داخل الكتاب الإلكتروني، وهو ما يوضح أن «القراءة» نفسها أصبحت قابلة للتحويل إلى مقاييس بصورة لم تكن متاحة في الورق بالدرجة نفسها.

ومن هنا يقترح الكتاب التمييز بين الذات القارئة والذات المقروءة خوارزميًا؛ فالأولى هي الإنسان الذي يبني معنى النص، والثانية هي التمثيل الذي تستخرجه الأنظمة من سلوكه. وقد سبق القول إن «القارئ يقرأ النص والخوارزمية تقرأ القارئ»، وتصبح العبارة هنا ذات دلالة أخلاقية مباشرة، لأن السؤال لا يعود فقط عما يقرأه النظام في بياناتنا، بل عمن يملك هذه القراءة ولأي أغراض يمكن أن تستخدم.

- أخلاقيات تتبع السلوك القرائي

تقدم هيلين نيسنباوم في مفهوم «السلامة السياقية» تصورًا مهمًا للخصوصية يرفض اختزالها في مجرد السرية، ويربطها بمدى توافق جمع المعلومات وتدفقها مع الأعراف والتوقعات المناسبة للسياق الذي ظهرت فيه [11]. وتفيد هذه المقاربة بصورة خاصة في القراءة، لأن المستخدم قد يكون مستعدًا لأن تحفظ المنصة موضع الصفحة لكي يواصل من جهاز آخر، لكنه لا يعني بذلك تلقائيًا أنه يقبل استخدام جميع تفاصيل سلوكه لأي غرض آخر، ومن هنا يصبح السؤال الأخلاقي متعلقًا بملاءمة تدفق البيانات للغرض الذي توقعه القارئ لا بمجرد كون البيانات مخفية أو علنية .

وإذا طلب القارئ من مساعد ذكاء اصطناعي تحليل قصيدة أو مناقشة فكرة فلسفية، فإن الحوار نفسه قد يحتوي معلومات عن ذائقته ومستواه الدراسي وأسئلته الخاصة، ولذلك يصبح مبدأ تقليل البيانات ذا أهمية قرائية، أي ألا يشارك المستخدم من المعلومات الشخصية أو الوثائق ما لا تحتاج إليه المهمة، وأن يدرك، قدر الإمكان، سياسات الخدمة المتعلقة بالتخزين والاستخدام. ولا يعني ذلك أن كل حوار يحمل خطرًا واحدًا، لأن المنتجات والإعدادات تختلف، وإنما يضع على القارئ والمؤسسات واجب عدم التعامل مع الواجهة الحوارية كأنها دفتر خاص بالمعنى المادي التقليدي من دون معرفة شروطها.

وقد جعلت توصية اليونسكو بشأن أخلاقيات الذكاء الاصطناعي، المعتمدة في 23 نوفمبر 2021، حماية الخصوصية والبيانات والشفافية والمساءلة والإشراف البشري من المبادئ الأساسية، كما تؤكد أن المسؤولية النهائية لا ينبغي أن تنقل من الأشخاص والمؤسسات إلى أنظمة الذكاء الاصطناعي [12]. وتكتسب هذه المبادئ أهمية مباشرة في القراءة المعززة، لأن حق القارئ في الاستفادة من التخصيص لا ينبغي أن يعني فقدانه السيطرة المعقولة على البيانات التي تجعل ذلك التخصيص ممكنًا.

ومن هنا ينبغي أن تتأسس أخلاقيات تتبع القراءة على التمييز بين البيانات الضرورية لتقديم الخدمة والبيانات التي يصبح جمعها مجرد إمكانية تقنية؛ فما يمكن قياسه ليس بالضرورة ما ينبغي قياسه، كما أن إمكان استنتاج الاهتمامات لا يعني مشروعية استعمالها في كل غرض. ويصبح ذلك أكثر أهمية في المكتبات والتعليم والبحث، حيث للقراءة علاقة بحرية الاستكشاف الفكري، إذ قد يقرأ الفرد مادة مثيرة للجدل لكي ينتقدها أو يدرسها لا لأنه يوافق عليها، ولذلك يكون تحويل سجل القراءة إلى صورة مباشرة للمعتقدات نوعًا من الاختزال الذي يهدد حرية الاستطلاع.

ويمكن في هذا السياق صياغة »حق القارئ في أن يقرأ من دون أن يصبح كل فعل قرائي موضوعًا للمراقبة« بوصفه مبدأ أخلاقيًا، لا ادعاءً قانونيًا موحدًا

في جميع الدول. وتنسجم هذه الفكرة مع النقاشات المعاصرة حول خصوصية القراء وتحليلات القراءة، التي تنبه إلى أن الانتقال من الورق إلى الكتب والخدمات الرقمية يجعل سلوكًا كان من الصعب مراقبته قابلًا للتسجيل والتحليل [10]. ومن ثم يصبح الدفاع عن التنوع القرائي مرتبطًا كذلك بالخصوصية، لأن القارئ الذي يشعر بأن كل بحث أو توقف أو اختيار يدخل في ملف دائم قد يغير ما يجرؤ على استكشافه.

وتكمن المشكلة الأكبر في أن الراحة والخصوصية قد تبدوان في بعض الأحيان في علاقة تبادل؛ فلكي يحصل النظام على توصيات أدق يحتاج إلى بيانات أكثر، ولكي يتذكر الحوار يحتاج إلى الاحتفاظ بسياق أكبر، لكن الأخلاق لا ينبغي أن تقبل هذه المعادلة كما لو كانت قانونًا طبيعيًا، بل تسأل عن التناسب :ما الحد الأدنى اللازم لتحقيق المنفعة، وهل يستطيع القارئ فهم ما يحدث والتحكم فيه بدرجة معقولة؟

ـ المبحث السادس: نحو أخلاقيات للقراءة المعززة

ـ المسؤولية المعرفية للقارئ

لا يمكن بناء أخلاقيات القراءة المعززة على تصور يجعل المستخدم ضحية سلبية لكل مخرجات النظام، كما لا يمكن تحميله وحده مسؤولية أنظمة لا يملك معرفة كاملة بتصميمها؛ فالعلاقة الأخلاقية موزعة بين المطورين والمنصات والمؤسسات والمستخدمين، لكن موقع القارئ يظل مركزيًا لأنه الطرف الذي يقرر، في النهاية، ما سيدخل إلى قراءته وما سينشره أو يبني عليه حكمًا. ومن هنا يمكن تعريف **المسؤولية المعرفية للقارئ الهجين** بأنها التزامه باتخاذ إجراءات تتناسب مع درجة تدخّل الأداة ودرجة أهمية الادعاء، بحيث لا ينسب إلى النص ما لم يتحقق منه، ولا يقدم الفرضية بوصفها حقيقة، ولا ينقل المخرج التوليدي إلى المجال العام كما لو أنه مرجع مستقل.

وتحتاج هذه المسؤولية إلى ما سماه لونغ وماغيركو «الثقافة في الذكاء الاصطناعي»، أي مجموعة من الكفايات التي تسمح للأفراد بفهم إمكانات الأنظمة والتفاعل معها وتقييمها نقديًا [13]. وفي سياق هذا الكتاب لا تعني الثقافة التقنية أن يعرف القارئ كيف بني النموذج أو تفاصيل معماريته، بل أن يمتلك نموذجًا ذهنيًا كافيًا ليعرف أن التوليد ليس هو الاسترجاع، وأن الإجابة قد تتغير بتغير المحفز، وأن المخرج يمكن أن يكون خاطئًا، وأن البيانات والمصادر والتمثيل الثقافي تؤثر في النتيجة .

ويمكن تلخيص المسؤولية المعرفية في حركة رباعية أصبحت واضحة عبر الفصول السابقة :الكشف، والمساءلة، والمقارنة، والتحقق .فالكشف يعني أن يعرف القارئ أين تدخل النظام في عملية الفهم، والمساءلة تعني أن يسأل عن الافتراض والمصدر والحدود، والمقارنة تعني ألا يجعل المخرج الوحيد أفقًا نهائيًا، بينما يعني التحقق العودة إلى النص أو المرجع حين يكون الادعاء قابلًا للإثبات. ولا تعمل هذه العناصر باعتبارها قائمة تقنية،

بل بوصفها عادات فكرية تجعل القارئ أكثر وعياً بالطريق الذي وصل عبره إلى المعرفة.

وتزداد المسؤولية كلما اقتربت الأداة من إنتاج المعنى؛ فليس التدقيق المطلوب في ترجمة كلمة هو نفسه المطلوب في تفسير نص كامل، وليس أثر خطأ في توصية بكتاب كأثر اقتباس مختلق يوضع في بحث علمي، ولذلك يمكن صياغة مبدأ التناسب الأخلاقي على النحو الآتي :درجة الحاجة إلى التحقق والوعي النقدي تتناسب مع درجة تدخل النظام في الوظائف المركزية للمعنى ومع حجم الأثر الناتج عن الاعتماد عليه.

ويشمل ذلك مسؤولية الحفاظ على الكفاية الذاتية، لأن القارئ ليس مسؤولًا فقط عن صحة الجواب الحالي، بل عن الطريقة التي يبني بها قدرته المستقبلية على القراءة. فإذا كان التفويض المتكرر يؤدي إلى فقدان القدرة على أداء الوظيفة التي يحتاج إليها، يصبح الاستخدام إشكالياً حتى لو كانت النتائج الحالية جيدة. ومن هنا تتحول المحافظة على بعض أشكال الجهد إلى مسؤولية تجاه الذات المعرفية المستقبلية، لأن القارئ يختار، باستخدامه اليومي للأداة، المهارات التي سيستمر في ممارستها والمهارات التي سيتركها للوسيط.

كما تمتد المسؤولية إلى الآخرين حين يصبح القارئ منتجاً، وفق ما عالجه الفصل التاسع، لأن المراجعة أو المقال أو الملخص الذي ينشره يمكن أن يدخل في قراءات لاحقة، ولذلك ينبغي الإفصاح بقدر مناسب عن استعمال المساعدة الاصطناعية في السياقات التي يكون ذلك فيها مهماً لفهم مصدر المحتوى أو تقييمه. وليس الهدف بناء طقوس اعتراف بالتقنية في كل كلمة، بل الحفاظ على وضوح المسؤولية حين يؤدي النظام دوراً جوهرياً في إنتاج النص أو التحليل.

ـ مبدأ بقاء القرار التأويلي بشريًا

تصل أخلاقيات القراءة المعززة إلى مبدأها المركزي عند التمييز بين **توزيع العمل وتفويض القرار النهائي**؛ فالإنسان يستطيع أن يوزع الاسترجاع والترجمة والتلخيص والمقارنة وتوليد الفرضيات على أنظمة متعددة، لكنه ينبغي، وفق النظرية المقترحة في هذا الكتاب، أن يحتفظ بالقرار التأويلي الذي يحول هذه المواد إلى موقف يستطيع الدفاع عنه. ولا يعود هذا المبدأ مجرد تفضيل فلسفي للإنسان لأنه إنسان، بل ينبع من عدم التماثل الذي تأسست عليه نظرية القارئ الهجين: النظام لا يعيش تجربة النص ولا يتحمل مسؤولية اجتماعية أو أخلاقية عن تبني تفسيره، بينما الإنسان هو الذي يدخل الموقف في العالم ويوقع باسمه على نتائجه.

وتنسجم هذه الصيغة مع مبدأ «الإشراف والتحديد البشري» في توصية اليونسكو لأخلاقيات الذكاء الاصطناعي، التي تشدد على إمكان إسناد المسؤولية القانونية والأخلاقية إلى أشخاص أو كيانات بشرية، وعلى أن الاعتماد على أنظمة الذكاء الاصطناعي لا ينبغي أن يزيح المسؤولية البشرية النهائية [12]. وبالطبع لا تساوي قراءة رواية قرارًا عالي المخاطر في الطب أو القضاء، لكن المبدأ العام مفيد إبستمولوجيًا :**الأداة تستطيع المساهمة في القرار، لكنها لا تصبح حامل المسؤولية التي تبرر القرار** .

ومن هنا يمكن تعريف »**مبدأ بقاء الإنسان في دائرة التأويل**«، وهو مبدأ يقترحه هذا الكتاب للدلالة على أن كل دورة تأويلية معززة ينبغي أن تحتفظ بنقطة يستطيع عندها الإنسان أن يوقف التوليد، ويراجع الأدلة، ويقرر قبول الفرضية أو رفضها أو تعليق الحكم. ولا يعني «البقاء في الدائرة» أن القارئ يجب أن ينفذ كل عملية يدويًا، بل أن يظل قادرًا على التدخل والتفسير والمراجعة والتحمل.

ويكون هذا المبدأ مهددًا بثلاث حالات؛ الأولى حين لا يقرأ الإنسان النص الأصلي ويعتمد تفسير النظام، والثانية حين يقرأ لكنه لا يستطيع نقد المخرج بسبب نقص المعرفة، والثالثة حين يستطيع النقد لكنه يتخلى عنه

بسبب الراحة أو الثقة. وتختلف الحلول بحسب الحالة؛ فالأولى تحتاج إلى العودة إلى النص، والثانية إلى رفع الكفاية أو الاستعانة بمصادر، والثالثة إلى ممارسة متعمدة للمقاومة والاعتراض.

ومن هنا يمكن صياغة أخلاقيات القراءة المعززة على أساس **التكامل المعرفي غير المتماثل** الذي تأسس سابقًا؛ فالآلة أسرع في الاسترجاع وأوسع في بعض المقارنات وقادرة على توليد احتمالات كثيرة، بينما يمتلك الإنسان خبرة الحياة والغاية والسياق والمسؤولية والقدرة على أن يجعل المعنى جزءًا من موقفه، ولذلك لا يكون الهدف هو الحفاظ على «نقاء» الإنسان من التقنية، بل الحفاظ على **موقع الوظائف التي لا ينبغي أن تذوب داخل التفويض**.

وتصبح الاستقلالية، وفق هذا المنظور، مختلفة عن العزلة؛ فالقارئ المستقل ليس من يرفض الذكاء الاصطناعي، بل من يستطيع أن يستخدمه دون أن يفقد القدرة على مغادرته، وأن يقبل اقتراحه دون أن يفقد حق الاعتراض، وأن يستفيد من ذاكرته الخارجية دون أن يفقد ذاكرته المفهومية، وأن يدخل في الحوار دون أن ينسى أن إنهاء الحوار وبناء الموقف مسؤولية تخصه.

من أخلاق الاستخدام إلى أخلاق تكوين القارئ

تكشف المخاطر التي تناولها الفصل أن أخلاقيات الذكاء الاصطناعي في القراءة لا يمكن أن تقتصر على سؤال ما إذا كان المخرج صحيحًا أو ما إذا كانت البيانات محمية، على أهمية هذين السؤالين، لأن التقنية تؤثر كذلك في **نوع القارئ الذي يتكون من خلال الاعتياد عليها** .فإذا أصبحت كل صعوبة تستدعي جوابًا فوريًا، يتعلم القارئ علاقة معينة بالغموض؛ وإذا أصبحت كل مقارنة مولدة بضغطة، تتغير علاقته بالذاكرة؛ وإذا اعتاد تفسيرًا جاهزًا قبل القراءة، تتغير علاقته بالاستقلال، ولذلك ينبغي أن تشمل الأخلاق آثار الاستخدام الطويلة على الكفايات والعادات.

ومن هنا يمكن التمييز بين أخلاق المخرج وأخلاق الممارسة؛ فالأولى تسأل: هل الجواب صحيح وعادل وآمن ويحترم الخصوصية؟ أما الثانية فتسأل: ماذا يفعل الاعتماد المتكرر على هذا النوع من الأجوبة بقدرة القارئ على التفكير والشك والتذكر والتأويل؟ وقد يكون المخرج صحيحًا تمامًا بينما تظل طريقة استخدامه غير جيدة تربويًا إذا كانت تحل محل المهارة التي ينبغي تعلمها.

وهذه النقطة تمنع اختزال أخلاقيات القراءة في مسألة «الهلوسة»، لأن نظامًا لا يخطئ أبدًا، لو تصورناه نظريًا، يستطيع مع ذلك أن ينتج اعتمادًا معرفيًا وتوحيدًا في الأسئلة وتراجعًا في ممارسة بعض الكفايات. ومن هنا فإن تحسن الدقة التقنية لا يلغي المشكلة الأخلاقية بل ينقلها من الثقة في صحة النظام إلى إدارة العلاقة معه.

كما أن وجود التحيز لا يعني أن البديل البشري محايد؛ فالناقد والمترجم والمدرس والقارئ جميعهم يحملون مواقعهم الثقافية، لكن الفرق أن الوساطة الآلية يمكن أن تعمل على نطاق واسع وبصورة شديدة الاتساق والسرعة، مما يجعل بعض أنماطها قابلة للتكرار عبر ملايين التفاعلات. ولذلك لا يهدف النقد إلى مقارنة «آلة متحيزة» بإنسان محايد، بل إلى جعل جميع الوساطات أكثر ظهورًا وقابلية للمساءلة.

ومن هنا تتأسس أخلاق الوساطة الواعية؛ أي أن القارئ يعرف أنه لا يصل إلى النص عبر قناة شفافة، وأن عليه أن يرى الأدوات التي تشارك في بناء طريقه إلى المعنى. وكلما أصبحت الوساطة أكثر راحة وأقل ظهورًا، أصبحت الحاجة إلى الوعي بها أكبر، وهي مفارقة تلخص جزءًا مهمًا من مشروع هذا الكتاب.

نحو ميثاق نظري للقراءة المعززة

يمكن، استنادًا إلى المباحث السابقة، صياغة نواة لميثاق نظري لا بوصفه قانونًا نهائيًا، بل إطارًا سيجري تطويره في الفصول اللاحقة. يقوم هذا الميثاق

على أن الذكاء الاصطناعي وسيط قابل للمساءلة لا مرجعًا مطلقًا، وأن كل معلومة حاسمة تحتاج إلى درجة تحقق تتناسب مع أثرها، وأن الخلاف التأويلي لا ينبغي أن يختزل إلى جواب واحد لمجرد قدرة النظام على صياغته، وأن القارئ يحتفظ بمساحة للقراءة الأولية والتفكير المستقل، وأن التفويض يوجه إلى الوظائف التي لا يؤدي أداؤها البشري دورًا مركزيًا في هدف التعلم، وأن البيانات القرائية ينبغي أن تعامل بوصفها امتدادًا حساسًا للحياة الفكرية لا مجرد آثار استخدام، وأن التعدد اللغوي والثقافي يحتاج إلى وعي بتفاوت التمثيل، وأن الاقتراح الآلي لا يكتسب شرعيته إلا من الاختبار النصي والسياقي.

وتجتمع هذه المبادئ في مفهوم »السيادة التأويلية« الذي يصبح هنا ذا بعد أخلاقي كامل؛ فهي ليست فقط قدرة معرفية على بناء المعنى، بل حق وواجب في الاحتفاظ بموقع القرار أمام وسيط قادر على تسهيل التخلي عنه. ولا تعني السيادة أن القارئ يملك المعنى أو أنه فوق النص، بل على العكس تعني تحمله مسؤولية أن يخضع نفسه والآلة معًا لما يسمح النص والسياق بالدفاع عنه.

ومن هنا يمكن تعديل الصيغة التي ختم بها الفصل الحادي عشر:

الآلة تقترح، والقارئ يختبر، والنص يحكم، والسياق يراجع، والإنسان يتحمل المسؤولية.

وتضيف العبارة الأخيرة البعد الذي يجعل القراءة الهجينة ممارسة أخلاقية لا تقنية فحسب، لأن الآلة تستطيع أن تكون جزءًا من الطريق لكنها لا تستطيع أن تتحمل مكان القارئ نتيجة الوصول.

خاتمة الفصل الثاني عشر

أظهر الفصل الثاني عشر أن الانتقال من القراءة المعززة إلى القراءة الحوارية والتأويل التوليدي لا يمكن أن يكتمل من دون بناء نظرية للمخاطر والأخلاقيات، لأن الوظائف التي تمنح الذكاء الاصطناعي قيمته هي نفسها التي تجعله قادرًا على إعادة تشكيل الثقة والجهد والاختلاف والخصوصية. وقد كشفت الهلوسة المعرفية أن النظام يستطيع إنتاج معلومات غير مسندة أو غير صحيحة في لغة شديدة الطلاقة، وهو ما يجعل الفصل بين جودة الصياغة وقوة الدليل شرطًا أساسيًا للقراءة الهجينة [1][2][3]. ولا تتوقف المشكلة عند الخطأ الواقعي، بل يمكن للمعلومة المختلقة أن تدخل في سلسلة من الاستنتاجات فتنتج انحرافًا تأويليًا كاملًا، ولذلك أصبح التحقق جزءًا بنيويًا من القراءة لا مرحلة خارجية تضاف إليها بعد انتهاء الفهم.

كما كشف تحليل الاعتماد المعرفي أن التفويض ليس سلبيًا في ذاته، وأن الاستعانة بالموارد الخارجية جزء أصيل من التفكير البشري، لكن قيمة التفويض تعتمد على الوظيفة والغاية [4]. وتقدم الأبحاث الحديثة في استخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي والتفكير النقدي دليلًا على أن الثقة المرتفعة في النظام يمكن أن ترتبط بانخفاض الجهد النقدي المبلغ عنه وأن طبيعة العمل الذهني تتحول من التنفيذ إلى التحقق والإشراف [5]، بينما تبين مراجعات تحيز الأتمتة أن الاعتماد الزائد يتشكل من تفاعل الثقة والخبرة والعبء وتصميم النظام والمهمة [6]. ومن هنا لم يعد «الكسل الذهني» حكمًا على شخصية القارئ، بل خطرًا ينشأ عندما تصبح الراحة الاستبدالية عادة تقلل ممارسة الوظائف التي يحتاج إليها للحكم المستقل.

وأظهر مبحث التحيز أن مخرجات الأنظمة اللغوية لا تنشأ خارج البنية الاجتماعية للبيانات، وأن الحديث عن التحيز يحتاج إلى تحديد من يتأثر وكيف ولماذا، لا إلى افتراض أن المسألة عيب تقني محض [7][8]. وبالنسبة إلى الدراسات الأدبية، يضاف إلى التحيز الاجتماعي سؤال تمثيل اللغات

والتقاليد النقدية والثقافات، وهو ما قاد إلى اقتراح مفهوم «التحيز التأويلي الخوارزمي» للدلالة على احتمال تفضيل بعض الأطر والقراءات بسبب حضورها الأقوى في المواد التي يتعلم منها النظام، مع التأكيد أن هذا المفهوم يحتاج إلى اختبار تطبيقي ولا ينبغي استعماله بوصفه حقيقة كمية جاهزة.

كما ظهر أن خطر توحيد القراءة يحتاج إلى قدر مماثل من الاحتراز؛ فلا توجد أدلة تسمح بإعلان أن الذكاء الاصطناعي سيجعل القراء جميعًا يفكرون بالطريقة نفسها، لكن الدراسات التي وجدت أن المساعدة التوليدية قد تزيد جودة نواتج إبداعية فردية مع تقليل التنوع الجماعي بينها تقدم أساسًا وجيهًا لطرح سؤال مماثل على التأويل [9]. ومن هنا يصبح الدفاع عن التفرد التأويلي دفاعًا عن حق القارئ في تكوين سؤاله قبل أن يتلقى الجواب، وفي جعل الذكاء الاصطناعي مولدًا للبدائل بدل أن يكون مصنعًا للقراءة المعيارية.

أما الخصوصية فقد كشفت أن القارئ في البيئة الرقمية لا يقرأ فقط بل يصبح قابلًا لأن يُقرأ سلوكيًا، وأن تحليلات القراءة تستطيع، بحسب تصميم الأنظمة، تسجيل جوانب من الاكتشاف والتفاعل والوقت والاختيارات [10]. ومن هنا اكتسب مفهوم السلامة السياقية عند نيسنباوم أهمية خاصة، لأن المشكلة لا تقع فقط في جمع البيانات بل في انتقالها واستخدامها خارج التوقعات المناسبة للسياق [11]، بينما تقدم توصية اليونسكو لأخلاقيات الذكاء الاصطناعي مبادئ تتعلق بحماية البيانات والشفافية والعدالة والمساءلة والإشراف البشري [12]. وتؤدي هذه المرجعيات مجتمعة إلى ضرورة الاعتراف بأن حرية القراءة تحتاج إلى قدر من حرية عدم المراقبة، لأن الاستكشاف الفكري يصبح أضيق إذا تحول كل أثر قرائي إلى أساس دائم للتصنيف.

وفي المبحث الأخير تأسست «أخلاقيات القراءة المعززة» على المسؤولية المعرفية للقارئ وعلى الثقافة في الذكاء الاصطناعي [13]، وانتهت إلى أن

الاستخدام الناضج لا يقوم على رفض التفويض بل على إدارته، ولا على عدم الثقة في كل مخرج بل على توزيع الثقة وفق الدليل، ولا على البحث عن نظام بلا تحيز بل على امتلاك القدرة على اكتشاف الوساطة ومقارنتها. ومن هنا يصبح مبدأ بقاء القرار التأويلي بشريًا قاعدة جامعة للفصل، لأنه يحافظ على إمكان استخدام الآلة في كل ما تستطيع أن تضيفه من سرعة واتساع ومقارنة، من دون أن تتحول هذه القدرة إلى مبرر للتنازل عن المسؤولية.

وبذلك يمكن صياغة التعريف النظري الذي يضيفه هذا الفصل إلى مشروع الكتاب على النحو الآتي :أخلاقيات القراءة المعززة هي مجموعة المبادئ والممارسات التي تنظم توزيع الوظائف بين القارئ وأنظمة الذكاء الاصطناعي بما يحفظ الدقة والخصوصية والتنوع والاستقلال، ويجعل المخرجات التوليدية قابلة للتحقق والمساءلة، مع بقاء المسؤولية عن الحكم النهائي في الجانب البشري.

وتتجمع المخاطر الستة التي درسها الفصل في علاقة واحدة :الهلوسة تهدد صحة المعرفة، والاعتماد المفرط يهدد استقلالها، والتحيز يهدد عدالتها وتنوعها، والتوحيد يهدد التفرد التأويلي، وتتبع البيانات يهدد خصوصية القارئ، بينما تأتي المسؤولية البشرية لكي تعيد جميع هذه المخاطر إلى سؤال السيطرة على الوساطة .ومن هنا لا تكون المشكلة الأساسية في أن الآلة أصبحت أكثر قدرة، بل في ما إذا كان ازدياد قدرتها سيصاحبه ازدياد مماثل في قدرة القارئ على نقدها.

وعند هذه النقطة يكتمل الباب الرابع من الكتاب؛ فقد انتقل من الذكاء الاصطناعي مساعداً للقارئ، إلى القراءة الحوارية والتأويل التوليدي، ثم إلى المخاطر والأخلاقيات التي ينبغي أن تضبط هذه العلاقة. ويصبح الانتقال إلى الباب الخامس منطقيًا، لأن السؤال التالي لم يعد يتعلق فقط بما تفعله الخوارزمية بالقارئ أو بما يفعله القارئ بها، بل بكيفية إعادة بناء نظرية التلقي نفسها بعد دخول الخوارزمية إلى الاختيار والقراءة وما بعد القراءة،

وهو ما سيفتح الفصل الثالث عشر حول التلقي الخوارزمي: إعادة بناء نظرية التلقي.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Ji, Ziwei; Lee, Nayeon; Frieske, Rita; Yu, Tiezheng; Su, Dan; Xu, Yan; Ishii, Etsuko; Bang, Ye Jin; Madotto, Andrea & Fung, Pascale. "Survey of Hallucination in Natural Language Generation." *ACM Computing Surveys*, Vol. 55, No. 12, 2023, Article 248, pp. 1–38. DOI: 10.1145/3571730.

يمثل مرجعًا مركزيًا لدراسة الهلوسة في توليد اللغة الطبيعية ومشكلتي الواقعية والوفاء للمصدر، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم «الهلوسة المعرفية في القراءة» بوصفه انتقال المعلومة غير المسندة من المخرج التقني إلى بناء القارئ للمعنى(DOI) .

[2] Lin, Stephanie; Hilton, Jacob & Evans, Owain. "TruthfulQA: Measuring How Models Mimic Human Falsehoods." In *Proceedings of the 60th Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics*, Vol. 1, Dublin, 2022, pp. 3214–3252. DOI: 10.18653/v1/2022.acl-long.229.

تقدم الدراسة معيارًا لاختبار قدرة النماذج على تجنب إجابات خاطئة مرتبطة بمعتقدات بشرية شائعة، وتستفاد منها في بيان أن التعلم من النصوص البشرية لا يضمن التخلص من الأخطاء المنتشرة داخلها (ACL Anthology) .

[3] Bender, Emily M.; Gebru, Timnit; McMillan-Major, Angelina & Shmitchell, Shmargaret. "On the Dangers of Stochastic Parrots: Can Language Models Be Too Big?" In *Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (FAccT '21)*, 2021, pp. 610–623. DOI: 10.1145/3442188.3445922.

مرجع نقدي في النماذج اللغوية الكبيرة ومشكلاتها المتعلقة بالبيانات والتمثيل وإسناد الفهم إلى الطلاقة اللغوية، ويُستفاد منه في تحليل «سلطة الجواب الواثق» وفي الحفاظ على التمييز بين إنتاج خطاب مقنع وامتلاك معرفة بشرية بالمعنى(DOI) .

[4] Risko, Evan F. & Gilbert, Sam J. "Cognitive Offloading." *Trends in Cognitive Sciences*, Vol. 20, No. 9, 2016, pp. 676–688. DOI: 10.1016/j.tics.2016.07.002.

مرجع أساسي لمفهوم التفريغ المعرفي ولدراسة العوامل الميتامعرفية التي تحدد ميل الإنسان إلى نقل بعض أعباء المعالجة إلى موارد خارجية، ويُستفاد منه في التمييز بين التفويض المنتج والتفويض الذي يبدأ في استبدال المهارة المركزية(PubMed) .

[5] Lee, Hao-Ping (Hank); Sarkar, Advait; Tankelevitch, Lev; Drosos, Ian; Rintel, Sean; Banks, Richard & Wilson, Nicholas. "The Impact of Generative AI on Critical Thinking: Self-Reported Reductions in Cognitive Effort and Confidence Effects From a Survey of Knowledge Workers." In *Proceedings of the 2025 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems*, 2025, Article 1121, pp. 1–22. DOI: 10.1145/3706598.3713778.

تستند الدراسة إلى 319 من العاملين في الأعمال المعرفية و936 مثالًا لاستخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي، وتفيد في مناقشة العلاقة بين الثقة في النظام والجهد النقدي، مع ضرورة الاحتراز من تحويل نتائجها إلى ادعاء سببي عام بشأن ضمور التفكير أو القراءة(DOI) .

[6] Romeo, Giuseppe & Conti, Daniela. "Exploring Automation Bias in Human–AI Collaboration: A Review and Implications for Explainable AI." *AI & Society*, Vol. 41, 2026, pp. 259–278. DOI: 10.1007/s00146-025-02422-7.

مراجعة حديثة لأدبيات تحيز الأتمتة والاعتماد المفرط في التعاون بين الإنسان والذكاء الاصطناعي، وتبرز تفاعل عوامل مثل الثقة والخبرة والعبء المعرفي وطبيعة المهمة والثقافة في الذكاء الاصطناعي، وهو ما يدعم تفسير الاعتماد بوصفه ظاهرة علائقية لا مجرد «كسل» فردي(DOI) .

[7] Blodgett, Su Lin; Barocas, Solon; Daumé III, Hal & Wallach, Hanna. "Language (Technology) is Power: A Critical Survey of 'Bias' in NLP." In *Proceedings of the 58th Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics*, 2020, pp. 5454–5476. DOI: 10.18653/v1/2020.acl-main.485.

مرجع مهم في نقد الاستخدام الفضفاض لمفهوم التحيز في معالجة اللغة الطبيعية، ويدعو إلى تحديد طبيعة الضرر ومن يقع عليه والسياق المعياري

الذي يجعل سلوكًا معينًا متحيزًا، ويُستفاد منه في تأطير التحيز الثقافي والخوارزمي داخل القراءة(ACL Anthology) .

[8] Sheng, Emily; Chang, Kai-Wei; Natarajan, Prem & Peng, Nanyun. "Societal Biases in Language Generation: Progress and Challenges." In *Proceedings of the 59th Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics and the 11th International Joint Conference on Natural Language Processing*, Vol. 1, 2021, pp. 4275–4293. DOI: 10.18653/v1/2021.acl-long.330.
تستعرض الدراسة أشكال التحيز المجتمعي في توليد اللغة وتناقش دور البيانات وتقنيات التوليد في ظهورها، وتستفاد منها في بيان أن اللغة المولدة يمكن أن تعيد إنتاج أنماط اجتماعية وثقافية غير متوازنة (ACL Anthology) .

[9] Doshi, Anil R. & Hauser, Oliver P. "Generative AI Enhances Individual Creativity but Reduces the Collective Diversity of Novel Content." *Science Advances*, Vol. 10, No. 28, 2024, eadn5290. DOI: 10.1126/sciadv.adn5290.
دراسة تجريبية في الكتابة الإبداعية أظهرت أن المساعدة التوليدية استطاعت تحسين بعض تقييمات النتاج الفردي مع زيادة التشابه بين القصص الناتجة، وتستفاد منها هنا بوصفها دليلًا من مجال مجاور يحفز فرضية «توحيد القراءة»، لا بوصفها إثباتًا مباشرًا لها(DOI) .

[10] Lynch, Clifford. "The Rise of Reading Analytics and the Emerging Calculus of Reader Privacy in the Digital World." *First Monday*, Vol. 22, No. 4, 2017. DOI: 10.5210/fm.v22i4.7414.
مرجع مباشر في تحليلات القراءة وخصوصية القارئ الرقمي، يناقش أنواع البيانات التي يمكن جمعها حول ما يُقرأ وكيف يُكتشف وكيف يتفاعل القراء مع المواد، ويفيد في تأسيس مفهوم القارئ بوصفه منتجًا لآثار سلوكية إلى جانب كونه منتجًا للمعنى(firstmonday.org) .

[11] Nissenbaum, Helen. "Privacy as Contextual Integrity." *Washington Law Review*, Vol. 79, No. 1, 2004, pp. 119–158.
يؤسس مفهوم «السلامة السياقية» الذي يربط حماية الخصوصية بملاءمة

جمع المعلومات وتدفقها للأعراف والغرض الخاص بالسياق، ويُستفاد منه في تحليل الفرق بين بيانات يحتاج إليها نظام القراءة لتقديم الخدمة واستعمالات أخرى لم يتوقعها القارئ(Digital Commons) .

[12] UNESCO. *Recommendation on the Ethics of Artificial Intelligence*. Adopted by the General Conference of UNESCO at its 41st session, Paris, 23 November 2021.

تمثل التوصية إطارًا دوليًا مرجعيًا في أخلاقيات الذكاء الاصطناعي، وتؤكد مبادئ حماية الخصوصية والبيانات والشفافية والعدالة والمساءلة والإشراف البشري، كما تؤكد عدم إزاحة المسؤولية البشرية النهائية بواسطة أنظمة الذكاء الاصطناعي(UNESCO) .

[13] Long, Duri & Magerko, Brian. “What Is AI Literacy? Competencies and Design Considerations.” In *Proceedings of the 2020 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems*, 2020, pp. 1–16. DOI: 10.1145/3313831.3376727.

يقدم إطارًا للكفايات اللازمة لفهم أنظمة الذكاء الاصطناعي والتفاعل معها وتقييمها نقديًا، ويُستفاد منه في تأسيس المسؤولية المعرفية والثقافة الخوارزمية التي يحتاج إليها القارئ الهجين(DOI) .

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات الفصل في خمسة محاور مترابطة؛ إذ تقدم أعمال جي وزملائه ولين وهيلتون وإيفانز وبندر وزميلاتها [1–3] الأساس لدراسة الهلوسة والصدق والطلاقة ومشكلة منح المخرج اللغوي سلطة معرفية تتجاوز دليله، بينما تسمح أعمال ريسكو وغيلبرت ولي وزملائه وروميو وكونتي [4–6] بفهم التفويض والاعتماد وتحول الجهد النقدي بعيداً عن الأحكام الأخلاقية المبسطة بشأن «الكسل». وتوفر أعمال بلودجيت وزملائه وشينغ وزملائها [7–8] الخلفية النقدية لمشكلة التحيز في اللغة والتوليد، بينما يقدم دوشي وهاوزر [9] أساساً تجريبياً من مجال الإنتاج الإبداعي يسمح بطرح فرضية التنميط الجماعي بحذر، من دون تحويلها إلى نتيجة مثبتة في القراءة. أما لينش ونيسنباوم وتوصية اليونسكو [10–12] فتسمح بربط القارئ الرقمي بمسألة الخصوصية وتدفق البيانات والمسؤولية والإشراف البشري، في حين يقدم لونغ وماغيركو [13] الإطار اللازم للانتقال من مجرد الاستخدام إلى الثقافة النقدية في الذكاء الاصطناعي.

ومن تقاطع هذه المرجعيات يتحدد الرهان الأخلاقي الذي يقود بقية الكتاب :كلما اتسعت قدرة الذكاء الاصطناعي على المشاركة في عمليات القراءة، ازدادت الحاجة إلى قارئ يمتلك قدرة أعلى على التحقق ومقاومة الاعتماد وكشف التحيز وحماية خصوصيته والحفاظ على تعدد التأويل، لأن الهجنة الناضجة لا تقاس بما تستطيع الآلة أن تفعله للقارئ، بل بما يستطيع القارئ أن يظل مسؤولًا عنه بعد أن تبدأ الآلة في مساعدته.

الفصل الثالث عشر

التلقي الخوارزمي: إعادة بناء نظرية التلقي

تصل الدراسة في هذا الفصل إلى النقطة التي يصبح عندها من الضروري الانتقال من وصف التحولات التي لحقت بالقارئ والوسيط والخوارزمية والذكاء الاصطناعي إلى إعادة النظر في نظرية التلقي ذاتها، لأن المسار الذي تتبعته الفصول السابقة كشف أن جزءًا متزايدًا من العلاقة بين القارئ والنص أصبح يحدث داخل بيئة لا تكتفي بعرض العمل أو حفظه، بل تشارك في اختياره وترتيبه والتوصية به وتقديم عتباته الرقمية وتخصيص بعض وظائف القراءة أثناء التلقي، ثم تسجيل آثار الاستجابة وإعادة إدخالها في منظومة التوصية التي ستؤثر في قراءات لاحقة. وإذا كانت جماليات التلقي قد حققت تحولًا حاسمًا عندما نقلت مركز الاهتمام من المؤلف والنص وحدهما إلى العلاقة التاريخية بين العمل والجمهور وإلى أفق الانتظار الذي يستقبل القارئ من خلاله النص، فإن البيئة الرقمية الخوارزمية تفرض سؤالًا جديدًا لم يكن حاضرًا بهذه الصورة في السياق الذي نشأت فيه النظرية: ماذا يحدث عندما لا يكون أفق الانتظار نتيجة التاريخ الأدبي والخبرة الثقافية والجماعة القرائية فقط، بل يصبح جزء منه قابلًا للتشكيل الآلي عبر توصيات شخصية ونتائج بحث مرتبة وواجهات تتغير من مستخدم إلى آخر وملفات سلوكية تستند إلى آثار القراءة السابقة؟

ولا ينطلق هذا السؤال من افتراض أن نظريات التلقي السابقة أصبحت باطلة، بل من الاعتقاد بأن قوتها النظرية تسمح بتوسيعها لتواجه وسيطًا لم يكن داخل نموذجها التاريخي. لقد جعل هانس روبرت ياوس تاريخ الأدب مرتبطًا بالعلاقة المتغيرة بين العمل وجمهوره، وربط استقبال النص بـ«أفق الانتظار» الذي يحمله القراء نتيجة خبرتهم السابقة بالأجناس والأعمال والمعايير الجمالية [1]، بينما ركز وولفغانغ إيزر على فعل القراءة والعمليات التي يحقق القارئ من خلالها إمكانات النص ويبني الاتساق ويملأ مناطق عدم التحديد [2]. ويظل هذان التحولان ضروريين لنظرية القارئ الهجين، غير أن السؤال

المعاصر يضيف إلى التاريخ والنص والقارئ طرفًا وسيطيًا يمتلك قدرة تنظيمية لم تكن متاحة للفهرس أو المكتبة أو الناقد بالصورة نفسها، إذ تستطيع الخوارزمية أن تستخدم تاريخ الفرد نفسه لكي تعدل ما سيظهر له لاحقًا، وأن تجعل الماضي القرائي مدخلًا حسابيًا في بناء المستقبل القرائي.

ومن هنا يقترح هذا الكتاب مفهوم »**التلقي الخوارزمي** «لا بوصفه اسمًا لنظرية مستقرة سابقة أو بديلًا كاملاً عن جماليات التلقي، وإنما بوصفه مفهومًا إجرائيًا ونواة لإعادة بنائها في البيئة الرقمية، بحيث يشير إلى عملية استقبال النصوص داخل نظام تتدخل فيه الخوارزميات، بدرجات متفاوتة، في اختيار المادة وترتيبها وإظهارها وتخصيصها وتقديم الشروح والتوصيات المرتبطة بها، ثم في معالجة بعض آثار الاستجابة اللاحقة بوصفها بيانات يمكن أن تؤثر في دورات جديدة من التلقي. ويصبح هذا المفهوم ضروريًا لأن فعل القراءة لم يعد قابلًا للاختزال في لحظة المواجهة بين ذات ونص، بل أصبح في كثير من الممارسات حلقة داخل دورة تبدأ قبل فتح العمل وتستمر بعد إغلاقه.

ويمثل هذا الفصل، لذلك، انتقالًا من دراسة **الخوارزمية بوصفها بوابة إلى النص** إلى بناء نموذج نظري يرى أن الوساطة الخوارزمية يمكن أن تنتشر على ثلاثة أزمنة متصلة :**ما قبل القراءة، وأثناء القراءة، وما بعد القراءة** .ففي الزمن الأول تشارك أنظمة البحث والتوصية في تشكيل مجال الاختيار وفي صناعة توقعات القارئ؛ وفي الثاني تستطيع الواجهة والأدوات الذكية أن تشارك في التفسير والاسترجاع والتخصيص والتوصية المصاحبة؛ وفي الثالث تتحول التقييمات والمراجعات والاقتباسات والنقرات والمشاركات إلى آثار اجتماعية وبيانات يمكن أن تعود إلى النظام فتؤثر في ظهور النص لقراء آخرين. ومن هذا التتابع ينشأ نموذج دوري يختلف عن الخطوط التقليدية المبسطة من نوع «مؤلف ـ نص ـ قارئ» ، ويقترب من شبكة متكررة يكون القارئ داخلها مستقبلًا ومنتجًا للمعنى ومصدرًا للبيانات في الوقت نفسه.

ـ المبحث الأول: مفهوم التلقي الخوارزمي

ـ *التعريف*

يمكن تعريف التلقي الخوارزمي، في الإطار النظري المقترح في هذا الكتاب، بأنه :عملية استقبال النصوص والأعمال الثقافية داخل بيئة تتدخل فيها الأنظمة الخوارزمية في بعض شروط الوصول والاختيار والترتيب والإظهار والتخصيص والتفسير والتداول، بحيث تؤثر في المجال الذي يلتقي داخله القارئ بالنص وفي بعض المسارات التي يسلكها أثناء القراءة وبعدها، من دون أن تلغي الفاعلية التأويلية البشرية أو تختزل التلقي في الحساب الآلي .ويقصد هذا التعريف إلى الجمع بين مستويين ينبغي الفصل بينهما منهجيًا؛ الأول هو أن الخوارزمية تؤثر فعليًا في شروط التلقي، والثاني هو أنها ليست «متلقيًا» بالمعنى الذي يكون فيه الإنسان قارئًا يعيش العمل ويكون له تاريخ وذاكرة وقصد وموقف.

ومن الضروري تأكيد هذا الحد لأن تعبير «التلقي الخوارزمي» يمكن أن يساء فهمه بوصفه إسنادًا لفعل التلقي إلى الخوارزمية نفسها، بينما المقصود هو وصف تلقي بشري مؤطر أو موسط خوارزميًا .فالخوارزمية تستطيع ترتيب الكتب، لكنها لا تستمتع بها؛ وتستطيع تقدير احتمال النقر، لكنها لا تمتلك رغبة أدبية؛ وتستطيع توليد شرح، لكنها لا تعيش تجربة الفهم كما يعيشها الإنسان. ومع ذلك فإن غياب التجربة البشرية عنها لا يجعلها خارج النظرية، لأن دراسة التلقي لا ينبغي أن تقتصر على من ينتج المعنى النهائي، بل ينبغي أن تشمل كذلك المؤسسات والوسائط والآليات التي تنظم الشروط التي يصبح فيها بعض المعنى وبعض النصوص أكثر حضورًا من غيرها.

ويجد هذا التوسع أساسًا في دراسات الخوارزميات التي بينت أن أنظمة البحث والتوصية وقواعد البيانات لا تؤدي أدوارًا محايدة في البيئة المعلوماتية، لأنها تشارك في تحديد ما يعد ذا صلة وما يستحق أن يظهر للمستخدم [3]. وقد شدد تارلتون غيليسبي على أن الخوارزميات ينبغي أن تدرس داخل

العلاقات الاجتماعية والمؤسساتية التي تنتجها، لا باعتبارها إنجازات تقنية مجردة، وهو ما يتيح لنظرية التلقي أن تنقل سؤال «من يقرأ النص؟» إلى سؤال أوسع :ضمن أي نظام من الترتيب والاختيار أصبح هذا النص قابلًا للقراءة أصلًا؟.

كما أن تحليل مجتمع المنصات عند خوسيه فان ديك وتوماس بول ومارتين دي وال يسمح بفهم البيئة الرقمية بوصفها بنية تتداخل فيها البيانات والتخصيص والقيمة الاقتصادية والاختيار، بحيث لا تكون المنصة وعاءً محايدًا للمحتوى، بل وسيطًا يعيد تنظيم أنماط التواصل والاستهلاك والوصول [4]. ومن هنا يصبح التلقي الخوارزمي أكثر من تطبيق لنظرية أدبية على تكنولوجيا جديدة، لأنه يعيد تحديد وحدة التحليل نفسها؛ فلم تعد الوحدة هي القارئ والنص فقط، وإنما النظام الذي يصل عبره النص إلى القارئ وما يحدث داخله قبل القراءة وأثناءها وبعدها.

ويستند المفهوم كذلك إلى ما أظهرته دراسات الثقافة الخوارزمية من أن تحويل التفضيلات إلى بيانات لا يقتصر على وصف الذوق، بل يمكن أن يدخل في تنظيم الثقافة نفسها. فقد حلل هالينان وستريبهاس أنظمة التوصية بوصفها جزءًا من «الثقافة الخوارزمية»، حيث يتحول الذوق والتقييم والسلوك إلى مواد قابلة للمعالجة الحسابية والتوقع [6]. وتسمح هذه الفكرة بإضافة بعد لم يكن في نظريات التلقي التقليدية: الجمهور لا يستقبل العمل فقط، بل يترك أثناء استقباله آثارًا يمكن أن تعود لتصبح جزءًا من شروط استقبال جمهور لاحق.

ومن هنا يمكن التمييز بين تلقي النص وتلقي البيئة النصية؛ ففي المستوى الأول يبني القارئ معنى العمل، أما في الثاني فيتعامل كذلك مع قائمة التوصيات والتقييمات والمراجعات والواجهات والنتائج التي تحيط به، وهذه الطبقة الثانية لم تعد مجرد سياق اجتماعي بالمعنى العام، بل أصبحت منظومة قابلة للتخصيص الحسابي. ويقود هذا التمييز إلى نتيجة أساسية

مفادها أن دراسة التلقي المعاصر لا يمكن أن تبدأ دائمًا من الصفحة الأولى، لأن جزءًا من الاستقبال قد يكون قد تشكل قبلها.

ـ الحدود والمجال

يحتاج مفهوم التلقي الخوارزمي إلى حدود واضحة حتى لا يتحول إلى تسمية شاملة لكل قراءة رقمية، إذ لا تكفي شاشة أو ملف إلكتروني لكي نتحدث عن تلقي خوارزمي، كما أن وجود برنامج في الخلفية لا يعني أن الخوارزمية شاركت بصورة ذات دلالة في عملية الاستقبال. ولذلك ينبغي العودة إلى التمييز الذي أسسه الكتاب بين **رقمنة الوسيط** و**خوارزمية العلاقة**؛ فالكتاب الإلكتروني الذي يفتح في قارئ بسيط دون تخصيص أو توصية يمكن أن يظل مثالًا على القراءة الرقمية أكثر منه على التلقي الخوارزمي، بينما تصبح الوساطة خوارزمية حين تدخل أنظمة الحساب والترتيب والتنبؤ والتخصيص بصورة تؤثر في ما يظهر أو في الطريقة التي يتعامل بها المستخدم معه.

ومن هنا لا يكون مجال التلقي الخوارزمي محصورًا في منصات الكتب، بل يشمل، من حيث المبدأ، كل بيئة ثقافية تتدخل فيها أنظمة البحث والترتيب والتوصية والتخصيص في العلاقة بين العمل والمتلقي، سواء تعلق الأمر بالأدب أو المقالات أو الأخبار أو الفيديو أو المواد الصوتية، غير أن هذا الكتاب يقصر تحليله الأساسي على القراءة وما يتصل بها حتى يحتفظ المفهوم بدقته النقدية. كما أن التلقي الخوارزمي ليس مرادفًا للتلقي بالذكاء الاصطناعي، لأن التوصية والترتيب يمكن أن يكونا خوارزميين من دون أن يكون النظام توليديًا، بينما يمثل الذكاء الاصطناعي التوليدي مستوى متقدمًا حين تبدأ الوساطة في إنتاج شرح أو تلخيص أو اقتراح تأويل.

ويجب كذلك الفصل بين التلقي الخوارزمي والتلقي الآلي، لأن الأول يظل تلقيًا بشريًا تتدخل في شروطه الخوارزمية، بينما الثاني يمكن، إذا استخدم، أن يشير إلى عمليات معالجة آلية للنصوص تقوم بها أنظمة الحاسوب، وهو موضوع مختلف. ولا يقصد الكتاب أن يمنح الخوارزمية موقع القارئ، بل أن

يضعها في موقع الفاعل الوسيطي الذي يمكن أن يشارك في تنظيم العلاقة بين القارئ والنص.

ويتيح هذا الحد الاحتفاظ بنظرية التلقي داخل مجال العلوم الإنسانية، لأن إدخال الخوارزمية لا يعني تحويل النقد إلى علم حاسوب، كما لا يتطلب معرفة الشفرة الخاصة لكل منصة، وإنما يستدعي دراسة **الوظائف والآثار المرصودة**؛ أي ماذا يرتب النظام؟ ماذا يقترح؟ ماذا يخفي؟ ما البيانات التي يستخدمها بصورة معلنة؟ وكيف تغير هذه العمليات المجال الذي يمارس داخله القارئ حريته؟ ويتوافق ذلك مع المقاربة التي تحلل القوة الخوارزمية عند بوخر بوصفها علاقة اجتماعية ـ تقنية متعددة وليست مجرد أثر مباشر للشفرة.[7]

ومن هنا تتحدد الحدود المنهجية للمفهوم في أربعة مستويات مترابطة: لا نفترض معرفة الخوارزمية الداخلية إذا لم تكن متاحة، ولا ننسب إلى النظام نية بشرية، ولا نعامل أثر التخصيص كأنه حتمي، ولا نحول كل تغير في السلوك إلى نتيجة سببية مباشرة للخوارزمية. بل ننطلق من آلية معلنة أو قابلة للملاحظة → **أثر محتمل أو مرصود** → **تفسير نقدي محدود**، وهو المنهج الذي يمنع النظرية من الوقوع في «أسطرة الخوارزمية» بوصفها قوة غامضة تفسر كل شيء.

ويظل القارئ، في هذا النموذج، فاعلًا قادرًا على القبول والرفض والبحث خارج التوصية، ولهذا لا يصف التلقي الخوارزمي حالة سيطرة كاملة، بل حالة **إعادة توزيع لشروط الاختيار والرؤية** .ويمكن للقارئ نفسه أن ينتقل بين تلقي أكثر خوارزمية وآخر أقل خوارزمية؛ فقد يكتشف كتابًا عبر توصية مخصصة ثم يقرأه ورقيًا دون أدوات، أو يختار كتابًا من رف مادي ثم يستخدم الذكاء الاصطناعي في تفسيره، وبذلك تتغير درجة الوساطة بحسب المرحلة.

ـ المبحث الثاني: خوارزمية الاختيار

ـ ما قبل القراءة

تبدأ إحدى أهم إضافات مفهوم التلقي الخوارزمي من الاعتراف بأن ما قبل القراءة جزء من التلقي، لأن النص الذي لم يدخل مجال رؤية القارئ لا يستطيع أن يثير أفق انتظاره أو يختبره، ولأن القرار بشأن أي عمل يستحق الوقت أصبح في بيئة الوفرة قرارًا مركزيًا لا يقل أهمية عن عملية الفهم نفسها. وقد كانت هناك دائمًا وسائط لاكتشاف الكتب؛ من الناقد والمكتبي والمعلم والصديق والإعلان والجائزة والفهرس، غير أن أنظمة التوصية تتميز بقدرتها على إنتاج اقتراحات شخصية أو شبه شخصية انطلاقًا من بيانات وسلوكيات كثيرة، وهو ما يجعلها وسيطًا يتمتع بدرجة مرتفعة من الاستمرارية والقدرة على التعديل.

وتوضح أدبيات أنظمة التوصية أن الهدف الأساسي لهذه الأنظمة هو مساعدة المستخدم في اختيار عناصر يحتمل أن تكون ذات صلة باهتماماته داخل فضاءات واسعة من الخيارات [5]. ولا يحتاج مشروع التلقي إلى الدخول في جميع التقنيات الحسابية التي تحقق ذلك، لكن ما يهمه هو التحول من فهرس يعرض المخزون إلى نظام يرتب احتمالات العلاقة بين المخزون والفرد . فالفرق النظري بين القائمة الأبجدية وقائمة «مقترح لك» أن الأولى تنظم الكتب وفق خاصية مستقلة نسبيًا عن المستخدم، بينما الثانية تقدم تمثيلًا لما يتوقع النظام أن يكون مناسبًا له.

ومن هنا تقترح نظرية التلقي الخوارزمي مفهوم »خوارزمية الاختيار «لا للدلالة على خوارزمية تقنية واحدة بهذا الاسم، وإنما بوصفه مفهومًا وظيفيًا يجمع العمليات التي تتدخل في ما قبل القراءة عبر البحث والتوصية والترتيب والشعبية والتخصيص. ويشير المصطلح إلى أن جزءًا من قرار «ماذا سأقرأ؟» أصبح يحدث داخل علاقة بين إرادة القارئ والبنية التي نظمت خياراته، بحيث لا يعود الاختيار فرديًا خالصًا ولا مفروضًا بالكامل.

وتكمن أهمية هذه المرحلة في أنها تنقل الوساطة من اختيار عمل موجود أمام القارئ إلى **تشكيل مجال الموجود أمامه** .فإذا قدمت منصة عشرة كتب من بين مليون، يستطيع المستخدم الاختيار بحرية بينها، لكن حريته لا تفسر لماذا أصبحت هذه العشرة هي المجال الأول لرؤيته، ومن هنا ينبغي التمييز، كما اقترح الكتاب سابقًا، بين **حرية الاختيار داخل القائمة** وسلطة **تشكيل القائمة نفسها** .وهذا التمييز يمثل إحدى الركائز الأساسية للتلقي الخوارزمي لأن السلطة لا تعمل بالمنع وحده، بل كذلك عبر تنظيم احتمالات الظهور.

وقد بين غيليسبي أن الخوارزميات تؤدي دورًا متزايدًا في تقييم الصلة والإدراج والاستبعاد والتخفيض، وهو ما يعني أن ما لا يظهر جزء من المنظومة بقدر ما يظهر [3]. وبالنسبة إلى القراءة لا يعني ذلك أن كل كتاب منخفض الظهور «أخفته» خوارزمية بعينها، لأن عوامل النشر والتوزيع واللغة والشهرة والسوق تدخل كذلك في العملية، وإنما أن القابلية للاكتشاف أصبحت نتيجة نظام متعدد المستويات لا يمكن تفسير اختيار القارئ دون النظر إليه.

ومن هنا يمكن إعادة صياغة المرحلة الأولى من التلقي بالطريقة التالية :**لا يبدأ القارئ دائمًا باختيار نص من كل النصوص الممكنة، بل يختار غالبًا من مجموعة سبق أن أصبحت مرئية بالنسبة إليه** .وهذا التحول لا يلغي الحرية، لكنه يجعلها حرية مشروطة ببنية ظهور، وهو ما يعيد نظرية التلقي من سؤال الاستجابة إلى سؤال الوصول.

- صناعة توقعات القارئ

لا تقتصر خوارزمية الاختيار على وضع النص أمام القارئ، لأن الطريقة التي يظهر بها تستطيع أن تبني حوله توقعات قبل فتحه. فالتوصية لا تقول فقط إن هذا الكتاب موجود، بل قد تقدمه داخل فئة مثل «لأنك قرأت...» أو «مشابه لما أعجبك»، وقد يظهر مصحوبًا بتقييم وعدد من المراجعات أو باعتباره رائجًا أو مناسبًا لاهتمام معين. وبذلك يتحول سياق العرض إلى عتبة تفسيرية مبكرة.

ويصبح هذا الأمر مهمًا إذا عدنا إلى ياوس، لأن «أفق الانتظار» يتعلق بمجموعة التوقعات التي يدخل بها الجمهور إلى العمل بناء على خبرته بالأجناس والأعمال السابقة والمعايير الأدبية [1]. أما البيئة الخوارزمية فتضيف إلى هذا الأفق طبقة جديدة يمكن أن تتشكل قبل القراءة من خلال معلومات مرتبطة بتاريخ المستخدم نفسه. فإذا قدمت رواية إلى شخص لأنها «تشبه» رواية أخرى أحبها، فقد يدخل إليها وهو يبحث، واعيًا أو غير واعٍ، عن أوجه الشبه، وبذلك يكون نظام التوصية قد ساهم في تحديد سؤال سابق على النص.

ومن هنا يمكن الحديث عن **التأطير الخوارزمي لما قبل القراءة**، أي الطريقة التي تمنح بها الواجهة للنص موقعًا ضمن شبكة من التشابهات والتقييمات والتصنيفات. ولا يعني التأطير أن القارئ سيقبل هذا الموقع بعد القراءة، فقد يجد الرواية مختلفة تمامًا، لكن الاختلاف نفسه سيقاس جزئيًا بالتوقع الذي دخل به إليها، ولذلك يكون أثر الخوارزمية في هذه الحالة أثرًا في شروط المفاجأة لا في المعنى النهائي.

وتتصل صناعة التوقعات كذلك بالثقافة الخوارزمية التي ناقشها هالينان وستريبهاس، حيث تصبح التفضيلات والاختيارات الثقافية قابلة للتصنيف والتنبؤ والتوصية [6]. ومن هنا لا يكون النظام مجرد مرآة لذوق سابق، بل يستطيع أن يساهم في بناء ما سيحسب لاحقًا بوصفه ذوقًا، لأن التوصية التي تؤدي إلى قراءة جديدة تنتج بيانات جديدة تدخل في النموذج التالي. وبذلك تصبح التوقعات جزءًا من دورة لا من حدث منفرد.

ويظهر في هذه المرحلة مفهوم »**العتبة الخوارزمية** «بوصفه تطويرًا إجرائيًا لفكرة العتبات التي تحيط بالعمل، فالعنوان والغلاف والناشر عناصر ثابتة نسبيًا، أما ترتيب النص والتوصية التي جاء من خلالها والمواد التي تظهر بجواره فقد تختلف من قارئ إلى آخر ومن لحظة إلى أخرى. ومن هنا لا يدخل جميع القراء العمل من الباب الرقمي نفسه، حتى عندما يقرأون النص ذاته.

ـ المبحث الثالث: خوارزمية القراءة

ـ التخصيص أثناء التلقي

إذا كانت خوارزمية الاختيار تعمل قبل القراءة، فإن خوارزمية القراءة تشير في هذا الكتاب إلى مجموع العمليات الخوارزمية التي يمكن أن تتدخل أثناء التلقي ذاته، من تخصيص الواجهة والاسترجاع والبحث داخل النص إلى الشروح التكيفية والتوصيات السياقية والمساعدات التوليدية. ولا يقصد المصطلح وجود برنامج تقني واحد يتحكم في «القراءة»، بل تسمية الوظائف التي تجعل الوساطة مستمرة بعد فتح العمل بدل أن تنتهي عند لحظة الاختيار.

ويختلف هذا المستوى عن التلقي الرقمي البسيط لأن الوسيط لا يعرض النص فقط، بل يستطيع أن يستجيب إلى سلوك القارئ أو إلى طلباته، فيغير حجم العرض أو يستعيد تعريفًا أو يعرض رابطًا أو يولد شرحًا، وقد تصبح القراءة، كما أوضحت الفصول العاشر والحادي عشر، حوارًا مع نظام يستطيع تكييف المخرج مع السؤال. ومن هنا تصبح الخوارزمية جزءًا من البيئة التشغيلية للفهم لا مجرد بوابة سابقة عليه.

ويجب مع ذلك التمييز بين التخصيص الذي يخدم النفاذ والتخصيص الذي يدخل في المعنى؛ فتغيير حجم الخط وفق حاجة بصرية لا يؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها تقديم شرح مخصص لمفهوم أو اقتراح تفسير، وكلما اقترب التدخل من المعنى ازدادت أهميته بالنسبة إلى نظرية التلقي. ومن هنا يمكن تصور خوارزمية القراءة بوصفها طيفًا يبدأ من تنظيم العرض وينتهي عند إنتاج خطاب تفسيري.

ويتيح هذا الطيف إعادة توظيف مفهوم «الذات القارئة الموزعة» الذي قدمه الفصل السادس، لأن القارئ أثناء التلقي قد يعتمد على ذاكرته الداخلية ونصه وملاحظاته ومحرك البحث والمساعد التوليدي في الوقت نفسه، فتتوزع بعض وظائف القراءة دون أن تتوزع المسؤولية بالدرجة نفسها. ومن هنا

يصبح التلقي الخوارزمي داخل مرحلة القراءة نظامًا معرفيًا موزعًا أكثر منه علاقة خطية بين نص وعقل.

ولا يعني تخصيص القراءة بالضرورة تحسينها ، لأن ما يلائم تفضيلات القارئ يمكن أن يتحول إلى تقليل للاحتكاك الذي يحتاج إليه الفهم ، كما أن الشرح المتكيف يستطيع أن يساعد المبتدئ لكنه قد يغلق غموضًا أدبيًا ينبغي الاحتفاظ به. ومن هنا ينبغي ألا يكون التخصيص قيمة في ذاته، بل أداة تخضع لسؤال: هل يؤدي إلى زيادة قدرة القارئ على التعامل مع النص أم إلى استبدال بعض عمليات القراءة؟

وتؤكد هذه النقطة أن التلقي الخوارزمي ليس نظرية احتفال بالتقنية، بل نظرية لتحليل درجة التدخل .فالمهم ليس أن الأداة شخصية أو ذكية، بل ما الوظيفة التي أدتها وكيف غيرت المسار الذي كان سيسلكه القارئ من دونها.

ـ الشرح والتوصية والاستكمال

يمثل الشرح المصاحب للنص أحد أكثر أوجه خوارزمية القراءة وضوحًا ، لأن النظام يمكن أن ينتج حاشية أو ترجمة أو تلخيصًا أو خلفية في اللحظة نفسها التي يواجه فيها القارئ صعوبة، وهو ما يحول الجهاز التفسيري من بنية ثابتة إلى بنية دينامية. وقد ناقشت الفصول السابقة «الهامش الاصطناعي» و«الحاشية الدينامية» ، وتظهر أهميتهما هنا لأنهما تجعل التلقي قابلًا لأن يتكيف مع سؤال الفرد بدل أن يقرأ جميع المستخدمين الشروح نفسها.

وتعمل التوصية أثناء القراءة كذلك بطريقة تختلف عن توصية ما قبل القراءة، لأنها قد تقترح مادة مرتبطة بالمقطع الحالي أو نصًا آخر أو شرحًا أو فيديو أو عملًا مشابهًا ، وبذلك يتوسع النص أثناء قراءته إلى شبكة. وقد يؤدي هذا التوسع إلى إثراء السياق، لكنه يستطيع كذلك أن يحول القراءة إلى انتقال دائم ، ولذلك يصبح إدارة الانقطاع جزءًا من كفاءة التلقي الخوارزمي.

أما «الاستكمال» فيشير إلى مستوى أكثر تقدمًا حين يستطيع النظام أن يستكمل سؤالًا أو صياغة أو تلخيصًا أو حتى توقع ما الذي قد يحتاج القارئ إلى معرفته بعد ذلك، وهنا تتحرك الخوارزمية من الاستجابة إلى نوع من الاستباق الوظيفي .ولا يعني ذلك أنها تعرف ما يريد الإنسان بالمعنى النفسي الكامل، وإنما تستخدم السياق والسلوك لكي تقدم احتمالًا قد يوفر عليه خطوة.

وتكمن الخطورة النظرية في أن الاستباق يمكن أن يعيد ترتيب المبادرة؛ ففي القراءة التقليدية يظهر السؤال داخل القارئ ثم يبحث عن جواب، أما النظام التكيفي فيستطيع أحيانًا أن يقترح السؤال والجواب معًا، فيصبح ما لم يسأله الإنسان جزءًا من مساره. وهذا لا يكون سلبيًا بالضرورة، فقد يلفت النظام إلى إحالة مهمة، لكنه يجعلنا نسأل :من أين جاءت الأسئلة التي توجه القراءة؟، وهو سؤال جوهري لأن إنتاج السؤال جزء من التأويل لا مجرد خطوة تقنية.

ومن هنا يمكن التمييز بين خوارزمية تساعد على متابعة السؤال البشري وخوارزمية تبدأ في تشكيل السؤال البشري .وفي الحالة الثانية ترتفع درجة التدخل التأويلي، مما يستدعي وعيًا أكبر بمنطق الوسيط. وبهذا يتصل الفصل الثالث عشر مباشرة بمفهوم «القراءة الميتا خوارزمية» الذي سيأتي في الفصل الرابع عشر، لأن القارئ يحتاج، عندما يقترح النظام السؤال نفسه، إلى أن يسأل لماذا أصبح هذا السؤال ظاهرًا.

ـ المبحث الرابع: خوارزمية ما بعد القراءة

ـ *التقييم والمراجعة*

لا تنتهي القراءة في المنصة بإغلاق الصفحة الأخيرة، لأن التقييم والمراجعة والحفظ والمشاركة أصبحت أفعالًا يمكن أن تحول الاستجابة إلى أثر رقمي يدخل في المجال العام، ومن هنا يقترح الكتاب مفهوم »**خوارزمية ما بعد القراءة**« للدلالة على العمليات التي تعالج آثار التلقي بعد انتهائه أو أثناء تحوله إلى خطاب اجتماعي، فتظهر المراجعات وترتب ويُحسب متوسط التقييم وتقترح أعمال جديدة اعتمادًا على ما فعله القارئ.

وقد كشف الفصل التاسع أن القارئ المنتج يحول استجابته إلى نصوص موازية ومراجعات وتعليقات، بينما بيّن الفصل الثامن أن المقاييس الرقمية قادرة على تحويل بعض هذه الآثار إلى مؤشرات قابلة للمقارنة. ويتيح عمل ديفيد بير حول «قوة المقاييس» فهم كيفية اكتساب الأرقام قدرة تنظيمية حين تتحول إلى وسائل للمقارنة والتصنيف والحكم [9]. وفي المجال القرائي يصبح التقييم من نجمة إلى خمس نجوم اختزالًا شديدًا لتجربة معقدة، لكنه يملك أثرًا لأنه قابل للجمع في رقم يراه القراء الآخرون.

وهنا تتغير علاقة التلقي بالنقد؛ فالمراجعة التي كانت استجابة بعد العمل تصبح جزءًا من عتبته بالنسبة إلى قارئ لاحق، ولذلك ينتقل ما بعد قراءة شخص إلى ما قبل قراءة شخص آخر. وهذه الحركة هي واحدة من أهم الخصائص الدورية للتلقي الخوارزمي، لأن المراحل لا تبقى مرتبة في خط منفرد بل تعود بعضها إلى بعض.

فإذا كتب قارئ مراجعة وحصلت على تفاعل كبير، قد تصبح أكثر ظهورًا، وإذا ارتفع متوسط التقييم يمكن أن يدخل في قرار مستخدم آخر أو في نظام توصية، وإذا شارك المستخدم اقتباسًا قد يصل إلى جمهور لم يكن يعرف الكتاب. ومن هنا تتحول الاستجابة الفردية إلى بنية استقبال جماعي، وهو

ما يوسع مفهوم تاريخ التلقي؛ فبدل أن يكون التاريخ سلسلة من القراءات الموثقة بعد وقوعها، يصبح بعضه مادة تعمل مباشرة في صناعة القراءة التالية.

ولا ينبغي، مع ذلك، مساواة جميع أشكال التفاعل بتأويل عميق، لأن النقر والحفظ والنجمة والمراجعة المطولة تمثل درجات مختلفة من الدلالة، كما أن البيانات السلوكية لا تكشف وحدها دوافع الإنسان. وقد شددت فان ديك في نقد «التبيين بالبيانات» على ضرورة عدم التعامل مع البيانات كما لو كانت تمثيلًا شفافًا للحياة الاجتماعية [8]، وهو تنبيه مهم هنا لأن «ما بعد القراءة» الذي تستطيع الخوارزمية قياسه ليس كل ما حدث للقارئ.

ومن هنا ينبغي لنظرية التلقي الخوارزمي أن تميز بين الاستجابة القابلة للقياس والاستجابة غير القابلة للقياس بسهولة؛ فالمنصة تستطيع تسجيل تقييم لكن لا تستطيع استنفاد أثر الكتاب في ذاكرة القارئ بعد عشر سنوات، وتستطيع معرفة أن المستخدم لم يكمل العمل لكنها لا تعرف دائمًا لماذا، ولذلك يكون الملف الخوارزمي تمثيلًا جزئيًا للتلقي لا التلقي نفسه.

ـ إعادة التوصية والتداول

تتحول آثار ما بعد القراءة إلى قوة جديدة حين يعيد النظام استعمالها في التوصية، لأن التقييم السابق لا يبقى سجلًا للماضي، بل يصبح مدخلًا في بناء احتمالات مستقبلية، وبذلك تنشأ دورة ثقافية تعيد النتائج إلى مقدماتها. وتوضح أنظمة التوصية أن التغذية الراجعة الصريحة والضمنية يمكن أن تدخل في تحسين أو تعديل الاقتراحات التي تقدم لاحقًا [5]، وهو ما يسمح لنا نظريًا بالقول إن القارئ، حين يقيم أو ينقر أو يتفاعل، يساهم في إعادة تدريب بيئته القرائية بدرجات تختلف من نظام إلى آخر.

ولا يعني ذلك أن كل تفاعل يغير الخوارزمية مباشرة أو بالطريقة نفسها، لأن آليات المنصات تختلف وبعضها غير معلن، ولذلك يستخدم مفهوم «إعادة التوصية» هنا وظيفيًا للإشارة إلى عودة آثار الاستخدام إلى منطق الاختيار، لا

إلى ادعاء معرفة تفصيلية بكيفية وزن كل إشارة. وتظل القاعدة المنهجية هي دراسة ما يمكن إثباته أو ملاحظته دون اختراع خصائص داخلية للنظام.

ومن هنا تصبح القراءة حدثًا منتجًا للمستقبل :كل اختيار يمكن أن يصبح جزءًا من بيانات الاختيار التالي .فإذا أكمل القارئ مجموعة من الروايات من نوع واحد، يمكن للنظام أن يزيد ترجيح هذا النوع، وإذا تجاهل اقتراحات معينة يمكن أن تتغير التوصيات، وهكذا يدخل المستخدم في علاقة تكرارية مع تمثيل خوارزمي لتفضيلاته.

وقد وصف هالينان وستريبهاس الثقافة الخوارزمية في سياق التوصية باعتبارها عملية يعاد فيها تعريف الذوق والتصنيف عبر معالجة البيانات [6]، ويمكن لنظرية التلقي أن تضيف أن هذه المعالجة تجعل الاستقبال نفسه مادة تنظيمية للاستقبال اللاحق .وهذا التحول بالغ الأهمية لأنه يجعل الجمهور لا يؤثر فقط عبر النقاش الاجتماعي أو النجاح التجاري، بل كذلك عبر الآثار التي تستطيع الأنظمة تحويلها إلى إشارات.

ويتوسع التداول حين تتحرك المراجعة أو الاقتباس خارج منصة الكتاب إلى وسائل اجتماعية أخرى، لأن الرواج يمكن أن يعود بدوره إلى الكتاب في شكل مبيعات أو تفاعل أو مراجعات إضافية، فتتشكل حلقة يصعب فيها الفصل بين السوق والمجتمع والخوارزمية والتلقي. ومن هنا لم يعد تاريخ استقبال العمل يتكون فقط من مقالات النقاد والقراءات الأكاديمية، بل من شبكة من المؤشرات والتفاعلات الرقمية التي تستطيع أن تتراكم بسرعة.

ويكشف هذا المستوى عن خاصية أساسية في التلقي الخوارزمي هي الاسترجاع الذاتي للدورة؛ فالقراءة تنتج بيانات، والبيانات تعيد تنظيم مجال القراءة، وبذلك يصبح النظام قادرًا على تعلم شيء من نتائج وساطته السابقة ثم استخدامها في وساطة جديدة. ولا يوجد هذا العنصر بصورة مماثلة في الناقد التقليدي أو الفهرس الورقي، لأنهما لا يراقبان ملايين التفاعلات ويعدلان العرض آليًا على أساسها.

ـ المبحث الخامس: أفق الانتظار الخوارزمي

ـ تحديث مفهوم ياوس

يمثل «أفق الانتظار» واحداً من أهم المفاهيم التي قدمها ياوس لإعادة بناء التاريخ الأدبي من جهة الجمهور، إذ يشير إلى الشبكة من التوقعات والمعايير والخبرات التي يستقبل القارئ أو الجمهور من خلالها عملًا جديدًا، بناءً على معرفته السابقة بالأجناس والأشكال والعلاقات بين الأعمال [1]. وتكمن قوة المفهوم في أنه يمنع تصور القراءة باعتبارها لقاءً بين نص وعقل فارغ، لأن كل استقبال يبدأ من تاريخ أدبي وثقافي يجعل بعض العناصر مألوفة وبعضها مفاجئة، كما أن العمل يستطيع أن يحقق الأفق أو يخالفه أو يعيد تشكيله.

ولا يحتاج مفهوم ياوس إلى الإلغاء في البيئة الرقمية، بل إلى إضافة طبقة جديدة إليه، لأن التاريخ والجنس والتقاليد لا تزال تؤثر في القارئ، لكن الخوارزمية تستطيع الآن أن تجمع آثارًا من تاريخ الشخص الفردي وتعيد ترتيب مجال المحتوى حوله. ومن هنا يقترح هذا الكتاب مفهوم »أفق الانتظار الخوارزمي «للدلالة على الطبقة من التوقعات التي تتشكل أو تتقوى بفعل الترتيب والتوصية والتخصيص والمقاييس والعتبات الرقمية التي تسبق لقاء القارئ بالنص.

ولا يعني المفهوم أن الخوارزمية «تصنع» الأفق وحدها، لأن القارئ يصل إليها وهو يحمل لغة وطبقة وتعليمًا وذوقًا وخبرات وعلاقات اجتماعية، لكن النظام يدخل في إعادة تنظيم بعض هذه الآثار وإعادتها إليه .فإذا كان القارئ قد أحب سلسلة من الروايات، فإن توصية رواية جديدة بناء على هذا التاريخ تحوّل الماضي الثقافي إلى إطار حسابي يشارك في صناعة التوقع، وبذلك يصبح الأفق نتاجًا لتفاعل بين الذاكرة الإنسانية والذاكرة المنصاتية.

وهنا يظهر فرق بين ياوس والبيئة المعاصرة؛ فأفق الانتظار في نظريته مرتبط بدرجة كبيرة بتاريخ جمهور أو حقبة أو خبرة أدبية مشتركة، بينما تستطيع المنصة أن تنتج **أفقًا شخصانيًا** يختلف من مستخدم إلى آخر. ولا يعني ذلك اختفاء الأفق الجماعي، لأن القارئ يظل عضوًا في جماعة ومرحلة تاريخية، بل ظهور مستوى إضافي يمكن أن نسميه »**التخصيص الآلي للأفق**.«

ويؤدي هذا التخصيص إلى تعقيد مفهوم «المسافة الجمالية» بين توقع القارئ والعمل؛ فإذا توقع النظام أن كتابًا مشابه لما أحبه المستخدم فدخل إليه الأخير بهذه الفرضية ثم وجد العمل مختلفًا، فإن الصدمة لا تقع فقط بين النص وتقليد الجنس الأدبي، بل بين النص والتوقع الذي أنتجته الوساطة عنه .ومن هنا تستطيع دراسة التلقي أن تسأل ليس فقط لماذا خالف العمل أفق الجمهور، بل لماذا توقع النظام أصلًا أن هذا العمل مناسب لهذا القارئ.

ويفتح هذا السؤال مجالًا جديدًا للبحث التجريبي؛ إذ يمكن دراسة مدى تأثير العبارات التوصوية والتقييمات والترتيب السابق على استقبال النص، ومدى اختلاف استجابة القراء إذا قدم العمل من دون مؤشرات أو داخل إطار مخصص. ومن هنا يصبح «أفق الانتظار الخوارزمي» فرضية قابلة للتحويل إلى برنامج بحث، لا استعارة نظرية فقط.

ـ من أفق اجتماعي إلى أفق شخصاني مؤتمت

لا ينبغي أن توحي عبارة «من أفق اجتماعي إلى أفق شخصاني مؤتمت» بحدوث استبدال تاريخي ينتقل فيه القارئ من المجتمع إلى الخوارزمية، لأن الأفق الشخصي نفسه يتشكل من مواد اجتماعية، كما أن خوارزميات التوصية تتعلم في حالات كثيرة من سلوك جماعات كبيرة. ومن ثم يكون الأدق الحديث عن تراكب الأفقين :أفق اجتماعي ـ ثقافي تاريخي، وأفق شخصاني خوارزمي يعاد بناؤه بصورة مستمرة.

فالقارئ الذي يعيش في مدينة معينة وينتمي إلى لغة معينة ويتعلم داخل نظام تعليمي معين يحمل أفقًا لا تستطيع الخوارزمية إنتاجه من الصفر، لكن النظام يمكن أن يتعلم من سلوكه بعض الأنماط ويعيد إليه محتوى يتوافق معها. وهكذا يكون الشخصاني مؤسسًا جزئيًا على الاجتماعي، بينما يعود الاجتماعي إلى الفرد في صورة اقتراح خاص، وهي حركة تجعل الخوارزمية جهازًا لتحويل الثقافة الجماعية إلى احتمال شخصي.

وتسمح أنظمة التوصية، كما تبين الأدبيات التقنية، باستخدام بيانات وتفضيلات وسياقات متعددة في إنتاج اقتراحات ملائمة للمستخدم [5]، لكن الملاءمة ليست مفهومًا بريئًا من الناحية الثقافية؛ فما «يلائم» الفرد اليوم قد يكون ما يشبه ماضيه، بينما يمكن للثقافة أن تغير الإنسان بواسطة ما لا يلائمه مسبقًا. ومن هنا يظهر توتر بين الملاءمة والاستكشاف، وهو التوتر الذي ناقشه الكتاب سابقًا في سياق المصادفة والتنوع.

ويصبح الأفق الشخصاني مؤتمتًا حين لا يحتاج القارئ إلى إعادة صياغة تفضيلاته في كل مرة، لأن النظام يستنتجها أو يحدثها انطلاقًا من السلوك، وبذلك يمكن أن يظل الملف الذي يمثل ذوقه نشطًا حتى في اللحظات التي لا يفكر فيها بصورة واعية بما يحبه. وقد ناقشت فان ديك «التبيين بالبيانات» بوصفه تحويل جوانب من النشاط إلى بيانات قابلة للتحليل [8]، ويظهر هنا أثر ذلك في التلقي: القراءة الماضية لا تبقى في ذاكرة الشخص فقط، بل يمكن أن تصبح جزءًا من ذاكرة النظام عنه.

ومن هنا يقترح الكتاب تمييزًا بين الذاكرة الأدبية للقارئ والذاكرة الخوارزمية للقارئ؛ فالأولى تتكون من ما يتذكره فعلًا عن أعماله وخبراته، أما الثانية فتتكون من آثار سلوكية وتفضيلات وتصنيفات يستطيع النظام استخدامها حتى عندما يكون الفرد قد نسيها. وقد لا تتطابق الذاكرتان؛ فقد يظل النظام يعامل المستخدم بوصفه مهتمًا بنوع هجره منذ سنوات، أو يكتشف نمطًا لم يكن واعيًا به، وبذلك يصبح أفق الانتظار نتيجة تفاوض بين صورتين للذات القرائية.

ويفتح ذلك سؤال الهوية: هل ما توصي به الخوارزمية يعكس «من أنا قارئًا»، أم يعكس فقط ما كنت أفعله؟ ويصبح الفرق حاسمًا لأن القارئ قادر على التحول، بينما يميل التنبؤ بطبيعته إلى استخدام الماضي لبناء المستقبل. ومن هنا تتمثل إحدى كفايات القارئ الميتا خوارزمي في مقاومة اختزال ذاته في ملفه السابق، أي أن يتعامل مع الأفق المؤتمت بوصفه اقتراحًا عن الذات لا تعريفًا لها.

ويتيح هذا التمييز كذلك إعادة تعريف «المفاجأة الجمالية»؛ ففي الثقافة المطبوعة يمكن أن تتمثل المفاجأة في اختلاف العمل عن توقع الجنس، أما في البيئة المخصصة فقد تتمثل كذلك في اكتشاف كتاب خارج الملف الخوارزمي أو في مواجهة نص لا يعرف النظام لماذا يمكن أن يعنينا. ومن هنا تصبح المصادفة ليست فقط قيمة اكتشاف، بل آلية لحماية قدرة الأفق على التغير.

ـ المبحث السادس: نموذج دورة التلقي الخوارزمي

ـ *الاختيار ـ القراءة ـ التأويل*

يمكن الآن جمع عناصر الفصل في نموذج متكامل لدورة التلقي الخوارزمي يبدأ من الاختيار ولا ينتهي بالتأويل، لأن كل مرحلة تهيئ التالية وتعيد تعريف السابقة. ففي المرحلة الأولى يلتقي تاريخ القارئ وبياناته ومجال المنصة بعمليات البحث والتوصية والترتيب، فتظهر مجموعة من النصوص بفرص متفاوتة، ثم يختار القارئ من داخل هذا المجال، وبذلك يكون الاختيار نتيجة تفاعل بين مبادرة بشرية وبنية ظهور خوارزمية .ولا يعني ذلك أن كل اختيار موجه بقوة متساوية، بل أن درجة تدخل الوسيط يمكن أن تتفاوت من اكتشاف مباشر مستقل إلى توصية شخصية شديدة الاعتماد على السلوك السابق.

وتأتي المرحلة الثانية حين يبدأ فعل القراءة، حيث يواجه القارئ النص حاملًا أفقًا ثقافيًا وشخصيًا وخوارزميًا سبق تشكله، ويمكن أن تدخل أدوات البحث والشرح والترجمة والتلخيص والحاشية الدينامية في سير التلقي. وفي هذه المرحلة يتحول التلقي من العلاقة بين «قارئ ونص» إلى علاقة يمكن أن توصف بالنموذج الرباعي الذي يقترحه هذا الكتاب :قارئ ـ نص ـ خوارزمية ـ سياق .فالقارئ يحمل التاريخ والخبرة، والنص يقدم بنيته ومقاومته، والخوارزمية تنظم بعض الموارد والمسارات، بينما يوفر السياق الثقافي والتاريخي معايير المراجعة.

ثم تأتي مرحلة التأويل، وهي المرحلة التي يبني فيها القارئ موقفًا من النص، وقد يكون هذا الموقف نتاج قراءة مستقلة أو قراءة معززة أو حوار توليدي. ومع دخول الذكاء الاصطناعي يصبح التأويل نفسه قابلًا لأن يمر عبر دورة : **سؤال بشري → اقتراح خوارزمي → فحص بشري → تحقق نصي → مراجعة سياقية → تأويل بشري موسع**، وهي الصيغة التي تأسست في الفصل الحادي عشر.

وتكمن أهمية نموذج التلقي الخوارزمي في أنه لا يضع جميع مراحل التدخل في مستوى واحد ؛ فالخوارزمية التي تقترح الكتاب لا تؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها نظام يولد تفسيرًا، ولذلك ينبغي تحليل موضع التدخل وعمقه . ويمكن تصور «درجة الخوارزمية» في التلقي تبعًا لثلاثة أسئلة: هل تدخل النظام في اختيار النص؟ هل تدخل في عملية فهمه؟ هل دخلت آثار القراءة بعد ذلك في إعادة التوصية؟ وكلما اجتمعت هذه المستويات أصبح التلقي أكثر اندماجًا في الدورة الخوارزمية.

ومن هنا يتضح أن التلقي الخوارزمي ليس نوعًا جديدًا واحدًا يحل محل القراءة السابقة، بل بنية بدرجات .فقد يحدث تلقي خوارزمي خفيف عندما يكتشف القارئ كتابًا في قائمة توصية ثم يقرأه ورقيًا، وقد يكون متوسطًا حين يستخدم أدوات رقمية أثناء القراءة، وقد يصبح كثيفًا عندما يجتمع التخصيص والشرح التوليدي والتفاعل والتقييم وإعادة التوصية داخل بيئة واحدة.

ولا يعني ارتفاع الدرجة بالضرورة تحسن القراءة أو تراجعها، لأن الكثافة التقنية لا تساوي الجودة، وهو مبدأ جرى تثبيته منذ الفصل الخامس. والمهم هنا هو أن زيادة درجة التدخل تجعل الوعي بوساطة التلقي أكثر ضرورة، لأن النظام يصبح حاضرًا في أكثر من حلقة من حلقات المسار.

13.6.2ـ التفاعل ـ البيانات ـ إعادة التوصية

بعد أن يختار القارئ ويقرأ ويؤول، تدخل الاستجابة إلى المرحلة الثانية من الدورة، حيث تتحول بعض أفعاله إلى تفاعل قابل للتسجيل؛ فقد يقيم الكتاب أو يكتب مراجعة أو يحفظ اقتباسًا أو يشارك محتوى أو يبحث عن عمل مشابه، كما يمكن أن تنتج المنصة إشارات من السلوك بحسب وظائفها وشروطها. وهنا يبدأ التلقي في التحول إلى بيانات، وهو التحول الذي يجعل الدورة قادرة على الاستمرار.

ولا ينبغي أن يقال إن البيانات «هي» التلقي، لأن ما يمكن تحويله إلى رقم لا يمثل التجربة كاملة، بل هي آثار قابلة للحوسبة عن التلقي .وقد حذرت فان ديك من الافتراضات التي تجعل البيانات تمثيلًا مباشرًا للحياة الاجتماعية [8]، ولذلك ينبغي لنظرية التلقي الخوارزمي أن تتجنب ما يمكن تسميته »اختزال الاستقبال إلى القياس«؛ فالتقييم نجمتان لا يخبرنا وحده لماذا كره القارئ الكتاب، والوقت الطويل في صفحة لا يثبت أنه كان مركزًا، وترك العمل لا يحدد السبب.

لكن قصور البيانات في تمثيل التجربة لا يمنع فعاليتها في تنظيم النظام، إذ يكفي أحيانًا أن تكون الإشارات مفيدة للتنبؤ حتى تصبح جزءًا من التوصية، ومن هنا ينشأ الفرق بين فهم القارئ وتوقع سلوكه .فالخوارزمية قد لا تعرف المعنى الذي كان للكتاب بالنسبة إلى الإنسان، لكنها تستطيع أن تستفيد من بعض أنماط سلوكه لتقدير ما قد يختاره لاحقًا.

وتعيد هذه المرحلة الدورة إلى بدايتها؛ فالتفاعل يولد بيانات، والبيانات تحدث الملف أو تدخل في نماذج جماعية، والنظام يعيد إنتاج توصيات وترتيبات، فتظهر نصوص جديدة، ويبدأ اختيار جديد. ويمكن تمثيل الدورة في صيغتها الأساسية كما يلي:

اختيار سابق → تفاعل → بيانات → تمثيل خوارزمي للتفضيلات → ترتيب أو توصية → ظهور نص → اختيار بشري → قراءة → تأويل → تقييم أو مشاركة → بيانات جديدة → إعادة توصية.

غير أن هذه الصيغة تبقى ناقصة إذا لم تضف السياق الاجتماعي والثقافي، لأن المستخدم لا يدخل النظام بوصفه كتلة من البيانات فقط، ولذلك يقترح الكتاب الصيغة الموسعة:

تاريخ ثقافي وخبرة قرائية + بيانات سابقة → خوارزمية اختيار → عتبات وتوقعات → نص → قراءة بشرية موسطة بدرجات متفاوتة → تأويل → إنتاج

قرائي وتفاعل → بيانات ومقاييس → إعادة ترتيب المجال → أفق انتظار جديد.

وتكشف هذه الصيغة أن التلقي لم يعد مجرد استقبال لموضوع، بل أصبح دورة تعلم متبادل غير متماثلة :النظام يتعلم من آثار المستخدم بصورة حسابية، والقارئ يتعلم من النص ومن النظام بصورة بشرية وثقافية، لكن الطرفين لا «يتعلمان» بالطريقة نفسها. ويعيد هذا التمييز مبدأ عدم التماثل الذي يحكم مشروع الكتاب، لأن التشابه في المصطلح لا ينبغي أن يخفي اختلاف البنية.

ومن هنا يمكن أن يظهر ما نسميه »التراكم الخوارزمي للتلقي«، أي أن كل دورة تستطيع أن تجعل الوسيط أكثر قدرة على توقع الفرد ، بينما تجعل الفرد نفسه أكثر اعتيادًا على الوساطة التي تقدمها المنصة. وهذا التراكم قد يزيد الراحة والدقة في الاكتشاف، لكنه قد ينتج كذلك اعتمادًا أو تضييقًا إذا لم يحافظ القارئ على مسارات خارج التخصيص.

ويظهر أيضًا التراكم الاجتماعي للتلقي؛ فمراجعات آلاف القراء لا تؤثر في أفرادهم فقط، بل تتحول إلى أرقام واتجاهات وقوائم ، وقد تصبح هذه المؤشرات جزءًا من أفق قارئ جديد ، وبذلك يتراكب المجتمع والخوارزمية. ومن هنا لا تكون الخوارزمية بديلًا عن الجمهور، بل وسيطًا يستطيع أن يعيد تمثيل بعض آثار الجمهور إلى الجمهور نفسه.

من جماليات التلقي إلى التلقي الخوارزمي

تسمح البنية السابقة بإعادة قراءة تاريخ نظرية التلقي بوصفه سلسلة من توسيع مجال الفاعلية، لا بوصفه استبدالًا لكل مرحلة بما بعدها. فقد نقلت جماليات التلقي النظر من العمل بوصفه كيانًا مكتفيًا بذاته إلى تاريخ استقباله وأفق جمهوره، وجعل إيزر فعل القراءة وتحقيق النص جزءًا من الموضوع النظري [1][2]، ثم أظهرت الدراسات الرقمية والاجتماعية أن القارئ يستطيع أن يشارك في شبكات من التعليق والمراجعة والإنتاج، بينما

تكشف الخوارزميات الآن أن الوصول إلى النص نفسه لم يعد دائمًا سابقًا ومحايدًا بالنسبة إلى التلقي.

ومن هنا لا يقول هذا الكتاب إن ياوس «أهمل» الخوارزمية بمعنى نقص تاريخي في نظريته، لأن الوسيط الذي نحلله لم يكن موجودًا في سياقه، بل إن السؤال هو كيف نحتفظ بقوة مفهوم الأفق ونمنحه قدرة على تفسير بيئة جديدة. ويكون التحديث النظري عبر الانتقال من أفق واحد إلى بنية متعددة الطبقات للأفق :أفق تاريخي أدبي، وأفق اجتماعي وجماعي، وأفق شخصي تشكله الخبرة الفردية، وأفق خوارزمي ينتج عن التخصيص والتوصية وترتيب الظهور. ولا تعمل هذه الطبقات منفصلة، بل تدخل في بعضها أثناء التلقي.

ويصبح معنى «تاريخ التلقي» نفسه أكثر تعقيدًا، لأن تاريخ الجمهور لم يعد يتكون فقط من المراجعات والمبيعات والرسائل والنقد، بل من كم هائل من الآثار الرقمية التي تستطيع المنصة تسجيلها ومعالجتها، وهو ما يفتح إمكانات بحثية جديدة لكنه يخلق خطر اختزال ما هو قابل للقياس في أنه ما هو مهم. ومن هنا يجب أن يحافظ مشروع التلقي الخوارزمي على توازن بين البيانات والتفسير؛ فالبيانات تكشف أنماطًا، لكنها لا تعفي الباحث من فهم سياقها وطريقة إنتاجها.

وتقدم أعمال بير حول قوة المقاييس خلفية مفيدة لهذه المسألة، لأن الأرقام لا تعكس الواقع الاجتماعي فقط بل تستطيع أن تشارك في تنظيمه [9]. وفي التلقي الأدبي يظهر ذلك حين يصبح متوسط التقييم أو عدد المراجعات جزءًا من قرار القارئ الجديد، فيتحول القياس من نتيجة استقبال سابق إلى شرط لاستقبال لاحق. ومن هنا تصبح المقاييس آثارًا تؤدي دور العتبات.

ويظهر كذلك أن الوعي بالخوارزميات نفسه أصبح متغيرًا ينبغي إدخاله في نظرية القارئ، لأن المستخدمين لا يتعاملون جميعًا مع الترتيب والتخصيص بالدرجة نفسها من المعرفة. وقد درست أودلف-هيرش ونويباوم الوعي

الخوارزمي وعلاقته بالمواقف والسلوك لدى مستخدمي وسائل التواصل، وهو ما يوضح أن معرفة وجود الخوارزمية ليست واحدة بين الجميع وأنها قد ترتبط بالطريقة التي يتصرف بها الأفراد تجاه الوساطة [10]. ويستفيد هذا الكتاب من هذه النتيجة للانتقال في الفصل التالي من التلقي الخوارزمي إلى القراءة الميتا خوارزمية، حيث لا يكتفي القارئ بالعيش داخل النظام بل يبدأ في جعل النظام نفسه موضوعًا للقراءة.

التلقي الخوارزمي وإعادة تعريف القارئ

تفرض الدورة السابقة إعادة تعريف القارئ مرة أخرى، لأن القارئ داخل التلقي الخوارزمي ليس فردًا يستجيب لنص انتهى الآخرون من إنتاجه ووضعه أمامه، بل فاعلًا يدخل النظام ببيانات سابقة ويختار من مجال مرتب ويترك أثناء القراءة وبعدها آثارًا قد تعود إلى المجال نفسه. ومن هنا يصبح القارئ في الوقت نفسه مستقبلًا ومفسرًا ومنتجًا للبيانات ومشاركًا في تنظيم قابلية الاكتشاف، حتى عندما لا يقصد جميع هذه الأدوار.

ولا يعني ذلك أنه يملك سلطة مساوية للمنصة، لأن البنية التحتية والقدرة على المعالجة والتصميم ليست في يده، ولذلك يظل التلقي الخوارزمي علاقة غير متماثلة في توزيع المعرفة عن العملية؛ فالمنصة قد تمتلك رؤية مجمعة لسلوك عدد هائل من المستخدمين، بينما لا يرى القارئ إلا واجهته وتجربته الخاصة. ومن هنا تكون شفافية شروط التلقي مسألة نظرية وسياسية، لا مجرد خاصية تقنية.

ويصبح الفرق بين القارئ التقليدي والقارئ الخوارزمي في هذه المرحلة ليس أن الأول حر والثاني غير حر، بل أن الثاني يمارس حريته داخل بيئة تستجيب إلى تاريخه بصورة آلية، وهو ما يجعل استقلاله يحتاج إلى كفاية جديدة تتمثل في معرفة أن الاقتراح مخصص وأن الترتيب منتج وأن الظهور ليس مرادفًا للقيمة وأن الغياب ليس مرادفًا لعدم الوجود.

ويكتمل القارئ الهجين عندما يضيف إلى هذا الوعي القدرة على استخدام الأدوات أثناء التأويل، أما القارئ الميتا خوارزمي الذي سيعالج الفصل اللاحق فيذهب خطوة أبعد حين يبدأ في فحص الخوارزمية التي شكلت مجال قراءته. ومن هنا يمكن تمثيل الانتقال النظري داخل الباب الخامس بالصيغة التالية:

التلقي الخوارزمي: أقرأ داخل الوساطة → القراءة الميتا خوارزمية: أقرأ الوساطة نفسها → القراءة ما بعد الخوارزمية: أقرأ داخل بيئة أصبحت الوساطة فيها جزءًا شبه محيطي من شروط القراءة.

ويكشف هذا التسلسل أن التلقي الخوارزمي ليس نهاية النظرية، بل المستوى الذي يجعل النقد الخوارزمي ضرورة.

خوارزمية الاختيار وخوارزمية القراءة وخوارزمية ما بعد القراءة

يسمح الفصل كذلك ببناء تقسيم ثلاثي يشكل أحد المقترحات المركزية في الكتاب، يتمثل في **خوارزمية الاختيار، وخوارزمية القراءة، وخوارزمية ما بعد القراءة** .ولا تشير هذه التسميات إلى برامج بعينها، بل إلى الوظائف التي يمكن أن تؤديها الخوارزميات في الأزمنة الثلاثة للتلقي.

فخوارزمية الاختيار تعمل في الزمن السابق على اللقاء بالنص، عبر البحث والتوصية والترتيب والتصنيف وإنتاج مجال الرؤية، وهي المستوى الذي يجعل الخوارزمية بوابة إلى العمل. أما **خوارزمية القراءة** فتعمل أثناء التلقي من خلال التخصيص والبحث والاسترجاع والشرح والترجمة والحاشية والمساعدة التوليدية، وهي المستوى الذي تنتقل فيه الخوارزمية من تنظيم الوصول إلى المساهمة في بعض وظائف الفهم. بينما تعمل **خوارزمية ما بعد القراءة** على آثار الاستجابة من تقييم ومراجعة ومشاركة وسلوك، فتعيدها إلى أنظمة القياس والتوصية والتداول.

وتكمن القوة النظرية للتقسيم في أنه يمنع اختزال التلقي الخوارزمي في التوصيات، لأن الخوارزمية تستطيع أن تدخل قبل النص وداخله وبعده، كما

يسمح بدراسة كل مرحلة بصورة مستقلة. فقد تكون منصة شديدة الخوارزمية في الاختيار لكنها تقدم نصًا ثابتًا أثناء القراءة، بينما يمكن لأداة أخرى ألا تختار النص للقارئ لكنها تدخل بقوة في تفسيره. ومن هنا يمكن مقارنة البيئات بحسب **موضع التدخل** لا بحسب الانطباع العام عن مقدار ذكائها.

كما يسمح التقسيم بقياس **تراكم الوساطة**؛ فإذا اجتمعت الخوارزميات الثلاث في تجربة واحدة، يكون القارئ أمام دورة مكتملة تقريبًا: النظام يقترح النص، ويساعد أثناء قراءته، ثم يتعلم من استجابته. وهذا هو الشكل الأكثر اكتمالًا من التلقي الخوارزمي، لكنه ليس الشكل الوحيد.

ويمكن التعبير عن درجات التدخل في صيغة مفهومية :**وساطة في الاختيار ← وساطة في الفهم ← وساطة في تدوير الاستجابة** .وكل انتقال يزيد قدرة النظام على التأثير في دورة التلقي، ولذلك ينبغي أن يزيد معه الوعي النقدي للقارئ.

أفق الانتظار الخوارزمي بوصفه مفهومًا مركزيًا

من بين المفاهيم التي يقترحها الفصل يحتل أفق الانتظار الخوارزمي موقعًا مركزيًا لأنه يمثل الجسر المباشر بين جماليات التلقي والنظرية الجديدة. فالخوارزمية لا تدخل إلى ذهن القارئ لتضع فيه توقعًا بالمعنى الحرفي، لكنها تستطيع أن تنظم مجموعة من العلامات والتوصيات والمقاييس والتشابهات التي تدخل في بناء التوقع، ولذلك يكون الأفق الخوارزمي أثرًا ناشئًا من العلاقة بين التخصيص والاستقبال لا محتوى مخزنًا داخل النظام.

ويمكن تعريفه بصورة أدق بأنه :**الطبقة من التوقعات والتصورات السابقة على القراءة أو المصاحبة لبدايتها، التي تتشكل نتيجة ترتيب النص وتوصيته وتصنيفه وربطه بسلوك القارئ السابق وبالمؤشرات الاجتماعية والمواد التي تقدمها المنصة حوله، وتتداخل مع الأفق الثقافي والتاريخي والشخصي دون أن تحل محله.**

ويتيح هذا التعريف تجنب الحتمية، لأن التوقع الخوارزمي لا يفرض النتيجة، بل يقدم إطارًا يستطيع النص أن يؤكده أو يفاجئه أو يدمره. وإذا أخطأت التوصية فقد تصبح المفاجأة نفسها جزءًا من التجربة، مما يثبت أن القارئ لا يُختزل في الملف الذي بنته المنصة.

كما يسمح المفهوم بإدخال الاختلاف بين القراء إلى النظرية بصورة جديدة؛ ففي القراءة المطبوعة قد يحمل قارئان خلفيتين مختلفتين لكنهما يواجهان الغلاف والفهرس نفسيهما، أما في المنصة فقد تختلف حتى العتبات الرقمية التي سبقت العمل، ومن هنا يصبح من الممكن أن تختلف بداية تاريخ التلقي الفردي قبل أن تختلف الاستجابة للنص.

ويفتح ذلك مجالًا لأبحاث جديدة في الأدب الرقمي ودراسات القراءة يمكن أن تقارن بين استقبال العمل تحت شروط توصية مختلفة أو بين قراءة كتاب مصحوب بتقييمات وقراءته من دونها، وهو ما يجعل النظرية المقترحة قابلة للاختبار بدل أن تبقى تأملًا مجردًا.

خاتمة الفصل الثالث عشر

أظهر الفصل الثالث عشر أن إعادة بناء نظرية التلقي في البيئة المعاصرة تقتضي توسيع وحدتها الزمنية والمفاهيمية، لأن القراءة لم تعد تبدأ دائمًا عند الصفحة الأولى ولا تنتهي عند الأخيرة، بل أصبحت في عدد متزايد من الممارسات جزءًا من دورة تتدخل فيها الخوارزميات قبل التلقي وأثناءه وبعده. ومن هنا اقترح الفصل مفهوم التلقي الخوارزمي بوصفه تلقيًا بشريًا تجري بعض شروطه داخل بيئة حسابية تتولى الاختيار والترتيب والتخصيص والتفسير والتداول بدرجات متفاوتة، مع التشديد على أن الخوارزمية ليست متلقيًا بشريًا ولا تمتلك تجربة النص، وإنما تؤدي وظيفة وسيط قادر على التأثير في شروط اللقاء بين العمل والقارئ.

وقد أتاح الرجوع إلى ياوس وإيزر [1][2] تأكيد أن إعادة بناء النظرية لا تبدأ من الصفر، لأن جماليات التلقي وفعل القراءة قد أسسا بالفعل مركزية الجمهور والقارئ في إنتاج تاريخ العمل ومعناه، غير أن ظهور المنصات والخوارزميات يضيف إلى العلاقة وسيطًا يستطيع أن يخصص مجال الظهور وأن يستخدم آثار السلوك السابق في بناء الاحتمالات اللاحقة. وتقدم دراسات غيليسبي وفان ديك وبول ودي وال وبوخر [3][4][7] الإطار الذي يسمح بفهم هذا الوسيط لا بوصفه قناة تقنية محايدة، بل نظامًا اجتماعيًا ـ تقنيًا يشارك في ترتيب الصلة والرؤية والوصول.

وأظهر مبحث «خوارزمية الاختيار» أن ما قبل القراءة يجب أن يدخل إلى نظرية التلقي، لأن أنظمة التوصية تساعد على اختيار عناصر من فضاء واسع وتقدمها وفق تقديرات للملاءمة [5]، بينما يجعل تحول التفضيلات الثقافية إلى بيانات وتوصيات، كما ناقشه هالينان وستريبهاس [6]، مجال الاختيار نفسه جزءًا من الثقافة الخوارزمية. ومن هنا ظهر التمييز بين حرية القارئ في الاختيار وبين سلطة النظام في تشكيل القائمة التي يحدث داخلها هذا الاختيار.

كما بين الفصل أن خوارزمية القراءة لا تعني برنامجًا يقرأ مكان الإنسان، بل مجموع الوظائف الخوارزمية التي تدخل أثناء التلقي من البحث والاسترجاع إلى الشرح والتخصيص والذكاء الاصطناعي التوليدي، بحيث يصبح الفهم قابلًا لأن يتوزع جزئيًا داخل نظام يجمع القارئ والنص والخوارزمية والسياق. وكلما انتقلت الوساطة من تنظيم العرض إلى اقتراح التفسير، ازدادت الحاجة إلى الحفاظ على السيادة التأويلية التي أسستها الفصول السابقة.

أما خوارزمية ما بعد القراءة فقد كشفت أن المراجعة والتقييم والتفاعل لا تبقى نتائج خاصة للتلقي، بل تستطيع أن تتحول إلى بيانات ومقاييس تدخل في ترتيب الأعمال وتوصيتها للآخرين، وهو ما يجعل ما بعد قراءة فرد ما قبل قراءة فرد آخر. وتساعد أعمال فان ديك وبير [8][9] على فهم التحول من السلوك إلى البيانات ومن البيانات إلى مقاييس تستطيع أن تدخل في التنظيم الاجتماعي، مع ضرورة الحفاظ على الفرق بين قياس أثر من آثار القراءة وبين تمثيل تجربة القراءة كاملة.

وقد شكل مفهوم أفق الانتظار الخوارزمي النتيجة النظرية الأكثر اتصالًا بإعادة بناء جماليات التلقي؛ فالأفق الذي كان عند ياوس مرتبطًا بتاريخ الجمهور وخبرته بالأجناس والأعمال يضاف إليه اليوم مستوى من التوقع الشخصاني تستطيع الأنظمة أن تشارك في بنائه من خلال التوصية والتصنيف والتشابه والبيانات السابقة. ولا يحل هذا الأفق محل الأفق الاجتماعي والثقافي، بل يتراكب معه، بحيث يصبح القارئ حاملًا لتاريخ إنساني وعضوًا في جماعة، وفي الوقت نفسه موضوعًا لتمثيل حسابي يعيد إليه بعض آثار تاريخه في صورة اقتراحات.

ومن هنا اقترح الفصل التمييز بين الأفق الاجتماعي التاريخي والأفق الشخصاني المؤتمت، مع التأكيد أن الاثنين متداخلان، لأن الخوارزمية تتعلم من سلوك اجتماعي وتعيده في صورة شخصية. وتكمن أهمية هذا التمييز في أنه يجعل الاختلاف بين القراء لا يتعلق بخبراتهم الداخلية فقط، بل كذلك باختلاف البيئات المخصصة التي يدخلون منها إلى العمل.

وانتهى الفصل إلى نموذج دورة التلقي الخوارزمي الذي يمكن اختزاله في الصيغة التالية:

تاريخ ثقافي وقرائي + بيانات سابقة → خوارزمية اختيار → ترتيب وإظهار → أفق انتظار خوارزمي → اختيار بشري → قراءة موسطة بدرجات متفاوتة → تأويل بشري → تقييم ومراجعة وتفاعل → بيانات جديدة → إعادة توصية → أفق جديد.

وتوضح هذه الدورة أن القارئ ليس نهاية النظام، بل نقطة تعود منها آثار التلقي إلى بدايته، وهو ما يفرض تعديل النموذج الخطي التقليدي. فإذا كانت الصيغة المبسطة للتلقي هي:

نص → قارئ → معنى

فإن الصيغة التي يقترحها هذا الفصل تصبح:

قارئ سابق وبيانات وسياق → خوارزمية → نص ظاهر → قارئ → تأويل وتفاعل → بيانات → خوارزمية → نصوص لاحقة.

ومع ذلك يظل المعنى النهائي غير قابل للاختزال في هذه الدورة، لأن البيانات لا تمثل كل ما يحدث داخل القارئ، والخوارزمية لا تستنفد السياق، والتوصية لا تقرر الحكم، ولذلك لا ينبغي لنظرية التلقي الخوارزمي أن تتحول إلى حتمية تقنية تجعل الخوارزمية أصل كل اختيار. إنها نظرية للوساطة والتوزيع والتأطير، لا نظرية لنهاية حرية القارئ.

ومن هذا المنظور يمكن صياغة التعريف النهائي الذي يصل إليه الفصل :
التلقي الخوارزمي هو نمط من استقبال النصوص يحدث داخل دورة تتفاعل فيها خبرة القارئ وسياقه مع عمليات خوارزمية للاختيار والترتيب والتخصيص والمساعدة والتداول، بحيث تصبح شروط الوصول إلى النص وبعض شروط قراءته وآثار الاستجابة له قابلة للمعالجة وإعادة التوظيف في تشكيل تلقي لاحق، مع بقاء القارئ البشري الفاعل المسؤول عن الحكم التأويلي النهائي.

وتفتح هذه النتيجة الباب مباشرة أمام الفصل الرابع عشر، لأن إدراك وجود التلقي الخوارزمي لا يكفي لبناء قارئ نقدي؛ فالقارئ يستطيع أن يعيش داخل الخوارزمية ويستفيد من توصياتها من دون أن يسأل عن منطقها، ومن هنا تظهر الحاجة إلى مستوى ثان من القراءة يجعل الوسيط نفسه موضوعًا للفحص، وهو ما سيقود إلى القراءة الميتا خوارزمية: وعي القارئ بالوسيط، حيث تنتقل النظرية من السؤال «ماذا تفعل الخوارزمية في التلقي؟» إلى السؤال الأكثر نقدية :كيف يستطيع القارئ أن يقرأ الخوارزمية التي تشارك في ترتيب قراءته؟

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Jauss, Hans Robert. *Toward an Aesthetic of Reception*. Translated by Timothy Bahti. Introduction by Paul de Man. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.

يشكل المرجع الأساسي لمفهوم أفق الانتظار ولإعادة بناء التاريخ الأدبي انطلاقًا من العلاقة بين العمل والجمهور، ويُستفاد منه في هذا الفصل لتطوير مفهوم «أفق الانتظار الخوارزمي» مع الحفاظ على الأفق التاريخي والاجتماعي الذي تقوم عليه جماليات التلقي.

[2] Iser, Wolfgang. *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.

يمثل مرجعًا تأسيسيًا لفهم القراءة بوصفها فعلًا يحقق إمكانات النص من خلال عمليات الربط والتوقع وملء مناطق عدم التحديد، ويُستفاد منه في تأكيد أن إدخال الوسيط الخوارزمي لا يلغي مركزية النشاط البشري في بناء المعنى.

[3] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014, pp. 167–194. DOI: 10.7551/mitpress/9780262525374.003.0009.

يقدم أساسًا نظريًا لدراسة الخوارزميات بوصفها أنظمة تدخل في تحديد الصلة والإدراج والاستبعاد والترتيب، ويُستفاد منه في تأسيس فكرة خوارزمية الاختيار وسلطة تشكيل مجال الظهور قبل القراءة.

[4] van Dijck, José; Poell, Thomas & de Waal, Martijn. *The Platform Society: Public Values in a Connective World*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم تحليلًا للمنصات بوصفها بنى اجتماعية وتقنية واقتصادية تتدخل في تنظيم مجالات متعددة من الحياة، ويُستفاد منه في وضع التلقي الأدبي داخل منظومة البيانات والتخصيص والاختيار التي تحكم مجتمع المنصات.

[5] Ricci, Francesco; Rokach, Lior & Shapira, Bracha (eds.). *Recommender Systems Handbook*. 2nd ed. New York: Springer, 2015. **وانظر خصوصًا**: Ricci, Francesco; Rokach, Lior & Shapira, Bracha, "Recommender Systems: Introduction and Challenges."

مرجع أساسي في مفاهيم أنظمة التوصية وتقنياتها ووظائفها في دعم الاختيار داخل فضاءات واسعة من العناصر، ويُستفاد منه في بناء مفهوم «خوارزمية الاختيار» وفي تفسير التخصيص والتغذية الراجعة داخل دورة التلقي.

[6] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.

يمثل مرجعًا أساسيًا لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل انتقال الذوق والتفضيل والتصنيف إلى مجال المعالجة الحسابية، ويُستفاد منه في دراسة العلاقة بين توصيات المنصة وصناعة التوقعات والذائقة.

[7] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم مقاربة للقوة الخوارزمية بوصفها علاقة اجتماعية ـ تقنية متعددة، ويُستفاد منه في تجنب التصور الحتمي للخوارزمية وفي تحليل حضورها داخل ممارسات المستخدمين وإدراكهم للحياة المنصاتية.

[8] van Dijck, José. "Datafication, Dataism and Dataveillance: Big Data between Scientific Paradigm and Ideology." *Surveillance & Society*, Vol. 12, No. 2, 2014, pp. 197–208. DOI: 10.24908/ss.v12i2.4776.

يقدم أساسًا نقديًا لمفهوم التبيين بالبيانات وللافتراضات التي تجعل البيانات تمثيلًا مباشرًا للنشاط الإنساني، ويُستفاد منه في تحليل تحول آثار القراءة إلى بيانات وفي الحفاظ على الفرق بين الاستجابة الإنسانية وتمثيلها الحسابي.

[9] Beer, David. *Metric Power*. London: Palgrave Macmillan, 2016. DOI: 10.1057/978-1-137-55649-3.

يعالج القوة الاجتماعية والتنظيمية للمقاييس، ويُستفاد منه في فهم كيف

تتحول التقييمات والمراجعات والمؤشرات العددية من أوصاف للاستقبال إلى عناصر تستطيع أن تشارك في تشكيل استقبال لاحق.

[10] Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German. "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035. DOI: 10.1093/jcmc/zmad035.

تفيد الدراسة في إدخال الوعي الخوارزمي إلى تحليل المستخدم، وتدعم الانتقال من دراسة التلقي الخوارزمي بوصفه بيئة إلى دراسة القارئ القادر على إدراك هذه البيئة ومساءلتها، وهو ما يمهد مباشرة لمفهوم القراءة الميتا خوارزمية.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم المراجع السابقة في ثلاثة مستويات تتوافق مع عملية إعادة بناء نظرية التلقي؛ إذ تقدم أعمال ياوس وإيزر [1][2] القاعدة الأدبية التي ينطلق منها الفصل، حيث يصبح الجمهور وأفق الانتظار وفعل القراءة عناصر مركزية في تحقق النص وتاريخ استقباله، ثم تقدم أعمال غيليسبي وفان ديك وبول ودي وال وبوخر [3][4][7] الأساس النظري لفهم الوساطة الخوارزمية والمنصات والقوة المرتبطة بالترتيب والرؤية، بينما تسمح أعمال ريتشي ورووكاش وشابيرا وهالينان وستريبهاس [5][6] بتحليل أنظمة التوصية وعلاقتها بالاختيار والتفضيل والثقافة. وتضيف أعمال فان ديك حول التبيين بالبيانات وبير حول المقاييس [8][9] الأساس اللازم لفهم تحويل آثار القراءة إلى بيانات قادرة على العودة إلى عملية التنظيم، فيما يمثل الوعي الخوارزمي عند أودلف-هيرش ونويباوم [10] الجسر الذي ينقل الكتاب إلى الفصل التالي.

ومن تقاطع هذه المرجعيات يتأسس الاقتراح النظري الرئيسي للفصل :إن **إعادة بناء نظرية التلقي في العصر الخوارزمي لا تقتضي التخلي عن القارئ أو أفق الانتظار، بل توسيع النموذج بحيث يصبح التلقي عملية دائرية تبدأ بشروط اختيار موسطة خوارزميًا، وتمر بقراءة يمكن أن تتدخل فيها أدوات ذكية، وتنتهي باستجابة تتحول جزئيًا إلى بيانات تعيد تشكيل شروط التلقي اللاحق؛ وبذلك يصبح القارئ والنص والخوارزمية والسياق الأقطاب الأربعة لنظام التلقي الهجين.**

ملاحظة توثيقية خارج متن الفصل :جرى التحقق من بيانات الطبعة الإنجليزية لكتاب ياوس لدىUniversity of Minnesota Press ، ومن بيانات أعمال غيليسبي وفان ديك وزملائه وبوخر لدى MIT Press/Oxford University Press، ومن بيانات مرجع أنظمة التوصية لدىSpringer ، ومن بيانات دراسة هالينان وستريبهاس لدى SAGE. (University of Minnesota Press)كما تم التحقق من بيانات مراجع التبيين بالبيانات وقوة المقاييس

والوعي الخوارزمي من المصادر الأكاديمية الأصلية أو قواعد الناشرين .
(ojs.library.queensu.ca)

الفصل الرابع عشر

القراءة الميتا خوارزمية: وعي القارئ بالوسيط

يصل مشروع هذا الكتاب في الفصل الرابع عشر إلى مستوى جديد من الوعي القرائي، لأن القارئ الذي جرى تحليله في الفصل السابق كان يدرك أن التلقي يحدث داخل دورة تشارك فيها الخوارزميات في الاختيار والترتيب والتخصيص والمساعدة والتداول، غير أن مجرد إدراك وجود هذه الوساطة لا يكفي لكي يتحول القارئ إلى فاعل نقدي قادر على مساءلتها، إذ يمكن للإنسان أن يعرف أن المنصة تستخدم خوارزمية ومع ذلك يستمر في التعامل مع النتائج والتوصيات والأجوبة كما لو كانت انعكاسًا طبيعيًا للعالم، ويمكنه أن يعرف أن المساعد التوليدي قد يخطئ ومع ذلك يمنحه سلطة معرفية كبيرة بسبب سلاسة لغته وسرعة استجابته. ومن هنا تظهر الحاجة إلى الانتقال من القراءة داخل النظام الخوارزمي إلى قراءة النظام نفسه بوصفه جزءًا من شروط إنتاج ما يُرى ويُفهم ويُتداول، وهي النقلة التي يقترح هذا الكتاب تسميتها «القراءة الميتا خوارزمية.«

ولا يستخدم مصطلح «الميتا خوارزمي» هنا بوصفه مفهومًا مستقراً له تاريخ نظري مكتمل في الدراسات الأدبية، بل بوصفه اقتراحًا إجرائيًا يراد به نقل القارئ من مستوى استعمال الوساطة إلى مستوى التفكير فيها أثناء استعمالها، بحيث لا يقتصر سؤاله على مضمون النص أو جودة الإجابة، بل يمتد إلى البنية التي جعلت هذا النص أو هذا الجواب أو هذه التوصية حاضرة أمامه. وبهذا المعنى تستفيد القراءة الميتا خوارزمية من حقل الدراسات النقدية للخوارزميات الذي بين أن الخوارزمية ليست مجرد وصفة حسابية منعزلة، وإنما توجد داخل شبكة من المؤسسات والممارسات والبيانات والتصنيفات والأهداف التي تمنحها قوتها الاجتماعية والثقافية [1][2]، كما تستفيد من دراسات الوعي والثقافة الخوارزمية التي أظهرت أن المستخدمين يختلفون في معرفتهم بعمليات الانتقاء الآلي وفي الطريقة التي يبنون بها تصوراتهم عنها ويتعاملون معها [3][4][5.][6][

ولا يعني «قراءة الخوارزمية» أن القارئ يستطيع، أو ينبغي له، أن يرى الشفرة البرمجية للنظام أو يفهم جميع العمليات الرياضية التي تنتج النتيجة، لأن كثيرًا من الأنظمة التجارية مغلق، وبعضها معقد إلى درجة تجعل الشفافية التقنية الكاملة غير كافية حتى لو توفرت، وقد بين أناني وكروفورد أن مجرد كشف النظام لا يؤدي تلقائيًا إلى فهمه أو مساءلته، لأن الشفافية ليست مرادفة للمعرفة ولا للمحاسبة [7]. ومن هنا تتجه القراءة الميتا خوارزمية نحو ما يمكن تسميته »الوعي الوظيفي بالوساطة :«أن يعرف القارئ أن النتيجة مرت بعمليات اختيار أو ترتيب أو تخصيص أو توليد، وأن يتعلم فحص آثار هذه العمليات من خلال المقارنة وتغيير السؤال وتوسيع المصادر والبحث عن الغائب والتحقق من المرجعية، دون ادعاء امتلاك معرفة كاملة بالصندوق التقني الذي أنتجها.

وتؤدي هذه النقلة إلى تعديل مهم في تعريف الكفاية القرائية؛ فالقارئ التقليدي كان يحتاج إلى فهم اللغة والبنية والأسلوب والسياق، والقارئ الرقمي أضيفت إليه القدرة على التنقل والبحث وإدارة الروابط، والقارئ الهجين احتاج إلى التعامل مع الذكاء الاصطناعي والأدوات المعرفية، أما القارئ الميتا خوارزمي فيضيف إلى ذلك كله قدرة على رؤية الوسيط في اللحظة التي يحاول فيها الوسيط أن يختفي وراء سهولة الاستعمال .فإذا قدمت له المنصة قائمة، لا يسأل فقط أي كتاب سيختار، بل لماذا تشكلت هذه القائمة على هذا النحو؛ وإذا قدم له محرك البحث نتيجة أولى، لا يسأل فقط عما تقوله، بل لماذا صعدت إلى الصدارة؛ وإذا ولد النظام تفسيرًا لنص، لا يسأل فقط هل يبدو مقنعًا، بل من أي أنواع من المعرفة قد يكون تكون، وما الذي يغيب عنه، وما مقدار ما صنعه السؤال الذي وجهه هو نفسه.

ومن هنا تصبح القراءة الميتا خوارزمية ممارسة مزدوجة لها موضوعان متداخلان :النص الذي نريد فهمه، والوسيط الذي أعاد ترتيب علاقتنا بذلك النص .ولا يعني ازدواج الموضوع تشتيت القراءة أو تحويل القارئ إلى مراقب تقني دائم، بل بناء قدرة على الانتقال بين مستويين حسب الحاجة؛ فيقرأ النص حين يكون الوسيط قليل الأثر، ويرفع مستوى المساءلة حين يقترب

الوسيط من الاختيار أو التأويل أو إخفاء البدائل. وتلك القدرة على ضبط مقدار النقد بحسب مقدار التدخل هي التي تمنع الوعي الخوارزمي من التحول إلى شك مرضي في كل شيء أو إلى تصور أسطوري للخوارزمية باعتبارها قوة خفية تتحكم في جميع أفعال الإنسان.

ـ المبحث الأول: تعريف القراءة الميتا خوارزمية

ـ القراءة داخل النظام

تنطلق القراءة الميتا خوارزمية من الاعتراف بأن جزءًا واسعًا من القراءة المعاصرة يحدث داخل أنظمة لا أمام أدوات منفصلة فقط، لأن القارئ قد يدخل إلى منصة تقترح الكتاب، ثم يقرأ وصفه وتقييماته، ويستخدم البحث أو الترجمة أو الشرح، ثم يكتب مراجعة يعيد النظام إدخالها في ترتيب المحتوى، وبذلك لا يكون الوسيط مجرد مرحلة عابرة بل بيئة تتصل حلقاتها بعضها ببعض. وقد أظهر الفصل الثالث عشر أن هذه البيئة يمكن تمثيلها في دورة تبدأ بالبيانات والخبرة السابقة وتمر بالتوصية والاختيار والقراءة والتأويل والتفاعل ثم تعود إلى البيانات، وهو ما يجعل القارئ داخل بنية تستجيب جزئيًا إلى آثار سلوكه السابق.

ولا تكون القراءة داخل النظام مشكلة في ذاتها، لأن كل قراءة تجري داخل ترتيبات مادية ومؤسساتية، لكن ما يميز النظام الخوارزمي هو قدرته على التكيف المستمر مع السلوك وعلى ترتيب كميات ضخمة من المحتوى بطريقة قد تختلف بين مستخدم وآخر. وقد بينت بوخر أن الخوارزميات لا ينبغي فهمها بوصفها أشياء تقنية ثابتة ذات أثر واحد، بل بوصفها عناصر متعددة تعمل ضمن علاقات وممارسات اجتماعية مختلفة [2]، ولذلك لا تسأل القراءة الميتا خوارزمية «ماذا تفعل الخوارزمية؟» بوصفه سؤالًا له جواب واحد، وإنما تسأل: ما الوظيفة التي تؤديها هنا، وفي أي علاقة، ولمن، وبأي أثر قابل للملاحظة؟

ويتيح هذا المنظور الخروج من تصورات مبسطة تجعل الإنسان إما سيدًا مطلقًا يختار كل شيء أو ضحية كاملة لخوارزمية تقرر نيابة عنه؛ فالواقع أكثر تركيبًا، لأن القارئ يختار من داخل بنية تعرض وتخفي وترتب، والنظام يتكيف مع سلوك ينتجه الإنسان، ثم يعود الإنسان فيستجيب إلى ما أنتجه النظام. ومن هنا يكون التفاعل دائريًا وغير متماثل في الوقت نفسه: دائريًا لأن سلوك القارئ يعود إلى النظام، وغير متماثل لأن المنصة تمتلك قدرة

على تجميع بيانات واسعة وعلى تصميم البنية التي يتحرك المستخدم داخلها لا يمتلكها الفرد نفسه.

ولا يصبح القارئ ميتا خوارزميًا بمجرد معرفته النظرية بهذه الحقيقة، وإنما حين يستطيع تحويلها إلى ممارسة. فإذا ظهر أمامه كتاب يشبه الكتب التي قرأها سابقًا، لا يحتاج إلى رفضه لمجرد أنه توصية خوارزمية، لكنه يحتفظ في ذهنه بأن التشابه هو أحد الأسباب المحتملة لظهوره وأن القائمة لا تمثل مجمل المجال الأدبي. وإذا سأله النظام ما إذا كان يريد متابعة موضوع معين، يستطيع قبول الاقتراح، لكنه يعرف أنه بذلك يضيف إشارة جديدة قد تؤثر في توصيات لاحقة. ومن هنا يكون الوعي مصحوبًا بالفعل لا معلومة مجردة عن التقنية.

وقد أظهرت دراسات مبكرة لوعي المستخدمين بخوارزميات الانتقاء أن بعض الأشخاص لم يكونوا يدركون أصلًا أن ما يرونه في خلاصاتهم منتقى خوارزميًا؛ ففي دراسة إسلامي وزملائها على مستخدمي Facebook سنة 2015 كان 62.5٪ من المشاركين الأربعين غير واعين بوجود خوارزمية انتقاء لخلاصة الأخبار قبل التجربة، كما أدى كشف الفرق بين الخلاصة المختارة خوارزميًا والمحتوى الأوسع إلى تغيير طريقة بعض المشاركين في التفكير في المنصة والشعور بالتحكم فيها [3]. ولا ينبغي تعميم هذه النسبة على المستخدمين أو المنصات المعاصرة، لكنها تبقى مثالًا تاريخيًا واضحًا على أن عدم رؤية الوساطة يمكن أن يؤدي إلى تفسير نتائجها كما لو كانت ناتجة مباشرة عن العالم الاجتماعي نفسه.

ويظهر هنا أحد المبادئ المؤسسة للقراءة الميتا خوارزمية :قبل أن أفسر ما أراه، ينبغي أن أعرف أن ما أراه قد يكون ناتجًا عن عملية انتقاء .ولا يقدم هذا المبدأ تفسيرًا جاهزًا لسبب ظهور كل عنصر، لكنه يمنع الخلط بين العالم وتمثيل النظام للعالم.

ـ قراءة النظام ذاته

تبدأ «قراءة النظام» عندما يتحول الوسيط من شيء يُستعمل إلى شيء يمكن مساءلته، ولا تعني هذه القراءة تحويل الخوارزمية إلى نص أدبي بالمجاز، بل التعامل مع آثارها وواجهاتها ونتائجها وتكراراتها بوصفها علامات تسمح بتكوين فهم نقدي محدود عن طريقة عمل الوساطة. فإذا لاحظ القارئ أن التوصيات تصبح أكثر تجانسًا كلما تفاعل مع نوع أدبي معين، فهذه ملاحظة عن أثر النظام، وإذا غير صيغة البحث وحصل على ترتيب مختلف، فهو يختبر حساسية الوسيط، وإذا استخدم حسابًا أو وضعًا غير مخصص وقارن النتائج، فهو لا يكشف «الحقيقة الكاملة للخوارزمية»، لكنه يبني معرفة تجريبية عن كيفية اختلاف ما يُعرض تبعًا للشروط.

ويقترب هذا الموقف من دعوة بوخر إلى تجاوز تصور «الصندوق الأسود» بوصفه جسمًا مغلقًا لا يمكن دراسته ما لم تفتح شفرته، إذ تقترح الانتباه إلى اللحظات التي تصبح فيها الخوارزمية محسوسة ومؤثرة وإلى الطرق التي يمكن بها دراسة علاقاتها ومظاهرها حتى في ظل محدودية الوصول التقني [2]. ومن هنا لا يقول القارئ الميتا خوارزمي: «لا أعرف الشفرة، إذن لا أستطيع نقد شيء»، كما لا يقول: «لاحظت نتيجتين، إذن أعرف تمامًا كيف يعمل النظام»، بل يتحرك بين التواضع المعرفي والفحص العملي.

وتتطلب قراءة النظام التمييز بين الأثر والسبب؛ فقد يرى القارئ تكرارًا في نوع معين من الكتب، لكن لا ينبغي له أن يستنتج مباشرة أن خوارزمية محددة «قررت حبسه»، لأن التكرار قد ينتج من خياراته أو من شعبية السوق أو من نقص المحتوى أو من مجموعة عوامل مشتركة. وهنا تصبح القراءة الميتا خوارزمية أشد صرامة من الخطاب الشعبوي حول الخوارزميات، لأنها ترفض تحويل الغموض إلى يقين مضاد. فالوعي النقدي لا يعني أن ننسب إلى النظام كل شيء، بل أن نتعلم تحديد درجة ما نعرفه ودرجة ما نفترضه.

ويتيح هذا المنهج صياغة تعريف أكثر دقة للقراءة الميتا خوارزمية :هي ممارسة قرائية تتجاوز التعامل مع النص والمحتوى إلى مساءلة الآليات

الخوارزمية التي ساهمت في اختياره أو ترتيبه أو شرحه أو تلخيصه أو اقتراح تأويله، من خلال الكشف عن وجود الوساطة وفحص آثارها ومقارنة مخرجاتها والتحقق من مصادرها والبحث عن البدائل التي قد تستبعدها أو تقلل ظهورها.

ويقوم هذا التعريف على أربع عمليات أساسية سبق تقديمها في الجهاز المفاهيمي للكتاب ويمكن الآن منحها مضمونًا أكثر تحديدًا :الكشف، أي التعرف إلى موضع تدخل الوسيط؛ والمساءلة، أي تحويل النتيجة إلى سؤال عن شروط إنتاجها؛ والمقارنة، أي اختبار ما إذا كانت النتيجة تتغير بتغير النظام أو المحفز أو السياق؛ والتحقق، أي العودة إلى مصادر مستقلة حين يتعلق الأمر بادعاء يمكن إثباته. ومن اجتماع هذه الحركات الأربع ينتقل القارئ من الوعي السلبي بالخوارزمية إلى ممارسة معرفية منظمة تجاهها.

ـ المبحث الثاني: الوعي بالخوارزمية

ـ *لماذا ظهر هذا النص؟*

يمثل سؤال «لماذا ظهر هذا النص؟» المدخل الأبسط والأعمق في آن واحد إلى الوعي الخوارزمي، لأنه يقلب العلاقة المعتادة مع الواجهة؛ فبدل افتراض أن المحتوى الموجود أمامنا وصل بطريقة طبيعية أو شاملة، نبدأ بالنظر إليه باعتباره نتيجة اختيار من فضاء أكبر. ولا يعني هذا السؤال افتراض وجود مؤامرة خفية وراء كل توصية، بل الاعتراف بأن الظهور نفسه حدث يحتاج إلى تفسير في بيئة تتجاوز فيها كمية المحتوى قدرة الإنسان على المشاهدة الكاملة.

وقد أظهرت دراسة رادر وغراي أن المستخدمين يحملون تصورات مختلفة، وبعضها غير دقيق، عن طريقة انتقاء المحتوى في خلاصات الأخبار، وأن هذه التصورات يمكن أن تؤثر في كيفية فهمهم لما يرونه وما لا يرونه [4]. ولا تكمن أهمية هذه النتيجة في منصة تاريخية بعينها، بل في الكشف عن وجود ما يمكن تسميته »النموذج الذهني للخوارزمية«؛ أي التصور الذي يبنيه المستخدم، صحيحًا كان أم خاطئًا، عن الأسباب التي تجعل المحتوى يظهر له. وكلما كان هذا النموذج بعيدًا عن الواقع، زاد احتمال أن ينسب المستخدم إلى العالم أو إلى الآخرين ما قد يكون جزئيًا نتيجة انتقاء وسيطي.

وفي القراءة الأدبية يمكن أن يتخذ السؤال أشكالًا متعددة: هل ظهر الكتاب لأنني قرأت مؤلفًا مشابهًا؟ هل لأنه رائج؟ هل لأن أشخاصًا يشبه سلوكهم سلوكي قرؤوه؟ هل لأنه مدفوع ترويجيًا؟ هل بسبب كلمة بحثتها؟ هل لأنه جديد في المنصة؟ وليس المطلوب أن يعرف القارئ الإجابة الدقيقة في كل حالة، فقد تكون بعض الأنظمة غير شفافة، لكن مجرد فتح هذه الاحتمالات يمنع تحويل الترتيب إلى طبيعة ثقافية.

ويصبح السؤال أكثر أهمية أمام محركات البحث، لأن النتيجة الأولى تمتلك قوة الإدخال إلى الانتباه، لكن موقعها ليس حكمًا ميتافيزيقيًا على قيمتها. وقد قدمت صفية أوموجا نوبل نقدًا مؤثرًا لفكرة محركات البحث بوصفها وسطاء محايدين، مبينة في دراستها أن الترتيب والبحث يمكن أن يعيدا إنتاج أنماط من التمييز والتحيز الاجتماعي والثقافي [8]. ولا يعني توسيع هذه الفكرة إلى المجال الأدبي أن كل ترتيب منحاز بمعنى سياسي مباشر، وإنما أن الصدارة لا ينبغي أن تعامل بوصفها برهانًا على الأفضلية الثقافية أو المعرفية.

ومن هنا يمكن للقارئ الميتا خوارزمي أن يحول السؤال إلى ممارسة بحثية، فيعيد صياغة الاستعلام، ويستخدم لغة أخرى إن كان قادرًا، ويقارن محركات وقواعد بيانات مختلفة، ويبحث مباشرة باسم المؤلف أو المؤسسة، ويتجاوز الصفحة الأولى، ويفتح ببليوغرافيات لا تقوم على التخصيص. وكل حركة من هذه الحركات لا تلغي الوساطة، لكنها تكسر احتكار وسيط واحد لصياغة مجال الرؤية.

وتشير أبحاث الثقافة الخوارزمية إلى أن الوعي ليس مجرد معرفة تقنية؛ فقد طور دوغرويل ومازور ويوكل مقياسًا للثقافة الخوارزمية يميز بين بعدين مترابطين هما الوعي باستخدام الخوارزميات والمعرفة بها .[6]ويستفيد مشروع القارئ الهجين من هذا التمييز، لكنه يضيف إليه بعدًا ثالثًا هو الممارسة النقدية، لأن معرفة أن الخوارزمية موجودة ومعرفة شيء عن طريقتها لا يكفيان إذا لم ينتج عنهما قدرة على اختبار مخرجاتها والتصرف إزاءها.

ـ لماذا اختفت نصوص أخرى؟

إذا كان سؤال الظهور يكشف الانتقاء، فإن السؤال المقابل «لماذا اختفت نصوص أخرى؟» يكشف أن السلطة الثقافية لا تعمل فقط من خلال ما تعرضه، بل كذلك من خلال ما يصبح ضعيف الحضور أو عالي الكلفة في الاكتشاف. ولا ينبغي فهم «الاختفاء» هنا بمعنى الحذف أو المنع فقط، بل

بمعنى التراجع في مجال الرؤية؛ فقد يكون النص موجودًا في قاعدة البيانات، لكنه يحتاج إلى بحث محدد حتى يظهر، بينما تحظى أعمال أخرى بتوصية تلقائية ومتكررة.

ويصبح هذا الفرق مهمًا لأن الإنسان يميل إلى بناء تصور عن المجال انطلاقًا مما يستطيع رؤيته، فإذا كانت واجهة المنصة مليئة بأعمال من نوع واحد فقد يشعر بأن هذا النوع هو ما ينتجه السوق أو يقرأه الجمهور بصورة ساحقة، مع أن جزءًا من الصورة قد يتعلق بمنطق العرض. ومن هنا يصبح القارئ الميتا خوارزمي حساسًا إلى الفرق بين الوجود والقابلية للاكتشاف.

وقد بينت بوخر أن القوة الخوارزمية تتصل أيضًا بأنظمة الرؤية وبما يصبح محسوسًا وقابلًا للظهور داخل المنصة [2]، بينما تكشف دراسات المستخدمين أن الوعي بهذه العمليات ليس كاملًا ولا يؤدي بالضرورة تلقائيًا إلى تغيير السلوك؛ فقد وجدت دراسة أودلف-هيرش ونويباوم حول مستخدمين في ألمانيا والولايات المتحدة علاقات بين الوعي الخوارزمي وبعض المواقف والسلوكيات، لكنها تؤكد في الوقت نفسه أن الوعي ظاهرة متعددة الأبعاد لا تتحول ببساطة إلى تحكم كامل في النظام [5]. ومن هنا يرفض هذا الكتاب معادلة «معرفة الخوارزمية» بـ«التحرر من أثرها.«

ويأخذ سؤال الغائب بعدًا ثقافيًا خاصًا في القراءة العربية، لأن قابلية النصوص للفهرسة والرقمنة والتوصية ليست موزعة بالتساوي بين اللغات ودور النشر والأرشيفات، وقد يكون الغياب نتيجة ضعف البنية الرقمية لا ضعف القيمة. ومن هنا يحتاج الباحث إلى أن يسأل: ما الأعمال التي لا تظهر لأن بياناتها الوصفية ضعيفة؟ ما الكتب التي ما تزال خارج الرقمنة؟ ما المجلات التي لا تفهرسها القواعد الكبرى؟ وما المعرفة التي تصبح غير مرئية لأن النظام الذي أستخدمه لا يصل إليها أصلًا؟

ويمنع هذا السؤال الخوارزمية من التحول إلى خريطة مطابقة للثقافة؛ فالخريطة الإلكترونية، مهما اتسعت، تظل ناتجة عن شروط إدخال وفهرسة وترخيص وتصنيف، ولذلك يصبح الصمت المعلوماتي نفسه موضوعًا للتحليل.

فإذا بحثنا عن كاتب ولم نجد إلا مواد قليلة، لا ينبغي أن نستنتج فورًا أن الإنتاج حوله محدود ، بل ينبغي أن نسأل أولًا عن حدود الأرشيف الذي بحثنا فيه.

ومن هنا يقترح الكتاب مفهوم »وعي الغياب الخوارزمي«، أي قدرة القارئ على إدراك أن ما لا يظهر في الواجهة ليس بالضرورة غير موجود ، وأن بعض أهم خطوات البحث قد تبدأ بعد النتائج التي قدمها النظام لا عندها. وتصبح هذه الكفاية جوهرية في العمل الأكاديمي، لأن جودة البحث لا تقاس فقط بقدرة الباحث على العثور على مصادر، بل بقدرته على الشك في اكتمال قائمة المصادر التي عثر عليها.

ـ المبحث الثالث: نقد مصدر الإجابة الآلية

ـ مساءلة البيانات

يتغير مفهوم «المصدر» بصورة جوهرية عندما ينتقل القارئ من كتاب أو مقال يحمل اسم مؤلف ودار نشر وهوامش واضحة إلى جواب توليدي لا يعرض دائمًا الجينالوجيا الدقيقة لكل جملة، لأن النظام يمكن أن ينتج صياغة جديدة تجمع أنماطًا ومعارف من عملية تدريب واسعة، وقد يكون مرتبطًا في بعض الحالات بآليات استرجاع أو تصفح أو قواعد بيانات. ومن هنا لا يكفي أن يسأل القارئ «ما مصدر هذه الإجابة؟» وكأنه يبحث عن كتاب واحد يقف خلفها، بل يحتاج إلى تفكيك سلسلة أكثر تعقيدًا تشمل بيانات التدريب، والسياق المقدم للنظام، والمصادر المسترجعة إن وجدت، والمحفز الذي صاغه المستخدم، وآليات التوليد والترتيب التي أنتجت الجواب النهائي.

ولا يستطيع المستخدم معرفة جميع تفاصيل بيانات التدريب في كثير من الأنظمة، ولذلك ينبغي ألا تتحول مساءلة البيانات إلى طلب مستحيل يجعل النقد مشروطًا بكشف كل شيء، بل يمكن للقارئ أن يبدأ من أسئلة عملية: هل تمثل الإجابة تقليدًا نقديًا واحدًا أم عدة تقاليد؟ هل تظهر فيها مراجع من لغة واحدة؟ هل تتكرر أمثلة شائعة على حساب مواد محلية؟ هل يقدم النظام مصدرًا يمكن الرجوع إليه؟ وهل يميز بين ما استرجعه من مصدر وما ولده بوصفه استنتاجًا؟

ويستفيد هذا النوع من المساءلة من النقد الذي قدمته نوبل للبحث والخوارزميات، لأنها أوضحت أن البيانات والترتيبات لا تنفصل عن علاقات القوة والمعايير الاجتماعية التي تتشكل داخلها [8]. كما يستفيد من دراسات الخوارزميات النقدية التي ترفض النظر إلى النظام الحسابي كوسيط محايد مستقل عن المؤسسات [1][2]. ومن هنا لا يطلب القارئ الميتا خوارزمي «بيانات بلا تحيز»، وإنما يحاول أن يعرف ما الذي قد يجعل بعض المعارف أكثر قابلية لأن تدخل إلى الجواب من غيرها.

وتظهر أهمية هذا السؤال في التأويل الأدبي؛ فإذا طلب المستخدم قراءة قصيدة عربية من منظور صوفي، يمكن للنظام أن يقدم خطابًا مقنعًا، لكن ينبغي السؤال عن نوع المرجعيات التي يعتمد عليها هذا الخطاب: هل يميز بين التصوف الإسلامي بوصفه تقليدًا تاريخيًا وبين الاستخدام المجازي العام لكلمة «صوفي»؟ هل يعيد إنتاج تعريفات مدرسية شائعة؟ هل يعرف النصوص التراثية التي يمكن أن تكون ذات صلة؟ وهل يقدم اقتراحه بوصفه احتمالًا أم حقيقة؟

ومن هنا يمكن التمييز بين »**معرفة الجواب** «و**«معرفة منشأ الجواب»**؛ فالأولى تتعلق بما يقوله النظام، بينما الثانية تتعلق بقدرتنا على تقييم الطريق الذي يمكن أن يكون قد أدى إليه. ولا يستطيع القارئ دائمًا استعادة هذا الطريق كاملًا، لكن مجرد إدراك الفرق يحميه من التعامل مع الجواب التوليدي كما لو كان مقطعًا من موسوعة ذات مصدر واحد واضح.

ويصبح نقد البيانات أكثر صرامة في البحث الأكاديمي؛ فالجواب الآلي يمكن أن يكون نقطة بداية لتحديد مصطلح أو اسم أو مرجع محتمل، لكنه لا ينبغي أن يحل محل المصدر الذي سيبنى عليه الاستدلال. ومن هنا تتأسس قاعدة »**استعادة المصدر** :«كلما احتوى الجواب على دعوى ذات وظيفة إثباتية، ينبغي تحويلها من صياغة مولدة إلى مصدر يمكن الرجوع إليه، وعند الفشل في ذلك تنخفض قيمة الدعوى بوصفها أساسًا أكاديميًا مهما بدا الأسلوب مقنعًا.

- مساءلة المرجعية

إذا كانت مساءلة البيانات تتعلق بما يمكن أن يكون النظام قد تعلم منه أو استرجعه، فإن مساءلة المرجعية تتعلق بالسؤال الأعمق :**بأي سلطة يتكلم الجواب؟** فقد تقدم الآلة تعريفًا فلسفيًا أو تفسيرًا أدبيًا أو حكمًا تاريخيًا من دون أن يظهر الفرق بين مرجع أكاديمي وتلخيص شائع، وبذلك ينشأ خطر تسوية مراتب الخطاب داخل لغة واحدة متماسكة.

ومن هنا ينبغي للقارئ أن يميز بين أربع حالات على الأقل: معلومة لها مصدر محدد ، وتعميم مبني على معرفة واسعة لكن غير محددة، واستنتاج يولده النظام من السياق، واقتراح تأويلي لا ينبغي أن يقدم بوصفه حقيقة. ولا تكمن المشكلة في وجود هذه الأنواع، لأن البشر يستخدمونها أيضًا ، بل في أن الواجهة التوليدية تستطيع أن تسوي بينها بلاغيًا فتبدو جميعها في درجة يقين واحدة.

وقد بين أناني وكروفورد أن الشفافية التقنية وحدها لا تكفي لتحقيق المساءلة، لأن فهم الأنظمة يتطلب النظر إلى الشبكات والمؤسسات والعلاقات التي تعمل ضمنها [7]. ويستفيد القارئ من هذا المبدأ عندما يدرك أن طلب «أظهر لي كيف تعمل خوارزميتك» ليس دائمًا أفضل سؤال، وأن السؤال الأكثر قابلية للاستخدام قد يكون: ما المصادر التي يمكنني التحقق منها؟ ما حدود الإجابة؟ ما نوع المعلومة التي تستند إليها؟ وما البديل إذا كانت المادة غير موثقة؟

وتظهر المرجعية بصورة أكثر إشكالًا حين يجيب النظام عن موضوع محل خلاف، لأن اللغة التوليدية قد تنتج توفيقًا اصطناعيًا يجمع مواقف متعارضة في صيغة متوازنة ظاهريًا من دون إظهار وزن الأدلة أو الاختلاف بين المدارس. وهنا تصبح مهمة القارئ الميتا خوارزمي إعادة التفكيك: من قال ماذا؟ ما المرجع؟ ما تاريخ الموقف؟ هل توجد مدرسة مضادة؟ وهل الجمع الذي قدمه النظام موجود فعلًا في الأدبيات أم أنه تركيب بلاغي جديد؟

ويكون هذا أكثر أهمية في الأدب والنقد ، لأن المرجعية قد لا تكون «مصدر حقيقة» بل تقليدًا في التفكير؛ فإذا قدم النظام قراءة ماركسية لنص، ينبغي ألا يسأل القارئ فقط هل تبدو القراءة جيدة، بل ما المفاهيم الماركسية التي استعملت وما مدى اتساقها مع المرجعية النظرية، وهل خلطت بين مدارس مختلفة، وما إذا كان النص نفسه يسمح بهذا المدخل. ومن هنا يصبح نقد المرجعية أيضًا نقدًا لـالاستعمال المولد للنظرية.

ويفضي هذا إلى مفهوم »التأويل من الدرجة الثانية «الذي سبق اقتراحه في الكتاب: فالقارئ لا يفسر النص فقط، بل يفسر كذلك التفسير الذي قدمه النظام، ويحلل افتراضاته ومصطلحاته ومصادره. وعند هذه النقطة تصبح الآلة نفسها جزءًا من المدونة النقدية التي يقرأها الإنسان.

ـ المبحث الرابع: القراءة المضادة للخوارزمية

ـ البحث خارج التخصيص

لا تعني «القراءة المضادة للخوارزمية» رفض الخوارزميات أو السعي إلى فضاء ثقافي خال منها، لأن هذا التصور غير واقعي ولا مطلوب نظريًا، وإنما تعني قدرة القارئ على إنشاء مسار بديل حين يصبح المسار المخصص ضيقًا أو متكررًا أو غير مناسب للغرض المعرفي .وهي بهذا المعنى ممارسة تصحيحية وليست عقيدة مضادة للتكنولوجيا.

وتبدأ هذه الممارسة حين يعرف المستخدم أن التخصيص مفيد في تقليل فائض الخيارات لكنه مبني غالبًا على نوع من العلاقة بين الماضي والمستقبل؛ فالأنظمة تحاول تقديم ما يحتمل أن يكون مناسبًا انطلاقًا من بيانات أو تشابهات، بينما تحتاج الثقافة أحيانًا إلى ما لا يمكن توقعه من الماضي. ومن هنا يكون الخروج من التخصيص طريقة لحماية إمكانية تحول الذوق بدل تحويل التاريخ القرائي إلى قدر.

وقد درست بحوث أنظمة التوصية منذ زمن قضايا تتجاوز الدقة، مثل التنوع والجدة والمصادفة والتغطية، وبين كامينسكاس وبريدج أن جودة التوصية لا تختزل في القدرة على توقع ما يفضله المستخدم، لأن عوامل مثل التنوع والمفاجأة ذات الصلة يمكن أن تكون مهمة كذلك [9]. وهذه النتيجة التقنية تمنح القراءة المضادة للخوارزمية سندًا مثيرًا للاهتمام، لأن المطالبة بالخروج من التشابه ليست موقفًا رومانسيًا خارج علم التوصية نفسه، بل تتصل بمشكلة معروفة هي أن القائمة الدقيقة جدًا قد تصبح فقيرة من حيث الاكتشاف.

ويمكن للقارئ ممارسة البحث خارج التخصيص بطرائق متعددة: العودة إلى فهارس موضوعية أو أبجدية، قراءة ببليوغرافيات أكاديمية، استخدام مكتبات عامة ومادية، البحث في قواعد متخصصة، اختيار عمل وفق معيار زمني أو جغرافي لا يرتبط بالتوصيات السابقة، سؤال شخص ذي ذائقة بعيدة،

أو إنشاء فترات يقرأ فيها دون الرجوع إلى قوائم «مقترح لك». ولا يلزم أن يمارس كل ذلك باستمرار، لأن الهدف ليس استبدال خوارزمية بإرهاق دائم، بل الاحتفاظ بقدرة على تغيير قناة الاكتشاف.

ومن هنا يظهر مفهوم »العصيان القرائي «الذي سبقت الإشارة إليه، وهو لا يعني عصيانًا سياسيًا بالضرورة، بل حركة معرفية يرفض فيها القارئ أن تكون القائمة المخصصة هي الحدود الوحيدة لفضائه. ويمكن أن يكون العصيان بسيطًا كاختيار كتاب من رف عشوائي، أو منهجيًا كإنشاء مشروع قراءة لأصوات مهمشة لا تظهر في التوصيات.

ويصبح هذا المبدأ بالغ الأهمية للباحث، لأن الاعتماد على التخصيص في بناء مدونة أكاديمية يمكن أن ينتج حلقة يعزز فيها النظام ما سبق للباحث أن اختاره، فيقل احتمال ظهور مراجع تعارض فرضيته. ومن هنا تكون القراءة المضادة للخوارزمية صورة من صور التحيز المضاد للتأكيد، أي إنشاء مسارات متعمدة للعثور على ما لا يؤكد الاختيارات السابقة.

- استعادة الصدفة الثقافية

تمثل الصدفة الثقافية القيمة المقابلة للتنبؤ، لأنها تمنح القارئ إمكان العثور على عمل لم يكن يعرف اسمه ولم يكن سجله السابق كافيًا لتوقع حاجته إليه، وهي ليست عشوائية خالصة ولا فضيلة في كل الأحوال، بل قدرة البيئة الثقافية على إنتاج لقاءات غير مقررة بالكامل بالماضي الشخصي .وقد جعلت أبحاث التوصية «المصادفة» أو *serendipity* أحد الأهداف التي تتجاوز مجرد الدقة [9]، وهو ما يسمح بتحويلها من حنين إلى التجول في المكتبة إلى مفهوم يمكن التفكير فيه كذلك داخل تصميم البيئة الرقمية.

وتكمن قيمة الصدفة في أنها تحمي القارئ من اختزال ذاته إلى ما يعرفه النظام عنه؛ فإذا كانت الخوارزمية تقول بصورة ضمنية «أنت الشخص الذي أحب هذه الكتب»، فإن المصادفة تقول «قد تصبح شخصًا يهتم بشيء لم

يظهر بعد في تاريخك». ومن هنا ترتبط المصادفة بفلسفة للتحول لا بفلسفة للفوضى.

ويظهر هذا الفرق في الذائقة الأدبية بوضوح؛ فالقارئ لا يعرف دائمًا مسبقًا النوع الذي سيغيره، وقد تأتي بعض أهم التجارب من كتاب اشتراه لأن غلافه لفت نظره أو وجده بجوار عنوان آخر أو ذكره شخص عرضًا. ولا ينبغي تمجيد الرف المادي كما لو كان خاليًا من تنظيم الناشر والمكتبي والسوق، لكن له خاصية هي أن المجاورة المكانية تستطيع أن تنتج لقاءات لا تقوم كلها على تاريخ سلوك المستخدم.

ومن هنا يمكن تصميم ممارسات للصدفة المقصودة، وهي مفارقة ظاهرية لأن المصادفة عادة غير مقصودة، لكن المقصود هو خلق شروط تسمح لغير المتوقع بالدخول: قراءة دورية من قائمة لا تستخدم السجل الشخصي، اختيار العدد السابع من قائمة، البحث في أرشيف قديم ، قراءة كتاب من لغة أو بلد لا يظهر عادة في التوصيات، أو طلب اقتراحات مع شرط الابتعاد المتعمد عن التاريخ السابق.

ولا يعني ذلك استخدام الذكاء الاصطناعي لتوليد «عشوائية» جديدة ثم الاعتقاد أننا خرجنا من الخوارزمية، لأن النظام نفسه يظل وسيطًا، لكن يمكن استخدامه بطريقة تعاكس التخصيص المعتاد ، كأن يطلب القارئ أعمالًا تختلف جذريًا عن اختياراته السابقة أو تمثل مدارس ضعيفة الحضور، ثم يتحقق من القائمة من مصادر مستقلة. وبهذه الطريقة تتحول الخوارزمية ذاتها إلى أداة لمقاومة بعض نتائج الخوارزمية، وهو ما يثبت أن القراءة المضادة ليست مواجهة بين إنسان وتقنية، بل اختلاف في تصميم العلاقة بينهما.

ومن هنا تصبح الحرية القرائية ليست حالة غياب الوساطة، بل القدرة على تعدد الوساطات وعدم الارتهان لمسار واحد.

ـ المبحث الخامس: المحفز النقدي

ـ *السؤال الذي يكشف التحيز*

إذا كان الفصل الحادي عشر قد أسس مفهوم «السؤال القرائي المعزز» والكفاية الحوارية الخوارزمية، فإن القراءة الميتا خوارزمية تضيف مستوى أكثر تحديدًا يتمثل في »**المحفز النقدي**«، والمقصود به السؤال الذي لا يطلب من النظام حل المشكلة فقط، بل يجعله يكشف قدر الإمكان افتراضاته وحدود مخرجه والبدائل التي لم يقدمها. وهو مفهوم مقترح في هذا الكتاب لا مصطلح تقني مستقر، وينطلق من حقيقة أن المحفز يشارك في تشكيل الجواب وأن السؤال الموجه يستطيع أن ينتج تأكيدًا لفرضيته أكثر مما ينتج اختبارًا لها.

ومن هنا لا يسأل القارئ النقدي: «لماذا تمثل هذه الشخصية الاستلاب؟»، بل يمكن أن يقول: «اختبر فرضية أن الشخصية تمثل الاستلاب، واذكر الأدلة المؤيدة والمقاطع التي قد تعارض هذا التفسير، ثم اقترح تفسيرين بديلين». ولا يسأل: «أثبت أن هذه الرواية ما بعد استعمارية»، بل: «ما العناصر التي تسمح بقراءة ما بعد استعمارية، وما حدود هذا المدخل، وما المفاهيم التي يجب التحقق من ملاءمتها للسياق المحلي؟». وفي هذا التحول تنتقل وظيفة المحفز من استخراج التأكيد إلى إنتاج مقاومة داخل الجواب.

وقد بينت أبحاث المحفزات أن طريقة صياغة المهمة والسياق والتعليمات تؤثر في مخرجات النماذج اللغوية [10]، كما أظهرت دراسات التفاعل أن المستخدمين غير المتخصصين قد يواجهون صعوبات في توقع الطريقة التي ستستجيب بها الأنظمة لتعليماتهم [11]. ومن هنا لا يكون المحفز النقدي وصفة سحرية تضمن الحياد، بل أسلوبًا لرفع مستوى الوعي بأن السؤال جزء من النظام الذي نريد نقده.

ويمكن للمحفز النقدي أن يعمل في عدة اتجاهات؛ فقد يطلب من النظام إظهار افتراضاته، أو تمييز ما هو معلوم مما هو استنتاج، أو ذكر مصادر قابلة

للتحقق، أو تحديد ما الذي لا يعرفه بثقة، أو اقتراح موقف معارض، أو البحث عن منظور لغوي وثقافي مختلف، أو ذكر الفئات والمراجع التي قد تكون ناقصة التمثيل .ولا يضمن امتثال النظام الكامل لهذه الطلبات، لكن صياغتها تخلق بنية حوارية أكثر مقاومة للجواب الأحادي.

وتظهر فائدة هذا الأسلوب في التحيز الثقافي؛ فإذا قدم النظام قائمة بأهم منظري مفهوم أدبي وكانت جميع الأسماء من تقليد واحد، يمكن للمستخدم أن يسأله عن الباحثين العرب أو الأفارقة أو الآسيويين الذين ناقشوا المفهوم، ثم يتحقق من وجودهم ومساهماتهم. ولا ينبغي قبول القائمة الثانية تلقائيًا باعتبارها تصحيحًا، لأن النظام قد يختلق أو يبالغ، لكن السؤال كشف أولًا الانحياز في مجال البحث ثم دفع إلى توسيعه.

ومن هنا يصبح المحفز النقدي أداة ميتا خوارزمية لأنه يسأل النظام عن الفراغات في جوابه لا عن محتواه فقط، ويحول العلاقة من «أعطني المعرفة» إلى «ساعدني على رؤية ما قد يجعل هذه المعرفة ناقصة.«

ـ *مقارنة الأجوبة والنماذج*

تكتسب القراءة الميتا خوارزمية قوة إضافية حين يخرج القارئ من علاقة الواحد بالواحد مع جواب واحد، فيعيد صياغة السؤال أو يطلب إجابة في جلسة جديدة أو يقارن بين أدوات مختلفة، ليس بهدف العثور آليًا على «الأصح»، بل لاكتشاف ما الذي يتغير وما الذي يظل ثابتًا .فإذا أنتجت الأنظمة أو الصياغات قراءات مختلفة جدًا للنص، فهذا لا يثبت أن جميعها متساوية، لكنه يكشف أن المخرج أكثر اعتمادًا على شروط التوليد مما قد يوحي به الجواب المفرد.

وتسمى هذه العملية هنا »التثليث الخوارزمي «على سبيل الاقتراح المنهجي، قياسًا على فكرة مقارنة أكثر من مصدر أو أداة لتقليل الاعتماد على نقطة واحدة، مع ضرورة التأكيد أن تعدد النماذج لا يساوي تعدد المصادر المستقلة بالمعنى الأكاديمي؛ فقد تكون الأنظمة قد تعلمت من مواد متشابهة أو

تعيد إنتاج الأنماط الثقافية ذاتها، ولذلك لا يكفي اتفاق ثلاثة نماذج لإثبات حقيقة. إن قيمة المقارنة في هذا المستوى تشخيصية أكثر منها برهانية.

ويمكن أن تكشف المقارنة ثلاثة أشياء على الأقل: حساسية الجواب للمحفز، ومدى رسوخ بعض التصورات الشائعة، ومواضع التباين التي تحتاج إلى الرجوع إلى المصادر. فإذا اختلف نظامان في تاريخ واقعة، فذلك ليس تنوعًا تأويليًا بل إشارة إلى ضرورة التحقق؛ وإذا اختلفا في معنى استعارة، فقد يكون الخلاف مشروعًا ويحتاج إلى الأدلة النصية؛ وإذا اتفقا على تفسير نمطي، فقد يكون الاتفاق ناتجًا عن شيوع القراءة في المواد المتاحة لا عن أنها الوحيدة الممكنة.

ومن هنا يجب أن يتعلم القارئ تصنيف الاختلاف قبل حسمه :اختلاف واقعي يحتاج إلى مصدر، واختلاف منهجي يحتاج إلى تعريف المدرسة، واختلاف تأويلي يحتاج إلى النص، واختلاف لغوي قد يحتاج إلى الأصل. ويمنع هذا التصنيف تحويل مقارنة النماذج إلى تصويت آلي.

كما يمكن استخدام المقارنة لكشف أثر المحفز نفسه؛ فيطرح القارئ سؤالًا محايدًا نسبيًا، ثم سؤالًا منحازًا عمدًا إلى فرضية، ثم سؤالًا يطلب الاعتراض، ويقارن كيف تتغير الاستجابة. وعندها يصبح الحوار تجربة صغيرة في تحليل قابلية النظام للتوجيه، وهي تجربة مفيدة لأنها تعيد المسؤولية إلى المستخدم: قد يكون بعض ما ينتقده في جواب الآلة قد دخل إليه أصلًا من سؤال صاغه هو.

ويكون أعلى أشكال المحفز النقدي حين يطلب القارئ من النظام أن ينقد جوابه السابق، ثم لا يكتفي بهذا النقد بل يعود إلى النص والمصادر لكي يقرر أي اعتراض قائم فعلاً. فالنظام يستطيع أن يولد نقدًا لنفسه، لكنه لا يملك سلطة الحكم النهائي على نجاح هذا النقد، وهنا يعود النموذج المركزي: الآلة تولد الاختلاف، والقارئ يديره، والنص والسياق يختبران صلاحيته.

ـ المبحث السادس: القارئ الميتا خوارزمي

ـ *خصائصه المعرفية*

لا ينبغي تعريف القارئ الميتا خوارزمي من خلال مقدار معرفته التقنية وحدها، لأن شخصًا قادرًا على شرح خوارزمية توصية رياضيًا قد يظل يتعامل مع المخرجات الثقافية دون نقد، بينما يمكن لقارئ لا يعرف البرمجة أن يمتلك وعيًا ممتازًا بالترتيب والتخصيص والتحقق والتنوع. ومن هنا تكون خصائص القارئ الميتا خوارزمي معرفية وتأويلية وسلوكية في آن واحد.

وتبدأ الخاصية الأولى بوعي الوساطة؛ أي أن القارئ يعرف أن ما يراه ليس المجال كله، وأن الترتيب نتيجة إنتاج لا حالة طبيعية. ويقدم مقياس الثقافة الخوارزمية عند دوغرويل ومازور ويوكل أساسًا مهمًا لهذا المستوى من خلال التمييز بين الوعي باستخدام الخوارزمية والمعرفة بها [6]. وتضيف نظرية القارئ الهجين إلى هذين البعدين القدرة على تحويل المعرفة إلى استراتيجية قراءة.

أما الخاصية الثانية فهي وعي عدم الاكتمال؛ فالقارئ يعرف أن عدم ظهور كتاب لا يساوي عدم وجوده، وأن الإجابة الآلية لا تستنفد المرجعيات، وأن قائمة النتائج تمثل مقطعًا من المجال. وهذه الخاصية تغير علاقته بالبحث من منطق «وجدت الجواب» إلى «وجدت نقطة دخول.«

وتتمثل الخاصية الثالثة في الكفاءة المقارنية، أي القدرة على تغيير السؤال والمصدر والمنصة واللغة ومقارنة النتائج دون مساواة التنوع بالصحة. ويكون هدف المقارنة الكشف عن البنية قبل الوصول إلى الحكم.

أما الخاصية الرابعة فهي القدرة على تصنيف الادعاءات؛ فهو يميز الواقعة عن التفسير، والمرجع عن التوليد، والاقتباس عن إعادة الصياغة، والتشابه عن التناص، والتوصية عن القيمة. وهذا التصنيف بالغ الأهمية لأن النظام يستطيع تقديم هذه الأنواع في أسلوب واحد متماسك يجعل الحدود بينها أقل وضوحًا.

وتتمثل الخاصية الخامسة في إدارة الشك؛ فالقارئ الميتا خوارزمي ليس شخصًا لا يثق في أي شيء، لأن الشك الشامل يعطل المعرفة، بل يوزع ثقته تبعًا لطبيعة المهمة والدليل. يستطيع أن يقبل مساعدة بسيطة دون تحقيق مطول، لكنه يرفع مستوى التدقيق حين يتعلق الأمر باقتباس أو مرجع أو حكم سيبني عليه بحثًا.

أما الخاصية السادسة فهي الاستقلال عن الملف الخوارزمي للذات؛ أي أن القارئ لا يسمح لتاريخ اختياراته بأن يتحول إلى تعريف نهائي لما ينبغي أن يقرأه. يستخدم التوصيات حين تساعده، ويخرج منها حين يريد أن يتغير، ويحافظ على حقه في مفاجأة النظام كما يحافظ على حق النص في مفاجأته.

وتتمثل الخاصية السابعة في الكفاية الحوارية النقدية، وهي أوسع من مهارة كتابة المحفز؛ لأنها تشمل القدرة على السؤال والاعتراض وإعادة الصياغة وطلب الدليل وتغيير المنظور وإنهاء الحوار عند النقطة التي يصبح فيها مزيد من التوليد أقل قيمة من العودة إلى النص. وهذه الخاصية تربط الفصل الرابع عشر بالفصل الحادي عشر، لكنها تضيف إليها وعيًا بالبنية التي تولد الجواب.

وتظهر الخاصية الثامنة في الوعي بالخصوصية والبيانات، لأن القارئ يعرف أنه لا يقدم أسئلة فقط بل قد ينتج آثارًا عن اهتماماته وسلوكه، ويوازن بين فائدة التخصيص وحقه في تقليل البيانات التي لا تحتاج إليها المهمة.

ومن هنا يمكن تعريف القارئ الميتا خوارزمي بأنه :قارئ هجين يمتلك، إلى جانب الكفايات اللغوية والرقمية والتأويلية، قدرة على إدراك الوساطة الخوارزمية ومساءلة منطق ظهور المحتوى ومصادر الأجوبة وحدود التخصيص، ويستطيع مقارنة المخرجات والخروج من مساراتها والتحقق من مرجعياتها مع الاحتفاظ بموقعه بوصفه الفاعل المسؤول عن الحكم.

ـ استقلاله التأويلي

تبلغ القراءة الميتا خوارزمية غايتها في مفهوم **الاستقلال التأويلي**، غير أن هذا الاستقلال ينبغي ألا يُفهم باعتباره عودة إلى فرد مكتف بنفسه لا يحتاج إلى مترجم أو ناقد أو منصة أو ذكاء اصطناعي، لأن القراءة كانت دائمًا اجتماعية وموسّطة، وإنما يعني قدرة القارئ على استخدام الوسائط دون أن تصبح نتائجها غير المرئية هي الحدود النهائية لموقفه. فالاستقلال هنا ليس غياب الاعتماد ، **بل القدرة على إدارة الاعتماد**.

ويظهر ذلك بوضوح في العلاقة مع التوصية؛ فالقارئ المستقل لا يرفض الكتب المقترحة، وإنما يعرف أنها نتائج نظام يمكن تجاوزه. وفي العلاقة مع التلخيص لا يرفض الاختصار، لكنه يعرف الفرق بين الملخص والعمل. وفي العلاقة مع التأويل التوليدي لا يرفض الفرضية التي تقدمها الآلة، لكنه لا يكتسبها بوصفها موقفه قبل اختبارها. وهكذا يصبح الاستقلال مجموعة من القدرات على **الدخول والخروج والقبول والرفض والمقارنة والعودة**.

وتتقاطع هذه الصيغة مع ما أسماه الفصل الثاني عشر «مبدأ بقاء الإنسان في دائرة التأويل» ، لكنها تضيف إليه بعدًا جديدًا هو أن الإنسان لا يبقى داخل الدائرة بمجرد وجوده الشكلي، بل حين يستطيع رؤية العوامل التي تؤثر في حركته داخلها. ومن هنا يكون الاستقلال **وعيًا بالشرط الذي يمارس داخله الاختيار**.

ولا يعني ذلك أن القارئ يمكنه بلوغ شفافية كاملة حول النظام؛ فقد أكد أناني وكروفورد حدود مثال الشفافية [7]، كما تبين بوخر أن الخوارزميات متعددة وعلاقية وليست موضوعات ثابتة يمكن كشفها مرة واحدة [2]. ولذلك يكون الاستقلال التأويلي **استقلالًا تحت شروط عدم اليقين**، وهو أكثر واقعية من تصور السيطرة الكاملة.

ويتطلب هذا الاستقلال التواضع في اتجاهين متعاكسين: ألا يبالغ القارئ في الثقة بالآلة، وألا يبالغ في الثقة بنفسه. فالإنسان يحمل تحيزاته وذاكرته المحدودة وأفقه الثقافي، وقد تساعده الخوارزمية على رؤية ما أغفله، ولذلك لا تكون القراءة الميتا خوارزمية استعادة لسيادة بشرية متعالية لا تخطئ، بل بناء علاقة نقدية يستطيع فيها كل وسيط أن يصحح جانبًا من الآخر، مع بقاء المسؤولية الإنسانية عن قبول التصحيح.

ومن هنا تتخذ السيادة التأويلية معناها الأكثر دقة: ليست حق القارئ في تجاهل الوسائط، ولا ادعاء امتلاك معنى النص، بل قدرته على أن يجعل الوسائط **قابلة للمراجعة داخل سير التأويل** .فإذا كانت التوصية تحدد مجال البداية، يستطيع توسيعه؛ وإذا قدم النظام تفسيرًا، يستطيع الاعتراض؛ وإذا أخفته الخوارزمية عن نصوص، يستطيع البحث عنها؛ وإذا قالت الأرقام إن كتابًا أقل شعبية، يستطيع قراءته رغم ذلك.

وتصبح السيادة هنا ممارسة أكثر منها حالة، لأنها تحتاج إلى تجدد دائم. فالخوارزميات تتغير، والمنصات تتغير، والنماذج تتغير، والقارئ نفسه يتغير، ولذلك لا يوجد مستوى نهائي من «معرفة الخوارزمية» يضمن الاستقلال إلى الأبد. ومن هنا تكون القراءة الميتا خوارزمية عادة نقدية مستمرة.

من الوعي الخوارزمي إلى الوعي بالشرط القرائي

تسمح نتائج هذا الفصل بالتمييز بين ثلاث درجات غالبًا ما تختلط في الخطاب العام :الوعي بوجود الخوارزمية، والمعرفة العامة بطريقة عمل الخوارزميات، والوعي النقدي بأثر الوساطة في القراءة المحددة التي تحدث الآن .فالدرجة الأولى تقول: أعرف أن هناك خوارزمية؛ والثانية تقول: أعرف أن أنظمة التوصية تستخدم بيانات وعمليات ترتيب؛ أما الثالثة فتسأل: ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إلى هذه القائمة وهذا النص وهذا الجواب وهذه اللحظة من قراءتي؟

وقد ساهمت الدراسات التجريبية في بيان أهمية الدرجتين الأوليين؛ فإسلامي وزملاؤها أظهروا أن غياب الوعي بالانتقاء يمكن أن يؤدي إلى سوء تفسير الخلاصة الاجتماعية [3]، ورادر وغراي كشفا تنوع معتقدات المستخدمين حول الانتقاء [4]، بينما درس أودلف-هيرش ونويباوم الارتباطات السلوكية والموقفية للوعي [5]، وطوّر دوغرويل ومازور ويوكل مقياسًا يجمع بين الوعي والمعرفة [6]. أما مفهوم القراءة الميتا خوارزمية فيضيف إلى ذلك كله السؤال عن تحويل هذه المعرفة إلى فعل تأويلي.

ومن هنا لا تكفي الثقافة الخوارزمية لكي يكون الإنسان قارئًا ميتا خوارزميًا؛ فقد يعرف الكثير عن الخوارزميات لكنه لا يطبق شيئًا من ذلك على قراءته، كما أن شخصًا ذا معرفة تقنية محدودة يستطيع أن يكون ميتا خوارزميًا إذا كان يملك استراتيجيات مقارنة وتحقق وخروج من التخصيص. ولذلك تكون العلاقة بين المفهومين علاقة تداخل: الثقافة الخوارزمية شرط مهم، لكنها لا تستنفد القراءة الميتا خوارزمية.

ويؤدي هذا إلى توسيع مفهوم «معرفة النص» نفسه؛ فالقارئ في البيئة الخوارزمية قد يحتاج إلى معرفة كيف وصل النص إليه بقدر حاجته إلى معرفة ما يقوله، لأن شروط الوصول يمكن أن تؤثر في توقعه وفي تصور أهميته. وهكذا تصبح «معرفة الوساطة جزءًا من معرفة النص»، وهي إحدى النتائج المركزية لهذا الباب.

ولا ينبغي أن نفهم هذه العبارة بوصفها دعوة إلى تحويل كل قراءة أدبية إلى تحليل للمنصة، لأن مستوى الوساطة يختلف من حالة إلى أخرى، وإنما بوصفها مبدأ تناسبيًا: كلما زاد تدخل الخوارزمية في الاختيار والشرح والتأويل، ازدادت أهمية إدخالها إلى مجال النقد.

القراءة الميتا خوارزمية بوصفها قراءة من الدرجة الثانية

يمكن وصف القراءة الميتا خوارزمية كذلك بأنها قراءة من الدرجة الثانية، لأنها تقرأ العملية التي تنظم القراءة الأولى. ففي المستوى الأول يقرأ

القارئ الرواية ويحلل شخصياتها وزمنها ولغتها، وفي المستوى الثاني يسأل عن سبب توصيتها له وعن التفسير الذي قدمه النظام وعن المراجع التي اختارها وعن الزوايا التي غابت. ولا يلغي المستوى الثاني الأول، بل يحميه من أن يصبح تابعًا لوسيط غير مرئي.

ويشبه ذلك، من حيث البنية لا من حيث الموضوع، الوعي الميتانقدي الذي لا يدرس العمل فقط بل يسائل الأدوات التي نستخدمها في دراسته، غير أن الوسيط الخوارزمي يضيف عنصرًا جديدًا لأنه ليس منهجًا في ذهن الناقد فقط، بل بنية تقنية تستطيع أن تتصرف داخل عملية الوصول نفسها.

ومن هنا تظهر العلاقة المستقبلية بين القراءة الميتا خوارزمية والنقد الميتا خوارزمي؛ فالأولى تخص القارئ الذي يعي الوسيط أثناء التلقي، بينما يوسع الثاني العملية إلى نقد منظومات الإنتاج والتوزيع والتوصية والتأويل الخوارزمي بوصفها موضوعات ثقافية. ويصبح القارئ الميتا خوارزمي البنية الأولية التي يمكن أن ينشأ منها ناقد ميتا خوارزمي.

وتتميز القراءة من الدرجة الثانية بأنها لا تكتفي بالسؤال عن صحة النتيجة، بل عن نظام إنتاجها؛ فقد تكون التوصية ممتازة والجواب صحيحًا، ومع ذلك يظل السؤال عن سبب الوصول إليهما مشروعًا، لأن الهدف ليس كشف الأخطاء فقط بل فهم الوساطة التي أصبحت جزءًا من الثقافة.

من المقاومة إلى التفاوض

قد توحي عبارة «القراءة المضادة للخوارزمية» بأن العلاقة بين الإنسان والنظام صراع دائم، لكن النموذج الأكثر ملاءمة لما قدمه الفصل هو التفاوض، لأن القارئ يستخدم الوساطة ثم يقاوم بعض آثارها، ويقبل التخصيص في سياق ويرفضه في سياق آخر، ويستفيد من النظام في إيجاد كتاب ثم يبحث عمدًا خارجه لكي يضمن التنوع. ومن هنا لا تكون الحرية في الوقوف خارج الخوارزمية، بل في عدم جعل علاقة واحدة بها إلزامية.

ويتيح مفهوم التفاوض تجاوز ثنائية «السيطرة/الخضوع»؛ فالقارئ يستطيع أن يؤثر في التوصيات من خلال اختياراته وإعداداته، لكنه لا يملك تصميم النظام، والمنصة تستطيع ترتيب مجاله لكنها لا تملك ضمان استجابته، ولذلك تكون العلاقة ميدانًا من التأثيرات المتبادلة غير المتكافئة.

وهذا الإدراك يمنع كذلك المبالغة في فكرة «خداع الخوارزمية» أو السيطرة عليها من خلال بعض التكتيكات البسيطة، لأن النظام قد يتغير ولا يعرف المستخدم ما الذي يزن فعلاً، ولذلك يكون الهدف من استراتيجيات المقاومة ليس التحكم الكامل في الخوارزمية، بل حماية تنوع المجال الذي يتحرك فيه القارئ.

ومن هنا يمكن اعتبار المصادفة والتنوع والمقارنة وتغيير المحفز والعودة إلى المصادر أدوات تفاوضية تحفظ للقارئ مساحة خارج التوقع الحسابي، وهي مساحة لا ينبغي أن ينظر إليها بوصفها بقايا من عصر سابق، بل جزءًا من الكفاية اللازمة للعصر نفسه.

نحو بروتوكول للقراءة الميتا خوارزمية

يمكن جمع مبادئ الفصل في بروتوكول نظري لا يقصد أن يتحول إلى خطوات آلية يجب اتباعها في كل مرة، بل إلى بنية ذهنية يمكن للقارئ استدعاؤها عندما تكون الوساطة ذات أثر واضح. تبدأ هذه البنية من **رصد الوساطة** :هل جاء النص من توصية، بحث، اختيار بشري، أم مزيج بينها؟ ثم تنتقل إلى **اختبار الظهور** :ما الأسباب المحتملة التي جعلت هذا المحتوى حاضرًا؟ يلي ذلك **وعي الغياب** :ما البدائل التي قد لا تكون ظهرت؟ ثم **فحص المرجعية** :هل الإجابة مستندة إلى مصادر يمكن الرجوع إليها، أم هي تركيب توليدي؟ وبعدها **المقارنة** :ماذا يحدث إذا تغير السؤال أو المصدر أو المنصة؟ ثم **الخروج المتعمد** :هل أحتاج إلى مسار غير مخصص أو إلى صدفة ثقافية؟ وأخيرًا **العودة إلى النص والحكم البشري**.

ويمكن اختزال هذه الحركة في الصيغة التالية:

ظهور ← سؤال عن الاختيار ← بحث عن الغائب ← فحص المصدر ← مقارنة المخرجات ← كسر التخصيص عند الحاجة ← عودة إلى النص ← حكم بشري.

وتختلف هذه الدورة عن دورة التلقي الخوارزمي في الفصل الثالث عشر؛ فهناك كان النظام يصف ما يحدث في البيئة، أما هنا فإن القارئ يتدخل داخل الدورة لكي يجعلها موضوعًا للفحص .ومن ثم يمكن القول إن الفصل الثالث عشر يقدم النموذج الوصفي، بينما يقدم الفصل الرابع عشر المستوى النقدي لذلك النموذج.

ويظهر في هذا البروتوكول أن القراءة الميتا خوارزمية لا تستلزم معرفة تقنية تفصيلية، بل تحتاج إلى معرفة عملية بمواقع السؤال .وهذا أمر مهم لأن جعل الثقافة الخوارزمية حكرًا على المبرمجين سيعيد إنتاج نوع جديد من التفاوت المعرفي؛ فالحق في مساءلة النظام يجب ألا يعتمد على القدرة على قراءة شفرته.

خاتمة الفصل الرابع عشر

أظهر الفصل الرابع عشر أن الوعي بوجود الخوارزمية لا يمثل نهاية النقد، بل بدايته، لأن التلقي الخوارزمي الذي أعيد بناؤه في الفصل السابق يظل قادرًا على العمل بصورة شبه غير مرئية إذا تعامل القارئ مع ما يظهر أمامه باعتباره المجال نفسه بدل أن يراه تمثيلًا مرتبًا للمجال. ومن هنا اقترح الفصل مفهوم »القراءة الميتا خوارزمية «بوصفه ممارسة تجعل الوسيط الذي يختار ويرتب ويشرح ويولد ويخصص موضوعًا موازيًا للقراءة، دون أن تحول الاهتمام بالخوارزمية إلى بديل عن النص.

وقد بين المبحث الأول أن الفرق الأساسي يقع بين القراءة داخل النظام وقراءة النظام ذاته؛ ففي الأولى يستخدم القارئ التوصية والبحث والمساعدة من دون أن تكون آلياتها موضوعًا مركزيًا للفحص، أما الثانية فتضيف عمليات الكشف والمساءلة والمقارنة والتحقق. وتقدم الدراسات النقدية للخوارزميات عند غيليسبي وبوخر [1][2] إطارًا يسمح بفهم الخوارزمية داخل علاقات اجتماعية وتقنية بدل اختزالها في الشفرة، كما تبين بحوث إسلامي وزملائها ورادر وغراي [3][4] أن المستخدمين قد يجهلون وجود الانتقاء أو يحملون تصورات متفاوتة عن طريقة عمله، وهو ما يبرر جعل الوعي بالوساطة شرطًا أوليًا للقراءة النقدية.

وأظهر المبحث الثاني أن سؤال «لماذا ظهر هذا النص؟» يحول الواجهة من حقيقة صامتة إلى موضوع للتحليل، بينما يكشف السؤال المقابل «لماذا اختفت نصوص أخرى؟» أن السلطة الخوارزمية تعمل عبر توزيع القابلية للظهور لا عبر المنع فقط. وتساعد أعمال أودلف-هيرش ونويباوم [5] ودوغرويل ومازور ويوكل [6] على تأطير الوعي والثقافة الخوارزمية، لكن الفصل أضاف إليهما مفهوم وعي الغياب الخوارزمي لكي يشير إلى أن القارئ النقدي لا يدرس المحتوى الموجود فحسب، بل يحتفظ باحتمال أن المجال الذي لا يراه أوسع من المجال الذي عرضته الواجهة.

كما أوضح نقد مصدر الإجابة الآلية أن السؤال عن المرجع في الأنظمة التوليدية أكثر تعقيداً من السؤال التقليدي عن الكتاب أو المؤلف، لأن الجواب يمكن أن يجمع بين معرفة متعلمة وسياق أدخله المستخدم ومصادر مسترجعة واستنتاجات توليدية. ومن هنا أصبح من الضروري التمييز بين معرفة مضمون الجواب ومعرفة درجة إمكان تتبع مرجعيته، كما أكد الفصل أن الشفافية التقنية ليست حلًا كافيًا للمساءلة، وهو ما ينسجم مع نقد أناني وكروفورد لمثال الشفافية [7]. وتضيف دراسة نوبل لمحركات البحث [8] سببًا آخر لمساءلة المرجعية والترتيب، لأنها تبين أن أنظمة البحث لا ينبغي أن تعامل بوصفها فضاءات محايدة منفصلة عن البنى الاجتماعية والثقافية.

أما القراءة المضادة للخوارزمية فقد جرى تعريفها لا بوصفها رفضًا للتقنية، بل قدرة على مغادرة التخصيص عندما يصبح ضيقًا وعلى استعادة التنوع والمصادفة، وهي ممارسة تجد سندًا في أبحاث أنظمة التوصية التي وسعت معايير الجودة إلى ما يتجاوز الدقة لتشمل التنوع والجدة والمصادفة [9]. ومن هنا أصبح «العصيان القرائي» استراتيجية للاكتشاف لا موقفًا أيديولوجيًا، وصارت الحرية القرائية أقرب إلى تعدد المسارات منها إلى وهم القراءة بلا وساطة.

وطور المبحث الخامس مفهوم »المحفز النقدي «باعتباره سؤالًا لا يطلب الجواب فقط، بل يطلب من النظام كشف افتراضاته وبدائله وحدوده ومصادره، انطلاقًا من أن أبحاث المحفزات تؤكد أثر صياغة التعليمات والسياق في المخرجات [10][11]. ومن هنا أصبح القارئ قادرًا على استخدام النظام ضد ميله إلى الإجابة المغلقة، من خلال طلب الاعتراضات والقراءات البديلة والمصادر والحدود، كما أصبح بمقدوره مقارنة الأجوبة والنماذج لا بقصد تحويل توافقها إلى حقيقة، بل لكشف حساسية التوليد للشروط المختلفة.

وانتهى الفصل إلى تعريف القارئ الميتا خوارزمي بوصفه قارئًا يمتلك وعيًا بالوساطة وعدم الاكتمال، وقدرة على تصنيف الادعاءات ومقارنة المخرجات وفحص المصادر ومقاومة الاختزال في ملفه الخوارزمي، ويستطيع إدارة الشك والتخصيص والحوار دون فقدان المسؤولية التأويلية. ولا يتحدد هذا القارئ بمقدار معرفته البرمجية، بل بقدرته على تحويل المعرفة بالخوارزمية إلى ممارسة نقدية داخل القراءة.

ومن مجموع هذه النتائج يمكن صياغة التعريف النظري المركزي للفصل على النحو الآتي :**القراءة الميتا خوارزمية هي ممارسة قرائية هجينة لا تكتفي بفهم النص أو استخدام الوسيط الخوارزمي، بل تجعل شروط الاختيار والترتيب والتخصيص والتوليد والمصدر نفسها موضوعًا للفحص، بحيث يستطيع القارئ كشف الوساطة ومساءلتها ومقارنة مخرجاتها والخروج من مساراتها والتحقق من مرجعياتها، مع الاحتفاظ باستقلاله ومسؤوليته عن التأويل النهائي.**

ويمكن التعبير عن الفرق بين التلقي الخوارزمي والقراءة الميتا خوارزمية في صيغتين متكاملتين:

التلقي الخوارزمي:
الخوارزمية تشارك في تنظيم ما أقرأ.

القراءة الميتا خوارزمية:
أقرأ النص، وأقرأ كذلك الشروط الخوارزمية التي جعلته يظهر لي بهذه الصورة.

وبذلك يصبح الوعي بالوسيط نوعًا من الوعي بالشرط القرائي نفسه، وتتخذ العبارة التي تأسست في هذا المشروع معناها الكامل :**معرفة الوساطة جزء من معرفة النص** .غير أن هذه المرحلة ليست النهاية، لأن الخوارزمية يمكن أن تصبح في المستقبل أكثر اندماجًا وأقل ظهورًا، بحيث لا يعود القارئ يواجه «أداة» واضحة يمكن عزلها عن فعل القراءة، بل يعيش داخل بيئة ذكية

محيطية تتداخل فيها الوظائف البشرية والتقنية بصورة أعمق. ومن هنا يمهد هذا الفصل مباشرة للفصل الخامس عشر، »**القارئ ما بعد الخوارزمي ومستقبل القراءة**«، الذي سينتقل بالسؤال من وعي القارئ بالخوارزمية المرئية إلى الحالة التي تصبح فيها الخوارزمية جزءًا شبه محيطي من الحياة القرائية، بما يفرض إعادة التفكير في الذات القارئة المشتركة، وفي أفق ما بعد الإنساني، وفي النموذج الرباعي الذي سيجمع القارئ والنص والخوارزمية والسياق داخل نظرية عامة للقارئ الهجين.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014, pp. 167–194. DOI: 10.7551/mitpress/9780262525374.003.0009.

يمثل المرجع أحد الأسس المركزية للدراسات النقدية للخوارزميات، ويُستفاد منه في هذا الفصل لفهم أنظمة الترتيب والاختيار والملاءمة بوصفها عمليات اجتماعية وتقنية لا مجرد إجراءات حسابية محايدة.

[2] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018. DOI: 10.1093/oso/9780190493028.001.0001.

يقدم الكتاب تصورًا علائقيًا ومتعددًا للخوارزميات والقوة الخوارزمية، ويُستفاد منه في بناء مفهوم «قراءة النظام» وفي تجنب اختزال الخوارزمية إلى صندوق أسود ثابت أو إلى سبب حتمي لكل ما يحدث داخل المنصة.

[3] Eslami, Motahhare; Rickman, Aimee; Vaccaro, Kristen; Aleyasen, Amirhossein; Vuong, Andy; Karahalios, Karrie; Hamilton, Kevin & Sandvig, Christian. "'I Always Assumed That I Wasn't Really That Close to [Her]': Reasoning about Invisible Algorithms in News Feeds." In *Proceedings of the 33rd Annual ACM Conference on Human Factors in Computing Systems (CHI '15)*, 2015, pp. 153–162. DOI: 10.1145/2702123.2702556.

دراسة تجريبية مهمة في إدراك المستخدمين لخوارزمية الانتقاء، وتستفاد منها في بيان أن غياب الوعي بالوساطة يستطيع أن يؤدي إلى تفسير آثارها بوصفها ناتجة مباشرة عن العلاقات الاجتماعية، وأن كشف وجود الخوارزمية يمكن أن يؤثر في شعور المستخدم بالتحكم.

[4] Rader, Emilee & Gray, Rebecca. "Understanding User Beliefs About Algorithmic Curation in the Facebook News Feed." In *Proceedings of the 33rd Annual ACM Conference on Human Factors in Computing Systems (CHI '15)*, 2015, pp. 173–182. DOI: 10.1145/2702123.2702174.

تبحث الدراسة التصورات التي يحملها المستخدمون عن الانتقاء الخوارزمي وتبين تنوع النماذج الذهنية التي يبنونها حوله، وهو ما يفيد في تأسيس مفهوم الوعي الوظيفي بالوساطة.

[5] Oeldorf-Hirsch, Anne & Neubaum, German. "Attitudinal and Behavioral Correlates of Algorithmic Awareness among German and U.S. Social Media Users." *Journal of Computer-Mediated Communication*, Vol. 28, No. 5, 2023, zmad035. DOI: 10.1093/jcmc/zmad035.

تفيد الدراسة في تحليل الوعي الخوارزمي وعلاقاته بالمواقف والسلوك، وتؤكد أن معرفة المستخدم بالوساطة تمثل بعداً مهماً في التعامل مع البيئات الخوارزمية من دون أن تعني سيطرة كاملة عليها.

[6] Dogruel, Leyla; Masur, Philipp & Joeckel, Sven. "Development and Validation of an Algorithm Literacy Scale for Internet Users." *Communication Methods and Measures*, Vol. 16, No. 2, 2022, pp. 115–133. DOI: 10.1080/19312458.2021.1968361.

يطور البحث مقياساً للثقافة الخوارزمية يقوم على بعدي الوعي باستخدام الخوارزميات والمعرفة بها، ويُستفاد منه في هذا الفصل للتمييز بين مجرد إدراك وجود الخوارزمية وبين فهم بعض مبادئها ثم تحويل ذلك إلى ممارسة نقدية.

[7] Ananny, Mike & Crawford, Kate. "Seeing without Knowing: Limitations of the Transparency Ideal and Its Application to Algorithmic Accountability." *New Media & Society*, Vol. 20, No. 3, 2018, pp. 973–989. DOI: 10.1177/1461444816676645.

يمثل المرجع أساساً لنقد الاعتقاد بأن كشف النظام أو جعله أكثر شفافية يكفي وحده لفهمه أو مساءلته، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم الوعي الوظيفي الذي يركز على الآثار والمصادر والعلاقات لا على المطالبة المستحيلة برؤية النظام كاملاً.

[8] Noble, Safiya Umoja. *Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism*. New York: New York University Press, 2018.

تدرس نوبل العلاقة بين محركات البحث والتحيزات الاجتماعية والثقافية، وتنتقد تصور الترتيب الخوارزمي بوصفه فضاءً محايدًا، وهو ما يفيد في مساءلة الصدارة الرقمية والمصادر التي تصبح مرئية أو ضعيفة الظهور.

[9] Kaminskas, Marius & Bridge, Derek. "Diversity, Serendipity, Novelty, and Coverage: A Survey and Empirical Analysis of Beyond-Accuracy Objectives in Recommender Systems." *ACM Transactions on Interactive Intelligent Systems*, Vol. 7, No. 1, 2016, Article 2, pp. 1–42. DOI: 10.1145/2926720.

مرجع أساسي في الأهداف التي تتجاوز دقة التوصية إلى التنوع والجدة والمصادفة والتغطية، ويُستفاد منه في تأسيس البعد النظري للقراءة المضادة للتخصيص واستعادة الصدفة الثقافية.

[10] Qiao, Shuofei; Ou, Yixin; Zhang, Ningyu; Chen, Xiang; Yao, Yunzhi; Deng, Shumin; Tan, Chuanqi; Huang, Fei & Chen, Huajun. "Reasoning with Language Model Prompting: A Survey." In *Proceedings of the 61st Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics*, 2023, pp. 5368–5393. DOI: 10.18653/v1/2023.acl-long.294.

يوفر مسحًا لطرائق المحفزات ودورها في توجيه مخرجات النماذج اللغوية، ويُستفاد منه في بناء مفهوم «المحفز النقدي» وفي التأكيد أن صياغة السؤال جزء من شروط إنتاج الجواب.

[11] Zamfirescu-Pereira, J. D.; Wong, Richmond Y.; Hartmann, Bjoern & Yang, Qian. "Why Johnny Can't Prompt: How Non-AI Experts Try (and Fail) to Design LLM Prompts." In *Proceedings of the 2023 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems*, 2023, Article 437, pp. 1–21. DOI: 10.1145/3544548.3581388.

تبحث الدراسة في الصعوبات التي يواجهها المستخدمون غير المتخصصين عند صياغة محفزات للنماذج اللغوية، وتستفاد منها في التأكيد أن اللغة الطبيعية لا تجعل العلاقة مع النظام شفافة أو بديهية وأن كفاية السؤال تحتاج إلى تعلم وممارسة نقدية.

[12] Swart, Joëlle. “Experiencing Algorithms: How Young People Understand, Feel About, and Engage With Algorithmic News Selection on Social Media.” *Social Media + Society*, Vol. 7, No. 2, 2021. DOI: 10.1177/20563051211008828.
تتناول الدراسة الثقافة الخوارزمية من منظور خبرات المستخدمين اليومية، وتبين أن الوعي يتشكل بصورة سياقية من خلال التجربة وأن المعرفة بالخوارزميات لا تتحول تلقائيًا إلى تدخل أو مقاومة، وهو ما يدعم التمييز بين الوعي النظري والممارسة الميتا خوارزمية.

خلاصة مرجعية للفصل

تتوزع المرجعيات التي يستند إليها الفصل على أربعة محاور مترابطة؛ إذ توفر أعمال غيليسبي وبوخر [1][2] الأساس النظري لفهم الخوارزمية بوصفها جزءًا من بنية اجتماعية ـ تقنية لتنظيم الرؤية والملاءمة، بينما تقدم دراسات إسلامي وزملائها ورادر وغراي وأودلف-هيرش ونويباوم ودوغرويل ومازور ويوكل وسوارت [3–6][12] الأساس التجريبي والمفاهيمي لدراسة الوعي والثقافة الخوارزمية والنماذج الذهنية التي يكونها المستخدمون عن أنظمة الانتقاء. وتقدم أعمال أناني وكروفورد ونوبل [7][8] الخلفية النقدية اللازمة لمساءلة الشفافية والترتيب والتحيز ومصادر السلطة المعرفية، بينما يسمح عمل كامينسكاس وبريدج [9] بتأصيل قيمة التنوع والمصادفة خارج منطق الدقة والتشابه، وتقدم أبحاث المحفزات عند تشياو وزملائه وزامفيرسكو-بيريرا وزملائه [10][11] الأساس لفهم السؤال بوصفه جزءًا من البنية التي تشكل مخرج النظام.

ومن تقاطع هذه المرجعيات يتأسس الاقتراح النظري الرئيسي للفصل :القارئ الميتا خوارزمي ليس القارئ الذي يعرف أن الخوارزمية موجودة فحسب، بل القارئ الذي يحول هذه المعرفة إلى ممارسة تكشف الوساطة وتسائل الظهور والغياب وتفحص المرجعية وتقارن المخرجات وتستعيد التنوع وتستخدم السؤال نفسه أداة لنقد النظام، بحيث يصبح وعي الخوارزمية جزءًا من استقلاله التأويلي لا مجرد معلومة عن التكنولوجيا.

ملاحظة توثيقية خارج متن الفصل **:تؤكد المصادر الأكاديمية الأصلية بيانات كتاب بوخر الصادر عن** Oxford University Press **سنة** 2018 **ومقاربته للخوارزميات باعتبارها ظواهر تقنية واجتماعية وثقافية متعددة، كما تؤكد دراسة أودلف-هيرش ونويباوم بيانات النشر في** *Journal of Computer-Mediated Communication* **سنة** 2023 ([OUP Academic](https://academic.oup.com/)) . **وتثبت سجلات** ACM/DBLP **بيانات دراستي إسلامي وزملائها ورادر وغراي المنشورتين في** CHI 2015 **، بما في ذلك الصفحات وأرقام** ([DOI](https://doi.org/)) .DOI **كما**

تؤكد *Communication Methods and Measures* **أن دراسة دوغرويل ومازور ويوكل منشورة في المجلد** 16، **العدد** 2، **سنة** 2022، **الصفحات** 115–133، **وأن مقياسها يقوم على بعدي الوعي والمعرفة بالخوارزميات** (Tandfonline) .

وتؤكد المصادر الأصلية كذلك بيانات دراسة أناني وكروفورد حول حدود الشفافية، وكتاب نوبل، ودراسة كامينسكاس وبريدج في التنوع والمصادفة في أنظمة التوصية(Sage Journals) .

الفصل الخامس عشر

القارئ ما بعد الخوارزمي ومستقبل القراءة

يصل هذا الكتاب في فصله الخامس عشر إلى النقطة التي تتجمع عندها المسارات التاريخية والمعرفية والخوارزمية والتأويلية التي جرى بناؤها منذ الفصل الأول، فلا يعود السؤال متعلقًا فقط بانتقال القراءة من الورق إلى الشاشة، ولا بتدخل أنظمة التوصية في اختيار الكتب، ولا بالذكاء الاصطناعي بوصفه مساعدًا يترجم ويلخص ويشرح، ولا حتى بالقارئ الميتا خوارزمي الذي أصبح قادرًا على رؤية الوسيط ومساءلته، بل ينتقل السؤال إلى مرحلة أكثر استشرافًا تتعلق بما يمكن أن يحدث عندما تفقد الخوارزمية جزءًا كبيرًا من ظهورها بوصفها «أداة» منفصلة، وتندمج بصورة تدريجية في البيئة اليومية للقراءة حتى تصبح بعض وظائفها شبيهة بالبنية التحتية التي لا ينتبه إليها الإنسان إلا عندما تتعطل أو تنتج نتيجة غير متوقعة. وقد استبق مارك وايزر منذ بداية التسعينيات تصورًا للحوسبة التي تندمج في الأشياء والبيئة إلى درجة تتراجع معها مركزية الحاسوب بوصفه جهازًا ظاهرًا [1]، ثم طور مع جون سيلي براون تصور «التكنولوجيا الهادئة» التي تعمل جزئيًا في أطراف الانتباه بدل أن تستحوذ دائمًا على مركزه [2]، وهي أفكار لا تتحدث عن القراءة أو الذكاء الاصطناعي التوليدي بالمعنى الراهن، لكنها توفر خلفية مفهومية لفهم الانتقال المحتمل من الخوارزمية التي نذهب إليها ونستدعيها إلى الخوارزمية التي تصبح جزءًا من البيئة التي نقرأ داخلها.

ولا يستخدم هذا الفصل مصطلح »القراءة ما بعد الخوارزمية «للإعلان عن عصر انتهت فيه الخوارزميات، فالبادئة «ما بعد» هنا لا تعني تجاوز الخوارزمية أو اختفاءها، وإنما تشير إلى حالة تصبح فيها الوساطة الخوارزمية متغلغلة في الحياة القرائية إلى درجة لا يعود حضورها الاستثنائي هو ما يلفت الانتباه، على نحو يشبه ما حدث مع الكهرباء أو الاتصال الشبكي في كثير من الممارسات اليومية؛ فالمهم ليس أن الخوارزمية غابت، بل أنها أصبحت أكثر

اندماجًا وأقل قابلية للعزل بوصفها مرحلة منفصلة. ومن هنا يكون «ما بعد الخوارزمي» مفهومًا استشرافيًا ومقترحًا نظريًا داخل هذا الكتاب، لا مصطلحًا مستقراً في حقل الدراسات الأدبية، ويهدف إلى وصف أفق محتمل تصبح فيه عمليات الاختيار والاسترجاع والترجمة والتلخيص والتفسير والتخصيص والحوار والذاكرة المساعدة موزعة داخل بيئة قرائية ذكية تعمل باستمرار، بحيث يضطر النقد إلى الانتقال من سؤال «أين تدخلت الخوارزمية؟» إلى سؤال أصعب :كيف نحافظ على وعي الوساطة عندما تصبح الوساطة نفسها محيطية وطبيعية في التجربة؟

ويأتي هذا الفصل كذلك لكي يختبر الحدود النهائية لمفهوم «القارئ الهجين» الذي أسسه الكتاب؛ فإذا كانت الهجنة قد عُرّفت باعتبارها توزيعًا لبعض وظائف القراءة بين قدرات الإنسان وبين الوسائط الرقمية والخوارزمية والذكاء الاصطناعي، مع بقاء المسؤولية التأويلية بشرية، فإن اكتمال هذا التوزيع في بيئة شديدة الاندماج قد يجعل من الصعب تحديد اللحظة الدقيقة التي «استخدم» فيها القارئ الأداة، لأن المساعدة يمكن أن تكون جزءًا من الواجهة أو الجهاز أو النظارة أو الصوت أو الكتاب نفسه، وقد تعمل قبل أن يصوغ الإنسان طلبًا صريحًا. وعندها يصبح مفهوم »الذات القارئة المشتركة «ضروريًا، لا ليذيب الإنسان داخل التقنية أو ليجعل النظام ذاتًا بشرية ثانية، بل لوصف وحدة معرفية مؤقتة تتشكل أثناء أداء مهمة قرائية من إنسان ونص وأجهزة وذاكرات خارجية وخوارزميات وسياقات، وتنجز من خلال التفاعل بينها عمليات لا يؤدي كل عنصر منها منفردًا بالطريقة نفسها.

ويعيد هذا التحول كذلك فتح النقاش الذي قدمته نظريات العقل الممتد والإدراك الموزع وما بعد الإنساني؛ فقد اقترح كلارك وتشالمرز أن بعض الموارد الخارجية يمكن، في ظروف محددة، أن تدخل وظيفيًا في النظام المعرفي بدل أن تكون مجرد أدوات خارجية [3]، بينما درس إدوين هاتشينز الأنظمة المعرفية التي تتوزع عملياتها على أفراد وأدوات وتمثيلات داخل بيئة ثقافية [4]، ووسع آندي كلارك لاحقًا التفكير في الميل البشري إلى

دمج التقنيات في بنيته العملية والمعرفية [5]. وفي الدراسات الثقافية وما بعد الإنسانية، قدمت كاثرين هايلز [6][7] ودونا هاراواي [8] وروزي برايدوتي [9] وفرانشيسكا فيراندو [10] رؤى مختلفة تعيد مساءلة تصور الإنسان بوصفه ذاتًا مستقلة مكتفية بذاتها، وإن اختلفت هذه المشاريع في خلفياتها ومقاصدها. ويستفيد هذا الفصل من هذه المرجعيات دون أن يتبنى تلقائيًا جميع افتراضاتها، لأن هدفه ليس إعلان نهاية الإنسان أو مساواة الوعي البشري بالنظام الاصطناعي، بل بناء نموذج قادر على تفسير قارئ تتوزع وظائفه داخل بيئة تقنية كثيفة مع احتفاظه بالموقع الأخلاقي والمسؤولية التأويلية.

ومن هنا يمثل الفصل الخامس عشر تركيبًا نهائيًا للكتاب كله، لأنه ينتقل من الخوارزمية المحيطية إلى تعريف القراءة ما بعد الخوارزمية، ثم إلى الذات القارئة المشتركة، وبعدها إلى أفق ما بعد الإنساني، قبل أن يعيد جميع المفاهيم داخل النموذج الرباعي للتلقي الهجين: القارئ ـ النص ـ الخوارزمية ـ السياق، وينتهي إلى محاولة صياغة المبادئ العامة التي يمكن أن تشكل نواة نظرية للقارئ الهجين ودرجات الهجنة وآليات إنتاج المعنى وأسئلة البحث التي ينبغي أن تنتقل بها هذه النظرية من مستوى الاقتراح المفهومي إلى مستوى الاختبار التطبيقي والتجريبي.

ـ المبحث الأول: من الخوارزمية المرئية إلى الخوارزمية المحيطية

ـ اندماج الذكاء الاصطناعي في الحياة اليومية

كان الحاسوب، في مراحله الأولى، جهازًا يحتاج إلى أن يذهب إليه المستخدم ويعلن بدء التعامل معه، ثم انتقل إلى المكتب والهاتف والساعة والسيارة والمنزل والفضاء الشبكي، وأصبحت بعض عمليات الحوسبة تجري من دون أن يشعر الإنسان بأنه دخل إلى «جلسة حاسوب» منفصلة، وقد عبر وايزر عن هذا الأفق في تصوره للحوسبة المنتشرة التي تندمج في البيئة حتى تتراجع عنها صفة الجهاز المركزي الظاهر [1]. ولا ينبغي نقل رؤيته التاريخية مباشرة إلى الذكاء الاصطناعي المعاصر، لكنها تتيح مبدأ بالغ الأهمية لهذا الفصل : **التكنولوجيا التي يزداد اندماجها في الحياة قد تصبح أقل ظهورًا في الوعي رغم ازدياد أثرها الوظيفي.**

ويصبح هذا المبدأ أكثر وضوحًا إذا انتقلنا من الحوسبة المنتشرة إلى ما وصفه وايزر وبراون بـ«التكنولوجيا الهادئة»، أي التقنية التي لا تطلب أن تكون دائمًا في مركز الانتباه، بل تستطيع التحرك بين المركز والهامش بحسب الحاجة [2]. وفي مجال القراءة يمكن تصور تحول مماثل؛ فبدل أن يفتح القارئ تطبيقًا مستقلًا ويكتب «اشرح هذه العبارة»، قد يصبح الشرح متاحًا في اللحظة التي يتوقف فيها أو يختار كلمة، وقد تقترح الواجهة خلفية تاريخية قبل أن يسأل عنها، أو تقدم ترجمة فورية لا يشعر معها بأنه انتقل من النص إلى أداة أخرى، وتستعيد تلقائيًا موضعًا قرأه قبل أشهر، وتقارن بين صياغتين، وتعيد ترتيب الملاحظات الشخصية، وتوفر صوتًا أو صورة أو خريطة بحسب طبيعة المحتوى.

ولا يعني ذلك أن جميع هذه الوظائف ستتحقق بالصورة نفسها أو أنها تمثل مستقبلًا حتميًا، لأن مسار التكنولوجيا يتأثر بالاقتصاد والتنظيم والخصوصية والتفضيلات الاجتماعية، لكن أهمية السيناريو بالنسبة إلى النظرية تكمن في أنه يختبر مفهوم الوعي بالوسيط الذي تأسس في الفصل السابق؛ فإذا كانت القراءة الميتا خوارزمية تقوم على رؤية تدخل الخوارزمية

ومساءلتها، فماذا يحدث عندما يصبح التدخل جزءًا من التصميم الافتراضي للقراءة؟ وكيف يستطيع القارئ أن يمارس النقد إذا لم تعد هناك لحظة واضحة يمكن أن يقول عندها «هنا بدأت المساعدة الاصطناعية»؟

ويزداد هذا السؤال أهمية كلما أصبحت الأنظمة متعددة الوظائف؛ فقد كان القاموس أداة يمكن التعرف إليها من وظيفتها، ومحرك البحث أداة أخرى، وبرنامج الترجمة أداة ثالثة، أما الذكاء الاصطناعي العام الاستخدام فيستطيع جمع هذه الوظائف داخل واجهة واحدة، وإذا انتقلت هذه القدرات لاحقًا إلى أنظمة محيطية مرتبطة بالنظارات أو الصوت أو الكتب الرقمية أو بيئات الواقع المعزز، فقد يصبح الفصل بين «القراءة» و«المساعدة» أكثر صعوبة. عندها لا تختفي الوظائف البشرية بالضرورة، لكنها تعمل داخل فضاء تكون فيه الوساطة مستعدة للتدخل باستمرار.

ويتيح كتاب هايلز *How We Think* أساسًا مهمًا لفهم هذه العلاقة، لأنها تتحدث عن التفكير «من خلال» الوسائط و«معها» و«بمحاذاتها»، وتربط التحولات الثقافية بفكرة التولد التقني المشترك بين البشر والتقنيات [7]. ولا ينبغي فهم ذلك على أنه مساواة بين العقل والوسيط، بل إقرار بأن عاداتنا المعرفية تتكون داخل بيئات مادية وتقنية، ولذلك فإن قراءة المستقبل لن تكون مجرد قراءة إنسان ثابت يستخدم أدوات متغيرة، بل يمكن أن تكون قراءة إنسان تتغير بعض عاداته وكفاياته لأنه يعيش طويلًا مع أدوات تغيرت هي الأخرى.

ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاث مراحل نظرية في علاقة القارئ بالذكاء الاصطناعي؛ ففي المرحلة الأولى يكون الذكاء الاصطناعي أداة مستدعاة يذهب إليها المستخدم لحاجة محددة، وفي الثانية يصبح مساعدًا ملازمًا يستمر معه أثناء المهمة، بينما يظهر في المرحلة الثالثة بوصفه بنية محيطية تتدخل بصورة سلسة قبل الطلب أو أثناءه أو بعده. ولا يمثل هذا التدرج تاريخًا حتميًا ولا وصفًا موحدًا لجميع التطبيقات، بل نموذجًا يساعد على التفكير في درجة ظهور الوسيط.

وكلما اقتربنا من المرحلة الثالثة أصبح السؤال الأخلاقي أكثر تعقيدًا، لأن سهولة الاستعمال يمكن أن تخفض الاحتكاك إلى درجة تجعل القارئ لا يشعر بأن وظيفة ما نقلت إلى النظام. فإذا كانت الترجمة تحدث تلقائيًا، قد ينسى القارئ أنه يتلقى نصًا مترجمًا؛ وإذا كان التلخيص حاضرًا داخل الواجهة، قد يختلط الأصل بالتمثيل؛ وإذا كانت التوصية مدمجة في تسلسل القراءة، قد تصبح الانتقالات التي يقترحها النظام جزءًا من مسار يبدو طبيعيًا. ومن هنا يمكن أن نطلق على هذا الخطر اسم »**اختفاء الوساطة داخل الراحة**«، أي أن يصبح نجاح التقنية في جعل نفسها سهلة أحد الأسباب التي تجعل نقدها أكثر صعوبة.

<u>ـ اختفاء الوسيط داخل فعل القراءة</u>

لا يعني اختفاء الوسيط أنه لم يعد موجودًا، بل أنه فقد بعض علاماته التي تسمح للقارئ بالفصل بين ما فعله بنفسه وما حدث بسبب تدخل الأداة. ففي الكتاب الورقي كان الانتقال من النص إلى المعجم فعلًا واضحًا؛ يترك القارئ الصفحة أو يفتح مرجعًا آخر، أما في بيئة متكاملة فقد يظهر معنى الكلمة فوقها مباشرة، وإذا استمر هذا النوع من التفاعل مدة طويلة فقد يصبح جزءًا من العادة القرائية إلى درجة لا يعده المستخدم «مساعدة خارجية» أصلًا.

ويعيد هذا السيناريو طرح فكرة العقل الممتد؛ فقد جادل كلارك وتشالمرز بأن بعض الموارد الخارجية، عندما تكون متاحة بصورة مستقرة وموثوقة وتندمج في سير النشاط، يمكن أن تؤدي دورًا وظيفيًا قريبًا من بعض الوظائف التي تؤديها الموارد الداخلية [3]. ولا ينبغي أن نستنتج من ذلك أن كل أداة رقمية تصبح «جزءًا من العقل» لمجرد كثرة استخدامها، لأن أطروحة العقل الممتد لها شروط ونقاشات فلسفية واسعة، لكن هذا الإطار يسمح لنا بالسؤال عن درجة اندماج المورد في النشاط القرائي بدل الاقتصار على موقعه الفيزيائي خارج الجمجمة أو داخلها.

وتزداد أهمية هذا السؤال مع الذاكرة؛ فإذا اعتاد القارئ أن النظام يتذكر جميع كتبه وملاحظاته وأسئلته ويستعيد له الإشارة القديمة في اللحظة المناسبة، فقد تتغير وظيفته من تذكر المحتوى إلى تذكر كيفية الوصول إلى المحتوى أو الثقة بأن الوصول سيحدث تلقائياً. وقد عالج الفصل السادس هذا التحول بوصفه توزيعاً لبعض وظائف الذاكرة، غير أن المستوى ما بعد الخوارزمي يزيد الاستمرارية إلى درجة تصبح معها الذاكرة الخارجية حاضرة في كل لحظة تقريباً، وهو ما يخلق ما يمكن تسميته »ذاكرة قرائية مصاحبة.«

ولا ينبغي النظر إلى هذه الذاكرة باعتبارها خسارة آلية للذاكرة البشرية، لأن الإنسان استخدم الكتابة والمكتبة والفهرس والدفتر منذ قرون لتوسيع القدرة على التذكر، لكن الفرق يتعلق بدرجة المبادرة؛ فالدفتر لا يعيد نفسه إلى الوعي عادة دون طلب، بينما يستطيع النظام الذكي أن يستبق الحاجة ويعرض معلومة يرى أنها ذات صلة. ومن هنا يتحول المورد من مخزن خارجي إلى ذاكرة سياقية نشطة، ويزداد أثره في مسار التفكير.

ويظهر تحد آخر حين يبدأ النظام في إعادة صياغة النص أو تكييفه بصورة فورية بحسب القارئ، لأن العمل قد يفقد ثبات بعض خصائص العرض. فإذا كان قارئان يحصلان على شروحات مختلفة وتوصيات مختلفة ودرجات مختلفة من التبسيط حول العمل نفسه، فإنهما لا يواجهان العتبات الرقمية ذاتها حتى عندما يبقى المتن ثابتاً. ومن هنا يمكن القول إن القراءة المستقبلية قد تنتقل من النص المشترك داخل هوامش مختلفة إلى النص داخل بيئات تفسيرية شخصية.

ولا يمثل ذلك بالضرورة أزمة؛ فقد يوسع الوصول للقراء ذوي المستويات والحاجات المختلفة، لكنه يجعل المقارنة بين التجارب تحتاج إلى سؤال جديد: أي نسخة من البيئة التفسيرية رافقت القراءة؟ وبذلك يصبح «سجل الوساطة» الذي اقترحته الفصول السابقة أكثر أهمية، لأن نقد المستقبل قد يحتاج إلى معرفة ليس فقط الطبعة التي قرئت، بل كذلك ما إذا كانت

الترجمة أو التبسيط أو الشرح أو التوصية أو الحوار التوليدي جزءًا من التجربة.

ومن هنا لا تكون المهمة النظرية أمام اختفاء الوسيط محاولة جعل كل خوارزمية مزعجة ومرئية باستمرار، لأن التكنولوجيا المحيطية تقوم جزئيًا على تقليل العبء، بل تطوير شفافية قابلة للاستدعاء؛ أي أن يستطيع القارئ، عندما يريد ، معرفة الوظائف التي تدخلت ونوع البيانات أو المصادر التي استندت إليها والتمييز بين المتن والمخرج المصاحب. ويصبح نجاح البيئة القرائية المستقبلية في هذا المنظور مرتبطًا بقدرتها على الجمع بين السلاسة وإمكان المساءلة، لا بإخفاء التعقيد بالكامل.

ـ المبحث الثاني: القراءة ما بعد الخوارزمية

ـ تعريف المفهوم

يقترح هذا الكتاب مصطلح »القراءة ما بعد الخوارزمية «للإشارة إلى حالة متقدمة ومفترضة من التلقي تصبح فيها الخوارزميات والذكاء الاصطناعي مدمجين بصورة واسعة في البنية اليومية للقراءة إلى حد يصعب معه، من الناحية العملية، الفصل المستمر بين الوظيفة البشرية والوظيفة التقنية، بينما ينتقل السؤال النقدي من إثبات وجود الوساطة إلى إدارة اندماجها والحفاظ على المسؤولية والاستقلال داخلها. ولا تعني البادئة «ما بعد» انتهاء الخوارزمية، بل انتهاء وضعها بوصفها عنصرًا استثنائيًا ظاهرًا ينبغي استدعاؤه في كل مرة.

ويختلف المفهوم بذلك عن «التلقي الخوارزمي» الذي عرفه الفصل الثالث عشر؛ فالتلقي الخوارزمي يصف عملية استقبال تتدخل فيها الخوارزميات في الاختيار والقراءة وما بعد القراءة، أما القراءة ما بعد الخوارزمية فتصف أفقًا تصبح فيه هذه التدخلات شديدة الاعتياد والاندماج بحيث يتراجع الفصل الواعي بين عملية القراءة وبين بنيتها الحسابية. كما تختلف عن «القراءة الميتا خوارزمية» التي تجعل الوسيط موضوعًا للنقد، لأن ما بعد الخوارزمية لا تلغي هذا الوعي بل تجعل الحاجة إليه أكثر صعوبة وأشد إلحاحًا.

ومن هنا يمكن وضع المفاهيم الثلاثة في علاقة متدرجة دون اعتبارها مراحل تاريخية حتمية :التلقي الخوارزمي يصف وجود الوساطة، والقراءة الميتا خوارزمية تصف وعي القارئ بهذه الوساطة ونقدها، والقراءة ما بعد الخوارزمية تصف الحالة التي تصبح فيها الوساطة مندمجة ومحيطية إلى درجة يحتاج معها الوعي النقدي إلى أن يعمل رغم صعوبة فصل التقنية عن الممارسة.

ويحتاج المفهوم كذلك إلى التمييز عن «القراءة الرقمية» و«القراءة الهجينة». فالرقمية تتعلق أولًا بحضور الوسيط الإلكتروني، بينما تتعلق

الهجنة بمشاركة التقنية في بعض الوظائف المعرفية، أما ما بعد الخوارزمية فتضيف **الاستمرارية والمحيطية وطبيعية الاندماج** .ويمكن أن تكون القراءة هجينة من دون أن تكون ما بعد خوارزمية إذا استدعى القارئ الأداة بصورة واضحة ومحدودة، بينما تصبح القراءة أقرب إلى الحالة ما بعد الخوارزمية عندما تتداخل المساعدة والذاكرة والتخصيص والاسترجاع والحوار مع سير القراءة بصورة دائمة.

ومن هنا يمكن صياغة تعريف إجرائي للمفهوم على النحو التالي :**القراءة ما بعد الخوارزمية هي ممارسة قرائية افتراضية متقدمة تصبح فيها الوساطة الخوارزمية والذكاء الاصطناعي جزءًا محيطيًا ومستمرًا من البيئة التي يختار فيها القارئ النص ويفهمه ويتذكره ويقارنه ويؤوله ويعيد إنتاجه، بحيث لا يعود التحدي الأساسي هو اكتشاف وجود الخوارزمية، وإنما الحفاظ على القدرة على تمييز وظائفها ومساءلتها واستعادة القرار البشري داخل نظام شديد التكامل.**

ويحتوي هذا التعريف على مفارقة مركزية؛ فكلما أصبحت التقنية أفضل في الاندماج، أصبحت أقل وضوحًا، وكلما أصبحت أقل وضوحًا، ازدادت الحاجة إلى كفاية ميتا خوارزمية تحافظ على إمكان فحصها. ومن هنا لا تلغي القراءة ما بعد الخوارزمية القراءة الميتا خوارزمية، بل تجعلها بنية دفاعية داخل الحالة الجديدة.

- شروط ظهوره

لا ينبغي التعامل مع القراءة ما بعد الخوارزمية باعتبارها مستقبلًا حتميًا، ولذلك يحتاج المفهوم إلى تحديد شروط يمكن في حال تراكمها الحديث عن اقتراب هذا النمط. ويتمثل الشرط الأول في **الاستمرارية**، أي ألا يكون الذكاء الاصطناعي أداة تظهر في لحظات متباعدة، بل موردًا ملازمًا لمسار القراءة؛ ويتمثل الثاني في **التكامل الوظيفي**، بحيث يجمع النظام وظائف الاكتشاف والاسترجاع والشرح والترجمة والمقارنة والذاكرة داخل بيئة واحدة أو بيئات مترابطة؛ ويتمثل الثالث في **الاستباق**، أي قدرة النظام على

تقديم مساعدة أو اقتراح قبل طلبها الصريح؛ والرابع في **الشخصنة المتراكمة** المبنية على تاريخ طويل من التفاعل؛ والخامس في **تراجع الوعي بحدود الأداة** بسبب اندماجها داخل الواجهة.

ويضاف إلى هذه الشروط شرط اجتماعي لا يقل أهمية، هو **تطبيع الممارسة**؛ فالوسيط لا يصبح «ما بعد خوارزمي» بالنسبة إلى الثقافة لمجرد إمكانه التقني، بل عندما يصبح استخدامه جزءًا من الأعراف اليومية إلى درجة يتوقف معها الناس عن وصفه بوصفه طريقة خاصة للقراءة. وقد مر الهاتف المحمول والبحث الشبكي بمراحل شبيهة من الانتقال من الحداثة التقنية إلى الاعتياد الاجتماعي، ولذلك ينبغي أن تدرس القراءة المستقبلية لا من زاوية القدرات وحدها بل من زاوية العادات والمؤسسات والتعليم والنشر.

ويتمثل شرط آخر في انتقال الخوارزمية من **الاستجابة إلى السياقية**؛ أي أن تستطيع استخدام معلومات عن موضع القارئ في النص، وأسئلته السابقة، ومستواه، وهدفه، وملاحظاته، لتكييف المساعدة. وعندها لا يعود المستخدم يطلب خدمة منفصلة بل يقرأ داخل بيئة تعرف سياقًا واسعًا عن نشاطه، وهو ما يزيد الفائدة ويزيد في الوقت نفسه مخاطر الخصوصية والاعتماد وتراكم الملف الخوارزمي.

ويظهر شرط خامس في **الربط بين الأجهزة والوسائط**؛ فقد يبدأ القارئ كتابًا على شاشة، ويستمع إليه أثناء التنقل، ويستعيد النظام الملاحظات في جهاز آخر، ثم يطلب مقارنة أثناء الكتابة، بحيث لا يكون هناك «جهاز القراءة» الواحد بل منظومة تستمر عبر سياقات مختلفة. وهذا الاستمرار يجعل الذات القارئة أقل ارتباطًا بحامل مادي واحد وأكثر ارتباطًا بشبكة من الذاكرة والهوية الرقمية.

ولا يكفي تحقق هذه الشروط التقنية لكي نتحدث عن القراءة ما بعد الخوارزمية بمعنى قوي، لأن المسألة تتطلب كذلك **تحولًا في توقعات القارئ**؛ فعندما يبدأ الإنسان في اعتبار غياب الشرح الفوري أو الذاكرة السياقية أو التوصية الذكية نقصًا في البيئة، يكون الوسيط قد دخل في

تعريف ما يعده تجربة قراءة عادية. وهنا لا تستخدم التقنية فقط لتلبية حاجة قديمة، بل تبدأ الحاجة نفسها في التشكل وفق ما أصبحت التقنية قادرة على تقديمه.

ومن هنا يكون الشرط الأخير والأعمق هو إعادة تكوين المعيار القرائي؛ أي أن تتغير توقعات ما ينبغي أن تستطيع القراءة فعله. وإذا حدث ذلك يصبح السؤال الثقافي ليس هل نستخدم الذكاء الاصطناعي، بل أي نوع من القراءة يتعلمه جيل لم يعرف بيئة خالية من الوساطة الذكية، وهو السؤال الذي سينقلنا مباشرة إلى مفهوم الذات القارئة المشتركة.

ـ المبحث الثالث: الذات القارئة المشتركة

ـ الإنسان والآلة كوحدة معرفية مركبة

يستند مفهوم »الذات القارئة المشتركة «الذي يقترحه هذا الكتاب إلى فكرة أن بعض أفعال القراءة الحديثة لا يمكن وصفها بصورة كافية إذا عزلنا كل عملية داخل الفرد أو داخل الجهاز، لأن الفهم قد ينشأ من تفاعل بين ذاكرة القارئ والنص والبحث والترجمة وملاحظات سابقة ونظام توليدي وسياق اجتماعي. ولا يعني وصف الذات بـ«المشتركة» وجود وعي واحد موزع بالتساوي بين الإنسان والآلة، بل أن وحدة الأداء المعرفي في مهمة محددة قد تكون أكبر من الإنسان منفردًا.

وتجد هذه الفكرة سندًا مباشرًا في مفهوم الإدراك الموزع عند هاتشينز، الذي درس كيف تنجز أنظمة مكونة من أشخاص وأدوات وتمثيلات عمليات معرفية لا يمكن فهمها إذا حصر التحليل داخل رأس فرد واحد [4]. كما يتيح العقل الممتد عند كلارك وتشالمرز [3] التفكير في حالات تدخل فيها الموارد الخارجية بصورة وظيفية مستقرة في النشاط المعرفي، بينما يوسع كلارك في *Natural-Born Cyborgs* هذا التصور إلى الميل الإنساني إلى دمج الأدوات والتقنيات في طرق التفكير والعمل.[5]

غير أن نقل هذه الأطر إلى القراءة يحتاج إلى الحذر من انزلاقين متعاكسين؛ الأول هو الاختزال الفرداني الذي يتعامل مع جميع الأدوات كما لو كانت محيطًا خارجيًا لا يؤثر في طبيعة العملية، والثاني هو الذوبان التقني الذي يجعل الإنسان والآلة كيانًا واحدًا بلا فروق. ويقترح مفهوم الذات القارئة المشتركة طريقًا وسطًا: هناك وحدة عمل مركبة، لكن عناصرها غير متماثلة في القدرات والموقع والمسؤولية.

فإذا قرأ باحث نصًا بلغة أجنبية مستخدمًا ترجمة فورية، واستعاد نظامه مقالات سبق أن حفظها، ثم طلب مقارنة بين مفهومين وعاد إلى النصوص الأصلية ليبني موقفه، فإن الناتج النهائي لا يمكن وصفه ببساطة بأنه

«نتاج العقل البيولوجي وحده»، لأن الوصول والترجمة والتنظيم والمقارنة شاركت فيها موارد خارجية، لكنه لا يصبح كذلك «نتاجًا للآلة» لأن اختيار السؤال وتحديد الغرض وفحص الصلة واتخاذ الموقف تمت في الفاعل البشري. ومن هنا تكون الذات المشتركة شبكة عمل لا اندماج هوية.

ويمكن تحديد بنيتها من خلال توزيع الوظائف: الإنسان يحدد المقصد ويعيش التجربة ويقيم الأهمية ويختار المعايير ويتحمل المسؤولية، بينما تستطيع الآلة معالجة نطاق أوسع من النصوص واسترجاع المعلومات وتقديم ترجمات وإعادة تنظيم المقارنات وتوليد فرضيات. ويتقاطع الطرفان في منطقة من الحوار والتغذية الراجعة، لكنهما لا يتساويان في نوع المساهمة.

ومن هنا يقترح الكتاب مفهوم »التكامل المعرفي غير المتماثل «بوصفه المبدأ المنظم للذات المشتركة؛ فالتكامل يعني أن قدرات الطرفين تدخل في عمل واحد، وعدم التماثل يعني أن وظائفهما وطرائق معرفتهما ليست متطابقة. فالإنسان يؤول من داخل تجربة، بينما الآلة تولد من داخل معالجة؛ والإنسان يستطيع أن يجعل النص جزءًا من سيرته وذاكرته الأخلاقية، بينما النظام يستطيع إنتاج خطاب عن تلك التجربة من دون أن يعيشها.

ويمنع هذا التمييز كذلك أن تتحول عبارة «الشراكة» إلى استعارة غير منضبطة؛ فالآلة قد تكون شريكًا وظيفيًا في إنجاز مهمة، لكنها ليست شريكًا إنسانيًا له حقوق ومسؤوليات وتجربة مماثلة. ومن هنا تكون الذات القارئة المشتركة اسمًا لبنية توزيع الوظائف لا اسمًا لذات واعية جديدة مستقلة.

- حدود الفاعلية المشتركة

يصبح مفهوم الذات المشتركة ذا قيمة فقط إذا عرفنا أين يتوقف، لأن توسيعه من دون حدود سيجعل كل قارئ منذ اختراع الكتابة «ذاتًا مشتركة» بالمعنى نفسه، ويفقد المصطلح قدرته التفسيرية. ومن هنا يقترح الكتاب أن يتحقق وصف «المشتركة» عندما يؤدي المورد التقني

دورًا متكررًا وعميقًا وتفاعليًا في وظيفة معرفية مركزية داخل القراءة، لا عندما يقدم مساعدة عابرة لا تغير سير الفهم.

ويمكن التفكير في ثلاثة معايير لتحديد عمق المشاركة :**كثافة الاعتماد** ، أي مقدار تكرار حضور المورد ؛ **وعمق الوظيفة**، أي مدى اقترابه من الفهم والتأويل بدل الاقتصار على العرض؛ **وقابلية التغذية الراجعة**، أي ما إذا كان النظام يتغير استنادًا إلى تدخل القارئ ويعود فيغير سلوكه بدوره. وكلما اجتمعت هذه الشروط أصبح وصف الذات المشتركة أكثر ملاءمة.

غير أن الفاعلية المشتركة تصطدم بحد أساسي هو **المسؤولية**؛ فإذا أخطأ النظام في تفسير نص ثم قبله الباحث ونشره، لا يمكن توزيع المسؤولية الأخلاقية على الطرفين بالطريقة نفسها التي توزعت بها وظيفة البحث أو المقارنة. ومن هنا يعيد الفصل تثبيت المبدأ الذي جرى بناؤه في الفصل الثاني عشر: الذات القارئة قد تكون موزعة وظيفيًا ، لكنها لا تصبح موزعة أخلاقيًا بالمقدار نفسه.

ويظهر حد ثان في **القصد**؛ فالإنسان يقرأ من أجل غرض يستطيع إعادة تعريفه، ويستطيع أن يتخلى عن المهمة أو يغير قيمتها بالنسبة إليه، بينما النظام يعمل داخل هدف أو تعليمات وسياقات تقدم إليه، وحتى عندما يبدو مبادرًا فإنه لا يعيش الغاية بوصفها مشروعًا شخصيًا. ومن هنا لا ينبغي تحويل المبادرة التقنية إلى قصد إنساني.

ويتمثل الحد الثالث في **التجربة الجسدية والعاطفية والتاريخية**؛ فالقراءة ليست معالجة معلومات فقط، لأن الذاكرة والسيرة والجسد والموقع الاجتماعي تدخل في العلاقة بالنص. وقد حذرت هايلز من التصورات التي تفصل المعلومات عن تجسدها وتاريخها المادي، وجعلت نقد وهم «المعلومة غير المتجسدة» جزءًا مركزيًا من مشروعها حول ما بعد الإنساني [6]. ويكتسب هذا التحذير أهمية مباشرة هنا: لا ينبغي أن يؤدي توزيع الوظائف إلى محو الجسد القارئ.

أما الحد الرابع فيتمثل في إمكان الانفصال؛ فكلما أصبح النظام ضروريًا بصورة مطلقة لأي قراءة، ازداد خطر تحول الهجنة إلى تبعية. ومن هنا ينبغي أن تكون الذات المشتركة الناضجة قادرة على تغيير درجات التكامل، فتستخدم الآلة بكثافة حين تحتاج إليها وتخفض تدخلها حين تكون المهمة تدريبًا على مهارة بشرية أو تجربة جمالية تحتاج إلى زمن غير موسط.

ويتيح ذلك صياغة قاعدة :اشتراك الوظائف لا يستلزم اندماج الهوية، وتوزيع cognition لا يستلزم توزيع المسؤولية، وارتفاع الكفاءة لا يبرر محو القدرة على الانفصال .وهذه القاعدة ستكون ضرورية عند الانتقال إلى أفق ما بعد الإنساني، حيث تصبح حدود الذات الإنسانية نفسها موضوعًا للنقد.

ـ المبحث الرابع: القارئ في أفق ما بعد الإنساني

ـ الإنسان المعزز

يستخدم هذا الفصل «ما بعد الإنساني» بوصفه إطارًا فلسفيًا ونقديًا متعدد الاتجاهات، لا بوصفه مرادفًا لتحويل الإنسان إلى آلة أو إعلان نهاية الإنسانية، إذ إن الأدبيات التي تدخل تحت هذه التسمية متنوعة ومختلفة في مواقفها من الإنسان والتقنية والطبيعة. وقد قدمت هاراواي صورة السايبورغ بوصفها أداة نقدية لزعزعة الثنائيات الصلبة بين الإنسان والآلة والطبيعة والثقافة [8]، بينما أعادت هايلز التفكير في علاقة الإنسان بالمعلومات والتجسد والتقنيات [6]، وناقشت برايدوتي الذات ما بعد الإنسانية في إطار نقد مركزية الإنسان ووحدة الذات الإنسانية التقليدية [9]، بينما سعت فيراندو إلى تمييز ما بعد الإنسانية الفلسفية عن تيارات أخرى مثل الترانسإنسانية، وربطتها بفلسفة للوساطة والعلاقة بالتكنولوجيا والبيئة [10].

ولا يحتاج مشروع القارئ الهجين إلى تبني جميع نتائج هذه النظريات لكي يستفيد منها، لأن السؤال الأكثر تحديدًا هو :ما الذي يحدث لتعريف القارئ إذا لم نعد نفترض أنه ذات مستقلة تنجز القراءة داخل حدود بيولوجية مغلقة؟ ويصبح «الإنسان المعزز» هنا قارئًا تتوسع بعض قدراته بواسطة أدوات خارجية، من الذاكرة والبحث والترجمة إلى الصوت والرؤية والذكاء الاصطناعي، من دون أن يعني ذلك بالضرورة تعديلًا بيولوجيًا أو زرعًا جسديًا.

وقد قدم كلارك في *Natural-Born Cyborgs* تصورًا يرى فيه الإنسان مهيأً لتضمين الأدوات والممارسات الثقافية في نشاطه، معبرًا عن نوع من «السيبورغية الطبيعية» التي لا تحتاج إلى معدن مزروع في الجسد لكي تظهر [5]. وهذا التصور شديد الصلة بالقارئ؛ فالكتابة نفسها امتداد للذاكرة، والمكتبة امتداد للوصول، ومحرك البحث امتداد للاسترجاع، والنظام التوليدي امتداد محتمل للتوليد المقارن، وبالتالي لا يبدأ التعزيز مع الذكاء الاصطناعي وإنما يصل معه إلى درجة جديدة من التفاعل.

ومن هنا لا ينبغي بناء تاريخ القراءة على قطيعة «إنسان نقي» ثم «إنسان معزز»، **بل على تراكم أشكال التعزيز**؛ فالكتابة والطباعة والفهرس والقاموس والحاسوب والشبكة والخوارزمية والذكاء الاصطناعي حلقات مختلفة في تاريخ توزيع الوظائف، مع فروق كبيرة في عمقها وسرعتها واستقلالها. ويكمن الجديد في الأدوات التوليدية في أنها لا تخزن وتعرض فقط، بل تنتج خطابًا يمكن أن يدخل مباشرة في التفكير.

ولا يعني هذا التوسع أن التعزيز إيجابي في ذاته، لأن زيادة القدرة قد تأتي مع فقدان مهارة أو زيادة اعتماد أو تضييق للخصوصية، ولذلك ينبغي الحفاظ على التمييز بين **التعزيز والاستبدال**؛ فالإنسان المعزز يظل قادرًا على استعمال القدرة الخارجية ضمن مشروعه، بينما تبدأ الحالة الاستبدالية عندما تصبح الأداة الطريق الوحيد لإتمام الوظيفة التي كان ينبغي له أن يحتفظ بقدرة كافية على تقييمها.

ومن هنا يصبح أفضل تصور للقارئ المعزز ليس «إنسانًا أقوى بفضل الآلة» بصورة مطلقة، بل إنسانًا يدخل في **اقتصاد للقدرات** يقرر فيه ما الذي يستحق التفويض وما الذي ينبغي الاحتفاظ به، وكيف يوازن بين السرعة والتعلم، وبين الاسترجاع والذاكرة، وبين التخصيص والمفاجأة، وبين الراحة والسيادة التأويلية.

- إعادة تعريف الهوية القرائية

كانت الهوية القرائية تبنى تاريخيًا من عناصر مثل اللغة والكتب المقروءة والمؤلفين المفضلين والانتماءات الثقافية وطريقة التعامل مع النص، لكن البيئة الخوارزمية تضيف طبقة أخرى هي **الهوية التي يبنيها النظام عن القارئ** .وقد عالج الفصل الثالث عشر الفرق بين الذاكرة الأدبية للقارئ وذاكرته الخوارزمية، ويمكن الآن توسيع الفكرة إلى الفرق بين «أنا القارئ كما أفهم نفسي» و«أنا القارئ كما تمثلني البيانات.«

ولا تتطابق الصورتان؛ فقد يرى الإنسان نفسه قارئًا للتاريخ بينما تكشف بياناته عن كثافة في قراءة الرواية، وقد تصنف المنصة اهتمامًا عابرًا بوصفه تفضيلًا دائمًا، وقد يغير القارئ ميوله بينما تستمر توصيات قديمة في ملاحقته. ومن هنا تصبح الهوية القرائية **موضع تفاوض بين السيرة الذاتية والتمثيل الخوارزمي**.

وتزداد هذه العلاقة تعقيدًا في القراءة ما بعد الخوارزمية، لأن النظام قد لا يكتفي بتوقع ما يفضله القارئ بل يساعد في تشكيل ما سيقرأه، فتدخل التوصية في صناعة البيانات التي ستؤكد التوصية لاحقًا. وعندها يصبح الملف الخوارزمي قادرًا على إنتاج شيء من الوقائع التي يستخدمها لإثبات نفسه، وهو ما يمكن تسميته »**الدوران الهووي الخوارزمي**«: »يتوقع النظام تفضيلًا ← يعرض محتوى مرتبطًا به ← يتفاعل القارئ ← تسجل الاستجابة بوصفها دليلًا إضافيًا على التفضيل.

ولا يعني ذلك أن القارئ أسير لهذا الدوران، لأن الإنسان يستطيع البحث خارج التوصية، لكن الحفاظ على هذه القدرة يصبح جزءًا من الهوية نفسها. ومن هنا يمكن تعريف القارئ ما بعد الخوارزمي الناضج بأنه شخص لا يعرف نفسه فقط من خلال ما يقترحه النظام، بل يحتفظ بمساحة من **اللاإتوقع الذاتي**، أي إمكانية أن يغير ذوقه ويقرأ ما لا ينسجم مع ملفه ويختبر ذاتًا قرائية لم تسجلها البيانات بعد.

وتسمح ما بعد الإنسانية هنا بإعادة التفكير في الهوية بوصفها علاقة لا جوهرًا مغلقًا؛ فبرايدوتي تشدد على الذات المتعددة والعلاقية [9]، وفيراندو تقدم ما بعد الإنسانية الفلسفية بوصفها نقدًا للتصور المنفصل للإنسان عن التكنولوجيا والبيئة [10]. ويستفيد القارئ الهجين من هذه الرؤية إذا حافظنا على حدين: ألا نجعل الهوية جوهرًا فرديًا مستقلًا عن الوسائط، وألا نجعلها في المقابل مجرد نتيجة للبيانات والخوارزميات.

ومن هنا تصبح الهوية القرائية الهجينة بناءً ديناميًا يتكون من ذاكرة الإنسان وتجربته ولغته ومجتمعاته والنصوص التي قرأها والوسائط التي

استعان بها والبيانات التي تعيد المنصات استخدامها عنه .ويبقى السؤال الأخلاقي: أي هذه الطبقات يستطيع القارئ تعديلها، وأيها تعمل في الخلفية، وما مقدار الحق الذي يحتفظ به في ألا يظل الشخص الذي تتنبأت به خوارزمية الأمس؟

ويكشف هذا السؤال أن مستقبل القراءة ليس قضية تقنية فحسب، بل قضية تخص الحرية الثقافية، لأن الحرية لا تعني اختيار عمل من قائمة فقط، وإنما القدرة على إعادة تعريف الذات التي تختار.

ـ المبحث الخامس: النموذج الرباعي للتلقي الهجين

بعد الفصول التي درست المؤلف والنص والوسيط والقارئ والخوارزمية والذكاء الاصطناعي بصورة منفصلة ومتقاطعة، يمكن الآن تركيب هذه العناصر داخل نموذج نظري يقترحه الكتاب بوصفه نواة لفهم القراءة المعاصرة، وهو النموذج الرباعي للتلقي الهجين: القارئ ـ النص ـ الخوارزمية ـ السياق .ولا يقصد النموذج اختزال القراءة في أربعة كيانات منفصلة تعمل بطريقة ميكانيكية، بل تحديد أربع قوى تحليلية لا يمكن لأي نظرية للتلقي الهجين أن تستبعد واحدة منها من دون أن تفقد جانبًا أساسيًا من الظاهرة.

ـ القارئ

يبقى القارئ القطب الأول لأنه الفاعل الذي تتحول القراءة عنده إلى تجربة وموقف ومسؤولية، وليس مجرد موضع تمر عبره المعلومات. وهو يحمل جسدًا ولغة وذاكرة وتاريخًا اجتماعيًا وأفقًا ثقافيًا وأسئلة ورغبات وغايات، كما يحمل قدرات محدودة في الانتباه والذاكرة والمعالجة ويستعين لذلك بأدوات ومجتمعات. وقد جعلت نظرية التلقي عند ياوس وإيزر القارئ عنصرًا حاسمًا في تحقيق العمل وفي تاريخ استقباله [11][12]، وتحتفظ النظرية الجديدة بهذا المركز مع إعادة تعريفه بوصفه قارئًا يمكن أن تتوزع بعض وظائفه على بيئة تقنية.

ولا يعني وضع القارئ في القطب الأول منحه سيادة مطلقة على النص، لأن المسؤولية التأويلية لا تساوي حرية الادعاء، بل تعني أن الإنسان هو الطرف الذي يجب أن يكون قادرًا على الدفاع عن قراءته. ومن هنا يجمع القارئ الهجين بين **الفاعلية والحدود**؛ فهو يبني المعنى لكنه يختبره في النص والسياق، ويستعين بالخوارزمية لكنه لا يمنحها سلطة الحكم النهائي.

ويجب كذلك ألا يفهم القارئ بوصفه وحدة ثابتة، لأن أنماطه تتغير داخل الجلسة نفسها؛ فقد يبدأ قارئًا بسيطًا ثم يصبح شبكيًا عند البحث، ومعززًا عند استخدام الترجمة، وتوليديًا عند الحوار مع النظام، وميتا خوارزميًا عند مساءلة النتائج. ومن هنا يكون القارئ **موقعًا متحركًا داخل درجات الهجنة** أكثر من كونه هوية ثابتة واحدة.

ـ النص

يمثل النص القطب الثاني لأنه ليس مادة خامًا ينتج القارئ منها ما يشاء، بل بنية لغوية أو متعددة الوسائط تحمل تنظيمًا وقيودًا وآثارًا تاريخية تسمح ببعض القراءات أكثر مما تسمح بغيرها. وقد ظل هذا المبدأ حاضرًا منذ مناقشة إيكو وحدود التأويل، ويصبح أكثر أهمية في العصر التوليدي لأن القدرة على إنتاج خطاب مقنع عن النص لا تعني أن الخطاب مسند إليه.

ويتغير مفهوم النص نفسه داخل البيئة الهجينة؛ فقد يكون ورقيًا أو إلكترونيًا أو تشعبيًا أو متعدد الوسائط أو ديناميًا، وقد تصاحبه شروح وتوصيات ونسخ صوتية وتحويلات، لكن ينبغي التمييز بين **المتن** وبين الطبقات التي تنتج حوله حتى لا يذوب الأصل في الوساطة. ولا يعني ذلك أن الأصل مقدس أو ثابت دائمًا، لأن هناك نصوصًا رقمية دينامية، وإنما أن التحليل يحتاج إلى معرفة ما الذي ينتمي إلى العمل وما الذي أضافته البيئة.

ويؤدي النص وظيفة حاسمة في النموذج لأنه يمثل **مرجع الاختبار التأويلي**؛ فالفرضية التي يولدها القارئ أو النظام تعود إليه لكي تبحث عن ما يدعمها

أو يقاومها. ومن هنا لا تكون الخوارزمية الحكم، ولا القارئ الحكم بمعزل عن النص، بل يظل العمل طرفًا يقاوم بعض الإسقاطات.

ـ الخوارزمية

يمثل القطب الثالث الوسيط الحسابي الذي يمكن أن يدخل في اختيار النص وترتيبه واسترجاع معلومات عنه وتخصيص عرضه وشرحه وترجمته وتلخيصه وتوليد مقارنات وتأويلات حوله، ثم معالجة آثار القراءة بعد انتهائها. وقد أثبتت الفصول السابقة أن هذا الدور لا يمكن اختزاله في قناة محايدة، وهو ما يجعل دراسات القوة الخوارزمية والثقافة الخوارزمية ضرورية لفهم القراءة المعاصرة.[13]

غير أن الخوارزمية داخل النموذج لا تعطى صفة الذات الإنسانية، بل توصف بوصفها فاعلًا وسيطيًا وظيفيًا؛ أي عنصرًا يمكنه إنتاج آثار ملموسة في المسار دون امتلاك التجربة والمسؤولية نفسيهما. ويمنع هذا التحديد الوقوع في أنسنة التقنية كما يمنع التقليل من قوتها.

ولا توجد «الخوارزمية» في الواقع منفردة، بل داخل مؤسسات وأهداف وواجهات وبيانات ونماذج عمل، ولذلك يستخدم المفهوم هنا على مستوى الوظيفة التحليلية، بينما تحتاج التطبيقات إلى دراسة الأنظمة المحددة والسياقات التي تعمل فيها. ومن هنا يكون النموذج الرباعي إطارًا وليس بديلًا عن البحث التجريبي.

ـ السياق

يمثل السياق القطب الرابع الذي يمنع النموذج من التحول إلى مثلث مغلق بين الإنسان والنص والتقنية، لأن المعنى لا يتشكل خارج التاريخ والثقافة واللغة والمؤسسة والجماعة والاقتصاد والسياسة. ويشمل السياق الظروف التاريخية التي أنتجت العمل، وسياق القارئ، والسياق المؤسسي للمنصة، واللغة التي يجري بها الحوار، والموقف الذي تستخدم فيه القراءة، سواء كان متعة أو تعليمًا أو بحثًا أو نقدًا.

ويكتسب السياق أهمية إضافية أمام الذكاء الاصطناعي لأن النظام يستطيع أن يولد تفسيراً يبدو صالحًا في مستوى عام لكنه يغفل خصوصية زمن أو لغة أو مجتمع، ولذلك تكون العودة إلى السياق أداة لمقاومة **تسطيح الخصوصية بواسطة النمط العام**.

ولا يعمل السياق بوصفه خلفية ثابتة، لأن المنصة نفسها تصبح جزءًا منه، كما أن الخوارزمية تستطيع إعادة تشكيل بعض عناصره، ولذلك توجد علاقة متبادلة؛ السياق يؤثر في تصميم النظام واستخدامه، والنظام يساهم في إعادة تنظيم الثقافة والظهور. ومن هنا يكون القطب الرابع ديناميًا لا إطارًا خارجيًا صامتًا.

ويؤدي اجتماع الأقطاب الأربعة إلى صيغة يمكن اعتبارها مركز المشروع كله:

القارئ + النص + الخوارزمية + السياق = نظام التلقي الهجين.

لكن علامة الجمع لا تعني تجميعًا ميكانيكيًا، لأن المعنى ينشأ من العلاقات المتغيرة بينها؛ فإذا تغير النص تغير المجال، وإذا تغير القارئ تغير السؤال، وإذا تغير النظام تغيرت الوساطة، وإذا تغير السياق تغيرت معايير الفهم. ومن هنا ينبغي أن تمثل النظرية **العلاقات لا العناصر وحدها**.

ويمكن التعبير عن عملية إنتاج المعنى داخل النموذج كما يلي:

النص يقدم إمكانات وقيودًا → القارئ يدخل بأفق وأسئلة → الخوارزمية توسع أو ترتب أو تقترح → السياق يحدد قابلية بعض الروابط والمعاني للدفاع → القارئ يعيد البناء ويتحمل الحكم.

وتجعل هذه الصيغة المعنى هجينًا من حيث مسار إنتاجه، لكنه يظل **موقفًا بشريًا** من حيث المسؤولية النهائية.

ـ المبحث السادس: نحو نظرية عامة للقارئ الهجين

ـ *المبادئ النظرية للنموذج*

يمكن، بعد المسار الذي قطعه الكتاب، صياغة مجموعة من المبادئ النظرية التي لا تدعي تحويل «القارئ الهجين» إلى نظرية مغلقة ونهائية، بل تقدم نواة قابلة للاختبار والتعديل. يتمثل المبدأ الأول في أن **القراءة فعل معرفي موسط دائمًا**؛ فالإنسان لم يقرأ يومًا خارج لغة وحامل وتقاليد ومؤسسات، ولذلك لا تبدأ الهجنة مع الوساطة نفسها، بل مع تغير نوعها وعمق مشاركتها في الوظائف المعرفية.

ويتمثل المبدأ الثاني في أن **الهجنة تختلف عن الرقمنة**؛ فالقراءة الرقمية يمكن أن تظل بشرية من حيث جميع وظائف الفهم والتأويل، بينما قد تكون قراءة كتاب ورقي هجينة إذا استعان القارئ أثناءها بنظام بحث وترجمة وذكاء اصطناعي في تنظيم الفهم. ومن هنا تظل العبارة المركزية للكتاب صالحة :**كل قراءة هجينة تتضمن بعدًا تقنيًا بدرجة ما، لكن ليست كل قراءة رقمية قراءة هجينة.**

أما المبدأ الثالث فيتمثل في أن **الهجنة مسألة درجات ووظائف لا حالة ثنائية**؛ فهي لا تبدأ في لحظة سحرية تجعل القارئ «هجينًا»، بل تتصاعد كلما اتسعت الوظائف التي تشارك فيها التقنية وازداد عمقها واستقرارها. ويمنع هذا المبدأ اختزال التنوع الكبير للممارسات في اسم واحد متجانس.

ويتمثل المبدأ الرابع في أن **درجة الهجنة لا تساوي جودة القراءة**؛ فقد تكون قراءة عالية الهجنة سطحية بسبب الاعتماد أو ضعف التحقق، بينما تكون قراءة منخفضة الهجنة شديدة العمق، ومن هنا لا تكون غاية النظرية الدفع نحو أكبر قدر من التقنية، بل فهم العلاقة بين الوسيط والغاية.

ويتمثل المبدأ الخامس في أن **التوزيع المعرفي لا يلغي مركزية المسؤولية البشرية**، أي إن بعض وظائف الاسترجاع والتنظيم والتفسير يمكن أن تتوزع بين الإنسان والأدوات، لكن كلما اتسع توزيع الوظائف ازدادت الحاجة إلى

وضوح من يتحمل الحكم النهائي. ومن هنا تصبح القاعدة :كلما اتسعت الهجنة، ازدادت ضرورة السيادة التأويلية.

ويتمثل المبدأ السادس في أن الخوارزمية ليست وسيطًا محايدًا ولا ذاتًا بشرية؛ فهي تستطيع أن ترتب وتخصص وتولد وتقترح وتؤثر، لكن هذه الفاعلية الوظيفية لا تمنحها تجربة معيشة أو مسؤولية أخلاقية مساوية للإنسان. وهذا هو أساس «التكامل المعرفي غير المتماثل.«

ويتمثل المبدأ السابع في أن المعنى الهجين لا يعني معنى آليًا؛ فهو معنى بشري دخلت في جينالوجيا تكوينه اقتراحات وموارد تقنية، ولذلك يحتاج إلى القدرة على تتبع هذه الجينالوجيا عند الضرورة.

ويتمثل المبدأ الثامن في أن معرفة الوساطة جزء من معرفة النص عندما تكون الوساطة ذات أثر واضح في الاختيار أو التفسير، وهو المبدأ الذي أسست له القراءة الميتا خوارزمية.

أما المبدأ التاسع فيتمثل في أن الهجنة الناضجة قابلة للعكس؛ أي إن القارئ ينبغي أن يستطيع خفض التدخل التقني أو تغييره أو الخروج منه حين تصبح المساعدة استبدالًا أو حين تكون غاية القراءة تدريب وظيفة بشرية. ومن هنا تكون حرية الانفصال جزءًا من جودة التكامل.

ويتمثل المبدأ العاشر في أن النظام القرائي الهجين رباعي لا ثنائي؛ فالعلاقة بين القارئ والنص لا تكفي وحدها لتفسير القراءة المعاصرة عندما تدخل الخوارزمية في المسار، كما لا يمكن فهم هذه العلاقة من دون السياق التاريخي والثقافي والمؤسسي.

ومن اجتماع هذه المبادئ يمكن تعريف القارئ الهجين في صيغة نهائية أكثر تركيبًا :القارئ الهجين هو قارئ بشري تتوزع بعض وظائف الوصول إلى النص وتنظيمه واسترجاع سياقاته وفهمه ومقارنته وتوليد فرضيات حوله بين قدراته الداخلية وبين وسائط رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي، ضمن علاقة متغيرة الدرجات يحتفظ فيها الإنسان بالمسؤولية عن التحقق

والحكم والتأويل، ويصبح فيها وعي الوساطة وقدرته على إدارتها جزءًا من كفايته القرائية.

- درجات الهجنة

تستطيع النظرية، استنادًا إلى الفصل الخامس والفصول اللاحقة، بناء تصور لدرجات الهجنة لا بوصفه سلمًا تطوريًا ينبغي لكل قارئ صعوده، بل أداة لتحليل كيفية توزيع الوظائف. وفي أدنى الطيف نجد **الهجنة الأداتية البسيطة**، حيث يستخدم القارئ موارد محدودة مثل البحث أو القاموس أو التنقل بين الورق والشاشة دون أن يدخل النظام بصورة عميقة في بناء المعنى. ثم تأتي **الهجنة الشبكية** التي ينتقل فيها القارئ بين مصادر وروابط ومجتمعات، فتتسع بيئة القراءة دون أن تكون الآلة شريكًا مباشرًا في التأويل.

ويظهر المستوى التالي في **الهجنة المعززة**، حيث تدخل أدوات الترجمة والتلخيص والشرح والاسترجاع في الفهم، ثم ترتفع درجة المشاركة في **الهجنة التوليدية** عندما ينتج النظام خطابًا جديدًا من شرح ومقارنة واقتراحات تأويلية ويصبح الحوار جزءًا من مسار القراءة. ويأتي بعدها **المستوى الميتا خوارزمي**، الذي لا يمثل زيادة كمية في استخدام التقنية بقدر ما يمثل زيادة في وعي القارئ بالوساطة ومساءلتها، ولذلك يستطيع قارئ يستخدم أدوات كثيرة أن يكون أقل ميتا خوارزمية من قارئ يستخدم أدوات أقل لكنه أكثر وعيًا بحدودها.

أما **المستوى ما بعد الخوارزمي** فهو أفق استشرافي تصبح فيه التقنية شديدة الاندماج والمحيطية، بحيث تنتقل المسألة من الاستعمال الواعي لأداة إلى العيش داخل بيئة تتوزع فيها وظائف القراءة بصورة مستقرة. ولا يمثل هذا المستوى «أعلى» مراحل القراءة أو أفضلها، بل أعلى درجات الاندماج التقني المفترضة، ولذلك قد يحمل أكبر إمكانات التعزيز وأكبر مخاطر الاعتماد في الوقت نفسه.

ويمكن النظر إلى هذه الدرجات عبر محورين متقاطعين؛ الأول هو عمق تدخل التقنية، ويمتد من العرض والوصول إلى التفسير والتوليد والاستباق، والثاني هو درجة السيادة النقدية للقارئ، ويمتد من القبول الآلي إلى التحقق والمقارنة والمقاومة والوعي بالوساطة. ومن تقاطع المحورين تظهر حالات مختلفة؛ فقد يكون القارئ عالي التقنية منخفض السيادة، وهي حالة قريبة من التلقين أو الاعتماد ، أو عالي التقنية وعالي السيادة، وهي الصورة التي يقترح الكتاب اعتبارها الهجنة النقدية الناضجة.

ومن هنا لا يكون القارئ المثالي في النظرية من يستخدم أكبر عدد من الأدوات، بل من يحقق تناسبًا بين درجة تدخلها ودرجة قدرته على نقدها . ويمكن صياغة القاعدة على النحو الآتي :كلما ارتفعت المبادرة الآلية، وجب أن ترتفع الكفاءة النقدية البشرية.

ويمكن كذلك إدخال محور ثالث هو قابلية الاستقلال؛ فقد يكون القارئ واعيًا بالنظام لكنه غير قادر على إنجاز أي جزء من المهمة دونه، ولذلك لا تكتمل الهجنة النقدية من دون الاحتفاظ بقدر مناسب من القدرة الذاتية يسمح بالحكم على المساعدة.

ولا يقصد هذا التصنيف بناء «مؤشر رقمي» جاهز لقياس البشر، لكنه يمكن أن يتحول مستقبلًا إلى مصفوفة بحثية تتناول كثافة الوساطة وعمقها وتكرارها ومبادرة النظام وأثره في التأويل وسيادة القارئ، وتختبر العلاقة بينها تجريبيًا.

ـ آليات إنتاج المعنى

إذا كان النموذج التقليدي المبسط للقراءة يفترض أن النص يلتقي بالقارئ فينتج معنى، فإن نظرية القارئ الهجين تقترح أن عملية إنتاج المعنى يمكن أن تمر بعدد أكبر من التحولات، تبدأ أحيانًا قبل النص نفسه حين تساهم الخوارزمية في اختياره وتأطيره، ثم تستمر أثناء القراءة عبر الشرح

والاسترجاع والمقارنة، وقد تدخل إلى التأويل من خلال توليد الفرضيات. ومن هنا يمكن التعبير عن العملية العامة على النحو الآتي:

سياق وخبرة سابقة ← اختيار أو ظهور ← نص ← قراءة بشرية أولية ← سؤال ← موارد بشرية وتقنية ← اقتراحات ← فحص نصي ← مراجعة سياقية ← تأويل ← تفاعل ← بيانات واستقبال جديد.

وتكشف هذه السلسلة أن إنتاج المعنى لا يحدث في نقطة واحدة، بل في دورة من **الاقتراب والابتعاد والعودة**، وقد تكون بعض مراحلها بشرية بالكامل وبعضها هجينة. ومن هنا يكون التحليل الدقيق لأي حالة معتمداً على تعيين موضع تدخل التقنية بدل الاكتفاء بوصف التجربة كلها بأنها «قراءة بالذكاء الاصطناعي.«

وفي الحالات التي يدخل فيها النظام التوليدي إلى التأويل يمكن استعمال الصيغة التي تأسست في الفصل الحادي عشر:

اقتراح خوارزمي ← فحص بشري ← تحقق نصي ← مراجعة سياقية ← تأويل بشري موسع.

وتظل هذه الصيغة جوهرية لأنها تمنع التوليد من التحول إلى قرار. فالآلة توسع فضاء الاحتمال، بينما القارئ يحدد ما إذا كان الاحتمال قابلًا للدفاع، والنص يقاوم ما لا يستند إليه، والسياق يمنع الاقتطاع من التاريخ والثقافة.

ومن هنا يكون إنتاج »**المعنى الهجين** «قائماً على التكامل لا على الجمع الحسابي؛ لا نستطيع القول إن خمسين في المئة من المعنى للإنسان وخمسين في المئة للآلة، لأن الوظائف مختلفة. فقد يقدم النظام المعلومة التي تغير القراءة كلها، لكن الإنسان هو الذي يمنحها موقعها داخل مشروعه، وقد يقترح عشرين تأويلًا يرفض القارئ تسعة عشر منها. ومن هنا لا تقاس المشاركة بكمية الكلمات المولدة بل بأثر الوظيفة في المسار.

ويظهر كذلك أن السياق لا يأتي في نهاية العملية فقط، لأنه حاضر منذ البداية؛ فاختيار السؤال نفسه نتاج سياق، واللغة التي يسأل بها القارئ تحدد بعض إمكانات الإجابة، والمنصة جزء من السياق، لذلك يكون النموذج الحقيقي دائريًا أكثر من كونه خطيًا.

وتتيح هذه الآلية التمييز النهائي بين ثلاثة أنماط :**التأويل البشري المدعوم**، حيث تؤدي التقنية وظائف محيطة ولا تولد معنى مركزيًا؛ و**التأويل الهجين النقدي**، حيث تدخل اقتراحاتها في بناء المعنى بعد الاختبار؛ و**التأويل المستبدل**، حيث يقدم النظام النتيجة ويقبلها المستخدم من دون ممارسة العمليات الضرورية للحكم. ولا يفصل بينها وجود التقنية، بل موقع القارئ داخل دورة التحقق.

ومن هنا تبقى القاعدة الأكثر اختصارًا للنظرية:

الآلة تقترح، والقارئ يختبر، والنص يحكم، والسياق يراجع، والإنسان يتحمل المسؤولية.

- آفاق البحث المستقبلي

تظل النظرية التي يقترحها هذا الكتاب في حاجة إلى برنامج بحث واسع لكي تنتقل من المستوى المفاهيمي إلى المستوى التجريبي، وتبدأ أولى هذه الآفاق بسؤال **قياس درجات الهجنة**؛ إذ يمكن تصميم دراسات تراقب كيفية استخدام القراء للأدوات في أنواع مختلفة من النصوص، وتقارن بين قارئ يستخدم الترجمة فقط وقارئ يستخدم التلخيص والحوار والمقارنة، ثم تختبر أثر ذلك في الفهم والذاكرة والاستقلال وجودة التأويل.

ويتمثل الاتجاه الثاني في دراسة **أفق الانتظار الخوارزمي تجريبيًا**؛ فيمكن تقديم النص نفسه إلى مجموعات مختلفة تحت شروط توصية وعتبات وتقييمات مختلفة وقياس ما إذا كانت هذه الأطر تؤثر في التوقع والتفسير والحكم الجمالي. وبهذه الطريقة يتحول المفهوم الذي قدمه الفصل الثالث عشر من اقتراح نظري إلى فرضية قابلة للفحص.

أما الاتجاه الثالث فيتعلق بـ**التنوع التأويلي**؛ إذ ينبغي دراسة ما إذا كان استخدام نماذج توليدية مشتركة يزيد التشابه بين قراءات مجموعات كبيرة من القراء أو، على العكس، يوسع إمكاناتهم بسبب قدرة النظام على توليد زوايا كثيرة. وهذا السؤال شديد الأهمية لأن الفصل الثاني عشر قدم توحيد القراءة بوصفه خطرًا محتملًا لا نتيجة مثبتة، ولذلك يحتاج إلى تجارب تقارن قراءات بشرية غير معززة وقراءات معززة وقراءات توليدية.

ويتعلق الاتجاه الرابع بـ**أثر المساعدة في القراءة العميقة**؛ هل استخدام الذكاء الاصطناعي لتفسير المفاهيم يحرر الانتباه للمستويات الأعلى أم يقلل المجهود الضروري لبناء الفهم؟ وهل تختلف النتيجة إذا جاء الشرح قبل المحاولة البشرية أو بعدها؟ ويمكن لهذه البحوث أن تختبر مفهوم «الاحتكاك المعرفي» و«اقتصاد التدخل الآلي» اللذين اقترحهما الكتاب.

ويتمثل الاتجاه الخامس في دراسة **الذات القارئة المشتركة** من منظور الإدراك الموزع، بحيث يراقب الباحثون مسار المهمة لا نتيجة القراءة فقط، ويحددون أين كانت المعلومة وأين حدث القرار وما الوظائف التي نقلت إلى الوسيط وكيف تغيرت عندما انقطع الوصول إليه. ويمكن بذلك اختبار ما إذا كان بعض الموارد التقنية يصبح جزءًا مستقرًا من النظام المعرفي للقارئ أو يظل مساعدة خارجية متقطعة.

ويتمثل الاتجاه السادس في **القراءة المقارنة بين اللغات والثقافات**، وخصوصًا العربية، لأن كثيرًا من الأدبيات التقنية والنقدية تركز على الإنجليزية أو بيئات غربية، بينما تحتاج نظرية القارئ الهجين إلى اختبار الاختلاف في اللغات التي تختلف فيها الموارد الرقمية وخصائص الصرف والبلاغة والتناص والتراث. ويمكن أن تكشف الدراسات العربية مثلًا أين تنجح الأنظمة في الإحالات الدينية والشعرية والأمثال واللهجات وأين تفشل، وكيف تؤثر هذه الفجوات في التأويل.

ويتمثل الاتجاه السابع في **الخصوصية القرائية**؛ إذ ينبغي دراسة ما الذي يعده المستخدمون مقبولًا من تتبع سلوك القراءة، وكيف تتغير المواقف إذا

كانت البيانات مرتبطة باهتمامات فكرية أو أسئلة شخصية، وكيف يمكن تصميم بيئات توفر تخصيصًا دون تحويل كل نشاط إلى ملف دائم.

أما الاتجاه الثامن فيتعلق بتصميم الواجهات الميتا خوارزمية، أي الانتقال من مطالبة القارئ وحده بالوعي إلى تصميم أنظمة تساعده على الوعي، كأن تميز بصريًا بين النص الأصلي والشرح المولد، أو تعرض درجة المصدر، أو تسمح بإيقاف التخصيص، أو تقديم توصيات متنوعة عمدًا، أو إظهار سبب تقريبي لاقتراح مادة دون الادعاء بكشف كامل للنظام.

ويتمثل الاتجاه التاسع في التربية على القراءة الهجينة؛ فالمؤسسات التعليمية تحتاج إلى تجاوز ثنائية الحظر الكامل أو التسليم الكامل، وبناء مناهج تعلم الطلاب متى يستخدمون النظام ومتى لا يستخدمونه، وكيف يصوغون سؤالًا نقديًا ويقارنون جوابًا بالمصدر ويحافظون على القدرة على القراءة المستقلة.

ويتمثل الاتجاه العاشر في تاريخ القراءة الهجينة نفسه؛ فبدل تقديم الذكاء الاصطناعي كقطيعة كاملة، ينبغي العودة إلى تاريخ الفهرس والموسوعة والهامش والترجمة والآلة الحاسبة ومحرك البحث والكتاب الإلكتروني لفهم استمرارية تفويض الوظائف واختلاف درجاته، وهو ما يمنع النظرية من الوقوع في استثنائية الحاضر.

ولا ينبغي أن يقتصر البحث المستقبلي على سؤال الأداء؛ فأن يعرف الباحث أن القارئ فهم أكثر أو أسرع مهم، لكنه غير كافٍ، لأن النظرية تحتاج كذلك إلى سؤال أي قارئ يتكون من هذه الممارسة؟، وهل أصبح أكثر قدرة على الاعتراض والتحقق والتغيير، أم أكثر اعتمادًا على المسار الذي ترسمه التقنية؟ ومن هنا يكون الهدف الأوسع للبحث ليس قياس كفاءة النظام فقط، بل دراسة تشكيل الذات القرائية في ظل النظام.

من القارئ الهجين إلى القارئ ما بعد الخوارزمي

يمكن الآن قراءة المسار الذي قطعه الكتاب بوصفه انتقالًا من سؤال «من يقرأ؟» إلى سؤال «من أو ما يشارك في الشروط التي تصبح القراءة داخلها ممكنة؟». فقد بدأ القارئ بوصفه ذاتًا أعادت نظريات التلقي وضعها في مركز إنتاج المعنى، ثم انتقل من الورق إلى الشاشة، وواجه أزمة الانتباه، ودخل في علاقة مع الأدوات والشبكات والمجتمعات، قبل أن يصبح «هجينًا» حين شاركت التقنية في بعض وظائفه المعرفية. وبعد ذلك تحولت الخوارزمية إلى بوابة لتنظيم الوصول، ثم إلى عنصر في صناعة الذائقة، ثم أصبح القارئ منتجًا يعيد أثر القراءة إلى المنصة، قبل أن يدخل الذكاء الاصطناعي مباشرة في التلخيص والترجمة والشرح والحوار والتأويل، فتظهر مخاطر الاعتماد والتحيز والتوحيد والخصوصية.

وفي الباب الأخير أعيد بناء هذه التحولات في مفهوم التلقي الخوارزمي، ثم ظهرت القراءة الميتا خوارزمية لكي تجعل الوسيط نفسه موضوعًا للفحص، ويأتي القارئ ما بعد الخوارزمي بوصفه الحد النظري الذي يختبر ما يحدث عندما تصبح الوساطة دائمة ومحيطية. ومن هنا لا يمثل القارئ ما بعد الخوارزمي شخصًا جديدًا ظهر بالفعل واكتملت خصائصه، بل أفقًا نظريًا يسمح لنا باستباق الأسئلة التي تزداد أهميتها كلما تراجعت المسافة بين القراءة والأداة.

ولا تكون أهم صفة لهذا القارئ أنه يستخدم ذكاءً اصطناعيًا أكثر من غيره، بل أنه يعيش في بيئة لا يعود فيها استخدام الذكاء الاصطناعي حدثًا استثنائيًا .ومن هنا يكون التحدي المركزي الحفاظ على الوعي عندما يختفي سبب الوعي؛ فالإنسان ينتبه إلى المساعد حين يفتح نافذة منفصلة، لكنه قد لا ينتبه إليه عندما يكون جزءًا من كل نافذة.

ويصبح القارئ ما بعد الخوارزمي، في صورته النقدية، وريثًا للقارئ الميتا خوارزمي لا نقيضًا له، لأنه يحتاج إلى تحويل الوعي من فعل استثنائي إلى كفاية ضمنية قابلة للاستدعاء؛ يعرف أن النظام حاضر، لكنه لا يحتاج

إلى تعطيل القراءة باستمرار لكي يفكر فيه، كما يعرف السائق وجود أنظمة السيارة دون أن يحللها في كل ثانية لكنه ينتبه إليها حين يحتاج إلى الحكم أو التدخل.

ومن هنا يكون مستقبل القراءة قائمًا على مفارقة مزدوجة: ينبغي أن تصبح التقنية سهلة بما يكفي لكي تعزز القراءة، وينبغي ألا تصبح غير مرئية إلى حد تستحيل معه مساءلتها؛ وينبغي أن توزع الوظائف بما يوسع القدرة البشرية، دون أن توزع المسؤولية بحيث لا يعرف أحد من يملك الحكم.

النظرية العامة للقارئ الهجين

تسمح الفصول الخمسة عشر في مجموعها بصياغة نواة لنظرية عامة يمكن أن تحمل اسم »**نظرية القارئ الهجين**«، على أن يوصف هذا الاسم بوضوح باعتباره اقتراح هذا الكتاب لا اسمًا لمذهب نقدي مستقر سابق. وتنطلق النظرية من فرضية أن القارئ المعاصر لا يمكن فهمه بالكامل بواسطة النموذج الذي يفترض فردًا يواجه نصًا مستقرًا ثم ينتج معنى داخل ذهنه، لأن جزءًا من عمليات الوصول والاختيار والاسترجاع والذاكرة والمقارنة والتفسير أصبح قابلًا لأن يتوزع بين الإنسان وبيئة تقنية خوارزمية.

ولا تعني هذه الفرضية أن كل قارئ معاصر هجين بالدرجة نفسها، ولا أن المستقبل سيقضي على القراءة غير المعززة، بل إن أكثر ما يميز الوضع الجديد هو **تعايش الأنماط**؛ فقد يقرأ الشخص قصيدة ورقية في عزلة تامة صباحًا، ويستخدم مترجمًا آليًا في الظهيرة، ويناقش رواية مع نظام توليدي مساءً. ومن هنا لا ينبغي للنظرية أن تبحث عن «القارئ الجديد» بوصفه نوعًا بشريًا يحل محل القديم، بل عن **الأوضاع القرائية** التي ينتقل بينها الفرد.

ويصبح التحول المركزي الذي تقترحه النظرية هو الانتقال من تعريف القارئ عبر الحامل إلى تعريفه عبر **توزيع الوظائف** .فلا يكفي أن نسأل: هل يقرأ على ورق أم شاشة؟ بل: من اختار النص؟ من استرجع السياق؟ من ترجم؟

من لخص؟ من اقترح التأويل؟ من تحقق؟ من اتخذ الحكم؟ وهذه الأسئلة تكشف درجة الهجنة أكثر مما يكشفها الجهاز.

وتقترح النظرية كذلك أن الحرية القرائية لا ينبغي أن تفهم بوصفها استقلالًا عن جميع الوسائط، لأن ذلك لم يوجد تاريخيًا، بل بوصفها قدرة على معرفة الوسائط وتغييرها ومراجعتها والخروج منها .ومن هنا تكون السيادة التأويلية سيادة متواضعة؛ لا تدعي أن القارئ وحده يصنع المعنى، لكنها ترفض أن يصبح الوسيط غير القابل للمساءلة هو صاحب الكلمة الأخيرة.

ويصبح النقد نفسه، في ضوء هذه النظرية، مضطرًا إلى تغيير مدونته؛ فلم يعد النص الأدبي وحده موضوعه، بل يمكن أن يدخل إليه نظام التوصية، والواجهة، والمحفز، والجواب التوليدي، والتعليق، والبيانات، ومسار القراءة. ومن هنا يظهر الطريق الذي يربط هذا الكتاب بالمشروع السابق حول النقد الميتا خوارزمي والنقد ما بعد الخوارزمي؛ فإذا كان القارئ أصبح هجينًا ، فإن النقد الذي يدرسه لا يستطيع أن يبقى محصورًا في النص بمعزل عن البنية التي أعادت إنتاج شروط قراءته.

<u>المبادئ الجامعة للنظرية</u>

يمكن اختزال المشروع النظري للفصول السابقة في عدد من العلاقات التي لا تقدم بوصفها شعارات، بل بوصفها فرضيات مركزية يمكن للبحوث اللاحقة اختبارها. أولها أن رقمنة الحامل لا تكفي لتهجين القراءة، لأن الهجنة تبدأ عندما تشارك التقنية في العمليات المعرفية ذاتها. وثانيها أن كلما اتسع توزيع الوظائف المعرفية ازدادت الحاجة إلى مركزية المسؤولية البشرية .وثالثها أن الخوارزمية لا تحتاج إلى إنتاج المعنى لكي تؤثر فيه، لأن ترتيب ما يصل إلى القارئ يؤثر في مجال ما يستطيع أن يعنيه النص بالنسبة إليه .ورابعها أن التخصيص يزيد الملاءمة لكنه قد يقلل المصادفة، ولذلك ينبغي قياس جودة البيئة القرائية بقدرتها على الجمع بين الاثنين.

أما المبدأ الخامس فهو أن الذكاء الاصطناعي يصبح شريكًا تأويليًا وظيفيًا عندما تدخل اقتراحاته في دورة بناء المعنى ويعود القارئ فيختبرها، لكنه لا يصبح شريكًا إنسانيًا مماثلًا في التجربة والمسؤولية .ويتمثل السادس في أن قيمة مشاركة الآلة في التأويل تقاس بقدرتها على إعادة القارئ إلى النص، لا بقدرتها على إعفائه من النص .ويتمثل السابع في أن الوعي بالوسيط يتناسب في ضرورته مع درجة تدخل الوسيط .ويتمثل الثامن في أن أفضل استخدام للذكاء الاصطناعي يحتاج إلى قارئ يعرف ما يكفي لكي لا يصدقه دائمًا.

ويأتي المبدأ التاسع ليجمع البعد الأخلاقي :الهجنة ليست تفويضًا للسيادة؛ فالوظائف يمكن أن تتوزع، لكن المسؤولية عن الموقف الذي يصبح جزءًا من الحياة الثقافية تظل بشرية. أما المبدأ العاشر فيتمثل في أن القارئ الهجين النقدي لا يستخدم أقل تقنية بالضرورة، بل يستخدمها مع قدر أكبر من معرفة حدودها.

ومن هنا لا يكون مشروع القارئ الهجين دفاعًا عن الإنسان ضد الآلة أو عن الآلة ضد الإنسان، بل محاولة لتأسيس لغة نقدية قادرة على وصف العلاقة عندما يصبح الفصل البسيط بينهما غير كافٍ، مع الاحتفاظ بالحدود التي تمنع التكامل من أن يتحول إلى مساواة أنطولوجية.

خاتمة الفصل الخامس عشر

أظهر الفصل الخامس عشر أن مستقبل القراءة لا يمكن التفكير فيه من خلال سؤال الأجهزة الجديدة وحدها، لأن التحول الأعمق يقع في درجة ظهور الوساطة داخل الممارسة .وقد قدم تصور وايزر للحوسبة المنتشرة وفكرة التكنولوجيا الهادئة خلفية لفهم الانتقال من الحاسوب الذي يحتل مركز الانتباه إلى التقنية التي تندمج في البيئة وتعمل أحيانًا في هامشه [1][2]، وهو الانتقال الذي سمح للفصل باقتراح مفهوم «الخوارزمية المحيطية» بوصفها خوارزمية لا تقل قوتها حين تختفي عن الواجهة، بل قد تصبح أكثر اندماجًا في شروط النشاط.

وانطلاقًا من ذلك عرف الفصل القراءة ما بعد الخوارزمية بوصفها مفهومًا استشرافيًا مقترحًا، يشير إلى حالة تصبح فيها الوساطة الخوارزمية والذكاء الاصطناعي جزءًا مستمرًا ومحيطيًا من الاختيار والاسترجاع والفهم والذاكرة والمقارنة والتأويل، بحيث تنتقل المشكلة النقدية من اكتشاف وجود الخوارزمية إلى الحفاظ على القدرة على تمييز وظائفها ومساءلتها داخل اندماجها. ولا يعني «ما بعد» انتهاء الخوارزمية، بل انتقالها من الاستثناء إلى الاعتياد.

كما أعاد مبحث الذات القارئة المشتركة ربط المشروع بالعقل الممتد والإدراك الموزع؛ إذ تقدم أعمال كلارك وتشالمرز وهاتشينز خلفية تسمح بفهم بعض الأنشطة المعرفية بوصفها ممتدة أو موزعة على الإنسان والبيئة [3][4]، بينما يسمح كلارك بفهم الميل البشري إلى دمج التقنيات في الممارسة المعرفية [5]. غير أن الفصل وضع حدًا صارمًا لهذا الامتداد من خلال مفهوم التكامل المعرفي غير المتماثل؛ فالإنسان والآلة يستطيعان أن يشتركا في أداء وظيفة، لكنهما لا يمتلكان النوع نفسه من التجربة أو القصد أو المسؤولية.

وأتاح أفق ما بعد الإنساني توسيع السؤال من القدرة إلى الهوية، مستفيدًا من أعمال هايلز وهاراواي وبرايدوتي وفيراندو [6][8][9][10] التي، رغم اختلافها،

تزعزع التصور الصلب للإنسان بوصفه كيانًا مستقلًا عن التقنيات والبيئات، مع احتفاظ هذا الكتاب بمبدأ عدم مساواة الإنسان بالنظام الاصطناعي. ومن هنا ظهر القارئ المعزز بوصفه امتدادًا لتاريخ طويل من استخدام الأدوات، لا مخلوقًا ظهر فجأة مع الذكاء الاصطناعي.

وقد سمح تحليل الهوية القرائية بالتمييز بين الذات التي يعرف بها الإنسان نفسه والملف الخوارزمي الذي تبنيه الأنظمة عن سلوكه، وبيّن أن الخطر لا يكمن فقط في التوصيات الخاطئة، بل في تحول الماضي المسجل إلى معيار يحدد المستقبل. ومن هنا أصبحت إحدى صور الحرية الثقافية حق القارئ في أن يصبح قارئًا لم تتنبأ به بياناته السابقة.

وفي المبحث الخامس اكتمل النموذج الرباعي للتلقي الهجين الذي يجعل القارئ والنص والخوارزمية والسياق الأقطاب الأربعة للتحليل؛ فالقارئ يحمل الخبرة والمسؤولية، والنص يقدم الإمكانات والقيود ، والخوارزمية تؤدي الوظائف الوسيطية من الاختيار إلى التوليد ، بينما يحدد السياق التاريخي والثقافي والمؤسسي قابلية المعاني للدفاع عنها. ولا يختزل النموذج المعنى في أي قطب منفرد ، بل يجعله نتاج العلاقات التي تنشأ بينها.

وانتهى المبحث السادس إلى صياغة نواة نظرية عامة للقارئ الهجين تقوم على أن الهجنة درجات وليست هوية ثنائية، وأنها تتحدد بتوزيع الوظائف أكثر مما تتحدد بنوع الجهاز، وأن ارتفاع درجة التقنية لا يساوي ارتفاع جودة القراءة، وأن التكامل الناضج يتطلب ارتفاع الوعي النقدي بالتناسب مع المبادرة الآلية. ومن هنا أصبح النموذج قادرًا على التمييز بين الهجنة البسيطة والشبكية والمعززة والتوليدية والميتا خوارزمية وما بعد الخوارزمية دون تحويل هذا التدرج إلى سلم قيمي أو تاريخ محتوم.

وتقود هذه العناصر إلى الصياغة النظرية الأوسع التي يصل إليها الكتاب في نهاية هذا الفصل :القارئ الهجين هو فاعل بشري تتوزع بعض وظائف قراءته بين قدراته الداخلية وبيئة تقنية ـ خوارزمية، ويظل قادرًا على تنظيم درجة هذا التوزيع ومساءلته والتحقق من نتائجه، بينما يتشكل المعنى داخل

علاقة رباعية بين القارئ والنص والخوارزمية والسياق، مع بقاء المسؤولية التأويلية النهائية بشرية.

أما القارئ ما بعد الخوارزمي فيمثل الحد الاستشرافي لهذه النظرية، ويمكن تعريفه بأنه :قارئ يعيش داخل بيئة تصبح فيها الوساطة الخوارزمية والذكاء الاصطناعي جزءًا محيطيًا واعتياديًا من القراءة، بحيث لا يتحدد استقلاله بقدرته على تجنب التقنية، بل بقدرته على إبقاء الوساطة قابلة للوعي والمراجعة والتغيير، وعلى الحفاظ على إمكانية العودة إلى النص وإلى حكمه الإنساني رغم عمق اندماج النظام في نشاطه.

ومن هنا تتضح العلاقة النهائية بين المفاهيم الكبرى التي بناها الكتاب:

القارئ الرقمي يقرأ عبر الوسيط الإلكتروني.
القارئ الشبكي يتحرك بين النصوص والروابط والمصادر.
القارئ المعزز يوسع بعض قدراته بواسطة الأدوات.
القارئ الهجين يوزع بعض وظائف القراءة بينه وبين التقنية.
القارئ التوليدي يدخل في حوار مع نظام ينتج خطابًا جديدًا.
القارئ الميتا خوارزمي يجعل الوساطة نفسها موضوعًا للنقد.
القارئ ما بعد الخوارزمي يعيش داخل بيئة أصبحت فيها الوساطة محيطية، مع الاحتفاظ بالقدرة على استدعاء الوعي النقدي والسيادة التأويلية.

ولا يمثل هذا التسلسل سبع شخصيات منفصلة، بل سبعة أوضاع يمكن أن يتحرك بينها الإنسان نفسه، وهو ما يجعل مفهوم القارئ الهجين أوسع منها جميعًا بوصفه الإطار الذي يجمعها.

ويمكن أخيرًا اختزال التحول النظري الذي سعى إليه هذا الكتاب في الانتقال من النموذج القديم:

القارئ ↔ النص

إلى النموذج:

القارئ ↔ النص ↔ الخوارزمية ↔ السياق

على ألا تفهم الأسهم بوصفها علاقات خطية، بل شبكة من التأثير المتبادل غير المتماثل، لأن النص لا يعمل كالقارئ، والخوارزمية لا تعمل كالسياق، والإنسان لا يعمل كالآلة، لكن المعنى المعاصر يمكن أن يتشكل من التفاعل بينها جميعًا.

وعند هذه النقطة يصبح الانتقال إلى الخاتمة العامة للكتاب ضروريًا ، لأن السؤال الذي بدأ بتاريخ انتقال القارئ من الهامش إلى مركز النظرية ينتهي إلى إعادة تعريف المركز نفسه؛ فمن موت المؤلف الذي جعل النقد الحديث يبحث عن النص والقارئ، نصل إلى ولادة القارئ الهجين الذي لا يمكن فهمه من دون النص والخوارزمية والسياق. وسوف تكون مهمة الخاتمة العامة جمع هذه النتائج، وربط القارئ الهجين بالكاتب الهجين والنص الهجين، ثم بيان الحاجة إلى مستوى رابع يكمل هذه الحلقة، هو النقد الهجين بما يتضمنه من النقد الميتا خوارزمي والنقد ما بعد الخوارزمي.

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Weiser, Mark.** "The Computer for the 21st Century." *Scientific American*, Vol. 265, No. 3, September 1991, pp. 94–104.

يمثل النص أحد المراجع المؤسسة لفكرة الحوسبة المنتشرة التي تندمج في البيئة اليومية وتتراجع معها مركزية الحاسوب بوصفه جهازًا ظاهرًا، ويُستفاد منه في بناء مفهوم انتقال الخوارزمية من الأداة المرئية إلى الوساطة المحيطية.

[2] **Weiser, Mark & Brown, John Seely.** "The Coming Age of Calm Technology." Xerox PARC, 1996.

يطرح النص مفهوم «التكنولوجيا الهادئة» التي تتحرك بين مركز الانتباه وهامشه وتندمج بصورة أعمق في البيئة اليومية، ويُستفاد منه في تحديد معنى اختفاء الوسيط داخل فعل القراءة دون افتراض اختفاء أثره.

[3] **Clark, Andy & Chalmers, David.** "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.

مرجع تأسيسي لأطروحة العقل الممتد، ويُستفاد منه في التفكير في الحالات التي تستطيع فيها الموارد الخارجية، ضمن شروط وظيفية محددة، أن تدخل في النظام المعرفي بدل التعامل معها دائمًا بوصفها عناصر منفصلة عنه.

[4] **Hutchins, Edwin.** *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

يقدم إطار الإدراك الموزع ودراسة الأنظمة المعرفية التي تتوزع عملياتها بين البشر والأدوات والتمثيلات داخل بيئات ثقافية، ويشكل أحد الأسس الرئيسة لمفهوم «الذات القارئة المشتركة.«

[5] **Clark, Andy.** *Natural-Born Cyborgs: Minds, Technologies, and the Future of Human Intelligence*. New York: Oxford University Press, 2003.

يبحث في قدرة البشر على دمج الأدوات والممارسات التقنية في أنشطتهم

المعرفية، ويُستفاد منه في تأسيس مفهوم القارئ المعزز وفي تجنب حصر «الهجنة» في الاندماج الجسدي المباشر بين الإنسان والآلة.

[6] Hayles, N. Katherine. *How We Became Posthuman: Virtual Bodies in Cybernetics, Literature, and Informatics*. Chicago: University of Chicago Press, 1999.

مرجع مركزي في دراسات ما بعد الإنساني والعلاقة بين المعلومات والتجسد والتقنيات، ويُستفاد منه في الحفاظ على أهمية الجسد والتاريخ المادي أمام التصورات التي تميل إلى التعامل مع المعرفة بوصفها معلومات منفصلة عن التجربة الإنسانية.

[7] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.

تطور هايلز مفهوم «التولد التقني» وتناقش التفكير من خلال الوسائط ومعها وبمحاذاتها، وتقدم أساسًا مهمًا لفهم تطور العادات المعرفية والقرائية في العلاقة المستمرة مع التقنيات الرقمية.

[8] Haraway, Donna J. *Simians, Cyborgs, and Women: The Reinvention of Nature*. New York/London: Routledge, 1991.

يضم الكتاب «بيان السايبورغ» وأعمالًا تفكك عددًا من الحدود الصلبة بين الطبيعة والثقافة والإنسان والآلة، ويُستفاد منه بوصفه خلفية نقدية لمفهوم الهجنة دون نقل صورة السايبورغ مباشرة إلى القارئ أو مساواة الإنسان بالنظام الاصطناعي.

[9] Braidotti, Rosi. *The Posthuman*. Cambridge, UK: Polity Press, 2013.

يقدم معالجة فلسفية ونقدية لمفهوم ما بعد الإنساني وللذات العلائقية والمتعددة داخل مجتمعات شديدة الوساطة التقنية، ويُستفاد منه في مساءلة التصور التقليدي للهوية القرائية بوصفها وحدة فردية مكتفية بذاتها.

[10] Ferrando, Francesca. *Philosophical Posthumanism*. London/New York: Bloomsbury Academic, 2019.

يقدم تمييزًا منهجيًا بين ما بعد الإنسانية الفلسفية والتيارات المتصلة بها مثل الترانسإنسانية، ويعالج العلاقة بالإنسان والتقنية والبيئة من منظور الوساطة والعلاقات، وهو ما يفيد في ضبط استعمال «ما بعد الإنساني» في هذا الفصل ومنع مساواته آليًا بفكرة الإنسان المحسن تقنيًا.

[11] Jauss, Hans Robert. *Toward an Aesthetic of Reception*. Translated by Timothy Bahti. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.

يشكل أحد الأسس التي انطلق منها الكتاب في إعادة بناء مفهوم القارئ وأفق الانتظار، ويُستفاد منه في الحفاظ على البعد التاريخي والاجتماعي للتلقي داخل النموذج الرباعي المقترح.

[12] Iser, Wolfgang. *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.

مرجع أساسي لفعل القراءة ودور القارئ في تحقيق إمكانات النص وملء مناطق عدم التحديد، ويظل ضروريًا داخل النظرية الجديدة للحفاظ على التمييز بين نشاط القارئ والمساعدة التي تقدمها البيئة التقنية.

[13] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014, pp. 167–194. DOI: 10.7551/mitpress/9780262525374.003.0009.

يقدم أساسًا لدراسة الخوارزميات ضمن العلاقات الاجتماعية والثقافية والمؤسساتية التي تمنحها قوتها، ويُستفاد منه في تحديد موقع الخوارزمية داخل النموذج الرباعي بوصفها فاعلًا وسيطيًا لا قناة محايدة.

[14] Picard, Rosalind W. *Affective Computing*. Cambridge, MA: MIT Press, 1997.

يمثل أحد الأعمال المبكرة المؤسسة للبحث في قدرة الأنظمة الحاسوبية على التعرف إلى الإشارات المرتبطة بالحالات الانفعالية والاستجابة إليها، ويُستفاد منه بوصفه خلفية تاريخية لإمكان تحول البيئات الحاسوبية من

أنظمة تستجيب للأوامر الصريحة فقط إلى أنظمة أكثر حساسية للسياق، من دون إسناد تجربة عاطفية بشرية إلى النظام.

خلاصة مرجعية للفصل

تنتظم مرجعيات هذا الفصل في أربع دوائر نظرية متداخلة؛ إذ تقدم أعمال وايزر ووايزر وبراون [1][2] الخلفية الأساسية لمفهوم التقنية المحيطية التي تتراجع عن مركز الانتباه كلما اندمجت في البيئة، وتسمح أعمال كلارك وتشالمرز وهاتشينز وكلارك [3–5] بفهم امتداد بعض العمليات المعرفية وتوزعها بين الإنسان والأدوات والبيئات، وهو الأساس الذي بُني عليه مفهوم الذات القارئة المشتركة مع الاحتفاظ بعدم التماثل بين الإنسان والآلة. وتقدم أعمال هايلز وهاراواي وبرايدوتي وفيراندو [6–10] الخلفية اللازمة لمساءلة حدود الذات الإنسانية وعلاقاتها بالتكنولوجيا، مع ضرورة التمييز بين المناهج المختلفة داخل حقل ما بعد الإنساني وعدم استعماله مرادفًا بسيطًا للتعزيز التقني. أما ياوس وإيزر وغيليسبي [11–13] فيربطون النموذج الجديد بتاريخ نظرية التلقي وبفعل القراءة وبالوساطة الخوارزمية، في حين يوفر عمل بيكارد [14] خلفية تاريخية لمسار الأنظمة التي تسعى إلى جعل التفاعل الحاسوبي أكثر استجابة إلى السياق الإنساني.

ومن تقاطع هذه المرجعيات يتأسس الاقتراح النظري النهائي للفصل :إن مستقبل القراءة لا يتجه بالضرورة إلى اختفاء الإنسان داخل الآلة أو إلى استبدال القراءة بالتوليد، وإنما إلى بيئات تتزايد فيها إمكانية توزيع الوظائف المعرفية بين الإنسان والتقنية؛ ولذلك تصبح القضية المركزية لنظرية القارئ الهجين هي كيفية تحويل هذا التوزيع من تبعية غير مرئية إلى تكامل معرفي غير متماثل يحافظ على النص والسياق والاختلاف وعلى مسؤولية الإنسان عن الحكم.

وتصبح الصيغة الجامعة للنظرية، في خاتمة الفصل الخامس عشر، هي:

القارئ الهجين = ذات بشرية مسؤولة + نص مقاوم للاختزال + وسيط خوارزمي قابل للمساءلة + سياق تاريخي وثقافي مراجع.

أما المعنى الذي ينتج من هذه العلاقة، فلا ينبغي أن يسمى آليًا ولا بشريًا خالصًا إذا كانت التقنية قد شاركت فعليًا في جينالوجيا بنائه، بل يمكن وصفه بأنه معنى هجين ذو مسؤولية بشرية؛ وهي الصيغة التي تمهد مباشرة للخاتمة العامة للكتاب» :من موت المؤلف إلى ولادة القارئ الهجين.«

ملاحظة توثيقية خارج متن الفصل **:جرى التحقق من بيانات مقال مارك وايزر المنشور في** *Scientific American* **في شتنبر** 1991**، ومن تصوره للحوسبة التي تندمج في البيئة اليومية، كما تم التحقق من نص وايزر وبراون حول «التكنولوجيا الهادئة** (Scientific American) **.«وتم التحقق من بيانات «العقل الممتد» لكلارك وتشالمرز، ومن كتاب هاتشينز حول الإدراك الموزع، ومن كتاب كلارك حول الإنسان والتقنيات المدمجة في النشاط المعرفي** (DOI) **.كما تم التحقق من بيانات أعمال هايلز وهاراواي وبرايدوتي وفيراندو ذات الصلة بما بعد الإنساني والتولد التقني والحدود بين الإنسان والتقنية**(University of Chicago Press) .

الخاتمة العامة

من موت المؤلف إلى ولادة القارئ الهجين

لم يكن «موت المؤلف» الذي ارتبط بصورة رمزية وحاسمة بتحولات النقد الأدبي في النصف الثاني من القرن العشرين إعلانًا عن اختفاء الكاتب من الحياة الأدبية، بقدر ما كان تفكيكًا لسلطة قصدية جعلت معنى النص تابعًا لمصدر واحد سابق على القراءة، وقد أسهم رولان بارت في زحزحة هذه السلطة عندما ربط تحرير الكتابة من هيمنة الأصل المؤلفي ببروز القارئ بوصفه الموقع الذي تلتقي فيه تعددية الكتابة [1]، ثم جاءت جماليات التلقي ونظريات الاستجابة لتجعل هذه النقلة أكثر تركيبًا، إذ لم يعد القارئ مجرد مستهلك يأتي بعد اكتمال النص، وإنما أصبح عند ياوس حاملًا لأفق تاريخي تتشكل داخله توقعات القراءة وتتغير عبر الزمن [2]، وعند إيزر فاعلًا يحقق إمكانات العمل ويربط بين منظورات النص ويملأ مناطق عدم التحديد [3]، وعند إيكو شريكًا في التعاون التأويلي من دون أن تمنحه هذه المشاركة سلطة غير محدودة في جعل النص يقول أي شيء [4]، بينما أظهر فيش أن فعل القراءة نفسه لا يقع خارج الجماعات والاستراتيجيات التأويلية التي تحدد ما يصبح قابلًا للفهم داخل ثقافة ما [5]. وإذا كانت هذه المسارات قد صنعت، كل بطريقتها، «ولادة القارئ» بعد زحزحة مركزية المؤلف، فإن التحولات الرقمية والخوارزمية والذكاء الاصطناعي تضعنا اليوم أمام ولادة أخرى لا تلغي القارئ الذي أسسته تلك النظريات، بل تعيد تحديد شروط وجوده :**ولادة القارئ الهجين**.

ولا تعني هذه الولادة أن القارئ أصبح نصف إنسان ونصف آلة، ولا أن الحدود بين الوعي البشري والنظام الاصطناعي قد انهارت، ولا أن التأويل انتقل من الذات الإنسانية إلى الخوارزمية، وإنما تعني أن فعل القراءة نفسه أصبح، في عدد متزايد من الممارسات، موزعًا وظيفيًا على بنية أوسع من العقل الفردي، بحيث يتدخل محرك البحث في الوصول، ونظام التوصية في الاختيار، والمنصة في ترتيب الظهور، والترجمة الآلية في عبور اللغة، والتلخيص في

ضغط المادة، والذكاء الاصطناعي التوليدي في الشرح والمقارنة واقتراح الفرضيات، بينما يظل الإنسان الطرف الذي يقرأ من داخل جسد وذاكرة وسيرة ولغة وقيم، والطرف الذي ينبغي أن يحتفظ بالمسؤولية عن الحكم الذي يخرج به من هذه الدورة. ويتقاطع هذا التصور مع التحولات التي ناقشتها هايلز في علاقة التفكير بالوسائط والتولد التقني المشترك [6]، ومع أطروحة العقل الممتد عند كلارك وتشالمرز [7]، ومع الإدراك الموزع عند هاتشينز [8]، لكنه يستخدم هذه الخلفيات لإعادة التفكير في القراءة تحديدًا، لا للقول إن الإنسان والآلة كيان معرفي واحد بلا حدود.

لقد انطلق هذا الكتاب من فرضية تبدو، بعد اكتمال مساره، أكثر وضوحًا مما كانت عليه في البداية: القارئ المعاصر لا يمكن تعريفه فقط بما يقرأ، ولا بالحامل الذي يقرأ عليه، بل كذلك بكيفية توزيع الوظائف التي يتكون منها فعل القراءة وبمقدار وعيه بالوسائط التي تشارك فيها .ولهذا كان الانتقال من القارئ التقليدي إلى القارئ الرقمي ثم الشبكي والمعزز والتوليدي والميتا خوارزمي وما بعد الخوارزمي انتقالًا بين أوضاع للقراءة لا بين أنواع بشرية منفصلة، وكان «القارئ الهجين» المفهوم الجامع الذي يسمح بوصف هذه التحولات من دون الوقوع في حتمية تقنية تجعل كل استخدام للشاشة أو للذكاء الاصطناعي دليلًا على ولادة قارئ جديد.

إن الخاتمة العامة لا تسعى، لذلك، إلى إعادة سرد الفصول الخمسة عشر في صورة مختصرة، وإنما إلى استعادة الأسئلة التي عبرتها من أجل تركيب نتائجها داخل نسق نظري واحد، ثم الانتقال بهذا النسق خطوة أخرى إلى الأمام من خلال ربط القارئ الهجين بالكاتب الهجين والنص الهجين، وبيان أن اكتمال هذا المثلث يقود بالضرورة إلى التفكير في نقد هجين لا يكتفي بقراءة النص، بل يقرأ كذلك عمليات إنتاجه ووسائط توزيعه وخوارزميات ظهوره وشروط تلقيه ومخرجات التأويل الاصطناعي التي تتشكل حوله.

1ـ النتائج النظرية الكبرى

تكشف النتيجة النظرية الأولى لهذا الكتاب أن القراءة لم تكن في أي مرحلة فعلًا ذهنيًا خالصًا مستقلًا عن الوسائط، غير أن الاعتراف بهذه الحقيقة لا يعني مساواة جميع أنواع الوساطة، لأن الكتاب المخطوط والمطبوع والشاشة ومحرك البحث ونظام التوصية والنموذج اللغوي لا تؤدي الوظائف نفسها ولا تدخل إلى العملية المعرفية بالعمق نفسه. ومن هنا كان من الضروري الفصل بين وجود الوسيط ودرجة مشاركته الوظيفية في القراءة؛ فالكتاب الورقي وسيط مادي ينظم الصفحة والإيقاع والعودة والذاكرة المكانية، بينما تستطيع المنصة الرقمية أن تضيف البحث والربط والتخصيص، ويستطيع الذكاء الاصطناعي التوليدي أن ينتقل من عرض المادة إلى إنتاج خطاب جديد عنها. وقد ساعدت دراسات الوسائط الرقمية عند هايلز [6] ومانوفيتش [18] على فهم أن الانتقال من الصفحة إلى الواجهة لا يغير الحامل وحده، بل يعيد ترتيب العلاقة بين المستخدم والمعلومات والعمليات الممكنة حول النص.

وتتمثل النتيجة الثانية في أن القراءة الرقمية ليست هي القراءة الهجينة، وهو تمييز كان ضروريًا لمنع التضخم المفهومي منذ بداية المشروع؛ فالقارئ الذي يفتح رواية إلكترونية ويقرأها من أولها إلى آخرها دون أن تشارك التقنية في وظائف الفهم أو الاختيار أو المقارنة يمارس قراءة رقمية، بينما يستطيع قارئ لكتاب ورقي أن يدخل في قراءة هجينة إذا استدعى الترجمة والبحث والسياق والذكاء الاصطناعي أثناء التلقي. ومن هنا أصبح الفرق الحاسم هو الفرق بين رقمنة الحامل وتهجين العملية المعرفية، بحيث تبدأ الهجنة حين تتوزع وظائف كانت تنجز داخل نشاط القارئ أو بواسطة وسائط بشرية تقليدية بين الإنسان وأنظمة رقمية وخوارزمية وتوليدية.

أما النتيجة الثالثة فهي أن الهجنة ليست حالة ثنائية يقال فيها إن القارئ إما هجين أو غير هجين، بل طيف من الدرجات يتغير بحسب كثافة الوساطة وعمق الوظيفة وتكرار الاستعمال ومقدار مبادرة النظام وأثر مخرجاته في

التأويل. وقد ظهرت في هذا الطيف هجنة بسيطة وأخرى شبكية واجتماعية ومعززة وتوليدية، ثم ظهر البعد الميتا خوارزمي بوصفه قدرة نقدية يمكن أن ترافق هذه الأنماط جميعًا، لأن القارئ الذي يستخدم التقنية بكثافة ليس بالضرورة أكثر وعيًا بها، كما أن القارئ الذي يستخدمها بقدر محدود قد يمتلك قدرة أعلى على مساءلتها.

وتتمثل النتيجة الرابعة في أن درجة **الهجنة لا تقيس جودة القراءة** . فالكتاب لا يقترح سلمًا تقدميًا يصبح فيه القارئ أفضل كلما استعان بتقنيات أكثر، بل يؤكد أن العلاقة قد تتحول من تعزيز إلى اعتماد ومن توسيع إلى تضييق ومن توفير للوقت إلى إلغاء للمجهود المعرفي المنتج. ولذلك كان مفهوم «اقتصاد التدخل الآلي» ضروريًا لإعادة صياغة السؤال: لا ينبغي أن نسأل فقط ما الذي تستطيع الآلة فعله، وإنما ما الذي ينبغي لها أن تفعله في هذه المهمة تحديدًا، وما الوظيفة التي يحتاج القارئ إلى الاحتفاظ بممارستها لكي تظل لديه القدرة على تقييم الناتج.

وتتمثل النتيجة الخامسة في أن القراءة المعاصرة أصبحت، في جانب منها، **فعلًا معرفيًا موزعًا**، وهو ما يجد خلفية فلسفية في العقل الممتد والإدراك الموزع [7][8]، لكن هذا التوزيع لا يبرر القول إن المسؤولية موزعة بالمقدار نفسه. فقد تستطيع الآلة أن تسترجع وتحسب وتترجم وتقارن وتولد، لكن القارئ هو الذي يحول المخرج إلى موقف ويضعه داخل نص أو قرار أو قراءة منشورة، ولذلك وصل الكتاب إلى قاعدة تعد من أهم نتائجه :**كلما اتسع توزيع الوظائف المعرفية، ازدادت الحاجة إلى مركزية المسؤولية البشرية.**

وتتمثل النتيجة السادسة في أن الخوارزمية ليست قناة محايدة إلى النص، لأن الترتيب والتوصية والبحث والتخصيص تؤثر في ما يصبح مرئيًا وما يتراجع حضوره، وقد أوضح غيليسبي أن الخوارزميات تتدخل في تحديد الصلة والإدراج والترتيب داخل أنظمة اجتماعية وتقنية أوسع [9]، بينما بينت بوخر أن القوة الخوارزمية لا يمكن اختزالها في الشفرة بل ينبغي فهمها داخل العلاقات والممارسات التي تجعلها مؤثرة [10]، وأظهر هالينان وستريبهاس أن

تحويل الذوق والتفضيلات إلى عمليات حسابية يشارك في إنتاج ما يمكن تسميته ثقافة خوارزمية [11]. ومن هنا كانت العبارة التي تكررت عبر الكتاب :**حرية الاختيار داخل القائمة لا تلغي سلطة تشكيل القائمة نفسها.**

وتؤدي هذه النتيجة إلى أخرى أكثر ارتباطًا بنظرية التلقي، هي أن الاستقبال لم يعد يبدأ بالضرورة عند فتح الكتاب، فقد تبدأ القراءة في مستوى من التوقع سبق النص، عبر التوصية والتقييم والتصنيف والتشبيه بما سبق للقارئ أن أحبه، وهو ما قاد إلى تطوير مفهوم »**أفق الانتظار الخوارزمي** « انطلاقًا من أفق الانتظار عند ياوس [2]. ولا يحل الأفق الجديد محل البنية التاريخية والثقافية والاجتماعية للتوقع، لكنه يضيف إليها طبقة شخصانية يمكن أن تنتجها أو تقويها أنظمة التخصيص، بحيث يصبح الماضي القرائي للفرد قابلًا لأن يعود إليه في صورة اقتراح لما ينبغي أن يقرأ لاحقًا.

وتتمثل نتيجة أخرى في أن القراءة لم تعد خطًا ينتهي عند القارئ، لأن التفاعل والمراجعة والتقييم والاقتباس والمشاركة تنتج آثارًا يمكن أن تعود إلى النظام وتؤثر في ظهور النصوص للآخرين، وبذلك يصبح القارئ **مستقبلًا ومنتجًا للمعنى ومنتجًا للبيانات في الوقت نفسه** .وقد كشفت الثقافة التشاركية عند جنكينز عن التحول من الجمهور المتلقي إلى الجمهور المشارك في إعادة التداول والإنتاج [12]، بينما تظهر دراسات القراءة الاجتماعية الرقمية أن المراجعة والتعليق والمناقشة والمشاركة أصبحت أجزاء قابلة للرصد من الحياة المعاصرة للكتب [13]. ومن هنا أصبحت دورة التلقي أكثر تعقيدًا: ما بعد قراءة فرد قد يتحول إلى ما قبل قراءة فرد آخر.

وتتمثل نتيجة مركزية أخرى في أن الذكاء الاصطناعي التوليدي أحدث تحولًا مختلفًا عن خوارزميات التوصية؛ فالأخيرة تعيد ترتيب **ما يصل إلى القارئ**، بينما يستطيع النظام التوليدي أن يدخل في **ما يقال عن النص أثناء القراءة**، فيشرح ويلخص ويترجم ويقارن ويقترح تأويلات. ومن هنا انتقل الكتاب من الوساطة الخوارزمية إلى **الوساطة المعرفية الذكية**، ثم إلى

مفهوم «الشريك التأويلي الوظيفي»، مع التشديد على أن كلمة «شريك» تشير إلى مشاركة في الوظيفة لا إلى تطابق في الوعي والوجود.

ومن هذه النتيجة ظهر التمييز الذي ينبغي أن يبقى في قلب النظرية كلها : **الإنسان يؤول من داخل تجربة، أما الآلة فتولد من داخل معالجة** .يستطيع النظام أن يولد خطابًا عن الحب أو الفقد أو المنفى أو الخوف، وأن يقدم قراءات مترابطة ومقنعة، لكنه لا يعيش هذه الخبرات ولا يتحمل المسؤولية الأخلاقية عن موقعه منها، ولذلك لا ينبغي أن تؤدي قدرته اللغوية إلى محو الاختلاف الأنطولوجي بين الفاعل الإنساني والنظام الاصطناعي. وقد مثل النقد الموجه إلى أنسنة النماذج اللغوية وإلى مساواة طلاقتها بالفهم تنبيهًا ضروريًا في هذا المجال.[19]

وتتمثل نتيجة أخرى في أن التأويل التوليدي لا يكتسب قيمته من عدد القراءات التي تستطيع الآلة إنتاجها، بل من الطريقة التي تدخل بها هذه القراءات إلى دورة النقد. وإذا قبل القارئ أول معنى مقنع ظهر له، انتقل من التأويل الهجين إلى ما سميناه **التلقين الخوارزمي**، أما إذا عامل المخرج بوصفه فرضية ثم عاد إلى النص والسياق والمصادر، فإن النظام يتحول إلى مولد للاختلاف بدل أن يكون مصدرًا للسلطة. ومن هنا جاءت الصيغة التي تلخص المنهج :**الآلة تقترح، والقارئ يختبر، والنص يحكم، والسياق يراجع، والإنسان يتحمل المسؤولية**.

وتتمثل النتيجة الأخيرة في هذه المجموعة في أن ازدياد الوساطة استدعى ظهور مستوى جديد من الوعي هو **القراءة الميتا خوارزمية**، إذ لم يعد يكفي أن يعرف القارئ مضمون النص أو أن يتقن استخدام الأداة، بل أصبح عليه، عندما تكون الوساطة ذات أثر، أن يسأل لماذا ظهر هذا المحتوى، وما الذي ربما لم يظهر، ومن أين جاءت الإجابة، وما درجة التخصيص، وما البدائل التي يمكن أن يحصل عليها إذا غير السؤال أو النظام. ويتصل هذا المستوى بمفهوم الثقافة في الذكاء الاصطناعي الذي يجعل تقييم الأنظمة وفهم

حدودها جزءًا من كفايات المستخدم المعاصر [14]، لكنه يتجاوزه إلى مجال التأويل الأدبي، حيث تصبح الوساطة نفسها موضوعًا للقراءة.

وإذا جمعت هذه النتائج داخل صيغة واحدة، أمكن القول إن الكتاب انتقل من فرضية أولى مؤداها أن القراءة المعاصرة تتغير بسبب الوسائط إلى نتيجة أكثر تحديدًا :القراءة تدخل مرحلة يصبح فيها بعض فعلها موزعًا بين الإنسان وبيئته التقنية، بينما تتدخل الخوارزميات بصورة غير محايدة في شروط الوصول، ويضيف الذكاء الاصطناعي التوليدي مستوى حواريًا قادرًا على التأثير في الشرح والمقارنة وتوليد الفرضيات، ومن هذا التداخل ينشأ القارئ الهجين بوصفه فاعلًا بشريًا موسع القدرات لكنه مطالب بوعي نقدي ومسؤولية أعلى كلما ازدادت مساهمة النظام في إنتاج المعنى.

2ـ إعادة تعريف مفهوم القارئ

إذا كان القارئ في بعض التصورات القديمة يمثل الطرف الذي يأتي في نهاية سلسلة تبدأ بالمؤلف ثم النص، وإذا كانت نظريات التلقي قد نقلته إلى مركز الفعل التأويلي [2][3]، فإن القارئ الهجين يقتضي إعادة تعريف إضافية لا تلغي المكتسبات السابقة بل توسعها. لم يعد القارئ مجرد ذات تستقبل العلامات وتبني منها معنى، وإنما أصبح في عدد متزايد من الحالات فاعلًا جسديًا وثقافيًا يتحرك داخل بيئة معرفية موزعة، ويستعين بوسائط تستطيع التأثير قبل القراءة وأثناءها وبعدها، ثم يعيد هو نفسه إنتاج آثار تدخل في البيئة التي سيقرأ داخلها الآخرون.

ويحتفظ التعريف الجديد بالبعد الإنساني الذي قد يضيع في الخطابات التي تحتفي بالمزج بين الإنسان والآلة، لأن القارئ ليس وظيفة معالجة قابلة للتقسيم بالكامل؛ فهو يدخل إلى النص بذاكرة لا تتكون من معلومات فقط، بل من طفولة وتعليم ولغة وخسارات ورغبات ومواقف واحتكاكات اجتماعية، ويستطيع أن يتغير بسبب قراءة وأن يعيد ترتيب حياته أو موقفه الأخلاقي على ضوئها. أما النظام فيستطيع أن يقدم كلامًا شديد التعقيد عن هذه الخبرة، لكنه لا يحل محل كون الإنسان موضوعًا للتجربة وصاحبًا

للموقف .ومن هنا يكون تعريف القارئ الهجين مبنيًا على التكامل غير المتماثل لا على الاندماج المطلق.

ويمكن في ضوء جميع الفصول صياغة التعريف النهائي على النحو الآتي : القارئ الهجين هو قارئ بشري تتوزع بعض وظائف الوصول إلى النص واختياره وتنظيمه واسترجاع سياقه وترجمته وشرحه ومقارنته وتوليد فرضيات حوله، بدرجات متفاوتة، بين قدراته اللغوية والذاكرية والتأويلية وبين وسائط رقمية وخوارزميات وأنظمة ذكاء اصطناعي، ضمن علاقة تفاعلية يحتفظ فيها الإنسان بالقدرة على التحقق والاعتراض وتغيير الوسيط وبالمسؤولية عن الحكم التأويلي النهائي.

وتتضمن هذه الصيغة عناصر لا يمكن حذف أحدها من دون تغيير المفهوم؛ فصفة «البشري» تمنع أنسنة النظام، وعبارة «تتوزع بعض الوظائف» تمنع الاعتقاد بأن كل القراءة أصبحت آلية، وعبارة «بدرجات متفاوتة» تمنع تحويل الهجنة إلى حالة كلية، بينما تؤكد «القدرة على التحقق والاعتراض» أن الهجنة التي يدافع عنها الكتاب ليست تبعية تقنية، وتعيد «المسؤولية النهائية» وضع البعد الأخلاقي في مركز التعريف.

ومن هنا لا يتحدد القارئ بما يملكه من أدوات، لأن شخصين يستخدمان النظام نفسه قد يحققان نوعين مختلفين من القراءة؛ الأول يطلب منه تفسير العمل ويقبل النتيجة، والثاني يقرأ أولًا ثم يستخدم النظام لإنتاج اعتراضات على فرضيته ويعود إلى النص، وفي الحالتين توجد تقنية واحدة لكن البنية المعرفية للعلاقة مختلفة .ولذلك كانت العبارة الجامعة :الهجنة ليست مقدار التقنية داخل القراءة، بل طبيعة العلاقة النقدية التي يقيمها القارئ مع التقنية.

ويعيد التعريف كذلك النظر في الاستقلال، لأن القارئ المستقل لم يعد ذلك الفرد الذي يستطيع العمل دون أي مورد خارجي، وهو نموذج لم يطابق تاريخ الثقافة أصلًا، بل أصبح الاستقلال يعني القدرة على إدارة الاعتماد؛ أن يعرف القارئ ما الذي فوضه، وأن يستطيع استعادة المهمة حين يحتاج إلى

اختبار المخرج، وأن يغير الأداة إذا ضاقت زاويتها، وأن يغادر التخصيص إذا تحول إلى قيد، وأن يعود إلى النص إذا أصبح الشرح أكثر حضورًا من الأصل. وبذلك لا تكون السيادة التأويلية عزلة، بل قدرة على الاحتفاظ بموقع القرار داخل شبكة من المساعدات.

ويتغير كذلك مفهوم معرفة القارئ؛ فلم يعد المهم فقط ما يحفظه، بل كيف يوزع ذاكرته بين الداخل والخارج، وقد ساعد العقل الممتد والإدراك الموزع على إعطاء هذه الفكرة أساسًا فلسفيًا [7][8]. غير أن الكتاب ميز بين التوزيع المعرفي والتفويض المعرفي؛ فقد يستخدم الفرد محرك البحث بوصفه ذاكرة خارجية من دون أن يفقد معرفته بالمجال، بينما يستطيع أن يفوض من العمليات ما يجعله غير قادر لاحقًا على تقييم النتيجة. ومن هنا تتحدد جودة الهجنة بقدرة القارئ على ألا يفوض وظيفة الحكم إلى الأداة التي يحتاج إلى الحكم عليها.

ويضاف إلى ذلك أن القارئ الجديد ليس مستقبلًا للمعنى فقط، بل منتجًا لنصوص موازية ومراجعات وتعليقات وملخصات ومحتوى بصري وسمعي، وقد أظهرت الثقافة التشاركية والقراءة الاجتماعية الرقمية اتساع هذا الدور [12][13]. ومن هنا يتغير موقعه داخل الاقتصاد الثقافي؛ فهو قارئ للنص، وكاتب حوله، ومصدر للبيانات، ومؤثر محتمل في قابلية العمل للاكتشاف، وهو ما يجعل مفهوم «القارئ المنتج» جزءًا من مفهوم القارئ الهجين لا مرحلة منفصلة عنه.

وينبغي، أخيرًا، ألا يتحول تعريف القارئ الهجين إلى هوية قسرية تفرض على الجميع أن يعيشوا بالطريقة نفسها. يستطيع الفرد أن يعود إلى القراءة الورقية الصامتة من دون أن يكون «أقل تطورًا»، وأن ينتقل في اليوم نفسه بين قراءة بلا أدوات وقراءة معززة وحوار توليدي؛ ولذلك يكون القارئ الهجين قدرة على التنقل بين أوضاع القراءة أكثر من كونه حالة دائمة. ومن هنا تصبح المرونة، بما فيها القدرة على عدم استخدام الأداة، واحدة من علامات النضج التقني لا نقيضًا له.

3ـ الانتقال من ثنائية القارئ ← النص إلى منظومة القارئ ↔ النص ↔ الخوارزمية ↔ السياق

لا يعني الانتقال من النموذج الثنائي إلى النموذج الرباعي أن العلاقة القديمة بين القارئ والنص كانت خطأ ينبغي التخلي عنه، فقد ظلت وستظل النواة التي يحدث عندها التلقي الأدبي، وإنما يعني أن الاكتفاء بها لم يعد قادرًا على تفسير جميع الشروط التي أصبحت تتدخل في هذه العلاقة. فالقارئ لا يواجه نصًا يأتي من فراغ، والنص لا يصل إليه دائمًا بالطريق نفسه، والخوارزمية لا تعمل خارج المؤسسات والثقافات، بينما السياق ليس خلفية خاملة بل قوة تشارك في تحديد ما يصبح دالًا ومشروعًا ومفهومًا.

ومن هنا يقترح الكتاب النموذج:

القارئ ↔ النص ↔ الخوارزمية ↔ السياق

ولا ينبغي قراءة الأسهم بوصفها سلسلة تبدأ من اليسار وتنتهي في اليمين، بل علاقات تبادلية متشابكة. فالقارئ يؤثر في النص من خلال التفعيل والتأويل، والنص يقاوم القارئ من خلال بنيته وما يسمح به من أدلة، والخوارزمية تؤثر في علاقة القارئ بالنص من خلال الاختيار والترتيب والشرح والتخصيص، بينما ينتج القارئ بيانات وتفاعلات تعود إلى الخوارزمية، والسياق يؤثر في القارئ وفي معنى النص وفي تصميم الخوارزمية ومصادرها، كما تستطيع الأنظمة الخوارزمية أن تعيد تشكيل السياق الثقافي نفسه عبر زيادة ظهور بعض الأعمال والمفاهيم.

ويمثل القارئ في النموذج موضع التجربة والقصد والحكم، ويمثل النص موضع المادة الدلالية والمقاومة والبنية التي يجب اختبار التأويل فيها، وتمثل الخوارزمية الوسيط الحسابي القادر على الانتقاء والتنظيم والتوليد، بينما يمثل السياق شبكة التاريخ واللغة والثقافة والمؤسسة والجماعة والسوق التي لا يمكن عزل أي من الأقطاب الأخرى عنها. ومن هنا لا يكون أي عنصر منها كافيًا منفردًا لتفسير المعنى.

وتظهر أهمية النموذج الرباعي قبل القراءة، لأن الخوارزمية قد تعيد ترتيب مجال ظهور النصوص استنادًا إلى تاريخ المستخدم وسياق المنصة، فيدخل القارئ إلى النص بأفق انتظار تأثر بهذه العتبة، ثم تظهر أهميته أثناء القراءة حين يستدعي النظام شرحًا أو مقارنة أو ترجمة، وبعد القراءة حين تتحول الاستجابة إلى مراجعة أو تقييم أو بيانات. وبذلك يصبح النموذج قادرًا على استيعاب الأزمنة الثلاثة التي تأسس عليها «التلقي الخوارزمي :«خوارزمية الاختيار، وخوارزمية القراءة، وخوارزمية ما بعد القراءة.

ولا تعمل الخوارزمية، في هذا النموذج، كقطب مساوٍ للقارئ في نوع الفاعلية، وهذا أمر ينبغي التشديد عليه؛ فكل عنصر يدخل إلى النظام بطريقة مختلفة، ولذلك تكون الأسهم علاقات تأثير لا علاقات تطابق . تستطيع الخوارزمية أن تؤثر في معنى يصل إليه الإنسان، لكنها لا تعني بهذا المعنى ما يعنيه له؛ ويستطيع السياق أن يحدد شروط القراءة، لكنه ليس ذاتًا تقرأ؛ ويستطيع النص أن يفرض قيودًا، لكنه لا يختار كيف يستخدم القارئ الأداة.

ومن هنا يصبح «المعنى الهجين» اسمًا لمسار لا لملكية مشتركة؛ إنه معنى بشري نهائي دخلت في جينالوجيا تكوينه وظائف ومقترحات تقنية. ولا يمكن حساب هذه المشاركة بنسبة مئوية، لأن مخرجًا واحدًا يستطيع أن يغير اتجاه القراءة بينما تنتج الآلة مئات الجمل لا يستخدم منها القارئ شيئًا، ولذلك تقاس الهجنة بأثر الوظيفة داخل المسار لا بعدد الكلمات أو الأوامر.

ويمنح النموذج الرباعي للسياق مكانة خاصة تمنع الخوارزمية من أن تصبح التفسير السحري الجديد لكل شيء؛ فقد يكون كتاب ضعيف الظهور بسبب بنية سوق النشر لا الخوارزمية وحدها، وقد يتبنى القارئ قراءة لأنه تعلمها في الجامعة لا لأن النظام اقترحها، وقد تكون محدودية المصادر العربية ناتجة جزئيًا عن تاريخ الرقمنة والفهرسة. ومن هنا لا يجوز نقل مركزية المؤلف القديمة إلى مركزية الخوارزمية الجديدة، بحيث تصبح الآلة

«مؤلفًا خفيًا» لكل سلوك. إن النظرية التي يدافع عنها الكتاب هي نظرية للتوزيع والتفاعل، لا نظرية لاستبدال سبب واحد بسبب واحد آخر.

وتسمح هذه الرؤية بتقديم صيغة أكثر شمولًا لدورة التلقي:

سياق ثقافي وخبرة سابقة → مجال ظهور موسط → اختيار → نص → قراءة بشرية → تدخلات تقنية بدرجات متفاوتة → فرضيات ومعنى → تفاعل ومراجعة → بيانات وخطاب اجتماعي → إعادة ترتيب مجال الظهور → قراءة جديدة.

ويكشف هذا النموذج لماذا لم يعد القارئ نهاية السلسلة، ولماذا لا تستطيع نظرية التلقي المعاصرة أن تظل خطية، لأن النتائج تعود إلى المقدمات وتغير شروط الدورة التالية. ومن هنا يمكن وصف الثقافة الخوارزمية القرائية بأنها نظام تغذية راجعة بين الإنتاج والتلقي، لا مجرد نظام عرض للمحتوى.

4ـ القارئ الهجين والكاتب الهجين

يكتسب مفهوم القارئ الهجين معناه الأكثر اتساعًا حين يوضع في مواجهة المفهوم الذي سبق لهذا المشروع الفكري أن اشتغل عليه، وهو الكاتب الهجين؛ فدخول الذكاء الاصطناعي إلى الثقافة لا يحدث عند التلقي فقط، بل يستطيع أن يبدأ قبل وجود النص نفسه حين يستعين الكاتب بالخوارزميات في البحث والتنظيم والمراجعة والترجمة والعصف الذهني واقتراح الصياغة وإعادة البناء، وبذلك يصبح طرفا الدورة الأدبية ـ الكتابة والقراءة ـ قابلين معًا لدرجات من الهجنة.

ولا يعني ذلك أن الكاتب الهجين هو من يضغط زرًا لتكتب الآلة مكانه، كما لا يعني القارئ الهجين من يطلب من النظام أن يقرأ مكانه، لأن هذا الكتاب، ومعه المشروع السابق، يقومان على التمييز بين التعزيز والاستبدال . فالكاتب الهجين في صيغته النقدية يحتفظ بالمشروع والقصد والاختيار والتحرير والمسؤولية، حتى عندما يوزع بعض وظائف الإنتاج على الأداة،

والقارئ الهجين يحتفظ بالسؤال والحكم والتحقق والمسؤولية، حتى عندما يوزع بعض وظائف الاسترجاع والشرح والمقارنة.

وتظهر بين الطرفين بنية تماثل لافتة ولكن غير كاملة؛ فالكاتب يستخدم التقنية لكي ينتقل من إمكانات كثيرة إلى نص، بينما يستخدمها القارئ لكي ينتقل من نص إلى إمكانات كثيرة للمعنى. الأول يوظف التوليد في اتجاه التكثيف والبناء والاختيار، والثاني يستطيع توظيفه في اتجاه التوسيع والمقارنة والاختبار .وبينهما يوجد النص بوصفه نقطة عبور بين عمليتين هجينتين مختلفتين.

ويصبح السؤال أكثر تعقيداً عندما يكون النظام الاصطناعي حاضراً على الجانبين؛ فقد يستعين الكاتب بالذكاء الاصطناعي في إنتاج مقطع، ثم يمر النص عبر منصة تستخدم الخوارزمية في توزيعه، ثم يقرأه قارئ يستخدم نظامًا توليديًا في شرحه، ثم ينشر مراجعة صيغ جزء منها بمساعدة النظام، وتعود هذه المراجعة إلى خوارزمية التوصية. وفي هذه الحالة لا نكون أمام تفاعل منفرد بين إنسان وآلة، بل أمام دورة خوارزمية بين الإنتاج والتلقي تتدخل فيها الأنظمة في مراحل متعددة.

وتفتح هذه الدورة سؤالًا يتعلق بالتجانس الثقافي؛ فإذا كانت أدوات متقاربة تشارك في الكتابة والقراءة والنقد والتوصية، فقد تنشأ حلقات يعاد فيها إنتاج الأنماط ذاتها، لا لأن جهة واحدة قررت ذلك، بل لأن مصادر التوليد والترتيب والتقييم تتقاطع. ومن هنا تصبح حماية التنوع قضية تخص المنظومة بكاملها لا القارئ وحده، ويصبح النقد مطالباً بتتبع ما إذا كانت الآلة تعيد تدوير الشائع من الإنتاج إلى التلقي ومن التلقي إلى الإنتاج.

وفي المقابل، يمكن للدورة نفسها أن توسع التنوع إذا استعمل الكاتب النظام لاكتشاف مرجعيات بعيدة، واستخدمه القارئ لإنتاج قراءات مضادة، واستخدمته المنصة لتعزيز المصادفة لا التشابه فقط، وهو ما يؤكد مرة أخرى أن التقنية لا تحدد النتيجة وحدها. ومن هنا لا ينبغي أن يسأل النقد

«هل الذكاء الاصطناعي جيد للأدب أم سيئ؟»، بل أي تصميم وأي ممارسة وأي توزيع للوظائف ينتج أي نوع من الثقافة؟

ويكشف تقابل الكاتب والقارئ كذلك أن المفهومين يشتركان في مبدأ المسؤولية؛ فالكاتب لا يستطيع إسناد خطأ نشره إلى النموذج وحده، والقارئ لا يستطيع إسناد تفسير اعتمده إلى النموذج ثم التنصل منه، لأن وجود الآلة داخل الجينالوجيا لا ينقل إليها القدرة على تحمل المسؤولية الاجتماعية. ويجد هذا المبدأ سندًا أخلاقيًا أوسع في الأطر التي تشدد على ضرورة بقاء الإشراف والمسؤولية البشرية في استخدام أنظمة الذكاء الاصطناعي.[15]

ومن هنا يمكن صياغة العلاقة بين الاثنين في قاعدة واحدة :الكاتب الهجين يوزع بعض وظائف إنتاج النص دون أن يفوض مسؤولية التأليف، والقارئ الهجين يوزع بعض وظائف إنتاج الفهم دون أن يفوض مسؤولية التأويل .وهذه الموازاة تمهد للعنصر الثالث الذي يصل بينهما: النص الهجين.

5ـ العلاقة بين الكاتب الهجين ـ النص الهجين ـ القارئ الهجين

إذا كان الكاتب الهجين والقارئ الهجين مفهومين يصفان طرفين بشريين يدخل الذكاء الاصطناعي والخوارزمية في بعض وظائفهما، فإن النص الهجين يمثل منطقة العبور التي تحمل آثار الإنتاج وتفتح نفسها أمام أنماط جديدة من التلقي، غير أن هذا المفهوم يحتاج إلى ضبط مماثل حتى لا يسمى كل نص إلكتروني أو متعدد الوسائط «هجينًا». فالنص الرقمي قد يكون نسخة مطابقة لكتاب مطبوع، والنص متعدد الوسائط قد يجمع الصورة والصوت من دون مشاركة خوارزمية في بنائه، ولذلك لا ينبغي جعل الهجنة مرادفة للرقمنة أو التعدد الوسائطي.

ويمكن تعريف النص الهجين، في المنظومة المقترحة، بأنه نص تدخل في جينالوجيا إنتاجه أو بنيته أو استجابته للمتلقي وظائف بشرية وتقنية مترابطة بدرجة تؤثر في شكله أو مساراته أو مضمونه، مع إمكان أن تكون الهجنة إنتاجية أو بنيوية أو دينامية .فقد يكون النص هجينًا من حيث

الإنتاج إذا شارك نظام توليدي في بعض صياغاته ثم مارس الإنسان الاختيار والتحرير، وقد يكون هجينًا من حيث البنية إذا كانت عناصره النصية والبصرية والصوتية والتفاعلية جزءًا من العمل، وقد يصل إلى درجة أكثر دينامية إذا تغير عرضه أو بعض مكوناته بحسب تفاعل المستخدم.

ولا ينبغي أن تؤدي هذه الصيغة إلى محو الفرق بين نص شارك النظام في إنتاجه ونص كامل التوليد تقريبًا، لأن درجات الهجنة ضرورية هنا كما كانت في القراءة. كما لا ينبغي أن تصبح كلمة «هجين» وسيلة لإخفاء سؤال النسبة والمصدر؛ فالبحث المستقبلي يحتاج إلى وصف ما الوظيفة التي أدتها الأداة بدل الاكتفاء بوضع ملصق عام على العمل.

ويتشكل بين العناصر الثلاثة مسار جديد يمكن تمثيله هكذا:

كاتب هجين → نص هجين → قارئ هجين

لكن السهم الخطي لا يكفي، لأن الكاتب نفسه قارئ لتوليدات النظام أثناء الكتابة، والقارئ قد يصبح منتجًا لنصوص مشتقة ومراجعات، والخوارزمية تعيد إدخال استجابات الجمهور إلى بيئة الإنتاج والتوزيع، ولذلك تكون الصيغة الأصح:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين

داخل:

خوارزميات + منصات + سياقات ثقافية واجتماعية واقتصادية.

ويمثل هذا الترابط تحولًا مهمًا في نظرية الأدب، لأن ما كان يفصل تقليديًا إلى مراحل ـ كتابة، نشر، توزيع، قراءة، نقد ـ يصبح في البيئة الشبكية أكثر تداخلًا؛ الكاتب يستطيع أن يتلقى ردود الأفعال أثناء نشر نص متسلسل، والقارئ يستطيع أن يعيد إنتاج العمل، والمنصة تستطيع أن تغير قابلية الاكتشاف فورًا، وهو ما يتقاطع مع تحولات الثقافة التشاركية [12] والقراءة الاجتماعية الرقمية.[13]

ويفتح هذا المثلث سؤال أصل النص ومسار الوساطة؛ فإذا كان القارئ يقرأ عملًا شارك نظام توليدي في إنتاجه، ثم يطلب من نظام آخر تفسيره، فقد يصبح التأويل الاصطناعي موجهًا إلى مادة ساهمت أنظمة اصطناعية في صياغتها أصلًا. وتزداد هنا أهمية «سجل الوساطة»، لأن النقد قد يحتاج إلى معرفة ما إذا كانت بعض الأنماط التي يكتشفها ناتجة عن مشروع الكاتب أو عن التوليد أو عن عملية التحرير التي أعقبت التوليد.

ولا يعني ذلك أن قيمة النص الأدبية تختزل في نسبته التقنية؛ فقد يكون النص الهجين عظيمًا أو ضعيفًا كما يمكن للنص البشري الكامل أن يكون عظيمًا أو ضعيفًا، لكن معرفة الجينالوجيا تصبح ضرورية عندما يكون السؤال النقدي متعلقًا بالتأليف والاختيار والأسلوب والتكرار والتناص الاصطناعي. ومن هنا لا ينبغي تحويل «الكشف عن الذكاء الاصطناعي» إلى الغاية الكبرى للنقد، بل التعامل مع مسار الإنتاج بوصفه واحدًا من سياقات النص.

ويتصل ذلك أيضًا بمفهوم المؤلف؛ فبعد أن فكك بارت مركزية المؤلف [1]، قد يبدو أن دخول الذكاء الاصطناعي يمنح سببًا جديدًا لإعلان موته، لكن النتيجة التي يصل إليها هذا المشروع معاكسة: كلما تعقد توزيع الوظائف، ازدادت الحاجة إلى تحديد من تحمل قرار الاختيار والمسؤولية النهائية عن العمل .وهكذا لا يعيد الكاتب الهجين المؤلف إلى عرشه القصدي القديم، لكنه يعيده بوصفه موقعًا للمسؤولية داخل شبكة من المساهمات.

وبالمثل، لا يعني القارئ الهجين أن المعنى صار ملكًا للقارئ، لأن إيكو يذكرنا بأن التعاون التأويلي يعمل داخل حدود النص [4]، بل يعني أن بناء المعنى أصبح قادرًا على الاستفادة من موارد أوسع، مع بقاء مشروعية التأويل مرتبطة بالنص والسياق. ومن هنا يمكن القول إن الهجنة أعادت توزيع طرق الوصول إلى المعنى أكثر مما ألغت شروط الدفاع عنه.

ويصبح النص، بين الكاتب والقارئ، نقطة مقاومة ضرورية أمام تضخم الوساطة؛ فهو ما يسمح للناقد بأن يسأل النظام: أين دليلك؟ وللقارئ بأن يرفض تفسيرًا مولدًا، وللباحث بأن يميز بين الاقتباس والاختلاق. ومن هنا تبقى العبارة التي تكررت في الكتاب أساسية :**قيمة مشاركة الآلة في التأويل تقاس بقدرتها على إعادة القارئ إلى النص لا بقدرتها على استبدال النص.**

6ـ نحو نقد هجين

إذا تغير الكاتب والنص والقارئ بهذه الصورة، يصبح النقد الذي يكتفي بأحد الأطراف عاجزًا عن الإحاطة بالمنظومة الجديدة، ومن هنا تبرز الحاجة إلى النقد الهجين، لا بوصفه نقدًا تكتبه الآلة مع الإنسان فحسب، ولا بوصفه مجرد إدخال أدوات رقمية إلى التحليل، بل باعتباره ممارسة نقدية تجمع القراءة القريبة والتحليل السياقي ودراسات الوسائط والخوارزميات والعلوم الإنسانية الرقمية وأدوات الذكاء الاصطناعي في إطار تأملي يظل فيه الناقد مسؤولًا عن المنهج والحجة والنتيجة.

ولا ينبغي لهذا النقد أن يتخلى عن القراءة القريبة بحجة أن النصوص أصبحت قابلة للمعالجة الحسابية، كما لا ينبغي أن يرفض التحليل واسع النطاق بدعوى أن الأدب لا يفهم إلا سطرًا سطرًا. وقد أظهر موريتي أهمية التفكير في «القراءة البعيدة» بوصفها طريقة لرؤية أنماط لا تظهر للقارئ الفردي في مدونات ضخمة [17]، بينما أظهرت هايلز إمكان التفكير في القراءة القريبة والفائقة والآلية بوصفها أوضاعًا مختلفة لها إمكاناتها وحدودها [6]. ومن هنا يكون النقد الهجين قادرًا على الانتقال بين المقاييس بدل تحويل أحدها إلى بديل مطلق.

ويمكن أن يبدأ الناقد بقراءة بشرية قريبة لنص، ثم يستخدم أدوات للبحث في مدونة أوسع، ويقارن نتائج نظام توليدي بمرجعيات النقد، ويعود إلى النص لتصحيح الفرضيات، أي إن الهجنة المنهجية لا تعني جمع الأدوات كيفما

اتفق، بل اختيار الأداة بحسب السؤال وتحديد موقعها داخل الحجة .وتصبح قيمة التقنية مرتبطة بإضافتها المعرفية، لا بحداثتها.

ويتغير موضوع النقد الهجين كذلك، لأن الناقد لم يعد مضطرًا إلى التعامل مع المتن وحده؛ فقد تصبح خوارزمية التوصية جزءًا من تاريخ استقبال العمل، والمراجعات الرقمية جزءًا من مدونته، والمحفز الذي ولد تفسيرًا جزءًا من جهازه التحليلي، والواجهة التي غيرت عرض النص جزءًا من الوساطة التي تحتاج إلى الدراسة. ويصبح النقد قادرًا، بذلك، على الانتقال من نقد النص إلى نقد النظام القرائي الذي يعمل النص داخله دون أن يفقد النص مركزه.

ويحتاج النقد الهجين إلى قدر عال من الشفافية المنهجية؛ فإذا استخدم الناقد الذكاء الاصطناعي في العثور على علاقات أو تلخيص مصادر أو اقتراح فرضيات، ينبغي له أن يعرف ما الذي قبل وما الذي رفض وكيف تحقق، لأن الخطر الأكبر أن تدخل مخرجات الأداة إلى الحجة ثم تختفي آثارها فيبدو الناتج كما لو نشأ من مسار نقدي لا وساطة فيه. ولا يعني ذلك تحويل المقال النقدي إلى سجل تقني لكل ضغطة، بل الإفصاح عندما يكون تدخل النظام جوهريًا لفهم كيفية إنتاج النتيجة.

ومن هنا يقترح الكتاب أن يقوم النقد الهجين على مبدأ قابلية تتبع الوظيفة؛ أي ألا يكون السؤال «هل استخدم الذكاء الاصطناعي؟» فقط، بل «في أي وظيفة استخدم؟»؛ هل كان أداة استرجاع، أم مقارنة، أم ترجمة، أم توليد فرضيات، أم تحرير صياغة؟ لأن القيمة والمخاطر تختلف باختلاف الوظيفة، كما تختلف الحاجة إلى الإفصاح والتحقق.

ويحتاج النقد الهجين كذلك إلى ما يمكن تسميته التواضع الخوارزمي، أي ألا يدعي الناقد معرفة آلية النظام الداخلية لمجرد ملاحظته أثرًا، وأن يميز بين ما هو موثق وما هو مستنتج. وقد كانت هذه القاعدة حاضرة في دراسة الخوارزميات نفسها :الآلية المعلنة ← الأثر المرصود ← التفسير النقدي، بدل الانتقال من نتيجة غير متوقعة إلى أسطورة عن «الخوارزمية» بوصفها فاعلًا خفيًا كلي القدرة [9.][10][

ويحتاج أيضًا إلى التواضع البشري؛ فالنقد الهجين لا يدافع عن قارئ أو ناقد معصوم من التحيز أمام آلة متحيزة، بل يرى أن الأنظمة البشرية والتقنية جميعها تحتوي مواقع وانحيازات وحدودًا، وأن القيمة النقدية تنشأ من جعل هذه الوساطات قابلة للمساءلة المتبادلة .فالآلة تستطيع أن تكشف للناقد مثالًا أغفله، والناقد يستطيع أن يكشف تحيز النموذج، والنص يستطيع أن يقاوم الاثنين.

ومن هنا يمكن تعريف النقد الهجين بأنه :ممارسة نقدية تدرس النص داخل شبكة إنتاجه ووساطته وتلقيه، وتستطيع استخدام أدوات رقمية وخوارزمية وتوليدية في الاستكشاف والتحليل من دون تفويض الحكم إليها، وتخضع مخرجاتها للمقارنة والتحقق النصي والسياقي، مع وعي دائم بأثر الوسيط في السؤال والنتيجة.

ولا يمثل هذا النقد قطيعة مع النقد الأدبي السابق، بل امتدادًا له؛ فهو يحتاج إلى البلاغة والسرديات والتاريخ والأرشيف والتأويل كما كان يحتاج إليها النقد، لكنه يضيف إليها معرفة بالمنصة والخوارزمية والبيانات والتفاعل الإنساني ـ الآلي. وبذلك لا يصبح الناقد مبرمجًا، وإنما يصبح قارئًا يعرف أن جزءًا من شروط القراءة أصبح برمجيًا.

7ـ موقع النقد الميتا خوارزمي داخل المنظومة الجديدة

إذا كان النقد الهجين هو الإطار الأوسع الذي يدمج الوسائط والأدوات الجديدة في الممارسة النقدية، فإن النقد الميتا خوارزمي يحتل داخله موقعًا أكثر تحديدًا وراديكالية، لأنه لا يكتفي باستخدام الخوارزمية في النقد ولا بملاحظة أثرها في التلقي، بل يجعل الخوارزمية ووساطتها ومخرجاتها التأويلية موضوعًا مباشرًا للنقد .إنه، بهذا المعنى، المستوى الذي تنتقل فيه الخوارزمية من أداة على مكتب الناقد إلى جزء من المدونة التي ينبغي تفكيكها.

ولا يستخدم الكتاب المصطلح باعتباره اسماً لحقل راسخ مكتمل الحدود، بل بوصفه اقتراحاً نظرياً يتشكل من تقاطع دراسات الخوارزميات [9][10] مع النقد الأدبي والعلوم الإنسانية الرقمية ونظرية القارئ الهجين. وتبدأ مهمته بسؤال بسيط في ظاهره بالغ العمق في نتائجه :ما الذي تفعله الخوارزمية بالمعنى قبل أن نسأل عما يعنيه النص؟

ويختلف هذا السؤال عن النقد التقليدي لأن الخوارزمية قد تؤثر في اختيار النص الذي أصبح موضوعاً للنقد أصلًا، وقد تحدد ترتيب نتائج البحث التي بنى الباحث منها مدونته، وقد تقترح التناصات التي سيفحصها، وقد تنتج تفسيراً يصبح منافساً للتأويل البشري. ومن هنا يعمل النقد الميتا خوارزمي في طبقة فوقية من الوساطة :يقرأ النص، لكنه يقرأ كذلك الآلة التي ساعدت على تحديد طريق النص إلى القارئ.

وتتمثل إحدى وظائفه الأساسية في نقد التأويل الخوارزمي؛ فإذا طلب القارئ من نظام توليدي تفسير قصيدة، يصبح جواب النظام نفسه مادة قابلة للتحليل: ما المفاهيم التي اختارها؟ ما المرجعيات التي استدعاها؟ ما الذي لم يذكره؟ هل حول الغموض إلى معنى واحد؟ هل قدم احتمالًا بوصفه حقيقة؟ ما أثر صياغة المحفز؟ وهل تغير الجواب عندما تغير السؤال؟ وبذلك يتحول القارئ إلى مفسر للتفسير، وهي الممارسة التي سميناها «التأويل من الدرجة الثانية.«

ويصبح هذا النقد أكثر أهمية حين تبدو الإجابة الآلية مقنعة، لأن الخطأ الركيك يسهل رفضه، بينما تحتاج الصياغة المحكمة إلى قارئ يستطيع الفصل بين بلاغة اليقين وقوة الدليل .وهنا يظهر أن النقد الميتا خوارزمي ليس ترفاً فلسفياً، بل كفاية عملية في عصر أصبحت فيه اللغة السلسة قابلة للإنتاج الآلي بكثافة.

وتتمثل وظيفة أخرى في نقد الاختيار الخوارزمي، بحيث لا يسأل الناقد فقط عن الكتب التي أصبحت رائجة، بل عن البنية التي منحت بعضها قابلية أعلى للاكتشاف، ولا يكتفي بعدّ المراجعات بل يسأل كيف رتبت، ولا

يدرس الذائقة بوصفها قرارًا فرديًا فقط بل باعتبارها نتيجة علاقة بين تاريخ المستخدم ونظام التوصية والثقافة الأوسع [11]. وهنا يلتقي النقد الميتا خوارزمي بنقد المنصة واقتصاد الانتباه.

كما يعمل على **نقد الغياب**؛ أي دراسة ما لا يظهر بسهولة، وما لا تفهرسه القواعد، وما لا تمثله بيانات التدريب بصورة كافية، وما الذي قد يصبح هامشيًا لأن النظام يحتاج إلى تحويل الثقافة إلى بيانات قابلة للمعالجة. وهذه الوظيفة ذات أهمية خاصة في اللغات والآداب ذات الحضور الرقمي غير المتكافئ، لأن الغياب الخوارزمي يستطيع أن يضاعف غيابًا تاريخيًا سابقًا.

ومن هنا يصبح النقد الميتا خوارزمي مرتبطًا بمسألة **التمثيل الثقافي**؛ فإذا كانت أنظمة الذكاء الاصطناعي تتعلم من مدونات متفاوتة التوزيع، فإن الناقد مطالب بفحص ما إذا كانت الأطر الأكثر تمثيلًا تعود في صورة «تفسير عام» يفرض نفسه على نصوص محلية. ولا يعني هذا رفض النظريات العابرة للثقافات، بل منع العالمية من أن تصبح نتيجة صامتة لعدم توازن البيانات.

ويشمل المجال كذلك **نقد المحفز**، لأن السؤال الذي يوجهه الإنسان ليس بريئًا من إنتاج النتيجة؛ فالمحفز يستطيع أن يدفع النظام إلى تأكيد فرضية أو تبني مدرسة أو إنتاج جواب محدد الصيغة، ولذلك يصبح جزءًا من مادة النقد. ومن هنا ظهر مفهوم «المحفز النقدي» بوصفه سؤالًا يحاول كشف حدود الجواب بدل طلب تأكيده، ويصبح الناقد مطالبًا بأن يقرأ السؤال الذي أنتج التفسير إلى جانب التفسير نفسه.

ولا يحتاج النقد الميتا خوارزمي دائمًا إلى الوصول إلى الشفرة، لأن الخوارزميات التجارية قد تكون مغلقة، كما أن فهم الأثر الثقافي لا يختزل في معرفة رياضية ببنية النموذج. ويمكنه العمل، وفق منهج حذر، على الوظائف المعلنة، والمخرجات القابلة للمقارنة، وتغير النتائج مع تغير المدخلات، وسياسات المنصة، ودراسات المستخدمين، وهو ما يجعل منه نقدًا تجريبيًا وتأويليًا في الوقت نفسه.

ويحتل هذا النقد، داخل المنظومة الجديدة، الموقع الذي يجعل المعرفة بالوساطة جزءًا من المعرفة بالنص؛ فلا يحل محل النقد الأدبي بل يضيف إليه سؤالًا كان أقل إلحاحًا في بيئات سابقة: ما الذي صنع المجال الذي أصبحت قراءتي ممكنة داخله؟ ومن هنا يمثل النقد الميتا خوارزمي الوجه النقدي الواعي لنظرية القارئ الهجين.

8ـ آفاق النقد ما بعد الخوارزمي

إذا كان النقد الميتا خوارزمي يفترض أن الخوارزمية ما تزال قابلة للرصد بوصفها وسيطًا يمكن جعله موضوعًا للمساءلة، فإن النقد ما بعد الخوارزمي يفتح الأفق الأكثر استشرافًا في هذا المشروع، لأنه يسأل عما يحدث عندما تصبح الوساطة الحسابية شديدة الاندماج في القراءة والكتابة والنشر والبحث إلى درجة لا تعود فيها «الخوارزمية» حدثًا مستقلًا يمكن الإشارة إليه بسهولة. ولا يعني «ما بعد» هنا، كما أوضح الفصل الخامس عشر، أن الخوارزميات انتهت، بل أنها أصبحت محيطية واعتيادية بحيث ينتقل النقد من كشف وجودها إلى تحليل البيئة التي تشكلها.

ويتيح تصور وايزر للحوسبة التي تندمج في البيئة خلفية مبكرة لفهم هذا الأفق [16]، لأن التقنية الأكثر اندماجًا قد تكون الأقل حضورًا في الانتباه الواعي، وهو ما يخلق مفارقة مركزية للنقد :كلما أصبحت الوساطة أسهل وأقل ظهورًا، ازدادت صعوبة جعلها موضوعًا للمساءلة .وإذا كانت أنظمة المستقبل قادرة على الترجمة والشرح والاسترجاع والتخصيص بصورة مستمرة داخل فعل القراءة نفسه، فقد يضطر النقد إلى دراسة «البيئة المعرفية» بدل دراسة الأداة المنفردة.

ومن هنا يمكن تعريف النقد ما بعد الخوارزمي، في صورته الأولية المقترحة، بأنه نقد يدرس الثقافة في الحالة التي تصبح فيها الوساطة الخوارزمية والذكاء الاصطناعي بنية تحتية محيطية لإنتاج النصوص واختيارها وقراءتها وتفسيرها، بحيث يركز على أنماط توزيع الفاعلية والذاكرة والقرار والمسؤولية داخل أنظمة لا يمكن فصل البشري فيها عن

التقني على المستوى الوظيفي بسهولة، مع الاحتفاظ بالتمييز بينهما على مستوى التجربة والمسؤولية.

وتتمثل أولى مشكلات هذا النقد في أصل النص، لأن العمل قد يمر عبر مراحل متعددة من التوليد والتحرير والتكييف، وقد يصبح من الصعب تحديد أي نسخة ينبغي اعتبارها ثابتة إذا كانت بعض الأعمال قابلة للتخصيص أو التحديث. وهنا سيحتاج النقد إلى مفاهيم أقرب إلى «تاريخ النسخ» و«سجل الوساطة» من المفاهيم التي كانت كافية للعمل المطبوع المستقر.

وتتمثل المشكلة الثانية في تخصيص النصوص والعتبات؛ فإذا حصل كل قارئ على شرح مختلف وترتيب مختلف وربما مسار مختلف، فإن «تجربة العمل» لن تكون متطابقة بين أفراد الجمهور، وهو ما سيجعل تاريخ التلقي بحاجة إلى توثيق البيئة التي رافقت النص لا النص وحده. وقد يصبح سؤال «أي نسخة قرأت؟» متبوعًا بسؤال «في أي بيئة تفسيرية قرأتها؟.«

وتتمثل المشكلة الثالثة في الذاكرة الاصطناعية المصاحبة؛ فالأنظمة قد تتذكر تاريخ القراءة والأسئلة السابقة وتعيدها إلى القارئ في اللحظة المناسبة، وبذلك يصبح جزء من استمرارية الذات القرائية موجودًا خارج الذاكرة البيولوجية. ولن تكون مهمة النقد الحكم على هذا التوسع بأنه جيد أو سيئ بصورة مطلقة، بل دراسة ما يفعله بمفهوم النسيان والتذكر والعودة وإعادة القراءة.

أما المشكلة الرابعة فتتعلق بـالوكالة التفسيرية المتزايدة للأنظمة؛ فقد تنتقل من الاستجابة إلى اقتراح ما ينبغي أن يُسأل وما ينبغي أن يُقرأ، وهو ما سيجعل النقد مطالبًا بتحليل ليس الأجوبة فقط بل اقتصاد الأسئلة :أي أسئلة تصبح أكثر قابلية للظهور، وأيها لا تقترحها الأنظمة، وما الذي يحدث للثقافة إذا أصبحت بعض أدوات اكتشاف المشكلة نفسها مؤتمتة؟

وتتمثل المشكلة الخامسة في **تاريخية الخوارزمية**؛ فالنموذج الذي ينتج جوابًا اليوم قد يتغير غدًا، وهو ما يجعل إعادة إنتاج بعض التجارب النقدية صعبة، ولذلك ستزداد الحاجة إلى حفظ الإصدارات والمحفزات والسياقات والنتائج عندما يكون النظام جزءًا مهمًا من المادة البحثية. ومن هنا يمكن أن يصبح الأرشيف الخوارزمي جزءًا من البنية الأساسية للنقد الأدبي المستقبلي.

وتظهر المشكلة السادسة في **الخصوصية التأويلية**؛ فإذا كان النظام يعرف الكتب التي قرأناها، والمقاطع التي توقفنا عندها، والأسئلة التي طرحناها، والقراءات التي رفضناها، فإنه لا يملك بيانات عن استهلاكنا فقط بل عن جزء من حياتنا الفكرية. وقد أكدت أطر أخلاقيات الذكاء الاصطناعي أهمية الخصوصية والشفافية والإشراف البشري [15]، ويصبح النقد ما بعد الخوارزمي مطالبًا بتحويل هذه المبادئ إلى أسئلة تخص حرية القراءة: ما الذي يعنيه أن نقرأ موضوعًا حساسًا داخل نظام يتذكر؟ وما مقدار الحق في قراءة لا تتحول إلى ملف؟

وتتمثل المشكلة السابعة في **التنوع الثقافي**، لأن الانتشار الواسع لأدوات قليلة يمكن أن يجعلها بوابات مشتركة بين أعداد هائلة من القراء والكتاب، وهو ما يخلق قوة معيارية لا تحتاج إلى رقابة مركزية لكي تعمل. ومن هنا سيحتاج النقد ما بعد الخوارزمي إلى الدفاع عن تعدد النماذج والمصادر واللغات ومسارات الاكتشاف، لا لأن التنوع قيمة تجميلية فقط، بل لأنه شرط لتعدد الأسئلة والمعاني الممكنة.

ولا ينبغي لهذا النقد المستقبلي أن يتحول إلى حراسة محافظة على شكل واحد من القراءة، لأن ظهور وسائل جديدة لا يعني موت الوسائل السابقة، وقد أظهر تاريخ الإعلام أن الوسائط تتراكم وتعيد تشكيل بعضها أكثر مما تلغي بعضها بالكامل. وسيظل الورق موجودًا إلى جانب الشاشة، والقراءة الصامتة إلى جانب الكتاب الصوتي، والقراءة البشرية المستقلة إلى جانب

القراءة المعززة، ولذلك سيكون النقد ما بعد الخوارزمي نقدًا للتعايش بين أنظمة القراءة لا لإعلان انتصار نظام واحد.

ومن هنا يصبح دوره الأهم الدفاع عن حق القارئ في تغيير درجة الهجنة، لأن المستقبل الحر ليس مستقبلًا يرفض التقنية ولا مستقبلًا تفرض فيه التقنية نفسها بوصفها البيئة الوحيدة، بل مستقبل يستطيع فيه الإنسان أن يقرر متى يريد مساعدة مكثفة ومتى يحتاج إلى نص وصمت وزمن لا يتدخل فيه النظام. ويصبح الحق في البطء، والحق في عدم التخصيص، والحق في المصادفة، والحق في النسيان، والحق في العودة إلى الأصل، أجزاء من أخلاقيات القراءة لا مواقف رومانسية ضد التقنية.

من موت المؤلف إلى إعادة توزيع الفاعلية

يتيح المسار الذي قطعناه العودة الآن إلى العنوان العام لهذه الخاتمة؛ فـ«من موت المؤلف إلى ولادة القارئ الهجين» لا يصف تعاقبًا بسيطًا انتقلت فيه السلطة من شخص إلى آخر، لأن أحد أهم الدروس التي تعلمها النقد منذ بارت هو أن استبدال مركز بمركز لا يحل مشكلة المعنى. وإذا كان النقد قد حرر النص من سلطة قصد المؤلف، فلا ينبغي أن يمنح القارئ سلطة مطلقة، وإذا وسع دور القارئ فلا ينبغي أن ينقل المركز اليوم إلى الخوارزمية. إن التحول الأعمق الذي يطرحه هذا الكتاب هو الانتقال من مركزية الفاعل الواحد إلى تحليل توزيع الفاعلية مع الاحتفاظ بتحديد المسؤولية.

فالمؤلف لم يمت بمعنى اختفاء وظيفته، بل فقد احتكاره للمعنى؛ والقارئ لم يولد بوصفه حاكمًا مطلقًا، بل بوصفه شريكًا في تحقيق النص؛ والخوارزمية لم تدخل بوصفها قارئًا جديدًا، بل بوصفها وسيطًا يعيد تنظيم شروط القراءة؛ والذكاء الاصطناعي لا يملك التأويل بالمعنى الإنساني، لكنه يستطيع إنتاج مقترحات تدخل في جينالوجيا التأويل. ومن هنا يصبح كل مفهوم داخل المنظومة محددًا بعلاقاته مع البقية، لا بسلطة منفردة.

ويجعل هذا التحول «موت المؤلف» نفسه قابلًا لإعادة القراءة؛ فقد كانت العبارة في سياقها تفكيكًا لمصدرية المعنى [1]، أما العصر الخوارزمي فيعيد إلينا سؤال المصدر من طريق جديد، لأن النص قد يكون نتاجًا لمسار موزع، والجواب قد يكون توليديًا، والمعلومة قد تكون بلا مرجع ظاهر. ومن هنا لا نعود إلى «المؤلف» بوصفه سيد المعنى، بل نعود إلى المصدر والمسؤولية والجينالوجيا بوصفها قضايا نقدية لا يمكن تجاهلها.

وبالمثل، تصبح «ولادة القارئ» عند نهاية القرن العشرين مختلفة عن «ولادة القارئ الهجين» في القرن الحادي والعشرين؛ فالأولى حررته من صورة المستقبل السلبي، أما الثانية تطالبه بأن يكتسب كفاية جديدة لمواجهة أنظمة تستطيع أن تعمل بسرعة أكبر من وعيه وأن تقدم له المعنى في صيغة سهلة قبل أن يكوّن سؤاله الخاص. ومن هنا تكون الولادة الثانية أكثر إلحاحًا في بعدها الأخلاقي :القارئ الهجين ليس من يملك أدوات أكثر، بل من يحتاج إلى مسؤولية أكبر لأنه يملك أدوات أكثر.

من نظرية القارئ إلى منظومة الثقافة الهجينة

تسمح نتائج الكتاب باقتراح تصور أوسع يتجاوز موضوعه المباشر؛ فإذا أصبح الكاتب هجينًا، والنص هجينًا، والقارئ هجينًا، والنقد هجينًا، فإننا لا نكون أمام أربع ظواهر معزولة، بل أمام بداية منظومة ثقافية هجينة تتغير فيها العلاقات بين الإنتاج والتوزيع والتلقي والتقييم. ويمكن تمثيل هذه البنية في صورة:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين ↔ النقد الهجين

داخل:

خوارزميات ↔ منصات ↔ بيانات ↔ سياقات ثقافية واجتماعية وتاريخية.

ولا تعني هذه الصيغة أن كل الثقافة أصبحت هجينة بالفعل، بل تقدم أداة لتحليل الحالات التي تدخل فيها التقنية في أكثر من مرحلة. وكلما امتدت

الهجنة عبر السلسلة، ازدادت الحاجة إلى نقد قادر على تتبع انتقال الأثر من مستوى إلى آخر، لأن ما يبدو خاصية في النص قد يكون أثرًا في الإنتاج، وما يبدو ذوقًا فرديًا قد يكون متأثرًا بالتوصية، وما يبدو إجماعًا نقديًا قد يكون مضخمًا بمنطق الظهور.

ويكشف النموذج كذلك أن العلاقة بين الكاتب والقارئ قد تصبح أقل بعدًا مما كانت عليه في نموذج النشر التقليدي؛ فالبيانات والتعليقات والمراجعات تصل إلى المنتجين بسرعة، والمنصات تستطيع قياس الاستجابة، وقد تدخل هذه المعرفة في الكتابة التالية، وبذلك يتحول التلقي إلى إشارة داخل الإنتاج. ومن هنا تظهر دورة خوارزمية بين الإنتاج والتلقي يمكن أن تزيد استجابة الثقافة للجمهور، لكنها تستطيع كذلك أن تقوي الميل إلى إنتاج ما أثبتت البيانات نجاحه، وهو ما يجعل المسافة بين التجريب الأدبي والسوق مسألة جديدة للنقد.

وفي مقابل هذه الحلقة، يحتاج الأدب إلى الاحتفاظ بمساحة لما لا يمكن توقعه من البيانات، لأن قيمة العمل الجديد قد تتمثل تحديدًا في أنه لا يشبه ما أثبت نجاحه سابقًا. ومن هنا يصبح الاختلاف غير المتوقع قيمة يجب الدفاع عنها في الكتابة كما في القراءة؛ الكاتب يحتاج إلى حق الخروج من النموذج، والقارئ يحتاج إلى حق الخروج من التوصية، والناقد يحتاج إلى حق الخروج من المخرجات الأكثر احتمالًا.

ويؤدي ذلك إلى مبدأ يمكن أن يربط المشاريع الثلاثة ـ الكاتب الهجين، القارئ الهجين، النقد الهجين ـ وهو مبدأ مقاومة الاستبدال :نستفيد من التقنية حيث توسع الإمكان، ونقاومها حين تتحول من دعم الفاعل البشري إلى إلغاء الوظيفة التي تبرر وجوده داخل العملية. ولا يعني ذلك الدفاع عن حدود ثابتة لا تتغير، بل المطالبة بأن يكون انتقال الوظائف موضوعًا لقرار واعٍ لا نتيجة تلقائية للراحة.

ولادة القارئ الهجين

يصبح من الممكن، في النهاية، القول إن ولادة القارئ الهجين لا تحدث في اللحظة التي يمسك فيها الإنسان هاتفًا أو يفتح مساعدًا توليديًا، بل في اللحظة التي تبدأ فيها بنية القراءة نفسها في التغير؛ حين يصبح البحث جزءًا من الذاكرة، والتوصية جزءًا من الاختيار، والترجمة جزءًا من الوصول، والحوار جزءًا من التأويل، والوعي بهذه الوسائط جزءًا من النقد. وفي اللحظة نفسها يولد الخطر الذي يلازم هذه الإمكانات: أن يتحول الامتداد إلى اعتماد، والمساعدة إلى استبدال، والتخصيص إلى تضييق، والتفسير إلى تلقين، والراحة إلى فقدان للقدرة على الحكم.

ومن هنا لم يكن هدف الكتاب أن يختار بين التفاؤل والتشاؤم تجاه الذكاء الاصطناعي، لأن الثنائية نفسها عاجزة عن تفسير الظاهرة، بل أن يقدم جهازًا مفاهيميًا يتيح التفريق بين صور متعددة لاستخدام التقنية. ولأجل ذلك تأسست مفاهيم القارئ الهجين، والتلقي الخوارزمي، والقراءة المعززة، والذات القارئة الموزعة، والشريك التأويلي الوظيفي، وأفق الانتظار الخوارزمي، والمعنى الهجين، والسيادة التأويلية، والقراءة الميتا خوارزمية، والقراءة ما بعد الخوارزمية بوصفها اقتراحات نظرية تحتاج إلى الاختبار والتطوير والمساءلة.

ولا يدعي هذا الجهاز أنه يضع النظرية الأخيرة للقراءة؛ فالتقنيات التي يحاول تفسيرها ما تزال تتغير، وبعض المفاهيم التي يقترحها الكتاب استشرافية، كما أن كثيرا من أسئلته يحتاج إلى بحوث تجريبية عابرة للغات والثقافات. وتكمن قيمة النظرية، إذا كانت لها قيمة، في قدرتها على توليد أسئلة قابلة للاختبار أكثر من قدرتها على تقديم يقين نهائي.

ومن هذه الأسئلة: عند أي درجة يصبح استخدام الأداة تهجينًا حقيقيًا للعملية المعرفية؟ ما مقدار تدخلها الذي يوسع القراءة دون أن يضعف المهارة؟ هل يزيد التأويل التوليدي التنوع أم يعيد إنتاج القراءات الأكثر شيوعًا؟ كيف تختلف الهجنة بين قارئ خبير ومبتدئ؟ ما أثر اللغة في جودة المشاركة الاصطناعية؟ وهل ينتج القارئ العربي الهجين شكلًا مختلفًا من

العلاقة بسبب تفاوت التمثيل الرقمي والثقافي؟ وما الذي يحدث لأفق الانتظار عندما يعرف النظام تاريخ القراءة بصورة أدق من ذاكرة القارئ نفسه؟ وكيف يمكن قياس السيادة التأويلية من دون تحويلها إلى شعار؟

كما يحتاج البحث المستقبلي إلى أن يسأل عن الأطفال والطلاب والباحثين والنقاد والقراء ذوي الاحتياجات المختلفة، لأن «القارئ الهجين» ليس كيانًا اجتماعيًا واحدًا، وقد تكون الوظيفة التي تعد استبدالًا عند متعلم تمرينًا على مهارة معينة شكلًا من أشكال الإتاحة الضرورية عند قارئ آخر. ومن هنا ينبغي أن تظل النظرية حساسة إلى الغاية والسياق لا إلى الأداة فقط.

وتصبح اللغة العربية ميدانًا مهمًا لهذه البحوث، لأن النصوص العربية تحمل تاريخًا من التناص القرآني والشعري والبلاغي والصوفي واللهجي والمغاربي والمشرقي لا يمكن اختزال التعامل معه إلى نقل النماذج التي طورت على مدونات لغوية أخرى. ومن هنا يمكن أن يكون اختبار القارئ الهجين في الثقافة العربية مساهمة في النظرية العامة نفسها، لا تطبيقًا هامشيًا لها.

الخلاصة العامة

ينتهي هذا الكتاب إلى أن تاريخ القراءة يمكن أن يُقرأ بوصفه تاريخًا لتغير العلاقة بين الجسد والنص والذاكرة والوسيط؛ فقد كان الصوت يحمل النص، ثم ساعدت الكتابة على إخراج الذاكرة إلى الخارج، ومنحت الطباعة العمل درجة عالية من الاستقرار والانتشار، وجعلت الشاشة النص قابلًا للبحث والتحويل، وحولته الشبكة إلى عقدة داخل مسارات لا خطية، ثم جعلت الخوارزمية الوصول نفسه موضوعًا للترتيب والتخصيص، قبل أن يدخل الذكاء الاصطناعي التوليدي إلى داخل الشرح والمقارنة والتأويل. ولم تلغ كل مرحلة سابقتها، بل تراكمت الطبقات حتى صار القارئ المعاصر قادرًا على حمل الكتاب والاستماع إليه والبحث فيه ومناقشته مع البشر والآلة في اليوم نفسه.

ومن هنا لا يكون القارئ الهجين انقطاعًا عن تاريخ القراءة، بل لحظة عالية الكثافة في تاريخ الوساطة، لحظة انتقلت فيها التقنية من محيط الفعل إلى بعض وظائفه الداخلية. ويظل السؤال الحاسم ليس ما إذا كانت هذه الوساطة موجودة، فقد أصبحت موجودة بالفعل في أشكال عديدة، بل ما إذا كان القارئ قادرًا على معرفة موضعها وإدارة مقدارها والاحتفاظ بالوظائف التي تمنحه حق الحكم عليها.

ويصل الكتاب بذلك إلى إعادة تعريف العلاقة التي كانت في صلب نظرية التلقي، فلا يعود النموذج الكافي:

القارئ ↔ النص

بل يصبح:

القارئ ↔ النص ↔ الخوارزمية ↔ السياق

على أن يبقى واضحًا أن هذه الأقطاب ليست متساوية في النوع؛ فالقارئ يعيش ويقصد ويحكم، والنص يقاوم ويوجه، والخوارزمية ترتب وتعالج وتقترح،

والسياق يؤطر ويراجع، ومن تفاعلها يظهر المعنى الهجين ذو المسؤولية البشرية.

ويصل الكتاب كذلك إلى أن القارئ الهجين لا يمكن فصله عن الكاتب الهجين؛ فكل واحد منهما يعمل عند طرف من دورة أصبحت قابلة لوساطة الذكاء الاصطناعي، وبينهما النص الهجين الذي يحمل آثار الإنتاج ويخضع لقراءة موزعة الوظائف، بينما يظهر النقد الهجين بوصفه المستوى الرابع الذي يتولى فحص العلاقات الثلاث وإبقاء الوساطة مرئية وقابلة للمساءلة.

ومن هنا تكون المنظومة النهائية:

الكاتب الهجين ↔ النص الهجين ↔ القارئ الهجين ↔ النقد الهجين

داخل البيئة الأوسع:

الخوارزمية ↔ المنصة ↔ البيانات ↔ السياق.

ويحتل النقد الميتا خوارزمي داخل هذه المنظومة وظيفة كشف الوساطة وفحص منطقها ومصادرها وانحيازاتها ومخرجاتها التأويلية، بينما يتجه النقد ما بعد الخوارزمي إلى دراسة الحالة التي تصبح فيها الوساطة محيطية إلى درجة يصعب معها فصلها عن النشاط الثقافي نفسه. وهكذا يكون الأول نقداً للخوارزمية المرئية والقابلة للعزل نسبياً، بينما يصبح الثاني نقداً للشرط الخوارزمي حين يتحول إلى بيئة.

ولا ينبغي أن تنتهي هذه النظرية إلى الخوف من مستقبل القراءة، كما لا ينبغي أن تنتهي إلى الاحتفاء به؛ فالمستقبل لن يكون غالباً لحظة ينتصر فيها الإنسان أو الآلة، بل استمراراً للتفاوض بين قدرات واحتياجات ومؤسسات وتقنيات. والمهمة الثقافية ليست وقف هذا التفاوض، بل جعله مرئياً ونقدياً وعادلاً وقابلاً للعكس.

ومن هنا تكون السيادة التأويلية التي دافع عنها الكتاب ليست سوراً يعزل الإنسان عن الذكاء الاصطناعي، بل المبدأ الذي يسمح له بأن يدخل في

علاقة واسعة معه دون أن يفقد القدرة على العودة إلى نفسه وإلى النص. والسيادة لا تعني احتكار المعنى، بل تحمل مسؤوليته؛ لا تعني رفض الاقتراح، بل القدرة على الاعتراض؛ لا تعني الاستغناء عن الوسيط، بل معرفة أنه وسيط.

وإذا كان القرن العشرون قد جعل إحدى عباراته النقدية الكبرى تدور حول موت المؤلف وولادة القارئ، فإن التحول الخوارزمي يفرض علينا تعديل السؤال :**أي قارئ يولد عندما تصبح الآلة قادرة على اختيار ما يصل إليه، وتلخيص ما يقرأه، وشرح ما يصعب عليه، واقتراح ما يمكن أن يعنيه النص، ثم تذكر آثار قراءته لكي تعيد تشكيل ما سيقرأ لاحقًا؟**

الجواب الذي اقترحه هذا الكتاب هو: يولد القارئ الهجين، لكنه لا يولد مكتملًا بمجرد امتلاكه التقنية؛ يولد حقًا عندما يدرك أن التقنية دخلت إلى القراءة، وعندما يتعلم توزيع الوظائف من دون تفويض السيادة، وعندما يستخدم السرعة دون أن يفقد البطء، والتخصيص دون أن يفقد المصادفة، والمساعدة دون أن يفقد القدرة، والتوليد دون أن يفقد السؤال، والحوار دون أن يفقد صوته، والذاكرة الخارجية دون أن يفقد حقه في التذكر والنسيان، ويستفيد من الآلة من دون أن يتخلى لها عن المسؤولية التي تجعل القراءة فعلًا إنسانيًا.

وبذلك لا تكون «ولادة القارئ الهجين» خاتمة لمسار القراءة، بل بداية لمرحلة نقدية جديدة، لأن القارئ الذي صار قادرًا على قراءة النص مع الآلة مطالب في الوقت نفسه بأن يتعلم **قراءة الآلة وهي تشارك في قراءته** .ومن هذه الحركة المزدوجة بين قراءة النص وقراءة الوسيط يمكن أن تنشأ النظرية التي حاول هذا الكتاب وضع أسسها، ويمكن أن ينشأ معها نقد جديد لا يكتفي بالسؤال عن معنى الأدب، بل يسأل أيضًا عن البنى البشرية والتقنية التي أصبحت تشارك في جعل هذا المعنى ممكنًا ومرئيًا وقابلًا للتداول.

وعند هذه النقطة تصبح العبارة الأخيرة التي يمكن أن تختصر أطروحة الكتاب كلها:

كلما أصبحت القراءة أكثر توزيعًا وخوارزمية وهجنة، ازدادت حاجتها إلى قارئ أكثر وعيًا بالبنية التي يقرأ داخلها.

وتصبح الصيغة الأخلاقية الموازية لها:

كلما اتسعت قدرة الآلة على المشاركة في إنتاج المعنى، ازدادت مسؤولية الإنسان عن معرفة ما الذي فوضه إليها، وما الذي قبله منها، وما الذي قرر أن يظل مسؤولا عنه بنفسه.

وهكذا لا تنتهي الرحلة بموت المؤلف، ولا بموت القارئ، ولا بولادة آلة تقرأ نيابة عنهما، بل بإعادة توزيع الفاعلية داخل منظومة ثقافية جديدة يظل فيها السؤال الإنساني ضروريًا؛ لأن الذكاء الاصطناعي قد يضاعف عدد الأجوبة، لكن مستقبل القراءة سيظل متعلقًا، إلى حد بعيد، بقدرتنا على اختيار الأسئلة التي لا ينبغي تفويضها.

ملاحظة توثيقية

تمت مراجعة البيانات الببليوغرافية الأساسية للمراجع المؤسسة لنظرية التلقي وتحول مركز القراءة، ومنها طبعة *Toward an Aesthetic of Reception* **الصادرة عن** University of Minnesota Press **سنة** 1982، **و** *The Act of Reading* **لإيزر الصادر عن** Johns Hopkins University Press **سنة** 1978، **و** *The Role of the Reader* **لإيكو الصادر عن** Indiana University Press **سنة** 1979 (University of Minnesota Press). **كما جرى التحقق من بيانات** *Image, Music, Text* **الذي يتضمن** «The Death of the Author» ، **ومن كتاب هايلز** *How We Think*، **ومن مجلد** *Media Technologies* **الذي يتضمن دراسة غيليسبي عن الخوارزميات**(WorldCat) .

المراجع والمصادر والإشارات

[1] **Barthes, Roland.** "The Death of the Author." In *Image, Music, Text*. Essays selected and translated by Stephen Heath. New York: Hill and Wang, 1977, pp. 142–148.

يمثل النص أحد المنعطفات المؤسسة في نقد مركزية المؤلف، ويستفاد منه في هذه الخاتمة بوصفه الخلفية الرمزية للانتقال من سلطة الأصل المؤلفي إلى فاعلية القارئ، دون فهم «موت المؤلف» باعتباره محواً للكاتب من التاريخ أو المسؤولية.

[2] **Jauss, Hans Robert.** *Toward an Aesthetic of Reception*. Translated by Timothy Bahti. Introduction by Paul de Man. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.

مرجع مركزي في جماليات التلقي ومفهوم أفق الانتظار وتاريخ استقبال الأعمال، ويشكل الأساس الذي أعاد الكتاب تطويره في مفهوم «أفق الانتظار الخوارزمي.«

[3] **Iser, Wolfgang.** *The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.

يمثل أحد المراجع المؤسسة لدراسة فعل القراءة ودور القارئ في تحقيق إمكانات النص وملء مناطق عدم التحديد، ويستفاد منه في الحفاظ على مركزية النشاط البشري داخل نظرية القارئ الهجين.

[4] **Eco, Umberto.** *The Role of the Reader: Explorations in the Semiotics of Texts*. Bloomington: Indiana University Press, 1979.

يقدم مفهوم التعاون التأويلي والعلاقة بين انفتاح النص واستراتيجياته، ويشكل مرجعًا أساسيًا لتأكيد أن اتساع فاعلية القارئ أو المساعدة الاصطناعية لا يلغي حدود التأويل التي يفرضها النص.

[5] **Fish, Stanley.** *Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretive Communities*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980.

يمثل المرجع الأساسي لمفهوم الجماعات التأويلية وللدور الذي تؤديه الاستراتيجيات والمؤسسات المشتركة في تشكيل ما يصبح قابلًا للقراءة

والفهم، ويستفاد منه في الانتقال من القارئ الفردي إلى القارئ الشبكي والاجتماعي.

[6] Hayles, N. Katherine. *How We Think: Digital Media and Contemporary Technogenesis*. Chicago: University of Chicago Press, 2012.

يشكل المرجع أحد أهم الأسس النظرية لفهم التفكير مع الوسائط ومن خلالها والتولد التقني المتبادل، كما يقدم خلفية للتمييز بين أنماط القراءة القريبة والفائقة والآلية.

[7] Clark, Andy & Chalmers, David. "The Extended Mind." *Analysis*, Vol. 58, No. 1, 1998, pp. 7–19. DOI: 10.1093/analys/58.1.7.

مرجع تأسيسي لأطروحة العقل الممتد، ويستفاد منه في بناء تصور القارئ الذي تدخل بعض الموارد الخارجية بصورة مستقرة في نشاطه المعرفي من دون اختزال العقل الإنساني في الأداة.

[8] Hutchins, Edwin. *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

يقدم إطار الإدراك الموزع الذي يدرس العمليات المعرفية على مستوى الأنظمة المكونة من البشر والأدوات والتمثيلات، ويشكل خلفية لمفهومي الذات القارئة الموزعة والذات القارئة المشتركة.

[9] Gillespie, Tarleton. "The Relevance of Algorithms." In Tarleton Gillespie, Pablo J. Boczkowski & Kirsten A. Foot (eds.), *Media Technologies: Essays on Communication, Materiality, and Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 2014, pp. 167–194. DOI: 10.7551/mitpress/9780262525374.003.0009.

يقدم أساسًا لدراسة الخوارزميات بوصفها جزءًا من عمليات تحديد الصلة والظهور والترتيب داخل أنظمة اجتماعية وتقنية، ويشكل مرجعًا أساسيًا للتلقي الخوارزمي والنقد الميتا خوارزمي.

[10] Bucher, Taina. *If...Then: Algorithmic Power and Politics*. New York: Oxford University Press, 2018.

يقدم تصورًا علائقيًا للقوة الخوارزمية ويؤكد ضرورة فهم الأنظمة داخل

العلاقات الاجتماعية والتقنية التي تعمل فيها، ويستفاد منه في مقاومة التصورات الحتمية أو الأسطورية للخوارزمية.

[11] Hallinan, Blake & Striphas, Ted. "Recommended for You: The Netflix Prize and the Production of Algorithmic Culture." *New Media & Society*, Vol. 18, No. 1, 2016, pp. 117–137. DOI: 10.1177/1461444814538646.
يمثل مرجعًا أساسيًا لمفهوم الثقافة الخوارزمية ولتحليل الطريقة التي تتحول بها التفضيلات والذائقة الثقافية إلى مواد للتصنيف والتوصية والتوقع.

[12] Jenkins, Henry. *Convergence Culture: Where Old and New Media Collide*. New York: New York University Press, 2006.
يقدم مفهوم الثقافة التشاركية وتحول الجمهور من موقع الاستقبال وحده إلى المشاركة في التداول والإنتاج، ويستفاد منه في بناء مفهوم القارئ المنتج وفي دراسة العلاقة الجديدة بين الإنتاج والتلقي.

[13] Pianzola, Federico. *Digital Social Reading: Sharing Fiction in the Twenty-First Century*. Cambridge, MA: MIT Press, 2025.
يقدم دراسة واسعة للقراءة الاجتماعية الرقمية والممارسات التي تجمع التلقي والتعليق والمراجعة والمشاركة عبر المنصات، ويشكل خلفية لفهم القارئ الاجتماعي والمنتج داخل المنظومة الهجينة.

[14] Long, Duri & Magerko, Brian. "What Is AI Literacy? Competencies and Design Considerations." In *Proceedings of the 2020 CHI Conference on Human Factors in Computing Systems*. New York: ACM, 2020, pp. 1–16. DOI: 10.1145/3313831.3376727.
يقدم إطارًا للكفايات اللازمة لفهم أنظمة الذكاء الاصطناعي والتفاعل معها وتقييمها نقديًا، ويستفاد منه في تأسيس الكفاية الخوارزمية والميتا خوارزمية للقارئ.

[15] UNESCO. *Recommendation on the Ethics of Artificial Intelligence*. Adopted by the General Conference of UNESCO at its 41st session, Paris, 23 November 2021.
يمثل إطارًا مرجعيًا دوليًا لمبادئ الخصوصية والشفافية والمساءلة والعدالة

والإشراف البشري في أنظمة الذكاء الاصطناعي، ويستفاد منه في تأصيل البعد الأخلاقي لمبدأ بقاء المسؤولية البشرية.

[16] Weiser, Mark. "The Computer for the 21st Century." *Scientific American*, Vol. 265, No. 3, September 1991, pp. 94–104.
يمثل أحد الأعمال المؤسسة لفكرة الحوسبة المنتشرة التي تتراجع فيها مركزية الجهاز الظاهر كلما اندمجت الحوسبة في البيئة، ويستفاد منه في بناء الأفق الاستشرافي للقراءة والنقد ما بعد الخوارزميين.

[17] Moretti, Franco. *Distant Reading*. London/New York: Verso, 2013.
يمثل مرجعًا أساسيًا في التفكير في التحليل الأدبي واسع النطاق والانتقال بين مقاييس القراءة، ويستفاد منه في تأسيس النقد الهجين الذي يجمع القراءة القريبة والتحليل الحسابي دون جعل أحدهما بديلًا عن الآخر.

[18] Manovich, Lev. *The Language of New Media*. Cambridge, MA: MIT Press, 2001.
يقدم إطارًا مهمًا لدراسة الواجهة وقاعدة البيانات ومنطق الوسائط الجديدة، ويستفاد منه في فهم الانتقال من الصفحة إلى البيئة البرمجية التي تصبح فيها الواجهة جزءًا من شروط الوصول إلى النص والتفاعل معه.

[19] Bender, Emily M.; Gebru, Timnit; McMillan-Major, Angelina & Shmitchell, Shmargaret. "On the Dangers of Stochastic Parrots: Can Language Models Be Too Big?" In *Proceedings of the 2021 ACM Conference on Fairness, Accountability, and Transparency (FAccT '21)*. New York: ACM, 2021, pp. 610–623. DOI: 10.1145/3442188.3445922.
يقدم نقدًا لمخاطر النماذج اللغوية الكبيرة وبياناتها وللميل إلى إسناد فهم إنساني إلى الطلاقة اللغوية، ويشكل خلفية ضرورية للتمييز الذي يدافع عنه الكتاب بين التجربة التأويلية البشرية والتوليد اللغوي الاصطناعي.

كلمة أخيرة إلى القارئ المحترم:

أضع بين يديك، أيها القارئ، هذه الدراسة وأنا أدرك أن الأسئلة التي فتحتها أوسع من أن يحسمها كتاب واحد، وأن العلاقة بين الإنسان والنص والخوارزمية والذكاء الاصطناعي ما تزال في طور تشكل سريع يفرض علينا أن نعيد النظر باستمرار في مفاهيم القراءة والتلقي والتأويل. وما سعيت إليه هنا هو أن أقترح إطارًا أوليًا لفهم هذا التحول، وأن أضع مفهوم القارئ الهجين في قلب نقاش أراه ضروريًا لمستقبل النقد والثقافة والمعرفة.

لقد حاولت أن أدافع، طوال صفحات هذا الكتاب، عن فكرة بسيطة في ظاهرها وعميقة في نتائجها: التقنية تستطيع أن توسع قدراتنا على القراءة، لكنها لا ينبغي أن تعفينا من مسؤولية القراءة نفسها. يمكن للآلة أن تلخص وتترجم وتقارن وتشرح وتقترح، لكنها لا تستطيع أن تحمل عنا مسؤولية الحكم الذي نصدره، ولا التجربة التي ندخل بها إلى النص، ولا ذلك القلق الإنساني الذي يجعلنا نعيد قراءة الجملة نفسها لأن شيئًا فيها مسّ ذاكرتنا أو هز يقيننا أو غير نظرتنا إلى العالم.

لهذا لا أريد للقارئ الهجين الذي اقترحته أن يكون قارئًا تابعًا للآلة، كما لا أريده قارئًا خائفًا منها، بل قارئًا يعرف متى يستعين بها ومتى يعترض عليها، متى يطلب منها أن توسع احتمالاته ومتى يعود إلى النص وحده، ومتى يستخدم سرعتها ومتى يتمسك بحقه في البطء والتردد والغموض. فالقراءة، في جوهرها، ليست سباقًا للوصول إلى الجواب، بل تجربة تتكون أحيانًا من الأسئلة التي نبقيها مفتوحة.

وأرجو أن تقرأ المفاهيم التي اقترحتها في هذا المشروع ـ من التلقي الخوارزمي وأفق الانتظار الخوارزمي إلى القراءة الميتا خوارزمية والقراءة ما بعد الخوارزمية والسيادة التأويلية ـ باعتبارها دعوة إلى البحث والنقاش والاختبار، لا باعتبارها أحكامًا نهائية. فكل نظرية حية ينبغي أن تكون قابلة للتعديل، وكل مفهوم جدير بالبقاء هو الذي يستطيع أن يحتمل الاعتراض عليه وأن يفتح أمام الباحثين أسئلة جديدة.

وأنا أختم هذا المشروع، لا أودع القارئ بقدر ما أضع بين يديه سؤالًا سيظل، في تقديري، أكثر أهمية كلما ازدادت قدرات الذكاء الاصطناعي :ماذا ينبغي لنا أن نمنح الآلة من وظائف القراءة، وما الذي ينبغي أن نحتفظ به لأن التخلي عنه سيغير معنى أن نكون قراء؟

إذا استطاع هذا الكتاب أن يجعل قارئًا واحدًا يتوقف أمام جواب آلي ويسأل عن مصدره، أو يعود إلى النص قبل أن يقبل تفسيرًا جاهزًا، أو يخرج من توصياته ليكتشف كتابًا لم تتنبأ به الخوارزمية، أو يدرك أن استقلاله لا يعني رفض التقنية بل القدرة على مساءلتها، فسأعتبر أن هذه الصفحات قد حققت جانبًا أساسيًا من غايتها.

فالآلة قد تساعدنا على قراءة نصوص أكثر، لكنها لن تعفينا من المسؤولية الأهم :أن نظل نحن من يقرر ماذا تعني لنا القراءة، ولماذا نقرأ، وأي قارئ نريد أن نصبح.

عبده حقي

الفهرس